

المصائب الساطعة: الدُّنُوْرُ

تفسير أهل البيت عليهم السلام

الامام الرهادي الى الحق يحيى بن الحسن عليه السلام
(٢٤٥ هـ) (٢٩٨ هـ)

الامام محمد بن القاسم عليه السلام
(٢٨٤ هـ)

الامام القاسم بن ابراهيم عليه السلام
(٢٤٦ هـ) (١٩٦ هـ)

الفاحة - المنافقون

جَمْعٌ وَتَأْلِيْفٌ

العلامة عبد الله بن أحمد بن ابراهيم الشَّرفي (١٠٦٢)

الجزء الأول

تحقيق

عبد السلام عباس الوحيه

محمد قاسم الهاشمي

اشرف عليه

السيد العلامة صلاح بن محمد الهاشمي

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية - صنعاء

مكتبة الحقوق محفوظة وسجلت

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الطبعة الثالثة

١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م

منشورات

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية - صنعاء

ت: ٥١٣١٥٠

مقدمة

محمد قاسم الهاشمي

الحمد لله الذي هدانا بكتابه إلى الصراط المستقيم وفضلنا على كثير ممن خلق بما منحنا من الأفهام والعقول لتدبر آياته وبيناته .

وصلّى الله على سيدنا محمد المنزل عليه ﴿إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾ وعلى آله قرناء الكتاب وسلم تسليماً كثيراً .

كم هو ممتع أن يرتع الإنسان في رياض القرآن وأن يعيش معه بكل جوارحه وأحاسيسه بحثاً واستقراءً وتتبعاً وكشفاً لكل معاني العظمة التي يحملها هذا الكتاب المقدس الخالد بين جوانحه .

إن الساعات الطويلة والأيام بل الأشهر المتتابة العديدة التي قضيناها في إعداد هذا الكتاب للطبع هي أوقات نادرة شعرنا فيها بالرضاء وادركنا السعادة ونحن نعمل لكي تخرج هذه الكنوز التي حوتها طيات هذا المجموع لاستفيد منها الأمة الإسلامية .

بل إننا نعدّها أعلى أيام حياتنا وأسعدها ونحن نرتع في رياض القرآن .

وحفظ الله شيخنا ووالدنا العلامة صلاح بن محمد الهاشمي فقد كانت دروس التفسير لديه روضة من رياض الجنة رتّعنا في حديقته الغناء التي لم ييخل بكل جهده أن يقدمها لنا فشفاه الله وحفظه وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء .

القرآن هو دستور الأمة الإسلامية والمعجزة العظمى والخالدة لنبي البشرية محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وآله .

فلا غرو أن يحاول المسلمون جاهدين تبیین معاني القرآن وتوضيح ما خفي فهمه ، بل يتنافس علماء الأمة في إبراز مكنون جواهر ودرر هذا الدستور الخالد الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا تنفذ غرائب ، ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه قد أحاط بجميع علومه ومعانيه .

فلا يزال على مر الدهور يدهش العقول ، ويخر له أساطين العلوم خاضعين ، تأخذهم الرهبة والهيبة من هذا الكلام السماوي مُقَرِّين بالضعف البشري عن سبر أغواره وادعاء الإحاطة بجميع معانيه .

ولما كان القرآن حَمَّالَ أوجه، ومنه المحكم والمتشابه، والمجمل والمبين، والناسخ والمنسوخ، والظاهر والمؤول، وما يحتمل معنى وما يحتمل معنيين أو أكثر.

وكان كل من يتدبر القرآن يفهم منه بقدر ما لديه من معارف وعلوم - عمد علماء المسلمين إلى توضيح دلائله، وتبيين معجزاته وأحكامه، بدأ بالربيع الأول من أصحاب رسول الله، وخصوصاً أهل بيت النبوة عليهم السلام إقتداء برسول الله الذي كان يوضح معانيه بعد تعليم الله إياه، وضمان حفظه وبيانه بقوله تعالى ﴿ثم إن علينا بيانه﴾.

وكان لا بد أيضاً من التبيين والتوضيح، والرد للمفاهيم المغلوطة والتفسيرات التي لا تتفق مع روح القرآن ومضمونه، سواء كانت ناتجة عن عدم الفهم، أو كانت معقودة لغرض التشكيك في العقيدة الإسلامية، أو ناتجة عن اهواء النفوس المردية، أو صادرة عن تراكم عقائد فاسدة.

ولما كانت بقية العلوم الإسلامية عالية على علم التفسير الذي به تُفهم الأحكام الشرعية والمسائل الاعتقادية وسائر علوم الشريعة الإسلامية أصبح علم التفسير لازماً لكل من يريد فهم الإسلام في كل مجال من مجالاته.

فأسهم علماء أهل البيت وعلماء الزيدية في هذا المجال، وكان لهم الدور البارز والمتميز في تفسير القرآن ووضع المعايير والأسس.

بل كان كل علماء هذا الفكر الأصيل التابع من دوحة النبوة لهم الاهتمام الكبير بالقرآن وعلومه كما هو شأن العلماء المخلصين.

فوضعوا الأسس والمعايير لمن أراد فهم كتاب الله وتفسيره تفسيراً يليق بجلالة وعظمة هذا الدستور الخالد الباقي المحفوظ المعجز، الذي بهر الأجيال الغابرة، وتنحي وتخضع له الأجيال الحاضرة والمستقبل.

ولا يخفى أنه كان لتغيب بعض الأسس إسهام في الانحراف والتشويه والاعتقادات الفاسدة التي جرت على المسلمين الكثير من الويلات والتمزق والاختلاف.

وكانت أبرز هذه الأسس التي يوضحها ويبرزها هذا الكتاب الذي بين أيدينا واعتمدها أئمة الفكر الزيدي وعلماءه هي:

١ - تفسير القرآن بالقرآن فما أجمل وخفي في موضع فقد فصل وبين في موضع آخر ومما اختصر في موضع فقد مبسط في موضع.

٢ - تفسير القرآن بما ورد عن رسول الأمة صحيحاً ثابتاً.

٣ - تفسير القرآن بما ورد عن العرب وما تداولته على ألسنتها فهو كما قال الله بلسان عربي مبين ولهذا خاطبهم به وكلفهم فهمه وتحداهم بأن يأتيوا بمثله.

٤ - إعمال العقل فهو الحجة الثالثة من حجج الله على المكلفين وهي الكتاب

والسنة والعقل وهذه الحجج الثلاث لا يمكن أن تتعارض أو تتناقض .
وقد كان لتغيب دور العقل وإغفاله الدور الأكبر في انحراف مسيرة الأمة، وسبب
في كثير من الاعتقادات الفاسدة .

هذه الأسس الأربعة ركيزة علم التفسير .

وقد كانت الجوانب التي بحثت في علوم القرآن في الفكر الزيدي كثيرة منها :
القرآت من حيث صحتها، وموافقها للغة العربية، وتبيين الوجه في ذلك، وتوضيح
الشاذ منها من غيره، وما هو الذي يصح أنه قرآن، والذي يحتمل أنه تفسير، ثم أوجه
إعرابها، والأحكام المستنبطة منها بحسب اختلاف القرآن .
وشمل بحثهم أيضاً أسباب النزول، وأوقاته، ومواضعه، وما هو المقصور منها
على سببه، وغير المقصور، ومواضع فواصل السور والآيات، وتبين المكي منها
والمدني .

تبين الآيات المحكمة والمتشابهة وتوضيحها وكيفية رد المتشابه إلى المحكم .
توضيح العام والخاص والظاهر والمؤول والمجمل والمبين وغير ذلك .
الاهتمام بالجانب اللغوي والنحوي والصرفي وتبع كلام العرب والاستشهاد
بأقوالهم .

أما الجانب البلاغي فأمر ملموس مشهور لا يخفى .
التتبع والاستشهاد بأقوال السلف وما يؤثر عنهم .
وكذلك ما أثر عن علماء الأمة الإسلامية، والاطلاع الكامل على أقوالهم وآرائهم
والاستفادة منها ومناقشتها .

لقد بحث الفكر الزيدي في جميع علوم القرآن، واستنبط الأحكام فخرج بحصيلة
علمية واسعة متميزة، تشمل جميع جوانب الفكر والحياة التي جاء الاسلام لتوضيحها
وبيانها .

ومما يعكس مدى حرص الفكر الزيدي وعلمائه واهتمامهم بالقرآن وعلومه، هو ما
بين يدي الآن مما جمعه الأخ العلامة عبد السلام الوجيه من تراجم لعلماء الزيدية
المفسرين ومؤلفاتهم، التي تبلغ أكثر من مائة شخصية علمية مفسرة، وأكثر من مأتي كتاب
في شتى نواحي المعارف القرآنية .

التعريف بالكتاب

هذا الكتاب الذي تقدمه للأمة الإسلامية هو ما حرص جامعہ رحمہ اللہ علی أن یجمع فیہ الهدایة العظیمة وذلك بالسیر علی نهج البیت النبوی والاغتراف من معین العلم الصافی وهو ما حرص علی ذكره فی أوائل المقدمة التي وضعها .

وقد بین الطریقة التي اتبعها أهل البیت علیہم السلام ومن سار علی نهجهم ، وأنه یجب علی الأمة أن یكونوا مع هؤلاء الصادقین .

ولقد حاول جاهداً أن یجمع ما تيسر له من تفسیر الأئمة العظام الذین كان لهم الدور البارز فی اصلاح هذه الأمة وخصوصاً الإمامین القاسم بن إبراهیم ، والهادی إلى الحق علیہما السلام فكان تصدیر هذا التفسیر بما وجده من تفسیر لهما ولأولادهما اجلاً لهما هؤلاء الأئمة ولدورهم الجهادی الذی كان شمساً مضيئة فی تاریخ هذه الأمة الاسلامیة ولإنشغال هؤلاء الأئمة بالجهاد ونشر تعالیم الدین ، والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر ، لم یتمکن أحدهم من إكمال تفسیر للقرآن بأكمله .

ولأنهم یعرفون أن وقتهم لیس ملكاً لهم ، وحرصاً علی الانتفاع الشامل لكل أفراد الأمة فقد خالفوا عادة المفسرین وكانت البداية من قصار السور (أي من أواخر القرآن) لأنه الأكثر تداولاً بین الناس فی صلواتهم وتعلمهم .

ثم حرص كل واحد منهم أن یتم ما بدأه السابق وأن تكون البداية من حیث انتهى سلفه ، وقد بین ذلك كله جامع هذا الكتاب رحمہ اللہ والأئمة المفسرون كما ستطلعون علیہ .

ثم التزم جامع الكتاب هذا النهج والتزم أيضاً بتتبع تفاسیر أئمة أهل البیت علیہم السلام ، والعلماء السائرین علی نهجهم ، فإذا لم یعثر علی بغیته فیما لديه - أتى بأقوال علماء الأمة الاسلامیة الذین بنوا تفسیرهم للآیات التي نقلها عنهم علی النهج العلمی الواضح الذی اتبعه أئمة الزیدیة وعلمائوها .

ابتدأ جامع هذا التفسیر ومؤلفه رحمہ اللہ بتفسیر القاسم علیہ السلام والذی بدأ بالفاتحة ثم سورة الناس وینتهي بسورة الضحی مسلسلاً ثم یلیه تفسیر ولده محمد بن القاسم علیہ السلام من سورة البلد إلى آخر سورة النازعات ، ولالإمام القاسم حضور أيضاً

في تفسير هذه السور .

يأتي بعد تفسير هذين الإمامين تفسير الإمام الهادي يحيى بن الحسين عليهم السلام من سورة النبأ إلى آخر سورة المنافقين هذا ما وجدته المصنف من تفسير هؤلاء الأئمة مسلسلًا تامًا .

ثم انه التزم بنقل كل ما عثر عليه من تفسير لهم متفرقاً في السور والآيات عند إكماله لتفسير القرآن كاملاً .

رحلتي مع الكتاب

لقد بدأت رحلتي مع هذا التفسير منذ زمن بعيد وكانت بدايته وأنا أطلع في الأجزاء الأخيرة من الكتاب، والتي كان ينقصها الأجزاء الأول منه بعد مطالعتي للطريقة التي أتبعها المصنف في تنزيه نبي الله يوسف عليه السلام من المعصية، وما نقله عن الرازي من انه قد شهد الله وملائكته ويوسف والعزیز وامراته وابن عمها حتى الشيطان قد نزه يوسف من المعصية بقوله إلا عبادك منهم المخلصين، وقول الله في يوسف صلى الله عليه في آية أخرى (إنه كان من المخلصين) إلا هؤلاء الذين نسبوا ليوسف أشياء يُستَحَى أن تنسب لبعض العصاة .

ثم اكملت الأجزاء المتبقية من هذا الكتاب من لدن سيدي العلامة محمد عبد العظيم الهادي حفظه الله .

بعد ذلك بدأت المحاولة في طبع الكتاب وتحقيقه فطبع جزءاً منه على كمبيوتر صخر عند بداية ظهور هذا النوع من الأجهزة .

ولم اقتنع بتلك الطباعة فبدأت في صفه على كمبيوتر شخصي ولكن ببرنامج قديم MLS . ووصلت في الصف إلى سورة ق . اضطررت بعدها لشراء برنامج ابجد لإخراج الكتاب في صورة أفضل .

ولما لم استطع التعامل معه بدأت في صفه مرة ثالثة على برنامج Word .

ولولا تشجيع الكثير من الأخوة في اليمن وغيره حفظهم الله على اخراج هذا الكتاب لكنا قد أصبنا بالإحباط من كثرة العوائق ولما استطعنا إخراجه إلى النور .

ثم استعد الأخ عبد السلام الوجيه حفظه الله بالمشاركة والتعاون فسلمت له نسخة من المصنوف قام بالمقابلة لها على المجموع المخطوط، وخرج الكثير من الأحاديث وتراجم للرجال، وكنا قد أعدنا خطة عمل وهي أن نضيف عدة تفاسير في الحاشية منها :

١ - تفسير غريب القرآن . للإمام زيد .

٢ - تفسير البرهان لابي الفتح الديلمي .

- ٣ - تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني .
- ٤ - ما وجدنا في تفسير للإمام علي والإمامين الحسن والحسين عليهم السلام .
- ٥ - مباحث التنزيل لحبي بن الحسين العلوي .
- ٦ - ما وجد من تفسير للإمام الهادي والقاسم أو لبقية أهل البيت وعلماء الزيدية لم يذكر في الكتاب .

ولكن كما يقال (تجري الرياح بما لا تشتهي السفن) فالعوائق أصبحت سمة ملازمة لنا والأخ عبد السلام الوجيه اصابه المرض نسأل الله له العافية التامة والاجر الجزيل .
ومع إلحاح الأخوة الذين يهمهم اخراج هذا الكنز كان القرار بأن نقدم هذا الجزء كما تيسر لنا الآن، مع انا نعترف بأننا لم نوفه حقه ومع استكمال بقية الأجزاء وإمدادنا من قبل المطلعين بمحال القصور سنعمل إنشاء الله على تلافي الأخطاء، وجوانب نقص عملنا في هذا الكتاب .

بعد إدخال التصحيحات الأولى من المجموع المخطوط كما ذكرت جرى ادخال بعض الحواشي والتراجم وعمل على تصحيح الكتاب ومقابلته على مخطوطتين .
رمزنا للأولى بالنسخة (أ) .

والثانية بالنسخة (ب) .

ولكون النسخة (أ) كانت اصح من النسخة (ب) فقد اعتمدناه مع اضافات ما في المجموع المخطوط .

ولتصحيح بعض النصوص من النسخة (ب) . .

وقد جعلنا الزيادات بين اقواس زيادة وما لم نذكر المصدر فهو من المجموع المخطوط .

كما ان للوالد العلامة صلاح بن محمد الهاشمي وتشجيعه بل مقابلته لأجزاء من هذه النسخ رغم مرضه شفاه الله منه الأثر الكبير في اخراج هذا الجزء إلى حيز الوجود .

جوانب العظمة في هذا الكتاب .

لا بد لكل من اطلع على هذا التفسير أن يلاحظ الجوانب العلمية التي بني عليها هذا الكتاب وان اعتماده على لغة العرب ولسانها الذي نزل القرآن به والاستشهاد بأقوال العرب وما تنطق به هو السمة البارزة والمنهج الواضح . ثم الحضور البارز لإعمال العقل والفكر والتدبر للخروج برؤية واضحة ومعاني تتفق مع الفطرة السليمة التي وهبها الله لأصحاب العقول النيرة .

والبعد عن كل ما هو دخيل على معاني القرآن من الاسرائيليات، ومناقشة

التفسيرات المغلوطة، وتوضيح الحق بأسلوب علمي متميز.

من خلال معاشتي لعلم التفسير وجدت في هذا التفسير وبعض تفاسير علماء الزيدية توضيحاً لأشياء كانت ولا زالت محل نقاش، بل وجود إصرار من الكثير على إبقاء أفهامهم محدودة غير متجاوزة للمشاهد المحسوس أو الاكتفاء بما رواه بعض المفسرين من غير نظر لصحة التفسير ومطابقته للواقع.

وأنا أذكر مثالين لذلك:

الأول: في تفسير ﴿والنازعات غرقا والناشطات نشطا﴾ فقد ذكر الإمام القاسم وولده محمد عليهما السلام قالا: (النازعات) فيما أرى - والله اعلم فهن السحاب المنتزعات لماء الأمطار من البحار والأنهار ومما في الأرض من الندوة والبحار.

وهذه الحقيقة طالما سمعنا الكثر ينفونها بل لا يسلم قائلها من التشكيك في إيقانه وأنه أصبح العوبة للمناهج الفكرية الحديثة.

والإمام القاسم لم يكتف بالتدليل اللغوي بل ذكر أن ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (وكذلك صح في الروايات والأخبار).

الثاني: ما وجدته في تفسير الحاكم الجشمي المحسن بن كرامه في تفسير قوله تعالى في سورة الكهف (فلما بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة).

بعد أن سرد اقوال المفسرين بأنها تغرب في ماء وطين، وفي ماء اسود، وفي ماء عكر - ذكر: بأن المراد أنه لما بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب (في عين) أي: ذات؛ لأنه يقال: عين الشيء أي ذاته ومعنى (حمئة) أي حامية حارة لم يخب لهيبتها ولم ينطف ولم يَخِفْ ضوءها كما يتراءى للرائي بأنه قد ضعف ضوءها وخف نورها).

أي: أنه وجدها تغرب في هيئتها الكاملة كما هي وقت الزوال، وأن عينها أي ذاتها لا زالت كما هي عليه وقت اشتدادها. لم تتغير ولم تتبدل كما قد توهم الرائي.

اخيراً أسأل الله العالي القدير أن يأخذ بأيدينا إلى ما فيه الخير وأن يجعل الأعمال خالصة لوجهه الكريم ولسنا في غنى عن النصح وتبيين أوجه القصور منا وسنعمل انشاء الله لتلافي أخطائنا في بقية الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

بيروت في ٢ / ٥ / ١٤١٧ هـ

١٩٩٧/٩/٤ م

المؤلف

عبد السلام عباس الوجيه

هو السيد العلامة الأديب المتكلم الفاضل الناسك عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن علي بن محمد بن صلاح بن أحمد بن محمد بن القاسم بن الأمير داود ابن المترجم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم بن سليمان بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن القاسم الحواري بن محمد بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب الحسني والقاسمي المعروف بالشرفي .

نشأ وترعرع في شهره وعده الجرموزي مؤلف النبذة المشيرة في سيرة القاسم بن محمد عليه السلام في الطبقة الثانية من أصحاب القاسم بن محمد عليه السلام الذين نبّلوا في خلافته وكانوا عيوناً في أيامه وأيام أبنائه؛ ولعله شهد في وقت مبكر من حياته فتح الإمام القاسم لمدينة شهره سنة ١٠٠٦ هـ وكان مع من أسهموا في بناء المسجد الجامع بشهره سنة ١٠١٥ هـ الذي بلغ طلبة العلم به (٨٠٠) طالب استقروا فيه حتى وفاة الإمام القاسم عليه السلام سنة ١٠٢٩ هـ وكان من أنبل الطلبة في شهره ثم من عيون العلماء في عصر الإمام القاسم بن محمد وعصر المتوكل على الله إسماعيل وصف بأن له في العلم الحظ الأوفر .

شيوخه:

قرأ المؤلف على الإمام الشهير القاسم بن محمد بن علي مؤلفه الأساس في أصول الدين وغيره وأجازه جميع مروياته ومؤلفاته ومستجازاته، وكان من تلامذة القاسم النابهين، الذين استفادوا وتعلموا فعملوا وعلموا، وجعلوا رسالتهم خدمة العلم .

ومن شيوخه السيد العلامة الأصولي الأديب المؤرخ الفقيه الشهير أحمد بن محمد الشرفي، صاحب المؤلفات الكثيرة التي من أشهرها شرحا الأساس الصغير والكبير، واللالء المضئية في تاريخ الأئمة الزيدية، قرأ عليه المؤلف شرح الأساس، وسمع عليه

الأحكام للإمام الهادي عليه السلام .

كما روى عن العلامة الناصر عبد الحفيظ بن المهلا مؤلفه المحرر المختصر من المقرر إجازة، وأخذ عن غيرهم من عيون علماء العصر في شهاره عاصمة الإمام القاسم بن محمد وإبته الإمام المؤيد بالله عليهما السلام .

تلاميذه:

تفرغ المؤلف لخدمة العلم الشريف تدريساً وتأليفاً ووهب نفسه لهذا الهدف الجليل، وكان من كبار المدرسين في شهاره، درس عليه مؤلفه المصابيح وغيره من الكتب مجموعة من طلبة العلم الشريف .

قال في طبقات الزيدية: وأخذ عنه جماعة، منهم: السيد عامر بن عبد الله مما سمع عليه مؤلفه في التفسير، والسيد علي بن عبد الله بن أمير الدين وغيرهما .

قال تلميذه عامر بن عبد الله: ومن مسموعاتي المصابيح في التفسير للسيد العالم الحافظ الجليل عبد الله بن أحمد، فإني أرويه عنه قراءةً من أوله إلى آخره، وهو ستة أجزاء، جمع فيه تفسير أئمة آل محمد عليهم السلام .

قال في السيرة: وهذا التفسير المسمى بالمصابيح الصادرة الأنواع المجموعة من تفسير الأئمة الأطهار ابتدئ فيه بآخر القرآن عكس المؤلفين [قلت: بل تبعاً لما درج عليه الأئمة القاسم والهادي والحسين بن القاسم العياني عليهم السلام] ثم قال: وهذا التفسير قليل الوجود لمثله إنما هو نصوص الأئمة وتفسيرها، وكتابه يدل على تمكن في العلوم، وإطلاع على أقوال الأئمة عليهم السلام .

وفي ترجمة السيد عامر من الطبقات قال السيد عامر: ومن مسموعاتي المصابيح للسيد عبد الله الشرفي فإني أروي عنه قراءة من أوله إلى آخره، وكتاب حديقة الحكمة أرويه قراءة على السيد عبد الله بن أحمد الشرفي، وكذلك كتاب الأحكام أرويه أيضاً على شيخنا، وكتاب المحرر المختصر من المقرر إجازة، وقراءة، وهو يرويه عن مؤلفه قاضي القضاة ناصر المدلا .

وفي ترجمة السيد علي بن عبد الله بن أمير الدين بن عبد الله بن نهشل قال صاحب الطبقات: ولما طلبت منه إجازة قال ما لفظه: فإنه طلب مني الولد إبراهيم بن القاسم المؤيد - أن أجزئ له من مسموعاتي عن الشيوخ ممن اخذت عنهم من الكتب وسمعتهم عليهم، أول ذلك في أصول الدين الأساس وشرحه عن السيد الجليل الوالد عبد الله بن أحمد الشرفي .

وفي ترجمة العلامة أحمد بن ناصر المخلافي قال: ومن جملة مسموعاتي أوائل كتاب المصابيح في التفسير للسيد عبد الله بن أحمد الشرفي وخطبته، وتفسير الفاتحة وما

بعده إلى الضحى بإملائي لذلك على سيدي أمير المؤمنين المؤيد بالله محمد بن المتوكل على الله اسماعيل في بلد معبر، وإجازته لباقي الكتاب مناولاً.

لقد عاش المؤلف حياة خالصة للعلم، وعاصر نجوم العلماء وكان من أقرانه الذين درسوا معه في حلقة القاسم بن محمد الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم، وعمالقة العلماء أمثال السيد العلامة الحسن بن شرف الدين وصالح بن عبد الله الغرباني، وعلي بن صلاح العبالي، وأمير الدين بن عبد الله بن نهشل، وأحمد بن محمد الشرفي، ومحمد بن علي عشيش الحوثي، وعلي بن إبراهيم الحيداني، والحسين بن علي الجحافي، وصالح بن عبد الخالق الجحافي، وعبد الله والحسن والحسين أبناء محمد المحرابي، وناصر بن محمد القاسمي، وعامر بن محمد الزماري وسعيد بن صلاح الهبل، وعبد الهادي بن أحمد التلائي، والحسن بن سعيد اليزدي، وعلي بن الحسين المسوري، والعلامة أحمد بن سعد الدين المسوري، وعشرات غيرهم.

وكان عالماً فاضلاً ديناً سكن شهارة، ولم يزل بها مقيماً على التدريس، والإحياء لعلوم الدين، معروفاً بالصلاح والفضل، محترماً من أعيان علماء وحكام عصره، حتى توفاه الله في يوم الإثنين قبيل الزوال لاثني عشرة ليلة مضت من صفر الخير عام (١٠٦٢ هـ) وقبره في ذي الشرفين بجانب الباب الغربي للمسجد.

قلت: ومقبرة ذي الشرفين هي مقبرة صغيرة يتوسطها مسجد خرب، قبر فيها مشاهير العلماء منذ تأسست شهارة، منهم: الأمير ذو الشرفين الذي سميت باسمه، وتقع وسط مدينة شهارة ما بين الجامع الكبير والبركة المشهورة (الحسني) شمالاً تجاورها دار المؤيد الشهيرة، وغرباً الطريق إلى الجامع، وجنوباً مقبرة أبي طالب، ودار سعدان، وممن قبر في هذه المقبرة من معاصريه العلامة صالح بن عبد الله بن علي الغرباني المتوفي سنة ١٠٤٨ هـ، العلامة الحسن بن شرف الدين بن صلاح المتوفي سنة ١٠٢٨ هـ، العلامة محمد بن الحسن بن شرف الدين بن صلاح المتوفي سنة ١٠٦٣ هـ، العلامة محمد بن صالح بن عبد الله بن الغرباني سنة ١٠٢٩ هـ، العلامة صالح الدين بن صالح بن عبد الله حنش المتوفي سنة ١٠٢٩ هـ.

هذه خلاصة المعلومات التي أوردها مترجموه ومن مصادر ترجمته:

- ١ - أعلام المؤلفين الزيدية (تحت الطبع).
- ٢ - طبقات الزيدية القسم الثالث صفحة ٩٣ (خطية).
- ٣ - سيرة الإمام القاسم (النبة المشيرة) خطية ص ٥٥.
- ٤ - تحفة الاسماع والأبصار (سيرة المتوكل على الله إسماعيل) خطية.
- ٥ - التحف شرح الزلف الطبعة الثانية ص ٢٣١.

- ٦ - ملحق البدر الطالع ١٢٦ .
- ٧ - معجم المؤلفين ٢٠ / ٦ .
- ٨ - الجواهر المضيئة خطية ص ٥٥ .
- ٩ - معجم المفسرين (المستدرك) ٨٣ / ٢ .
- ١٠ - مصادر التراث في المكتبات الخاصة باليمن (تحت الطبع) .



المفسرون في هذا الجزء

إشتمل هذا التفسير على :

تفسير ثلاثة من الأئمة هم : الإمام القاسم بن إبراهيم ، الإمام محمد بن القاسم والإمام الهادي وهذه تراجم مختصرة لكل منهم .

١ - الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي : (١٩٦هـ - ٢٤٦هـ)

الإمام القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) أبو محمد المعروف بالرسي ، أحد عظماء الإسلام ، ونجوم آل الكرام ، مولده بالمدينة ، ونشأ في أحضان الفضيلة يطلب العلم عند أكابر علماء أهل البيت عليهم السلام ، حتى فاق أقرانه فكان فقيهاً ، محدثاً ، مناظراً شاعراً ، زاهداً ، ورعاً ، شجاعاً ، سخيّاً ، ثائراً في الله ، وهو أحد الدعاة إلى بيعة أخيه الإمام محمد بن إبراهيم في مصر ، بقي مختفياً بها مدة عشر سنوات ، والمأمون يجد في طلبه ، ولما توفي أخوه محمد بالكوفة سنة ٢١٨هـ نهض القاسم عليه السلام بأمر الإمامة ، وسميت بيعته البيعة الجامعة ؛ لإجماع وجوه أهل البيت (ع) عليها سنة ٢٢٠هـ في عهد المعتصم العباسي ، ولما عاد إلى الحجاز إشتهر أمره وطار صيته فطاردته جيوش العباسية في اليمن والحجاز ، وأضطر إلى الاختفاء ثانية لم تساعده الإمكانيات في وجه العباسيين فاعتزل واشترى جبلاً قرب المدينة يسمى الرس ، وهو جبل أسود بالقرب من ذي الحليفة على بعد ستة أميال من المدينة ، وإليه ينسب هو وأولاده . وعاش هناك بقية عمره حتى توفاه الله ودفن سنة ٢٤٦هـ وله أخبار طوال في كتب التاريخ ، وقد حفظ لنا من تراثه العظيم وأفكاره النيرة رسائل وكتب . ومن مؤلفاته :

١ - الإحتجاج في الإمام والإمامة .

٢ - الأصول الخمسة .

٣ - أصول العدل والتوحيد ونفي الجبر والتشبيه .

٤ - الإمامة .

٥ - تثبيت الإمامة .

- ٦ - الدليل الكبير على وجود الله .
- ٧ - الدليل الصغير .
- ٨ - تفسير القرآن وهو الذي يتضمنه هذا الجزء من تفسير المصابيح .
- ٩ - الرد على الروافض .
- ١٠ - الرد على الملحدين .
- ١١ - الرد على المجبره .
- ١٢ - الرد على الزنديق بن المقفع .
- ١٣ - سياسة النفس .
- ١٤ - صفة العرش والكرسي وتصريفهما .
- ١٥ - العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الواحد الحميد .
- ١٦ - فرض الله على المكلفين .
- ١٧ - الفرائض والسنن .
- ١٨ - القتل والقتال .
- ١٩ - الكامل المنير في الرد على الخوارج .
- ٢٠ - كتاب الهجرة للظالمين .
- ٢١ - كتاب يرد على النصارى .
- ٢٢ - كتاب المسائل المنثورة (أجاب به على أسئلة ابنه محمد) .
- ٢٣ - المكنون في الآداب والحكم .
- ٢٤ - المسترشد .
- ٢٥ - المديح الكبير للقرآن .
- ٢٦ - المديح الصغير .
- ٢٧ - المصباح ويسمى العالم والوافد، وغيرها من الكتب أنظر عنها وعن تفصيلاتها في أماكن وجودها، أعلام المؤلفين الزيدية، وفهرست مؤلفاتهم تأليف عبد السلام الوجيه (تحت الطبع) .

مصادر الترجمة

أعلام المؤلفين الزيدية - مقدمة كتاب الرد على الملحدين تحقيق محمد يحيى سالم
طبعة أولى ص ٨ - ١٢ - الحدائق الوردية (خ) - المصابيح في السيرة (خ) - مآثر الأبرار

(خ) مقاتل الطالبين (٥٥٣) - أعيان الشيعة ٨/ ٤٣٥ - ٤٣٦ - الأعلام ٦/ ٥ التحف شرح الزلف طبعة ١/ ٣٩ - الزيدية لمحمود صبحي ١١٥ - معجم المفسرين ١/ ٤٣١ عمدة الطالب (٢٠١) - سر السلسلة العلوية (٢٨) - الشافي ١/ ٢٦٢ الجواهر والدرر (مقدمة البحر الزخار) ٢١٨ - رسائل العدل والتوحيد ٢١/ ٢٣ معجم رجال الاعتبار وسلوك العارفين (تحت الطبع) - طبقات الزيدية (خ) - الجداول (خطيه) - الإمام الهادي مجاهداً ووالياً ص ٧٠ - رجال شرح الأزهار.

٢٩ - مصادر التراث في المكتبات الخاصة تحت الطبع وغيرها.

محمد بن القاسم بن إبراهيم المتوفي سنة ٢٨٤ هـ

محمد بن القاسم بن إبراهيم الرسي تقدمت بقية نسبه في ترجمة أبيه وهو عم الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام، عالم، فاضل، مفسر، متكلم، بليغ، مجاهد، عانى كما عانى أبائهم الكرام من ظلم وتعسف ومطاردة وملاحقة بني العباس، وكان يختار البادية على الأمصار، وطاف كثيراً من البلدان، وأقام ببغداد والبصرة، ودخل الأهواز وخراسان والشام ومصر والمغرب، وسكن آخر مدته بالحجاز، ثم خرج مع ابن أخيه الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم (عليه السلام) مشيعاً، ومتابعاً، ومجاهداً في سبيل الله، وكان من جملة أتباعه حتى توفاه الله سنة ٢٨٤ هـ وله مؤلفات منها:

- ١ - الأصول الثمانية مختصر في أصول الدين.
- ٢ - تفسير القرآن الكريم الذي تضمنه هذا الجزء.
- ٣ - تفسير بعض الآيات القرآنية وتفسير سورة يس.
- ٤ - شرح شروط الايمان شرح فيه خطبة الامام علي (بني الايمان على أربع دعائم).
- ٥ - الشرح والتبيين في أصول الدين.
- ٦ - الهجرة - الوصية.
- ٧ - أجوبة على أسئلة في حكاية موسى في القرآن.

مصادر ترجمته:

أعلام المؤلفين الزيدية وفهرست مؤلفاتهم - المستطاب (خطيه) - الجامع الوجيز (خطيه) الإمام الهادي مجاهداً ووالياً وفتياً ص ٧٢.

الإمام الأعظم الهادي يحيى بن الحسين (عليه السلام) (٢٤٥ - ٢٩٨ هـ)

الإمام الأعظم الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الرسي،

أبو الحسين، أحد عظماء الفكر الإسلامي وأعلام أئمة الآل، إمام، مجتهد، مجاهد، عالم، فقيه، زاهد شجاع، متكلم لسن، خطيب شاعر، نشأ في أحضان العلم والعمل والتقوى والجهاد، وترعرع في جبل الرس القريب من المدينة المنورة وأخذ عن علماء ومحدثي الآل وشيعتهم، واشتغل بالعلم من طفولته فظهر نبوغه واشتهر في الآفاق، وراسله أبو العتاهية الهمداني إلى جبل الرس بالمدينة المنورة، ودعاه إلى بلاده، ووفد إليه أكابر رجال اليمن يدعونه إلى الخروج إليهم لإحياء سنة جده المصطفى صلى الله عليه وآله فلبى دعوتهم وخرج إلى اليمن سنة ٢٨٣هـ فأحيا الله به الدين، وخلص به اليمن من القرامطة والفساد والفتن، وأعتبر الرجل الثاني بعد الإمام زيد (عليه السلام) في تجديد مذهب الآل، ولم يزل مجاهداً في سبيل الله مدافعاً عن الحق ناشراً للفضيلة حتى توفاه الله بصعدة سنة ٢٩٨هـ وقبره بها مشهور مزور، أخباره كثيرة ومناقبه وفضائله غزيرة، لا تتسع لها مثل هذه العجالة وفي سيرته كتب وهو صاحب المدرسة المتميزة داخل المذهب المعروف بالهدوي ومن مؤلفاته:

١ - أجوبة مسائل كثيرة منها مسائل أبي الحسين الطبري، ومسائل الأنصاري، ومسائل الرازي، ومسائل الكوفي، ومسائل محمد بن سعيد، ومسائل المرتضى، ومسائل نصارى نجران، ومسائل ابن أسعد، انظر تفاصيلها ومخطوطاتها في أعلام المؤلفين الزيدية.

٢ - إثبات النبوة.

٣ - كتاب الإرادة المشيئة.

٤ - أصول الدين.

٥ - البالغ المدرك طبع مع شرحه للأخ محمد يحيى سالم.

٦ - تثبيت الإمامة.

٧ - تفسير القرآن الكريم قيل أنه في ستة أجزاء وقيل ٩ أجزاء أساسية.

٨ - تفسير العرش والكرسي.

٩ - تفسير خطايا الأنبياء.

١٠ - تفسير معاني السنة.

١١ - جامع الأحكام في الحلال والحرام أشهر كتب الفقه عن الزيدية، طبع في مجلدين فاخرين بسعي وتحقيق الأخ محمد قاسم الهاشمي.

١٢ - كتاب الجملة.

١٣ - الخشية.

١٤ - الديانة والتوحيد.

١٥ - الردود على الإمامية، وعلى ابن الحنفية، وعلى سليمان بن جرير وعلى أهل صنعاء، وعلى أهل الزيف من المشبهين، وعلى المجبرة القدية وعلى غيرهم تضمنها مجموع كتبه أنظر تفصيله في أعلام المؤلفين.

١٦ - كتاب الفنون في أبواب من العلم والفقه وكتاب المنتخب طبعا معاً سنة ١٤١٢هـ كتب كثيرة متفرقة أنظر تفصيلها في أعلام المؤلفين.

مصادر الترجمة

أعلام المؤلفين الزيدية وفهرست مؤلفاتهم (تحت الطبع) - سيرة الإمام الهادي يحيى بن الحسين تأليف علي بن محمد العباسي العلوي طبع سنة ١٩٧٢م بتحقيق سهيل زكار - الإمام الهادي موالياً ومجاهداً وفقياً عبد الفتاح شايق نعمان طبعة أولى سنة ١٤١٠هـ - خلاصة سيرة الهادي (أرجوزة لزباره) طبعت سنة ١٩٥٢هـ - مصادر الحبشي قسم مؤلفات حكام اليمن - الإفادة في تاريخ الأئمة السادة طبع بتحقيق محمد يحيى سالم - المصابيح في السيرة (خطية) - الحدائق الوردية (خطية) الترجمان (خطية) - مآثر الأبرار (خطية) - اللاليء المضيئة (خطية) - المقصد الحسن (خ) التحفة العنبرية (خ) طبقات الزيدية (خ) مطمح الآمال (خ) - يواقيت السير (خ) الجامع الوجيز (خ) - غاية الأمان من أخبار القطر اليماني (١٦٦ - ٢٠١هـ) - إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ٤٢ - الإمام زيد لأبي زهرة (٥٠٩ - ٥١٤) المقتطف (١٠٤ - ١٠٦) الأعلام ٧١/٨ - أئمة اليمن لزيارة - عمدة الطالب ٢٤ - سر السلسلة العلوية. ٢٨ وعشرات غيرها.

صنعاء في ٢٠ - ٨ - ١٩٩٧م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه تفتي ونعم الوكيل ^(١)

[مقدمة]

الحمد لله الذي جعل القرآن نورا هاديا به من ظلمات الضلالة ، ورحمة وشفاء من داء كل عى وجهالة ، ونجاة لمن اعتصم به ، وبأهله الذين دل عليهم بأوضح دلالة وجعله جل وعلا لمن عقل واهتدى دليلا على من إليه هدى ، ومبينا لقدرة من قدره وشاهداً على حكمة من دبره .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في حكمه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله الذين هم عيبة ^(٢) علمه ، اصطفاهم لإرث وحيه فخصهم بفهمه ، واستخراج ^(٣) حكمه ، حين جعلهم ^(٤) حفاظ كتابه وأحكامه وخزان حاله وحرامه ، والمستحفظين على أسرارهم وغوامضه ، والقائمين بنشر مسنونه وفرائضه ، والعاملين بطرق الصواب ، مما اختلف فيه المختلفون ، والمبينين للصحيح الذي تقول فيه المتقولون ، إذ هم الدعوة الباقية في عقب ابراهيم الخليل مهبط التنزيل ، وملجأ التأويل ، ومختلف ميكائيل وجبريل .

وبعد :

فإنه لما كان كتاب الله العزيز كذلك ، وكانت حكمته عز وجل اقتضت إنزاله على

(١) - ب : وبه أستعين .

(٢) - العيبة بالفتح الوعاء ، وهذا المقطع اشارة إلى قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في النهج الخطبة الثانية : وهم موضع سره ، ولجأ أمره ، وعيبة علمه .

(٣) - أ : فخصهم باستخراج .

(٤) - أ : وجعلهم .

الأساليب العربية والمعاني اللغوية ، وفيها العام والخاص والمجمل والمبين ، و الظاهر والمأول ، ومايحتمل وجها ، ومايحتمل وجهين فأكثر ، وماتشابه فيه المعاني وتعدد فيه الوجوه ، ولذلك من لم يتبع سبيل أعلام الهدى ، وأرباب التقى أهل بيت محمد المصطفى ، صلوات الله عليه وعليهم وسلم فسر الكتاب على آرائه ، والحق على أهوائه ، فعمى وعمى على غيره ، وضل وضل غيره بسببه ، وترى المنتصر يصرف الأدلة بمجرد العبارات ، ويتطلب للتأويلات حتى يُقَوِّم الأدلة الى مساق هوى النفس فيقربها إليه ، ويعتمد في دينه ودنياه عليه ، لايلوح لأعين^(١) البصائر فيه إلا كلمعان البروق ، وترقرق فيه لأهل الأهواء والأغاليط أقاويل تروق .

ولقد صدق أمير المؤمنين عليه صلوات رب العالمين حيث يقول^(٢): (سيأتي بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ، ولاأظهر من الباطل ، ولأكثر من الكذب على الله ورسوله ، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته) [يريد عليه السلام إذا اتبع حق اتباعه - كذا عن زيد بن علي عليه السلام]^(٣) ولاأنفق منه إذا حرف عن مواضعه) اهـ.

قال بعض أئمتنا عليهم السلام : والتحريف على وجهين أحدهما : تحريف ماأنزل الله لفظا كما يفعله اليهود .

والثاني : تحريفه تأويلا كما يفعله أهل البدع والأهواء ، فيجب التثبت في ذلك لتلا يضل بضلالهم ، ويجب الإقتداء بمن أمر الله الإقتداء بهم ، والكون معهم من آل رسول الله صلى الله عليه وعليهم السلام ؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أمننا من الضلال مهما تمسكنا بهم ، إذ أخبرنا وهو الصادق في خبره أن المتمسك بهم لن يضل أبدا ، وأن اللطيف الخبير نبأه بذلك

وقال علي عليه السلام : (ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

(١) - ب : لأهل .

(٢) - أ : ولقد قال أمير المؤمنين عليه صلوات رب العالمين .

(٣) - ما بين قوسي الزيادة في ب حاشية ، وليس اصلا .

(إنني لأخاف على أمي مؤمنا ولا مشركا ، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيحرمه الله بشركه ، ولكني أخاف عليكم منافق اللسان يقول ماتعرفون ، ويفعل ماتنكرون) اهـ.

وقد أخبرك الله سبحانه عن المنافقين أنهم [يقولون] ^(١) : يريدون أن يبدلوا كلام الله كما أخبر الله عن من مضى من قبلهم من أهل الكتاب أنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، وعن مواضعه ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، وأنه منعهم عن ذلك بالإعجاز ، وحال بينهم وبين تبديل القول بالحفظ ، وابتلاهم من جهة التأويل ، وأبان حالهم فيه ومقاصدهم إليه .

قال: ﴿ وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأبواب ﴾ ^(٢) وأنه عز وجل بحكمته حفظ التأويل كما حفظ التنزيل ، بتفضيل بعض خلقه في العلم ، كما فضل بعضهم على بعض في الرزق .
وبيان من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، ومن جعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء .

وبيان من اختاره ليترجم عن تأويله ، كبيان اختياره لمن يتحمل عهدة تنزيله ، ممن يفسر بعض القرآن ببعضه ، ويدل على متشابهه بحكمه بنحو قوله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ ^(٣) وتفسيره بقوله عز وجل: ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ ^(٤) فقوله سبحانه: ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ ليس المراد به تعليم الخلق تناسلهم وولادة بعضهم من بعض ؛ لأنه أمر ظاهر معلوم ، وإنما المراد موافقة

(١) - ما بين القوسين غير موجود في ب .

(٢) - آل عمران : ٧ .

(٣) - فاطر : ٣٢ .

(٤) - آل عمران : ٣٣ .

طريقتهم التي لها ولأجلها اختارهم الله تعالى ، فدللت الآية على مزية وخصوصية زائدة على الإيمان والولادة والقربة، وتلك الخصوصية هي موافقة من اصطفاه الله في باب الطهارة والعصمة والكمال والوقار ، واجتماع الخصال التي تسعها النبوة والإمامة، وهذا ظاهر لأنه إذا لم يكن معنى بعضهم من بعض الولادة ، فلا يبقى إلا ما ذكرناه ، وسيأتي بيان ذلك وغيره شافيا إن شاء الله تعالى في مواضعه .

وتعيينه سبحانه باصطفائه محمدا الطاهر أن المصطفين لإرث هذا الكتاب - إذ لا يصدق قوله : ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ على غيرهم - هم ذريته الأخيار ^(١).

يزيد هذا وضوحا قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ ^(٢) ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء من ذريتهما فيجب أن تكون ذريته هم خاتمة الذراري ، الذين أخبر الله أنه يجعل الكتاب فيهم وتعيينه إياها في ولد الحسن والحسين سلام الله عليهما وعليهم بنحو آية المباهلة ونحو خير (كل بني أنثى ينتمون إلى أبيهم ، إلا ابني فاطمة فأنا أبوهما وعصبتهما) ^(٣) والإجماع المعلوم بين الأمة.

قال الإمام الأعظم القاسم بن إبراهيم عليهم السلام - وقد احتج بهذه الآية ونحوها على هذا المعنى في الأنبياء وذرياتهم وفي نبينا وذريته عليهم السلام - : فأَي ضياء أضوى ؟ أو حجة محتج أقوى ؟ في اثبات الصفوة والفضل لأبناء المنتجبين ^(٤) من الرسل مما تلونا تنزيلا مبانا أنزله الله في وحيه قرآنا لاتعارضه شبهة لبس ، ولا يلبس

(١) - جملة (هم ذريته الأخيار) خير قوله : أن المصطفين .

(٢) - الحديد : ٢٦

(٣) - أخرجه الإمام الهادي عليه السلام في مقدمة الأحكام ، وأخرج الحاكم ١٦٤/٣ عن جابر وصححه ، وأخرج أبو يعلى ١٠٩/١٢ برقم ٦٧٤١ ، وأخرج البغدادى في تاريخ بغداد ٢٨٥/١١ ، وأخرج الطبراني كما في كثر العمال ١١٦/١٢ برقم (٣٤٢٦٧) (٣٤٢٦٦) اربعتهم أخرجوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحسن والحسين عليهما السلام (أنا أبوهما وعصبتهما والعاقل عنهما) وروى هذا الهيثمي في مجمع الزوائد ١٧٢/٩ عن فاطمة ، ورواه الطبراني في ذخائر العقبى ١٢١ عن عمر ، وقال : أخرجه أحمد في المناقب .

(٤) - انتخبته : أي استخلصته ، واصطفيته اختيارا على غيره ، وأنجبت المرأة : إذا ولدت غلاما نجيبا ، والنجابة : مصدر النجيب من الرجال ، وهو الكريم ذو الحسب إذا خرج بخروج أبيه في الكرم ، العين للفراهيدي ١٥٢/٦ .

على ذي ارتياده ملبس ، ولكن اقتطع الناس دونه - وحال بين العامة وبينه - جور أكابرهم في الحكم ، واعتساف ^(١) جبارتهم فيه بالظلم ، فأعين العامة في غطاء عن مذكوره ، وقلوبهم ذات عمى عن نوره ، فمعروفه لديهم مجهول ، وداعيه فيهم مردول ، إن لم يقتل عليه عظم تعسفه فيه ، ولم يَعدُوا من جهلهم بفرضه ، وماهم عليه من رفضه - سبيل ماهم عليه ، ومأمسوا وأصبحوا فيه ، من جهل غيره من الحقوق وتعطيها ، ومحو أعلام الدين وتبديلها ، فالله المستعان في ذلك وغيره ، وإياه نسأل تبديل ذلك وتغييره الى آخر كلامه عليه السلام في هذا المعنى ، وهو طويل جدا .

وبيان أن في المصطفين ظالما لنفسه لا يؤمن على التأويل ، ولا يوثق به في الإتياع كمن كان في من قبلهم من ذرية الأنبياء فيما أخبر من قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ ^(٢) وقوله في إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ ^(٣) .

ولما كانت الحاجة الى معرفة السابق والمقتصد من ضروريات التكليف ، وعدم إبانة أمرهما من التعمية والتليس - يَبَيِّنُ سبحانه من يجب اتباعه والكون معه ، بالصفة التي فيها أكمل المعرفة فقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ ^(٤) فقله تعالى : ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ أمر بموافقة الصادقين ، ونهي عن مفارقتهم وظاهر الأمر للوجوب ، والله سبحانه بحكمته لا يأمر بالكون مع من لا يعلم صدقه قطعا ، فوجب على المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين ، ومتى وجب الكون مع الصادقين فلا بد من وجود الصادقين ، لأن الكون مع الشيء مشروط بوجود ذلك الشيء فهذا يدل على أنه لا بد من وجود الصادق في كل وقت ، فيجب علينا حينئذ طلبه لنكون معه كما أمر الله ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

(١) - العسف : السير على غير هدى ، وركوب الأمر من غير تدبير ، وركوب مغازة بغير قصد ، العين ٣٣٩/١ .

(٢) - الحديد : ٢٦

(٣) - الصافات : ١١٣

(٤) - التوبة : ١١٩

قال في البلغة^(١) في تفسير هذه الآية: (أمر الله المؤمنين بالتقوى وهو أن يجتنبوا المعاصي وأمرهم بالكون مع الصادقين ، والصادقون هم الأنبياء والأئمة عليهم السلام والصدّيقون من المؤمنين ، والفرق بين كن مع الصادقين ، وبين كن من الصادقين وبين كن في الصادقين - أن مع تفيد المصاحبة ، ومن تنبي عن التبعض ، وفي عن الظرف والوعاء ، فمن كان في جملتهم فقد حصل المعاني الثلاثة ، وكان علي بن الحسين عليهما السلام إذا تلى هذه الآية بكى ، وناح على نفسه ، وله أدعية طويلة في هذا الباب ، مفصلة بالمواعظ البلغة والحكم البديعة).

ثم فسرهم بأحوالهم ودل عليهم بأقوالهم وأعمالهم بقوله عز وجل: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبئين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾^(٢).

ثم قال عز وجل في من جمع هذه الأوصاف: ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ وقال: ﴿وأولئك هم المتقون﴾^(٣) ثم أمر الله تعالى بالكون معهم حيث قال: ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾^(٤).

قال الهادي إلى الحق عليه السلام^(٥): «فلم يحكم عز وجل بحقائق الإيمان إلا لمن بعد

(١) البلغة لمن لا يحضر المفسر في تفسير القرآن العظيم تأليف محمد بن محمد بن أحمد بن الحكم الطوسي (ابو العباس) منه نسخة مخطوطة من الجزء الثالث ، وأخرى الجزء الرابع في المكتبة الغربية الجامع الكبير رقم ١١ - ١٢ تفسير ، ونسخة خ في مكتبة جامع شهادة وقد نقل عنه المؤلف كثيرا .

(٢) - البقرة : ١٧٧

(٣) - البقرة : ٧٧

(٤) - الحجرات : ١٥

(٥) - الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الرسي أبو الحسين أحد عظماء الفكر الإسلامي وأعلام أئمة آل ، امام مجتهد مطلق مجاهد عالم فقيه زاهد شجاع متكلم مفسر خطيب شاعر نشأ في أحضان العلم والفضيلة والجهاد في جبل الرس بالقرب من المدينة المنورة وأخذ عن فقهاء أهل بيته وشيعتهم مشغلا بالعلم من

منه الإرتياب في وجوه الدين والإحسان ، فنسأل الله الثبات على دينه ، والتوفيق لما يرضيه برحمته .

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليهم السلام ^(١) : "لما عقب ذلك بقوله سبحانه : ﴿أولئك هم الصادقون﴾ دل ذلك [على] ^(٢) أن من ادعى الإيمان بغير ماذكرنا فهو من الكاذبين ، وأن دعواه تلحق بدعوى المنافقين ، سيما وقد أكد ذلك بتك الإرتياب ، ولا يزول الإرتياب إلا بعد استحكام العلم بالبرهان) وسيأتي كلامه إن شاء الله مستوفى في الحجرات .

طفولته فظهر نبوغه واشتهر ، وراسله ابو العتاهية الهمداني اليمني ودعاه الى بلاده اليمن ، ووفد اليه أكابر رجال اليمن يدعونه الى الخروج اليهم لآحياء سنة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فلبى دعوتهم وخرج الى اليمن سنة ٢٨٣ فأحيا الله به الدين وخلص اليمن من القرامطة وأهل الفتن واعتبر الرجل الثاني بعد الإمام الأعظم زيد بن علي عليهم السلام في تجديد مذهب الآل ، ولم يزل مجاهدا في سبيل الله ناشرا للفضيلة حتى توفاه الله بصعدة بعد جهاد مرير ، وقبر هنالك مشهور مزور ، وأخباره كثيرة ومناقبه غزيرة ، وفي سيرته كتب منها سيرة الإمام الهادي تأليف علي بن محمد العباسي طبع ، الإمام الهادي واليا ومجاهدا وفقها ، تأليف عبدالفتاح شايف نعمان ط ١٤١٠ هـ خلاصة سيرة الهادي محمد محمد زبارة ط ١٩٥٢ م ومن مؤلفاته :

- ١- تفسير القرآن الكريم قال ابوعلامه : في ستة أجزاء ، وهو اليوم مفقود .
- ٢- معاني القرآن الكريم قال العلامة مجد الدين المويدي : في تسعة أجزاء
- ٣- التفسير الموجود اليوم من سورة المنافقين الى سورة النبأ ، وقد تضمنه هذا الكتاب .
- ٤- ٦٨ كتابا ورسالة وبث تضمنتها مجموعته ومنها المطبوع : الأحكام ، المنتخب ، الفنون في الفقه (انظرها على التفصيل لمخطوطاتها في أعلام المؤلفين الزيدية وفهرست مؤلفاتهم ، وانظر مصادر ترجمته هناك) .
- (١) - الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة الحسيني اليمني < ٥٦١ - ٦١٤ > أحد عظماء الإسلام ونجوم الآل الكرام امام مجتهد مجاهد مجدد اكتملت فيه جوانب العظمة في الشخصية ، وفاق مجتهد عصره علما وأدبا وجهادا ، وقام بالإمامة بتكليف من علماء عصره سنة ٥٨٣ هـ وأقام في كفاح وجهاد من أجل رفعة الدين واقامة العدل ، وتصحيح الخلل وتقويم الاعوجاج ، وخاض معارك عديدة مع المطرفية ومع سلاطين بني حاتم ، وضد الغازي طغتكين القادم من مصر ، أخباره كثيرة ومناقبه غزيرة ، وفي سيرته كتب منها السيرة المنصورية لابن دعثم طبع منها مجلدان ، والباقي مفقود ، كما ألف في سيرته كل من علي بن نشوان الحميري ، ومحمد بن أحمد بن الوليد ، توفي ودفن بظفار . ومن مؤلفاته :

- ١- تفسير القرآن الكريم ذكره المورخ ابوعلامه في كتاب التحفة العنبرية ، وقال : شرع فيه ولم يكتمل .
- ٢- الشافي في الأصول (الكلام) ط في مجلدين .
- ٣- ثلاثة وسبعون كتابا ورسالة (انظر تفصيلها ومخطوطاتها في أعلام المؤلفين الزيدية وفهرست مؤلفاتهم .
- (٢) - ما بين قوسي الزيادة من ب .

(ولم نجد من اجتمعت له هذه الصفات ، واقتضى خلفه سلفه في هذه الدلالات الواضحات - غير هؤلاء الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذين طابقت عقائدهم المعقول والمنقول ، فشهد لهم بالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین والسنن صرائح العقول ، وعرف منهم الحرص على سائر صفات الذين صدقوا بما ميزوا به من المحققين والمبطلين ، والمطيعين والعاصين ، وفرقوا ؛ لأن الله عز وجل لا يخلي بين الكاذبين وبين الأمور التي لا تكون إلا من صفة الصادقين ، لأن الحكيم في حكمه قد جعل بين الحق والباطل فصلا ، وبين منزلة الصادقين والكاذبين فرقا ، وكذلك صفة المؤمنين من العاملين والمخلصين ، أمرهم مباين لسيماء الموهين .

قال في البلغة : (فإذا كان الله تعالى أثنى على من كانت صفته ماذكر في الآية ووصفهم بأنهم الصادقون المتقون الفاضلون ، ولا يوجد في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد نبيتها عليه وآله السلام بهذه الصفة أجل من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فلو لم يدل هذا على أنه أفضل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيد الصادقين - لما دل شيء على شيء في الدنيا ، وهذه بعينها طريقة الأئمة والكبار من آل محمد ، وهم الصادقون الذين قال الله للمؤمنين : كونوا معهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١) ولو أخذت في زهديات الحسن والحسين وأولادهما من الأئمة الطاهرين السابقين المقتصدين ، كعلي بن الحسين^(٢) وولديه زيد^(٣) ومحمد^(٤) وكعبدا لله بن الحسن^(٥) وأولاده محمد^(٦)

(١) - التوبة : ١١٩

(٢) - علي بن الحسين : هو زين العابدين الإمام السجاد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام >٣٨-٩٤< أحد عظماء الإسلام ، وأشهر من يضرب بهم المثل في الحلم والورع والزهد والعبادة والتقوى ، أجمع أهل الإسلام على جلالة وعلمه وزهده وفضله ، مولده ووفاته بالمدينة ، وهو بقية ولد الإمام الحسين السبط شهيد كربلاء ، سلم بأعجوبة بعد الفاجعة التي شهدها ، ونجا منها لمرضه ، كان من المحسنين أحصي من كان يعولهم بعد موته فكانوا أكثر من مائة بيت من فقراء المدينة الذين فقدوا صدقة السر بعد موته أخباره كثيرة جدا ، وفي سيرته كتب ومن آثاره الصحيفة السجادية الخالدة التي تضمنت أبلغ وأروع الأدعية . مصادر ترجمته كثيرة جدا انظرها في معجم الرواة في أمالي المؤيد بالله ، وفي معجم رجال الاعتبار تحت الطبع .

(٣) - هو الإمام الأعظم الشهيد زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام >٧٥-١٢٢< من أعلم الناس وأخطبهم وأفصحهم حليف القرآن ، الثائر في سبيل الله ، ومن أجل إقامة حكم الله ، ومؤسس المذهب

الزبيدي ، ومجدد طريق الثورة و الجهاد مولده بالمدينة ، وأقام بالكوفة ، ورضع العلم من بيت النبوة على يد والده وأخيه الباقر ، وقد ثار على الظلم ، ورفع الراية التي سقطت في كربلاء ، وباعه أهل الكوفة ، وسجل ديوانه أربعين الفا ممن يابعوه ولبو دعوته الى كتاب الله وسنة رسوله ، وجهاد الظالمين ونصرة المستضعفين ، وخاض معركته الشهيرة مع الدولة الأموية حتى استشهد في الكوفة ، وأخباره كثيرة ومناقبه وفيرة ، وهو أول من صنف في الحديث والتفسير والفقه ، ووصلت اليها كتبه ومن مؤلفاته :

- ١- المجموع الفقهي والمجموع الحديثي ، ويعرف بمسند الإمام زيد بن علي مطبوع مشهور .
- ٢- تفسير غريب القرآن ط . ٣- مجموع رسائله وكتبه وهي كثيرة منها ماهو مطبوع ومنها ماهو تحت الطبع .
- والمؤلفات في سيرته وأخباره كثيرة جدا منها اخبار الإمام زيد بن علي تأليف ابراهيم بن محمد الثقفي المتوفى سنة ٢٨٣هـ اخبار زيد بن علي عليه السلام تأليف عبدالعزيز بن يحيى بن أحمد الجلودي المتوفى سنة ٣٢٢هـ ومثله لمحمد بن زكريا بن دينار المتوفى سنة ٢٩٨هـ ومثله لمحمد بن علي بن الحسين القمي المتوفى سنة ٣١١هـ ومن الكتب في سيرته ايضا مجموع فضائل الإمام زيد بن علي وكتاب من روى عن زيد بن علي تأليف محمد بن عبد الله بن بهلول الشيباني المتوفى سنة ٣٨٧هـ وكتاب من روى عن زيد بن علي للثقفى ، وكتاب اسناد المذهب الزبيدي ، ومن روى عن الإمام لعبد العزيز بن اسحاق البقال البغدادي ، وهناك أيضا مؤلفات حديثة كثيرة تتحدث عن الإمام زيد عليه السلام مطبوعة مشهورة ..

(٤) - محمد : هو الإمام محمد الباقر بن علي زين العابدين ، بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام ابو جعفر من عظماء الإسلام وائمة العلم والحديث والفقه المشهورين سمي بالباقر لغزارة علمه ، كان ناسكا عابدا ناشرا للعلم مولده ونشأته في المدينة ، ووفاته بالخميمة ، ودفن بالمدينة أخباره كثيرة ، ومناقبه غزيرة ، وفي سيرته كتب منها كتاب لعبد العزيز الجلودي وهو أحد الأئمة الأثني عشر عند الإمامية الجعفرية ، انظر مصادر ترجمته في معجم الاعتبار وسلوة العارفين .

(٥) - عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام ابو محمد < ٧٠-١٤٥ > أحد عظماء آل البيت عليهم السلام كان شيخ بني هاشم و المقدم فيهم ، وعرف بالفضل والعلم والكرم ، مولده بالمدينة المنورة في المسجد النبوي ببيت فاطمة الزهراء عليها السلام ، حبسه الدوانيقي العباسي مع اخوته سنة ١٤٤هـ في سرداب تحت الأرض ، وقتل في محبسه بالهاشمية سنة ١٤٥هـ روى عن الإمام الأعظم زيد بن علي ، وعن أبيه الحسن وغيرها ، أخباره كثيرة جدا تضمنها سير أولاده الآتين ، ومصادرها كثيرة جدا (انظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين ، وفي سيرته كتب منها : أخبار عبد الله بن الحسن لعبد العزيز الجلودي .

(٦) - الإمام الشهيد المهدي لدين الله محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام المعروف بالنفس الزكية < ٩٣-١٤٥ > أحد عظماء الإسلام ، ورواد الثورة على الظلم ، غزير العلم واسع الرواية شجاع سخي ورع زاهد ، مولده بالمدينة ونشأته ، يابعه سرا جماعة من أهل بيته ، ومن سائر علماء الأمة ، وكان من دعائه ابوالعباس السفاح ، وابوجعفر المنصور ، ولما انقضت دولة بني أمية نكث بنو العباس البيعة وحولوا الأمر الى أنفسهم فتخلف عنهم محمد وأهل بيته ، وبقي متخفيا متواريا في المدينة ، وقبض على أبيه المتقدم الذكر وأثنى عشر من أهل بيته وشيعتهم من قبل المنصور العباسي ، ثم قام بثورته الشهيرة في المدينة ، وقاتل رجال الأبطال في معركة يطول شرحها حتى استشهد سنة ١٤٥هـ وبعثوا برأسه الى المنصور الذي كان قد قتل من سجنهم من أهله ومن آثاره : كتاب السير نشره فواد السيد في مجلة الإجتهد ، وفي أخباره كتب منها أخبار محمد بن عبد الله بن الحسن لعبد العزيز الجلودي ، وأخبار ابراهيم ومحمد بن عبد الله لأبراهيم الثقفي انظر أعلام المؤلفين الزيدية .

وابراهيم^(١) ويحي^(٢) وكجعفر بن محمد^(٣) وكالحسين بن علي^(٤) صاحب فخ

(١) هو الإمام الشهيد ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليه السلام <٩٧-١٤٥ هـ> أحد عظماء الإسلام مولده ونشأته بالمدينة ، وكان عالماً شاعراً عارفاً بأيام العرب وأخبارها وآدابها ، ذهب الى العراق داعياً لأخيه النفس الزكية ، وجاء خبر استشاده بعد وصوله الى البصرة فاستولى عليها ، ودعا الى نفسه ، وتنقل بينها وبين الكوفة ، وباعه خلق كثير ، وجرت بينه وبين جيوش المنصور العباسي وقائع كثيرة ، وكان ممن أزره في ثورته ابوحنيفة ، وقد استشهد سلام الله عليه بياخراً أول الحجة في نفس السنة التي قتل فيها أخوه ، وأخباره كثيرة ، ومناقبه غزيرة ، وممن صنف في سيرته وأخباره عبدالعزيز الجلودي وابراهيم الثقفي وانظر مصادر ترجمته في معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين .

(٢) الإمام الشهيد يحي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام المتوفى بعد ١٨٠ هـ أحد أعلام آل البيت ومشاهيرهم في العلم والفضل والشجاعة والزهد والورع والجهاد والثورة على الظلم ، دعا الى الله حوالي سنة ١٧١ هـ وباعه أناس من الجزيرة وقصدوا اليمن والمغرب وكان من أعوان الإمام الحسين بن علي الفخي قاتل معه ، ثم جال فتفكر في أقطار كثير ، واستقر بالديلم ودعا الى نفسه ثانية سنة ١٧٨ هـ واشتد طلب هارون العباسي له ويحث من يخادع الديلم فيه ، ويعرض له الأمان ، وقبل الأمان وعاد الى بغداد ثم غدر به هارون الرشيد وهو ليس برشيد ودس له السم في سجنه سنة ١٨٠ هـ وقيل: في موته في السجن غير ذلك ، أخباره كثيرة وفي سيرته كتب منها كتاب أخبار فخ ويحي بن عبد الله للرازي ط ، ومنها كتاب أخبار يحي بن عبد الله لعلي بن ابراهيم بن الحسن الخرائي وغيرها انظر مصادر ترجمته في معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين .

(٣) - الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام ابو عبد الله <٨٠-١٤٨ هـ> أحد عظماء آل البيت وأعلام الفكر الإسلامي ، وهو سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية امام علم مشهور حاول المنصور الدوانيقي قتله مراراً فنجاه الله واستمر ينشر العلم زينير العقول ، أخباره شهيرة والمؤلفات في سيرته كثيرة .

(٤) - الإمام الشهيد ابو عبد الله الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام المعروف بصاحب فخ <١٢٨-١٦٩ هـ> العالم الزاهد العابد المجاهد قام بالإمامة ودعا الى الله سنة ١٦٨ هـ وقيل: ١٦٩ هـ وباعه الشيعة وظهر بالمدينة بعد أن عاد من الكوفة ، واستوثق من بيعة أهلها وأهل خراسان والجيل وغيرهم واشتدت عليه المضايقة من أمير المدينة فصعد الى المنبر وخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أيها الناس أنا ابن رسول الله على منبر رسول الله في حرم رسول الله أدعوكم الى كتاب الله وسنة رسول الله ، وإلى أن أستفتاكم مما تعلمون ، فبايعوه واستخلف على المدينة رياشا الخزاعي ، وخرج الى مكة ومعه ثلاثمائة من أصحابه فلما وصلوا الى فخ لقيتهم الجيوش العباسية في ذي القعدة ١٦٩ هـ فقاتل عليه السلام حتى استشهد عن إحدى وأربعين سنة ودفن بفخ (ويطلق عليه حالياً الزاهر وهو في الطريق الذهاب الى التنعيم) وحمل رأسه الى الهادي العباسي وأخباره طويلة ، وفي سيرته كتب منها أخبار فخ ويحي بن عبد الله للرازي ط ، وانظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين .

وكمحمد^(١) والقاسم ابني ابراهيم ، وكاهادي الى الحق يحيى بن الحسين ، وولديه محمد^(٢) وأحمد^(٣) عليهم السلام ، وكسادات من آبائهم وأبنائهم واخوانهم ونظرائهم ، في الدين والورع والزهد والعلم والعمل ، وكذلك من سلك مسلكهم ، شيعتهم واخوانهم رحمة الله عليهم لصارت مصنفات ، ولست أدري لماذا اشتغل الناس بابراهيم بن أدهم^(٤) ورابعة العدوية^(٥) وفضيل بن عياض^(٦) وشقيق البلخي^(٧)

(١) - الإمام ابو القاسم محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام <١٧٣- ١٩٩> ه قام في الكوفة في جمادى الأولى سنة ١٩٩ ه وبعث أخاه الإمام القاسم بن ابراهيم المتقدم الذكر الى مصر ، وزيد بن موسى الكاظم الى البصرة ، وباعه الإمام محمد بن محمد بن الإمام زيد بن علي و الإمام محمد بن جعفر الصادق ، والإمام علي بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين ، ويحيى بن آدم ، وابوبكر وعثمان ابنا ابي شيبة ، وأبو نعيم الفضل بن دكين ، وعبد الله بن علقمة ، وغيرهم وحارب جنود العباسية وكان شجاعا عالما زاهدا ، وأخباره كثيرة ، توفي عليه السلام شهيدا في أول رجب سنة ١٩٩ ه عن ٢٦ عاما من مولده ، انظر التحف شرح الزلف ص ٧٨ الطبعة الثانية .

(٢) - الإمام المرتضى لدين الله ابو القاسم محمد بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم الرسي الحسيني العلوي ، أحد عظماء الإسلام وأئمة آل الكرام ، مجاهد مجتهد مطلق ورع زاهد ، مولده في جبل البرس سنة ٢٧٨ ه ونشأ في أحضان الفضيلة والتقوى ، وأخذ عن أبيه وأخيه وعلماء عصره وجاهد مع أبيه وأسر وأقام بناحية بيت بوس حتى تخلص من الأسر بايعه الناس بعد وفاة والده الإمام الهادي سنة ٢٩٩ ه فأقام بمدينة صعدة ، وحكم أجزاء من اليمن ، وقاتل القرامطة ، ثم تنازل عن الإمامة لأخيه الناصر أحمد الآتي سنة ٣٠٤ ه وعاش عابدا زاهدا ذا كرا حتى أدرسته الوفا بصعدة في محرم سنة ٣١١ ه وأخباره كثيرة ، ومن مؤلفاته كتاب تفسير القرآن في تسعة أجزاء ذكره المولى العلامة مجد الدين في التحف ، وهو مفقود ، والموجود بعض من تفسيره وهو مضمنه هذا الكتاب ، وله أكثر من أربعة وعشرين كتابا ورسالة ، انظر تفصيلها وأماكن وجود مخطوطاتها في أعلام المؤلفين الزيدية ، وفهرست مؤلفاتهم .

(٣) - الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي الى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي أحد الأئمة الأعلام عالم مجتهد مجاهد زاهد عادل شجاع توفرت فيه الشروط وبويع بعد اعتزال أخيه سنة ٣٠٤ ه وجهاز الجيوش لقتال القرامطة وغيرهم ، واستمر في جهاد حتى توفاه الله بصعدة سنة ٣٢٥ ه وأخباره ومنابعه كثيرة ، ومن مؤلفاته تفسير القرآن الكريم الموجود منه تفسير سورة الإسراء تضمنها هذا الكتاب ، وله قرابة اثني عشر كتابا ورسالة انظر تفصيلها ومصادر ترجمته في أعلام المؤلفين الزيدية .

(٤) - ابراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي ابو سحاق المتوفى سنة ١٦٦ ه عابد زاهد مشهور ، كان أبوه من أهل الغنى ببلخ ، فتفقه ورجل الى بغداد ، وجال في العراق والشام والحجاز وأخذ عن كثير من علماء الأمصار الثلاثة وكان يشترك مع الغزاة في قتال الروم ، ويعيش من العمل في الحصاد ، وحفظه البساتين والطحن ، وأخباره كثيرة وفيها اضطراب ، واختلاف في مسكنه ونسبه ووفاته ، وحدث عن الإمام الباقر . انظر مصادر ترجمته في المعجم .

وبث زهدياتهم ونسوا آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والله المستعان.

ثم قال فيها: وإذا صرف الإنسان همته إلى طريقتهم نسي طريقة فقهاء العامة ، وفي دروس طريقة أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة والتنزيل في شريعة جدهم عليهم السلام ، واستشهار طريقة العوام - عيرة للعاقل ، ودليل واضح على ماجرى عليهم من الضيق ومعاداة الظلمة ، وقد كانوا في هذا العالم - وهم فصحاء الشريعة - علماء شريعة جدهم صلى الله عليه وآله وسلم عباد وزهاد^(١) أهل ورع واجتهاد ، قيل أن يخلق الله إبراهيم النخعي^(٢) وأبا حنيفة^(٣) والشافعي^(٤) والله المستعان. اهـ

وقد ذكر مثل هذا المعنى وزاد ، في صفات أهل البيت عليهم السلام الفقيه العلامة

(٥) - رابعة بنت اسماعيل العلوية أم الخير مولاة آل عتيك البصرية المتوفاة سنة ١٨٥هـ سالحة مشهورة ، مولدها ونشأتها بالبصرة ، ووفاتها بالقدس ، ولها أخبار مشهورة ، وكلام في الزهد والحكمة ، وقد كتبت الإنجليزية مارغريت سميت كتابا عنها رجحت فيه أنها عاشت وتوفيت بالبصرة سنة ١٨٥هـ وفي شذور العقدين لابن الجوزي سنة ١٣٥هـ ، وفي وفيات الأعيان وغيره سنة ١٨٥هـ انظر الأعلام ٣ / ١٠ .

(٦) - الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي ، أبو علي الخراساني > ١٠٥ - ١٨٧هـ زاهد عابد مشهور كان ثقة في الحديث أخذ عنه عدة منهم الإمام الشافعي مولده في سمرقند ، ودخل الكوفة وهو كبير ثم سكن مكة وتوفي بها ، ذكره السيد صارم الدين الوزير بين المحدثين الشيعة ، روى عن الأعمش وجعفر الصادق وقنادة وغيرهم انظر معجم الاعتبار .

(٧) - شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي أبو علي الصوفي المتوفى سنة ١٩٤هـ كوفي زاهد متصوف من مشايخ الصوفية في خراسان ، قيل: هو أول من تكلم في علوم الأحوال الصوفية ، وجاهد واستشهد في غزوة كولان من بلاد ماوراء النهر ، ذكره في النجوم الزاهرة في وفيات سنة ١٥٣هـ و١٩٤هـ وفي وفيات الأعيان سنة ١٥٣هـ انظر الأعلام ٣ / ١٧١ .

(٨) - رفعت على القطع ، وإلا فهي منصوبة خيرا لكان .

(٩) - إبراهيم بن زيد بن قيس ابن الأسود النخعي أبو عمران الكوفي > ٥٠ - ٩٦هـ فقيه أهل الكوفة ومفتيها ، هو والشعي في زمانهما ، كان رجلا صالحا قليل التكلف ، وثقة رجال الحديث ، روى عن مسروق الأجدع والأسود بن زيد والربيع بن خثيم وعنه الأعمش وزيد اليامي ، ومنصور بن العتمر ، وآخرون . انظر معجم الاعتبار .

(١٠) - أبو حنيفة النعمان بن ثابت > ٨٠ - ١٥٠هـ أحد أعلام الفكر الإسلامي وأحد أئمة المذاهب الأربعة مشهور ، انظر رجال الاعتبار ، وهو من ناصري أئمة الزيدية ، وأفتى بوجوب الخروج معهم ، وساعد بما قدر عليه من الأموال وتحريض الناس ، واعتذر عن الخروج بودائع كانت عنده .

(١١) - محمد بن إدريس الشافعي > ١٥٠ - ٢٠٤هـ أحد أعلام الفكر الإسلامي وأحد أئمة المذاهب الأربعة مشهور من أوزي في محبة لأهل البيت عليهم السلام وله أشعار كثيرة تدل على ولائه لأهل البيت النبوي الطاهر .

عبد الله بن زيد العنسي^(١) رحمه الله عليه ، وأشار في كتابه الإرشاد^(٢) إلى بعض شئ من عبادة أمير المؤمنين وصفاته ، كالمنبه على ماسواه ؛ لأن القليل من ذلك يدل على الكثير ، كضوء البارق^(٣) يشير بالنو المطير .

من ذلك ما رواه فيه عن أبي الدرداء^(٤) قال في حديث التفضيل : (شهدت عليا عليه السلام ، وقد اعتزل عن مواليه ، واختفى عن من يليه ، واستتر بفسلان النخل^(٥) فافتقدته وقلت : لحق بمنزله ، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجي ، وهو يقول : إلهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنعمتك ، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك ، إلهي إن طال في عصيانك عمري ، وعظم في الصحف ذنبي ، فما أنا مؤمل غير غفرانك ، ولأنا راج غير رضوانك) .

قال ابو الدرداء [رحمه الله]^(٦) : فشغلني الصوت ، واقتفيت الأثر ، فإذا هو علي بعينه فاستترت منه وأحملت الحركة ، فركع ركعات في جوف الليل الغابر ، ثم فزع إلى الدعاء والإستغفار والبكاء ، والبث والشكوى ، فكان مما ناجى به ربه أن قال :

(١) - عبد الله بن زيد بن أبي الخير العنسي المذحجي الزبيدي المتوفى سنة ٦٦٧هـ أحد أعلام العلماء الزيدية في اليمن مجتهد ورع زاهد أصولي متقن ، عاصر الإمام أحمد بن الحسين وناصره حتى قتل شهيدا سنة ٦٥٦هـ ثم خرج إلى خولان واستقر بها مدة وسكن كحلان في آخر عمره ، وأخباره كثيرة ومؤلفاته شهيرة منها ٢٢ كتابا ورسالة تفصيلها في أعلام المؤلفين الزيدية .

(٢) - الإرشاد إلى نجات العباد : من أشهر الكتب في اليمن في موضوع الزهد وتصفية النفوس نسخته الخطية كثيرة ، الكتاب تحت الطبع وهو من الكتب التي تنسق حياة المؤمن اليومية ، وكيفية استغراق المرء لوقته كله بالطاعة والحفاظ على الواجبات و المندوبات والمسنونات ، وترك ما يشغل الإنسان عن اليوم الآخر ، وفي أوائله مقدمات في أصول الدين لا يستغني عنها طالب العلم .

(٣) - في ب : البرق

(٤) - أبو الدرداء : هو عويمر بن مالك بن قيس الأنصاري الخزرجي المتوفى سنة ٣٢هـ صحابي كان قبل البعثة تاجرا بالمدينة واشتهر بالشجاعة والفتك ، وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ، وهو أول قاض بها مات بالشام ، وهو أحد حكماء الأمة ، وقبره بدمشق مشهور مزور وقد زمرته هناك ، ونصائحه لأهل الشام كثير منها موجود في مشهده .

(٥) - في المصباح : الفسيل صغار النخل ، وهي الودي ، والجمع فسلان مثل رغيف ورغفان ، الواحدة فسيلة ، وهي التي تقطع من الأم ، أو تقلع من الأرض فتغرس .

(٦) - ما بين القوسين موجود في ب .

(الهي أفكر في عفوك فتهون علي خطيئتي ، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم علي بليتي ، ثم قال: آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها ، وأنت محصيها ، فتقول: خذوه فياله من مأخوذ لانتجيئه عشيرته ، ولانتفعه قبيلته ، يرحمه المأل إذا أذن فيه بالنداء ، ثم قال: آه من نار تنضج الأكباد والكلبي^(١) آه من نزاعة للشوى ، آه من ملهبات لظي).

قال: ثم أنعم في البكاء فلم أسمع له حسا ولا حركة ، فقلت : غلب عليه النوم لطول السهر ، أو قصد لصلاة الفجر ، فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة ، فحركته فلم يتحرك فرويته فلم ينزو ، وقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مات والله علي بن ابي طالب ، قال: فأتيت منزله مبادرا أنعاه إليهم ، فقالت فاطمة عليها السلام : هي والله الغشبية التي تأخذه من خشية الله ، ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق ، ونظر إلي وأنا أبكي فقال: مم بكائك ؟ فقلت: بما أراك تنزله بنفسك ، فقال : يا أبا الدرداء فكيف لو رأيته وقد دعيت إلى الحساب^(٢) وأيقن أهل الجرائم بالعذاب ، واحتوشتي ملاحكة غلاظ ، وزبانية أفضاظ ، فوقفت بين يدي الملك الجبار ، وقد أسلمني الأحياء ورحمني أهل الدنيا ، لكنك أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية .

فإذا نظرت أيها الطالب للنجاة في أمير المؤمنين عليه السلام ، وشدة عبادته ، وإتعا به نفسه ، وشدة مواظبته على طاعة ربه ، من كل نوع من أنواع الطاعات ، مع أنه مقطوع له بالجنة - علمت حقارة عملك ، وعظم خطورك ، وتحققت أنك أولى الناس بالعمل لنفسك ، والخضوع لربك ؛ لخلاصك لالنفع غيرك .

وانظر فيما رواه الباقر عليه السلام : فإنه قال: (إن كان أمير المؤمنين علي عليه السلام ليأكل أكلة العبد ، ويجلس جلسة العبد ، وإن كان ليشتري القميصين السنبلايين ويغير غلامه خيرهما ، ثم يلبس الآخر ، فإذا جاوز كمه أصابعه قطعه وإذا جاوز كفيه حذفه ، ولقد ولي خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ، ولالبنة على لبنة

(١) - في المعجم الوسيط : الكلبة عضو في البطن خلف البريتون ، ينقي الدم ، ويفرز البول ، وهما كلبتان ، الكلبة لغة فيها ، والجمع كُلبى .

(٢) - في ب : للحساب .

ولا قطع قطيعاً ، ولا أورث بيضاء ولا حمراء ، وإن كان ليعطي خبز البر واللحم وينصرف الى منزله فيأكل خبز الشعير والزيت والخل ، وماورد عليه أمران كلاهما رضى الله إلا أخذ بأشدهما على بدنه ، ولقد أعتق ألف مملوك من كد يده ، وما أطاق عمله أحد من الناس ، وإن كان ليصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة ، وإن أقرب الناس شبها به علي بن الحسين عليهما السلام ، ما أطاق عمله أحد من الناس بعده (١).

قال الإمام أحمد بن سليمان (٢) عليه السلام في كتاب الحكمة الدرية : دخل ابو جعفر محمد بن علي عليهما السلام على أبيه قال : فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم أر أحدا قط بلغه ، وإذا به قد اصفر لونه ، ورمضت عيناه من البكاء ، ودبرت جبهته وانخرمت أنفه من السجود ، وورمت شفتاه وقدماه من الصلاة ، فرأيته بحال فلم أملك أن بكيت من رحمته فإذا به ينظر إلي ، ثم قال : يا بني اعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي ، فأعطيته بعضها فما قرأ منها إلا شيئا يسيرا حتى رمى به تضرجرا وقال : من يقوى على عبادة علي صلوات الله عليه (٣).

(١) - حديث الباقر عليه السلام هو ملخص لعدد كبير من الروايات الواردة بزهد أمير المؤمنين وعبادته وورعه انظرها في مناقب أمير المؤمنين تأليف محمد بن سليمان الكوفي ، وكذلك ترجمة أمير المؤمنين من تاريخ ابن عساكر بتحقيق محمد باقر الحمودي ، وفي غيرها من الكتب التي في سيرته عليه السلام ، وفي مناقبه ، وروى قريباً منه الإمام الموفق بالله الحسين بن اسماعيل الجرجاني في كتاب الاعتبار وسلوة العارفين بسنده الى الإمام جعفر الصادق ، ومنه : > ولقد أعتق من ماله ألف مملوك في طلب حريته والنجاة من النار ، مما كد يده ، ورشح منه جبينه ، وإن كان ليقوت أهله بالزيت والخل والعجوة ، وما كان لباسه الا الكرايس اذا فضل عن يده من كماله أدى بالجلم فقصة ، وما أشبهه من ولده ولأهل بيته أحد وإن كان اقرب القوم به شبها المتوكل على الله في لباسه ، وفقهه علي بن الحسين عليه السلام < .

ورواه ايضا في ينابيع المودة ١ / ١٤٥ ، عن الإمام جعفر الصادق من حديث طويل.

(٢) - الإمام أحمد بن سليمان بن محمد الحسيني العلوي > ٥٠٠ - ٥٦٢ < أحد عظماء الإسلام وائمة الزيدية الأعلام ، امام مجتهد مجاهد دعا الى الله سنة ٥٣٢ هـ فبايعه علماء عصره وحكم معظم مناطق اليمن ، وخطب له بالحجاز ، وأخباره ومناقبه كثيرة ، ومن كتبه ١- اصول الأحكام في الحلال والحرام تحت التحقيق ٢- حقائق المعرفة ٣- الحكمة الدرية والدلالة النبوية خ في عدة مكنتات وانظر بقية مؤلفاته في أعلام المؤلفين الزيدية

(٣) - وأخرج هذا الحديث بلفظه الإمام الموفق بالله في كتاب الاعتبار وسلوة العارفين ، وهو في ينابيع المودة من حديث طويل ١ / ٦٤١ .

وفي تفسير ابن عباس ^(١) رضي الله عنه قال: >ما أنزل الله تعالى في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا وعلي أميرها وشریفها< ^(٢).

قال المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليهم السلام: (ولا تعترض شبهة عند أحد من أهل البصائر أن كل آية في القرآن تتضمن مدحا وتعظيما وتشريفا للمؤمنين أو المسلمين مجملا - أن أمير المؤمنين عليا عليه السلام ذرة تاجها ، ونور سراجها ولا وقع وعد للمسلمين في العقبي ، ولا نصرة في الدنيا - إلا وهو مقصود عند جميع الأمة ، فإن أشرك معه غيره مدع فيبرهان يتوجده ، أيستقيم أم لا؟ كقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ^(٣) ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ ^(٤) ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ^(٥) ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ ^(٦) ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ ^(٧) ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ﴾ ^(٨) و﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(٩) و﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(١٠) و﴿السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ ^(١١) و﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ

(١) - عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم > ٣ ق هـ - ٦٨ < هـ صحابي شهير من أكابر العلماء في التفسير والفقه والحديث لازم أمير المؤمنين وأخذ عنه ، من آثاره تفسير القرآن ، أول تفسير لكتاب الله يعتمد على اللغة نقل منه المفسرون ، وجزء منه جمعه الفيروز آبادي ، وله أيضا غريب القرآن ، انظر معجم رجال الاعتبار..

(٢) - قول ابن عباس في تفسيره أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من سبع طرق عن ابن عباس ، انظر ترجمة الإمام علي من تاريخ ابن عساکر ، تحقيق محمد باقر المحمودي ٢/ ٤٢٨ - ٤٣١ ، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٦٤ بسنده إلى ابن عباس ، ورواه في الباب ٣١ من كفاية الطالب ص ١٣٩ ط الغري ، بطريقين عن أبي نعيم ، وفي فضائل أمير المؤمنين مسند أحمد رقم ٢٣٦ ، وأخرجه الحاكم الحسكاني في الفصل ٦ من مقدمة شواهد التنزيل ، ورواه الطبراني كما في مجمع الزوائد ٩/ ١١٢ كما أخرجه القطيعي في الحديث ٢٣٦ من باب مناقب علي عليه السلام من كتاب الفضائل ، وفي الباب عن حذيفة انظر شواهد التنزيل ١/ ٤٩ ، وانظر تفسير فرائد الكوفي ، وتفسير الحسين بن الحكم الحبري ، ومناقب الخوارزمي ص ٧٨.

(٣) - البقرة : ٢

(٤) - البقرة : ١٧٧

(٥) - آل عمران : ٧

(٦) - محمد : ٧

(٧) - المؤمنون : ١

(٨) - الأنفال : ٢

(٩) - التوبة : ١٠٠ ، في ينابيع المودة ٣/ ١٠٩ أخرج الديلمي عن عائشة والطبراني ، وابن خروف عن ابن عباس عن النبي : (السابقون ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب الدين ، والسابق إلى محمد علي بن أبي طالب).

آمنوا»^(١) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^(٢) ونحو ذلك مما يطول ذكره ، وكذلك أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن ينوه باسمه ، ويدل على فضله بقوله وفعله ويبين لأمته أنه القائم بخلافته والمنصوص على إمامته وأن الإمامة بعده في ذريته ، وأكد الأمر فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا نَزَّلَ الْيَكُ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَاتِهِ﴾^(٣) .

ولما علم سبحانه ما في قلوب أقوام من الضغائن أمنه من شرهم بما أوضح من عصمته بقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فامتثل أمر ربه وبين بقوله وفعله وميزه من أمته ، يشهد بذلك وما ورد فيه الموالف والمخالف ، ومجمع^(٤) على صحة النقل فيه جميع الطوائف ، وفضائله عليه السلام أكثر من أن تحصى ، ولها كتب مفردة وظهورها عند أهل العلم يغني عن الإطناب فيها) اهـ^(٥) .

وانظر [أيضاً]^(٦) فيما روى أنس بن مالك^(٧) حيث قال يقول الناس : إن قوله تعالى: ﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾^(٨) نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال: فأتيت لأنظر عبادته قال: فأشهد لقد رأيته وقت المغرب فوجدته يصلي بأصحابه المغرب ، فلما فرغ منها جلس في التعقيب إلى أن قام إلى العشاء الآخرة ، ثم دخل منزله فوجدته طول الليل يصلي ، ويقرأ القرآن إلى أن طلع الفجر ، ثم جدد وضوءه وخرج إلى المسجد وصلى بالناس صلاة الفجر ، ثم جلس في التعقيب إلى أن صلى بهم العصر ، ثم أتاه الناس يختصمون وهو

(١) - المائدة : ٩

(٢) - الإنفاطار : ١٣ ، والمطففين

(٣) - المائدة : ٦٧

(٤) - في ب : ويجمع

(٥) - انظر تفسير الآيات شواهد التنزيل ، وتفسير فرائد الكوفي ، وتفسير الحري وغيرها .

(٦) - ما بين القوسين موجود في ب .

(٧) - أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي أبو حمزة د ١٠٠ ق هـ - ٩٢ هـ صحابي جليل شهير ، انظر معجم رجال الاعتبار .

(٨) - الزمر : ٩٠

يقضي بينهم الى غربت الشمس ، فخرجت وأنا أقول : أشهد أن هذه الآية نزلت فيه .
وعلى هذا المنهاج جرت العترة الطاهرة عليهم السلام ، مما لا يمكن شرحه ، وبيانه
ها هنا مخافة الإملال من السامع ، ولظهور حالهم ، بخلاف غيرهم ، فعلمنا أنهم
صلوات الله عليهم ومن دان بدينهم وسلك سبيلهم - هم الذين تعين فيهم الإتياع
واختص بهم الإقتداء ، وأنهم المرادون بآية الإجتباء ، وآية التطهير والمودة ، وأحاديث
التمسك والسفينة .

أما آية الإجتباء وكونهم المرادون بها وهي قوله تعالى : ﴿هو اجتباكم﴾ إلى قوله :
﴿ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ ^(١) فالأدلة على ذلك
كثيرة ، نذكر منها ما ذكره الإمام المنصور بالله عليه السلام في الشافي حيث قال :
والدليل على أن هذه الآية الكرعة في أهل البيت عليهم السلام ، وعلى كونها دالة
على وجوب الإقتداء بهم ، وعلى أن اجماعهم دون غيرهم حجة طريقان : جدلية
وعلمية .

فالعلمية الكتاب والسنة .

والجدلية : ما ذكره من بعد إن شاء الله تعالى .

أما الكتاب : فهذه الآية الكرعة ووجه الاستدلال بها : أن الله سبحانه اختارهم له
شهداء ، فلو لم يكن قولهم حجة لما اختارهم وهذه الدلالة مبنية على أصليين .
أحدهما : أنه اختارهم له شهداء .

والثاني : أنه لو لم يكن حجة لما اختارهم .

فأما الذي يدل على الأول ، وهو أنه اختارهم له شهداء ، فظاهر الآية ينطق بذلك
في قوله : ﴿هو اجتباكم﴾ والإجتباء هو الإختيار ، وظهوره في اللغة يعني عن
الإستشهاد عليه فثبت الأصل الأول .

وأما الأصل الثاني : وهو أنه لا يختار له شهداء إلا من يكون قولهم حجة واجبة الإلتباع فمادل عليه عدله وحكمته يوجب ذلك ، ألا ترى أن قاضيا من قضاة المسلمين لو قال: قد اخترت فلانا شاهدا ، ووجب عندي قطع الحق بقوله ، لدلنا ذلك أنه قد رضي بقوله ، وثبتت عدالته عنده ، وأنه لا يقول إلا ما يجب العمل به فعلام الغيوب أولى بذلك ؛ لأنه إذا اختار هذا النصاب للشهادة على الناس - دل ذلك على أنهم عدول عنده ، وأنهم لا يقولون إلا الحق ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال فأني تصرفون﴾ (١) .

وقول من يقول : إن عموم الآية تتناول جميع ولد ابراهيم من اليهود والنصارى وغيرهم من سائر القبائل من ولد ابراهيم عليه السلام قول لاوجه له ، فإنه وإن كان كذلك ، فإن الأخبار الواردة من جهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مأوؤجت متابعة من عدا عترته من القبائل ، فالآية وإن كانت عموما قد خصتها الأخبار الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والكتاب والسنة يجذيان الى جهة واحدة فلا يجوز الفرق بينهما ، ولم ينص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على أن قول غير عترته من القبائل حجة ، فيجب حمل الآية على أن المراد بها عترته عليهم السلام دون ماولد ابراهيم لهذه الدلالة ، فهذا الذي دل عليه الكتاب .

وأما السنة : فالدلالة منها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (إني تارك فيكم ماإن تمسكنم به لن تضلوا من بعدي أبدا كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) (٢) .

والكلام في هذا الخير يقع في موضعين :

أحدهما : في صحته في نفسه . والثاني : في وجه الاستدلال به .

(١) - يونس : ٣٢

(٢) - هذا هو حديث الثقلين المشهور ، قال في حاشية الفلك الدوار : ومن أخرجه وفيه لفظ العزة الإمام زيد بن علي عليهما السلام في المجموع ٤٠٤ ، والإمام علي بن موسى الرضا في الصحيفة ٤٦٤ ، والدولابي في الذرية الطاهرة ١٦٦ رقم ٢٢٨ ، واليزار ٨٩/٣ رقم ٨٦٤ عن علي عليه السلام ، وأخرجه مسلم ١٥ / ١٣٩ وتام التخرير في حاشية الفلك الدوار ... ص ٩ .

أما الكلام في صحته ، فإن ظهوره بين الأمة وانتشاره فيها ، بحيث لا دافع له ولا راد له - دلالة على صحته لأنه لو لم يكن من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لدفعه وردوه ؛ لأنه يتضمن وجوب متابعتهم قولاً وعملاً واعتقاداً ، وذلك يقضي بوجوب اتباعهم في الأصول والفروع عاماً .

وأما الوجه الثاني : فهو أن ظهور هذا الخبر جار مجرى الأخبار الواردة في أصول الشرائع ، كالصلاة والزكاة والحج والصوم ؛ لأن وصولها إلينا على حد واحد ، والعلم لنا بأحدها كالعلم بالآخر ، فالنكر لذلك متجاهل أو جاهل .

وأما وجه الاستدلال به فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمنا من الضلال أبداً ما تمسكنا بعترته ، والتمسك بهم هو متابعتهم في القول والعمل والإعتقاد .

والثالث : أنه لو لم يكن اجماعهم حجة لما أمنا .

والذي يدل على الأصل الأول : وهو أنه صلى الله عليه وآله وسلم أمنا من الضلال أبداً ما تمسكنا بعترته ، فذلك ظاهر في لفظ الخبر ، بحيث يستغني عن تبينه والاستدلال عليه لأنه قال : (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً) وهذا في غاية الظهور والجلاء .

وأما الأصل الثاني : وهو أن التمسك بهم هو متابعتهم في القول والعمل والإعتقاد فلأنه لا يحسن من أحدنا أن يقول : إني متمسك بطريقة فلان ، ولكني لأقول قوله ولا أعمل عمله ، ولا أعتقد اعتقاده ، بل يعد من يقول بذلك مناقضاً نازلاً منزلة من يقول : إني متمسك بطريقة وغير متمسك .

ولأنه عليه السلام قرنهم بالكتاب ، ولا خلاف في وجوب متابعة الكتاب في الوجوه الثلاثة التي قدمنا ، وكذلك العزة ؛ لأن حالهم عنده صلى الله عليه وآله وسلم على سواء .

فإن قيل : ما أنكرتم أن يكون ذلك في الأصول ؟

قلنا : هذا تحكم لأنه لم يفضل ، ولأن الواجب في الأصول الرجوع إلى أدلة عقلية

يجب اتباعها ، دعا إليها الواحد أو الجماعة العترة أو غيرهم ، وتجويز من يجوز - ممن قال : إجماعهم غير حجة - مخالفتهم في الفروع لأوجه له ؛ لأنه لا يخلو إما أن يقول : بأنه أمانة مفضية إلى الظن كخبر الواحد أو دلالة مؤدية إلى العلم أو القطع ، فإن قال بالأول بطل بشهادة الكتاب والسنة .

ولأنه لا يجوز مخالفة خبر الواحد في الشرعيات متى حصل الظن بصدقه ، وإنما تجوز مخالفته عند فقد الظن ، فقد ثبت بطلان جواز المخالفة على هذا الوجه .

وإن قال بالثاني من الوجهين ، فكيف يجوز مخالفة المعلوم والمقطوع به إلى المظنون المتوهم ، هل ذلك إلا عين التنكب لطريق الإنصاف .

وأما [الأصل] الثالث : وهو أنه لولا أن إجماعهم حجة ، ومتابعتهم واجبة لما أمننا ؛ لأن المعجزات الظاهرة على يديه صلى الله عليه وآله وسلم قد أزاحت عنا تجويز التلبيس والتغدير في أخباره ، فلو لم يكن قولهم واجب الإتيان لكان قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (إني تارك فيكم ما إن تمسكنم به لن تضلوا) إتيان لنا من غير مأمون ، واستدعاء إلى ارتكاب المخوف ، وذلك أعظم التغدير وأقبح التلبيس ، وقد ثبت أنه لا يجوز عليه شيء من ذلك .

وأما الطريقة الثانية من الطريقتين المتقدمتين فهي : أنا نقول قد ثبت لنا بما قدمنا كون إجماع أهل البيت عليهم السلام حجة ، فلا يخلو القائل بأن إجماع الأمة حجة إما أن يعتبر أهل البيت ، أو لا يعتبرهم ، فإن لم يعتبرهم فقد أخرج أفاضل الأمة عن أن يعتد بهم ولا قائل بذلك ، وإن اعتبرهم فالحجة لازمة لقولهم لما قدمنا ، فلا معنى لجعل إجماع الأمة إجماعاً ثانياً غير إجماع العترة ، فقد صح لك أن مدار الحق على العترة في الحالتين جميعاً ، وذلك يكشف أنه لا اعتبار بمن سواهم ، إلا أن نجعل الحجة ما كان قائماً بنفسه في الدلالة ، فلو ساغ جعل مائس بحجة حجة إذا انظم إلى الحجة لساغ قول من يقول : إن قول الواحد حجة يجب اتباعها إذا انضم إلى دليل عقلي ، وذلك ظاهر الفساد ، فهذان الطريقتان بحمد الله كافيان لمن أنصف .

وأما آية التطهير وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ

البيت ويظهر كم تطهيرا^(١) فهي دليل العصمة أيضا ؛ لأن رجس الأقدار حكمهم فيه وحكم غيرهم بالإتفاق واحد ، فلم يبق فائدة الآية وخبر الكساء^(٢) الذي بينها إلا تطهيرهم من درن الأوزار ، وذلك معنى العصمة ، شهادة الله لهم وشهادة رسوله بإذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم .

والتطهير : التنزيه عن الإثم ، وعن كل قبيح ، ذكر ذلك صاحب الجمل في اللغة أحمد بن فارس اللغوي^(٣) وهذا هو معنى العصمة ، وهو ترك موقعة الرجس وعقتضى لفظ القرآن العزيز ، وقد ورد لفظ الصحيح من قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فصار ذلك دليلا من الطريقين ، وطريق عصمة من الأصليين ، وذلك يقضي بعصمتهم بإرادة الله سبحانه ، وإخبار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

(١) - الأحزاب : ٣٣

(٢) - حديث الكساء المشهور احد الأحاديث التي تفوق درجة التواتر ، وهو الذي خصص آية التطهير في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وفاطمة والحسين عليهم السلام أخرجه الحافظ محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين بأرقام : ٩٢ - ٦١٧ - ٦٣٥ من عدة طرق منها رقم ٩٢ عن عمر بن أبي سلمة ربيث النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت أم سلمة : ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فدعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة وحسنا وحسينا فجلهم بكساء وعلي خلف ظهره فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقالت أم سلمة وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال : أنت على مكانك أنت الى خير .

ورواه الطبراني و ترجمة عمر بن أبي سلمة تحت الرقم (٨٢٩٥) ج ٩ ط بغداد من المعجم الكبير ، وقال في تعليق الكتاب : ورواه التومذي في الحديث ٣٢٥٨ ، ٣٨٧٥ من سننه ، وابن جرير في تفسيره ٨/٢٢ وهو حديث حسن ، ورواه الحافظ الحسكاني في شواهد التنزيل ٢/ ٥٥ - ٧٩ ط الأولى .

كما أخرجه الحافظ محمد بن سليمان الكوفي رقم ٦١٧ عن عائشة والحاكم الحسكاني ٣٧/٢ والحموي في فرائد السمطين ١/ ٣٦٧ ط بيروت ، وابن عساكر رقم ٦٥٠ ترجمة أمير المؤمنين في تاريخ دمشق ١٦٣/٢ وهو في المناقب لمحمد بن سليمان الكوفي رقم ٦٣٥ عن الإمام جعفر الصادق ، وقريبا منه رواه الحافظ الحسكاني ٣١/٢ ط الأولى ، وله شواهد أخرى في تخصيص آية التطهير يطول سردها .

(٣) - أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب اللغوي النحوي القزويني الأصل ثم الرازي ، صاحب كتاب الجمل في اللغة المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وقيل : سنة ٣٩٠ والأول أصح كان فقيها شافعيا ثم انتقل الى مذهب مالك آخر عمره ، وذكره الطوسي في مصنف الإمامية ، واختاره آل بويه معلما لأبنائهم ، وهو من أكابر ائمة اللغة ومن تلاميذه صاحب بن عباد وبديع الزمان الهمداني ذكروا له خمسة وثلاثين مؤلفا انظر أعيان الشيعة ٦٠/٣ ، ٦٣ وانظر مصادر ترجمته الكثيرة في مجلة تراثنا العدد ١٧ الصادر ١٤٠٩ هـ ص ٧٥ مع كتابه المنشور في نفس العدد بعنوان كتاب الليل والنهار .

بذلك ، ومنع وقوع الخطأ عاجلا وآجلا ، وإذا أمنا وقوع الخطأ منهم وجب الإقتداء بهم ، دون من لم نأمن منه وقوع الخطأ ، وتطرق الرجس عليه وترك التطهير له ، ومن يؤمن وقوع الخطأ منه ثبت أنه يهدي الى الحق لموضع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(١) فقد أوجب الله الإقتداء بمن يهدي الى الحق ، وليس ذلك إلا مع تطهيره له ، وإذهاب الرجس عنه ، ووبخ من لم يحكم بذلك فصار ذلك حكم الله سبحانه وتعالى ، ومن لم يحكم به كان من أهل هذه الآية ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢) .

وأما آية المودة فدالة على وجوب محبتهم على الجزم .

ووجه الاستدلال بها : أنه عز وجل جعل حبهم الذي هو لهم نفعة في الدين أجرا لسيد المرسلين ، أوجبه على كافة الخلق أجمعين ، ومن ظلم الأجير أجرته فهو من الظالمين ، فما حال من ظلم النبي الأمين في وداد عترته الأكرمين ، فهو من الهالكين بأيقن يقين .

وفي المودة والبغض لآل محمد صلوات الله عليه وعليهم أخبار كثيرة ، وأحاديث، شهيرة ، رواها المؤلف والمخالف ، وسيأتي ان شاء الله في سورة المودة الإشارة إلى شيء منها ، ولنذكر هاهنا حديثا واحدا في المودة ، وآخر في البغض من رواية الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الأطروش^(٣) عليهم السلام تبركا بذكره وروايته ؛ فإنه قال في كتاب البساط^(٤) ما لفظه : (وخبرت عن الحسن بن عبد الله بن أبي ليلى^(٥)

(١) - يونس : ٣٥

(٢) - المائدة : ٤٤

(٣) - تقدمت ترجمته .

(٤) - البساط : كتاب شهير للإمام الناصر الأطروش في أصول الدين منه نسخ مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير وفي كثير من المكاتب وهو الآن تحت الصف والتحقيق .

(٥) - الحسن بن عبد الله بن أبي ليلى لم أجده ، ولعله الحسن بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى

قال: حدثنا سعيد بن نصر السكوني^(١) عن محمد بن أبي ليلى^(٢) وعن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي ليلى^(٣) عن أبيه^(٤) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه ، وأهلي أحب إليه من أهله ، وعترتي أحب إليه من عترته ، وذاتي أحب إليه من ذاته)^(٥).

وقال عليه السلام فيه أيضا: (وحدثنا محمد بن منصور^(٦) قال: حدثنا حوز بن

(١) - سعيد بن نصر السكوني : وفي سند المناقب الآتي محمد بن سليمان الكوفي سعيد بن عمرو ، وفي سند المرشد بالله سعيد بن عمرو بن أبي نصر السكوني ، ولعله سعيد بن عمرو بن سعيد بن أبي صفوان السكوني أبو عثمان الحمصي ، انظر ترجمته في تهذيب الكمال ١١/ ١٧ ، يروي عنه محمد بن عمرو بن الحسن بن أبي هاشم بن أبي كرب الحمصي .

(٢) - محمد بن أبي ليلى : هو محمد بن عبد الرحمن أبو عبد الرحمن الكوفي قاضي الكوفة <٧٤- ١٤٨> ذكره محمد يحيى سالم في معجم اصحاب الإمام زيد بن علي عليه السلام وقال : قارئ محدث فقيه ثقة مشهور أثنى عليه المحدثون وغيرهم . انظر معجم اصحاب الإمام زيد .

(٣) - الحكم بن عبد الرحمن بن أبي ليلى : هكذا في السند ، وفي غيره الحكم عن عبد الرحمن ، وهو الصحيح ، والذي يروي عن عبد الرحمن هو الحكم بن عتيبة كما في تهذيب الكمال ١٧/ ٣٧٤ ، والحكم بن عتيبة الكندي : أبو محمد الكندي ، ويقال: أبو عيدا لله ، ويقال: أبو عمر <٥٠- ١١٣> هـ . وقيل: ١١٤ - وقيل: ١١٥ ، يروي عنه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، انظر ترجمته في تهذيب الكمال ٧/ ١٤٣٨ .

(٤) - عبد الرحمن بن أبي ليلى واسم أبي ليلى يسار ، ويقال: بلال ، ويقال: داود بن بلال المولود لست سنوات بقين من خلافة عمر ، المتوفى ٨٣ هـ تابعي مشهور انظر ترجمته في تهذيب الكمال ١٧/ ٣٧٢ ، وقيل: ولد بخلافة أبي بكر شهد النهروان مع علي ، وقتل في وقعة دير الجماجم سنة ٨٢ هـ .

(٥) - الحديث أخرجه أيضا الحافظ محمد بن سليمان الكوفي رقم ٢٦١٩/ ١٣٤ قال: حدثنا عثمان بن سعيد قال: حدثنا محمد بن عبد الله قال : حدثني أبو شعيب ، قال: حدثنا محمد بن عمران ، قال: حدثنا سعيد بن عمرو عن ابن أبي ليلى عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحديث .. الحديث .

وأخرجه الإمام المرشد بالله يحيى بن الحسين في الأمالي الحمصية باب مناقب أهل البيت ص ١٥٥ ط الأولى وسنده قال: وبه أخبرنا الشيخ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ إجازة قال: حدثنا أبو بكر بن خلاد قال: حدثنا أحمد بن محمد بن صاعد ، قال: حدثنا محمد بن عمران ، قال: حدثنا سعيد بن عمر بن أبي نصر السكوني عن ابن أبي ليلى عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه أبي ليلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحديث .

(٦) - الإمام الحافظ المسند محمد بن منصور ابن يزيد المرادي أبو جعفر الكوفي الزيدي ، أحد الأعلام المعمرين من علماء الزيدية وأصحاب الأئمة مولده بالكوفة في منتصف القرن الثاني للهجرة ، وسمع الحديث في مدرستها الكبرى وتلمذ على أئمة آل البيت عليهم السلام الإمام القاسم الرسي ، والإمام أحمد بن عيسى بن زيد وغيرهما من أئمة آل ، وتعمّر طويلا ، ولعل وفاته سنة ٣٠٠ هـ وله كتب ومصنفات كثيرة منها الموجود ومنها المفقود (انظر اعلام المؤلفين الزيدية تحت الطبع ، وانظر مقدمة كتاب الذكر للمترجم .

الحسين^(١) قال : حدثنا حسان بن سدير^(٢) قال : حدثني شريف المكي^(٣) قال : حدثنا محمد بن علي وماريت محمديا يعدله ، قال : حدثنا جابر بن عبد الله الأنصاري^(٤) قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : (أيها^(٥) الناس من أبغضنا أهل البيت بعثه الله يوم القيامة يهوديا) قال : قلت يا رسول الله وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ؟ قال : (وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم)^(٦) .

ومن المعلوم أنه ليس من محبتهم الرفض لهم ولعلومهم ، والإقتداء بغيرهم ، فإن ادعاء المحبة بغير عمل سخرية وجهل ، لأن خلافهم خلاف المودة ، ولم يودهم من خالفهم ، وقد قال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٧) ففرن المحبة بالإتباع ، فمن لم يتبعهم لم يحبهم ، وكفى بالإجماع دليلا ، فإنه لاخلاف في وجوب حب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمكان الآيات والآخبار ، والكل من ذلك دال على وجوب اتباعهم قولاً وعملاً واعتقاداً ، لأن عدم ذلك خلاف المودة ، فمن خالفهم فلم يودهم ، ومن لم يودهم فقد عصى الله ، ومن هاهنا يعلم أن اجماعهم حجة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في

(١) - حرز بن الحسين لعل في الأسم تصحيحاً ، ولم يذكره محقق كتاب الذكر محمد يحيى عزان وقد تتبع مشائخ المرادي كلهم ، ولعله حرز بن عبد الله بن الحسين السجستاني ابو محمد الأزدي الكوفي ، أعيان الشيعة ٤/ ٦١٨ .

(٢) - حسان بن سدير : لعله حنان بن سدير بن حكيم بن صهيب ، ابو الفضل الصيرفي كوفي روى عن الصادق وعده الإمامية في اصحابه وأصحاب الكاظم قال الدراقطني : إنه من شيوخ الشيعة انظر أعيان الشيعة ٦/ ٢٥٦ .

(٣) - شريف المكي : هو شريف بن ميمون المكي روى عن محمد بن علي الباقر ، قال الذهبي رافضي خرج مع ابن حسن يعني عبد الله فظفر به المنصور فقتله ، ذكره السيد صارم الدين الدين وابن خلكان ، وابو حميد في ثقات محدثي الشيعة .

(٤) - جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي < ١٦ ق هـ - ٧٨ > صحابي مشهور ، انظر معجم رجال الإعتبار .

(٥) - في ب : يا أيها الناس .

(٦) - لم نجد الحديث بلفظه ، وله شواهد كثيرة بالفاظ متقاربة منها ما أخرجه في الفلك الدوار ص ١٥٦ عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : (من أبغضنا أهل البيت حشره الله يوم القيامة يهوديا وإن صام وصلى ، إن الله علمني أسماء أمي كلها كما علم آدم الأسماء كلها ، ومثل لي أمي في الطين فمر بي أصحاب الرايات فاستغفرت لعلني وشيعته) وفي المناقب لابن المغازي ٥٠ - ٥٣ (من أذى عليا بعث يوم القيامة يهوديا أو نصرانيا) والحديث بنصه وسنده في الأصل رواه العلامة بحد الدين المؤيدي في لوامع الأنوار ١/ ٣٦٧ .

(٧) - آل عمران : ٣١

هذه الثلاث الآيات ^(١) ونحوها ، من تفسير ائمتنا عليهم السلام مايشفي الغليل ويوضح السبيل ، فالطريق بحمد الله في ذلك واضح ، والحق فيه منير لائح ، فليثق الله المتأول لهذه الآيات الملقى في قلوب السامعين الشبهات .

وأما أحاديث التمسك والسفينة : فهي كما رواه في كتاب قواعد عقائد آل محمد عليهم السلام ^(٢) وغيره أنهما مما تلقتهما الأمة بالقبول.

من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم يوم نزل بماء يدعى حمأ بين مكة والمدينة في حجة الوداع ، فقام خطيباً : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : (أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتيني رسول من ربي فأجيب ، فإني تارك فيكم ثقلين كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي).

وفي رواية أخرى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي ، إني سألت الله أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما علي الحوض ، فأعطاني ذلك) .

وفي رواية (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) .

والأصل في ذلك : ما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في خطبة الوداع : (أيها الناس إني امرؤ مقبوض ، وقد نعت إلي نفسي ، ألا وإنه سيكذب علي كما كذب على الأنبياء من قبلي ، فما أتاكم عني فأعرضوه علي كتاب الله ، فما وافق كتاب الله فهو مني وأنا قلتة ، وما خالفه فليس مني

(١) - في ب : الآيات الثلاث وغيرها .

(٢) - كتاب قواعد عقائد آل محمد ، ويسمى قواعد عقائد آل البيت ، تأليف العالم الكبير محمد بن الحسن الديلمي المتوفى سنة ٧١١هـ مخطوط في عدة مكتبات خاصة وعامة ، انظر عن مخطوطاته التراث الإسلامي في المكتبات الخاصة في اليمن ، وعن المؤلف ومولفاته أعلام المؤلفين الزيدية ، وقد نشر جزءاً من هذا الكتاب محمد زاهد الكوثري سنة ١٣١٩هـ وهو ما يتعلق بالرد على الباطنية .

ولم أقله^(١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (أمة أخى موسى افترقت على احدى وسبعين فرقة) [وافترقت أمة أخى عيسى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي من بعدي على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا فرقة واحدة] ^(٢).

وفي رواية (افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة وسبعون في النار ، وستفترق أمتي بعدي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها هالكة إلا فرقة واحدة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، فإحدى وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، والذي نفس محمد بيده لتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار) ^(٣).

وفي روايات أخر (تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ماأنا عليه اليوم وأصحابي) والأمة مجمعة على صحة هذا الخبر ، وكل فرقة من فرق

(١) هذا حديث العرض المشهور ، والمعمول به في قبول الحديث عند آل محمد ، أخرجه الإمام الأعظم زيد بن علي عليه السلام في الرسالة المدنية ، ورواه الإمام الهادي عليه السلام في كتاب القياس ، وهو في الإعتصام للإمام القاسم بن محمد ، ورواه الطبراني في الكبير ٩٧/٢ ، وجمع الزوائد ١٧/١ وهو بلفظ مقارب في أول تفسير البرهان ، لأبي الفتح الديلمي ، وفي الجامع الصغير للسيوطي ١/٧٤ ، رقم ١١٥١ ، وقد شكك فيه الحشوية ، وقالوا: إن حديث العرض يحتاج الى عرض ، ثم اضطروا الى عرض بعض آحاديث على كتاب الله خصوصاً تلك التي لاتعارض مع مبادئهم ، وقد صنف المولى العلامة محمد الدين المؤيدي كتاباً في حديث العرض ، وكيفية العمل به ، والرد على الإشكالات التي أوردت عليه ، وهو تحت الطبع .

(٢) - ما بين المعكوفين زيادة من ب .

(٣) - حديث (تفترق أمتي) ورد في أغلب مسانيد وأمهات ومصنفات كتب الحديث بروايات وألفاظ متعددة ، وسيطول المقام لو توبعت ، وفي الحديث كتب مؤلفة ورسائل وبحوث عديدة ، وهذه الرواية اخرجها الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد في الإعتصام ٩/١ وعزاها الى الجامع الكبير للسيوطي عن ابن ماجه ، والطبراني برواية عوف بن مالك . وشواهده كثيرة .

وقد ورد بألفاظ وطرق متعددة ومن أخرجه الترمذي جزء ٤ رقم (١٢٢٩) عن ثوبان وصححه ، ومسلم ٦٥/١٣ بشرح النووي وابن ماجه ٦٥/١ - وأحمد ٥٧٨/٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ عن ثوبان ، وأخرجه الدارمي ٢١٣/٢ عن المغيرة بن شعبة ، والحاكم ٤٤٩/٤ ، وأقره الذهبي عن عمر ، وأخرجه البخاري ١٨١/٩ ، وأخرجه مسلم ٦٦/١٣ عن جابر بين يزيد ، وأخرجه النسائي ٢١٤/٦ عن سلمة بن نفيل ، وأخرجه عبد بن حميد ١١٥ ، وأحمد ٣٦٩/٤ عن زيد بن ارقم ، وأخرجه الذهبي في سير أعلام النبلاء عن سعيد بن ابي وقاص ٥٥٢/٥ . اهـ من هامش الإرشاد للإمام القاسم بن محمد بتحقيق الأخ محمد يحيى سالم .

الإسلام تتلقاه بالقبول ، وتزعم أنها هي الناجية - (فلما سمع ذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم ضاق به المسلمون ، وضجوا بالبكاء ، وأقبلوا عليه وقالوا: يا رسول الله كيف لنا بعدك بطريق النجاة ؟ وكيف لنا بمعرفة الفرقة الناجية حتى نعتمد عليها ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إني تارك فيكم ما إن تمسكنم به لن تضلوا من بعدي ، كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا بم تخلفوني فيهما) .

وحديث التمسك هذا معلوم الصحة لتواتره برواية المخالف والموافق ، وهذا الخبر ونحوه قد شهد لهم بالإستقامة إلى ورود الحوض يوم القيامة ، ودل على أن العترة عليهم السلام متمسك كالكتاب ، حيث قرنهم به ، وجعلهم حجة مثله ، وإلا بطل معنى الإقتران ، فكما أن الكتاب واجب الإلتباع فكذلك هم ، وأمننا الصادق مع ذلك من الضلال ، بشرط التمسك بهم ، وذكرهم بلفظ (لن) وهي لنفي الأبد فلا خوف مع ذلك .

ومما رواه أنتمنا عليهم السلام وشيعتهم رضي الله عنهم ، عن علي عليه السلام أنه قال بعد ذكره افتراق اليهود والنصارى : (وافترقت هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كل فرقة على ثلاث وسبعين ملة ، كل ملة ضالة مضلة إلا من أخذ بحجزتي وحجزة أهل بيت رسوله ، وكتابه ، وسنته ، واتباع الحبل الأكبر والحبل الأصغر) (١)

ومن ذلك ما روي من طريق أخرى (أنه خرج في مرضه الذي توفي فيه ، ومعه علي والعباس ، فصلى ووضعاه على المنبر ، فخطب وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: (أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين لن تعمي قلوبكم ، ولن تزل أقدامكم ، ولن تقصر أيديكم ما أخذتم بهما ، كتاب الله سبب بينكم وبين الله فأحلوا حلاله وحرموا حرامه) فعظم من أمر الكتاب ما ذكره الله أن يعظم ثم سكت ، فقال عمر بن الخطاب

(١) - رواه في الاعتصام ١/١٣٦ عن حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان ، وعن الإمام الحسن بن بدر الدين عن علي عليه السلام من خطبة الزهراء .

: هذا أحدهما قد أعلمتنا به ، فأعلمنا بالآخر ؟ قال: أما إنني لم أذكره إلا وأنا أريد أن أخبركم به ، غير أنه ^(١) أخذني الريق ، فلم أستطع أن أتكلم ، ألا وعترتي ، ألا وعترتي ، ألا وعترتي ثلاثا .

وفي رواية ثم قال : (وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، فوالله لا يبعث رجل يحبهم إلا أعطاه الله نورا حتى يرد علي يوم القيامة) .

وفي رواية رواها الحجوري في الروضة ^(٢) قال قال ابو العباس محمد بن اسحاق: ^(٣) فلما اشتد به صلى الله عليه وآله وسلم الوجع اجتمع إليه أهل بيته ، ونساؤه فلما رأت فاطمة عليها السلام أباهما قد ثقل دعت الحسن والحسين ، فجلسا معها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ووضعت خدها على خد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجعلت تبكي حتى اخطلت لحيته ووجهه بدموعها ، فأفاق صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد كان أغمي عليه ، فقال لها : (يابنية لقد شققت علي أهلك) ثم نظر إلى الحسن والحسين ، واستعبر بالبكاء فقال: (اللهم إنني أستودعكم وصالح المؤمنين ، اللهم هؤلاء ذريتي أستودعكم ، وكل مؤمن) ثم أعاد الثالثة ووضع رأسه ، ثم قالت فاطمة : واكرباه لكربك ياأبتاه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم

(١) - في ب : غير أنني أخذني الريق .

(٢) - الحجوري : هو يوسف بن محمد الحجوري . والروضة : هو كتاب روضة الأخبار وكنوز الأسرار الذي يشار اليه عادة باسم روضة الحجوري ، والكتاب مخطوط منه نسخة في باريس رقم ٥٩٨٢ ق ٢٤١ .

(٣) - محمد بن اسحاق بن يسار المتوفى سنة ١٥١هـ صاحب السيرة وشيخ كتابها لم يصلنا كتابه كاملا ، بل وصلت منه أجزاء فقط ، أما الكتاب بتمامه فقد اختصره ابن هشام في السيرة النبوية فحذف منه أشياء كثيرة ، قال: تركت ذكرها للإختصار ، وأشياء حذفها بعضها ^(٤) يشنع الحديث به ، وبعضها يسوء بعض الناس ذكره .. الخ ، وبعضها لم يقر لنا البكائي بروايته .

وكتاب ابن اسحاق رواه عنه ثلاثة من تلامذته ، إحدى الروايات التي اختصرها ابن هشام ، وهي رواية البكائي ، أما أن اسحاق قد روى عن الزهري ، وزيد بن رومان ، وفاطمة بنت ... زوجة هشام بن عروة ، وعن عاصم بن عمر بن قتادة ، والأعمش ، وعبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، وقد طبعت أجزاء من رواية يونس بن بكير عن ابن اسحاق في مجلد واحد بتحقيق سهيل زكار .

وسلم : (لا كرب على أبيك بعد الموت) ^(١) ثم أمر أن يصب على رأسه سبع قرب ماءً من سبع آبار ، ففعل به ، ووجد خفة ، وخرج فصلى بالناس ، ثم قام يريد المنبر وعلي والفضل بن عباس قد احتضناه ، حتى جلس على المنبر فخطبهم ، واستغفر للشهداء ثم أوصى بالأنصار ، ثم قال : (إنهم لا يزيفون عن منهاجها ، ولا آمن منكم معاشر المهاجرين الإرتداد ، ثم رفع صوته حتى سمع جميع من في المسجد وورائه يقول : (أيها الناس سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، [إنكم] ^(٢) والله لا تغتفلون علي غدا بشئ ، إلا وإني قد تركت فيكم الثقلين ، فمن اعتصم بهما فقد نجح ، ومن خالفهما هلك وهوى) قال عمر بن الخطاب : وما الثقلان يا رسول الله ؟ قال : (أحدهما أكبر ^(٣) من الآخر كتاب الله - سبب طرف منه بيد الله تعالى ، وطرف بأيديكم ، وعزتي أهل بيتي فتمسكوا بهما لاتضلوا ، ولا تبدلوا أبدا ، فإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، وإني سألت الله ذلك فأعطانيه فلا تسبقوهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم فتضلوا ، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم بالكتاب ، أيها الناس احفظوا قولي تنتفعوا به بعدي ، وافهموا عني ^(٤) تنتعشوا ، لئلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإن أنتم فعلتم ولتفعلن لتجدن من يضرب وجوهكم بالسيف ، ثم التفت عن يمينه فقال : أين علي بن ابي طالب ؟ ألا وإني قد تركته فيكم ، ألا هل بلغت ؟ [ألا هل بلغت] ^(٥) ؟ فقال الناس : نعم يا رسول الله صلى الله عليك ، ثم قال : اللهم اشهد ، ألا وإنه سيرد علي الحوض منكم رجال فيدفعون عني فأقول : يارب أصحابي أصحابي ؟ فيقول : يا محمد إنهم أحدثوا بعدك

(١) - قوله : (لا كرب على أبيك بعد الموت) أخرجه الإمام الموفق بالله في الاعتبار وسلوة العارفين ، تحت الطبع ، والإمام المرشد بالله في الأمالي الخميسية ٩٤/٢ ، وابن ماجه برقم ١٦٢٩ ، والترمذي في الشمائل رقم ٣٩٢ ، وهو في تهذيب الكمال ١٤٢ / ٥٦٧٠ ، وكتر العمال برقم : ١٨٨١٨ ، ١٨٨١٩ ، ١٨٨٢٠ ، وعزاه الى الباقر ، وابن عساكر عن انس ، وفي موسوعة أطراف الحديث النبوي عزاه الى من سبق والى اتحاف السادة المتقين ، ١٠ / ٢٦٧ ، والمغني للعراقي ٤٤٨ / ٤ والخطيب البغدادي ٦ / ٢٦٤ ، وتاريخ اصفهان ٢ / ٢٣١ .

(٢) - ما بين القوسين موجود في ب .

(٣) - في ب : أعظم .

(٤) - في ب : مني .

(٥) - ما بين القوسين زيادة في ب .

غيروا سنتك ، فأقول : سحقاً سحقاً^(١) . انتهى ما ذكره في الروضة .
واعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم ينتصب في حال التعب والمشقة لأن يعرفهم
بما قد عرفوا من تعظيم القرآن ، وإنما أراد بذلك بيان حال العترة الأطهار أنهم
صلوات الله عليهم متمسك كالكتاب .

وأيضاً وجدنا الله عز وجل قد أخبر عن أهل البيت بصفة تشهد باستحقاقهم لما في
خير التمسك هذا من مقارنتهم للكتاب ، وأن لهم حكمه في التمسك حيث قال عز
وجل : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (٢) وَيَبَيِّنَ لَهُمْ
صلى الله عليه وآله وسلم بما رواه عنه علماء الحديث في خير الكساء .

وقد نظم الشعراء أحاديث التمسك وغيره من ذلك قول سعد بن بارق^(٣) مخاطباً
للإمام الزكي زيد بن علي عليهما السلام :

أجبت كتاب الله حق إجابة	وصدقته فيكم فأنتم ولاته
وسلمت للقرآن فيما قضى به	وَوُئِيتُكُمْ فِيهِ فَأَنْتُمْ وَلَاتِهِ
وأنتم حصون العلم بعد محمد	بكم يهتدي الهادي وأنتم رعاته

(١) - المقطوعة بنصها في روضة الأخبار للحجوري عطية ، وماورد فيها من أحاديث لها شواهد كثيرة بعضها
بلفظه ، وبعضها بلفظ مقارب ، أما موقعه في مسجد المدينة وخطبته وهو مريض فأخرجه ابن عطية في مقدمة
تفسيره المحرر الوجيز ١/٣٤٠ ، وأبوحيان في تفسيره البحر المحيط ١/١٢ ، وابن حجر في الصواعق المحرقة ص ٧٥
٦٣١ ، وأخرجه يحيى بن الحسن في كتابه أخبار المدينة ، بإسناده عن جابر ، وعنه في ينابيع المودة ، وموقعه في مرضه
أخرج الحافظ ابن أبي شيبة ، وعنه العسامي في سمط النجوم العوالي ٢/٥٠٢ رقم ١٣٦ ، وأخرجه البزار في مسنده
بلفظ أوجز كما في كشف الأستار ١٦١٢ ، وقال الأزهري في تهذيب اللغة ٩/٧٨ : روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في مرضه .. حديث الثقلين .

(٢) - الأحزاب : ٣٣

(٣) - سعد بن بارق : لم أجد له ترجمة ، والذي يظهر انه من أصحاب الإمام الأعظم زيد بن علي عليهما السلام
والجاهدين ، وقد صرح بأنه جاهد أيضاً واستشهد مع ولده الإمام يحيى بن زيد بن علي عليهم السلام ، وهناك
حسان بن فائد البارقى يروي عن الإمام زيد ذكره أبو القاسم عبد العزيز بن إسحاق البغدادي في تلامذة الإمام زيد
، وقال : كان فاضلاً شجاعاً في الجهاد .

فقال زيد بن علي عليهما السلام : جعلك الله سعيدا في حياتك ، شهيدا في مماتك ؛ فقتل سعد مع يحيى بن زيد عليهما السلام .

ومن أحاديث السفينة قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق وهوى) ^(١) فهذا الخير دال على أنهم كالسفينة ، فكما أن السفينة منجاة للأبدان من الغرق ، فكذا أهل البيت منجاة للأبدان من الهلكة ، ولقد أحسن من قال :

أتتم سفينة نوح والمراد بها	ولاؤكم لامساميرا ولا خشبا
فمن تعلق منها بالولاء نجا	ومن تخلف في بحر الهوى عطبا
وما المودة في القربى بواجبة	هاشم بل لكم يا أقرب القربا
وما الصراط سوى إضمار طاعتكم	فمن تنكب عن مهاجمكم نكبا
وكل منقلب عن عقد بيعتكم	كان الجحيم له مأوى ومنقلبا
بني أبي طالب لولا محبتكم	ما فاز ذو الدين والدنيا بما طلبا
لولا محبتكم فينا وحجتكم	لكاد يزهّد في الإسلام من رغبا

(١) - حديث السفينة : أخرجه الإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام في الأحكام ٥٥٥/٢ بلاغا ، والإمام أبو طالب في الأمالي ١٠٥ ، والإمام المرشد بالله في الأمالي الخميسية ١٥١/١ ، ١٥٦ - وابن المغازلي الشافعي في المناقب ١٣٣ ، والحموني في فرائد السمطين ٢٤٦/٢ ، رقم ٥١٩ ، والطبراني في الكبير ٤٥ / ٣ ، برقم ٢٦٣٦ ، والحاكم في المستدرک ١٥١/٣ ، ٣٤٧/٢ ، عن أبي ذر الغفاري ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣٠٦/٤ ، والطبراني في الكبير ٣٤/١٢ ، رقم (١٤٣٨٨) وابن المغازلي الشافعي في المناقب ١٣٢ ، والطبري في ذخائر العقبى ٢٠ ، وقال : أخرجه الملا عن ابن عباس ، وأخرجه الإمام المرشد بالله في الأمالي الخميسية ١٥٤/١ ، والطبراني في الصغير ٨٥/٢ رقم ٨٥٢ عن أبي سعيد الخدري ، وأخرجه الإمام علي بن موسى الرضا في الصحيفة ٤٦٤ ، والطبري في ذخائر العقبى ٢٠ عن علي وقال : أخرجه ابن السري وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٩١ / ١٢ عن أنس بن مالك .

وأخرجه ابن المغازلي الشافعي في المناقب ٢٣٣ ، عن سلمة بن الأكوع (انظر الفلك الدوار ص ١٠ ، والإرشاد للإمام القاسم ص ٥٥) .

وقد علم السامعون أن الرافض لمذاهبهم ، والتابع لسواهم ، والمستفتي لغيرهم المقتبس علمه من أضدادهم متخلف غير راكب معهم في سفينتهم ، وهم سفينة النجاة فعلمنا أنه صلى الله عليه وآله وسلم يبين للأمة بذلك أن إتباع أهل بيته في القول والعمل والإعتقاد هو طريق النجاة ، وأن مخالفتهم هي سبب الهلاك ، لأنه لما مثلهم بسفينة نوح ، وقد علمنا أن أمة نوح عليه السلام هلكت كلها إلا من ركب في السفينة - علمنا أن كل الأمة يهلكون إلا من اتبع أهل بيت نبيته عليهم السلام ، وإلا لبطل التمثيل النبوي المأخوذ عن الملك العلي ، وأن الملتزم لطريقة غيرهم من الفقهاء الذين خالفوا طرائقهم لا ينجون مع الناجين ، كما أن أمة نوح لم ينج منها من التجأ إلى غير السفينة ، ولما حكم صلى الله عليه وآله وسلم بغرق المتخلف عنهم أو حكمه على حسب الرواية ثبت كونه عاصيا لربه ، ضالا عن مناهج دينه ؛ إذ لم يقبل من مرشده إرشاده ولا فقهه مرآته .

ومما زرد فيهم ^(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿أهل بيتي كالنجوم كلما أفل نجم طلع نجم﴾ ^(٢) فكما أن النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فكذا حال العترة يهتدى بهم في ظلم الشبه [والخيرة] ^(٣) .

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم في تفضيلهم والدلالة على إتباعهم وما فضلهم الله به على غيرهم : (النجوم أمان لأهل السماء ، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهبت النجوم من السماء أتى أهل السماء ما يوعدون ، وإذا ذهب أهل بيتي من الأرض أتى أهل الأرض ما يوعدون) ^(٤) .

(١) - في ب : ومما يؤكد ذلك بدلا عن (ومما ورد فيهم) .

(٢) - أخرجه الإمام المرشد بالله في الأمالي الحميسية بلفظ (مثل أهل بيتي مثل النجوم كلما مر نجم طلع نجم) عن أمير المؤمنين ، وهو في غيره بالفاظ مقاربة ، (انظر تخريج الحديثين الآتين) .

(٣) - ما بين القوسين زيادة من ب .

(٤) - الحديث بهذا اللفظ وقريبا منه أخرجه الحافظ محمد بن سليمان الكوفي بأرقام ٦١٨ ، ٦٢٣ ، ٦٥١ ، ٦٥٣ ، من طرق عن سلمة بن الأكوع ، وأخرجه كذلك الإمام المرشد بالله في الأمالي الحميسية ١٥٥ ، ويعقوب في المعرفة والتاريخ ٥٣٨/١ ط ١ / قال المحمودي : ورواه مسدد وابن أبي شيبة وأبو يعلى كما في المطالب العالية ، لابن حجر وجمع الجوامع للسيوطي ٤٥١/١ ، وهو في كنز العمال برقم (٣٤١٨٨) وفي موضع أوامهم الجمع للخطيب ٤٠/٢ ،

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق ، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف فإذا خالفتهم قبيلة من العرب صارت حزب إبليس) ^(١) فهذا ومثله فكثير عنه صلى الله عليه وآله وسلم يفهمه من روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم ونحن نستغني بقليل ذكره عن كثير .

وأيضاً [أن] ^(٢) الأمة مجمعة على أن النجاة إنما تكون بمتابعة القرآن والقرآن قد شهد أن النجاة بمتابعة العترة الأطهار كما قدمنا من نحو قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ثم عرفنا تعالى بالصادقين منهم بصفاتهم في الآيات التي مر ذكرها ، فإذا تأمل العاقل ذلك علم أن القرآن قد شهد بأن الفرقة الناجية هم فرقة أهل البيت عليهم السلام ، وإن التفتت إلى السنة الشريفة وجدتها قاضية بمثل هذه الشهادة ، في أخبار كثيرة ، منها ما قدمنا .

ومنها : قوله صلى الله عليه وآله وسلم يوم غدیر خم بعد أن بلغ ما أمره الله به في علي بن أبي طالب عليه السلام : (أيها الناس إني فرطكم ، وأنتم واردون عليّ الحوض ، حوض أعرض مما بين بصرى إلى صنعاء ، فيه عدد النجوم قدحان من فضة ، وإني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ؟ الثقل الأكبر كتاب الله عز وجل ، سبب طرفه بيد الله تعالى وطرف بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا ، وعزتي أهل بيت ، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يلقياني ، وسألت الله لهم ذلك فأعطاني فلا تسبقوهم فتهلكوا ولا تعلموهم فهم أعلم منكم) ^(٣) .

وانظر الحموي فرائد السمطين ٢/٢٤٠ ، ٢٥٢ ط بيروت ، وأخرجه الحاكم في المستدرک ٣ ، ١٤٩ ، عن ابن عباس بلفظ مقارب ، وهو بلفظ مقارب في الأحكام للإمام الهادي عليه السلام .

(١) - أخرجه بهذا اللفظ الإمام القاسم بن محمد في الاعتصام ١٥٧/.. عن ذخائر العقبي للطبري ، وأخرجه الحاكم في المستدرک ٣/١٤٩ ، وصححه والسيوطي في إحياء الميت ٣٣ ، وابن حجر الميثمي في الصواعق ٢٣٥ .

(٢) - الزيادة من ب ، واللفظ فيها : وأيضاً أن الأمة أجمعت .

(٣) - حديث الثقلين حديث ثابت صحيح مشهور متواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخرجه الحفاظ وأئمة الحديث في الصحاح والمسانيد والسنن بطرق كثيرة صحيحة عن بضعة وعشرين صحابياً ، منهم الإمام علي

بن أبي طالب عليه السلام وزيد بن أرقم ، وأبو سعيد الخدري ، وجابر بن عبد الله ، وجبير بن مطعم ، وحذيفة بن أسيد ، وخزيمة بن ثابت ، وزيد بن ثابت ، وسهل بن سعد ، وضمرة الأسلمي ، وعامر بن ليلى الغفاري ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن حنطب ، وعدي بن حاتم ، وقصير بن عامر ، وأبو ذر ، وأبو رافع ، وأبو شريح الخزاعي ، وأبو قدامة الأنصاري ، وأبو هريرة ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وأم سلمة ، وابن امرأة زيد بن أرقم ، وأم هانئ ، ورجال من قريش .

وقد قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مواقف مشهورة ، وفي ملاء من الناس ، أربع مرات في أربعة مواقف هي - موقف يوم عرفة ، موقف يوم غدیر خم ، موقف في المسجد بالمدينة عندما استند إلى الفضل وأمير المؤمنين وخرج إلى المسجد في مرضه ، موقف في مرضه في الحجرة عندما رآها امتلأت بالناس .

والحديث يوم عرفة أخرجه الترمذي في سنه ٦٦٢/٥ رقم ٣٧٨٦ ، عن جابر بن عبد الله وقال : وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد ، وزيد بن أرقم وحذيفة بن أسيد ، وأخرجه ابن أبي شيبة ، وعنه في كنز العمال ٤٨/١ ط ١ ، وأخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير ٢/٢٥٠ ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٦٨ (الأصل الخمسون) والطبراني في الكبير ٦٣/٣ رقم ٢٦٧٩ والخطيب في المتفق والمفترق ، وعنه في كنز العمال ٤٨/١ ط ١ ، وفي مجمع الزوائد ٥/١٩٥ ، ٩/١٦٣ ، ١٠/٣٦٣ ، ٢٦٨ ، وأخرجه البخاري في المصابيح ٢/٢٠٦ ، وابن الأثير في جامع الأصول ، ١/٢٧٧ رقم ٦٥ ، واليافعي في التلويح ٢/٢٦٤ ، في ترجمة أحمد بن مهرا ، وأخرجه الحافظ المزني في تهذيب الكمال ١/٥٠ ، وفي فقه الأشراف ٢/٢٧٨ ، والخوارزمي في كتاب مقتل الحسين ١/١١٥ ، والزرندي في نظم در السملطين ٢٣٢ ، والمقرئ في معرفة ما يجب لآل البيت النبوي .

- أما في موقف يوم غدیر خم فأخرجه النسائي في خصائص علي ص ٩٦ ، رقم ٧٩ ، والبخاري باختلاف في اللفظ في التاريخ الكبير ٣/٩٦ ، ومسلم رقم ٢٤٠٨ ، وأحمد ١٥/١٧ ، ٤/٣٦٦ ، وعبد بن حميد في مسنده رقم ٢٥٦ ، وابن حجر في المطالب العالية ٤/٦٥ ، رقم ١٨٧٣ ، وقال : هذا إسناد صحيح ، والدارمي في سننه ٢/٣١٠ ، ٢٣١٩ ، والطبراني في المعجم الكبير ٣/٢٦٧ ، ٢٦٨٣ ، وفي ٥/٤٩٦٩ ، وانظر فهرس المعجم ، والحاكم في المستدرک ٣/١٠٩ ، بثلاث طرق ، وصححه وأقره الذهبي ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/٣٥٥ ، ٩/٦٤ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/١٤٨ ، ٧/٣٠ ، ١٠/١١٤ ، وعشرات غيرهم بالفاظ متقاربة .

- وأما موقف مسجد المدينة فأخرجه ابن عطية في مقدمة تفسيره (المحرر الوجيز ١/٣٤) وأبو حيان في تفسير البحر المحیط ١/١٢ ، وابن حجر في الصواعق المحرقة ص ٧٥ ، ١٣٦ ، ويحيى بن الحسن في كتابه أخبار المدينة بإسناده عن جابر ، وعنه في ينابيع المودة ص ٤٠ ، وغيرهم .

- وأخيرا في موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه في الحجرة أخرجه الحافظ ابن أبي شيبة ، وأورده عنه الوصافي في معجم النجوم العوالي ٢/٥٠٢ رقم ١٣٦ ، واليزار في مسنده بلفظ أوجز كما في كشف الأستار ٣/٢٢١ رقم ٢٦١٢ ، والخطيب الخوارزمي في فضل الحسين عن ابن عباس ١/١٦٤ ، ورواه ابن حجر في الصواعق المحرقة ٨٩ عن أم سلمة في مرضه قالت : وقد امتلأت الحجرة بأصحابه .

انتهى ملخصا من مجلة تراننا العدد ١٤ السنة ١٤٠٩ ص ٨٤ - ٩٣ تحت موضوع أهل البيت في المكتبة العربية للسيد عبد العزيز الطباطبائي ، وفي طريق حديث الثقلين عدة كتب منها ١- طرق حديث (إني تارك فيكم الثقلين) تأليف أبوالفضل محمد بن طاهر المقدسي ، ابن القيسراني (٤٤٨-٥٠٧) .

ومنها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله جعل عليا وزوجته وابنيه حجج الله على خلقه، وهم أبواب العلم في أممي من اهتدى بهم هدي إلى صراط مستقيم)^(١).
ومنها: صريح قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله جعل عليا لي وزيرا وأخا ووصيا، وجعل الشجاعة في قلبه، وألبسه الهيبة على عدوه، وهو أول من آمن بي، وهو أول من وحد الله معي، وهو سيد الأوصياء، للحق به سعادة، والموت في طاعته شهادة، واسمه في التوراة مقرون إلى اسمي زوجته الصديقة الكبرى، وابناه سيدا شباب أهل الجنة، وهو وهما والأئمة من ولدهما حجج الله على خلقه).

ومنها: مارواه المرشد بالله عليه السلام في أماليه بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من سره أن يحيي حياتي ويموت ميتتي ويدخل جنة عدن التي غرسها ربي [عز وجل بيده] فليتول علي بن أبي طالب وأوصيائه فهم الأولياء والأئمة من بعدي أعطاهم الله علمي وفهمي وهم عترتي من لحمي ودمي إلى الله أشكو من ظالمهم من أممي والله لتقتلنهم أممي لا أنالهم الله عز وجل شفاعتي)^(٢).

(١) - أخرجه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله الأنصاري ٥٨/١ برقم ٨٩ وله شواهد أخرى.

(٢) - الإمام المرشد بالله يحيى بن الحسين بن إسماعيل بن حرب بن زيد الجرجاني [٤١٢-٤٧٩] أحد أعلام الزيدية وأتمتهم في الجيل والدليم، عالم مجتهد حافظ مسند متكلم دعا إلى الله في الجيل والدليم والري وجرجان في أيام المستظهر العباسي وسلك مسلك أئمة آل في العلم والعمل، وأخباره ومصنفاته كثيرة منها - الأمالي الخميسية في جزأين مطبوع - الأمالي الإثنيية ويسمى الأنوار في فضائل آل البيت عليهم السلام - سيرة المويد بالله، والكتاب المشار إليه هو الأمالي الخميسية.

الحديث أخرجه بألفاظ متقاربة الإمام المرشد بالله في الأمالي الخميسية ١٣٦، ١٤٦، والحافظ محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ١٠٧/١، رقم ٥٩٥، عن الباقر، وأخرجه أيضا بلفظ (من أحب أن يحيي حياتي) الحاكم في المستدرک الصغير ٢٨/١، وأبو نعيم في الحلية ٢٤٩/٤، والطبري في ذيل المذيل كما في نسخة ص ٨٣ ط مصر عن زيد بن أرقم، وهو في الإصابة ٥٥٩/١، وأخرجه ابن عساكر في الحديث (٤٠٥) من ترجمة أمير المؤمنين عن تاريخ دمشق تحقيق الحمودي ٩٩/٢ ط ٢، والطبراني كما في مجمع الزوائد ١٠٨/٩، وهو بسنده عند المرشد بالله عن الطبراني ص ١٤٤ وفي الاعتصام عن المرشد بالله ١٦٠/١، وعن الجامع الكبير للسيوطي وأبي نعيم في الحلية والرافعي عن ابن عباس. وهو في تنايح المودة ١٢٦/١ عن أبي نعيم والحموي.

ومنها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (قدموهم ولا تتقدموهم ، وتعلموا منهم ولا تعلموهم ولا تخالفوهم فتضلوا ولا تشتموهم فتكفروا) ^(١) فقضى بالضلال على [من خالفهم] والكفر على من شتمهم فكفى بذلك زاجرا لأهل البصائر ، وخزيا ونكالا لأهل الكبائر .

ولسنا نأتي على جميع الأحاديث الواردة فيهم عليهم السلام لأن ذلك لا يدخل تحت الإمكان لأنها كتب حجة وألوف أحاديث كثيرة من رواية الموالف والمخالف حتى تواتر وعلم علما لا يمكن دفعه بشك ولا شبهة .

قال الديلمي رحمه الله تعالى: (الأحاديث التي من رواية الفقهاء المتفق عليها يعني في أهل البيت عليهم السلام ألف وخمسمائة وستة أحاديث ^(٢) غير ما ذكره أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم رضي الله عنهم منها ستمائة وخمسة وثمانون حديثا يختص بعلي عليه السلام ، وتسع مائة وعشرون حديثا يختص بالعترة عليهم السلام كل واحد منها يدل على إمامتهم وفضلهم على سائر الناس) .

قال الإمام المنصور بالله عبدا لله بن حمزة عليه السلام ما معناه: >الأحاديث فيهم عليهم السلام من رواية الموالف والمخالف قريب من ألف ألف حديث < اهـ ^(٣) .

ودلالة ما هذا شأنه وحاله من الأحاديث على نجاة المتبعين لأهل البيت عليهم السلام ظاهر مكشوف منبؤ معناه على طرف الثمām ^(٤) يتعاطاه الجاهل والعارف لا

(١) - حديث (قدموهم ولا تتقدموهم) نقله كما سيأتي عن كتاب شرح الرسالة الناصحة بالأدلة الواضحة للإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام وقد أخرجه الإمام في مقدمة كتابه الشافي ١٦/١ مرسلًا فقال: رويناه عن أبينا . وأخرجه محمد بن سليمان الكوفي عن أبي بن كعب بلفظ (أوصيكم بأهل بيتي خيرا فقدموهم ولا تتقدموهم وأمروهم ولا تأمروا عليهم) ص ٣٢ برقم ٣٣٠ .

(٢) - ذكره الديلمي في كتابه قواعد عقائد آل محمد خ .

وفي الإرشاد للإمام القاسم بن محمد نقلا عن الديلمي ألف وستمائة وخمسة أحاديث انظر الإرشاد ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) - رواه الإمام القاسم بن محمد في الإرشاد ص ٥٧ ، قال المحقق لكتاب الإرشاد في الهامش ينظر في هذا الرقم أو في أي كتاب ورد عن الإمام المنصور بالله ، ثانيا في الرقم وهو مليون حديث فإن السنة النبوية لا تكاد تصل هذه الرقم ، فيحتمل أنه تصحيف من النساخ (قلت : ويمكن أن ليس المراد العدد المحدود ، وإنما هو كناية عن الكثرة كما هي عادة العرب في التعبير عن الكثرة بأعداد حسابية نحو السبعين . السبعمائة وغيرهما) .

(٤) - الثمām : قال في المعجم الوسيط : ويقولون : هو منك على طرف الثمām ، قريب سهل التناول .

يخفى على أحد إلا أكمله لا يعرف القمرء ، وإنما غرضنا هاهنا الإشارة إلى بعض ما ورد فيهم مما يدل على وجوب التمسك بمذهب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن التمسك بجبل الله وحبل رسوله وحبل ذرية رسوله أئمة الهدى عليهم السلام نجاة من كل هلاك قال تعالى : ﴿واعتصموا بجبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^(١) فجبل هؤلاء موصول بجبل الله ، وقال : ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾^(٢).

وروى الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام بإسناده عن الثعلبي^(٣) في تفسير قوله تعالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ قال : قال مسلمة بن حيان^(٤) : سمعت أبا بريدة^(٥) يقول : صراط محمد وآله .

قال الإمام علامة العترة محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام في كتابه دعائم الإيمان^(٦) : لأن الكتاب والسنة والعترة الطاهرة إمام أهل الخشية الذين يلجأون إليه

(١) - آل عمران : ١٠٣ ، وأخرج الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١٣١/١ بسنده عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (من أحب أن يركب سفينة النجاة ويستمسك بالعروة الوثقى ، يعتصم بجبل الله المتين فليوال علياً ، وليأتم بالهداة من ولده فمن يهتد بهم الله فقد هدي إلى صراط مستقيم) وانظر في تفسير الآية في شواهد التنزيل ١٣٠/١ ، من ١٧٨ - ١٨١ .

(٢) - آل عمران : ١٠١ .

(٣) - أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أبو إسحاق المتوفى سنة ٤٢٧ مفسر حافظ عالم بالعربية قال السمعاني : يقال له الثعلبي والثعلبي وهو لقب لا نسب من كتبه الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، ويعرف بتفسير الثعلبي وقد طبع منه بعضه وهو ما وجد منه والباقي منه مفقود ، والكثير يخلط بينه وبين تفسير الثعلبي المطبوع وليس هو (انظر معجم المفسرين ٦٢/١ ط ٣)

(٤) - مسلمة بن حيان : في شواهد التنزيل مسلم بن حنان ، وفي تفسير البرهان : مسلم بن حيان ، قال في لسان الميزان : مجهول .

(٥) - في غيره أبو بريدة ، وليس ثريدة والحديث أخرجه الحاكم في شواهد التنزيل ٥٧/١ عن مسلم ابن حنان عن أبي بريدة قال المحقق الحمودي : ورواه الحافظ ابن شهر آشوب عن تفسير الثعلبي عن ابن شاهين عن رجالة كما في البرهان ٥٢/١ ط ٣ وفي الباب شواهد في تفسير الآية انظر شواهد التنزيل ٥٨/٢ وما بعده وتفسير فرات الكوفي .

(٦) - الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عم الإمام الهادي يحيى بن الحسين عالم فقيه مفسر مجاهد قال في المستطاب : كان يختار البادية على الأمصار وطاف كثيراً من البلدان ، وأقام ببغداد والبصرة ودخل الأهواز وخراسان والشام ومصر والمغرب وسكن آخر مدته بالحجاز ، وخرج مع الهادي مشيعاً ومبايعاً ، توفي سنة ٢٨٤ هـ ومن مؤلفاته - تفسير القرآن الموجود منه تضمنه هذا الكتاب من سورة البلد إلى سورة النازعات ، وله أيضاً شرح شروط الإيمان خ بالجامع .

عند كل شبهة وفتنة ، وبذلك جاء الخبر عن أمير المؤمنين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (ستكون فتنة من بعدي قلت يا رسول الله فما المخرج منها لمن فتن؟ قال: كتاب الله فيه خير ما قبلكم ، وحكم ما بينكم ، فمن اتبع الهدى في غيره أو سأل عنه غير أهله أضله الله ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن اهتدى به هدي ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهداية هدي محمد وهدي أهل بيته الطيبين ، وشر الأمور محدثاتها) اهـ .

دل ما تقدم من الأخبار والآيات على وجوب التمسك بآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى تحريم مخالفتهم قولاً وعملاً واعتقاداً ولو لم يكن من ذلك إلا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الخوض) والمؤمن حقاً من شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في الخبر الصحيح المتواتر ، فإن العلماء المطلعين على كتب الفرق الإسلامية يعلمون صحته لرواية المؤلف والمخالف لا يختلفون إلا في يسير من اللفظ فيه مع اتحاد المعنى فمن خالف أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد شاقه واتبع غير سبيل المؤمنين كيف وقد رويت أخبار كثيرة تؤدي معنى واحداً أن آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الحق غير ما تقدم من الأخبار نحو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (تكون بين الناس فرقة واختلاف يكون هذا وأشار إلى علي وأصحابه - على الحق) ذكر معنى هذا إمامنا المنصور بالله عليه السلام في آيات الأحكام .

وروي أيضاً في الإعتصام بإسناد بلغ به إلى أبي الزبير^(١) عن جابر الأنصاري قال: (كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام فلما نظر إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أتاكم أخي ، ثم التفت إلى الكعبة فقال: ورب هذه البنية إن هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة ،

(١) - هو في مقدمة الإعتصام ١٣٠/١ عن أبي الزبير عن جابر الأنصاري ، وأبو الزبير هو محمد بن مسلم بن تدرس الأسدي مولاهم أبو الزبير المكي

ثم أقبل علينا بوجهه فقال: أما والله إنه أولكم إيماناً بالله وأقومكم بأمر الله ، وأوفاكم بعهد الله ، وأقضاكم بحكم الله ، وأقسمكم بالسوية ، وأعدلكم في البرية ^(١) وأعظمكم عند الله مزية قال جابر فأنزل الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ^(٢) فكان علي إذا أقبل قال أصحاب محمد : قد أتاكم خير البرية من بعد رسول الله ، ثم ذكر فيه أحاديث جمّة من طرق كثيرة عن عدة من الصحابة شاهدة بأن هذه الآية نزلت فيه عليه السلام .

وفيه أيضاً عن إبراهيم بن أبي شيبه الأنصاري ^(٣) قال: جلست إلى الأصمغ بن نباته ^(٤) فقال: ألا أقرئكم ما أملاه علي بن أبي طالب ، فأخرج إلي صحيفة فيها مكتوب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل بيته وأمته بتقوى الله ولزوم طاعته ، وأوصى أمته بلزوم أهل بيته ، وأن أهل بيته يأخذون بحجزة نبيهم

(١) - الحديث أخرجه العلامة فرات الكوفي الزبيدي في تفسيره ص ٥٨٥ رقم ٧٥٤ ، وعنه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٣٦٢/٢ من طريقين عن جابر ، وفي تفسير الحافظ المفسر الزبيدي الحسين بن الحكم الحيري أورده في تخريج الحديث ٧١ ، ص ٥٤٠ ، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ترجمة أمير المؤمنين منه رقم ٩٨٥ ، وعنه في كفاية الطالب ص ٢٤٤ ، وفي كنز الحقائق ص ٨٢ ، ٩٢ ، ورواه في تفسير الآية صاحب الدر المنثور كما أخرجه الطوسي في أماليه حديث ٣٦ ، ج ٩ / ص ٢٥٧ ، والخوارزمي في المناقب ص ٦٢ ، ومحدث الشام كما في كفاية الطالب ص ٢٤٤ - وقال في هامش شواهد التنزيل : ورواه في الحديث ٢٨ من كتاب الأربعين وهو في الحديث ١٠ / ٢٧ ، وحديث ٦ ، ٢٨ من المقصد الثاني من غاية المرام ص ٣٢٧ ، وفي تفسير الآية من البرهان ٤٩١/٤ ط ٢ ، وهو في الإعتصام ١٣٠/١ - وللحديث شواهد كثيرة في تفسير الآية .

(٢) - البينة : ٧

(٣) - إبراهيم بن أبي شيبه الأنصاري لم أجده ولعله تصحيف عن إبراهيم بن أبي حبيبة الأنصاري الأسهلي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ (انظر تهذيب التهذيب ٩/١) .

(٤) - الأصمغ بن نباته الحنظلي الجاشعي التميمي أبو القاسم الكوفي ، أحد أصحاب الإمام علي المشهورين معروف بتشيعه وولائه لأهل البيت عليهم السلام وثقه غير واحد ، وأنكروا عليه التشيع (انظر رجال معجم الاعتبار والفلك الدوار) .

وأخرجه الحافظ محمد بن سليمان الكوفي في المناقب ١٦٦/٢ رقم ٦٤٥

وقال المحقق السيد الحمودي : ورواه محمد بن يوسف الزرندي في آخر كتاب نظم درر السمطين ص ٢٤٠ ط الغري .

، وأن شيعتهم يأخذون بحجزهم يوم القيامة ، وأنهم لن يدخلوكم باب ضلالة ، ولن يخرجوكم من باب هدى) اهـ .

وفي هذا المعنى أحاديث لا تحصى كثرة ، بل لها كتب مستقلة ، وقد تضمن ما قدمنا كثيرا من خطب أمير المؤمنين علي عليه السلام كالخطبة الزهراء التي قال فيها الإمام الحسن بن بدر الدين ^(١) عليه السلام في شرح أنوار اليقين ^(٢) ما لفظه :

الخطبة الزهراء هي الخطبة الكبرى التي خطب بها أمير المؤمنين علي عليه السلام قبل موته البعيد والقريب ، وأسمعها البغيض والحبيب ، ممن كان في عصره ممن يبلغه ذلك عنه ، وهي آخر خطبة خطبها ولقي الله عليها ، انطوت على علم كثير ، وبين فيها عليه السلام أحوال الدنيا ، وما يكون بعده من العظائم إلى يوم القيامة ، وهي موجودة بحمد الله غير أنا نذكر منها طرفا ، منها لذوي البصائر على ما تقدم .

قال عليه السلام في موضع منها: (ألا وإني أقول قولي هذا لعلي لا أقول بعد يومي هذا مثل قولي هذا فليسمع المحبون والمبغضون فإنه ما من نبي بعث في الأولين والآخرين إلا كان له هاد من بعده ، وإن موسى كليم الله ومحمد صفي الله ، وأقام موسى من بعده هاديا مهديا هارون ابن أمه وإن محمدا أقامي هاديا مهديا فأنا نظيره إلا أنني لست بنبي ، فاختلقت كما اختلقت بنو إسرائيل على هارون فضر بها الله بالفتن والإختلاف وإطاعة السامري ، فعاقبهم بالقتل فمن قتل نفسه بالتوبة كان شهيدا ، ومن كره القتل عوقب بالإفتراق والخروج عن الملة فافترقت على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضلت وتاهت عدا بقية من آل موسى وآل هارون ، وهي الأمة

(١) - الإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين محمد بن يحيى الهادي [٥١٦ - ٦٠٨] أحد أعلام المفكرين الزيدية إمام مجتهد مجاهد قام بأمر الإمامة سنة ٦٥٧ هـ وكانت دعوته بهجرة رغافة في بلاد صعدة ، وبايعه علماء عصره ، وعاض في عبادة وعلم وتصنيف وجهاد حتى توفي ، ومن أهم مؤلفاته : أنوار اليقين الآتي (انظر أعلام المؤلفين الزيدية) .

(٢) - أنوار اليقين في إثبات إمامة أمير المؤمنين وهو شرح قصيدة له ضمنه من أحاديث الفضائل الكثير الطيب ، ونقل من مصادر شتى الفرق الإسلامية مخطوط ، نسخته الخطية متوفرة في المكتبات الخاصة والعامة (انظر التراث الإسلامي المخطوط في المكتبات الخاصة) وقد شرع في تحقيقه الأستاذ عبد الله عبد الله الحوثي .

الهادية التي قال الله: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾^(١) وهي التي تعدل وتهدي ، ولم يكن الله ليضل الناس بعده ، وافترقت هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كل فرقة على ثلاث وسبعين ملة فكل ملة ضالة مضلة إلا من أخذ بحجرتي وحجزة أهل بيت رسوله وكتابه وسنته ، واتبع الحبل الأكبر والحبل الأصغر^(٢) إلى آخر كلامه عليه السلام وهو طويل جدا^(٣).

قال إمامنا المنصور بالله رحمة الله عليه في الإعتصام^(٤) - وقد أوسع في هذا المعنى من الأدلة من الآيات والأخبار ما هذا لفظه - : (دل جميع ما تقدم من الآيات والأخبار المتفق عليها في مشاهير كتب الأمة بلا تواطؤ على وجوب التمسك بمذهب آل محمد ، وهم يدعون إلى ما أوجب الله وإلى ما هو دعاء من الله ومن رسوله إلى الأخذ بمحكم الكتاب والمعلوم من سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالتواتر والتلقي بالقبول ، وعلى الرد إلى الله وإلى الرسول فيما اختلفوا فيه قال الله سبحانه وتعالى :

(١) - الأعراف : ٥٩

(٢) - الحبل الأكبر: كتاب الله ، والحبل الأصغر عترة رسول الله كما في بعض الروايات لحديث الثقلين .

(٣) - أوردها الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد في الإعتصام ١٥٥/١ عن الحسن بن بدر الدين .

(٤) - الإعتصام ١٦٢/١ الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي [٩٦٧ - ١٠٢٩] أحد عظماء الإسلام وأئمة آل الكرام ، إمام مجتهد مجاهد مجد برز في العلوم الشرعية ، وجدد في مناهج الفهم وأساليب الدعوة مولده في قرية الشاهل من قضاء الشرفين ، وقام داعياً إلى الله عز وجل من محل قارن شمالي الشرف ١٠٠٦ ، وتغلب على أغلب المناطق الجبلية في اليمن بعد كفاح مرير وهزائم وانتصارات ، وثورة من أجل المستضعفين ، وإقامة كم الله وحرر اليمن من الأتراك الذين خرجوا من اليمن بعد موته بست سنوات ، في عصر ابنه الإمام المؤيد بالله اتخذ مدينة شهارة عاصمة له ، وعرف بالورع والشجاعة والكرم توفي بمدينة شهارة ومن مؤلفاته:

١- الإعتصام بحبل الله المتين من أشهر المؤلفات في الفقه والحديث وصل فيه إلى كتاب الصيام وأتمه العلامة زبارة إلى آخره ، وطبع في خمسة مجلدات وهو الذي نقل عنها ما يذكره عن القاسم .

٢- الأساس لعقائد الأكياس وقد طبع طبعين الطبعة الأخيرة بتحقيقنا . وله شرح عليه نقل منه الشرفي في شرحه على الأساس .

٣- الإرشاد إلى سبيل الرشاد في طريق أعمال العباد عند فقد الإجتهد من الكتب النادرة في موضوعها تحت الطبع بتحقيق محمد يحيى سالم .

٤- تفسير القرآن الكريم من الفاتحة إلى بعض سورة المائدة ، خ مكتبة جامع شهارة والجامع الكبير (وانظر عن بقية مؤلفاته أعلام المؤلفين الزيدية وفهرست مؤلفاتهم) .

﴿فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول﴾^(١) وبلغنا عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه في الجنة أنه قال: (الرد إلى الله هو الرد إلى محكم كتابه والرد إلى رسوله هو إلى سنته الجامعة غير المفرقة) وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾^(٢) وهذا صراط الله المستقيم الذي قال سبحانه: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾^(٣) إلى قوله عليه السلام: (وهذه سبيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد قال الله تعالى ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾^(٤) فنحن ندعو إلى ذلك ، ونجيب من دعانا إليه ، لا نخالف الحق ولا نختلف فيه إن شاء الله تعالى ، ومع هذا فإننا لا نستوحش ممن هجر مذهبنا وتجنب الأخذ والرواية عن آبائنا عليهم السلام وشيعتنا رضي الله عنهم ، ونرى الأخذ عن الدعاة إلى النار برواية الثقة من الفريقين^(٥) إلى آخر كلامه عليه السلام في هذا المعنى وهو بسيط جدا ، وإنما هذا تنبيه على المعنى المقصود من وجوب إتباع آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى محمد وآل محمد وسلم .

ويؤكد ما قدمنا من الأدلة^(٦) إجماع العزة الطاهرة وشيعتهم فإن إجماعهم على ذلك مشهور ، لا ينكره إلا من قلبه بالجهل مغمور ، وإجماعهم عليهم السلام حجة واجبة الإتيان للأدلة الشرعية والبراهين القطعية ، وذلك أنهم عليهم السلام يدينون ويعتقدون أنهم أهل الكتاب الذين اصطفاهم الله لإرثه ، وأهل الذكر الذين أمر بسؤالهم ، وأولوا الأمر الذين أوجب الله على جميع المكلفين طاعتهم ، والرجوع إليهم ، وأنهم هم الأمة الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأنهم [هم] المفلحون، وأنهم [هم] الشهداء على الناس ، وأن الرسول هو الشهيد لهم

(١) - النساء : ٥٩

(٢) - الأنفال : ٨

(٣) - الأنعام : ١٥٣

(٤) - يوسف : ١٠٨

(٥) - الاعتصام ١٦٣/١

(٦) - اللفظ في ب : ويؤكد هذه الأدلة كلها إجماع العزة الخ .

على الناس بذلك ، وأنهم هم الصادقون الذين أمر الله بالكون معهم وأنهم [هم] ^(١) الذين فرض الله مودتهم ، وحكم بعصمتهم وطاعتهم ، وأنهم أمان لأهل الأرض من الغرق ، وأنهم كسفينة نوح من اعتصم بهم و اتبع آثارهم نجا ومن تخلف عنهم غرق وهو ، وأنهم باب حطة ، وباب السلم ، فادخلوا في السلم كافة ، وأنهم قرناء الكتاب المعبر عنه بالثقلين كما مر ، وأنهم خلفاء أرضه ، وأئمة خلقه ، ودعاة بريته ، وأنه لا تخلو الأرض من حجة منهم لله فيها وعلى الحق ظاهرين .

واعلم أنه إذا دل الدليل على شيء فالإعراض عنه وعن اعتقاده زيغ وميل عن الحق خصوصا إذا كان متعلقا بالتكليف فيأثم إثما عظيما في تركه ، والإعراض عنه لدخول ذلك في كتمان الحق ، وترك إظهاره ، والتدين يقتضي خلافه فالتمسك بالحق أولى من التماذي في الباطل ^(٢) فنعوذ بالله من إلف العصبية ، وما يؤدي إليها [فهل في البيان لنجاة متبع العثرة والحكمة بإصابتهم ما هو أظهر من هذا !! لكن طاشت العلوم ، وضاعت العلوم ، واختار الناس غير ما اختاره الحي القيوم] ^(٣) .

فإن قيل: أهل البيت عليهم السلام فيهم عصاة لا تجوز موالاتهم ، ومخالفون لأهل البصائر منهم لا يسع إتباعهم ، وقد قلت : إنهم كالكتاب وقرناؤه ^(٤) وقد رأينا كثيرا منهم من يجاهر بالمعاصي ، ومنهم من يتمسك بأديان الضلال ؟

قلنا ولا قوة إلا بالله : يخصص الفساد منهم آيات محكمات وأخبار صحيحات ، ليس هذا موضع ذكرها ، ولكننا نقول كما قال الإمام المنصور بالله عبدا لله بن حمزة عليه السلام : هم صلوات الله عليهم كما أن في الكتاب شرفه الله وعظمه محكما ومتشابهها ومنسوخا ، لأن الناسخ من نوع المحكم ، فالواجب الرجوع إليه واطراح معنى المنسوخ ، فكذلك ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم تنقسم إلى ثلاثة أقسام: أئمة سابقون يجب الرجوع إليهم ، وتابعهم منهم لقول الله تعالى حاكيا عن

(١) - لفظة هم الموجودة بين القوسين موجودة في ب .

(٢) - اللفظ في ب : فالتمسك بالحق أولى من التماذي في الباطل .

(٣) - ما بين القوسين موجود في ب .

(٤) - مرفوع على أنه معطوف على محل خبر إن .

إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾^(١) ومجاهرون بالمعاصي بمنزلة المنسوخ من كتاب الله عز وجل يجب اطراح معناه ، و متمسكون بأديان أهل الضلال مع ثبوت أنسابهم إلى الذرية الزكية فهم بمنزلة المتشابه من كتاب الله تعالى لا يتبعه إلا الذي في قلبه زيع كما قال الله تعالى .

فإن قلت: لا يجب إتباع القرآن لذلك ؟ فقل في أهل البيت عليهم السلام كذلك . قلنا: قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٢) فلم يُسْقِط فسقُ الفاسقين وجوبَ إتباع الصادقين ، ولا أخرجهم من ورثة الكتاب فعلُ أهل الزيغ والإرتياب ، فتأمل ذلك موفقا ، وأت العلم من طرقة وبابه ، وتَفَهَّم رحمك الله معاني كتاب الله من أربابه ، واطلب هذا العلم من ورثته ونصابه ، فإن للدين طرقا كما للمسجد والسوق فالواجب على العاقل أن يتعرف طرق الدين لينجو من الضلال مع الناجين > اهـ.

فإذا عرف السامع من هذه الجملة ما ألقيناه ، واستبطن مقصودها فليعلم أنا لم نتبع أهل البيت عليهم السلام من أجل أنهم آباؤنا وأهلنا ، وإنما اتبعنا الدليل الذي دلنا عليهم ، وأرشدنا إليهم ، وكيف لا يكونون عليهم السلام كذلك وهم أهل بيت الرحمة وموضع العصمة ، وقرار الرسالة ، وإليهم كان مختلف الملائكة ، وهم معدن العلم وغاية الحكم ، من شجرة باسقة الفروع طيبة النبع ، ثابتة الأصل دائمة الأكل قد ساخت عروقها ، فهي طيبة الثرى ، واهترت غصونها فهي تنطف بالندى وأورقت منضرة ، ونورت مزهرة ، وأثمرت موفرة ، لا تنقص ثمارها الجناة ، ولا يشرعها السقاة ، فمن نزل بها ، وآوى إليها - ورد حياضا تفيض ، ورعى رياضا لاختيضا ، وشرب شرابا رويا هنيا مريا ، عريضا فضيضا ، فروى وارتوى من قرار

(١) - إبراهيم : ٣٦

(٢) - الحديد : ٢٦

رؤي، بدلاء مبدولة غير ممنوعة ، معروضة غير مقطوعة ، فمن تبعهم نجحاً ، ومن استمسك بهم فقد استمسك بالعروة الوثقى والله القائل^(١):

بآل محمد عرف الصواب	وفي أبياتهم نزل الكتاب
وهم حجج الإله على البرايا	بهم وبجدهم لا يستراب
ولاسيما أبو حسن علي	له في المجد مرتبة تهاب
طعام حسامه مهج الأعادي	وفيض دم الرقاب له شراب
وبين حسامه والدرع صلح	وبين البيض والبيض اصطحاب
إذا طلبت صوارمه نفوسا	فليس لها سوى نعم جواب
وضربته كييعته بخم	معاقدها من الناس الرقاب
إذا لم تبر من أعداء علي	فما لك في محبته ثواب
هو النبأ العظيم وفلك نوح	وباب الله وانقطع الخطاب
هو البكاء في المحراب ليلاً	هو الضحاك إن آن الضراب

تروى لأعداء علي عليه السلام ، والحق ما شهدت به الأعداء .

(١) - هو الناشئ الصغير الشاعر أبو الحسن علي بن عبد الله بن الوصفى البغدادي [٢٧١-٣٦٥] شاعر بليغ متطلع في الكلام والفقه والحديث والأدب ، نزل مصر وله عدة مؤلفات ، ذكره وذكر القصيدة في الغدير ٢٤/٤ - ٣٣ ، وعز القصيدة إليه ابن شهر آشوب في المناقب كما ذكرها له الحموي في معجم الأدياء ٢٣٥/٥ ، والياضي في مرآة الجنان ٢ - ٣٣٥ ، وحزم بذلك السيد يوسف بن الحسين في كتابه نسمة السحر فيمن تشيع وشعره ، وعزاً من نسبها إلى عمر بن العاص إلى أفحش الغلط ، وقد نسبها الهمداني في الإكليل والشيرازي في تحفة العباد إلى عمرو بن العاص ، ونسبها بعض المعاجم إلى ابن الفارض ، وهو معاصر لابن خلكان الذي قد لا يخفى عليه ، قال السيد عبد الحسين الأميني في الغدير : إن الرواة تناقلتها قبل وجود ابن الفارض .

قال في المقصد الحسن للعلامة أحمد بن يحيى حابس رحمه الله نسبت لعمر بن العاص فقد روي أن معاوية قال لأصحابه : من قال في علي ما فيه فله هذه البكرة فقال كل منهم كلاماً غير موافق يشتم أمير المؤمنين أما عمرو بن العاص فإنه قال: أبياتا اعتقدها وخالفها كما هو دأب كثير من النواصب ، وهي هذه .

[وما أحسن قول أئمة الهدى^(١) فيهم عليهم السلام جميعا ، يقول أمير المؤمنين^(٢) علي كرم الله وجهه^(٣) : (نحن أهل العلم ، ومعدن التأويل والتنزيل ، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأتها من بابها))^(٤) .

وقال عليه السلام في بعض خطبه التي ذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم : (هم عيش العلم وموت الجهل يخبركم حكمهم عن علمهم وصمتهم عن حكم منطقهم ، لا يخالفون الحق ، ولا يختلفون فيه ، هم دعائم الإسلام ، وولاتج الإعتصام ، بهم عاد الحق في نصابه .. الخ كلامه عليه السلام)^(٥) .

(١) - ما بين القوسين زيادة من ب .

(٢) - في ب : (من ذلك قول أمير المؤمنين) .

(٣) - ما بين القوسين زيادة في ب ، واللفظ في ب : وما أحسن قول أئمة الهدى عليهم السلام جميعا من ذلك قول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه .

(٤) - أخرجه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل في تفسير ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ ٣٣٤/١ رقم ٤٥٩ بسنده عن الحارث قال سألت عن هذه الآية ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ قال : (والله إنا لنحن أهل الذكر نحن أهل العلم) الخ . أما الحديث (أنا مدينة العلم) فأخرجه الحاكم في شواهد التنزيل ٢/ ٢٧٤ وأبو نعيم في معرفة الصحابة كما في كنز العمال ٢١٤/١١ وابن المغازلي الشافعي في المناقب ص ٨٢ ، رقم ١٢٥ ص ٨٥ رقم ١٢٦ ومحب الدين الطبري في الرياض ١٥٩/٣ والذخائر ٧٧ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٦٥/٢ (٩٩١) ترجمة أمير المؤمنين ، وابن كثير في البداية و النهاية عن أمير المؤمنين عليه السلام .

وأخرجه الإمام الهادي عليه السلام في كتاب العدل والتوحيد خ والحاكم في المستدرک ١٢٦/٣ من طرق وصححه ، والطبراني في الكبير ٦٥/١١ وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩٩/٦ وابن المغازلي في المناقب ص ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ وابن الأثير في أسد الغابة ٤/ ٢٢ والحموي في فرائد السمطين ٩٨/١ والسيوطي في الجامع الصغير ١٦٧/١ والديلمي في الفردوس ٤٤/١ رقم ١٠٦ والخطيب في تاريخ بغداد ٣٤٨/٤ - ١٧٣/٧ ، ٤٨/١١ ، ٤٩ ، ٢٠٢ وهو في مجمع الزوائد ١١٤/٩ والبداية والنهاية ٣٩٦/٧ ، عن ابن عباس .

وأخرجه الحاكم في المستدرک ١٢٧/٣ ، وابن المغازلي في المناقب ٨١ ، ٨٤ عن جابر بن عبد الله ، وهو في غير هذه المصادر ، وخصوصا كتب الفضائل الشيعية ، وانظر كتاب تنبئ الوصية بمجموع رسائل الإمام زين ٢٧٧ ، وهناك كتاب فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم لعلّي تأليف أحمد بن محمد الصديق الغماري ط ١٤٠٣ .

(٥) - في نهج البلاغة الخطبة (٢٣٩) هم عيش العلم وموت الجهل يخبركم حكمهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم وصمتهم عن حكم منطقهم ، لا يخالفون الحق ، ولا يختلفون فيه ، وهم دعائم الإسلام وولاتج الإعتصام ، بهم عاد الحق إلى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فإن رواة العلم كثير ورعاة قليل).

وقال ابنه الحسن عليه السلام: (ومن البلاء على هذه الأمة أنا إذا دعوناهم لم يجيبونا ، وإذا تركناهم لم يهتدوا إلّا بنا، فمن الأمان به على بلاغ الحجة وتأويل الكتاب ؟ إلّا أهل الكتاب وأبناء أئمة الهدى ، ومصاييح الدجى ، الذين احتج الله بهم على خلقه ، ولم يدع الخلق سدى ، هل تعرفونهم أو تجدونهم إلّا فرع الشجرة المباركة ؟ وبقايا الصفوة الذين طهرهم الله من الرجس وبرأهم من الآفات ؟) .

وروى الحاكم^(١) عن زيد بن علي عليهما السلام أنه قال: (الرد إلينا والكتاب نحن الثقلان)^(٢) .

وقال القاسم بن إبراهيم عليهما السلام: (وكلما ذكر الله في السور فله وجوه متصرفة يعرفها من عرفه الله إياها .. إلى قوله : فليسأل عنها وليطلب ما خفي عليه منها عند ورثة الكتاب ، الذين جعلهم الله معدن ما خفي من الأسباب ، فإنه يقول سبحانه: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾^(٣) الآية .

وقول الإمام الناصر للحق الحسن بن علي عليهما السلام في شعره المحكي في المسفر^(٤) والشافي:

(١) - لعله الحاكم الجشمي الحسن بن كرامة الجشمي المعتزلي الزيدي كان حنفياً وتزيد في آخر عمره وله التهذيب في تفسير القرآن وهو تفسير جليل قد صنفنا منه على الكومبيوتر سبعة مجلدات وله أسلوب فريد فيه ويقال إن الرغشري عالة عليه وفيه بعد كما عشت مع هذا الكتاب أسأل الله أن يسهل بالباقي منه ، كان نقمة على المحيرة وله رسالة إيليس في الرد عليه مطبوع وقيل: إنه قتل بسبب تلك الرسالة ، وله أيضاً عدة كتب ، وفي حياته وبيان مؤلفاته وطريقته ألف الدكتور عدنان زرزور كتاباً بعنوان الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير فلتنظر تمام الترجمة فيه .

(٢) - قوله : (الرد إلينا) روى فضيل الرسان قال قال الإمام أبو الحسين زيد بن علي عليهما السلام: (قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان أولى الناس بالناس أمير المؤمنين علي صلى الله عليه ، ثم قبض أمير المؤمنين صلى الله عليه فكان أولى الناس بالناس أمير المؤمنين الحسن بن علي عليهما السلام ، ثم قبض أمير المؤمنين الحسن بن علي عليهما السلام فكان أولى الناس بالناس أمير المؤمنين الحسين بن علي عليهما السلام ثم سكّت ، وقال: الرد إلينا نحن والكتاب الثقلان ، وقال : نحن ولادة أمر الله ، وخزان علم الله ، وورثة وحي الله ، وعترّة نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم شيعتنا رعاة الشمس والقمر) أهد من مجموع رسائل الإمام زيد (تحت الطبع) عن أنوار اليقين والسفينة للحاكم ، والمصاييح لأبي العباس ، والمنهاج الجلي مخطوطات .

(٣) - فاطر : ٢٢

(٤) - المسفر والصفي كتاب للإمام الناصر الأطروش مفقود .

لا تبتغوا غير آل المصطفى علما يهديكم فهم خير الورى آل
 آل النبي وعنهم إرث علمهم القائمون بنصح الخلق لما يألوا
 وقولهم مسند عن قول جدهم عن جبرئيل عن الباري إذا قالوا
 إلى قوله :

كل يرى الحق ما فيه قد اختلفوا وهم بمفروض علم الحق جهال
 أعني الأولى فقههم إشراك صيلهم وسائر الناس بالإهمال غفال

وقول الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليهم السلام في شرح الرسالة
 الناصحة بالأدلة الواضحة^(١) وهو ما لفظه : (أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم
 بإتباع عترته المطهرة فخالقوه في ذلك ، ولهم أتباع في كل وقت يقتفون آثارهم في
 خلاف العزة المطهرة ، حذو النعل بالنعل ، بل قد تعدوا على ذلك أن قالوا : هم
 أولى بالحق وإتباعهم أوجب من إتباع هدايتهم ، فردوا بذلك قول النبي صلى الله عليه
 وآله وسلم : (قدموهم ولا تقدموهم ، وتعلموا منهم ولا تعلموهم ، ولا تحالفوهم
 فتضلوا ولا تشتموهم فتكفروا) وهذا نص في موضع الخلاف لا يجهل معناه إلا من
 حذل .

وقال عليه السلام أيضا في وصيته لبعض أولاده يحثه على طلب العلم النافع
 والحرص عليه إذ رب علم جهل : (واعلم أيديك الله أن ذلك هو العلم النافع ، من
 الأصول والفروع ، فعليك بطلبه من علماء آبائك وأجدادك فإنهم السفينة من ركبها
 نجا ، ومن تخلف عنها غرق وهوى ، في قول وعمل واعتقاد ، وهم أمان لأهل
 الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء إلى منقطع التكليف كما ورد في الآثار
 النبوية الطاهرة ، كظهور الشمس ، ووجوب إتباعهم وسلوك آثارهم لا يجهلها إلا
 جاهل ، ولا يضل عنها إلا مائل ، قال جدك الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين صلوات
 الله عليه مفصلا لهذه الجملة في كلام له عليه السلام في مثل هذا الباب : ثم اعلم من

(١) - مخطوط ضمن مجموع من كتب الإمام عبد الله بن حمزة ، والنص في المجموع الخطي ...

بعد كل علم ومن قبله ، وعند استعمالك لعقلك في فهمك أن الذين أمرنا باتباعهم من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحضضنا على التعلم منهم هم الذين أخذوا بكتاب الله من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واقتدوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين اقتبسوا علمهم من علم آبائهم وأجدادهم جدا عن حد وأبا عن أب حتى انتهوا إلى مدينة العلم ، وحسن الحلم الصادق المصدق [الأمين الموفق] الطاهر المطهر عند الله المقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فمن كان علمه من آل رسول الله على ما ذكرنا منقولا إلى آبائه مقتبسا من أجداده لم يزعج عنهم ولم يقصد إلى غيرهم ولم يتعلم من سواهم فعلمه ثابت صحيح لا يدخله فساد ولا زيغ ولا يحول أبدا عن الهدى والرشاد ولا يدخله اختلاف ولا تفارقه الصحة والائتلاف .

وقال عليه السلام أيضا في شرح الرسالة الناصحة : (وورود الخوض لا يكون إلا لأتباع آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهم أشياعهم ، ولا يكون ذلك إلا بالإعتراف بفضلهم ومطابقتهم في قولهم واعتقادهم)^(١) .

وفي نجاتهم يقول الإمام الحسن بن بدر الدين عليه السلام :^(٢)

لم ينج بالكهف سوى عصابة	فرت عن الدار وأربابها
ولا ^(٣) نجا في قوم نوح سوى	سفينة الله وأصحابها
ألم يكن في المغرقين ابنه	إذ غاب عن حوزة ركبها
وهل نجا بالسلم إلا الألى	رقوا إلى السلم بأسبابها
أو أدرك الغفران من لم يلج	بالأمس في الحطة من بابها
أعيذكُم بالله أن تجمحوا	عن عثرة الحق وأحزابها

(١) - انتهى من شرح الرسالة الناصحة للإمام عبد الله بن حمزة .

(٢) - تقدمت ترجمته ، والقصيدة تنظر في كتاب أنوار اليقين .

(٣) - في ب : وهل نجا في قوم نوح سوى

وقول إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد رحمة الله عليه ورضوانه :

يأذا المرید لنفسه تثبیتا ولدينه عند الإله ثبوتا
أسلك طريقة آل أحمد وأسألن سفن النجا أن يسألوا ياقوتا
لا تعدلن بآل أحمد غيرهم وهل الحصاة تشاكل الياقوتا
الله أوجب ودهم في وحيه والرجس أذهب عنهم إن شيتا
وأئمة الأخبار تروي فضلهم فابحث تجده مجملا وشتيتا
ما إن تلم بمسند أو مرسل إلا وجدت لم هناك نعوتا
فيها نعوت نجاتهم فدع الذي لم يلق يوما بالنجا منعوتا

قال الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الأطروش عليه السلام في كتاب البساط ما لفظه: (فلو لم يفسر القرآن أهل النقص والجهل به على مبلغ عقولهم ، ولم يحملوا تأويله على لكتهم ، وردوا علمه إلى تراجمته من أهل بيت نبيهم عليهم السلام كما أمرهم الله بقوله: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ إلى قوله: ﴿لا تبعتم الشيطان إلا قليلا﴾^(١) لسلموا من الضلال وسلم من اتبعهم من المستضعفين الجهال ، ولم ينسبوا إلى الله الجور والمحال ، ولم يجعلوا له ما كره وذم من سعي الأفعال).

فأخبر الله سبحانه في هذه الآية ونحوها أن له مترجمين وبغامضه عالمين ، ولحكمه مصيبين .

قال الإمام المنصور بالله عبدا لله بن حمزة عليهم السلام: (وإنما أهلك الناس أرشدنا الله وإياكم نواجم نجمت في الإسلام ، لم ترضع بشدي الهدى ، ولا اغتذت الحكمة ، ولا سألت ورثة العلم عن علمها وأرباب الكتاب عن كتابهم ، وعملت برأي السفهاء تمردا على الله ولن تعجزه ، وعداوة للحق ولن تنقصه ، ولم يهمل الله

دينه وقد أيدته بحفظته ، وحرسه بحماته من عثرة نبيه صلوات الله عليه وعليهم الذين هم تراجمة الكتاب ، وأعرف الناس بالهدى والصواب ، لم يضل من تبعهم ولا يعمى من استضاء بنورهم ، فمن طلب الحكمة فيهم وفق للصواب ، ومن رامها من غيرهم خسر وخاب ، وكان سعيه في تباب ، وهذا واضح لمن لم يعم الجهل عين بصيرته ، ولم تصرفه عن هداته زخارف الأقوال ، فيبقى عَمِهاً في حيرته) اهـ .

فهذا كما ترى كلام أئمة الهدى كأنه خارج من مشكاة واحدة ، قد طابق تلك الأدلة من الكتاب والسنة ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ .

وفي الرافضين لعلوم آل محمد عليهم السلام يقول بعض العلماء من الشيعة الأبرار العظماء: (فرفضوا بأهوائهم ما أمرهم الله به وخالفوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاءهم به فتركوا من أمرهم الله عز وجل بالمسألة في كتابه حيث يقول: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾^(١) وهو القرآن لقوله سبحانه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون﴾^(٢) وأهل الذكر فهم أهل بيت محمد عليهم السلام الذين أورثهم الكتاب حيث يقول: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ فهم ورثة الكتاب وأهله . وكذلك قال فيهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (عليكم بأهل بيتي فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى ، ولن يدخلوكم في باب ضلالة)^(٣) وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (أهل بيتي فيكم كباب حطة فادخلوها)^(٤) . فرفض أكثر هذه الأمة أهل بيت نبيها وخالفوهم في أقاويلهم وتفسيرهم وضادوهم في العلم الذي أنزله الله على نبيه حسداً لهم وتعدياً عليهم وقصدوا من خالفهم) اهـ .

(١) - التحل : ٤٣ ، الأنبياء : ٧ . وانظر في تفسير وتعيين من هم أهل الذكر شواهد التنزيل ٣٣٥/١ رقم ٤٦٠ وتفسير فرائد الكوفي ومناقب أمير المؤمنين لمحمد بن سليمان الكوفي ١٣٠/١ رقم ٧١ .

(٢) - الحجر : ٩

(٣) - فاطر : ٣٢

(٤) - (أهل بيتي فيكم كباب حطة) رواه في الفلك الدوار ١٣٣٥ ، وأخرجه الطبراني في الصغير ٨٤/٣ رقم ٨٢٥ والأوسط كما في ينابيع المودة ٢٦/١ والخموي عن أبي سعيد الخدري كما في ينابيع المودة ٢٧/١ وفيها أيضاً قال: أخرجه أبو يعلى واليزار والطبراني في الأوسط والصغير عن أبي سعيد ، وابن المغازلي عن أبي ذر ، حديث السفينة وباب حطة .

[كيفية ترتيب هذا التفسير]

فلما كانت طريقة أهل البيت عليهم السلام هي طريقة النجاة لمن طلبها وسبيلهم سبيل السلامة لمن أرادها ، وكان السلوك لسبيلهم والإقتفاء لآثارهم قولاً وعملاً واعتقاداً لا يتم إلا بمعرفة علومهم في الدين وتوحيد رب العالمين ، ولا سيما علومهم عليهم السلام في تفسير كتابه فإنهم ورثته وتراجمته ، وخزنة علمه ، بأيديهم مفاتيح أبوابه ، وكان غرضنا هو الدعاء إلى الدين وتعريف الجاهل بواجب الحق المبين والكشف للمسترشد الطالب لما يزيده بصيرة وبيانا في دينه .

أحببت أن أجمع من تفسيرهم عليهم السلام ما أمكن جمعه ، وإن عذب عني منه الكثير وأضفته إلى ما قد وضعه نجم آل الرسول الإمام الكبير ذو العلم الشهير ، القاسم بن إبراهيم عليهما السلام فإنه رحمة الله عليه فسر بعض المفضل ، وبدأ في تصنيفه بوضع لم يعهد في وضع كثير من المفسرين ، فإن عادتهم الإبتداء بأمر الكتاب ثم بسورة البقرة ، إلى آخر القرآن الكريم ، وهو عليه السلام بدأ بأمر الكتاب ثم بسورة الناس ثم بسورة الفلق ، ثم بسورة الإخلاص ، إلى أن انتهى [إلى] (١) آخر سورة والشمس وضحاها ، وعاقه عن التمام شواغل الأمراض والأسقام ، منعته إلى أن نزل به الحمام .

وكذلك ابنه علامة العزة وقاموس الأسرة ، محمد بن القاسم عليهما السلام احتذا ذلك النسق وسلك ذلك المنهج ففسر من حيث انتهى إليه تفسير أبيه ، وذلك من أول سورة لا أقسم بهذا البلد إلى [آخر] (٢) سورة النازعات .

ثم قفا أثرهما وسلك في ذلك التفسير سبيلهما ونسج على منوالهما الإمام الأعظم الهادي إلى الحق الأقوم يحيى بن الحسين عليهما السلام فإنه فسر من (عم) إلى سورة (المنافقين) وهو لعمرى ترتيب عجيب وأسلوب غريب إذ بدأ بالصور القصار ،

(١) - الزيادة من ب .

(٢) - الزيادة من ب .

ولم يبدأ بالطوال والمابين تسهيلا على الطالبين ، وتيسيرا على المسترشدين لأن احسن الطرق في التعليم والتفهيم الأخذ من الأقرب فالأقرب متقيا إلى الأصعب فالأصعب وهذا هو الوجه الذي جرى عليه أسلوب من بدأ يتعلم كتاب الله عز وجل يبدأ بذلك لهذا الوجه فجزاهم الله عن المسلمين خيرا كثيرا .

وقد رأيت أن أحذو حذوهم ، وأتبع آثارهم ، وأقتدي بوضعهم ، وأستضيء بنورهم ، وأسري هذا المسرى الذي توخيت بدلائلهم ، رجاء أن أفي ببعض حقهم وأنظم في سلك من حفظ علومهم لأفوز إن شاء الله في يوم القيامة ببركة محبتهم

اللهم بحقك وبحق نبيك ، وأهل بيته المطهرين صلواتك وسلامك عليهم أجمعين أن تجعلني لهم من المتبعين ، ولحذوهم من الممثلين ، ولطريقهم من السالكين ، ولستهم من المقتدين ، ولحقك وحقهم من العارفين ، والحمد لله إذ جعلتهم لي إلى كل شرف ورفعة وخير هاديا وسببا ، وجعلتني بهم إليك متوسلا متقربا أدعوك حامدا لك راغبا وراهما ، وأفزع إليك في كل ما كان بغية لي ومطلبا حتى تحشرنى بعد فناء الأجسام والأعراض والأجساد ، وتحشرنى إذا حشرت خلقك يوم التناد ، وقيام الأشهاد كل حزب مع حزبه ، وكل محب مع محبه ، وكل قرين مع قرينه ، وكل معين مع معينه في زمرة جدنا وأسرتة ، ونجباء ذريته صلى الله عليه وعليهم وسلم صلاة يرفعهم بها أعلى الدرجات في جنته .

فقدمت أول ما وضعوه من تفسيرهم مرتبا من السور والآيات ، ثم بعد ذلك أرتب عليه إن شاء الله ما ظفرت به من تفسيرهم وتفسير أسباطهم مفرقا من الآيات والسور المتباينات فإنهم عليهم السلام قد استخرجوا من علم القرآن ما لم يستخرجه غيرهم علوما غزيرة ، وجواهر منيرة ، ونفائس خطيرة ، وقد ذكرت مع ذلك من تفسير غيرهم فوائد كثيرة ، وليعرف المطلع على ذلك تفاوت مرتبتهم ومرتبة غيرهم وبلوغ قولهم منزلة تسلب الألباب حلاوتها ، وتدهش العقول سلاستها ، فكانت علومهم لكلوم الشكوك مرهما ممن يرى إثثار رضى ربه مغنما لا مغرما ، فما أشفى كلمات الأئمة الهادين ، وأوقعها في قلوب المتقين وما أكثر فوائدها لمن تدبرها من المؤمنين العارفين ، ثم هم مع ذلك يغرفون من عين واحدة وعلى أكاليهم طلاوة

غير الطلاوات ، ولها حلاوة مخالفة لسائر الحلاوات ، ولاغرو أن كانت كذلك إذ على قولهم مسحة من العلم الإلهي ، وعبة من الكلام النبوي ، إذ هم حجج الله على برائيه ، وهداياه السنية وعطاياه ، من استمسك بهم هدى إلى دار السلام وثبت في بجوحة الإسلام ، فعليك رحمك الله بتفسير العترة المطهرة ينحل منها بكل جوهرة منورة ، ويحيك الله حياة طيبة ، وينلك منحا صيبة كما قال بعضهم في الحظ على الاعتماد على تفسيرهم دون غيرهم في كلام معناه : وعليك بتفسير عترة رسول الله وخزنة علمه ، وتراجمة كتابه الذين قاتلوا على تأويله كما قاتل آبائهم على تنزيله فإنه تفسير عجيب أمره لطيف ظاهر نوره ، مشتمل من علم أئمة العترة على بحور تتلج أمواها الصدور وتطلع متأملها على حقائق مذاهب العترة وما اختاروه لأنفسهم وأبنائهم وشيعتهم الصدور .

ورأيتهم عليهم السلام ينكرون كثيرا من تفسير غير الأئمة الأطهار ، وشيعتهم الأبرار ، ولا يرون ما اختاروه صوابا ، وهو عند أئمتهم غير مختار .

ومن ذلك قول زيد بن علي عليهما السلام فإنه قال في كتاب الصفوة^(١) ما لفظه : (وقد رأيت ما وقع الناس فيه من الاختلاف تبعدوا وتأولوا القرآن برأيهم على أهوائهم ، اعتنقت كل فرقة منهم هوى ، ثم تولوا عليه ، وتأولوا القرآن على رأيهم ذلك بخلاف ما تأوله عليه غيرهم ، ثم برىء بعضهم من بعض ، وكلهم يزعم فيما تزين له أنه على هدى في رأيه وتأوله ، وأن من خالفه على ضلالة أو كفر أو شرك لا بد لكل هوى منهم أن يقول بعض ذلك ، وكل أهل هوى من هذه القبلة يزعمون أنهم أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأعلمهم بالكتاب الذي جاء به وأنهم أحق الناس بكل آية ذكر الله فيها صفوة أو حبة ، أو هدى لأمة حمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكل يزعم أنه إن خالفهم أهل بيت نبيهم في رأيهم وتأولهم برئوا منه ، وأن أهل بيت نبيهم صلوات الله عليهم لن يهتدوا إلا بمتابعتهم إياهم إلى آخر كلامه عليه السلام في هذا المعنى .

ومن ذلك قول الإمام القاسم بن إبراهيم عليهما السلام في الإغترار بعلماء العامة وتركهم لطلب العلم من أهله ما لفظه: (فلما عموا عن حكمة الله في ذلك ورسله وما حكم به سبحانه من أحكام عدله) إلى قوله: (ولم يلقوا فيما اشتبه منه من جعلهم الله معدنه ، فيكشفوا لهم الأغطية عن حكم نوره ، ويظهروا لهم الأخفية عن مشتبهِه أمورهِ ، الذين جعلهم الله الأمناء عليها ، ومنَّ عليهم بأن جعلهم الأمة فيها ، ولما لم يجدوا عند علماء هذه العامة فيما اشتبه عليهم منه شفاء ، ولم يرج منه في مسألة لو كانت لهم عنه إكتفاء - ازدادوا بذلك إلى حيرتهم فيه حيرة ، ولم تزدهم أقوال العلماء فيه بصيرة .

ومن ذلك قول الإمام [الناصر لدين الله] ^(١) أبو الفتح الديلمي عليه السلام في البرهان ^(٢): (وقد عمل الناس في التفاسير الأعمال ، وبلغوا إلى كل غاية ومثال ، غير أن من فسر بعضه أو كله فسرهُ على رأيه ومذهبه) .

ومن ذلك قول جبريل أهل الأرض المرتضى لدين الله محمد بن يحيى عليهما السلام فإنه قال: (قد قرأنا من تفسير العامة كثيراً ، فرأيناهم يكثرون الزلل والخطأ ويقبلون المعاني عن الحق والهدى ، والتفسير فإنما هو لأهله بالتوفيق من الله لهم والمعرفة منه سبحانه ، فتأولوا ذلك بفضل الله وهدايته وتسديده لأوليائه .

وكثيراً من نحو هذا ذكره الهادي إلى الحق عليه السلام من تفسيرهم وقولهم وزهدهم في مذهب أهل البيت ، ومودتهم والإشتغال بعلومهم ومعرفة أقوالهم ولذلك قال بعض علماء أهل البيت عليهم السلام متعجباً ومذكراً: [(فلا تجد لأئمة آل محمد في كتبهم وتفسيرهم ذكراً ، ولا تسمع لهم في مصنفاتهم خبراً ولا خبراً ، وتراهم

(١) - الزيادة من ب .

(٢) - الإمام الناصر لدين الله أبو الفتح الناصر بن الحسين بن محمد بن عيسى الديلمي الحسيني المتوفى سنة ٤٤٤ من أئمة الزيدية في الجيل والديلم ، ثم في اليمن مولده ونشأته في الديلم وبها أخذ العلم حتى فاق في شتى العلوم وخصوصاً في التفسير ودعا لنفسه بالإمامة هناك سنة ٤٣٠ وأخفق ثم سارح في الأرض فدخل مكة وانتقل منها إلى صعدة ، سنة ٤٣٧ فدعا بها لنفسه وجعل محل إقامته ذيبين ، واحتط حصن ظفار ، وقاتل الصليحيين حتى قتل شهيداً في معركة معهم ببلاد عنس ، ومن آثاره البرهان في تفسير غريب القرآن خ ينقل عنه المؤلف كثيراً وانظر أعلام المؤلفين الزيدية والتحف .

يذكرون مذاهب جميع من على وجه الأرض من سعيد وشقي ، وعدو وولي
ويتكون ذكر ذرية النبي^(١) ومصطفى الواحد العلي ، كيف وقد شهد لهم رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم بملازمة الكتاب إلى يوم الحساب !! وأخير أن فيهم العلم
والصواب ، وأنزل فيهم قوله عز وجل : ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُم تَطْهِيرًا﴾ والمطهر من الرجس لا يكون في دينه^(٢) زلل ، ولا في قوله
ميل ، ولا في تأويله للقرآن خطل ، فلم يكن عز وجل ليظهر من يكذب عليه فيكون
من عانده أولى بالحق منه ، وهو عز وجل أعلم بالمفسد من المصلح ولو علم الله في
هذه الأمة أنهم يقومون مقام أهل بيت نبيه لجعلهم مترجمين لكتابه ولكن ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا جَعَلَ رِسَالَاتِهِ﴾^(٣) ﴿وَاللَّهُ مَتِّمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٤) .

قال بعض الشيعة الأخيار : (واعلم أنها لما راى أهل البيت عليها وعملت عن
طريق أئمتها وهداتها ، وجمعت عن طاعتها ، وسعت في حلالاتها وتكثير سواد
عدها عليها ، اضمحلت الأنباء ، وعمت الأشياء ، وعشت الظلمات ، وانقمت الضياء
وهلك الأخيار ، وظهر الأشرار ، والله المستعان ، فإن مذهب أهل البيت عليهم
السلام أسس على المحن ، وولد أهله في طالع الهزاهز والفتن ، والآيام عليهم متحاملة
والدنيا عنهم مائلة .

وحكي عن أصحاب أبي حنيفة أنهم كانوا إذا تكلموا في المسألة عند أبي حنيفة
وأرادوا ذكر علي عليه السلام قالوا: قال الشيخ ، ولم يفصحوا باسمه خوفا من
السلطان ، وكان إذا سمى أحد ولده عليا قتلوه ، فكيف يظهر علم أهل البيت عليهم
السلام مع طول المدة من دولة بني أمية إلى آخر دولة بني العباس وإلى يومنا هذا فإنهم
على هذه الأحوال مع أنه - بحمد الله لإقامة حجج - لم يطف لعلومهم مصباح ولم

(١) - ما بين قوسي الزيادة موجود في المقصد الحسن لابن حابس . مخطوط

(٢) - اللفظ في (أ) : والمطهر من الرجس لا يكون في ذريته زلل .

(٣) - الأنعام : ١٢٠

(٤) - الصف : ٨

يخف لهم صباح ، علومهم في كل وقت ضاحكة الرياض عذبة الحياض ، أنيقة الأزهار طيبة الأثمار .

وفي هذا المعنى يقول الإمام المنصور بالله عبداً لله بن حمزة عليه السلام : (وإنما أتيت هذه الأمة من الإكتفاء بنفوسها ، وعدوها عن عثرة نبيها صلى الله عليه وآله وسلم ، فحبطوا العشواء وتفرقوا لتفرق الأهواء ، فصاروا كالأعمى ينقاد للأعمى لا يدرى أيهما أهدى ، فتأهوا في أودية الضلال ، وباعوا الماء بالآل ، وقد قال تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾ وقال تعالى : ﴿ولو رددوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾^(١) وألوا الأمر هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم بحار العلم وجبال الحلم ، وسفينة النجاة وماء الحياة وعصمة اللاجئين ، ونور الحكم ومنهاج الرحمة ، وسبيل الهدى ، وعروة الله الوثقى وحبل الله المتين ، وصراطه المستبين ، وورثة النبيين ، وأهل التأويل والتنزيل) إلى قوله عليه السلام : (فيجب على الناس جميعاً إتباعهم ، وعليهم إتباع سلفهم إلى قوله عليه السلام : (فعليك باقتفاء آثارهم ، واحتذاء أمثالهم ، وترك التفريق بينهم لا يفرق بين أحد منهم لأن المفرق بين الأئمة الهادين كالمفرق بين النبيين) اهـ .

واعلم أنه قد اعتل أولئك المتكبرون عن سبيلهم بآيات من الكتاب متشابهات حرفوها بالتأويل ، ونقضوا بها التنزيل ، كما فعل من كان قبلهم حرفوا كلام الله عن مواضعه ، وبأحاديث أفتعلها الضلال من بغاة الإسلام من المنافقين^(٢) [ووضع الفاسقين ، ووهم الواهمين ثم حشو الملاحدة وأهل البدع والأهواء من المارقين

(١) - النساء : ٨٣

(٢) - ما بين القوسين موجود في الفلك الدوار للسيد صارم الدين ص ٢٠ وهو في مقدمة الاعتصام للقاسم ص ٢٠ وانظر تعريف الفرق المذكورة فيها في ذلك ، أما شعبة فهو شعبة بن الحجاج العتكي محدث مشهور توفي سنة ١٨٢ هـ (انظر معجم رجال الاعتبار) .

يحيى بن معين : هو يحيى بن معين بن عون المزني الغطفاني أحد الحفاظ وأئمة الجرح والتعديل عند القوم لم يسلم من لسانه أحد ، وخصوصاً الشيعة توفي سنة ٢٣٣ (انظر معجم رجال الاعتبار) .

الخوارج^(١) وعتاة النواصب^(٢) وغلاة الروافض^(٣) وطغام المجبرة^(٤) والمشبهة^(٥) وهمج القصاص^(٦) والوعاظ والحشوية^(٧) وأغتام الظاهرية^(٨) والكرامية^(٩) والخطابية^(١٠) وغيرهم مما لا أحصى كثرة من المسترسلين في وضع الأخبار من عوام المتفقهين ونسك المتعبدين والمتصوفين الذاهبين إلى قبول المجهولين ، قال شعبة : لم يفتش أحد عن الحديث تفتيشي فوجدت ثلثي ما وجدت منه كذبا حتى قال ابن معين : كذبنا عن الكذابين[.

وفي مقدمة جامع الأصول ما لفظه : قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : (إن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإننا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا .

- (١) - الخوارج : ابتداء أمرهم وتسميتهم عندما خرجوا على الإمام علي عليه السلام في صفين ، وكفروا بالإمام علي واستمروا كثيرا ، وحاربوا بني أمية في وقعات كثيرة ، من أهم رؤسائهم شبيب الخارجي ، وغزاة .
- (٢) - النواصب : هم من ينصب العدا لأهل البيت عليهم السلام ، أو يمحذ فضلهم ، ويغمطهم حقهم .
- (٣) - الروافض : وهم الذين تجاوزوا الحد في ادعاء حب أهل البيت عليهم السلام حتى أخرجوهم عن مصاف البشر وأول أمرهم عندما رفضوا القتال مع الإمام زيد عليه السلام ، فسماهم الإمام زيد روافض .
- (٤) - المجبرة : هم من يقول بأن الله هو خالق الأفعال كلها ، وأنه ليس للعبد أي اختيار في فعله ذلك ، بل هو كالشجرة في مهب الريح ، كالجهمية ، ومن غناغوها من أهل الحديث .
- (٥) - المشبهة : وهم الذين يشبهون الله بخلقه ، ويزعمون أنه له أيد وأرجل ، وأنه خلق نفسه على صورة آدم ، وأنه يضع قدمه في جهنم ، وهم يقولون : نؤمن بهذه الأشياء كلها على الحقيقة ولا نتصورها ، وهو عذر لا يسمن في باب التنزيه لله سبحانه .
- (٦) - القصاص : هم الذين دأبهم سرد الحكايات والأخبار من دون نحر للصدق والحقيقة والواقع .
- (٧) - الحشوية : هم الذين يحشون في الأحاديث الكذب ، ويدسون فيها ما ليس منها ، وقد أطلق هذا على من دس فضائل المخالفين لأهل البيت عليهم السلام .
- (٨) - الظاهرية : هم الذين يعملون بالظاهر من الألفاظ ، وينكرون الجاز ، وهذا كثيرا في أهل الحديث .
- (٩) - الكرامية : أتباع محمد بن كرام ، وقد نسب إليه جواز وضع الأحاديث على الرسول وأصحابه ، وكرام : بفتح الكاف وتشديد الراء ، قال في الفرق بين الفرق : الكرامية قالت بتجسيم المعبود ، وزعمت أنه جسم له حد ونهاية من تحت ، والجهة التي منها يلاقي عرشه .
- (١٠) - الخطابية : طائفة منسوبة إلى الخطاب بن وهب الأسدي الأجدع ، وكانوا يدينون بشهادة الزور على من خالفهم لمخالفته في العقيدة ، ورئيسهم هو : محمد بن مقلص أي زينب الأسدي ، وكنيته : ابو الخطاب ، أو أبو اسماعيل ، قتله عيسى بن موسى قائد المنصور بسبخة الكوفة ، راجع فرق الشيعة ص ٤٢ .

إذا عرفت هذا فكيف يجوز الإعتماد في تفسير كتاب الله العزيز على نحو هذه الأخبار ، والإعراض عما رواه أئمة أهل البيت الأطهار صلوات الله عليهم ، فالله المستعان .

وبأحاديث لم يعرفوا حسن تأويلها ، ولم يعنوا بتصحيحها ، فضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ، والله سبحانه قد حرم الاحتجاج بالشبه المضلة ؛ لأنه صد عن سبيل الله ، وأشد الناس ضلالا من كان ضالا وكان يعتقد في نفسه أنه محق ، ثم [إنه] لم يقتصر على ذلك ، بل بذل كل جهده في إلقاء غيره في مثل ذلك الضلال ، بإلقاء تلك الشبهات في القلوب ، معارضا بلمع السراب ماء الشراب ، فهذا الإنسان لاشك قد بلغ في الضلال إلى أقصى الغايات وأعظم النهايات .

كما ^(١) قال بعض علماء أهل البيت عليهم السلام في هذا المعنى :

فضلوا وأغروا من أضلوا بعلمهم وإن كان ما قالوه ليس بغامض

ولكنه من لم يحط أصل دينه عن الرفض لم يشعر بليس المعارض

ومن لم يكن آل النبي هـداته إلى الحق ألقى نفسه في المداحض

ولما كان هؤلاء في كل عصر ورثة يتبعونهم حذو النعل بالنعل مع ادعائهم حجة أهل البيت عليهم السلام وروايتهم ما ورد فيهم على الخصوص من قواطع تلك الأدلة وصرائح النصوص .

قال بعض صفوة الشيعة الأبرار ^(٢) وحتف النواصب الفجار ^(٣) : (إني لأكثر التعجب وما عشت أراك الدهر عجباً من رجل عالم بمصادر الأمور ومواردها وكيفية الاستدلال ومقاصدها ، ودلالات الألفاظ على معانيها ، وتراهم وهم كثير - وما ذاك

(١) - اللفظ في ب ، ولهذا

(٢) - اللفظ في ب : ولقد صدق بعض صفوة الشيعة الأبرار حيث قال .

(٣) - هو الحافظ شيخ الإسلام أحمد بن سعد الدين المسوري [١٠٠٧ - ١٠٧٩] أحد علماء الريدية الأعلام حافظ مجتهد شاعر بليغ من أصحاب الإمام القاسم بن محمد ، والمؤيد بالله محمد بن القاسم والمتوكل على الله إسماعيل كان مرجع العلماء في عصره ، ومسنّد آل محمد له عدد من المؤلفات ، منها : الرسالة المنقذة من الغواية في طرق الرواية خ ، والنص منقول منها .

إلا لإرادة الله عز وجل إظهار الحق على ألسنتهم وأيديهم حجة عليهم وإن راموا إنكارها - يوردون ويروون عن الله عز وجل وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم تلك الأدلة والنصوص والقواطع ، في حق آل محمد عليهم السلام على الخصوص ، بما لا يمكن دفعه لفظاً ولا معنى ولا سنداً ولا متناً ، حتى إذا استنتجت منهم فائدتها وطُلبت منهم عائدتها ، بوجوب إتيانهم الذي هو مقتضاه في علم أو عمل - أنكر وبرطم ، ولوى عنقه وتجهم ، إن ذكرت عنده خلافتهم رآها نكراً ، أو رأى من يتابعهم في مقالة أو مذهب عده مبتدعاً ، أو سمع بقراءة في كتبهم ومؤلفاتهم أخذها هزواً ولعباً ، فما أدري ما أبقى لهم من معاني تلك الأدلة والنصوص ! وأي فضل ترك لهم على الناس إذ أوجب عليهم أن يكونوا تبعاً والله قد جعلهم متبوعين ، ومؤخرين والله قد جعلهم مقدمين .

ثم نظم هذا المعنى فقال:

عجبت لمن يدين بحب قوم	لهم فرض الودعة والولاية
ويتلو فيهم آيات ربي	وهل من بعد أي الله آية
ويروي فيهم سنننا أنارت	معالمها لكل أخي هداية
إذا ما أسندت فإلى رجال	علت بهم أسانيد الرواية
وإن عرضت على ميزان معنى	شهدن لها موازين الدراية
تناقلها أئمة ذا وهـذا	أما فيهم لذي عقل كفاية
[أقر بها العدو كما أقر الـ	ولي بها وبالغ في العناية]
فلما استنتجت منهم بما لا	يراد سواه حكم فيه رأيه
إذا ذكرت خلافتهم أباهـا	وأظهر ميله عنها ونأيه
وإن ذكرت روايتهم رآها	ضلالاً فهو يركض في العماية
وإن سمع القراءة في كتاب	لهم أبدى التوجع والشكاية

ونقص أئمة الحق الأولى في اتباعهم السلامة و الوقاية
 ودعوى الحق والتحقيق ممن يدين بما استبان من الغواية
 ويزعم أنهم بلغوا مقاماً من الإتيان ليس وراه غاية
 وأن المرجئين ومن تلاهم من أرباب النسيمة والسعاية
 أحق بالإتباع فليت شعري أذاك في الانتهاء أم في البداية]

انتهى

ولما كان حالهم عليهم السلام والأمر فيهم وفي كتاب الله - والله المستعان -
 كذلك رأيت أن ابذل وأفرغ وسعي في التقرب إلى الله عز وجل ، بنقل ما ظفرت به
 من علوم أئمتنا عليهم السلام في التفسير مستعينا بالله اللطيف الخبير ؛ حفظاً لعلومهم
 وتركاً بكلامهم ، وصلة مني لهم عليهم السلام ؛ لينجيني الله إن شاء الله بعفوه من
 النار بنجاتهم ، ويحشرني إن شاء الله في زمرةهم ، ويجعلني برحمته وكرمه من وفدهم
 إلى دار السلام ، وأرجو بذلك إن شاء الله أن يمتاز الصحيح من السقيم ، والأعوج
 من المستقيم ، ليهتدي بذلك من أراد الرشاد ، ولتثبت به الحجة على من سلك طريق
 العناد ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسمع عليم﴾^(١).

مع أن النصيحة كما قال بعض خلص الشيعة : كانت من أركان الإسلام ، ومن
 أسباب الدين بقول خاتم النبیین عليه صلوات رب العالمین ، بل النصيحة في الدين ،
 والدعاء إلى الحق المبين من سنن جميع المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين فنوح صلى
 الله عليه قال: ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم﴾^(٢) وهود عليه السلام قال: ﴿وأنا

(١) - الأنفال : ٤٢

(٢) - الأعراف : ٦٢

لكم ناصح أمين»^(١) وصالح عليه السلام: ﴿ونصحت لكم﴾^(٢) والرجل المؤمن قال لمُرسى عليه السلام: ﴿فاخرج إنني لك من الناصحين﴾^(٣).

ولو لم يكن في ذلك إلا مارواه الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام بالإسناد المعتمد عليه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (ما أهدى المسلم لأخيه المسلم هدية أفضل من كلمة حكمة يسمعها فانطوى عليها ، ثم علمه إياها يزيد الله بها هدى ، أو يرده عن ١٠٠ ، وإنها لتعدل إحياء نفس ، ومن أحيائها فكأنما أحيى الناس جميعا ، لكفى بذلك باعثا لأهل العلم على بذل النصيحة وإرشاد العباد إلى المذاهب الصحيحة إذ كان [ذلك]^(٤) سببا للفوز في المحشر ، ووسيلة إلى النجاة يوم الفزع الأكبر ، مع اعتقادي بتقصيري عن رتبة المصنفين ، ومحل الأئمة المؤلفين ، فاستعصم الله بعصمته التي لا تهتك ، وأسترشده السبيل الذي ينجو به من هلك ، وأستوهبه التوفيق لهدايته ، والحظ الوافر من طاعته ، وأرغب إليه في إلهام حكمته واجتناب معصيته ، وهو حسبي فنعم الهادي إلى صراط مستقيم من ملته ، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله الذين جعل رسول الله المتمسك بهم كالراكب مع نوح في سفينته ، والعاقل عن مناهجهم كمن غرق من أمة نوح بمخالفة دعوته .

(١) - الأعراف : ٦٨

(٢) - الأعراف : ٧٩

(٣) - القصص : ٢٠

(٤) - الزيادة من ب .

مقدمة

في ذكر شئ من فضائل القرآن وإعجازه وأقسامه

قال الإمام الصوام القوام أحمد بن سليمان عليه السلام: [إعلم] ^(١) (أن الله تعالى جعل كتابه حجة على العباد ، وداعيا إلى الحق والرشاد ، وزاجرا عن الغي والفساد ومرغبا في الجنة، ومخوفا من النار ، وجعله مؤكدا لحجة العقول ، وشاهدا بصدق الرسول ، وحاكما بين الناس ، ومبينا للإلتباس ، وجعل فيه جميع ما يحتاج إليه من علم الأصول والفروع ، ومعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة القضاء والأحكام والمواريث وعلم الشرع ، وقصص الأولين ، ونبأ ما يكون في يوم الدين ، وجعله نورا للمؤمنين ومبينا للمهتدين ، وجعله بالغا موجزا ، وقريب المتناول معجزا ، وقد سماه الله هدى وموعظة وذكرى وعزيزا ومباركا ، ونورا قد مثله الله بالمصابيح وبالنجوم ، حيث يقول عز من قائل: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسام لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين﴾ ^(٢).

وفي فضائله ما يقول رب العالمين: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ ^(٣) وقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ ^(٤) وقوله تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ ^(٥) وكفى شرفا أن يكون نزل من عند رب العالمين نزل به الروح الأمين إلى محمد خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعلى أهل

(١) - الزيادة من ب .

(٢) - الواقعة : ٧٥ - ٨٠

(٣) - الإسراء : ٨٢

(٤) - يونس : ٥٧ - ٥٨

(٥) - الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥

بيته الطيبين ، وبأنه كلام الله جعله وأحدثه كما قال تعالى : ﴿ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا استمعوه وهم يلعبون﴾^(١).

قلت : وإنما يكون هدى ونورا وموعظة وشفاء لأن الله عز وجل جعلهم له ورثة ولما مر من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (فمن ابتغى الهدى في غيره أو سأل عنه غير أهله أضله الله)^(٢) والله عز وجل يقول فيه : ﴿هدى للمتقين﴾ أي زيادة هدى لأنهم المتفعلون به ، ويقول سبحانه : ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾^(٣) ويقول تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾^(٤) وقال تعالى : ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾^(٥) ﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾^(٦) ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليه ولعلهم يتفكرون﴾^(٧) ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾^(٨) وأكد ذلك بتكريره في السورة إلى أشباه ذلك ، مما يدل على أن تعلقه ومعرفة المراد به مراد الله تعالى ، ولما يأتي إن شاء الله [من]^(٩) كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

وفي ذلك يقول نجم آل الرسول الإمام القاسم بن إبراهيم عليهما السلام : (إن القلوب كالأبنية المصدوعة فيما ينازع إليه من غرائزها المطبوعة ، فرمؤها بالعلم بكتاب الله ، والوقوف على محكم تأويله ، ففي هذا لها تقويم وتعديل وهداية ونور ودليل على منهاج خالص الطريق المستأثر بها في حب الله وطاعته ، وما أوجب الله

(١) - الأنبياء : ٢

(٢) - (فمن ابتغى الهدى في غيره) الخ هو من حديث يأتي تخريجه .

(٣) - فصلت : ٤٤

(٤) - ص : ٢٩

(٥) - يوسف : ٢٠

(٦) - الدخان : ٥٨

(٧) - النحل : ٤٤

(٨) - القمر : ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠

(٩) - الزيادة ليستقيم الكلام ، واللفظ في ب : ولما سيأتي إن شاء الله تعالى .

على العباد من أثرته وعبادته ، فبكتاب الله تنجلي عن القلوب ظلم الخيرة ، وبلطف النظر فيه تدرك حقائق العلم والبصيرة ، وقد زعم بعض أهل الخيرة والنقص ، ومن لا يعرف النجاة والتخلص : إن الألطاف في النظر تدعو صاحبه إلى الخيلاء والبطر ، وإنما يكون ذلك كذلك عند من يريده للترؤس لا لما فيه ، ولما جعله الله عليه من حياة الأنفس ، فاتقوا ^(١) مثل هذا عن ضمائركم وسددوا ثلثة ^(٢) عيه عن سرائركم .

فعلم القرآن على هذه الطريقة هو العلم النافع الذي يقول الله عز وجل فيه : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ^(٣).

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليهم السلام : (والحكمة العلم النافع وهو علم القرآن وتفسير معانيه وتفصيل مجمله والمعرفة بأحكام أوامره ونواهيه ومحكمه ومتشابهه ، وخاصة وعامه ومجمله ومبينه ، وناسخه ومنسوخه ، والإعتبار بغيره والفهم لأمثاله العجيبة وقضصه الغريبة ، فهذا عندنا رأس الحكمة ومفتاح الرحمة).

ومن شرفه : أن الله فضل الليلة التي أنزل فيها وهي ليلة القدر على ألف شهر قال الله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ^(٤).

ومن شرفه أنه أكبر معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن إعجازه أن الله تحدى الكفار أن يأتوا بسورة من مثله ، فلم يكونوا على ذلك من القادرين مع فصاحتهم وبلاغتهم ، فرجعوا إلى الحرب واستسهلوا من دونه الطعن والضرب .

(١) - فاتقوا ظ .

(٢) - الثلثة : كبرمة ، الخلل الواقع في الحائظ وغيره ، والجمع ثلثم كبرم ، ومنه الحديث (إذا مات العالم ثلثم في الإسلام ثلثة لا يسدها شيء) بجمع البحرين ٣٢٢/١

(٣) - البقرة : ٢٦٩

(٤) - القدر : ١ - ٣

وقد قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد رحمه الله عليه في آيات الأحكام ما لفظه: (قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾^(١) إلى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾^(٢) الآية إلى آخرها تدل على أن السورة الواحدة معجزة وأن معارضتها بمثل لها مستحيل ومن أنكر ذلك كفر، وأن فعل التقوى الجامعة للإيمان بالله والقيام بالواجبات المحرمات خشية من النار مجبر ومنج من النار، وأن القائم بذلك كذلك قائم بما فرض الله عليه. أهـ

وقد اجتهد كفار العرب وأهل الكنايين على أن يأتوا بسورة مثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا مع أنهم وجدوا فيه من البلاغة والكمال والفصاحة، وضرب الأمثال ما بذ^(٣) الفصحاء والشعراء، ووجد أهل الكنايين فيه من علم الأولين والآخرين ما استيقنوا به أنه من رب العالمين، فمنهم من صدقه وآمن به كما قال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٤) وقوله: ﴿يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني المرة الأولى بما علموا في التوراة وآمنوا وصدقوا، والمرة الأخرى إيمانهم بالقرآن ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم وتصديقهم وعملهم فهؤلاء هم المفلحون، ومنهم من كفر به وأعرض عنه مع أنهم [قد]^(٥) وجدوا فيه ما يوافق ما عندهم من العلم فألحدوا فيه، وقالوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾^(٦) وقد حكى الله [ذلك]^(٧) عنهم فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ

(١) - البقرة: ٢٣

(٢) - البقرة: ٢٣

(٣) - في الحديث (إذا قال بذ القائلين) أي سبقهم وغلبهم، من قولهم: بذه يبذه بذاذ، أي غلبه وفاقه، بجمع البحرين ١٧٠/١.

(٤) - القصص: ٥٢ - ٥٣

(٥) - الزيادة من ب.

(٦) - النحل: ١٠٣

(٧) - الزيادة من ب.

جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا^(١) وقد رد الله عليهم قولهم واحتج عليهم بالحجة التي لم يجدوا لها مدفعا حيث يقول عز من قائل: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾^(٢) وكان من إعجازه تصديق القصص الذي في كتب الأنبياء المتقدمين وما فيها من ذكر ما يكون في يوم الدين .

ومن إعجازه قوله عز من قائل: ﴿قل لن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾^(٣) وفي هذا كفاية في الإعجاز ، مع ما فيه من حلاوة اللفظ ، وعذوبة المنطق ، وحسن المعاني كما قال بعض القائلين:

يزداد في طول التلاوة جدّة ومتى يعد شئ سواه يخلق

وقد وردت في فضل تلاوته أخبار كثيرة من ذلك مارواه الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهما السلام في كتابه دعائم الإيمان قال عليه السلام : قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (الحاذق بتلاوة القرآن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند متشابهه ويستعمل كل حرف فيما أمر به فذلك الماهر في القرآن وهو القائم بحدوده آناء الليل والنهار ، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له ثواب القرآن مرتين أي بكل حرف عشر حسنات ، أما إنني لا أقول : ألم حرف ، ولكن أقول : الألف حرف ، واللام حرف ، وميم حرف ، فذلك ثلاثون حسنة)^(٤) أهـ

(١) - الفرقان : ٤ - ٧

(٢) - النحل : ١٠٣

(٣) - الإسراء : ٨٨

(٤) - اختلف الناس في اسمه ولقبه واسم أبيه إلى أكثر من خمسين قولاً ، قال حسين أسد محقق سند أبي يعلى : " اختلافاً لم يحصل مثله في اسم أحد في جاهلية أو إسلام ، أسلم عام خيبر ومكث في الصفة أكثر من عام ، وأكثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو أول راوية أنهم في الإسلام انظر معجم الرواة في أمالي المؤيد بالله

وكذلك فضل استماعه ولا يمتنع أن يكون الإستماع أفضل من القراءة عند أمور منها: أن يكون في الجماعة من هو أجود قراءة وأصح ضبطاً فيكون استماعه أولى لأمرين: أحدهما: ما يحصل من تعلم القراءة القوية فيكون جمعا بين العلم والعبادة. وثانيهما: الإحتراز من اللحن لو قرأ ضعيف القراءة لنفسه.

ومنها: أن يكون الإستماع أدعى إلى التدبر والتفهم والخشوع.

ومنها: أن يكون في قراءة كل من الحاضرين تخليط للقراءة وتشويش على المستمعين ونحو ذلك، فأما إذا عدم وجه ترجيح فقراءة كل منهم لنفسه أفضل.

وفي البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (اقرأ علي سورة النساء) قال: قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه حتى انتهيت إلى قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾^(١) فرفعت رأسي فإذا عيناه تهملان^(٢) وفي رواية (تذرفان).

قال الإمام الناصر لدين الله أبو الفتح الديلمي عليه السلام في برهانه: (روينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء في القرآن كفر ثلاث مرات، فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه)^(٣)

(١) - النساء: ٤١

(٢) - في البخاري (تذرفان) وفي مسلم (فأريت دموعه تسيل) وفي الترمذي (تهملان) والحديث أخرجه بالفاظ مقاربة ابن حبان ٩/٣ رقم ٧٣٥، ١٥ رقم ٧٠٦٥، وأخرجه مسلم رقم ٨٠٠، والبخاري رقم ٤٥٨٢، ٥٠٤٩، ٥٠٥٠، ٥٠٥٥، ٥٠٥٦، وأبو داود ٣٦٦٨، والترمذي ٣٠٢٨، وفي... رقم ٣١٦، وابن أبي شيبه ١٠/٥٦٣، وأحمد ١/٣٨٠، ٤٣٣، والبغوي في شرح السنة: ١٢٢٠، والطبراني ١٠: ٨٤١٠، ٨٤٦٢، ٨٤٦٣، ٨٤٦٧، والحميدي: ١٠١، والحاكم: ٣/٣٢٩، وصححه وأقره الذهبي.

(٣) - حديث (أنزل القرآن على سبعة أحرف) أخرجه أحمد ٢/٣٠٠، والطبري عن أبي هريرة بلفظ (أنزل القرآن على سبعة أحرف فلمراء في القرآن كفر فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه) وهو في مجمع الزوائد ٧/١٥١، وقال: رواه أحمد بإسنادين أحدهما رجال الصحيح، وله شواهد عن أبي هريرة، وأبي بن كعب وهشام بن حكيم بن حزام وغمر وغيرهم، وقد عمل الإمام زيد بن علي عليه السلام رسالة قصيرة حققها الدكتور الحكيم، بعنوان الأحرف السبعة في القرآن، وشرح معنى ذلك فليُنظر في الكتاب المطبوع.

وأما تفسير قوله : (سبعة أحرف) فإنما هي أمر ونهي وترغيب وترهيب وجدل وقصص ومثل .

وأما إعجاز القرآن فقد اختلف فيه الناس على ثمانية أوجه :

أحدها: أن وجه إعجازه هو الإيجاز والبلاغة مثل قوله تعالى : ﴿ولكم في القصص حياة﴾^(١) فجمع في كلمتين عدد حروفهما عشرة أحرف معاني كلام كثير .

والثاني: أن وجه إعجازه هو البيان والفصاحة كالذي حكاه بعض أهل العلم : أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : ﴿فاصدع بما تؤمر﴾^(٢) فسجد فقال: سجدت لفصاحة الكلام ، وسمع آخر رجلا يقرأ ﴿فلما استياسوا منه خلصوا نجيا﴾^(٣) فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وحدثنا بعض أهل العلم بإسناد له رفعه إلى عالم من علماء أهل اللغة (أنه رأى في تطوافه بالبادية جارية خماسية^(٤) فصيحة فأعجبته فصاحتها وبراعتها ، فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك؟ فقالت له : أو تعد هذا فصاحة بعد قول الله سبحانه وتعالى ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾^(٥) فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين [وخبرين]^(٦) وبشارتين .

والثالث : أن وجه إعجازه هو الوصف الذي تقضي به العادة ، حتى صار خارجا عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر والرجز والهزج ، ولا يدخل في شيء منها ولا يختلط بها مع كون ألفاظه حروف من جنس كلامهم مستعملة في نظمهم ونثرهم .

(١) - البقرة : ١٧٩

(٢) - ﴿وأعرض عن المشركين﴾ الحجر : ٩٤

(٣) - يوسف : ٨٠

(٤) - في المعجم الوسيط : الخماسي من الغلمان والتيات : ماطوله خمسة أشبار .

(٥) - القصص : ٧

(٦) - الزيادة من ب .

والرابع : أن قارئه لا يكمل وسامعه لا يعمل ، ولا تزيده ^(١) كثرة تلاوته إلا حلاوة في النفوس وميلًا في القلوب ، وغيره من الكلام وإن كان مستحلى النظم مستحسن النشر يُملُّ إذا أُعيد ، ويُستَنَقَلُ إذا رُدَّدَ .

والخامس : أن إعجازه هو ما فيه من الأخبار مما علموه أو لم يعلموه فإذا سألوا عرفوا صحته وتحققوا صدقه ، كالذي حكاه من قصة أهل الكهف ، وموسى والخضر وذو القرنين ، وقصص الأنبياء مع أممهم .

والسادس : أن وجه إعجازه هو ما فيه من علم الغيب والأخبار بما يكون فيوجد على صدقه وصحته ، مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(٢) ثم قال : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) وقوله لقريش : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ^(٤) فقطع بأنهم لا يفعلون .

والسابع : أن وجه إعجازه هو كونه جامعًا للعلوم لم تعرفها العرب ولا يتعاطى عليها فيها الكلام ولا يحيط بها من علماء الأمم واحد ، ولا يشتمل عليها كتاب قال عز من قائل : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(٥) وقال : ﴿ تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(٦) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : (فيه خير ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من طلب الهدى في غيره ضل) .

والثامن : الصرفة وهو أن الله سبحانه صرف همهم عن معارضته ، مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله فلم تخدعهم أنفة التحدي ، وصبروا على نقيصة العجز فلم

(١) - اللفظ في ب : ولا يريد على كثرة تلاوته .

(٢) - البقرة : ٩٤

(٣) - البقرة : ٩٥

(٤) - البقرة : ٢٤

(٥) - الأنعام : ٣٨

(٦) - النحل : ٨٩

يعارضوه وهم فصحاء العرب مع توفر دواعيهم على إبطاء له ، وبذل نفوسهم في قتاله فصار بذلك معجزا لخروجه عن العادة كخروج المعجزات .

روينا عن الحارث الأعور^(١) قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الحديث فدخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين ألا ترى الناس قد خاضوا في الحديث؟ فقال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم ، قال: أما أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إلا إنها ستكون فتنة فقلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله عز وجل فيه نبأ ما قبلكم وخير ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا يلبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشاد فأما به﴾ من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم ، خذها إليك يا أعور).

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (لتكثرن علي الكذابة فما حدثتم به فاعرضوه على كتاب الله عز وجل فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فذرّوه) .

وقد روي في بعض وصايا السلف أنه قال: أتخذ كتاب الله إماما وأرض به حكما وقاضيا هو الذي استخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع الطاهرين من عترته شفيع مطاع وشاهد لايتهم ، فيه خير ما قبلكم وخير ما فيكم وذكر ما قبلكم وذكر ما معكم) .

وروينا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال وقد أهوى بيده نحو المشرق : وهذه الفتن قد أضلت كأنها قطع الليل المظلم كلما مضى منها رَسَلٌ بدا رَسَلٌ ^(١) ويل للعرب من شر قد اقترب ، إلا من فزع إلى الله عز وجل وعِزَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فعمل بمحكم الكتاب وآمن بمتشابهه ، يصبح الرجل مؤمنا فيها ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يموت فيها قلبه كما يموت فيها بدنه يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا قليل).

وروينا عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: (ما أنزل الله في القرآن آية إلا أحب أن يعلم العباد منها ما يعني بها).

وعنه عليه السلام : (ما من شيء إلا وعلمه في القرآن لكن رأي الرجل يعجز عنه).

وروينا عن بعض الصالحين أنه قال: (ثلاثة لأن آخر من السماء فتخطفني الطير أو تهوي بي الرياح في مكان سحيق أحب إلي من أن أكون أحدهم : قوم استحلوا أحاديث لها زينة وبهجة وسيبوا القرآن . وقوم أطاعوا المخلوق في معصية الخالق . والخوارج).

ونرجو أن يكون لأمة جلدا انتباه ورجوع إلى الحق واتباع لما أمروا باتباعه من أئمة الهدى الذين لا يدخلون أحدا في باب ردى ، ولا يبيعون الأحكام باليسير التافه من الخطام ، بل هم تقاة أماناء ، عدول خلفاء ، ومصاييح لكل من اهتدى بهم وأضواء ، لم يتعلموا للنفاسة ^(٢) ولم يدعوا الخلق إلى طاعة الله عز وجل للتكسر بهم والرياسة ، دعوهم لينفعوهم وطلبوهم ليهدوهم ، وأرادوهم ليفدوهم ، فمن تعلق بهم نجا ، ومن تخلف عنهم هوى ، ومن استخف بأمرهم تردى ، هم الذين درجوا ^(٣) من ذكر

(١) - الرَّسَل : القطيع من الإبل والغنم وغيرهما ، والجماعة من الناس . المعجم الوسيط ، وقال في معجم ما استعجم

للأندلسي ٧٣/١ : رسل : بالتحريك ، وهي الجماعات يتلو بعضها بعضا ، وجمعه أرسال .

(٢) - النفاسة : من نفس الشيء بالضم نفاسة ، أي صار مرغوبا فيه ، ونافست في الشيء منافسة ونفاسا : إذا رغبت فيه على وجه المباراة .

(٣) - يقال : درج الشيء والصبي درجانا : مشى مشية الصاعد في درجه ، والمراد هنا نشأ ، وقد استعير الدرج للموت كما يقال : درج صغيرا ، انظر مفردات الراغب ص ١٦٧ .

الوحي والتنزيل ، وخرجوا من صميم المعرفة والتأويل ، وهم شهداء الله على خلقه العدول الذي لا يدانيهم التغيير والتحويل والحمد لله على ما خصنا به من الأكرومة^(١) وأخرجنا من خير الأرومة^(٢) وأمدنا بتأييده حتى سلكنا طريق الصواب ، وتجنبنا مواقف الشك والإرتياب ، وذكرنا لأمة جدنا من علم الكتاب على سبيل الإستقامة والصواب ما لها به المخلص إن أرادته ، وفيه الفوز إن أمتته) اهـ كلام البرهان.

فصل

في ذكر وجوه اشتمل عليها القرآن الكريم

قال الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام : (واعلم أن القرآن مبني على وجوه : فمنه المحكم ، ومنه المتشابه ، ومنه المجمل ، ومنه المفسر ، ومنه الظاهر ، ومنه الغامض ، ومنه الناسخ ، ومنه المنسوخ ، ومنه الجواب ، ومنه مفهوم الخطاب ، ومنه الحقيقة ، ومنه المجاز ، ومنه ما هو في مخرجه عام ومعناه خاص ، ومنه الخاص ، ومنه العام ، ومنه مايو جب العلم ، ومنه مايو جب العمل ، ومنه القصص والأخبار والأمثال ، ومنه الأمر والنهي ، ومنه الوعد والوعظ والزجر والترهيب ، ومنه الوعيد والوعد ، وغير ذلك .

فأما المحكم فيحكيه قول الله عز وجل : ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر ألا أولوا الألباب﴾^(٣).

(١) - الأكرومة : من الكرم كالأعجوبة من العجب .

(٢) - الأرومة : جمعها أروم بمعنى الأصول ، البداية والنهاية ٣١٧/٢ .

(٣) - آل عمران : ٧ .

فالحكم هو الجلي البين الذي يكون تأويله موافقا لتنزيله وهو الأكثر والمعمول عليه والأحسن ، وهو أصل الكتاب والذي يرجع إليه ، والحكم مالا يحتمل إلا وجهها واحدا ، ويعرف المراد بظاهره .

والعلة في التشابه البلية والإمتحان لأهل العقول السنية ، وهو مردود إلى المحكم ، قال الله تعالى : ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ الآية ، فبين الله تعالى أن الكتاب منه المحكم ومنه المتشابه ، وأخبر أن المحكم هو الأصل المعمول عليه ، لأن أم الشيء أصله .

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليهم السلام : (لأن يجهل المحكم والمتشابه هلك كثير من الناس ، فادعى في المحكم أنه متشابه ، والمتشابه أنه محكم وعرض تأويل ما يعارض مذهبهم من محكم الكتاب .

واعلم أيها المسترشد أن التأويل لا يسلم للمتأول جزافا فلا بد أن يطلب على صحة تأويله برهانا ، فإن أقام الدلالة ونصب البرهان قبل قول الخصم طائعا أو كارها [فإن] ^(١) كابره مكابرة ظاهرة ، كان عند المستحفظين خائنا ، وعند الله مائنا ، وكفى بنفسه عليه حسيبا ، وبعقله على اختلاله رقيقا ، وإن لم يقم دلالة ولا نصب برهانا لم يعط مراده بقوله ولا ينفعه تأويله .

قال عليه السلام : فحقيقة التشابه : كل لفظ إذا أطلق عليه سبق إلى فهم السامع معنيان ، أو ثلاثة أو أكثر بعضها صحيح وبعضها فاسد ، فيبقى متردد الفهم بين تلك المعاني ، فيقع الإشتباه عليه حتى يميز بعضها من بعض بالبرهان العقلي والشرعي كالشاهدين العبدلين يقعان لإحدى الدعاوى فيستحق المدعي ويبتطل كلام الآخرين بعد أن كانوا قبل الشاهدين على سواء .

وأما المحكم فعلى وجهين أيضا أحدهما : ما صبح المراد في باب الحكمة وأحكمت آياته ورصفت من الخلل ، لأن الحكم في الأصل هو المنع ، ومنه أخذت حكمة الدابة لأن يمنعها من العدوان ، فكذلك الحاكم ، والحكمة تمنع صاحبها من التعدي والمحكم

(١) - الزيادة ليستقيم اللفظ ، ففي أ : أو كابره مكابرة

كالمنازع ، والمنوع عن الإضلال في وجه من الوجوه ، أوفي كل وجه فعلى هذا الوجه يحمل القرآن كله على أنه محكم ؛ لأن ألفاظه صحيحة ورصفه بريء من الخلل والغلط وعليه يحمل قوله تعالى : ﴿الر كتاب أحكمت آياته﴾^(١) فوصف القرآن كله على هذا المعنى بأنه محكم .

والوجه الثاني من معنى المحكم : أن كل لفظ إذا أطلق سبق إلى فهم السامع منه معنى أو معنيان يشهد بصحتهما دلالة العقل وصريح السمع يحكيه قول الله تعالى : ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾ فلم يصف بالإحكام على الوجه الأخير إلا البعض لأنه تعالى قال : ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾ أي أصله الذي يرجع إليه ﴿وآخر متشابهات﴾ فنوعه نوعين ، فلولاً حملناه على هذه المعاني الصحيحة لكان عز من قائل متناقضاً ، لأن الشيء الواحد لا يكون بصفيتين متنافيتين في حالة واحدة ، ولا يسوغ ذلك عقل سليم).

ثم قال عليه السلام : (ولا يحسن أن يخاطبنا سبحانه بخطاب لا نفهم معناه ، والدليل على ذلك أنه تعالى حكيم لا يفعل القبيح ، أما أنه حكيم فلأنه عالم غني ، ولا يقع القبيح والعبث إلا من الجاهل المحتاج ، وقد صرح علمه ، بوجود الأفعال من قبله محكمة ، وغناه باستحالة الحاجة عليه فإذا خاطبنا بخطاب لا يفهم كان كمخاطبتنا للعرب بالزنجية ولا ترجمان ، فإن ذلك يكون عبثاً لأنه لا يخلو إما أن نريد معرفة ما نكلمه به أولاً نريد ، فإن لم نرد كان الخطاب عبثاً ، وإن أردنا كان الخطاب قبيحاً ، لأننا نكلفه علم مالا سبيل له إلى علمه ، وتكليف مالا يفهم معناه قبيح ، يعلم بقبحه كل عاقل ، فإذا تقررت هذه الجملة ثبت أنه لا يجوز أن يكون في كتاب الله سبحانه ما لا يفهم معناه ، فإذا كلفنا معرفة معناه فلا بد من طريق إلى ذلك وإلا قبح .

قال عليه السلام : والطريق إلى معرفة معناه العقل والنقل واللغة ، فاللغة العربية لساننا وميداننا .

والنقل : هو ما جاءنا عن نبيتنا صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن سلفنا الصالح من ذريته سلام الله عليهم .

والعقل هو الذي يلزم به التكليف من قبله تعالى ، وتقوم به الحجة على العبد ، فهذا شرح المحكم والمتشابه .

ثم ذم سبحانه من يتبع المتشابه فقال عز وجل : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ يريد بالفتنة المجادلة للحق وأهله ﴿زَيْغٌ﴾ أي ميل عن الحق وأهله لغرض من الأغراض كما قال الشاعر:

ترى السفية له في كل مُحْكَمَةٍ زَيْغٌ وفيه إلى التشبيه إصغاءٌ

والإستدلال بالمتشابه كقوله تعالى : ﴿وَجِئُوا يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاصِرَةٌ﴾^(١).

[قال الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام قول الله تعالى : ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٢) وقوله : ﴿تَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾^(٣) وقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(٤) ثم بين الله تعالى تحريم الخمر والميسر بأية محكمة ، فقال عز من قائل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾^(٥) فبين الله تعالى بهذه الآية تحريم الخمر والميسر ، وقد قال غيرنا : الآيات الأولى توجب الترخيص ، وقد نسخ الترخيص بهذه الآية ، وهي ناسخة وعندنا أنه لم يكن في الخمر والميسر ترخيص ؛ لأن الله تعالى لم يكن لينعم على عباده بالعقول ويجعلها أكبر حجة عليهم ثم يحل لهم شئ يفسد عليهم عقولهم ، ويحمل قول الله تعالى : ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ الآية على سكر

(١) - القيامة : ٢٢

(٢) - النساء : ٤٣

(٣) - النحل : ٦٧

(٤) - البقرة : ٢١٩

(٥) - المائدة : ٩٠

النوم ، إلى آخر كلامه عليه السلام في الحقائق^(١) "فما ورد من المتشابه فالواجب رده إلى المحكم كما أمر الله تعالى بذلك .

مسائل الشاك

قلت : ومن المتشابه مسائل الشاك^(٢) حين سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة التي رواها [عنه عليه السلام]^(٣) محمد بن إسحاق الكوفي الأنصاري من طريقين :

إحدهما : عن أبي معشر السعدي^(٤) وقد كان أدرك عليا عليه السلام .

والأخرى : عن أبي إسحاق^(٥) عن الحارث عن علي عليه السلام قال : (أتى رجل عليا عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين إني شككت في كتاب الله المنزل . فقال له علي : >كلتلك أمك وكف شككت في كتاب الله المنزل ؟ .

(١) - الزيادة موجودة في أ ، وليست موجودة في ب .

(٢) - مسائل الشاك متداولة معروفة قد رواها غير واحد بسند متصل ، منهم المؤلف رواها عن الإمام القاسم بن محمد ، والعلامة الطبرسي في كتابه الاحتجاج .

(٣) - الزيادة من ب .

(٤) - أبو معشر السعدي وليس السعدي : هو نجيح بن عبد الرحمن السعدي أبو معشر المدني مولى بني هاشم قيل توفي سنة ١٧٠هـ قال في تهذيب الكمال : رأى أبا أمانة بن سهل بن حنيف ، وله رؤية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، انظر تهذيب الكمال ٣٢٢/٢٩

(٥) - أبو إسحاق السبيعي : عمرو بن عبد الله بن علي ، الحافظ الكبير من أكثر الناس ولاء لأهل البيت توفي رحمه الله سنة ١٢٧هـ وقيل : سنة ١٢٨هـ عده الحافظ أبو عبد الله العلوي فيمن روى عن الإمام زيد بن علي عليه السلام من التابعين ، وقال المزني : كان رحمه الله من العلماء العاملين ، ومن جلة التابعين ، انظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين .

والحارث : هو الحارث بن عبد الله بن جابر الهمداني الأعور : أبو زهير المتوفى سنة ٦٥هـ من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كان من أفقه الناس وأفرض الناس ، تعلم الفرائض على أمير المؤمنين ، وقد أسبى الظن فيه من قبل القوم لما عرف من مذهبه في التشيع قال الذهبي : حديث الحارث في السنن الأربع والنسائي رغم تغته في الرجال قد احتج به ، وقوى أمره ، والحارث عالم عارف محدث ثقة ، موال لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم (انظر رجال الاعتبار وسلوة العارفين) .

فقال الرجل: إني وجدت الكتاب يكذب بعضه بعضا ، وينقض بعضه بعضا ولا يصدق بعضه بعضا ، وكيف لا أشك فيما تسمع يا أمير المؤمنين !! .

فقال له علي عليه السلام: >إن كتاب الله يصدق بعضه بعضا ولا ينقض بعضه بعضا ولا يكذب بعضه بعضا، ولكنك لم تستعمل عقلا تنتفع به ، فهات الذي شككت فيه> .

فقال : إني أجد الله يقول في كتابه: ﴿اليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾^(١) ويقول: ﴿نسوا الله فأنسيهم﴾^(٢) ويقول: ﴿وما كان ربك نسيا﴾^(٣) فمرة ينسى ومرة لا ينسى ، فأى ذلك يا أمير المؤمنين ؟ وكيف لا أشك فيما تسمع ؟ .
فقال له علي عليه السلام: >يحك هات ما شككت فيه> .

فقال: وأجد الله يقول: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾^(٤) ويقول عن مقاتلهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾^(٥) أفصواب ذلك ؟ ويقول: ﴿يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا﴾^(٦) ويقول: ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾^(٧) ويقول: ﴿لا تختصموا لدي﴾^(٨) ويقول: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾^(٩) فمرة يتكلمون ومرة لا يتكلمون ، ومرة تنطق الجلود والأيدي والأرجل ومرة لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ؟ ومرة يقول عن مقاتلهم

(١) - الأعراف : ٥١

(٢) - التوبة : ٦٧

(٣) - مريم : ٦٤

(٤) - النبأ : ٣٨

(٥) - الأنعام : ٢٣

(٦) - العنكبوت : ٢٥

(٧) - ص : ٦٤

(٨) - ق : ٢٨

(٩) - يس : ٦٥

﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾^(١) فمرة يختصمون ، ومرة لا يختصمون ، فأبي ذلك يا أمير المؤمنين ؟ وكيف لا أشك فيما تسمع ؟ .

فقال له علي عليه السلام: <هات ويحك ما شككت فيه؟> .

قال: وأحد الله يقول: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾^(١) ويقول: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾^(٢) ويقول: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى﴾^(٣) ويقول: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما﴾^(٤) ومن أدركته الأبصار أحاطت به علما ، فأى ذلك يا أمير المؤمنين ؟ وكيف لا أشك فيما تسمع ؟ .

فقال له علي عليه السلام : >سبحوا قدوسا ربنا تبارك وتعالى ، هات ويحك ما شككت فيه<.

قال: أجد الله يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^(١) وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٢) وقال: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾^(٣) وقال: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾^(٤) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾^(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾^(٦) ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٧) و﴿يَا إِبْلِيسَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾^(٨) فأي ذلك يا أمير المؤمنين؟ وكيف لا أشك فيما تسمع؟

- (١) - الأنعام : ٢٣
(٢) - القيامة : ٢٣
(٣) - الأنعام : ١٠٣
(٤) - النجم : ٢٣ - ٢٥
(٥) - طه : ١٠٩
(٦) - الشورى : ٥١
(٧) - النساء : ١٦٤
(٨) - الشعراء : ١٠
(٩) - الأعراف : ٢٢
(١٠) - الأعراف : ١٩
(١١) - ص : ٧٥

فقال له علي رحمة الله عليه : >هات ويحك ما شككت فيه> .

قال : وأحد الله يقول : ﴿هل تعلم له سميا﴾^(١) وسمى الإنسان سميعا بصيرا ، وملكا وربا ، فمرة يقول : ليس له سمي ، ومرة يقول : أسماء كثيرة غير واحدة ، فأبي ذلك يا أمير المؤمنين تقول ؟ وكيف لا أشك فيما تسمع ؟ .

فقال له علي عليه السلام : >هات ويحك ما شككت فيه> .

قال : وأحد الله يقول : ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾^(٢) ويقول : ﴿ولا ينظر إليهم﴾^(٣) ويقول : ﴿إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ فمرة ينظر ، ومرة لا ينظر إليهم ، ومن لا ينظر الله إليه عزب عنه ، ومن حجب عنه عزب عنه ، فأبي ذلك يا أمير المؤمنين ؟ وكيف لا أشك فيما تسمع !

فقال له علي رحمة الله عليه : >هات ويحك ما شككت فيه> .

قال : وأحد الله يقول : ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾^(٤) وقال : ﴿والظاهر والباطن﴾^(٥) وقال : ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾^(٦) وقال : ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾^(٧) وقال : ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾^(٨) وقال : ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾^(٩)

(١) - مريم : ٦٥

(٢) - سبأ : ٣

(٣) - في آيات عديدة

(٤) - الملك : ١٦

(٥) - في الأصل (وهو الظاهر والباطن) ولم نعثر على هذا اللفظ ، و الذي في القرآن ﴿هو الأول والآخر والظاهر

والباطن﴾ الحديد : ٣

(٦) - الحديد : ٤

(٧) - ق : ١٦

(٨) - الواقعة : ٨٥

(٩) - المجادلة : ٧

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾^(١) وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢) فأَيُّ ذَلِكَ يا أُمير المؤمنين؟ وكيف لا أشك فيما تسمع!

فقال له علي رحمة الله عليه: >سبحوا قدوسا تبارك الله تعالى هات ويحك ما شككت فيه< .

قال: وأحد الله يقول: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَا صَفَا﴾^(٣) وقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٤) وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾^(٥) يقول مرة: ﴿جَاءَ رَبُّكَ﴾ ومرة يقول: ﴿جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ومرة ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ ومرة ﴿يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ فأَيُّ ذَلِكَ يا أُمير المؤمنين؟ وكيف لا أشك فيما تسمع!

فقال له علي عليه السلام: >سبحوا قدوسا ربنا تبارك وتعالى وتقدس هات ويحك ما شككت فيه< .

قال: وأحد الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾^(٦) وذكر أمر المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٧) ويقول: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٨) ويقول: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ الْعِلْمُ﴾^(٩) وقال في المنافقين: ﴿فَأَعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾^(١٠) وقال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ

(١) - الفجر :

(٢) - هود : ٥٦

(٣) - الفجر : ٢٢

(٤) - الأنعام : ٩٤

(٥) - الأنعام : ١٥٨

(٦) - السجدة : ١٠

(٧) - البقرة : ٤٦

(٨) - الأنعام : ١٠٣

(٩) - طه : ١١٠

(١٠) - التوبة : ٧٧

ربه فإن أجل الله لآت ﴿١﴾ فيقول مرة: ﴿يلقونه﴾ ومرة: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ ومرة: ﴿لا يحيطون به علما﴾ فأى ذلك يا أمير المؤمنين؟ وكيف لا أشك فيما تسمع!

فقال له علي عليه السلام: >سبحا قدوسا ربنا تبارك وتعالى وتقدس هات ويحك أيضا ما شككت فيه<.

قال: وأجد الله يقول: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾^(١) وقال: ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾^(٢) وقال: ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾^(٣) فمرة يظنون ومرة يعلمون ، والظن الشك ، فأى ذلك يا أمير المؤمنين وكيف لا أشك فيما تسمع؟.

فقال [له] ^(٤) علي رحمة الله عليه : >هات ويحك ما شككت فيه<.

قال: وأجد الله يقول: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾^(٥) ويقول: ﴿وأما من خفت موازينه﴾^(٦) وقال: ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾^(٧) وقال: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾^(٨) وقال: ﴿فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾^(٩) فمرة تقام الموازين ، ومرة لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا ، ومرة يحاسبون ، ومرة لا يحاسبون ، فأى ذلك يا أمير المؤمنين؟ وكيف لا أشك فيما تسمع؟.

فقال له علي رحمة الله عليه : >هات ويحك أيضا ما شككت فيه<.

(١) - العنكبوت : ٥

(٢) - الكهف : ٥٣

(٣) - النور : ٢٥

(٤) - الأحزاب : ١٠

(٥) - الزيادة من ب .

(٦) - الأنبياء : ٤٧

(٧) - القارة : ٧ في الأصل فأما من خفت موازينه ، والصحيح ما أثبتناه .

(٨) - القارة : ٥ ، في الأصل وأما من ثقلت موازينه . والصحيح ما أثبتناه .

(٩) - الكهف : ١٠٥

(١٠) - غافر : ٤٠

قال: وأجد الله يقول: ﴿قُلْ يَتُوفَاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾^(١) وقال: ﴿اللَّهُ يَتُوفَى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(٢) وقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(٣) وقال: ﴿تَوَفَّتْهُمُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾^(٤) وقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾^(٥) فمرة يقول: ﴿يَتُوفَاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾^(٦) ومرة يقول: ﴿اللَّهُ يَتُوفَى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ومرة يقول: ﴿تَوَفَّتْهُمُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ وقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فأَيُّ ذلك يا أمير المؤمنين؟ وكيف لا أشك فيما تسمع؟ فقد هلكت إن لم يرحمني ربي، ويشرح لي صدري بما عسى أن يجريه على يديك، فإن لم يكن ذلك وكان الرب حقا، [والكتاب]^(٧) والرسول حقا، لقد خبت وخسرت، وإن يكن الكتاب باطلاً والرسول باطلاً، وما وعدوا وأوعدوا فما علي من بأس فقد نجوت.

فقال علي رحمه الله عليه: >هات ويحك ما شككت فيه<.

قال: حسبي ما ذكرت لك فإن يكن عندك علم فهاته لعل الله يرزقني على يدك خيرا، وإن يكن سوى ذلك فما من رب ولا رسول ولا ثواب ولا عقاب.

فقال له علي عليه السلام: >سبوحا قدوسا ربنا تبارك وتقدس ونشهد أنه الحق الدائم الذي لا شريك له ولا شيء مثله، وأن الكتاب والرسول حق عليهم السلام والثواب والعقاب حق، ولكننا سنعلمك ما شككت فيه، ولا قوة إلا بالله وصلى الله على محمد وعلى النبيين وعليهم السلام ورحمة الله<.

(١) - السجدة : ١١

(٢) - الزمر : ٤٢

(٣) - النحل : ٢٨

(٤) - الأنعام : ٦١

(٥) - النحل : ٣٢

(٦) - في الأصل (يتوفاهم) وفي القرآن ﴿يتوفاكم﴾.

(٧) - الزيادة من ب.

أما قوله عز وجل: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(١) فإنما يعني بالنسيان أنهم نسوا الله في دار الدنيا ، فلم يعملوا له بالطاعة ولم يؤمنوا به وبرسوله فنسيهم في الآخرة فلم يجعل لهم في ثوابه نصيبا ، فصاروا منسيين من الخير ، فذلك تفسير قوله: ﴿اليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾^(٢) يعني لا يثيبهم كما يثيب أوليائه الذين كانوا في دار الدنيا ذاكرين ، حين آمنوا به وبرسوله وخافوه بالغيب ، وآثروه ورسوله .

وأما قوله تعالى: ﴿وما كان ربك نسيا﴾^(٣) فليس بالذي ينسى ، ولا يغفل تبارك وتعالى وتقدس ، وهو الحفيظ العليم ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾^(٤) وقد تقول العرب في بعض النسيان للملك والسيد : نسينا فلا تذكرنا ، يعنون أنه لا يأتيك منك خير ، أفهمت ما ذكرت لك ؟ قال : نعم فرجت عني غما وكشفت عني بعض ما بي وحللت عني عقدة فكشف الله همك وأعظم أجرك يا أمير المؤمنين .

قال : وأما قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾^(٥) وقوله حيث استنطقوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾^(٦) وقوله: ﴿ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا﴾^(٧) وقوله: ﴿إن ذلك لحق تحاصم أهل النار﴾^(٨) وقوله: ﴿لا تختصموا لدي﴾^(٩) وقوله: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾^(١٠) فإن ذلك ليس في موطن واحد بل في موطن في ذلك اليوم الذي كان مقداره خمسين ألف سنة

(١) - التوبة : ٦٧

(٢) - الأعراف : ٥١

(٣) - مريم : ٦٤

(٤) - الملك : ١٤

(٥) - النبأ : ٢٨

(٦) - الأنعام : ٢٣

(٧) - العنكبوت : ٢٥

(٨) - ص : ٦٤

(٩) - ق : ٢٨

(١٠) - يس : ٦٥

مما يعدون فيجمع الله الخلائق في ذلك اليوم في موطن فيتعارفون فيه ، ويكلم بعضهم بعضا ، ويستغفر بعضهم لبعض ، أولئك الذين بدت منهم الطاعة من الرسل والأتباع ، وتعاونوا على البر والتقوى في دار الدنيا ، ويلعن أهل المعاصي بعضهم بعضا الذين بدت منهم المعاصي وتعاونوا على الظلم والعدوان في دار الدنيا المستكبرين والمستضعفين يلعن بعضهم بعضا ، ويكفر بعضهم ببعض ، والكفر في هذه الآية براءة ، يقول تبرا بعضهم من بعض ، ونظيرها قول إبراهيم صلى الله عليه وعلى محمد وآله والمرسلين ، حيث قال لأبيه وقومه : ﴿كفرنا بكم﴾^(١) يقول: تبرأنا منكم ، ونظيرها قول الشيطان حين قال لما قضى الأمر : ﴿كفرت بما أشركتموني من قبل﴾^(٢) يقول: برئت مما أشركتموني من قبل، ثم يجمعون في موطن آخر يفر بعضهم من بعض ، فذلك قوله عز وجل : ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾^(٣) أن تعاونوا على الظلم والعدوان في دار الدنيا ﴿لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾^(٤) ثم يجمعون في موطن يكون فيه ، فلو أن تلك الأصوات بدت لأهل الدنيا لأذهلت جميع الخلق عن معاشهم ، ولتصدعت الجبال إلا ما شاء الله ، ولا يزالون كذلك حتى يكون الدم ثم يجمعون في موطن يستنطقون فيه فيقولون : ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾^(٥) ولا يقررون بما عملوا فيختم الله على أفواههم وتستنطق الأيدي والأرجل والجلود فتشهد بكل معصية بدت منهم ، ثم يرفع الخاتم عن ألسنتهم ، فينطقون فيقولون لجلودهم وأيديهم وأرجلهم لم شهدتم علينا؟ فتنطق فتقول : ﴿أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾^(٦) ثم يجمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلائق فلا يتكلم أحد ﴿إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾^(٧) فيقام الرسل صلوات الله عليهم فتسأل ، فذلك قوله لمحمد صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ﴿فكيف إذا جئنا من

(١) - الممتحنة : ٤

(٢) - إبراهيم : ٢٢

(٣) - عبس : ٣٤-٣٦

(٤) - الأنعام : ٢٣

(٥) - فصلت : ٢١

(٦) - النبأ : ٣٨

كل أمة بشهيد وجنتنا بك على هؤلاء شهداء^(١) والشهداء هم الرسل — على محمد وآله وعلى الرسل السلام — ثم يجمعون في موطن يكون فيه [مقام]^(٢) محمد الحمود على محمد وآله السلام ، فيقوم فيثني على ربه جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه وحسن بلاؤه ما لم يثن أحد قبله لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غير مرسل ولا يثني أحد مثله بعده بمثله ، ثم يثني على ملائكة الله عليهم السلام ، ولا يبقى ملك مقرب إلا أنثى عليه محمد ما لم يثن عليه أحد قبله ولا يثني عليه أحد بعده بمثله ، ثم يبدأ بالصديقين والشهداء ثم الصالحين ، فيحمده أهل السماء والأرض فذلك قوله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿عسى أن يعثك ربك مقاماً محموداً﴾^(٣) فطوبى لمن كان له في ذلك اليوم حظ ونصيب ، وويل لمن لم يكن له في ذلك اليوم حظ ولا نصيب .

ثم يجمعون في موطن يجمعون فيه ، ويدان لبعض الخلق من بعض وهو القصاص ، وذلك قبل الحساب ، فإذا أخذوا للحساب شغل كل بما لديه ، فنسأل الله بركة ذلك اليوم ، أفهمت ما ذكرت لك؟ قال: نعم فرجت عني غما فرج الله عنك كل هم وغم ، وحللت عني عقدة فعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين .

قال : وأما قوله : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾^(٤) وقوله : ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ وقوله : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾^(٥) وقوله : ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾^(٦) وقوله : ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾^(٧) .

(١) - النساء : ٤١

(٢) - الزيادة من ب .

(٣) - الإسراء : ٧٩

(٤) - القيامة : ٢٣

(٥) - النجم : ١٤

(٦) - طه : ١٠٩

(٧) - طه : ١١٠

أما قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ فإن ذلك في موطن ينتهي بأولياء الله إلى نهر يقال له الحيوان بعد ما يفرغ من الحساب فيغتسلون فيه ويشربون منه فتتنضر وجوههم وهو الإشراق ، ويذهب عنهم كل قذى فينظرون إلى ربهم متى يأذن لهم في دخول الجنة ، ومنه يدخلون الجنة ، وذلك قول الله حين أخبر عن تسليم الملائكة حيث يستقبلونهم في ذلك الموطن ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(١) حيث يذهب عنهم كل قذى ، وأيقنوا بالجنة ، ولا يعني بالنظر الرؤية لأن الأبصار لا تدركه وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، وذلك مدحة امتدح بها ربنا تبارك وتعالى وتقدس فأحق من لا تنقطع مدحته في الدنيا ولا في الآخرة الله رب العالمين .

وقد قال موسى نبي الله على محمد وعلى موسى السلام: ﴿رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾^(٢) فأبدى ربنا تبارك وتعالى وتقدس بعض آياته فتقطع الجبل وصار رميما ، وخر موسى صعقا ، يعني ميتا فتاب وأحياه الله ومنه: ﴿سبحانك إني تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾^(٣) بأنك لا تُرَى وإنما يعني [بقوله]^(٤) : ﴿أول المؤمنين﴾ من أمته ، وقد سأل قوم موسى فقالوا: ﴿أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة﴾^(٥) ومن سألوه أو ظنه ظنا فخرج من الدنيا على ذلك فقد برى من دين الله ، إن الله تبارك وتعالى وتقدس لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، ولا ينبغي أن تنقطع مدحته ، وكذلك لا تأخذه سنة ولا نوم ، وكذلك قال: ﴿يطعم ولا يطعم﴾^(٦) وكذلك قال: ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولدا﴾^(٧) وقال: ﴿قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له

(١) - الزمر : ٧٣

(٢) - الأعراف : ١٤٣

(٣) - الأنعام : ١٠٣

(٤) - الزيادة من ب .

(٥) - النساء : ١٥٣

(٦) - الأنعام : ١٤

(٧) - الجن : ٣

ولي من الدل) (١) مع ما ذكر من مدحته ولا يسع أحدا أن يشك في مدحته في الدنيا والآخرة .

وأما قوله : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ (٢) فإنما يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى التي لا يجاوزها خلق من خلق الله فرأى محمد صلى الله عليه وآله وسلم جبريل عليه السلام في صورته هذه المرة وقبلها مرة أخرى فذلك قوله سبحانه : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾ (٣) وقد أعلم في آخر الآية أنه رأى غير ربه حيث يقول : ﴿ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ (٤) وذلك أن خلق جبريل عليه السلام آية عظيمة هو من الروحانيين الذين لا يعلم خلقهم وصورهم إلا الله رب العالمين .

وذكر علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (رأيت جبريل في صورة له ستة أجنحة جناحان ارتداهما وجناحان تزين بهما وجناح خارج في المشرق في الهواء ، وجناح في المغرب في الهواء ، قد ملأ الآفاق كلها) سبحانه الله وتعالى وجل ثناؤه .

وأما قوله : ﴿لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا﴾ (٥) وقوله : ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما﴾ (٦) فأما ما بين أيديهم فأمر

(١) - الإسراء : ١١١

(٢) - النجم : ١٣

(٣) - النجم : ٢٣ - ٢٥ تخريج الحديث في تفسير ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ أخرجه ابن حبان في صحيحه ، انظر الإحسان : ٢٥٥ : رقم ٥٩ عن ابن مسعود في تفسير الآيات قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جبريل في جلة من ياقوت قد ملأ بين السماء والأرض) وأخرجه أحمد ١/٣٩٤ ، ٤١٨ ، والترمذي ٣٢٨٣ في تفسير سورة الجن ، وابن خزيمة في التوحيد ص ٢٠٤ والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٣٤ ، والحاكم ٤/٤٦٨ ، ٤٦٩ ، وصححه ، وأقره الذهبي والطيالسي ٣٢٣ والسيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٣ ، وأخرج مسلم عن ابن مسعود قال : رأى جبريل عليه السلام له ست (ستة) جناح وهكذا في البخاري في تفسير ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ رقم ٤٨٥٦ ، والترمذي ٣٢٧٧ ، وغيرهم وله شواهد كثيرة ، وفي مجمع البيان للطبرسي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى جبريل مرتين مرة في الأرض ، ومرة في السماء ، أما في الأرض ففي الأفق الأعلى .

(٤) - النجم : ١٧ - ١٨

(٥) - طه : ١٠٩

الآخرة ، وأما ما خلفهم فأمر الدنيا ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ﴾ فلا تحيط الخلائق بالله علما هيهات هيهات ، جعل على أبصار القلوب عن ذلك الغطاء فلا وهم يناله ، ولا قلب ينعته ولا يخطر على بال ، ولا يعرف إلا بالآيات والسلطان ، والقدرة والجلال والعظمة ، كما وصف نفسه في القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١) و﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(٢) ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾^(٣) ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ خلق الأشياء كلها فليس شيء من الأشياء إلا له تبارك وتعالى وتقدس ، أفهمت ما ذكرت لك ؟ قال : نعم ، فرجت عني فرج الله عنك كل غم وحللت عني عقدة فعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين .

قال : وأما قوله : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسُلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِلَاذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^(٤) وقوله : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٥) وقوله : ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾^(٦) وقوله : ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾^(٧) وقوله : ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٨) وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾^(٩) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾^(١٠) و﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾^(١١) .

أما قوله : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسُلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِلَاذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^(١٢) فهو كما قال الله ، وليس بكائن وراء حجاب ، وقد يرسل الرسول بوحى منه إلى رسل السماء ، فتبلغ رسل السماء رسل الأرض ، فيتفهمه رسل الأرض من دون مشافهة رسل السماء ، وقد يخلق الكلام بينه وبين

(٦) - طه : ١١٠

(١) - الشورى : ١١

(٢) - الشورى : ٥١

(٣) - النساء : ١٦٤

(٤) - الأعراف : ٢٢

(٥) - الشعراء : ١٠

(٦) - البقرة : ٣٥

(٧) - ص : ٧٥

(٨) - الشورى : ٥١

رسل السماء من غير مشافهة رسل السماء لأحد من خلقه ، وقد قال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل عليه السلام كيف تأخذ الوحي من رب العالمين ؟ قال : آخذه من اسرافيل ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من أين يأخذ اسرافيل ؟ قال : يأخذه من ملك فوقه من الروحانيين . فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من أين يأخذ ذلك الملك ؟ فقال : يقذف في قلبه قذفا ، فهو كلام الله^(١) فكيف ماوصفت لك من كلام الله [فإن كلام الله]^(٢) ليس بنحو واحد ، ولا يجري على نحو واحد منه ما يجيء في المنام ، وذلك قول إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾^(٣) ومنه ما قال الله تبارك وتعالى : ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤؤسكم ومقصرين لا تخافون﴾^(٤) ومنه ما قاله الله لمحمد أيضا : ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة﴾^(٥) ومنه ما يبلغ رسل السماء رسل الأرض ، ومنه ما يقذف في قلب الملك قذفا ، وذلك ما قال جبريل عليه السلام لنبي الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما قذف الله في قلب الملك الذي فوق اسرافيل ، أفهمت ما ذكرت لك ، قال : نعم فرجت عني غما فرج الله عنك كل غم يا أمير المؤمنين . وأما قوله : ﴿هل تعلم له سميا﴾^(٦) فلا سمي له يعني لا مثل له ، فأياك أن تقيس شيئا من كتاب الله برأيك حتى [تسأل عنه المحققين] من العلماء ، فإنه رب

(١) - الحديث أخرجه الإمام الهادي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كتاب مسائل الرازي مخطوط ، وعنه الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام في كتاب حقائق المعرفة (خ) ونص الحديث وقد سأله الرازي : كيف يأخذ جبريل الوحي من الله ؟ وكيف يعلمه ؟ وكيف السبيل فيه حتى يفهمه ؟ فقال عليه السلام : اعلم هداك الله أن القول فيه عندنا كما روي فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام عن ذلك فقال : آخذه من ملك فوقي ، ويأخذه الملك من ملك فوقه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : كيف يأخذه ذلك الملك ويعلمه ؟ فقال جبريل عليه السلام : يلقي في قلبه إلقاء ، ويلهمه إلهاما) انظر حقائق المعرفة

(٢) - الزيادة موجودة في أ ، وليست موجودة في ب .

(٣) - الصافات : ١٠٢

(٤) - الفتح : ٢٧

(٥) - الإسراء : ٦٠

(٦) - مريم : ٦٥

تنزيل يشبه كلام البشر وفعل البشر وتأويله لا يشبه كلام البشر ، ولا فعل البشر ، كما أنه ليس كمثله شيء من خلق كذلك لاشيء يشبهه من فعله ولا كلامه أفاعيل البشر ولا كلامهم أفهمت ما ذكرت ؟ قال : نعم .

وأما قوله : ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) وقوله لأهل النار : ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ فكذلك ، وكيف يعزب عن من خلق ... ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وهو الشاهد لكل شيء تبارك وتعالى وتقدس .

وأما قوله : ﴿لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ فإنما يعني بذلك لا يرحمهم ولا ينظر إليهم بخير ، تقول العرب للرجل البر أو الملك : والله ما ينظر إلينا ، يعنون إنك لا تصيبننا بخير فكذلك النظر من الله إلى خلقه في هاتين الآيتين ثواب أو عقاب ، أفهمت ما ذكرت لك ؟ قال : نعم .

وأما قوله : ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُوبُونَ﴾^(٢) فإنما يعني أنهم عن ثواب ربهم وكرامته محرومون .

وأما قوله : ﴿أَأَمْنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾^(٣) وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ وقوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وقوله : ﴿وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ﴾^(٤) وقوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٥) وقوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ وقوله : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٦) وقوله : ﴿وَلَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبَلٍ

(١) - سبأ : ٣ ، في الأصل (لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء) ولا توجد آية بهذا اللفظ ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) - الإسراء : ٦٠

(٣) - الملك : ١٦

(٤) - الحديد : ٤ ، في الأصل (وهو الظاهر والباطن) ولم نعر على آية بهذا اللفظ ، وإنما الآية ما أثبتناه .

(٥) - طه : ٥

(٦) - المجادلة : ٧

الوريد ﴿١﴾ وقوله: ﴿إِنْ رَبِّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ ﴿٢﴾ وقوله: ﴿إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٣﴾ فكذلك الله تبارك وتعالى وتقدس من غير أن يكون ما سمي من كينونيته في خلقه ومع خلقه وعلى خلقه وفوق خلقه يجري ذلك منه على نحو ما يجري من المخلوقين وهو اللطيف وأعظم وأجل وأكبر من أن ينزل به شيء ما ينزل بخلقته هو الشاهد لكل شيء والوكيل على كل شيء ، والمنشيء لكل شيء ، والمدبر للأشياء كلها بلا علاج ولا تفكر ، ولا حدث عليه ولا مؤنة تعينه سبحانه وبحمده تبارك وتعالى وتقدس ، فإذا جال شيء في صدرك من عظمة الله مما في القرآن من كينونته ﴿٤﴾ في الخلق ومع الخلق وفوق الخلق ، وعلى الخلق ، وتفكرت في ديمومة الله وعظمته ووسوست نفسك بشيء فقل : لا إله إلا الله فإن ذلك من وساوس الشيطان وتفكر في ديمومة الله قبل أن يخلق خلقا سماء ولا أرضا ، ولا عرشا ولا هواء ، ولا شيئا من السماء والأرض ، فتبصر أنه الدائم الذي لا إحصاء لديمومته وليس مع شيء ، وذلك أنه الأول ابتداء الأشياء لامن شيء فكذلك الله فعند ما خلق من الخلق كذا كان قبل أن يخلق الخلق ولم يتحول ، ولا يتحول ولا يأفل مع الآفلين فلا تجري عليه زيادة ولا نقصان ، ولا يدرك ولا يعرف إلا بالديمومة ، والآيات والسلطان والقدرة دائما سرمدا أبدا ، لا إحصاء لديمومته تبارك وتعالى وتقدس ولا يزال ﴿٥﴾ ، ابتداء خلقه على غير مثال ، وذلك أنه الأول فلا شيء معه ، وخلق الأشياء لامن شيء .

وأما قوله: ﴿إِنْ رَبِّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ فإنما يعني أن ربك قادر أن يجزي أهل المعاصي جزاءهم ، وهو فاعل ذلك ، وقد تقول العرب للعبد أولم يأمرؤنه فيستعصي : إنا لك بالمرصاد ، يعنون إنا قادرون على جزائك ، ونحن فاعلون ذلك

(١) - ق : ١٦

(٢) - الفجر : ١٧

(٣) - هود : ٥٦

(٤) - في ب (كينونيته) .

(٥) - في أ : ولا زوال .

وأما قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١) فإنما يعني أنه حق يجزي بالإحسان إحسانا وبالسوء سيئا ، ويغفر لمن يشاء سبحانه وتعالى وتقدس أفهمت ما ذكرت لك؟ قال : نعم .

وأما قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٢) وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾^(٣) وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾^(٤) فذلك حق كما قال الله سبحانه ، وليس جيئته كجيئة الخلق ، وقد أعلمتك أنه رُبَّ شيء من كتاب الله تأويله غير تنزيله ، ولا يشبه تأويله كلام البشر ، ولا فعل البشر ، وسأنبئك بطرف منه تكفي به إن شاء الله تعالى ، من قول إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهِدِينَ﴾^(٥) فذهابه إلى ربه توجهه وعبادته واجتهاده وقراره إلى ربه ، إلا أن تأويله غير تنزيله ، وقال: ﴿أَنْزِلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾^(٦) وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾^(٧) فسماه إنزالا ، وإنزاله الأنعام خلقه إياها ، ألا ترى أن تأويله غير تنزيله .

وقال موسى - على محمد وموسى السلام - حين سقى لابنتي شعيب عليه السلام قال الله: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(٨) لما رزقتني من خير فقير .

وأما قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾^(٩) فإنما يخبر محمدا صلى الله عليه وآله وسلم عن المنافقين والمشركين الذين لم يستجيبوا لله وللرسول ،

(١) - هود : ٥٦

(٢) - الأنعام : ٩٤

(٣) - البقرة : ٢١٠

(٤) - الأنعام : ١٥٨

(٥) - الصافات : ٩٩

(٦) - الأنعام : ١٤٣

(٧) - الحديد : ٢

(٨) - القصص : ٢٤

فقال: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ حين لم يستجيبوا لي ولرسولي ﴿أو يأتي ربك﴾ معنى إتيانه : العذاب في دار الدنيا كما عذب القرون الأولى فهذا خير يخبر نبيه عليه السلام ، ثم قال: ﴿أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾ أن تحيى هذه الآيات ، وذلك قبل طلوع الشمس من المغرب ، وإنما يكفي ذروا الأبواب والحجج ، أو أولوا النهي أن يعلموا من قول الله ﴿وجاء ربك﴾ ^(١) ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ ^(٢) أنه يكشف الغطاء ، فترى ما وعدوا وأوعدوا وقال في آية أخرى: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ ^(٣) يعني بذلك أنه أرسل عليهم عذابا فذلك إتيانه إيائهم ، وقال: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ ^(٤) فإتيانه البنيان من القواعد إرساله العذاب عليهم ، وقد قال فيما أنزل: ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ ^(٥) يعني بذلك ما يهلك من القرون ، وكذلك ما وصف من أمر الآخرة ، تبارك وتعالى وتقدس ، وتجري أموره في ذلك اليوم الذي كان مقداره خمسين ألف سنة ، كما تجري أموره في الدنيا ، لا يتعب ولا ينصب ولا يأفل مع الآفلين ، فاكف بما وصفت لك من ذلك مما تحيل في صدرك مما أنزل الله في كتابه وتسمى به من أفاعيله .

واعلم أن تأويل أفاعيله غير ما وجه لفعل البشر ، لأنه لا ينزل به ما ينزل بالبشر أفهمت جميع ما ذكرت لك من جميع ما في كتاب الله مما تنزله على نحو من كلام البشر هو أعظم وأجل ، وأعز وأكبر جل ثناؤه من أن يكون كذلك وتعالى وتقدس .

وقال: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ ^(٦) يقول : لعنهم الله فسمى اللعنة قتالا وقال: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ ^(٧) يقول: لعن الإنسان ما أقل شكره ، وقال لنبيه صلى

(٩) - الأنعام : ١٥٨

(١) - الفجر : ٢٢

(٢) - الأنعام : ٩٤

(٣) - الحشر : ٢

(٤) - النحل : ٢٦

(٥) - الرعد : ٤١

(٦) - التوبة : ١٣٠ - المنافقون : ١٤

الله عليه وآله وسلم : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(١) فسمى فعل النبي ، وفعل المؤمنين فعلا منه ألا ترى أن تأويله غير تنزيله .

وقال : ﴿بَلْ هُمْ بَلَقَاءُ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾^(٢) وذكر المؤمنين فقال : ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٣) وقال : ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وقال للمنافقين : ﴿فَأَعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾^(٤) وقال : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٥).

أما قوله : ﴿بَلْ هُمْ بَلَقَاءُ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾^(٦) يقول : هم بالبعث هم كافرون فسماه لقاء ، وكذلك ذكر المؤمنين فقال : ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ يقول : يوقنون أنهم مبعوثون ، والظن منهم يقين ، وكذلك ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يقول : من كان يوقن أنه مبعوث ومحاسب ومجزى فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ، وقال : ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٧) يقول : من كان يوقن أنه مبعوث وأما وَعِدَ وَأُوْعِدَ جاء عن الثواب والعقاب فسمى اللقاء أجلا ، ولو كان إلى ما ذهب وهمك من لقاء ربه فكان يكون من كان يرجو لقاء ربه ، والذين هم بلقاء ربهم كافرون بلفظ الرؤية ، وليس كذلك ، فاللقاء : الرؤية واللقاء : البعث ، ولا يعني به الرؤية لأن الأبصار لا تدركه ، وكذلك ﴿إِلَى يَوْمٍ

(٧) - عبس : ١٧

(١) - الأنفال : ١٧

(٢) - السجدة : ١٠

(٣) - البقرة : ٤٦

(٤) - التوبة : ٧٧

(٥) - الكهف : ١١٠

(٦) - في الأصل (والذين كفروا بلقاء ربهم) ولا توجد في القرآن آية بهذا اللفظ ، وكأنه أراد معنى قوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ بَلَقَاءُ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ وقد أثبتنا نص المصحف ، وهو المسؤول عنه .

(٧) - العنكبوت : ٥ ، كان في الأصل (من كان يرجو لقاء ربه) ولفظ الآية مع تمتها الموجودة هو ما أثبتناه ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ .

يلقونه﴾ يعني المنافقين ، يقول : لا يزال النفاق في قلوبهم إلى يوم يبعثون ، أفهمت ما ذكرت لك ؟ قال : نعم .

قال : وأما قوله : ﴿ورأى الجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ ^(١) وقوله عمن أوتي كتابه بيمينه : ﴿إني ظننت أني ملاق حساييه﴾ ^(٢) وقوله : ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ ^(٣) وقوله للمنافقين : ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ ^(٤) .

أما قوله : ﴿ورأى الجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ ^(٥) فإنما يعني بالظن اليقين يقول : إنهم أدخلوها .

وأما قوله عمن أوتي كتابه بيمينه : ﴿إني ظننت أني ملاق حساييه﴾ يقول : إني أيقنت .

وأما قوله : ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ فليس ذلك الظن باليقين ، ولكنه شك ، والظن ظنان : ظن يقين ، وظن شك ، فما كان في كتاب الله من ذكر الظن في أمر المعاد فهو يقين ، وما ذكر في أمر الدنيا فهو شك ، وذلك لو كان إلى ما ذهب إليه وهمك لا يكون مؤمنا ، وذلك لأن ما ذكر الله من الظن الذي سماه من المؤمنين في باب الآخرة لا يكون شكاً ، لأن من شك في شيء من الأشياء في كتاب الله المنزل كان مشركاً أفهمت ما ذكرت لك من أمر الظن في الدنيا والآخرة ؟ قال : نعم .

قال : وأما قوله : ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ ^(٦) فهو العدل تؤخذ به الخلائق ، ويدين الله الخلق بعضهم من بعض ، ويميزهم بأعمالهم ، والدين هاهنا قصاص .

(١) - الكهف : ٥٣

(٢) - الحاقة : ٢٠

(٣) - النور : ٢٥

(٤) - الأعراف : ١٠

(٥) - الكهف : ٥٣

(٦) - الأنبياء : ٤٧

وأما قوله لأهل الجنة ﴿فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾^(١) فإن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (حققت مودتي لمن تزاور في الله ، وتحاب في الله ، وتباذل في الله ، المتحابون في الله وجوههم من نور على مناير من نور عليهم ثياب من نور ، قيل: من هؤلاء ؟ قال: ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، ولكنهم قوم تحابوا بحلال الله في الله على طاعة الله في دار الدنيا إذا عصي الله في دار الدنيا لا يزالون جلوسا على تل حتى يفرغ من الحساب ، ويدخلون الجنة لا يحاسبون) .

قال : وأما قوله : ﴿من خفت موازينه﴾ و﴿ثقلت موازينه﴾^(٢) فإنما يعني بذلك قلة الحساب في الموازين ، وكثرتها أفهمت ما ذكرت لك ؟ قال: نعم .

قال: وقوله : ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾^(٣) وقوله : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾^(٤) وقوله : ﴿توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾^(٥) وقوله : ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾^(٦) وقوله : ﴿تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾^(٧) فإن الله تبارك وتعالى وتقدس يدبر الأمور كيف يشاء ، ويوكل من خلقه ما يشاء بمن يشاء .

وأما قوله : ﴿يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ فإن الله وكله بخاصة من خلقه وملائكة معه . وأما قوله : ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾^(٨) فإنما يعني به أنهم ينشرون من بعد الموت فسمى النشور رجعة ، وكذلك قال: ﴿إلى ربهم يحشرون﴾^(٩) يقول: ينشرون من بعد الموت فسمى النشور رجعة .

(١) - غافر : ٤٠

(٢) - القارعة : ٧ - ٨

(٣) - السجدة : ١١

(٤) - الزمر : ٤٢

(٥) - الأنعام : ٦١

(٦) - النحل : ٢٨

(٧) - النساء : ٩٧

(٨) - في الأصل (ثم إلى ربهم يرجعون) والذي تقدم السؤال عنه هو قوله تعالى : (ثم إلى ربكم ترجعون) .

(٩) - الأنعام : ٣٨

وأما قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فكذلك الله يتوفى الأنفس كيف يشاء على يدي من يشاء من خلقه .

وأما قوله: ﴿تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ فإن الله وكلهم بخاصة من خلقه، والملائكة الذين ذكر الله: تتوفاهم طيبين، والملائكة الذين ذكرهم الله تتوفاهم ظالمين أنفسهم وكلهم بخاصة من خلقه تبارك وتعالى وتقدس، وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفشيه إلى كل الناس، منه ما يطاق حمله، ومنه ما لا يطاق حمله إلا من رزقه الله تعالى أطاقته من خاصة أوليائه، وإنما يكفيك وجميع المؤمنين أن يعلموا أن الله تبارك وتعالى وتقدس المميت المحيي، فإنه يتوفى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه وملائكته أو غيرهم، بغير علاج منه تبارك وتعالى وتقدس أفهمت ما ذكرت لك؟ قال: نعم فرجت عني كل غم، فرج الله عنك كل غم وكشف عنك كل هم، كما كشفت عني ما كان بي من الغم، وذلك من الله وحده لا شريك له له الحمد والمن والكرياء، والطول لا اله إلا هو، وأشهد أنه الحق الدائم الذي ليس كمثله شيء، ولا ينزل به ما ينزل بخلقته وأنه خالق الأشياء كلها والقادر على الأشياء لا مقدور عليه ولا رب غيره، ولا راد لحكمه وهو سريع الحساب، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، وأقر بما جاء به من عند الله، وأن الكتاب حق يصدق بعضه بعضا، نسأل الله ألا يزيغ قلوبنا بعد أن هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة ورضوانا إنه الوهاب، عظم الله أجرك يا أمير المؤمنين، وأمتع بك عامة المسلمين).

المجمل والمفسر

وأما المجمل والمفسر فقال الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام في الحقائق : إن من المجمل سورة الحمد وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(١) في هذه السورة أكثر المعاني المفسرة في سائر القرآن ، وهو مجمل في هذه السورة .

قلت : قال في النجم الزاهر في تفسير الباهر ما لفظه : "وأما فضل التفسير فروينا عن الحسن^(٢) قال : (أنزل الله مائة وأربعة كتب من السماء أودع علومها منها أربعة التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، ثم أودع علوم هذه الأربعة الفرقان ، ثم أودع علوم الفرقان المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب فمن علم تفسيرها علم تفسير جميع كتب الله تعالى المنزلة ، ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان) وهذا الحديث وإن كان موقوفاً على الحسن ، لا بد أن يكون مسنداً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم متى ثبت كونه عن الحسن ، وهو من أخبار الأحاد التي يجوز قبولها ، ولكنه منطوق على أشياء ليست من مسائل الاجتهاد ، فلا يكون قولاً له ، ولا يصح أن يكون إلا بوحى الله تعالى ، فكان قويا من هذه الجهة جدا .

ثم قال عليه السلام : (من ذلك ذكر أسماء الله الحسنى ، وذكر الحمد والشكر والثناء ، وذكر جميع ما خلق الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة في ذكر العالمين وأن الله تعالى مالك الدنيا والدين ، وفيه ذكر العبادة والاستعانة ، وهما يشتملان على جميع العبادات ، وفيه ذكر الصراط المستقيم ، والإشارة إلى غير المستقيم ، وفيه ذكر المهتدين والذين أنعم عليهم رب العالمين ، وفيه ذكر المغضوب عليهم ، وذكر الضالين والمغضوب عليهم الذين يتعمدون المعاصي ، ويعلمون أنهم عاصون ، والضالون : فهم الذين يحسبون أنهم ناجون وهم عند الله هالكون) .

(١) - الحجر : ٨٧

(٢) - المراد به الحسن البصري

قلت: وقوله تعالى: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ يقول: طريق الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وقوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ قيل: هم العصاة الذين أراد الله الانتقام منهم وقوله: ﴿ولا الضالين﴾ عام لكل من ضل عن الدين ، وسيأتي الآن بيان ذلك في تفسير هذه السورة المباركة إن شاء الله ، قال الإمام عليه السلام : (ففي هذه السورة جميع معاني القرآن) .

ومن الجمل في الكتاب ما يكون تفسيره من القرآن ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾^(١) فهذه الآية مجملة وتفسيرها في مَنْ توضع فيهم الصدقة وهو قوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾^(٢) .

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾^(٣) فهذا مجمل ظاهره يوجب أن ذبيحة الناسي التسمية ، والصبي الذي لم يبلغ لالتحوز ، ثم فسره بقوله: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب﴾^(٤) فبين أن المراد بالآية الأولى أن النهي بما ورد عن أكل ما أهل به لغير الله .

ومن الجمل أيضا قوله: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾^(٥) ثم فسر الله

(١) - التوبة : ١٠٣

(٢) - التوبة : ٦

(٣) - الأنعام : ١٢١

(٤) - المائدة : ٣

(٥) - المائدة : ٥

هذا ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَ﴾^(١) وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾^(٢)
وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ
وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾^(٣) فبين أن المراد بالآية الأولى من آمن من أهل
الكتاب .

ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٤) .

ومن الجمل في الكتاب ما يكون تفسيره في السنة على لسان النبي صلى الله عليه وآله
وآله وسلم وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٥) ومثل
قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٦) فكان تفسير الصلاة
وشروطها ، وحدودها ، وواجبها ، ونوافلها في الشرع ، على لسان النبي صلى الله عليه وآله
عليه وآله وسلم ، وكذلك الزكاة فيم تؤخذ ؟ ومتى تؤخذ ؟ وكذلك الحج وأوقات
الصلاة فقد ورد في ذلك القرآن مفسرا ، وماورد في الشرع فهو تأكيد له ، فهذا
وأمثاله من الجمل والمفسر ، وإن كانت هذه الثمانية الأصناف تحتاج إلى تفسير .

قال عليه السلام : (ومن غامض كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا
تَخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٧) وقد استدلت الباطنية - لعنهم الله تعالى - بهذه
الآية على إبطال الأعمال وإظهار عيبه ، وقالوا: هو ينقض بعضه بعضا ، وإذا كان
يتناقض كان باطلا ، قالوا : قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُ بِهَا﴾ يوجب ترك

(١) - البقرة : ٢٢١

(٢) - التوبة : ٢٨

(٣) - الممتحنة : ١

(٤) - آل عمران : ١٩٩

(٥) - البقرة : ٨٣

(٦) - آل عمران : ٩٧

(٧) - الإسراء : ١١٠

الصلاة ؛ لأنه يزعمهم لا يمكنه أن يصلي بغير جهر ، ولا مخافتة .

فنقول : ليس الأمر يتناقض ، وإنما أمره أن لا يجهر بكل الصلاة ، ولا يخافت بكلها وأمره أن يتغني بين ذلك سبيلا ، وقد ابتغى صلى الله عليه وآله وسلم سبيلا ، وهو أنه جهر بالقراءة في الليل وصلاة الفجر ، وخافت بها في صلاة الظهر والعصر ويجهر بالأذان والإقامة والتكبير وقوله : سمع الله لمن حمده ، والتسليم في جميع الصلوات وذلك مروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الأخبار المتظاهرة ، وهو إجماع الأمة وقد أمرنا الله باتباعه فقال : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾^(١) فيبطل قول الباطنية .

[الناسخ والمنسوخ]

وأما الناسخ والمنسوخ فقال عليه السلام : (اعلم أن في الكتاب ناسخا ومنسوخا فمن المنسوخ ما نسخ حكمه ، ولم ينسخ حفظه وكتابته وتلاوته ، والأمة مجمعة على ذلك إلا فرقة ممن لا يعمل على قوله .

ومن المنسوخ ما نسخ وجوبه وحرم فعله كالتوجه بالصلاة إلى بيت المقدس .

ومن المنسوخ ما نسخ وجوبه ، وبقي جوازه ، كصوم عاشوراء .

ومن الدليل على أن في الكتاب ناسخا ومنسوخا - قوله الله تعالى : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾^(٢) وفي هذا تقديم وتأخير ، أراد ما ننسخ من آية أو ننسها ، فلا ننسخها ونقرها على حالها ، قال الله تعالى : ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾^(٣) هي أصله والحكم .

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سمع رجلا يعظ الناس ، ويقص عليهم

(١) - الحشر : ٧

(٢) - البقرة : ١٠٦

(٣) - الرعد : ٣٩

فقال: هل علمت ناسخ القرآن ومنسوخه ؟ قال: لا . قال له عليه السلام : هلكت وأهلكت).

وسبب الناسخ والمنسوخ ضعف الإسلام في مبتدئه ، وقوته في منتهاه ، وتخفيف من الله للمؤمنين ، فأول ما نسخ القبلة ، وذلك أن الكعبة كانت قبله النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وكان أهلها لا يعرفون قبلة إلا بيت المقدس ، وكان الإسلام عربيا ^(١) فأنزل الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَنُحْمَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ^(٢) فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت المقدس على ما روي ستة عشر شهرا ، وقيل : سبعة عشر شهرا ، فلما تقوى الإسلام توقع صلى الله عليه وآله وسلم الوحي من ربه ، وانتظر جبريل عليه السلام ينزل به ، فأنزل الله تعالى : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّينَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ^(٣) أي نحوه .

ومما نسخ قول الله تعالى : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهَا﴾ ^(٤) نسخها آية الموارث .

ومما نسخ قول الله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ ^(٥) يريد الزائد على كفايتهم نسختها آية الزكاة .

ومما نسخ : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ^(٦) فكانوا لا

(١) - في ب : وكان الإسلام غريبا .

(٢) - البقرة : ١١٥ . حديث (صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا) أخرجه ابن حبان في صحيحه الإحسان ٦١٧/٤ رقم ١٧١٦ ، والبخاري ٤٤٩٢ ، ٧٢٥٢ ، والترمذي ٣٤٠ ، ورقم ٢٩٦٢ ، وعنه البغوي في شرح السنة ٤٤٤ وأخرجه البيهقي ٢/٥ ، وابن أبي شيبة ٣٣٤/١ ، وعنه مسلم ٥٢٥ ، وأخرجه الطيالسي ٧١٩ ، والطبري ١٣٣/٣ ، ١٣٤ ، وأبو عوانة ٣٩٣/١ ، وابن سعد ٢٤٢/١ ، ٢٤٣ ، وابن ماجه رقم ١٠١٠ ، والدارقطني ٢٧٣/١ والنسائي ٦٠/٢ من طرق عن البراء بن عازب .

(٣) - البقرة : ١٤٤

(٤) - النساء : ٨

(٥) - البقرة : ٢١٩

(٦) - البقرة : ١٨٣

يأكلون بعد الرقاد بالليل ، ولا يشربون ولا يجامعون ، فنسخ ذلك قول الله تعالى : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾^(١) معنى قوله : ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ يريد الولد .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه سئل عن تفسير الخيط الأبيض من الخيط الأسود ؟ فقال : (هو الليل والنهار)^(٢).

ثم قال الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام أيضا : (ومما نسخ نكاح المتعة ، وهو قوله تعالى : ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن﴾)^(٣) نسخها قول الله تعالى : ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة﴾^(٤).

قال عبد الله بن الحسين عليه السلام في كتاب الناسخ والمنسوخ ، بعد أن ذكر خلاف العامة في ذلك : والقول عندنا إنها منسوخة ، نسخها الكتاب والسنة ، ثم شرح ذلك فيه وبينه أحسن بيان ، وإن الإستماع الذي ذكره الله تعالى إنما هو تزويج إلا أنه كان فيه شروط .. إلي قوله : وقد فسرت ذلك في آخر الباب .

وأما الكتاب فنسخها بقوله سبحانه : ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾^(٥) فنسخها تعالى ما أوجب من

(١) - البقرة : ١٨٧

(٢) - في الإحسان في شرح صحيح ابن حبان عن عدي بن حاتم قال : لما نزلت : ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ قال النبي : (إنما ذلك يياض النهار وسواد الليل ، وهو في صحيح ابن خزيمة ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، وأخرجه الزمذي رقم ٢٩٧٠ ، وأحمد ٣٧٧/٤ ، والبخاري رقم ١٩١٦ - ٤٥٠٩ ، ٤٥١٠ ، والطحاوي ٥٣/٢ ، والبيهقي ٢١٥/٤ ، والبيهقي في تفسيره ١٥٨/١ ، والدارمي ٦٠٥/٢ ، ومسلم برقم ١٠٩٠ ، والطبري في جامع البيان ٢٩٨٩ ، ٢٩٨٦ ، ٢٩٨٧ ، ٢٩٨٨ ، والطبراني في الكبير ١٧ رقم ١٧٨ ، ١٧٩ كلهم من طرق عن عدي بن حاتم ، وللحديث شواهد كثيرة .

(٣) - النساء : ٢٤

(٤) - الطلاق : ١

(٥) - المؤمنون : ٥ - ٦

العدة للزوجة ، والميراث والصداق والطلاق ، وقوله للأولياء : انكحوا - ولا تنكحوا
وأما السنة: فنهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كل شرط في النكاح ،
وقد بلغني من غير جهة : أن المتعة إنما كانت ثلاثة أيام ، وإنما كانت تزويجا إلا أنه
كان فيها شروط ، فنسخ الله تلك الشروط، ثم بين لنا الناسخ من الكتاب والسنة ..
إلى قوله : وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه اعتمر فشكا الناس إليه
الغربة فقال: (استمتعوا من هذه النساء ، واجعلوا الأجل بينكم وبينهم ثلاثة أيام فلما
كان اليوم الثالث أو الرابع من قوله - خرج صلى الله عليه وآله وسلم حتى وقف بين
الركن والمقام ، وأسند ظهره إلى الكعبة فقال: (أيها الناس إني كنت أمرتكم
بالإستمتاع إلا وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده شيء منهم

فليخل سبيلها ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) ^(١).

وروي أنه قال في آخر كلامه : (متعة النساء حرام) قال ذلك ثلاث مرات .

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه مر بعبد الله بن عباس وهو يفتي بنكاح
المتعة فقال أمير المؤمنين عليه السلام: (نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها
وعن لحوم الحمر الأهلية) ^(٢) والأمة مجمعة على تحريم المتعة إلا الإمامية فإنهم يرونها .

ومما نسخ قول الله تعالى : ﴿ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا﴾ وهذا في المختلعة
وقوله : ﴿وقد آتيتم أحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا﴾ أتأخذونه بهتاناً وإنما

(١) - في تحريم المتعة أحاديث كثيرة منها حديث مقارب لما في المتن أخرجه ابن حبان انظر الإحسان في تقريب
صحيح ابن حبان ٤٥٤/٩ رقم ٤١٤٧، وأحمد ٤٠٤/٣، ٤٠٥، وابن أبي شيبة ٢٩٢/٤، وعبد الرزاق ١٤٠٤١
والحميدي رقم ٨٤٧، والدارمي ١٤٠/٢، ومسلم ١٤٠٦، وابن ماجه ١٩٦٢، وأبو يعلى ٩٣٩ والطحاوي
٢٥/٣، والطبراني بأرقام والبيهقي ٢٠٣/٧ وكلهم من طرق عن الربيع بن سيرة الجهني عن أبيه ، وله شواهد كثيرة
وروايات من طرق أخر عن عدة من الصحابة .

(٢) - قول أمير المؤمنين في النهي عن المتعة والحمر أخرجه ابن حبان انظر الإحسان ٤٤٨/٩، رقم ٤١٤٠، ٤١٤٥
٤١٤٣، من طريقين عن أمير المؤمنين ، وأخرجه سعيد بن منصور ٨٤٩، ومن طبقة الطحاوي ٢٥/٣، بلفظ المتن
كما أخرجه البخاري بأرقام ٤٢٠٦، ٥٥٢٣، ٥١١٥٠، ومسلم ١٤٠٧، والنسائي ١٢٦/٦، ٢٣/٧، والترمذي
١٧٩٤، وابن ماجه ١٩٦١، والبيهقي ٢٠١/٧، وسعيد بن منصور ٨٤٨، والحميدي ٣٧، والدارمي ١٤٠/٢
وأبو يعلى ٥٧٦، وابن أبي شيبة ٢٩٢/٤، وغيرهم بالفاظ متقاربة .

بيناً^(١) نسخه قول الله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ إَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾^(٢).

وروي أن أول مختلة في الإسلام حبيبة بنت سهل^(٣) كانت عند ثابت بن قيس بن شماس^(٤) فأنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله لا أنا ولا ثابت، فقال: أفتردين عليه ما أخذت منه؟ قالت: نعم وكان ثابت تزوجها على حديقة من نخل، فقال ثابت: هو يطيب لي يا رسول الله؟ قال: نعم، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطلاقها^(٥).

ومما نسخ قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذِرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْخَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٦) فكان عدة آل متوفى عنها زوجها سنة وكانت لها الوصية، ولم يكن لها ميراث، فنسخت بالعدة بقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذِرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٧) وسبب العدة إظهار الحزن على صاحبها، وتوقع الولد منه، وفي هذه المدة يتبين الحمل إن كان.

(١) - النساء: ٢٠

(٢) - البقرة: ٢٢٩

(٣) - حبيبة بنت سهل الأنصارية: أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتزوجها، ثم تركها، فتزوجها ثابت بن قيس، روت عنها عمرة، وهي التي اختلعت من زوجها (أخرجه الثلاثة) وقد قيل: إن المختلة جميلة بنت أبي بن سلول قال أبو عمرو: جائز أن يكون حبيبة وجميلة اختلعتا من ثابت. (أسد الغابة ٥/٤٢٣)

(٤) - ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شهد أحداً وبعدة الرضوان، وكان جهير الصوت خطيباً بليغاً، استشهد يوم اليمامة.

(٥) - أخرجه ابن حبان أنظر الإحسان ١٠/١١٠ رقم ٤٢٨٠، ومالك في الموطأ ٢/٥٦٤، والشافعي ٢/٥٠ - ٥١ وأحمد ٦/٤٣٣، وأبو داود ٢٢٢٧، ٢٢٢٨، والنسائي ٦/١٦٩، والبيهقي ٧/٣١٢، ٣١٣ من طرق عن عمرة بنت عبد الرحمن عن حبيبة بنت سهل

(٦) - البقرة: ٢٤٠

(٧) - البقرة: ٢٣٤

وقيل: إنه يكون في أربعين يوما نطفة ، وفي أربعين يوما علقة ، وفي أربعين يوما مضغة ، فإذا بلغ أربعة أشهر صار عظاما ، ولم يخف كونه ، ولا يغيب وجوده .

ونسخت الوصية لمن بآية المواريث وهي قوله تعالى : ﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن﴾^(١) .

ومما نسخ قول الله تعالى : ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا﴾^(٢) نسخه قول الله تعالى : ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾^(٣) .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (حدوهن واقتلوهن قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة ونفي عام والثيب بالثيب الرجم)^(٤) .

ومما نسخ قول الله في أهل الذمة : ﴿فإن جاؤك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم﴾^(٥) نسخها قول الله تعالى : ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾^(٦) .

ومما نسخ قول الله تعالى : ﴿وأشهدوا إذا تباعتم﴾^(٧) نسخ بقوله تعالى : ﴿فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته﴾^(٨) ذكر هذا كله الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام في الحقائق .

(١) - النساء : ١٢

(٢) - النساء : ١٦

(٣) - النور : ٢

(٤) - لم أجده بهذا اللفظ والمشهور (حدوا عني قد جعل الله لهن سبيلا الثيب بالثيب والبكر بالبكر ، الثيب بالثيب جلد مائة ثم رجم بالحجارة ، والبكر بالبكر جلد مائة ثم نفي سنة) عن عبادة بن الصامت .

(٥) - المائدة : ٤٢

(٦) - المائدة : ٤٩

(٧) - البقرة : ٢٨٢

(٨) - البقرة : ٢٨٣

قال الإمام عبد الله بن الحسين عليه السلام في كتابه الناسخ والمنسوخ :
والشهادات فقد اختلف فيها ، وفيما جاء في ناسخها ومنسوخها ، وهو الشهادة على
البيع ، قال عز وجل : ﴿ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ فزعم قوم : أنها بحكمة ، وأن
الإشهاد لازم على مادي وجل ، مما يتبايعه الناس بينهم ، وقال آخرون : إنها منسوخة
نسخها قول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ .

قال عبد الله بن الحسين عليه السلام : والقول عندنا إنها منسوخة ، وإن المتبايعين
بالخيار بالإشهاد ، إن أحبا أشهدا ، وإن تركا فلا حرج .

قال الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام : ومما نسخ حج المشركين ، وفي ذلك
ما يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا
الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ﴾^(١) نسخه الله بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾^(٢) ومما نسخ قول الله تعالى : ﴿ لَا
إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾^(٣) وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾^(٤) وقوله تعالى : ﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ
بِمُصِيطِرٍ ﴾^(٥) وقوله تعالى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾^(٦) فكانت هذه الآيات وما شاكلها نزلت
على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الهجرة ، فلما هاجر أمره الله بالجهاد ، ونسخ
الآيات هذه بقوله : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ
الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغِيرَ حَقِّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ
بَعْضُهُمْ بَعْضٌ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبُيُوعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا
وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾^(٧) ويقول تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا

(١) - المائدة : ٢

(٢) - التوبة : ٢٨

(٣) - البقرة : ٢٥٦

(٤) - ق : ٤٥

(٥) - الغاشية : ٢٢

(٦) - المائدة : ١٣

(٧) - الحج : ٤٠

يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر^(١) وقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾^(٢)

قلت: وقال غيره إن هذا منسوخ لأن العفو والصفح ونحوهما لا ينافي القتال وهو الأقرب والله أعلم .

قال الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام: ومما نسخ قول الله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾^(٣) نسخها قول الله تعالى: ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾^(٤) .

واعلم أن سورة براءة نسخت كل آية عقد بين المؤمنين والمحاربين ، وذمة وصلاح وشرط ، ونسخت الصلح الذي كان في الأشهر الحرم ، وفي مكة لقوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾^(٥) إلا ما استثنى الله فيها من قوله: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾^(٦) فتحريم القتال في الحرم منسوخ بآية السيف ، وعلى ذلك إجماع أهل البيت عليهم السلام .

ومما نسخ قول الله تعالى: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾^(٧) نسخها الله تعالى بقوله: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾^(٨) .

قال عبد الله بن الحسين عليه السلام : وأما ناسخ المواريث ومنسوخها فلا أعلم اختلافا في قول الله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم

(١) - التوبة : ٢٩

(٢) - التوبة : ٧٣

(٣) - التوبة : ١٢٢

(٤) - التوبة : ٤١

(٥) - التوبة : ٥

(٦) - التوبة : ٤

(٧) - الأنفال : ٧٢

(٨) - الأنفال : ٧٥

وأنفسهم في سبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا^(١) فأجمع الناس على أنه إذا كان الأخوان أحدهما مؤمنا أعرابيا ، والآخر مؤمنا مهاجرا لا يتوارثان لهذه الآية ، حتى أباح الله ذلك ونسخ الآية بقوله : ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾^(٢) .

ومما نسخ فرض الوصية للوالدين والأقربين ، وذلك قول الله تعالى : ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين﴾^(٣) نسخه الله بآية الموارث .

وعلى هذا يحمل قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع : (ألا لا وصية لوارث) وقد نسخ ذلك بآية الموارث ، وهذا مما نسخ وجوبه ، وبقي جوازه ، ويؤيده قول الله تعالى : ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا﴾^(٤) .

ومما نسخ التغليظ في النهي عن مخالطة اليتامى في النفقة والأكل معهم ، وذلك قول الله تعالى : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾^(٥) .

وروي أنه لما نزلت هذه الآية امتنع المسلمون من قبول الوصايا في اليتامى أن يكفلوهم ، وتخرجوا من مخالطتهم فنسخ الله ذلك التغليظ بقوله تعالى : ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وأن تخالطوهم فيأخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾^(٦) يقول : لو شاء لضيق عليكم ،

(١) - الأنفال : ٧٢ ، في الأصل : (والذين هاجروا وجاهدوا) والصواب ما أئبته .

(٢) - الأنفال : ٧٥

(٣) - البقرة : ١٨٠

(٤) - الأحزاب : ٦

(٥) - النساء : ١٠

(٦) - البقرة : ٢٢٠

وقال: ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾^(١) المراد - والله أعلم - : أنه من كان غنيا عن المخالطة فليستعفف عن المخالطة لهم ، و الأكل معهم ومن كان فقيرا إلى ذلك فليخالطهم وليأكل معهم ، ولا يتعمد الظلم لهم ، والنقص لهم في ما لهم ، وقد اختلف في هذه الآية ، فمن الناس من حملها على ظاهرها ، وأجاز للوصي الأكل من مال اليتيم إذا كان الوصي فقيرا ، وأن ينفق منه على نفسه ومن يلزمه نفقته ، ومن الناس من قال : يتناول منه ما يتناول المضارب من مال المضاربة على سبيل الأجرة .

قال عليه السلام : وعندنا أن ذلك لا يجوز لقول الله تعالى : ﴿فليأكل بالمعروف﴾ ومن المعروف أن يخرج الوصي لليتيم من ماله مثل ما يخرج لمثله من أولاده ، ثم يخلطه في نفقته أولاده ، ويواسيه بأولاده ، ولا ينقصه في ماله ، ولا في نفقته ، فهذا هو المعروف .

ويؤيد ذلك قول الله تعالى : ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾^(٢).

ومما نسخ قول الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلكم خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾^(٣) وسبب نزول هذه الآية أن المسلمين أكثروا النجوى ، حتى أضر ذلك برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأراد الله أن يخفف عنه فأنزل الله هذه الآية ، فامتنع كثير من الناس من المناجاة .

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (إن في كتاب الله لآية وفرضا ما عمل بهما غيري ولا يعمل بهما أحد بعدي لما أنزل الله : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلكم خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾ كان معي دينار فصرفته ، وكنت إذا أردت أن أناجي رسول الله

(١) - النساء : ٦

(٢) - البقرة : ٢٢

(٣) - المجادلة : ١٢

صلى الله عليه وآله وسلم تصدقت بدرهم ، فلم يفرغ الدينار حتى نسخت الآية) فنسخها الله بقوله : ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةً وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١) .

قيل: ومما نسخ قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ .

وقال عبد الله بن الحسين عليه السلام في كتابه الناسخ والمنسوخ مالفظه : (فزعم أهل هذا القول أن هذا في صلاة الليل ، وأنه جاء بعد الأمر بها الترخص في تركها بالنسخ ، وقال آخرون : إن السورة كلها محكمة ، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ وإنما أراد الله الأمر بالصلاة والقيام والترتيل له إنما ذلك كله في صلاة العتمة المفروضة وإنما جاء في آخر السورة من التوسعة في الأوقات رحمة من الله للعباد ، ولما ذكر الله من علمه بهم وأن منهم مريض ومسافر ومجاهد ، وهذا الآخر قولنا ، وبه نأخذ .

ومن الدليل على ما قلنا به أن الصلاة التي في هذه السورة هي العتمة المفروضة جمع الله بها في آخر الكلام الزكاة ، قال الله سبحانه : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾^(٢) .

(١) - المجادلة : ١٣ ، آية النجوى : رواه في ينابيع المودة ٩٩/١ عن الجمع بين الصحاح الستة للعبدي ، و تاريخ البخاري ، و ابن المغازلي والتعليق والحموي وأبي نعيم ، وابن المغازلي ، وأخرجه فرائد الكوفي في تفسيره ص ٤٦٩ إلى ص ٤٧١ بالفاظ وطرق متعددة ، كما أخرجه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل من طرق عدة والحافظ محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين رقم ١٠٢ - ١٠٦ وابن المغازلي في المناقب رقم ٣٧٣ والحموي في فرائد السمطين ، و ابن أبي شيبة في المصنف رقم ١٢١١٤ ، ١٢١٧٥ والطبري في تفسيره ٢٠/٥٨٠ بلفظه عن أمير المؤمنين ، وهو بلفظ مقارب عنه ، قال محقق تفسير فرائد الكوفي : وأخرجه الحسكاني بأسانيد عن سالم بن أبي الجعد عن علي بن علقمة وابن أبي شيبة في المصنف والمتقي في الكنز ، والسيوطي في الدر المنثور عن أبي شيبة ، وعنه ابن حميد وابن جرير وأبي يعلى وابن المنذر ، والدورقي وابن حبان وابن مردويه والزمذني وحسنه ... وأخرجه ابن المغازلي وأبو نعيم والسيوطي أيضا مع اختلاف في اللفظ عن عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وسعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة والحاكم ، وصححه وأخرجه أبو جعفر الكوفي المناقب وابن طاروس ، وانظر ترجمة أمير المؤمنين من تاريخ ابن عساكر .

قلت : وسيأتي إن شاء الله تعالى للهادي عليه السلام [في سورة المزمل ما يدل على انه لانسوخ فيها ولا منسوخ ، وقد صرح بذلك أيضا أخوه الإمام عبد الله بن الحسين عليه السلام في كتابه الناسخ والمنسوخ والله أعلم^(١) .

ومما نسخ قول الله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٢) نسخ هذه الآية بقوله : ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ يَازْنَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣) .
فهذا ما جاء في الناسخ والمنسوخ .

[العام والخاص]

ومن القرآن ما هو في مخرجه عام وفي معناه خاص ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤) فمخرج الآية يدل على أن الله اصطفى آل إبراهيم وآل عمران على العموم والكمال ، والمعنى : أنه خص بالإصطفاء من آل إبراهيم وآل عمران من يستحق الإصطفاء لقوله تعالى : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٥) .
ومن الكتاب العام لجميع العباد مثل قوله تعالى : ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾^(٦) .
ومنه العام لجميع المتعبدين مثل قوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٧) .

(١) - ما بين قوسي الزيادة من ب .

(٢) - الأنفال : ٦٥

(٣) - الأنفال : ٦٦

(٤) - آل عمران : ٣٣ - ٣٤

(٥) - البقرة : ١٢٤

(٦) - الزمر : ١٦

(٧) - البقرة : ٢١

ومنه العام للمؤمنين مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١) وهذا ذكر عام للمؤمنين دون الكافرين ، وذلك لاستماع المؤمنين للأمر ، وبعد الكافرين عن استماع الأمر والطاعة .

ومنه الخاص لبعض المؤمنين ، وهو مثل قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٢) فهذه الآية خاصة لعلي أمير المؤمنين عليه السلام [إذ لا يكون الولي إلا غير المولى عليه]^(٣).

قلت : ومثل ما روي علامة الشيعة عبد الله بن زيد العنسي^(٤) رحمه الله في رسالته البديعة عن ابن عباس قال: أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيدي ويد علي وخلا بنا على ثبير ، ثم صلى ركعات ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إن موسى بن عمران سألك ، وأنا محمد نبيك أسألك أن تشرح لي صدري ، وتيسر لي أمري ، وتحلل عقدة من لساني ، ليفقه به قلبي ، واجعل لي وزيراً من أهلي علي بن أبي طالب أخي ، اشدد به أزري ، وأشركه في أمري) قال ابن عباس : قسمعت منادياً يا أحمد ، قد أوتيت ما سألت ، فرفع علي يده إلى السماء وهو يقول: اللهم اجعل لي عندك عهداً ، واجعل لي عندك وداً ، فأنزل الله على نبيه: ﴿إِنَّ الدِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِداً﴾^(٥) فتلاها النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) - الجمعة : ٩

(٢) - المائدة : ٥٥ . وممن بين في سبب نزول هذه الآية ، وفسرها وهي آية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ وأنها خاصة في أمير المؤمنين الحافظ محمد بن سليمان الكوفي المناقب بأرقام ٨٥ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، وأخرجه الحسين بن الحكم الحيري في تفسيره رقم ١٣ ، وعنه الحاكم الحسكاني في تفسير الآية من شواهد التنزيل ١٨٤/١ رقم ٢٤٠ ، وتحت أرقام أخرى من عدة طرق عن أمير المؤمنين وعمار وأبي ذر وجابر والمقداد وعبد الله بن عباس وأنس وأخرجه من طرق أبو نعيم في كتاب ما نزل من القرآن في علي كما في خصائص الوحي المبين ، ص ١٧ ط ١ ، والنور المشتعل ص ٥٦ ط ١ ، ومجاهد . وطرقه وأسانيده قد ألفت فيها كتب .

(٣) - ما بين القوسين موجود في ب .

(٤) - عبد الله بن زيد بن أبي الخير العنسي المتوفى سنة ٦٦٧ غالم كبير من أعيان اناصر الإمام احمد بن الحسين له مقالات ومقامات عظيمة ومن مؤلفاته الرسالة البديعة المعلقة بفضائل الشيعة خ انظر عنه وعن مؤلفاته أعلام المؤلفين الزيدية وله كتاب الإرشاد المعروف بإرشاد العنسي .

(٥) - مريم : ٩٦ حديث ابن عباس : أخرجه بلفظه فترات الكوفي في تفسيره رقم ٦٣٦ وابن المغازلي في المناقب

وسلم على أصحابه - فعجبوا من ذلك تعجبا شديدا ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (منها تعجبون القرآن أربعة أرباع فربع فينا أهل البيت خاصة ، وربع في أعدائنا ، وربع حلال وحرام ، وربع فرائض وأحكام، وإن الله أنزل في علي كرائم القرآن) .

وعن علي عليه السلام : (نزل القرآن أرباعا ربع فينا ، وربع في عدونا، وربع سنن وأمثال ، وربع فرائض وأحكام ، فلنا كرائم القرآن) ^(١) .

[مخدوف الجواب]

ومنه مخدوف الجواب مما يوجب العلم مثل قوله تعالى : ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى﴾ ^(٢) الآية المراد بها لكان هذا القرآن فحذف الجواب لعلم السامع . ومثل قوله تعالى : ﴿أهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون﴾ إلى قوله : ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم﴾ أراد تعلمون علم اليقين لما أهاكم التكاثر ، فحذف الجواب لعلم السامع

ومثل قوله تعالى : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ ^(٣) المراد به أمرنا مترفيها بالطاعة ، ففسقوا فيها ، ولا يغرنك ما ذكره صاحب الكشف هاهنا

حديث ٣٧٥ في المناقب ، والحافظ أبو نعيم فيما نزل كما في البحار ٣٥٩/٣٥ ، وأورده المجلسي في البحار عن فرات والروضة ٣٥٦/٣٥ ، كما أورده الحسكاني في شواهد التنزيل عن فرات أيضا حديث ٥٧ وللحديث شواهد كثيرة ، أما ذيله وهو قوله : (القرآن أربعة أرباع) فله شواهد حجة من طرق متعددة عن الباقر والصادق وأمير المؤمنين عليهم السلام وغيرهم .

(١) - وفي ينابيع المودة ١٢٦/١ قال وفي المناقب عن الأصمغ بن نباته عن علي عليه السلام قال: نزل القرآن علي أربعة أرباع ربع فينا وربع في عدونا وربع سنن وأمثال ، وربع فرائض وأحكام ، ولنا كرائم القرآن) أيضا عن أبي الجارود وأبي بصير وحيثمة وهم جميعا عن الباقر عليه السلام قال هذا الحديث بلفظه . قلت : وأخرجه فرات الكوفي في تفسيره من عدة طرق ص ٤٦-٤٨ قال محققه : وروى العياشي بسنده حلة ، والحسكاني ، وأخرجه الحسين بن الحكم الحيري في تفسيره ، وعنه الحسكاني في الشواهد ، وهو في الشواهد من طرق عديدة .

(٢) - الرعد : ٣١

(٣) - الإسراء : ١٦

من أن المحذوف هو الفسق المأمور به على المجاز ، فإنه خلاف ما أجمع عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد أمرنا بإتباعهم ، ونهينا عن مخالفتهم ، ألا تسمع كيف يقول فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ولا تخالفوهم ففضلوا) الخير ، كما مر الإشارة إلى ذلك ، من وجوب إتباعهم ، مع أنه تفسير الكل من أهل التحقيق من غيرهم ، خلا ما أصر عليه صاحب الكشف ، كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالى في موضعه من سورة السجدة .

ومثل قوله تعالى : ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامِ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾^(١) المراد من قبل أن يتماسا ، كسبيله في العتق والصيام ، والمعنى واحد ، ومثل هذا موجود في كلام العرب ، قال الشاعر :

عفا الله عنك كل شاة برجلها على نفسه يخطي الفتى ويصيب
أراد كل شاة معلقة .

ومن محذوف الجواب قوله : ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾^(٢) الآية ، فالمحذوف هنا جواب وإن خفتم فالمعنى : وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فلا تتولوهم ، وقوله : ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ مستأنف مبتدأ .

قلت : وقال الهادي عليه السلام في هذه الآية : إن هذا من التقديم والتأخير ، ثم فسر ذلك وبينه في كلام له بسيط ، رواه عنه ولده المرتضى عليه السلام في الإيضاح .

[أنواع الكلم في كتاب الله]

قال صنوه الإمام الناصر أحمد بن يحيى عليهم السلام ما لفظه : (وفي القرآن أكرمك الله الإستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والإضمار والحذف

(١) - المجادلة : ٤

(٢) - النساء : ٣

والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية ، والإيضاح ومخاطبة الواحد بمخاطبة الجميع ، والجميع بخطاب الواحد ، والجميع بخطاب الإثنين ، وعجائب القرآن لا تحصى ، ولا تنزف بحارها ، ولا يدرك قرارها لذا جعله عز وجل حجته البالغة على خلقه ، ونوره الزاهر في بريته ، وحقه الدامغ لجميع من خالفه والحمد لله رب العالمين .

[مفهوم الخطاب]

ومنه مفهوم الخطاب ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْلُ هُمَا أَف﴾^(١) ففهم من هذا الخطاب أنه لا يجوز للولد أن يفعل بالوالدين ما كان فوق قوله : أف كالضرب والشم والغضب ، وأمثال ذلك ؛ لأنه لم ينه عن العليل إلا وقد نهى عن الكثير .

[المجاز]

ومنه مجاز مثل قوله تعالى : ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾^(٢) ومثل قوله تعالى : ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلَّةِ﴾^(٣) فسمى ابن السبيل على المجاز ، وكذلك جناح الذل وليس ثم جناح على الحقيقة وإنما هو على المجاز .

[الغامض]

وأما الغامض فهو الذي لا يعلمه إلا الله ، والراسخون في العلم ، كما قال عز من قائل : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٤) فأولئك العلماء الصالحون من ورثة الكتاب ومن تبعهم من ذوي الألباب .

(١) - الإسراء : ٢٣

(٢) - التوبة : ٦٠

(٣) - الإسراء : ٢٤

(٤) - آل عمران : ٧

[القصص والعبر والأمثال]

[والوجه في تجزئة بعض الأخبار وتكرار بعض]

وأما القصص والعبر والأمثال والمواعظ والأخبار ، وأمثال ذلك فظاهر .

قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام وقد سئل عن الوجه في كون بعض القصة في موضع من القرآن وتماها في موضع آخر : إن ذلك جاء كذلك لمصالح يعلمها الله تعالى لتعلق بعض المعاني ببعض القصة في موضع من القرآن ، وبعضها ببعض الآخر أو اقتضت الحكمة أن يكون كل شيء من ذلك في موضعه ، وكذلك تكرار القصص لولا أن تفصيل ذلك يستغرق زمانا وكُتِبَ ؛ لبيِّنَّا لك من بديع الكلام ، ومعاني القرآن ما تعلم به وجه الحكمة .

وقد أشار بعضهم إلى شيء من ذلك حيث قال: (ومن الكتاب العزيز آيات مكررة قصصه ، وأحكامه ، ووعدته ، ووعيده ، وذلك لاتساع الكلام ، والإبلاغ والبيان فكرر ماكرر من ذلك ؛ لفوائد يعرفها اليقضان ، منها: التأكيد ، والرسوخ في النفوس لأنها أنفر شيء عن الوعظ والنصح .

ومنها : تثبيت النبي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، عند عظيم ما يرد عليه من ذوي الطغيان ، فإن لطراوة التنزيل موقعا ، ليس لما أنزل منه منذ أزمان .

ومنها: أنه يرد المعنى الواحد بعبارات مختلفة ، كلها فصيحة الألفاظ صحيحة المعاني ، يدل على تناهيه في الفصاحة ، واقتدار قائله على التوسع في البلاغة والإفتان ثم ما كرر من ذلك خفيف على الأذان ، وما ذلك إلا أنه كلام المالك الديان ، فحمدا له على ما خصنا به ، وعلى ما أظهر لنا من فضله وأبان ، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله الذي نسخ بدينه جميع الأديان .

وبعد هذا فلنشرع فيما وعدنا بذكره وتقديمه من تفسير أئمتنا عليهم السلام فنقول وبالله نستعين :

[تفسير الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام]

[مقدمة في مدح القرآن]

قال الإمام الأعظم نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم الغمر طباطبا ، ابن إسماعيل الديباج الأكبر ، ابن إبراهيم الغمر - أيضا - الشبه ، ابن الحسن الرضا المثنى ، ابن الحسن السبط ، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، صلوات الله عليهم وسلامه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الهدى فيما نزل من كتابه مكملًا .

قال الإمام الناصر أحمد بن يحيى عليهما السلام : (قال الحكماء وأهل العلم والمعرفة بمقدار جوامع الكلم : إن هذه الكلمة وحدها تقوم وتغني عن مائة كتاب ؛ لصدقها في معناها ، وكمال ما افترض الله من فرائضه على خلقه ، في كتابه الكافي عما سواه . فله الحمد والمنة على كل حال).

ونزل برحمته للعباد منه تبياناً كريماً مفصلاً ، فيه لمن استغنى به أغنى الغنى ، ولمن اجتنب ثمرات هداة أكرم مجتنب ، لا يحتوي على جناة أبداً محتوي ، ولا يدوي على شفاة أبداً مدو ، نور أعين القلوب المبصرة ، وحياة الباب النفوس المطهرة ، إلف كل حكيم ، وسكن نفس كل كريم ، وقصص الأنبياء الصادقة ، ونبأ الأمثال المحققة ويقين شكوك حيرة الإرتياب ، وخير ما صحب من الأصحاب ، سر أسرار الحكمة ومفتاح كل نجاة ورحمة ، قول أرحم الراحمين ، وتنزيل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، فأب منزل سبحانه ونازل وتنزيل ، لقد جل سبحانه وتنزله عن كل تمثيل ، وطهر وتقدس إذ وليه بنفسه ونزل به روح قدسه عن قذف الشياطين وأكاذيبها ، وافتراء مردة الآدميين وألأعيبها ، فأحكم عن خطل الوهن والتداحض وأكرم عن زلل الاختلاف والتناقض ، فجعل بآياته مترافداً ، وبضياء بيناته مشاهداً غير

متكاذب الأخبار ، ولا متضائق الأنوار ، بل ضحيان النور فتحان الأمور متيحان
الأنهار بالحياة المنجية ، واسع الأعطان والأفنية ، ساطع النور والبرهان ، جامع الفضل
والبيان ، فأنواره بضياته زاهرة ، وأسراره لأوليائه ظاهرة ، فما أن يوارى عن أهله
الذين استودعوا علمه من سرائره سريرة ، ولا يدع ما وضع من نوره من مشكله
حيرة ، بعزائم حكوماته المنزلة ، ودلائل آياته المفصلة ، فسبحان من جاد به طولاً
وجعل سببه موصولاً ، لقد أجل سبحانه المنة به على العباد ، ودلهم به تبارك وتعالى
على كل رشاد ، فجاد لهم منه بما لا تجود به نفس وإن عظم جودها ، لقد جاد لهم
منه بكنوز لا تبلى ، وأعطاهم به عطية لا يجد لها واجد وإن جهد مثلاً ، فبذل لهم منه
كنز الكنوز ، ودلهم به على نجاتهم وفوز ، فتح لهم أبواب الجنان وهداهم به سبيل
الرضوان ، ونبأهم فيه عن نبأ السموات العلى ، وما مهد تحتهم من الأرضين السفلى
، وما فتق من الأجواء بين الأرض والسماء ، وعن خلق الملائكة والجن والأنس فقد
نبأهم ، وعن كل علم كريم فبد به آثارهم ، فقص به عليهم أخبار القرون الماضية
وخبرهم فيه بمن أهلك بذنبه من الأمم العاتية ، فكل عجيب من الأشياء ، أو قصة
كريمة من قصص الأنبياء فقد أوصل فيه علمها إليكم ، وأورد عجيب بيانها به عليكم
، فعلى كتاب ربكم هداكم الله فاقصروا ، وبه فهو ذو العبر فاعتبروا ، ففيه نوافع
العلم وجوامع الكلم التي يستدل بقليلها عن كثير من تلبس قال وقيل ، ويستشفى من
علمها بتفسير أدنى ما فيها من دليل ، فسبيل قصده فاسلكوا ، وبه ما بقيتم
فتمسكوا ، فهو ذروة الذرى وبصر ما لا يرى ، وعروة الله الوثقى ، وروح من أرواح
الهدى ، سماوي أحله الله أرضه ، وأحكم به في العباد فرضه فلا يوصل إلى الخيرات
أبداً إلا به ، ولا تكشف الظلمات إلا بثواب شهبه ، من صحبه صحب سماوياً لا
يمهل ، وهادياً إلى كل خير لا يضل ، ومؤنساً لقرنائه لا يمل ، وسليماً لمن صحبه لا
يغل ، ونصيحة لمن ناصحه لا يغش ، وأنساً لمن وأنسه لا يوحش ، وحبباً لمن حابه لا
يبغض ، ومقبلاً على من أقبل عليه لا يعرض ، يأمر بالبر والتقوى ، وينهى عن المنكر
والأسواء ، لا يكذب أبداً حديثاً ، ولا يخذل من أوليائه مستغيثاً ، إن وعد وعدا أنجزه
أو تعزز به أحد أعزه ، لا تهون لأوليائه معه حجة ، ولا تبلى له مآقي أبداً بهجة ، لا

يُخلقه كر ولا تردد ، ولا يلم به وهن ولا فساد ، ولا يعيا به وإن لكن إنسان ، ولا يشبه فرقانه فرقان ، ومن قبل ما صاحب الروح الأمين والملائكة المقربين فكان لهم هاديا ومبيناً ، وازدادوا من الله يقيناً ، فاتخذوه هاديا ودليلاً ، واجعلوا سبيله لكم إليه سبيلاً حافظوا عليه ولا ترفضوه ، واتخذوه حبيباً ولا تبغضوه ، فإنه لا يجب أبداً لهم مبغضاً ، ولا يُقبلُ على من كان عنه معرضاً ، ولا يهدي إليه من عاداه ، ومن تعامى عنه أعماه ، لا يصبر ضيائه إلا من تأمله ، ولا يعطي هدايه إلا أهله ، من ضل عنه أضله ، يقلد جهله من جهله ، إن أدبر عنه أدبر ، أو أقبل عليه بصّر ، جعله الله يَتَلَوُّ في ذلك بألوان ، ويتفنن فيه على أفنان ، فهو الهادي المضل ، وهو المدبر المقبل ، وهو المسمع المبصر المُصَيِّم ، وهو المهين المكرم ، وهو المعطي المانع ، وهو القريب الشاسع وهو السر المكتوم ، وهو العلانية المعلوم ، فمرة يهدي إليه من اصطفاه ، ومرة يضل من أبى قبول هدايه ، ومرة يُقبلُ على من أقبل عليه ، ومرة يدبر عن من التوى في الهدى عليه ، ومرة يسمع من استمع منه ، ومرة يصم من أعرض عنه ، ومرة يهين الأعداء ، ومرة يكرم الأولياء ، يعطي من قبل عطاءه ، ويمنع من أبى قبول هدايه يَقْرُبُ لمن ارتضاه ، وَيَشْسَعُ عن من سخط قضاءه ، يعلن لأوليائه ويظهر ، ويحكم عن أعدائه ويستتر ، نور هدى على نور ، وفرقان بين البر والفجور ، أرشد زاجر وأمر ، وأعدل مقسط ومقدر ، يوقظ بزجره النومي ، ويعظ بأمره الحكماء ، ويحيي بروحه الموتى ولا يزيد من مات عنه إلا موتاً ، يعدل أبداً ولا يجور ، وكل أمر فَقْدَرُ مقدور ، ظاهره ضياءً وبهجة ، وبطنه غور ولُحَّةٌ ، لا يملك حُسْنُ أنواره ولا تدرك باطنُ أغواره فمن ظهر لظاهر مناظره رأى عجائبه في موارده ومصادره ، ومن بطن المستنبطة ، رأى مكنون محاسنه ، من غرائب علمه ، وأطائب حكمه ، لُبَابُ كُلِّ لُبَابٍ ، وفَصْلُ كُلِّ خِطَابٍ ، وحكمه من حكم رب الأرباب ، اكتفى به منه في هدى ملأ أوليائه واصطفى به من خصه الله سبحانه باصطفائه ، فمصاييح الهدى به تزهو واهجة وسبل التقوى به إلى الله تلوح باهجة ، يُحْتَاجُ إليه ولا يَحْتَاجُ ، سراجُه أبداً بنوره وهاج يُعَلِّمُ ولا يُعَلِّمُ وَيُقَوِّمُ ولا يُقَوِّمُ ، فهو المهيمن الأمين ، والفاصل المبين ، والكتاب الكريم ، والذكر الحكيم ، والرضاء المقنع ، والمنادي المستمع ، والضياء الأضوى

والجبل الأقوى ، والطود الأعلى ، الذي يعلو فلا يعلو ، لا يؤتى لسورة من سورِهِ بِمِثْلٍ ولا نظير ، ولا يوجد فيه اختلاف في خير ولا حكم ولا تقدير ، فصل كل خطاب ، وأصل كل صواب ، فجعلنا الله وإياكم من أهله وعصمنا وإياكم بحبله والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً .

[مقدمة لتفسير الإمام القاسم عليه السلام]

وبعد فإننا لما رأينا ما فيه جوامع الهدى واليقين ، وكان الهدى واليقين به مقدمة معتصم كل دين ، علمنا متيقنين ، وأيقنا مستبينين ، أن لن نصيب رشدًا ولن ننال مطلوب هدى إلا به ، وعن تفسيره ، وبما نور الله به القلوب من تنويره ، فنظرنا عند ذلك فيه ، واستعنا به عليه فوجدناه بمن الله لكل علم من الهدى ينبوعاً ، ورأينا به كل خير في الهدى مجموعاً ، فلا خير في الحياة كخيره ، ولا يهتدى لأحكام الله بغيره من طلب الهدى في غيره لم يجده أبداً ، ومن طلبه به وجد فيه أفضل الهدى ، فقصدنا قصده ، والتمسنا رشده ، فأبى رشد فيه وجدنا ! وإلى أي قصد منه قصدنا ^(١) ! تا الله ما غابت عنه من الهدى غائبة ، ولا خابت لطالب فيه خائبة ، لقد كشف ستور الأغطية ، وأظهر مكنون سر الأخفية ، فأوجد مطلوب ملتبسها ، وأبان ملتبس مقتبسها على ما يلي به قديماً من تلييس ملوك الجبارة وأتباعها ، من علوم العوام المحيرة في توجهها له على أهوائها وتصريفه ، وتأويلها له بخطابها على تحريفه ، حتى عطل فيهم قضاؤه ، وبدلت لديهم أسماؤه ، فسمت الإساءة إحساناً ، والكفر بالله إيماناً ، والهدى فيه عندهم ضلالاً ، وعلماء أهله جهالاً ، ونور حكيمه ظلماً ، ونور ضيائه عمى ، حتى كادت أن تجعل فاؤه ألفاً ، وألفه للجهل با الله فاء ، تلييساً على الطالب المرتاد ، وضلالة من العامة عن الرشاد ، فنعوذ بالله من عمية العمين ، والحمد لله رب العالمين ، فلولا ما أيد الله في كتابه وحججه ، وأذكى سبحانه من تنوير سرجه ، لأباد حججه بتظاهرهم المبطلون ، ولأطفأ سرجه الظلمة الذين لا يعقلون

(١) - في ب : فأبى رشد فيه وجدناه ، وإلى أي قصد منه قصدناه .

ولكن الله سبحانه أبى له أن يُطْفَأَ ، وجعله سراجاً لأوليائه لا يخفى ، وفي ذلك ما يقول سبحانه : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١) ولعلنا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وبالله نستعين على ما هممنا به لكتابه من التفسير أن نضع مما علمنا الله فيه طرفاً ، وأن نصف فيه من وجوه الحق وصفاً ، نبين عنه بما يحضرنا الله فيه من التبيين ، ونعتمد فيه على ما نزل الله به من هذا اللسان العربي العزيز المبين ، فإن الله جعله مفتاح علمه ، ودليل من التمسسه على حكمه فلا يفتح أبداً إلا بمفاتيحه ، ولا يكشف ظلمه إن عرضت في فهمه إلا بمصاييحه ، فعنه فاستمعوا ، وبه وفيه انتفعوا .

واعلموا : أنا لن نضع من ذلك إلا قليلاً وإن أكثرنا ، وإننا وإن بلغنا من تفسيره كل مبلغ فلن نمسك عنه إلا وقد قصرنا ، وأن لكل تفسير منه تفسيراً ، وإن في قليله تفسيره كثيراً ، ولكل باب منه أبواب ، وكل سبب فقد تصله الأسباب ، إلا أنا سنقول في ذلك بما يحضرنا الله فهمه ، وما نسأل الله أن يهينا في كتابه علمه .

ونبدأ من تفسير كتاب الله بما نرجو أن يكون الله بدأ من تفسير السورة التي أمر نبيه أن يسأله فيها الهدى ، وسماها عوام هذه الأمة فاتحة الكتاب والفرقان ، وقال بعضهم : اسمها أم القرآن ، وذلك مما يدل على من يستدل على أنها أول ما نزل لا كما يقول بعض الجهلة العوام بغير ما دليل ولا برهان : وإن أول ما نزل من القرآن : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾^(٢) ألا ترى كيف يقول : اقرأ ما نقرئك باسم ربك الذي نزل عليك ، فأخبر جل ثناؤه أن قد نزل عليه قبلها الإسم الذي أمر بقراءته فيها ولها ، وأن يقدمه في القراءة عليها ثم يصير بعد القراءة به إليها ألا ترى أنه لو كان ما قد قرأ هو ما أمر عليه السلام أن يقرأ لكان إنما أمر بفعل تام مفعول ، وقول قد تقدم مفعول ، وإنما اسم ربه الذي أمر أن يقرأ به **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** الذي قدم له في صدر كل سورة عند أول كل تعليم .
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليمًا .

(١) - التوبة : ٣٢

(٢) - العلق : ١ - ٢

تفسير سورة (الحمد لله رب العالمين)

قال [الإمام] القاسم بن إبراهيم عليه السلام :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الحمد لله﴾ تأويل ﴿الحمد لله﴾ فهو الشكر لله على نعمه وإحسانه ، والتحميد لله والثناء عليه ، ومن الحمد قيل : محمود وحميد ، كما يقال من الجود : جواد ومجيد . والله لا شريك له : فهو الذي تأله إليه القلوب ، ويستغيث به في كل كرباته المكروب ، واليه يجأر الخلق كلهم جميعاً ويأطون ، وإياه سبحانه يعبد البررة الأذكىاء ويتأطون ، دون كل إله ورب ومعبود ، وإياه يحمدون في كل نعمة قبل كل محمود . وتأويل ﴿رب العالمين﴾ فهو : السيد الملئك الذي ليس معه فيما ملك مالك ، ولا شريك .

وتأويل قوله سبحانه : ﴿العالمين﴾ فيراد : الخلق أجمعون ، الباقيون منهم والفسانون ، والأولون منهم والآخرون .

وتأويل ﴿الرحمن﴾ فهو : ذو الغفران والمن والإحسان .

وتأويل ﴿الرحيم﴾ فهو : العفو عن الذنب العظيم ، والناهي عن الظلم والفساد لما في ذلك من رحمته للعباد ، ضعيفهم وقويهم [وفاجرهم وبرهم] .

وتأويل ﴿ملك يوم الدين﴾ فهو : مالك أمر يوم الدين ، الذي لا ينفذ أمر في ذلك اليوم غير أمره ، ولا يمضي فيه حكم غير حكمه ، والمَلِكُ : من المُلْكِ ، والمالك : من المُلْكِ ، وهما يقرآن جميعاً ، وكلاهما [معاً] ^(١) فله ، فهو يوم الجزاء والثواب والعقاب ، وإنما سمي الدين لما يدان أي يجازى [قال : معنى يوم الدين فهو يوم يدان] ^(٢) العاملون أعمالهم ، ويجزون يومئذ بهداهم وضلالهم .

(١) - ما بين القوسين زيادة من المجموع المخطوط .

(٢) - ما بين القوسين زيادة من المجموع المخطوط .

﴿إياك نعبد﴾ فهو : نوحّد ونفرد > أنت يا معبودنا لا غيرك .

﴿وإياك نستعين﴾ نسأل العون على أمرنا وتوفيقنا لما يرضيك عنا .

﴿اهدنا﴾ وفقنا وأرشدنا .

﴿الصراط المستقيم﴾ والصراط : هو السبيل الذي ليس فيه زيغ ولا ميل قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

و﴿المستقيم﴾ فهو الطريق الواضح الذي افترضه الله إلى الطاعة ، المعتدل الذي ليس فيه عوج ولا ميل ، فهو لا يجرور بأهله عن قصده ، ومنه قوله تعالى : ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾^(١) .

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ يقول : طريق الذين أنعمت عليهم من عبادك الصالحين ، الذين هديتهم ووفقتهم لرشدتهم .

﴿غير المغضوب عليهم﴾ تأويل ذلك غير المغضوب عليهم منك .

﴿ولا الضالين﴾ يقول : ولا صراط الضالين بالهوى والعمى عنك ، لأنه قد ينعم جل ثناؤه في هذه الدنيا على من يضل عنه ومن لا يقبل ما جاء من الهدى والأمر والنهي ، ولمن يغضب جل ثناؤه عليه من الكافرين ، يقول : اهدنا صراطا غير صراط الذين غضبت عليهم ، والمغضوب عليهم في هذا الموضع : فهم اليهود ﴿ولا الضالين﴾ يقول : ولا صراط الضالين ، والضالون : فهم في هذا الموضع النصارى . اهـ

وروى المرتضى^(٢) لدين الله عن أبيه الهادي إلى الحق عليهما السلام في تفسيره هذه

(١) - الأعراف : ٨٦

(٢) - نقله بنصه من كتاب الستمائة آية للإمام المرتضى محمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، ويعرف بمسائل عبد الله بن الحسن خ (هو مجموع تفسير الأئمة ص ٦٨٢) ما نصه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم وسألت أرشد الله أمرك ، ووفق لقصد الحق طريقك عن تفسير سورة الحمد ، وقد كنت سألت عنها أبي الهادي إلى الحق صلوات الله عليه ، وسأله بعض أصحابكم أيضا فقال : (معنى قوله : ﴿بسم الله﴾ فهو بسم الله نبدا كل شيء ﴿الرحمن﴾ فهو ذو الرحمة والإحسان ﴿الرحيم﴾ فهو ذو التعطف بالرحمة والامتنان ﴿الحمد لله﴾ فهو الشكر لله على نعمه وإحسانه ، والتمجيد لله والثناء عليه ﴿رب العالمين﴾ معنى رب فهو سيد العالمين ، والعالمون : فهم الخلق أجمعون من انسي وجني ﴿الرحمن الرحيم﴾ فقد تقدم تفسيرهما ﴿ملك يوم الدين﴾ معنى ملك فهو مالك أمر يوم الدين لا يتفد أمر في ذلك اليوم غير أمره ، ولا يمضي فيه حكم غير حكمه (يوم الدين) فهو يوم الجزاء والثواب والعقاب ، وإنما سمي الدين لما يدان العالمون فيه ، ومعنى يدان : فهو يجازى ﴿إياك نعبد﴾ معناها : أنت معبودنا لا غيرك ،

السورة المباركة مثل هذا بعينه سواء سواء^(١).

ومعنى نعيد : فهو نطعم ونتعبد (ويياك نستعين) معناها: إياك نسأل العون على أمرنا والتوفيق لما يرضيك عنا ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ معنى اهدنا: فهو وفقنا وأرشدنا الصراط المستقيم ، والصراط المستقيم : فهو الطريق إلى الطاعة . المستقيم : فهو الحق الذي افترضه ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ يقول: طريق من أنعمت عليه من عبادك الصالحين الذين وفقتهم وهديتهم لرشدهم ﴿غير المغضوب عليهم﴾ ويقول: اهدنا صراطا غير صراط الذين غضبت عليهم ، والمغضوب عليهم في هذا الموضع فهم اليهود ﴿ولا الضالين﴾ ويقول: ولا صراط الضالين أي اهدنا صراطا غير صراط الضالين ، والضالون في هذا الموضع النصارى.

(١) - في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام ما لفظه: (حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا علي بن أحمد قال : حدثنا عطاء بن السائب قال: حدثنا أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي عن زيد بن علي عليهما السلام أنه سئل عن فاتحة الكتاب فقال:

﴿بسم الله﴾ هو تعظيم لله ﴿الرحمن﴾ بما خلق من الأرض في الأرض والسماء في السماء ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فقال: الجن عالم والإنس عالم وسوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض في كل زاوية منها أربعة آلاف وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته تبارك وتعالى ، وقوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ يوم الحساب والجزاء ، وقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فالهداية التثبيت ، والهداية البيان وهو قوله عز وجل: ﴿وأما نوح فهديناهم﴾ فصلت: ٦ والصراط : الطريق ، والمستقيم : الواضح البين ، وقوله تعالى: ﴿المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ هم اليهود والنصارى .

وفي حاشية المحقق على تفسير الغريب المطبوع وهو الدكتور حسن محمد تقي الحكيم قال ما مضمونه :إن للإمام زيد بن علي عليه السلام تفسيرا للفاتحة وبعض آيات القرآن مخطوط وفيه قال الإمام زيد بن علي عليه السلام في سبب التسمية : (إنما تسمى أيضا أم الكتاب لأنه يبدأ بها في أول القرآن فتعاد ، ويقرأ بها في كل ركعة قبل قراءة ما يقرأ به من السور .

وفي هذا التفسير المخطوط أيضا نقل المحقق قول الإمام زيد بن علي عليه السلام : ﴿الرحمن﴾ مجازة ذو الرحمة ، وكانت العرب لا تعرف الرحمن في أسماء الله تعالى ، ولا تسمى الله تعالى به ، وكان أهل الكتاب يعلمون أنه من أسماء الله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ والرحمن : المنان .

وفي قراءة الإمام زيد بن علي المنسوبة إليه أنه قرأ ﴿الحملى﴾ بالكسر قال المحقق : وانظر المختص لابين جني ٣٧/١ وجمع البيان للطبرسي ٢١/١ والمهر الوجيز لابين عطية ١٠٢/١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣٦/١ ، والبحر المحيط لأبن حيان ١٩/١ ، وروى أيضا أنه قرأ ﴿الحمد﴾ بنصب الدال ، وانظر شواذ القرآن للكرماني ١٤ ، والبحر المحيط ١٩/١ ، وروح المعاني للألويسي ٧٠/١ ، ومعجم القراءات القرآنية ٥٠ .

كما روى الكرماني عن الإمام زيد أنه قرأ ﴿اهدنا صراطا مستقيما﴾ بالفتح من غير لام التعريف ، انظر شواذ القرآن ١٦ ، وانظر البحر المحيط لأبن حيان ٢٦/١ ، وروح المعاني للألويسي ٨٨/١ ومعجم القراءات ١٧/١ قال الحكيم : وذكر زيد بن علي أن للهداية معنيين : هما الدلالة والبيان ، والعصمة والهداية ، وأما من النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين فلها معنى واحد وهو الدلالة والبيان ، انظر تفسير سورة الفاتحة وبعض آيات القرآن للإمام زيد بن علي ص ١٣ مخطوط ، والأشياء والنظائر لمقاتل بن سليمان ٨٩/١ .

[الأحكام]

ولنذكر من أحكام هذه السورة المباركة ما ذكره إمامنا المنصور با الله القاسم بن محمد رحمة الله عليه في تفسيره في آيات الأحكام باللفظ : فيها - يعني سورة الحمد - خمس آيات ، الأولى : قال الله سبحانه : **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** الباء متعلقة بمحذوف يحتمل أن يكون اقرعوا أيها المؤمنون ، أو ابتدئوا قراءة القرآن بسم الله الرحمن الرحيم .

يدل على هذا التفسير قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ واسم الرب تبارك وتعالى الله ، ومن أسمائه سبحانه الرحمن الرحيم ، فإذا احتمل الأمر كما ذكرنا ولا دلالة على المكلف ، قرأ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** في أوائل السور التي وضعها الله فيها .

[وجوب الفاتحة والجهر بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**]

وسورة الحمد واجبة في كل صلاة واجبة ، ولا تنعقد صلاة ((من) يحسنها)^(١) بغيرها كما هو المعلوم من الدين .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (كل صلاة لا يجهر فيها بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** فهي آية اختلسها الشيطان) .

والبسملة من القرآن ، وذلك معلوم من الدين ، وهي آية من كل سورة إلا براءة عند العزّة ، وعند قالون^(٢) من قراء المدينة ، وعند قراء مكة والكوفة وفقهاؤها . والدليل على ذلك إثباتها في المصحف وأخبار صحيحة) اهـ .

(١) - اللفظ في أ : ولا تنعقد صلاة يحسنها بغيرها ، وما بين الأقواس غير موجود في ب ..

(٢) - قالون : هو عيسى بن ميناء ، قالون المدني ، صاحب نافع ، قال ابن حجر في لسان الميزان ٤/٤٠٧ ، ٤٠٨ : أما في القراءة فثبت ، وأما في الحديث فيكتب حديثه في الجملة ، ثم قال : روى عن محمد بن جعفر بن أبي كثير ، وعبد الرحمن بن أبي الزناد ، وعنه اسماعيل القاضي ، وأبو زرعة وطائفة ، مات سنة عشرين ومائتين ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : كنيته أبو موسى ، روى عنه محمد بن اسماعيل البخاري ، واسماعيل القاضي ، وقال ابن أبي حاتم : سمعت علي بن الحسن المستحاني يقول : كان قالون أصم شديد الصمم ، وكان ينظر إلى شفقي القاري فيرد عليه اللحن والخطاء .

واعلم أن الجهر بها واجب في كل صلاة مكتوبة ، والدليل عليه ما رواه المحققون من علماء الحديث من عموم دليل الجهر بـ **يَسْمِعُونَ** .

وروى بعضهم تواتر الجهر بها عن علي بن أبي طالب عليهم السلام ^(١) .

ولما رواه إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد رحمة الله عليه عن آل رسول الله صلى الله عليه وعليهم قال عليه السلام : (إن الجهر بها واجب في كل المكتوبات لما رواه أهل البيت عليهم السلام من طرق كثيرة منها : ما رواه عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (كل صلاة لم يجهر فيها بـ **يَسْمِعُونَ** فهي آية اختلسها الشيطان الرجيم) ^(٢) وفي الشفاء ^(٣) نحوه ولم يفصل .

ومنها : ما رواه أيضا عن علي عليه السلام وعمار بن ياسر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يجهر في المكتوبات . فروى التميمي في فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ومنها : ما رواه الهادي عليه السلام في الأحكام عن أبيه ^(٤) عن جده عن أبي بكر بن أويس ^(٥) عن الحسين بن عبد الله بن ضمرة ^(٦) عن أبيه ^(٧)

(١) - انظر السروض النضير ١٠/٢ - ١٨ وأما أحمد بن عيسى رأب الصدع ٢٤٢/١ من رقم ٣١٦ - ٣٥٨ ، والإعتصام ٣٦٨/١ - ٣٧٩ وأغلب المبحث منقول منه .

(٢) - أخرجه محمد بن منصور المرادي في أمالي أحمد بن عيسى عن علي وعمار رقم ٣٢٨ ، وهو في الإعتصام ٣٧٥/١ ، وقال : رواه الدار قطني أيضا من حديث جابر عن أبي الطفيل عن علي وعمار وله طريق أخرى عن علي أخرجه الحاكم في المستدرک .

(٣) - الشفاء : كتاب من أهم المراجع الحديثية جمعه الأمير الحسين بن بدر الدين رحمه الله .

(٤) - هو : الحسين بن القاسم بن إبراهيم والد الإمام الهادي عليه السلام

(٥) - أبو بكر بن أبي أويس : هو عبد الحميد بن عبد الله بن عبيد الله بن أبي أويس الأصبهاني المدني محدث مشهور قال في الطبقات : روى عن حسين بن عبد الله بن ضمرة وغيره ، وثقه ابن معين وغيره ، وقال الأزدي : كان يضع الحديث فقال الذهبي : وهذه منه زلة قبيحة ، وقال الدار قطني : أبو بكر بن عبد الحميد قدمه أبو داود على أخيه ، قال السيد محمد بن إبراهيم في العواصم : وعامة أسانيد الأحكام تدور عليه وعلى أخيه إسماعيل ، والقاسم بن إبراهيم خرج له الستة إلا الترمذي .

(٦) - الحسين بن عبد الله بن ضمرة رماه المحدثون بالكذب ، قال السيد أحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الوزير

عن جده^(١) عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (يا علي من لم يجهر في صلاة بـ **فِيهِ** **أَلَا تَرَى أَنَّهُ** **أَضْيَفَ** **أَفَادَ** **الْعُمُومَ** **إِذَا** **لَمْ** **تَقُمْ** **قَرِينَةَ** **عَلَى** **التَّخْصِصِ** **وَكَذَلِكَ** **حُكْمُ** **كُلِّ** **جَنْسٍ** **أَوْ** **اسْمٍ** **جَنْسٍ** **مُضَافٍ** ، يشهد بذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُكُ بِهَا﴾^(٢) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم الحديث المشهور : (يقول ابن آدم مالي مالي)^(٣) ألا ترى أن العموم في كلا الصورتين يسبق إلى الفهم من غير قرينة ، وذلك من أقوى أدلة الحقيقة ، ولا يضرنا خلاف من خالف في ذلك من الأصوليين .

ومنها : مارواه الهادي عليه السلام في الأحكام أيضا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (كل صلاة لا يجهر فيها بـ **فِيهِ** **أَلَا تَرَى أَنَّهُ** **أَضْيَفَ** **أَفَادَ** **الْعُمُومَ** **إِذَا** **لَمْ** **تَقُمْ** **قَرِينَةَ** **عَلَى** **التَّخْصِصِ** فهي آية

: هو من شعبة أهل البيت وموالي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد روى عنه الأئمة القاسم وأحمد بن عيسى والهادي ، وروايتهم عنه تنزهه عن الكذب لعل وفاته بعد الستين والمائة ، عرج له أتمتا الخمسة إلا الجرجاني ، وعرج له الهادي عليه السلام في الأحكام . (انظر الروض النضر ١١/٢ ، رأب الصدع : ١٧٨٠/٣) .

(٧) - عبد الله بن ضميرة ، أوزمرة بإسكان الميم ، أوضمها مصفرا - السلوي ، عن أبيه وأبي هريرة ، وكعب الأحبار ، وعنه مجاهد بن حمير ، وعبد الرحمن بن سابط ، وعطاء بن قرة السلوي ، وولده حسين ، وثقه العجلي وعده ابن حبان في الثقات ، عرج له الترمذي وابن ماجه ، والإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام ، والسيدان الأخوان ، ومحمد .

(١) - ضمرة بفتح أوله وسكون الميم ، كذا في كتب أتمتا ، والجامع والخلاصة ، وفي الأكثر بضم الضاد المهملة مصفرا ، وكذا في شرح التحرير ، قال الحاكم : وضمرة من موالي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد عقب ، يروي عن علي عليه السلام ، أعرج له أتمتا الثلاثة والهادي في الأحكام ، وعنه ولده ، اسمه : سعد الحميري ، في قول البخاري ، وعند أبي حاتم سعيد ، وقيل : روح بن سنذر ، وقيل : روح بن شيرزاد ، وقد أعطى النبي عائلة أبي ضميرة كتابا يوصي المسلمين بهم .

(٢) - الحديث أخرجه في الأحكام ١/١ . وهو بسنده في أمالي أحمد بن عيسى ٢٤٢/١ رقم ٣١١ موقوفا عن علي ، وانظر الروض النضر ١١/١ .

(٣) - الإسراء : ١١٠ .

(٤) - أخرجه الإمام الموفق بالله في كتاب الإعتبار وسلوة العارفين (تحت الطبع) وأحمد في المسند ٢٤/٤ ، والزهد ١٧ ، وابن حبان ٤٧٢/٢ رقم ٧٩ ومسلم في الزهد والرقائق رقم ٢٩٥٨ ، وابن المبارك في الزهد ٤٩٧ وانظر تحريج الحديث كاملا في الإعتبار وسلوة العارفين

اختلسها الشيطان) ^(١) .

هذا غير الأخبار المجملة نحو ما رواه عليه السلام عن ابن عباس (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يزل يجهر بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** حتى قبض .
وروى زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام : (أنه كان يجهر بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**) ^(٢) .

وأيضاً قال في حاشية الفصول : قال في الأمالي ^(٣) ما لفظه : (قال محمد) أجمع آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الجهر بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** .

قال عليه السلام قلت : ولم يخص فريضة من فريضة ، ولأصح أن يكون ذلك رداً على من لم يأت بالبسملة مع الفاتحة والسورة ، ويكون حكمها أنه يجهر بها في صلاة الليل ، ويخافت بها في صلاة النهار ، لأن تظاهر الأخبار بلفظ الجهر ، ولا يقبل ذلك لا لغة ولا عرفاً فلو كان كذلك لروي بغير اللفظ وكان يقول صلى الله عليه وآله وسلم : من لم يأت في صلاته بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** أو من لم يقرأ ، وكان يجب أن يروى أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم يأت بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** أو كان صلى الله عليه وآله وسلم يقرأها ، وكذلك ما جاء به من حكاية إجماع

(١) - الأحكام ١٠٦/١

(٢) - وأب الصدع ص ٢٤٢ رقم ٣١٦-٣١٧ ، وقال : أخرجه البيهقي عن الشعبي ، وأخرج الدارقطني عن علي عليه السلام قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في صلاته ، وقال : هذا إسناد علوي لأبأسبه ، راجع الروض ١١/٢ . وانظر مسند الإمام زيد ، وانظر الروض النضر ١٠/١-١٨ ، ط ق .
(٣) - قال في رأب الصدع (٢٦٠/١) : وذكر البيهقي في الخلافات : اجتمع آل محمد على الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم ، حكاه عن أبي جعفر الهاشمي ، وذكر الخطيب عن عكرمة أنه كان لا يصلي خلف من لا يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم ، وعن أبي جعفر الهاشمي مثله .

(٤) - الإمام الحافظ المتقن : محمد بن منصور بن يزيد المرادي ، أحد الأعلام المعمرين ، ولد ونشأ بالكوفة ، عرف بمواقفه الصلبة والشجاعة في نصرة أهل البيت ، محدث الزيدية ، ورأس الشيعة ، كفاه تعديل الأئمة له ، لزوم الإمام القاسم خمساً وعشرين سنة ، والإمام أحمد بن عيسى نيفاً وعشرين حجة ، وهو صاحب الإجماع التاريخي العظيم ، الذي ذكره المولى العلامة مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي في لواعج الأنوار ، لعل مولده بين ١٤٠-١٥٠ هـ وفاته بين ٢٩٠-٣٤٠ هـ .

أهل البيت عليهم السلام^(١).

(١) - أما تفسير الإمام الناصر أبو الفتح الديلمي للفاضة فيقول في تفسير البرهان (مخطوط) ما لفظه :

بسم الله الرحمن الرحيم سورة فاتحة الكتاب مكية ، وقد قيل : إنها مدنية لما ثلثة أسماء : فاتحة الكتاب ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، روي عن أبينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (هي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني) فأما تسميتها بفاتحة الكتاب فلأنه يستفتح بإثباتها خطأ وتلاوتها لفظاً ، وأما تسميتها : أم القرآن فلتقدمها على سائر القرآن وتأخير ما سواها تبعاً لها ، وصارت أما لأنها أمته أي تقدمته ، وكذلك قيل لرأية الحرب : أم لتقدمها ، واتباع الجيش لما قال الشاعر :

على رأسه أم لنا نهتدي بها جماع أمور لا نعاصي لها أمرا

وقيل لما مضى على الإنسان من سني عمره : أم لتقدمها قال الشاعر :

إذا كانت الخمسون أمك لم يكن لسذاك إلا أن تموت طيب

وأما تسميتها بالسبع المثاني أما السبع فلأنها سبع آيات ، وأما المثاني فلأنها تنبئ في كل صلاة فرض وتطوع ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أجمع الناس على أن بسم الله الرحمن الرحيم في سورة النمل بعض آية ، وإنما اختلفوا في إثباتها آية من فاتحة الكتاب ، ومن كل سورة في القرآن فذهب قوم إلى أنها آية في الفاتحة ، وليست منها ، وكذلك حكمها في سائر القرآن ، وذهب آخرون إلى أنها ليست من القرآن ، وعندنا وعند علماء العترة الطاهرة أنها آية من فاتحة الكتاب ومن كل سورة أثبت فيها ، وأن تاركها تارك لآية من كتاب الله عز وجل ، والدليل على صحة ما ذهبنا إليه ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قراءته ما مع ما كان يقرأ من السور فلو أنها آية من القرآن لما جاز لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدخل في كلام الله عز وجل ما ليس منه ، كما لا يجوز أن يخلط به كلام لسواه ولا بيتاً من الشعر ، فلما كان الأمر على هذا وجب أن تكون آية من السور .
والثاني : إجماع الأمة على اختلافها في إثباتها في كل سورة إلا سورة براءة ، وإجماعهم حجة ، وليس يثبت في القرآن ما ليس منه على ما ذكرنا .

وأما من قال : إنها آية وليست بآية من فاتحة الكتاب فالدليل عليه إجماع كل من قرأ القرآن إنها سبع آيات ولا تكون سبعا إلا بعد عد بسم الله الرحمن الرحيم .

وأما ﴿بسم﴾ فيجوز أن تكون صلة زائدة ، وإنما هو الله الرحمن الرحيم ، والمستشهد بقول ليذ :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فذكر اسم السلام زيادة ، وإنما أراد ثم السلام عليكما ، أو يجوز أن يكون أسم أصل مقصود ، وفي دخول الباء عليه قولان : أحدهما : أنها دخلت على معنى الأمر ، والثاني : أنها دخلت على معنى الخبر ، فأما معنى الأمر فتقديره : ابداً بسم الله الرحمن الرحيم ، وأما الثاني : فعلى الإخبار - بدأت بسم الله الرحمن الرحيم ، وحذفت ألف الوصل بياء الإصاق في اللفظ والخط لكثرة الاستعمال ، والاسم : كلمة تدل على المسمى دلالة إشارة ، والصفة : كلمة تدل على الموصوف دلالة إفادة فإن جعلت الصفة اسماً دلت على الأمرين ، على الإشارة والإفادة .

وفي اشتقاق الاسم وجهان أحدهما : أنه مشتق من السمو ، وهو الرفعة لأن الاسم يسمو بصاحبه ، والآخر من السممة وهو العلامة ، فترفعه من غيره ، وأما قوله : ﴿الله﴾ فهو أحص أسماءه لأنه لم يتسم به غيره ، وفيه تأويلان :

قلت : وأما قول من قال : (إنا نخصص أدلة الجهر بالبسملة بالقياس على سائر ألفاظ الفاتحة ففاسد لأن البسملة آية من سورة الفاتحة خصت حكمها عن حكمها الأخبار الصحيحة ، وأوجبت عموم الجهر بها الأدلة الصريحة فلا قياس يصح التخصيص به مع أنه إن يسلم على التنزل صحة القياس المذكور لم يصح التخصيص به لما تقدم من النصوص ؛ لأنها لم تفصل وذلك لأن دلالة النصوص المتقدمة عامة ، وعمومها لفظي ، و القياس عام وعمومه معنوي ، ودلالة اللفظي أقوى ، بدليل أنهم لا يصيرون إلى المعنوي الذي هو القياس إلا عند تعذر اللفظي ، وذلك إجماع فتخصيص الأضعف بالأقوى أولى ، كيف وقد أكد العموم والإطلاق في تلك الأدلة حتى يزيل ذلك الوهم ، وتلك المقالة إزالة لا يكون معها دلالة ولا عليها تخصيصا ولا تقديرا لفظ كل ونحوه حتى قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام أنه لا يجوز تخصيصه إلا بالمقارن من لفظ متصل نحو قوله تعالى : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾^(١) أو قرينة حالية كما سيأتي ذلك إن شاء الله .

قال عليه السلام : (ووجه ذلك أن لفظ كل ونحوه موضوعة لتقرير الشمول ، ودفع توهم عدمه ، نحو : جاءني القوم كلهم ، أو كل القوم ، لئلا يتوهم أن بعضهم لم يجيء لكنك لم تعتد به أو أنك جعلت الحكم من بعضهم كالحكم من كلهم بناء على أنهم في حكم شخص واحد لسبب من الأسباب كقوله تعالى : ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾^(٢) أي ناقه صالح عليه السلام ، وإنما عقرها قدار بن سالف وحده ، فنسب العقر إليهم لسبب

أحدهما - أنه اسم علم للذات ، والآخر أنه اسم مشتق من صفة ، وأسماء الصفات تكون تابعة لأسماء الذات ، فلم يكن بد من أن يختص باسم ذات يكون علما لتكون أسماء الصفات والنعوت تبعاً له ، واشتقاقه من آله فحذفت الهمزة وعوض منها الألف واللام وفخم للتعظيم ، وفي اشتقاقه قولان : أحدهما - أنه من الوله لأن العباد يألون إليه ، أي يفرعون إليه في أمورهم فقبل للمألوه إليه : إله كما قبل للمؤمن به : إمام ، والثاني : مشتق من الألوهية : وهما لعباده من قولهم : فلان يتأله أي يتعبد قال : رؤية بن العجاج :

(لله در الغانيات المبدع لما رأيته خلق الموه سيجن واسترجعن من تأله)

انظر تفسير البرهان مخطوط

(١) - القصص : ٨٩

(٢) - الأعراف : ٧٧

رضائهم بذلك ، أو لتركهم الإنكار والذب عنها ، وهم يقدرّون على ذلك ، وإذا كان الأمر كذلك وأتى بلفظ كل أو نحوها مراداً به البعض دون الكل مجردة عما يدل على ذلك حال إطلاقها بطلت فائدتها وصارت عبثاً ، ولو في وقت من الأوقات وذلك لا يجوز على الحكيم لغنائه عن فعله ، وقدرته على إزاحته ، وعلمه بكونه نقصاً وأما إذا قارن المخصص لم يكن كذلك لأن فائدتها توجه عند ذلك إلى الباقي ، ويعلم أنه لا توهم ولا تجوز فيه بخلاف سائر ألفاظ العموم فوقوع التوهم من غير الله وغير رسله فيما عصمهم من التوهم فيه من تبليغ الشرائع كثير ، وكذلك التجوز فلم تبطل فائدتها بتأخير التخصيص إلى وقت الحاجة) إلى آخر كلامه عليه السلام .

ففي هذا بحمد الله لمن أنصف كفاية لمن له من ربه هداية ، فإن الأمر بحمد الله في ذلك واضح وضوح النهار ، ولكنه لا يدرك نور الشمس من سلب نور الأبصار فله القائل :

إذا لم يكن للمرء عين بصيرة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر
وكما قال بعضهم^(١):

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

واعلم أن في أحاديث الجهر بالبسملة من طريق أئمتنا عليهم السلام وغيرهم أكثر مما ذكر منها ما قدمنا .

ومنها : ما روى إمامنا المنصور بالله عليه السلام عنهم في الإعتصام ، عن أسالي أحمد بن عيسى^(٢) ثلاثة وثلاثين حديثاً في الجهر بـ الله أكبر .

(١) - القائل هو المتنبي

(٢) - انظر أسالي الإمام أحمد بن عيسى [رأب الصدع ٢٤٢/١ - ٢٦١] قال فيه ٢٥٨/١: وقد رويت عدة أحاديث في غير هذا الكتاب عن عدد من الصحابة وغيرهم والذي روي هنا عن علي وابن عباس ، وابن عمر ، وعمار والحكم بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأبي ميسرة ، وعبد الله بن الزبير ، وعمر ، وعلي موقوفاً ومرفوعاً وروي عن طاووس ، وابن مقل ، وعطاء ومجاهد ، وأبي عبد الله الجدي ، وسعيد بن جبير أنهم كانوا يرون الجهر بها ..

وفي الجامع الكافي^(١) قال: (إن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أجمعوا على الجهر بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** في السورتين ، وعلى القنوت في الفجر ، فمن زعم أن آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجمعوا على بدعة فقد أساء القول وخالف ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم واعتدى في القول) .

قال: (وروي محمد بأسانيده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يجهر بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**)^(٢) .

قال: وروي الجهر أيضا عن علي عليه السلام والحسين بن علي وابن عباس) وعدد جماعة من أكابر أهل البيت عليهم السلام استغفينا بإجماعهم عن تعداد أفرادهم .

ثم قال في الجامع الكافي: (وعن أبي بكر وعمر وعمار بن ياسر ، وابن عمر وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن الزبير ، وعن أبي عبد الله الجدي^(٣) وابن معقل^(٤) وسعيد بن جبير^(٥) وطاووس^(٦) ومجاهد^(٧) والزهري^(٨) وأبي عاصم^(٩) أنهم كانوا

(١) - الجامع الكافي لأبي عبد الله العلوي خ وعنه في الاعتصام ٣٧٣/١

(٢) - الحديث رقم ٣١٥ ، حدثنا إبراهيم بن محمد عن أبي ملك ، عن عبد الله بن عطاء ، وأبي حمزة الثمالي ، عن أبي جعفر (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم) ٢٤٣/١ .

(٣) - أبو عبد الله الجدي : اسمه عبيد أو عبد الرحمن بن عبيد ، وقيل : غير ذلك وهو أمير الذين خرجوا من الكوفة إلى مكة لاستنقاذ محمد بن الحنفية وابن عباس من آل الزبير عبد الله بن الزبير رمصع بن الزبير ، قال ابن سعد : كان شديد التشيع ، وقال الذهبي في الميزان : شيعي بغض ، ووقفه أحمد ويحيى والذهبي وغيرهم ، وانظر الفلك الدوار ١٣٠ تهذيب التهذيب ٦٥/٢١ طبقات ابن سعد ١٠١/٥ .

(٤) - ابن معقل : هو عبد الله بن معقل - بفتح أوله وسكون المهملة بعدها قاف - المزني ، أبو الوليد الكوفي ، روى عن أبيه وعلي ، وابن مسعود ، وثابت بن الضحاك ، وكعب بن عجرة وآخرين ، وعنه أبو اسحاق السبيعي وعبد الملك بن عمر وغيرهم ، قال العجلي كوفي تابعي ثقة ، من خيار التابعين .

قلت : وقال ابن سعد : كان ثقة قليل الحديث ، وقال ابن حبان : في الثقات ، مات سنة بضع وثمانين بالبصرة .
(٥) - سعيد بن جبير : هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الكوفي المقتول صبرا سنة ٩٥ قتلته الحجاج ، عده أبو العباس الحسيني في من بايع الإمام الحسن بن الحسن الرضا وهو محدث ثبت شهر لانزاع فيه (انظر معجم رجال الاعتبار) .

(٦) - طاووس : هو طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني اليمني أبو عبد الرحمن تابعي مشهور توفي سنة ١٠٦ وقيل : سنة بضع عشرة ومائة عن سبعين عاما انظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين .

يجهرون **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** (١).

ثم ذكر عليه السلام بعد هذا أخبار فيها كثرة في الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم قال عقيها: (وهذه الأخبار المتقدمة تدل على وجوب الجهر في جميع الصلوات لأن منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (كل صلاة لا يجهر فيها **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** فهي آية اختلسها الشيطان) ولم يفصل، ولأن اختصاصها

(٧) - مجاهد : هو مجاهد بن جبر بفتح الجيم وسكون الموحدة ، وآخره راء مولى السائب بن أبي السائب ، أبو الحجاج المكي المقرئ الإمام المفسر ، عن أبي هريرة وابن عباس ، وروى عن أم سلمة وجابر وعائشة ، وابن عمر ، وعن علي عليه السلام ، وعنه عكرمة وعطاء ، وقتادة ، والحكم بن عتيبة وكثيرون ، ولد سنة ٢١ هـ ، وثقه ابن معين وأبو زرعة ، قال القطان : مات مجاهد سنة ١٠٤ هـ أخرج له الجماعة وأتممتا الخمسة والناصر للتحقق عليه السلام ، له في أمالي الإمام أحمد بن عيسى نحو ثلاثة وثلاثين حديثا (انظر رآب الصدع ٣/١٨٢٣) .

(٨) - الزهري : هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري (٥٠ هـ - ١٢٤) عرف بالنصب ونصرة الأمويين ، وهو مشهور (انظر معجم رجال الاعتبار ، معجم الرواة في أمالي المؤيد بالله) .

(٩) - أبو عاصم : انظر الأنساب ٣٤٦ ، الجزء الرابع .

(١) - قال في رآب الصدع ٢٥٩/١ : وممن روي عنهم الجهر بها في هذا الكتاب من أهل البيت عليهم السلام : محمد بن عبد الله بن الحسن ، وأبراهيم بن عبد الله ، وعبد الله بن موسى ، وأحمد بن عيسى ، والباقر والصادق ، وزيد بن علي ، وعلي بن عمر بن علي بن الحسين ، وعبد الله بن الحسن ، ونقل صاحب الجامع الكافي الإجماع من أهل البيت ، وذكر ممن قال به عددا كثيرا .

قال في الروض : قال البيهقي بعد أن أخرج حديث الجهر بها عن علي ما لفظه : روي الجهر عن عمر بن الخطاب وابن عباس وابن الزبير... ثم قال : وذكره الخطيب عن أبي بكر الصديق ، وعثمان ، وأبي بن كعب وأبي قتادة وأبي سعيد ، وأنس وعبد الله بن أبي أوفى ، وشداد بن أوس ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين بن علي ومعاوية ، قال الخطيب : وأما التابعون ومن بعدهم ممن قال بالجهر بها ، فهم أكثر من أن يذكرها ، وأوسع من أن يحصروا ، منهم : سعيد بن المسيب ، وطاووس ، وعطاء ، ومجاهد ، وأبو واثل ، وسعيد بن جبير ، وابن سيرين ، وعكرمة ، وعلي بن الحسين ، وابن محمد بن علي ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، ومحمد بن المنكدر ، وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، ومحمد بن كعب ، ونافع مولى ابن عمر ، وأبو الشعثاء ، وعمر بن عبد العزيز ، ومكحول ، وحبيب بن أبي ثابت ، والزهري ، وأبو قلابة ، وعلي بن عبد الله بن العباس ، وابنه ، والأزرق بن قيس ، وعبد الله بن معقل بن مقرن . وممن بعد التابعين : عبيد الله العمري ، والحسن بن زيد ، وزيد بن علي بن حسين ، ومحمد بن عمر بن علي ، وابن أبي ذئب ، والليث بن سعد ، وإسحاق بن راهويه ، وزاد البيهقي في التابعين : عبد الله بن صفوان ، ومحمد بن الحنفية ، وسليمان التيمي ، ومن تابعهم : المعتز بن سليمان ، وزاد أبو عمرو : هو قول جماعة من أصحاب بن عباس طاووس ، وعكرمة ، وعمرو بن دينار ، وقول ابن جريج ، ومسلم بن خالد الزنجي ، وسائر أهل مكة ، وهو أحد قولين ابن وهب .

بالذكر والنص عليها بالجهر شأنًا ، ولولا ذلك ما كان للأخبار المتقدمة فائدة إذ كان يكفي أن يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم **يَسِّرْ** **لِللَّهِ أَنْ يَجْزِلَ الْجَهْرَ** من أم القرآن ، أو من القرآن فيجهر بها في الجهر ويسر بها في السرية.

والذي يدل على ما ذكرناه ما ذكره جابر الله في الكشف ، من أن **يَسِّرْ** **لِللَّهِ أَنْ يَجْزِلَ الْجَهْرَ** كلمة التقوى .

قال عليه السلام : (يدل سياق الآيات لأن سبب نزولها منع المشركين النبي صلى الله عليه وآله وسلم من دخول المسجد الحرام عام الحديبية فصالحهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمر عليا عليه السلام أن يكتب **يَسِّرْ** **لِللَّهِ أَنْ يَجْزِلَ الْجَهْرَ** فمنعوه من ذلك ، ومن أن يكتب محمدا رسول الله ، فأنزل الله تعالى سورة الفتح وفيها قوله تعالى : ﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا ﴾ (١) إلى قوله ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ إلى آخر السورة

ثم قال عليه السلام : (وقد ثبت التخصيص لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (صلاة ويحتمل أن الله سبحانه أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجهر بها إرغامًا لأنوف الكافرين ، وشدًا لظهور المؤمنين ، لأن المؤمنين رضي الله عنهم كرهوا نحوها والمشركون كرهوا إثباتها كما هو مذكور في سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم).
النهار عجماء) بما ذكرناه). يعني بما ذكر من الأخبار في الجهر بالبسملة.

ثم قال عليه السلام : (ولأنه قد وقع الجهر بالتكبير والتسليم فيها أيضا ولم يخرجها عن كونها عجماء ، وثبت الجهر في صلاة الجمعة والعيدين والكسوف ، على أن راوي (صلاة النهار عجماء) كان عاملا لإمام الفئة القاتلة لعمار على المدينة .

وقد روي أن رواية الجهر عنه صلى الله عليه وآله وسلم رواها فوق عشرين صحابيا ، ورواية الإخفاء لم يروها إلا ابن معقل ، وهي ضعيفة ، وأنس وهي معلقة .

ثم قال عليه السلام : (وقال سعد الدين التفتازاني في التاريخ الفظه : (أما حديث

الجهر بالتسمية فهو عندهم من قبيل المشهور حتى أن أهل المدينة احتجوا به على مثل معاوية، وزده على ترك الجهر، وهو مروى عن أبي هريرة وأنس إلا أنه - يعني أنسا - اضطربت رواياته، فيه لسبب أن عليا رضي الله عنه كان يبالغ في الجهر، وحاول معاوية نحو آثاره، وبالغوا على الترك فخاف أنس

وروى الذهبي في تذكرة الحفاظ، عن ابن شهاب أنه كان يقول: أول من قرأ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** بالمدينة سرا عمرو بن سعيد بن العاص^(١).

ثم قال عليه السلام بعد هذا: (قلت: شهدت الأصول من الكتاب والسنة بإغاضة الكافرين ومراغمتهم قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَطْأُونَ مَوْطِنًا يَعْذِيبُ الْكَافِرَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمُ﴾^(٢) الآية وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾^(٣) وما يأتي إنشاء الله من شرعية الرمل في طواف القدوم، والسعي بين الميادين لإغاضة المشركين، وإرغاماً لأنوفهم حيث قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدَ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ ثِقُورًا﴾^(٤) وما تقدم ذكره أنهم كرهوا أن يكتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عام الحديبية في كتاب الصلح بينه صلى الله عليه وآله وسلم وبينهم **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** فألزم الله المسلمين كلمة التقوى، وكانوا أحق بها وأهلها وهي **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**.

وشرع الله الجهر بها كما قدمنا من الأدلة إغاضة للمشركين، وإرغاماً لأنوفهم انتهى ما نقلناه من الإعتصام^(٥).

(١) - عمرو بن سعيد بن العاص: أبو أمية المدني المعروف بالأشدق، ولي المدينة لمعاوية، ويزيد بن معاوية ثم طلب الخلافة وغلب على دمشق سنة ٦٩ ثم قتله عبد الملك بن مروان بعد أن أعطاه الأمان سنة ٧٠ قال في تهذيب التهذيب ٣٥/٨: وكان عمرو أول من أسر بالبسملة في الصلاة مخالفة لابن الزبير لأنه كان يهجور بها روى ذلك الشافعي وغيره بإسناد صحيح، وانظر الذهبي تذكرة الحفاظ ..

(٢) - التوبة: ١٢٠

(٣) - النساء: ١٠٠

(٤) - الفرقان: ٦٠

(٥) - الإعتصام ١/٣٨٠

يزيد هذا وضوحاً ما ذكره البرازي^(١) في -تفسير قوله تعالى :
 ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ فإنه ذكر في الجهر بها في كل صلاة حججاً كثيرة ، وأخباراً
 شهيرة إلى قوله في كلام له طويل :

(قلت الشيعة : السنة هي الجهر بالتسمية سواء كانت في الصلاة الجهرية أو السرية
 وجمهور العلماء يخالفونهم فيه)

ثم قال : في الحجة : (الثالث : أن قوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ لا شك أنه ثناء
 على الله ، وذكر له بالتكريم ، فوجب أن لا يكون الإعلان به إلا مشروعاً كقوله
 تعالى : ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾^(٢) ومعلوم أن الإنسان إذا
 كان مفتخراً بأبيه غير مستنكف - فإنه يعلن ذكره ويبالغ في إظهاره أما إذا أخفى
 ذكره أو أسرّه - دل على كونه مستنكفاً منه ، فإذا كان المفتخر بأبيه يبالغ في الإعلان
 والإظهار ، وجب أن يكون إعلان ذكر الله أولى ، عملاً بقوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ
 كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ .

قال : ولهذا السبب نقل أن علياً رضي الله عنه كان مذهبه الجهر بـ
 ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ في جميع الصلوات .

قال : وأقول إن هذه الحجة قوية في نفسي راسخة في عقلي ، لا تزول بسبب
 كلمات المخالفين).

ثم قال : (الحجة الرابعة مارواه الشافعي^(٣) بإسناده - أن معاوية قدم المدينة فصلى
 لهم ، ولم يقرأ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ ولم يكبر عند الخفض إلى الركوع والسجود
 ثم أنه أعاد الصلاة مع التسمية والتكبير . وقال الشافعي : إن معاوية كان سلطاناً
 عظيم القوة ، شديد الشوكة . فلولا أن الأمر بالتسمية كالأمر المتقرر عند كل
 الصحابة ، من المهاجرين والأنصار وإلا لما قدروا على إظهار الإنكار عليه بسبب
 تركه التسمية .

(١) - هو الخطيب الرازي ، وقد ذكرنا كلامه عندما نقله في رأب الصدع في حاشية سابقة .

(٢) - البقرة : ٢٠٠

(٣) - الأم ١/١٣٠

ثم قال: (الحجة الخامسة روى البيهقي^(١) في السنن الكبرى، عن أبي هريرة قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهر في الصلاة بـ ~~بسم الله الرحمن الرحيم~~)).

ثم إن الشيخ البيهقي روى الجهر عن عمر بن الخطاب، وعن ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأما أن علي بن أبي طالب كان يجهر بالتسمية فقد ثبت بالتواتر ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب كان على الحق، والدليل عليه: (اللهم أدر الحق مع علي حيث دار) انتهى ما نقلناه من تفسير الرازي.

[السبب في خفاء مذاهب أهل البيت عليهم السلام]

فإن قال قائل: رويتم عن الشيعة الجهر بـ ~~بسم الله الرحمن الرحيم~~ في جميع الصلوات، والتواتر بذلك أنه مذهب أمير المؤمنين علي عليه السلام فإن كان كذلك فلم خفي ذلك وانتشر خلافه؟.

قلنا ولا قوة إلا بالله: الأصل في ذلك ما هو المعلوم عند أهل السير والأخبار أن معاوية - لعنه الله - لما تغلب صير عداوة أمير المؤمنين علي عليه السلام طريقة وسنة حتى كتب إلى الوالي من جهته: أن اقتل من كان على دين علي، واضرب عنق حجر بن عدي^(٢) لأنه لم يتبرأ من علي وأنكر سبه.

(١) - السنن: ٤٧/٢، قال في السنن: اخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أنبأ أحمد بن عبيد الصفر، ثنا: إبراهيم بن اسحاق السراج، عن عقبة بن مكرم، ثنا: يونس بن بكير عن مسعر، عن محمد بن قيس، عن أبي هريرة، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهر في الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم فترك الناس ذلك) كذا قاله السراج عن عقبة عن يونس، عن مسعر عن ابن قيس، ورواه الحسن بن سفيان عن عقبة بن مكرم، عن يونس، عن أبي معشر، عن محمد بن قيس بن مخزومة.

(٢) - حجر بن عدي: هو حجر بن عدي بن جبلة الكندي ويسمى حجر الخير المقتول شهيدا سنة ٥١ هـ صحابي شجاع خير، من المتقدمين، وقد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشهد القادسية، ثم كان من أصحاب أمير المؤمنين، وشهد معه الجمل وصفين وسكن الكوفة إلى أن قدم زياد بن أبيه واليا عليها فضايقه لمعرفته بحبه لأمر المؤمنين، وولاه لأهل البيت عليهم السلام، فطلب منه أن يسب عليا ويتبرأ منه، فأبى فأمر معاوية بقتله قبل أن يصل إليه فقتل في مرج عذراء - (وهو موضع قريب من الغوطة بدمشق، ويسمى الآن عذره وقد زرنه إلى مشهده، وهو مشهور - مع أصحاب له في قصة مثيرة محزنة، وأخباره طويلة، وفي سيرته وقصة استشهاده كتب انظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين، الأعلام ١٦٩/٢ طبقات ابن سعد ١٥١/٥ أعيان الشيعة ٤/٦٩٠).

وقد روى العلامة ابن أبي الحديد^(١) أن أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام قال لبعض أصحابه: (يا فلان ما لقينا من ظلم قريش إيانا ، وتظاهروا بهم علينا وما لقي شيعتنا ومحبونا من الناس ، إن رسول الله قبض وقد أخير أنا أولى الناس بالناس فتمالت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه ، واحتججت على الأنصار بحقنا وحجتنا ثم تداولها قريش واحد بعد واحد) إلى قوله عليه السلام: (ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعا ، يتقربون به إلى أوليائهم ، وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلدة ، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووا عنا ما لم نقله أو نفعله ؛ ليعضونا إلى الناس ، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد الحسن عليه السلام ، فقتلت شيعتنا بكل بلدة ، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة ومن ذكر بحبنا والإنقطاع سجن أو نهب ماله ، أو هدمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمن عبيد الله بن زياد قاتل الحسين ، ثم جاء الحجاج^(٢) فقتلهم كل قتل ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى إن الرجل يقال له : زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقول : شيعة علي ، وحتى صار الرجل - الذي يذكر بالخير ، ولعله يكون ورعا صدوقا - يتحدث بأحاديث عظيمة ، من تفضيل بعض ما قد سلف من الولاة ولم يخلق الله شيئا منها ، ولا كانت ولا وقعت ، وهو يحسبها أنها حق ؛ لكثرة من قد رواها ، ممن لم يعرف بكذب ، ولا قلة ورع).

(١) - ابن أبي الحديد : هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد المدائني (أبو حامد) (٥٨٦ - ٦٥٥) مولده بالمداين ، وصار إلى بغداد ، وكان حافظا عالما مدققا أدبيا كاتباً شاعراً ، فشارك في كثير من العلوم ، معتزلي المعتقد من أشهر كتبه شرح نهج البلاغة المعروف ، قال العلامة الحجة مجد الدين بن محمد بن منصور المويدي حفظه الله : من علماء العدل والتوحيد القائمين بحق الله ورسوله ووصيه وأهل بيت نبيه ، ويلوح للمتقدمين لمحات كلامه لزوم ما عليه أئمة العزة المطهرة ، ويقف للمختبر من نفحات مرامه الخوم حول طرائقهم الثيرة ، ولعله منعه عن المصارحة في الأغلب إظهار النصفة للخصوم ، لعل لها عذرا وأنت تلوم ، وقد كان تحت وطأة الدولة العباسية ، انظر لوامع الأنوار ٤٦٩/١ ، معجم المؤلفين ١٠٦/٥.

(٢) - الحجاج : هو الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ - ٩٥) أمير من أمراء بني أمية كان سفاكا للدماء ، مدمنا على المعاصي قبيح السيرة ، أخباره مملوءة بالمآسي والجرائم ، هلك بواسطه . الفلك النوار ٢٩ ، الأعلام ١٦٨/٢ ، الشافي ١٨٣/١.

[معاوية والأحاديث الموضوعة]

قال ابن أبي الحديد: (وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: ألا تجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: أن انظروا من قامت عليه البيعة أنه يحب عليا وأهل بيته - فاعوه من الديوان، وأسقطوا عطائه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاته هؤلاء القوم فنكلوا به، وهدموا داره، فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة حتى إن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به، فيدخله بيته، فيلقي إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الإيمان الغليظة ليكتمن عليه فظهر حديث كثير موضوع بهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة وكان أعظم في ذلك بلية القراء المرأؤون، والمتصنعون الذين يظهرون الخشوع والتسك، فيفتعلون الأحاديث؛ ليحضوا بذلك عند ولائهم، ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين، الذين لا يستحلون الكذب فنقلوها ورووها، وهم يظنون أنها حق ولو علموا أنها باطلة لما رروها، ولا تدينوا بها، فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا خائف على دمه، أو طريد في الأرض، ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين بن علي عليه السلام، وولي عبد الملك بن مروان واشتد على الشيعة، وولى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرب إليه أهل التسك والصلاح والدين يبغض علي عليه السلام، وموالاته أعدائه) إلى آخر كلامه عليه السلام.

[منع لعن أمير المؤمنين عليه السلام]

وكانوا لا يزالون يلعنون عليا عليه السلام على المنابر، ويدعون له أبا تراب، حتى ولي عمر بن عبد العزيز^(١) فمنع من ذلك فقال كثير عزة:

(١) - عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي الخليفة العادل (٦٣ - ١٠١) تولى سنة ٩٨ هـ وحسنت سيرته في الرعية، ورد الحقوق المغتصبة، وأمن أهل البيت في زمنه، ولم يمهله بنو أمية فسموه، أنظر الشافعي ١/١٨٥، وقد أمر برفع اللعن عن علي عليه السلام في أيام خلافته، وأبدلها بالآية التي كان الإمام علي عليه السلام يقولها في آخر خطبة الجمعة ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الخ الآية ٩٠ من سورة النحل، قال الزنجشيري عند ذكر الآية الكشف

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف برياً ولم تتبع سجية مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي فعلت فأضحى راضياً كل مسلم

ورد فذك علي أولاد علي . وروي ردها علي محمد بن علي الباقر - وهو المعروف بالباقر - وهو الذي جاءه جابر بن عبد الله الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (إن رسول الله أمرني أن أقرأ عليك السلام) ^(١) وأبوه علي بن الحسين يسمى سيد العابدين .

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال للحسين: (يولد لك غلام يسمى سيد العابدين) .

وروي في الخبر (أنه ينادى يوم القيامة : ليقيم سيد العابدين فيقوم علي بن الحسين عليه السلام) ^(٢).

واعلم أنها مازالت لعنة أمير المؤمنين ، ولعنة أولاده ظاهرة إلى زمن من [ولاية] عمر المذكور ، وعلى هذا روي عن كثير عزة أنه قال في ذكر اللعنة :

طبت بيتا وطاب أهلك أهل بيت النبي والإسلام

٦٢٩/٢ : وحين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أقيمت هذه الآية مقامها ، ولعمري إنها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً ضاعف الله لمن سنها غضباً ونكالا وخزياً ، إجابة لدعوة نبيه (وعاد من عاداه) . الفلك الدوار ص ٤١ .

(١) - روى أبو لقاسم بن علي الخزاز قال: عن زيد بن علي عليه السلام قال: كنت عند أبي علي بن الحسين عليه السلام إذ دخل جابر بن عبد الله الأنصاري فيمنما هو يحدثه إذ خرج أخيه محمد بن بعض الحجر ، فأشخص جابر بصره نحوه ، ثم قام إليه فقال : يا غلام أقبل فأقبل ، ثم قال : أدبر ، فأدبر ، فقال : شمائل كشمائيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما اسمك يا غلام ؟ قال: محمد ، قال : أبن من ؟ قال: ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، قال: أنت إذا الباقر ؟ قال: فانكب عليه وقبل رأسه ويديه ، ثم قال: يا محمد إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرئك السلام ، قال علي رسول الله أفضل السلام وعليك بما أبلغت السلام ، ثم عاد إلى مصلاه ، فأقبل يحدث أبي ويقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي يوماً : إذا أدركت ولدي الباقر فأقرمه مني السلام فإنه سمي ، وأشبه الناس بي ، وعلمه علمي) الخ انظر بحوث في الملل والنحل ٦٥/٧ عن الخزاز في كفاية الأثر في النص على الأئمة الإثني عشر ٢٩٨ .

(٢) - أخرجه الإمام الموفق بالله في الاعتبار وسلوة العارفين رقم ٥١٢ بسنده عن جابر ، وهو في ترجمة الإمام زيد بن علي عليهما السلام من الخدائق الوردية من حديث طويل عن أبي ذر .

لعن الله من يسب عليا
وبنيه من سوقة وإمام
تأمن الطير والوحوش ولا
يأمن أهل النبي عند المقام
وكان العالم يمنع من إظهار علمه ، ولا يجسر على نشره ، و المتعلم لا يجسر على
الإختلاف إليه .

وروي أن سفيان الثوري ^(١) دخل على الصادق فقال جعفر الصادق عليه السلام
لسفيان : يا أبا عبد الله أنت رجل مطلوب ، وللسلطان علينا عيون فأخرج عنا غير
مطروود .

وروي أن أصحاب أبي حنيفة كانوا إذا تكلموا في المسائل في مجلس أبي حنيفة
وأرادوا أن يحكوا قول علي عليه السلام قالوا : قال الشيخ ، ولم يفصحوا باسمه خوف
السلطان ، فلما انقضى ملك بني أمية - لعنهم الله - في سنة اثنتين وثلاثين ومائة
وصار الملك إلى بني العباس - قويت عداوتهم أيضا ، ومعاداتهم لأهل بيت الرسول
صلوات الله عليهم ، والعلماء منهم ، فكان الفضلاء يقتلون بضروب من القتل .

[قتل أئمة أهل البيت عليهم السلام]

قتل علي عليه السلام في الصلاة في شهر رمضان ، وسم الحسن عليه السلام على
يدي امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس ^(٢) .

وروي عنه عليه السلام أنه دخل الخلاء ثم خرج فقال: قد سقيت السم مرارا ،

(١) - سفيان الثوري : هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ابو عبد الله الكوفي [٦٧ - ١٦١] أحد الأعلام عابد زاهد مفسر مولده ومنشأه بالكوفة ، وسكن مكة والمدينة ، وكان زيدا ذكر ذلك الإمام أبو طالب في أماليه ، وعنه الحافظ إبراهيم بن القاسم صاحب الطبقات ، وله تفسير القرآن مطبوع ، ومؤلفات أخرى كما ذكره السيد صارم الدين و ابن حابس ، وابن حميد في ثقة محدثي الشيعة ، أنظره في أعلام المؤلفين الزيدية وفهرست مؤلفاتهم تحت الطبع ، ومعجم رجال الاعتبار .

(٢) - جعدة بنت الأشعث بن قيس زوج الإمام الحسن التي أغراها معاوية على قتله بالسم بعد أن وعدھا بالتزويج من ابنه يزيد ، في قصة مشهورة انظر تاريخ ابن عساکر ، وانظر عنها أعلام النساء لرضا كحالة .

وما سقيت مثل مرتي هذه ، ولقد مشيت طائفة من كبدي^(١).

وأما الحسين فخير مشهور ، وروي أيضا أنه لما قتل ، ورد كتاب عبيد الله بن زياد^(٢) بأن توطأ الخيل على ظهره ففعل ذلك ، وحز رأسه ، وسبق أهله ونساؤه على الأقتاب إلى دمشق .

وصلب بعده زيد بن علي عليهما السلام، وهو أحد الأئمة .

وقتل ابنه يحيى في أيام أبيه^(٣) .

والنفس الزكية هو محمد بن عبد الله ، وهو أحد الأئمة الزيدية .

ثم بعده أخوه إبراهيم بن عبد الله ، فكان الفضلاء من أهل البيت والعلماء منهم بين مقتول ومطروود ، يخفي نفسه ، ويحكم نسيه .

فكيف ينتشر علمهم عليهم السلام والحال هذه؟! وكيف يرغب الناس في الاختلاف إليهم والإقتباس منهم؟!.

وروي أن القاسم بن إبراهيم عليهما السلام ، وهو أحد أئمة الزيدية كان متواريا أربعين سنة ، فما زالت هذه حالهم إلى أن ذهبت دولة العباسية بظهور الجليل والديلم وخفي علمهم وفضلهم عليهم السلام .

(١) - انظر ترجمة الإمام الحسن عليه السلام من الخدائق الوردية .

(٢) - عبيد الله بن زياد بن أبيه [٢٨ - ٦٧] هـ أحد ولاية بني أمية الجائرين ، ولاه معاوية خراسان سنة ٥٣ ، ثم البصرة سنة ٥٥ ، وأقره يزيد عليها ، وهو الجرم الذي كانت فاجعة كربلاء ومقتل الحسين عليه السلام وثلاثة وعشرين من آل البيت والبقية ممن خرج مع الحسين عليه السلام على يديه ، قتله إبراهيم بن الأشتر القائد الذي كون جيشا لطلب ثار الحسين ، وكان مقتله في أرض الموصل . انظر معجم رجال الاعتبار .

(٣) - قوله في أيام أبيه غريب ، ويحيى هو الإمام يحيى بن الإمام زيد بن علي عليهما السلام [٩٨ - ١٢٦] الإمام الثائر المجاهد البطل الشجاع الورع الزاهد ثار على الحكم الأموي الجائر بعد مقتل أبيه ، وناضل من أجل العدالة ، وتحكيم شرع الله حتى سقط شهيدا في ساحة المعركة بالقرب من مدينة الجوزجان سنة ١٢٦ هـ وعلى باب هذه المدينة صلب ، وفيها دفن ، وقبره بها مشهور مزور ، والمدينة الآن تسمى كابون ، وفي بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية . انظر معجم رجال الاعتبار ، وقد ذكر المولى العلامة محمد الدين الملوذي في التحف أن مولده على الأرجح سنة ٩٧ هـ وقتل وعمره ثمان وعشرون سنة ، وذكر أن استشهاداه في زمن الوليد بن يزيد بعد صلاة الجمعة في شهر رمضان سنة ٦٢١ هـ التحف ٥١ - ٥٢ . وانظر الإمام يحيى بن زيد الفتى الثائر .

[سبب انتشار علم الفقهاء]

وأما غيرهم من الفقهاء فكانوا يلون الولايات العظيمة ، فيكون ذلك سببا لظهور علمهم ، ولي أبو يوسف ^(١) القضاء وانتشر علم أبي حنيفة ، ثم ولي محمد بن الحسن ^(٢) وولي من أصحاب أبي حنيفة الحسن بن زياد ^(٣) وكذلك غيرهم ، وقد كان الأئمة من العلماء ، مثل أبي حنيفة والشافعي وغيرهما - يميلون إلى أهل البيت عليهم السلام الميل العظيم ، ويرون لهم التعظيم والتقديم ، إلا أنهم كانوا يخافون السلطان ويخشون سطوته ، فلم يكن السبب في خفاء علم أهل البيت عليهم السلام لقلّة علمهم ، ولقلّة الأئمة فيهم ، ولكن السبب ما ذكرناه ، وهذا ظاهر مكشوف ، ومن نظر في الأخبار والسير عرفه ضرورة .

[معاوية والأسرار بالبسملة]

قال الوالد العلامة شيخ العترة شمس الدين أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي ^(٤) رحمه الله عليه في سيرته ما لفظه :

(١) - أبو يوسف : هو القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب ، بن حبيش ، بن سعد بن بجر بن معاوية الأنصاري الكوفي ، ولد سنة ١١٣ هـ روى عن هشام بن عروة ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وعطاء بن السائب وغيرهم ، وروى عن أبي حنيفة ولزمه ، وتفقه به ، وهو أنبل تلامذته ، قال ابن معين : ما رأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث ، ولا أحفظ ولا أصح رواية من أبي يوسف توفي يوم الخميس خماس ربيع الأول سنة ١٨٢ هـ (انظر سير أعلام النبلاء ٥٣٥/٨ ، ٥٣٨ .

(٢) - محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني بالولاء الحنفي أبو عبد الله [١٣١ - ١٨٩] فقيه محدث ، ولد بواسط ونشأ بالكوفة ، وطلب الحديث ، وتفقه على أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، وقدم بغداد وولاه الرشيد توفي بالري ، وكان يقول : إذا أمنت من أعداء زيد بن علي على نفسي فأنا على مذهبه وإلا فأنا على مذهب أبي حنيفة ، انظر الشافعي ٢٣٦/١ .

(٣) - الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي ، عن ابن جريح وغيره ، وتفقه على أبي حنيفة رحمه الله تعالى ، ضعفه أهل الحديث ، مات سنة أربع وخمسين ومائتين ، وكان رأسا في الفقه ، أخرج له أبو عوانة في مستدرجه ، والحاكم في مستدركه ، وقال سلمه بن قاسم : كان ثقة (انظر اللسان ٢٠٨/٢) .

(٤) - أحمد بن محمد بن صلاح بن محمد الشرفي المتوفى سنة ١٠٥٥ هـ أحد أعلام الفكر الإسلامي في اليمن عالم مجتهد مؤرخ من تلاميذ الإمام القاسم بن محمد عليه السلام ، ومن شيوخ أبنائه ، درس عليه الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم ، وأخوه الحسين وأحمد ، وشيخ الإسلام أحمد بن سعد الدين المسوري ، وأحمد بن محمد لقمان ، وله مؤلفات كثيرة منها : كتاب اللآلئ المضيئة في تاريخ أئمة الزيدية خ في ثلاثة مجلدات ، من أشمل التواريخ ، انظر عنه وعن مؤلفاته أعلام المؤلفين الزيدية ، وفهرست مؤلفاتهم .

(واعلم أن الجهر بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** شعار أهل البيت عليهم السلام جميعا وشيعتهم ، والإسرار بها هو شعار أعدائهم .

وكان معاوية يبالغ في نقض شعار أهل البيت عليهم السلام ، ويأمر بالإسرار بها في الأقطار ، وكان من ملك من أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم رضي الله عنهم يأمر بالجهر بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** .

قلت : ومما يدل على ذلك ما ذكره الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام حيث قال ما لفظه : (وقد كان الناس فريقين حرييين وإسلاميين ، فأهل الإسلام في طاعة رجل يزعم أنه إمام ، ويصدق له الأكثر ، وينقاد له الأقل ، ولأهل الحرب دار ، ولأهل الإسلام دار ، ولم يقع لأحد من أهل البيت عليهم السلام استقرار في جهة إلا القليل منهم الداعيان : أبو محمد الحسن ^(١) ، وأبو عبد الله ^(٢) ابنا زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، فإنه لما تمكن الحسن كتب إلى بعض عماله : (قد رأينا أن تأخذ أهل عملك بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما صرح عن أمير المؤمنين في أصول الدين وفروعه ، بإظهار تفضيله على جميع الأمة ، وتنهاهم عن القول بالجبر ، ومكايدة الموحدين القائلين بالعدل والتوحيد ، وعن التحكك بالشيعة ، وعن الرواية في تفضيل أعداء الله ، وأعداء أمير المؤمنين ، وتأمرهم بالجهر بـ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** وبالقنوت في صلاة الفجر ، وتكبير خمس على الميت ، وترك المسح على الخفين وبالحاق حي على خير العمل في الأذان والإقامة ، وأن تجعل الإقامة مثنى مثنى وتحذر من تعدى أمرنا فليس له إلا سفك دمه ، وانتهاك محرمه).

(١) - الإمام الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام المتوفى سنة ٢٧٠ هـ أحد أئمة الزيدية ، ومؤسس الدولة العلوية في طبرستان ، عالم شجاع ، فاضل حسن السيرة ، ثائر بوقع له سنة ٢٥٠ هـ أيام المستعين العباسي ، وخاض معارك كثيرة مع العباسيين ، ودامت ولايته حتى توفي ، انظر التحف ٥٩ ، الإفادة ١٤٧ - ١٤٨ ، المصابيح ، الحقائق الوردية ، اللائح المضيق خ .

(٢) - هو الإمام محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل أحد أئمة الزيدية كان شجاعا عالما فاضلا أدبيا ولي الإمامة في طبرستان بعد وفاة أخيه السابق الذكر سنة ٢٧٠ هـ فأعز الله به الدين ، وأقام مذهب العدل واستشهد سنة ٢٨٧ هـ وأخباره كثيرة انظر التحف ٦٠ ، الإفادة ١٤٨ - ١٥١ ، المصابيح خ ، الحقائق الوردية وغيرها .

ففي هذا ونحوه تنبيه كاف لمن تدبر وعقل ما كان من تغيير كثير من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتحريف كثير من أحكام الله مع اضطهاد الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر في كل زمان إلا القليل منهم فالله المستعان .

[الجهر بالبسملة في جميع الصلوات]

فإن قال قائل : إن أحاديث الجهر بالبسملة في الصلاة لاشك في صحتها ، ولكن المراد بها في الصلاة التي يجهر فيها بالقراءة .

قلنا : هذا تخصيص يفتقر إلى دلالة ، وهي مفقودة ، مع أن من قال بذلك إنما هو تأويل المخالف وتفسيره ، ولم نتعبد بذلك ؛ إذ هو مجرد دعوى تخصيص العموم من غير تخصيص ، وهو لا يجوز لأنه خروج من العموم بغير حجة فهات الدليل على ذلك إن كان فإنك في محل الاحتجاج ، الذي لا يقتصر فيه على مجرد الدعوى ، وإلا وجب التحكم للنص .

وأما المذهب ما لم يكن عن دليل قاطع فلا يعارض الوجوب ، ولا يخص العموم لأن اللفظ عام ، والعلة الموجبة لهذا الحكم عامة ، فالتخصيص حينئذ تحكّم محض .

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام : (لأن العموم دلالة يعمل بها ن وإخراجه من الاستدلال بظاهره لغير وجه يقتضي خروجه عن كونه دليلا لا يجوز) . اهـ

ولما كان لفظ الصلاة هاهنا عاما ، ولا دليل يوجب التخصيص - وجب اجراؤه على عمومته ، لأن لفظ الصلاة إذا أضيف أفاد العموم ؛ إذا لم تقم قرينة كما مر يشهد بذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾^(١) فقوله : ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ جنس مضاف ، والجنس المضاف عند الأصوليين عام ، والعام من الكتاب والسنة يجب التمسك به حتى يعلم تخصيصه .

وأما حديث (صلاة النهار عجماء) إن صح فقد ثبت تخصيصه كما مر ، هب أنا

سلمنا صحته على التنزل فإن قوله: (صلاة النهار عجماء) عام في البسمة وغيرها وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (كل صلاة لا يجهر فيها بـ بسم الله الرحمن الرحيم فهي خداج) خاص فيه ، عام في كل صلاة .

ولذلك نظائر من أمثله عند أهل المذهب (إنما تغسل ثوبك من البول) إلى قوله : (سافح) فهذا عام في كل خارج ، قيثا كان أو غيره ، وقوله: (أود سعة عملاً الفم) خاص ، الخارج منه عام لأنواع القيء ، دما كان أو غيره ، فرجحوا إشار عموم الخصوص ، وأنه لا ينقض ولا ينجس من الدم إذا كان قيثا - إلا ما كان ملاً الفم فكذلك مسألة الجهر بالبسمة سواء .

قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: (وذلك أن لفظ عجماء عام في جميع الأذكار وقد عارضه التعميم بالجهر بالبسمة ، وهو أخص بالمقصود ؛ لأنه نص في البسمة وهذا مما لا يختلف المحققون من الأصوليين في ترجيحه ، وإشار التخصيص به .

والوجه في ذلك : أنه لو لم يؤثر التخصيص به لكان إبطالا للفظه ، وإهمالا لمعناه بلا دليل ولا مرجح ، وذلك لا يجوز ؛ لأنه خطاب حكيم لا يجوز إهماله .

وأيضاً لفظ العام الأخص بالمقصود يجري مجرى المبين ، والعام الغير الأخص يجري مجرى المجمل ، ومن الواجب بناء المجمل على المبين فيكون جمعا بين الدليلين). اهـ

فإن قال: إن الإسرار بالبسمة في العجماء قد صار إجماعاً من المتأخرين كما قال بعضهم ؛ لأنه لم يرو عن أحد منهم الجهر بها فيهما ، فلم لا يكون ذلك تخصيصاً لما ورد من عمومات تلك الأحاديث ؟ .

قلنا ولا قوة إلا بالله : إن هذه شبهة لا حقيقة لها ، وإن كانت مرتسمة في الأذهان وواقعة عند أهل الزمان ، ونكتفي في إزالة هذه الشبهة وبيان بطلانها بما قد أجاب به عما ذكرت بعينه - إمامنا المنصور بالله رحمة الله عليه ، فإنه قد أشبع الفصل في الجواب ، وأذهب من هذه الشبهة كل شك وارتياح بما لاشيء أبلغ منه من الأدلة الواضحة والبراهين اللامحة ، فشفى بحمد الله الغليل بواضح الدليل حيث قال : (إن ذلك لم يكن إجماعاً فيصح التخصيص به .

أما أولاً : فقال بجواز الجهر فيهما زيد بن علي ، وأحمد بن عيسى ^(١) والناصر ، وأبو عبد الله الداعي ^(٢) والمؤيد بالله ^(٣) والمنصور بالله فإن الجهر والإسرار عند هؤلاء هيئة .

قلت : إلا في بعض ~~الأمور~~ فإن الجهر بها وحدها عند المؤيد بالله عليه السلام واجب ذكر ذلك في الإحادة في الجمع بين الزيادات والإفادة .

قال عليه السلام : وفي الشفا ما معناه : (أن ذلك مذهب سائر العترة ما خلا القاسم والهادي وأسابطهما الأوائل عليهم السلام جميعاً ، وذلك يتناول البسملة وغيرها ، وإذا كان كذلك لم يكن ذلك إجماعاً ، أعني الذي ذكرتموه ؛ لتصريح هؤلاء بالجواز ، ومع ذلك إذا عمل بما قلته عامل - آمن من مخالفة الإجماع قطعاً ، واحتاط لدينه بالعمل بما اقتضته النصوص .

وأما ثانياً : فإن إجماع المتأخرين على ذلك ؛ لأنهم لم يحيطوا بجميع الأقوال).
ثم قرر عليه السلام هذا الاستدلال وبينه ، إلى قوله : (فإذا كان الأمر كذلك فما

(١) - الإمام أحمد بن عيسى بن زيد بن علي عليهم السلام [١٥٧ - ٢٤٧] أحد عظماء الإسلام والأئمة الأعلام ، ورموز الثورة على الظلم العباسي عالم كبير محدث حافظ مسند ، عاش في المدينة ، وطلبه هارون الرشيد إلى بغداد ، وسجنه ، ثم فر من السجن ، واستمر مستتراً حتى مات ، انظر معجم رجال الاعتبار .

(٢) - أبو عبد الله الداعي : هو الإمام المهدي لدين الله محمد بن الحسن بن القاسم الداعي إلى الحق [- ٣٦٠ هـ] من أعظم أئمة الزيدية في الجيل والدليم علماً وورعاً ، وجداً واجتهاداً وجهاداً ، خرج إلى فارس فأكرمه عماد الدولة ، وكان أحد قواده ، ثم انتقل إلى بغداد في أيام معز الدولة وأخيه ركن الدولة ، وشيوخه في العلم كثيرون ، وبويع في الدليم ، وعين يابعه الأخوان المؤيد بالله وأبو طالب المارونيان ٣٥٣ هـ وخاض معارك كثيرة ، وتوفي سنة ٣٦٠ هـ ودفن بهوسم ، الإفادة ١٧٣ إلى آخر الكتاب ، وقد زرته والحمد لله ، وهو موجود في محلة داخل الغابات من الطريق العام على بحر قزوين في رأس مرتفع يصل الإزفلة إلى تحت الجبل الذي هو مدفون فيه قريب من عباس أباد الموجود فيه المؤيد بالله عليه السلام .

(٣) - المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون بن الحسين الماروني [٣٣٣ - ٤١١] أحد أعلام الأئمة الزيدية إمام مجاهد مجتهد ، مولده بأمل طبرستان ، ونشأ وتعلم بها وأخذ مع أخيه الإمام أبي طالب على شيخ الزيدية أبي العباس الحسين ، وقام بالإمامة سنة ٣٨٠ ، وبقي في جهاد دائم وكر وفر في بلاد الجبل والدليم حتى توفاه الله إليه يوم عرفة سنة ٤١١ هـ أخباره كثيرة ، ومناقبه غزيرة ، ومصنفاته حمة ، انظر مقدمة الأسامي الصغرى الطبعة الأولى ، ومعجم رجال الاعتبار ، وأعلام المؤلفين الزيدية .

ظنك بمن لم يشتهر له كتاب من معاصريهم ، ومن جاء بعدهم ؛ لأنه ليس كل مجتهد بمصنف ، وما ظنك بأهل الديار الباردة في أقطار الأرض ؟ وفي هذا بحمد الله كفاية كافية في عدم ثبوت ذلك ، فكيف يصح التخصيص بما لم يثبت ؟!

وأيضاً : قد صح لنا عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه في الشفاء وغيره أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (كل صلاة لم يجهر فيها بـ **بسم الله الرحمن الرحيم** فهي آية اختلسها الشيطان) فذلك يفيد التعميم بضرورة الوضع ؛ لأن لفظ كل ونحوه للشمول لغة بلا شبهة ، ولم يرو عنه ولا عن فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام جميعاً ، خلاف ما أفاده ذلك اللفظ كذلك على التحقيق من قول ولا فعل ، وهم صدر العترة ، وإجماعهم متيقن لكونهم عليهم السلام يجتمعون على الفرض ، ويأويهم المنزل ، حتى قال المؤيد بالله والمنصور بالله والأمير الحسين ، والإمام يحيى عليهم السلام جميعاً : إن إجماع العترة لم يقع إلا منهم فقط ، أعني الأربعة عليهم السلام ، وإذا كان كذلك علمنا عدم وقوع الإجماع من متأخري العترة ، على عدم الجهر بالبسملة إلا في العجماوين ؛ لأنه إن وقع أدى إلى إحدى باطلين ، وذلك إما أن يكون نسخاً للإجماع الأول وهو باطل ؛ لأن النسخ لا يقع إلا بالوحي بلا شبهة ، وقد ارتفع .

وإما أن يكون أحد الإجماعين حقاً وما يقابله باطلاً ، وذلك باطل أيضاً ؛ لأن الأدلة القطعية نحو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (إني تارك فيكم) الخبر يقضي أن لا يقع .

وأيضاً : إن لفظ كل ونحوه له حكم مختص من بين سائر ألفاظ العموم ، وذلك أنه لا يجوز تخصيصه إلا بالمقارن من لفظ متصل نحو قوله تعالى : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أو قرينة حالية ، كقضية العقل المبتوتة القاضية بخروج السماء والأرض من شمول قوله تعالى : ﴿تدمر كل شيء﴾^(١) وخروج ذاته تعالى ، وأفعال الخلق من شمول

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١) في قراءة النصب .

وقد ذكر في الفصول ما يقرب من هذا المعنى .

ثم بين عليه السلام الوجه أن لفظ كل كذلك ، في كلام طويل إلى قوله : (وإذا كان الأمر كذلك ، وقلنا بثبوت ذلك الإجماع - أدى إلى أحد ثلاثة أمور كلها باطلة لا محالة ، وذلك لم يخل إما أن يكون هذا الإجماع ناسخا لبعض ما تناوله ذلك العام أو أن العام لم ينسخ شيء من معناه ، وإنما هذا الإجماع باطل ؛ لأنه وقع على خلاف حق ثابت لم ينسخ ، أو أن الإجماع حق ، وأن لفظة (كل صلاة) لم تثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الأول باطل ؛ لأن النسخ لا يقع إلا بالوحي ، وقد ارتفع الوحي ، والثاني باطل أيضا لعصمتهم من الاجتماع على الباطل ، بالأدلة القطعية ، والثالث باطل أيضا ؛ لأن قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (كل صلاة لم يجهر فيها بـ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فهي آية اختلسها الشيطان) قد صح لنا عن آبائنا من شيوخ العترة وأئمتهم عليهم السلام جميعا ، وما أدى إلى الباطل كان باطلا وشاهدا لضده بالصحة ، وأنه حق بلا مرية والله أعلم وأحكم . اهـ

ففي هذا بحمد الله لمن تأمله بعين الإنصاف ما يشفي غليل الصدور ، ويوضح ملتبسات الأمور ، ولكن لمن لم يُعْمِهْ إلف ما قد أَلْفَه من العادة التي لها سلطان قوي فإننا قد رأينا كثيرا ممن قد ألف شيئا ووافقه ، لم يكذب أبدا أن يفارقه ، فالاشتغال بإيراد واضح الأدلة عليه عناء ، والرجاء لاستضاءته بنوره مُنَى ، ونحن إنما وضعنا ما وضعنا منها إثباتا لحجة ، وإزالة للمعذرة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢) .

ولنحس لما صح ذلك من طرائق أئمتنا عن علي عليهم السلام جميعا [نعم المتبوع صلوات الله عليه]^(٣) اتبعناه ، فنحن - بحمد الله - لا نستوحش من كلمات المخالفين

(١) - القمر : ٤٩

(٢) - الأنفال : ٤٢

(٣) - الزيادة من المجموع المخطوط .

سلوك طريق أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب ، عليه صلوات رب العالمين ، الذي قوله حجة ، وفعله بيان للحق ، كما قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (علي مع الحق والقرآن ، والحق والقرآن مع علي) ^(١) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (إذا اختلفتم في شيء فكونوا مع علي بن أبي طالب) وغير ذلك مما لا يحصى كثرة .

[مخالفة بعض أوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم]

وقال إمامنا المنصور بالله عليه السلام عقيب هذه المسألة بعينها ما لفظه : (وأما ما روي في كتب العامة ، مما ينقض رواية أهل البيت عليهم السلام ، فإنهم قد رَوَوْا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما حضرته الوفاة قال : (اتنوني بالكشف والدواة أو اللوح والدواة أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده) فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - يهجر ^(٢) .

وفي رواية : (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غلب عليه الوجع) وقالوا : حسبنا كتاب الله .

وفي رواية ما معناه أنه كثر الكلام وارتفعت الأصوات فبعضهم يقول : لا بد أن يكتب ، وبعضهم يقول : لا ، حتى أتعبوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحوّل وجهه مغضبا وقال : (اخرجوا عني) ^(٣) .

(١) - (علي مع الحق والقرآن والحق والقرآن مع علي) لم أجده بهذا اللفظ والمشهور قوله صلى الله عليه وآله وسلم (علي مع الحق والحق مع علي) أخرجه ابن عساکر في تاريخ ابن دمشق ١٥٣/٣ ، والبغدادی في تاریخ بغداد ١٤ / ٣٢١ ، والحموي في فرائد السمطين ١٠: ١٧٧ والطبرانی في الكبير ٢٣ / ٣٢٩ ، وهو في مجمع الزوائد ١٣٤/٩ ، وله شواهد أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق ، وابن المغازلي في المناقب ٢٤٤ ، وفي المسند ٣١٨/٢ .

(٢) - (إن رسول الله يهجر ، أو غلب عليه الوجع حسبنا كتاب الله) أخرجه أحمد ٢٢٢/١ ، ومسلم رقم ١٢٥٧ ، والكامل ٣٢/٢ ، والطبري ١٩٣/٣ وانظر ترائنا ٤١ ، ص ٣٩٣ .

(٣) - البخاري ٩/٧ ، وفيه قال عبد الله : وكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم .

وروا أحاديث كثيرة بطرق لهم شتى وألفاظ مختلفة في البخاري ومسلم وغيرهما في أنه لا بد أن يطرد عن الحوض طائفة من أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم ، ويقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) ^(١) . وفي بعض الروايات عن أبي هريرة أنه قال : (حتى أرى أنه لا يسلم إلا مثل حمل النعم) ^(٢) .

وروا عن بعض أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا أبريء من النفاق إلا عمر) وجميع ذلك الذي يروى يقضي ببطلان روايات العامة ، إلا ما وقع الإجماع عليه ، أو وافق كتاب الله .

والوجه في ذلك : أنه لا يخلو إما أن يكونوا صادقين فيما روا في الصحابة من ذلك أو كاذبين ، إن كانوا صادقين فقد روا عن المنافقين ، والمحدثين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما في حديث الكنف والدواة ، والله يقول : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوّله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ ^(٣) وكفى بذلك جرحاً ، وإن كانوا كاذبين فقد لزمتهم التهمة في جميع ما روا ، إلا ما وقع الإجماع عليه ، أو وافق الكتاب ولا محيص لهم عن ذلك ولا مدفع ، إلا بالكابرة الشاهدة بباطلهم ، وقد وقع الإجماع على كثير مما روي في أهل البيت عليهم السلام مما يقضي بعدالتهم ورجوع الناس إلى روايتهم . اهـ

[عودة إلى تفسير الإمام القاسم بن محمد عليه السلام]

عدنا إلى ما ذكره إمامنا عليه السلام من تفسير آيات الأحكام من هذه السورة المباركة فقال عليه السلام :

(١) - البخاري الجزء السابع ص ٢٠٦ .

(٢) - البخاري ٢٠٨/٧ .

(٣) - النساء : ١١٥ .

الآية الثانية: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هذه اللام للملك والإختصاص .

دلت الآية الكريمة على أن جميع المحامد التي تليق بذى العزة والجبروت لله خاصة فلا يجوز إطلاق شيء مما كان كذلك من المحامد على غير الله سبحانه إلا ما خصه دليل .

وتدل على أن جميع ما تضمن مدحا من الأسماء فإنه لله سبحانه ولا يقصر على مارواه أبو هريرة من الأسماء الحسنى .

الثالثة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ دلت على أن عبادة الله وطلب الإستعانة من أخلاق المؤمنين ، وأن الواجب على عباد الله الملازمة لهما .

الرابعة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾ دلت على وجوب الدعاء إلى الله سبحانه ، وطلب الهداية منه إلى طريق الحق ، التي هي طريق الذين أنعم الله بأن هداهم إليها ، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إني تارك فيكم ما إن تمسكتكم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) .

الخامسة: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ دلت هذه الآية الكريمة على تحريم الإقتداء بالمغضوب عليهم ، وهم كل من لم يؤمن ، وكذلك كل ضال ، وهم الذين وصفهم الله بقوله سبحانه: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا﴾^(١) الآية . اهـ

[عودة إلى تفسير الإمام القاسم بن إبراهيم (ع)]

عدنا إلى ما نحن بصدد من تفسير الإمام القاسم بن إبراهيم من رواية ولده محمد بن القاسم عنه عليهم السلام جميعا .

تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ قال القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه: هذا أمر من الله لنبيه أن يتعوذ ، وإن يقول هذا القول ، ومعناه : أستجير وألوذ برب الناس ، فالرب : هو السيد المليك مالكهم وفاطهم ، والقادر عليهم والرازق لهم ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ الملك : فهو الذي ليس في ملكه شريك [معارض] ^(١) ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ والإله : فهو الذي تأله إليه ضمائر القلوب ، وهو الرب الذي ليس بصنع ولا مربوب .

وتأويل ﴿مَنْ شَرٍّ﴾ فهو : من كل مفسد مضر . وتأويل ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ الذي يوسوس في صدور الناس ﴿فهو : ما وسوس في الصدور﴾ ﴿مَنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ والموسوس فقد يوسوس بحضوره في الصدور ويخنس ، وقد تكون الوسوسة من الموسوس في الصدور ما يكون فيه من الذكر والخطر . وخنوس الوسواس : مفارقه وغيبته عن الصدور ، ووسوسته : فما ذكرنا من الخطر والحضور ، وما ذكر الله عز وجل في ذلك من الوسواس فقد يكون كما قال الله سبحانه : ﴿مَنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ والناس : فهم الآدميون فأمر الله نبيه أن يتعوذ من شر شياطين الجن والأنس ، وشر شياطين الجن والإنس : فهم المغفون المردة الملاعين من جني وإنسي .

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه : ﴿شَیَاطِینَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ یُوحِیْ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ^(٢) وشياطين الإنس أقوى على الإنسان وأشد عليه من شياطين الجن .

وتأويل ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ فهو : الشيطان الخانس ، فهو يخنس عن أعين الناس فلا يروونه ، ومعنى يخنس : فهو يغيب فلا يرى ، فهو الشيطان - عليه لعنة الله - يوسوس بحضوره في الصدور من الذكر والخطرة ، بالوسوسة والإغواء والفسق

(١) - الزيادة من المجموع المخطوط .

(٢) - الأنعام : ١١٢

والردى ، حتى يدخل بحب^(١) المعاصي في الصدور ، وقد تكون الوسوسة من الفريقين بالمشاهدة والمحاضرة ، وقد تكون منهما الوسوسة بالذكر والخطرات الخاطرة ، وأي ذلك كان في الصدور بخاطرة تخطر ، أو حضور - فهي وسوسة ، كما قال سبحانه من شيطان أو إنسان ، بما يجول منهما في الصدور والجنان قال الشاعر:

وكم أخطر في بال ولا أخطر في بالي^(٢)

تفسير ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تأويل ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾^(٣) أعوذ : هو أستجير ، وتأويل الرب: فهو السيد

- (١) - أي بسبب حب المعاصي يدخل الشيطان في الصدور بالترتين ونحوه .
 - (٢) - في تفسير الغريب للإمام زيد عليه السلام ٤١٥ قال الإمام زيد بن علي صلوات الله عليه : مامن مولود إلا وعلى قلبه الوسواس الخناس ، فإذا عقل فذكر الله تعالى خرج ذلك من قلبه .
 - (٣) - في المخطوط تفسير أئمة أهل البيت المجموع (وسأله عن قول الله سبحانه : ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ فقال: تأويل أعوذ : فهو أستجير .. الخ ما هو موجود هنا .
- في تفسير الغريب ص ٤١٥ عن الإمام زيد قوله تعالى : ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ معناه رب الصبح ، ويقال: الفلق وادي جهنم ، والفلق : الطريق بين الضدين ، ويقال: الفلق الخلق فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتعوذ من شر ذلك .
- وقوله تعالى : ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ فالغاسق الليل ، وقوله تعالى : ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ معناه السواحر ينقشن في الظلم ، وقوله تعالى : ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ معناه من نفس الحاسد وعينه .
- قال المحقق : نقل السيوطي عن أبي حاتم عن زيد بن علي عن أبياته قال : الفلق حب في قعر جهنم عليه غطاء فإذا كشف عنه خرجت منه نار تصيح منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه) الدر المنثور ٤١٨/٦ .
- وفي هامش مخطوط تفسير الأئمة نقل السيد العلامة محمد بن الحسن العجري حفظه الله ما لفظه : روى ابو عبد الله العلوي مؤلف الجامع الكافي رحمه الله في كتابه أسماء الرواة التابعين عن الإمام زيد بن علي عليهما السلام فقال: حدثنا محمد بن الحسين بن غزال الحارثي الخزاز ، قال : حدثنا محمد بن أحمد بن عمرو الجعفي قال : حدثنا محمد بن منصور المقرئ ، قال : حدثنا أحمد بن الحسن بن مروان ، قال: حدثنا الحسن بن فرقد ، قال: حدثنا الحكم بن ظهير عن السدي عن أمير المؤمنين أبي الحسين زيد بن علي عليهما السلام عن أبياته عن أمير المؤمنين الوصي علي صلى الله عليه وسلم في قوله تبارك اسمه : ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ قال عليه السلام : الفلق : حب في قعر جهنم عليه غطاء إذا كشف ذلك الغطاء خرجت منه نار تصيح جهنم من شدة حر ما يخرج منه) .
- أخبرنا أبو جعفر بن محمد الجعفري قراءة قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة ، قال: حدثنا الحسن بن العباس

المليك الكبير ، وتأويل الفلق : فهو الفجر إذا انفلق ، كذلك يقول الناس : انفلق الفجر وبدا إذا تبين وظهر وأضاء ، وفي ذلك وبيانه أشعار كثيرة لا تحصى ، لشعراء الجاهلية الأولى .

[من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد]

فأمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يستعيذ به من شر خلقه في النهار كله ، وأن يستعيذ به من شر جميع خلقه في ليله ، ولا يكون شراً إلا في ليل أو نهار وإلا بعد غسق أو انفجار .

والفلق : فأول الفجر وفلوقه قال لبيد:

الفارج الهم مسودا عساكره
كما يفرج جنح الظلمة الفلق

والغسق: فأول الليل . وغسوقه : ظلمته كما قال ابن عباس : غسق الليل أول الليل وظهوره وظلمته ، فقد أتى على ذلك كله استجارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستعاذته ، وغسق الليل ووقوبه : فهو وجوبه .

وأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مع استعاذته به من شر الليل والنهار أن يستعيذ به - لا شريك له - من شر السواحر والسحار ، والسواحر : هن النفاثات في العقد [وأمره أن يستعيذ به من شر الحاسد عند الحسد إذا حسد] (١) والتفت : هو التفل على العقدة إذا عقدت ، والعُقْدُ : فهي جمع عقدة يعقدها السواحر في خيط ، وسواء كان العقد كبيراً أو غير كبير ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالاستعاذة من شر الحاسد عند حسده .

بن أبي مهران الرازي ، قال : حدثنا سهل بن عثمان الرازي ، قال : حدثنا الحكم بن ظهير عن السدي عن الإمام الأعظم أبي الحسين زيد بن علي عليهما السلام عن آياته عليهم السلام أنهم قالوا : الفلق : حب في قعر جهنم عليه غطاء فإذا كشف عنه خرجت منه نار تصيح جهنم من شدة حرما يخرج منه) إهـ .

قال الإمام القاسم بن إبراهيم في بعض مسائله (بمجموع تفسير الأئمة) ص ٥١٨ ، وأما النفاثات في العقد ، فهن السواحر ، والتفت فهو الرقاء والتفل بالريق ، والعقد : فهو عقد السواحر لعقد كنّ يعقدها في السر والخيط .

(١) - الزيادات من المجموع المخطوط .

وتأويل ﴿إذا﴾ - هاهنا - : عند وسواء قيل : عند ، أو إذا ، معنى هذا فهو معنى هذا [وشر الحاسد ما يكون من ضره ومكره وعداوته وكيده وغير ذلك] وليعلم - إن شاء الله - من قرأ تفسير هذه السور الثلاث وما بعدها من التفسير - ، أن كل ما فسرنا من ذلك كله فقليل من كثير ، وأن كل سبب من كلمات الله فيه فموصول ^(١) بأسباب عند من خصه الله بعلمها من أولي النهى والألباب ، لا ينتهى فيه إلى استقصائه ، ولا يوقف منه على إحصائه ، كما قال سبحانه : ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾ ^(٢) فكلام الله جلّ ثناؤه في الحكمة والتبيين والهدى فما لا يدرك له أحد غير الله منتهى ولا مدى ، وكلام غير الله في الحكمة وإن كثر وطال ، وتكلم فيه قائله بما شاء من الحكمة فأقصر أو أطال ، فقد يدرك غيره من الخلق غايته ومنتهاه ، وكل وجه من وجوه كلامه فلا يفتح وجها سواه ؛ لأن علمه ينفد وكله يحصى ويعد ، وكلمات الله سبحانه كما قال لا تنفذ بإحصاء ، ولا يؤتى على ما فيها من خفايا العلم باستقصاء ، وقليل علمها فكاف - بمن الله - كثيرا ، وكلها فضياء ونور وهدى وتبصير ^(٣) .

(١) - لفظ ب (وأن كل سبب من كلمات الله فموصول) .

(٢) - الكهف : ١٠٩

(٣) - في التفسير المخطوط (ويعد : فإننا بالله نستعين نعلم بأن غيرنا ممن لعله سيقراً كتابنا هذا وتفسيرنا ، أن لولا ما رأينا في الناس من الغفلة والخيرة والإلتباس في معرفة ما جعل الله عز وجل لكتابه من سعة من المخارج وأبان به وفيه من جواد المناهج التي قرب برحمته سبلها ، ونخص بعلم قصدها أهلها لما تكلفنا إنشاء الله من ذلك ما تكلفنا ، ولا عنيانا فيه بوصف ما وصفنا ، لما ينبغي أن يكون عليه اليوم من اهتدى فوجه الله عصمة ورشدا ، من الشغل بخاصة نفسه ، والوحشة من ثقته وأنسه ، ولكننا أحببنا أن يعلم من جهل ما قلنا من سعة هموم الكتاب المكتون ، لما جعل فيه من العلم لأولي الألباب ، سيوقن أن للكتاب ظهورا وبطونا ، وأن فيه بإذن الله لأولي الألباب علما مكنونا لا يظفر أبدا به إلا من كان مريدا فيه لربه ، والحمد لله رب العالمين لا شريك له .

تفسير قل هو الله أحد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قل هو الله أحد﴾ : هو الواحد عزة .

قوله سبحانه : ﴿الله الصمد﴾ الصمد : هو النهاية والمعتمد الذي ليس وراءه مصمود ، ولا سواه إله معبود ﴿لم يلد﴾ تبارك وتعالى ولدا ؛ فيكون لولده أصلا ومحتدا ﴿ولم يولد﴾ فيكون حدثا مولودا ، ويكون والده قبله شيئا موجودا ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ والكفو : فهو المثل والنظير ، والأحد : فهو ما قد تقدم فيه منا البيان والتفسير ، فهو الله الأحد الواحد ، الذي ليس كالأحاد ؛ فيكون له ند في وحدانيته من الأنداد ، وأنه هو الأحد الصمد ، والنهاية في الخيرات والمعتمد ، الذي ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير يعلم ما في السموات والأرض وهو العليم الخبير^(١).

(١) - في تفسير الغريب للإمام زيد بن علي ص ٤٢٣ قوله تعالى : ﴿قل هو الله أحد﴾ معناه : واحد ﴿الله الصمد﴾ فالصمد هو السيد الذي ليس فوقه أحد ، ولا يدانيه أحد ، المرغوب إليه عند الرغائب المفزوع إليه في النوائب ، والصمد : الباقي الدائم ، ويقال : هو الله أحد ليس معه شريك - الصمد : يقال : هو المصمود إليه بالخواتج . ونقل السيد الحكيم عن مجمع البيان للطبرسي ٥٦٦/١٠ عن الإمام زيد بن علي معان أخرى : فقال : قال زيد بن علي : الصمد الذي إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون ، والصمد : الذي أبدع الأشياء فخلقها أضدادا وأصنافا وأشكالاً وأزواجا ، وتفرد بالوحدة بلا ضد ولا شكل ولا مثل ولا ند.

وفي تفسير الغريب أيضا ﴿لم يلد ولم يولد﴾ معناه ليس بوالد ولا مولود ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ معناه : شبه ، ويقال : لم يلد ولم يتولد منه شيء ، ولم يتولد هو من شيء ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ ليس له شبه ولا نظير ، وليس كمثلته شيء .

وفي مجمع البيان في تفسير القرآن ٢٨٠/٦ عن أمير المؤمنين عليه السلام : الله : معناه المعبود الذي ياله فيه الخلق ، ويؤله إليه ، الله المستور عن أدراك الأبصار ، المحجوب عن الأوهام والخطرات ، ومثله عن الباقر أيضا : الأحد : الفرد المتفرد ، و الأحد : الواحد بمعنى واحد ، وهو المتفرد الذي لا نظير له ، وفيه أيضا عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام أنه قال : الصمد : الذي قد انتهى لسودده ، والصمد : الدائم الذي لم يزل ولا يزال ، والصمد : الذي لا خوف له ، والصمد : الذي لا يأكل ولا يشرب ، والصمد : الذي لا ينাম ، وفيه عن الباقر عليه السلام : والصمد : السيد المطاع الذي ليس فوقه أمر ولا ناه ، وعن محمد بن الحنفية : الصمد : القائم بنفسه ، الغني عن غيره ، وعن زين العابدين عليه السلام : الصمد : الذي لا شريك له ، ولا يوده حفظ شيء ، ولا يعزب عنه شيء ، وفيه عن عبد خير قال : سأل رجل عليا عليه السلام عن تفسير هذه السورة فقال : قل هو الله أحد بلا تأويل عدد ،

تفسير ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ أبو لهب : هو عبدا لعزى بن عبد المطلب ، وتأويل ﴿تبت﴾ فهو : خابت وخسرت فيما رجحت وقدرت . واليدان : فهما اليدان المعروفتان ، وهما مثل قد كان يضرب به لمن خاب وخسر فيما يطلب ﴿وتب﴾ يعني أبا لهب كله فيما عليه من أمره وماله .

﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ تأويله : ما أجزأ عنه ماله وكسبه إذا هلك عند الله سبحانه وعطب ، بضلاله وسيء أعماله .

﴿سيعلى ناراً ذات لهب﴾ وذات اللهب من النيران : فهي ذات التوقد الشديد والإستعار ﴿وامراته حمالة الحطب﴾ تأويله : فقد تبت امرأته معه تباً به في الهلكة والعطب ، وتأويل ﴿حمالة الحطب﴾ فقد يكون : حملها للنمائم والكذب الذي كانت تكذبه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتأتي به زوجها وتنقله إليه وتنقله إلى غيره ممن كان من الكفر في مثل ما هي ، وما هو فيه لتفسد بكذبها وتغري وتكثر نمائمها وتسري على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله كما يكثر ويسري الكذوب النمام ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ جيدها : فهو عنقها ، والجيداء من النساء : فهي التي قد تم في طول العنق خلقها .

وتأويل ﴿حبل من مسد﴾ فهو : الحبل الوثيق المحصد ، وقد يكون حبل من قيد والقيد : فقد يكون من جلود الإبل ، وهو أوثق ما يكون من الأحبال ، وهو مثل يضرب لمن يحمل كذبا أو زورا يلقي به [بين] الناس عداوة وشرورا .

وقد قال بعض من فسر فيما ذكرنا من أمر أبي لهب وأمرها : إن تفسير حملها

الصمد بلا تبعض بدد ، لم يلد فيكون موروثا هالكا ، ولم يولد فيكون إلها مشاركا ، ولم يكن له من خلقه كفوا أحد .

للخطب إنما كانت تحمل الشوك فتطرحه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ممره ومسلكه ، وقالوا : إن ﴿حبل من مسد﴾ هو حبل من ليف ^(١).

تفسير ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾ تأويل جاء : هو أتى ، وتأويل النصر : هو ما يفعل من الظهور والقهر ، والفتح من الله فهو : حكم الله بالإمضاء فيما حكم به ، وأوجه من الجزاء لمن أحسن بإحسانه ، ومن عصى بعصيانه ، وهو الذي طلب شعيب عليه السلام ومن آمن معه من الله فقالوا : ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ يريدون أحكم بيننا وبينهم بالحق يا خير الحاكمين فاجزهم جزاءهم وعجل إخراجهم .

وتأويل ﴿ورأيت الناس﴾ فهو : رؤيتهم يدخلون فيما جئت به من الملة والدين . والأفواج من الناس : فهو ما يرى من الجماعات ، التي تأتي من القبائل والنواحي المختلفة ، شبيه بما كان يقد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وفود القبائل والبلدان ، من عقيل وقيم وأهل البحرين وعمان ، ومن كل الأمم فقد كان وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و قدم وآمن بالله [جل ثناؤه] وبرسوله وأسلم .

(١) - في (أ) (حبل من ليف) .

في تفسير الغريب ص ٤١٢ قال الإمام زيد بن علي عليه السلام : قوله تعالى : ﴿ثبت يدا أبي لهب﴾ معناه : عسرت يده وخسر هو ، وقوله تعالى : ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ معناه : لا يغني عنه ذلك بما كسبت يده من معاندة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وقوله تعالى : ﴿وامراته حمالة الحطب﴾ هي أم جميل بنت حرب بن أمية كانت تحمل شوكا فتطرحه في طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويقال : حملها الحطب هو كذبها وشعائتها .

وقوله تعالى : ﴿في جديها﴾ معناه : في عنقها ﴿حبل من مسد﴾ معناه من ليف ، والمسد : حبل اللينف ، ويقال : من حديد ، ويقال : قلادة من درع ، ويقال : المسد حديد البكرة .

﴿فسبح بحمد ربك﴾ تأويل فسبح : فاخشع واشكر الله حامدا له فيما يرى بعينه من إظهار الله له ولدينه ، وصدق وعده في إظهاره على من ناواه ، وما أراه من ذلك بنصره له بكل من والاه في أيام حياته ، وقبل حمام وفاته . وتأويل ﴿واستغفره إنه كان توابا﴾ فأمره بالاستغفار إذ تم ما وعده الله من الإظهار ، وتأويل التواب : فهو العواد بالرحمة وبالنعمة منه بعد النعمة ، وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أنزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ إليه وأمر فيها بالاستغفار ، ورأى ما رأى من الإظهار قال عليه السلام : (نعت إلي نفسي وأخبرت بعلامات موتي) فصدق في ذلك كله نصر الله ، والفتح من الله : الخبر حين أتاه من الله الفتح والنصر ، فتوفي صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرا منصورا ، وقبضه إليه بعد أن جعل ذنبه كله له عنده مغفورا ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه فيه صلوات الله عليه وآله : ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا﴾ فنحمد الله على ما خصه في ذلك من نعمائه ، ونسأل الله أن يزيده في الدنيا والآخرة من كراماته (١).

تفسير ﴿قل يا أيها الكافرون﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين﴾

فهو أمر من الله جلّ جلاله ثناؤه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم - أن يقول لمن كفر بربه ، ولم يوقن بما أيقن من توحيد الله به : لست أيها الكافرون بعابد ماتعبدون مع الله ، ولستم عابدين من التوحيد بما أنا به عابد لله ، وما أنا على حال بعابد لما

(١) - وقال الإمام زيد بن علي عليه السلام في تفسير الغريب ٤١١ قوله تعالى ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾ يعني جماعات في تفرقة .

تعبدون من الأصنام ، ولا أنتم بعبادين لله بالتوحيد والإسلام ، وكذلك من الله الأمر فيمن أشرك بالله ، ما كانت الدنيا والى يوم التناد ، فليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعباد لغير الله ، ولا هم بالتوحيد لله بعبادين ، والصدق - فحمداً لله ذي المن والطول - في ما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول به من القول لا مرية في ذلك ولا شبهة ، ولا يختلف فيه بحسن الله وجهه ، ولذلك وكد فيه من القول ما أكد ، وردد فيه من التنزيل ما ورد (١) .

تفسير ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ تأويله : آتيناك ، وآتيناك : هي وهبناك الكوثر ، والكوثر : فهو العطاء الأكبر ، وإنما قيل : كوثر من الكثرة كما يقال : غفران من المغفرة فعرف الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وغيره من عباده بما مَنَّ الله عليه من نعمته ومنه وإرشاده ، التي أقلها برحمة الله كثير ، وأصغرها بمن الله فكبير ، لا يُظْفَر به إلا بمن الله ، ولا يُصَابُ أبداً إلا بالله .

وتأويل ﴿فصل لربك وانحر إن شانك هو الأبتر﴾ : فأمر منه سبحانه لرسوله

(١) - وقال الإمام زيد بن علي عليه السلام قوله تعالى ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون﴾ من أصنامكم ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ معناه : إلى دين الإسلام ، وقوله تعالى ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام : وذلك أن قريشا قالت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن سرك أن تتبعك فارجع إلى ديننا عما ، ونرجع إلى دينك عما ، فأنزل الله تعالى هذه الآية (غريب القرآن ٤١١) .

وفي تفسير فرات الكوفي بسنده إلى جعفر بن محمد عليهما السلام قال : لما نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذناك ضعف الحياة وضعف المصاة﴾ الإسراء ٧٤ قال : تفسيرها قال قومه : تعال حتى تعبد إلهك سنة ، وتعبد إلهنا سنة ، قال : فأنزل الله عليه ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون﴾ إلى آخر السورة .

وفي المسائل المفردة خ للإمام الهادي عليه السلام قوله عز وجل ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ نزلت في الأسود بن المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، وأبن العاص عرضوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعبدوا ما يعبد ، ويعبد ما يعبدون .

صلى الله عليه وآله وسلم بأن يصلي صلاته كلها لربه ، وربه : فهو الله تبارك وتعالى الذي أنعم عليه من النعم والكرامة بما أنعم به ؛ لأنه قد يصلي كثير من المصلين لغير الله مما يعبدون ، ويصلي أيضا بعض أهل الملة بالرياء وإن كانوا يقرون ويوحدون . وأمره سبحانه إذا نحر شيئا من النحائر قربانا لربه ألا ينحره عند نحره له إلا الله وحده ربه ؛ لأنه قد كان ينحر أهل الجاهلية للأصنام والأوثان ، ويشركون في نحائرهم بينها وبين الرحمن ، ويذكرون أسماء آلهتهم عند نحرها ، ويذكرون الله جل ثناؤه عند ذكرها ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني اسمه خالصا ، وما لم يكن له جل ثناؤه من النحائر والذبايح خالصا .

وأخبر سبحانه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن من شأنه فأبغضه من البشر فهو مخذول ذليل أبتر ليس له عز مع بغضه له وشأنه [ولا منتظر إكراما من الله جل ثناؤه لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وإخزاء لمن شئته] ^(١) وأبغضه ولم يؤد إلى الله في محبته فرضه ، فنحمد الله على ما خص به رسوله من كراماته ، وأوجب على العباد من محبته وولايته ، وقد قيل : إن الكوثر نهر في الجنة خص الله رسوله به وجعله جل ثناؤه في الجنة له ، وقالوا : إن شأنه الأبرار المذكور في هذه الآية قصده هو عمرو بن العاص السهمي ^(٢) خاصة وتأويل ذلك إن شاء الله وتفسيره هو كل من شأه عمرو كان أو غيره ^(٣) .

(١) - الزيادة من المجموع المخطوط .

(٢) - وذكره أيضا في تفسير نور الثقلين ٦٨٥/٥ ، وغزاه إلى كتاب الاحتجاج ، عن الحسن بن علي .

وفي كتاب الخصال عن أبي ذر ، وفي تفسير علي بن إبراهيم كلهم أن الأبرار عمرو بن العاص السهمي ، وبعض المفسرين يذكر أنه العاص بن وائل السهمي أبوه .

(٣) - الإمام زيد (غريب القرآن) قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ هو نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء ، والكوثر : الخير الكثير .

وقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ معناه : صل بجمع ، وانحر بمتى ، يقال : وانحر معناه استقبل القبلة ، وقوله تعالى : ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ معناه مبغضك ، وعدوك الذي لا عقب له ، وذلك العاص بن وائل السهمي ، ويقال :

كعب الأشرف اليهودي (ص ٤١٠) .

تفسير ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون.

قال عليه السلام : تأويل ﴿أرأيت﴾ : هو تعريف وتبيين من الله وتوقيف لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأن آمن بما أنزل من الوحي والكتاب إليه ، لا رؤية مشاهدة وعيان ، ولكن رؤية علم وإيقان ، كما يقول القائل لمن يريد أن يعرفه شيئا إذا لم ذلك الشيء له ظاهرا جليا : أرأيت كذا وكذا يعلم علمه ، يريد بأرأيت توقيفه على أن يعرفه ويعلمه على حدود ما فهمه منه وأعلمه ، فأعلم الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومن نزل عليه معه وبعده هذا البيان ، أن الذي يكذب بيوم الدين من الناس أجمعين ، ويوم الدين : فهو يوم يجزي الله جل ثناؤه العاملين بما كان من أعمالهم في هداهم وضلالهم ، وهو يوم البعث حين يدان كل امرء بدينه ويرى المحسن والمسيء جزاء العامل منهما يومئذ بعينه ، وتكذيب المكذب بيوم الدين فهو : ارتيابه وإنكاره فيه لليقين ، وذلك ومن كان كذلك فهو الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، لارتيابه فيه وتكذيبه ، ولقلة يقينه به دَعَ اليتيم ، ودَعَهُ له : هو دفعه عن حقه ومنعه ، وتكذيب المكذب بالدين ، ولم يحض غيره على إطعام المسكين ، وفيه وفي أمثاله ما يقول الرحمن الرحيم : ﴿ويل للمصلين﴾ يعني من غير أبرار المتقين ، وهم الفجرة الظلمة المنافقون ، ﴿الذين هم﴾ كما قال الله سبحانه : ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ والساهون : فهم الذين عن صلاتهم ووقتها لاهون ، ليس لهم عليها إقبال ، ولا لهم بحدود تأديتها اشتغال ، فنفسهم عن ذكر الله بها ساهية وقلوبهم بغير ذكر الله فيها لاهية ﴿الذين هم يراؤون﴾ وهم : المراءون الذي ترى منهم عيانا الصلاة ، وقلوبهم بالسهو والغفلة عن ذكر الله مملأة .

﴿ويمنعون الماعون﴾ وهو ما جعل الله فيه العون من المرافق كلها ، التي يجب العون

فيها لأهلها من غير مفروض واجب الزكوات ، وما ليس فيه كثير مؤنة من المعونات مثل نار تقتبس أو رحي أو دلو يلتمس ، وليس في بذله إضرار بأهله ، وكل ذلك وما أشبهه فماعون يتعاون به ، ويتبذله بينهم المؤمنون ، ومانعوه بمنعه له من طالبه فمانعون ، وهم كلهم بمنعه لغيرهم فذامون ، وما ذكر الله سبحانه من قوله : ﴿فويل للمصلين﴾ فقول لمن كان قبله ، من ذكره بمنع الماعون ، موصول في الذم والتقييح وما يعرف في التقييح فصغيره صغيرة ، وكبيره كبيرة ، وكله عند الله فمسخوط غير رضى ، وخلق دني من أهله غير زكي ، تحب مبايئته ولا تحل مقارنته ، إلا لعذر فيه بين ، وأمر فيه نير والحمد لله مقبح القبائح ، والمنان على جميع خلقه بالنصائح الذي أمر بالبيان والإحسان ، ونهى عن التظالم والعدوان ^(١)

تفسير لا يلاف قريش

﴿لَا يَلَافُ قَرِيْشٌ﴾

﴿لَا يَلَافُ قَرِيْشٌ﴾ يلافهم رحلة الشتاء والصيف المعنى : هو إلفهم وإيلافهم قريش من ؟ أنفسهم وحليفهم ، ومن جاورهم في الحرم ، ولقيفهم ، فكل من كان

(١) - غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام (٤٠٩) قوله تعالى : ﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ معناه يدفعه ويقال : يتركه ، ويقال : يقهره ويظلمه ، وقوله تعالى : ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ معناه : عن مواقيتها ، وقوله تعالى : ﴿ويعتصمون الماعون﴾ معناه : الزكاة المفروضة ، ويقال : وهو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس والقدر والدلو ، وما أشبه ذلك ، والماعون : الطاعة ، والماعون : العطية والمنفعة ، والماعون : بلسان قريش : المال ، ويقال : الماعون المهنة وفي مجمع البيان ٢٤٨/٦ عن علي عليه السلام وابن عباس ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ يريد المنافقين الذين لا يرجون لها ثوابا إن صلوا ، ولا يخافون عليها عقابا إن تركوا ، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها ، فإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء ، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا ، وهو قوله : ﴿الذين هم يراؤون﴾ . وفيه أيضا عن جعفر الصادق سأله يونس بن عمار عن قوله : ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ أي وسوسة الشيطان ؟ فقال : لا كل أحد يصيبه هذا ، ولكن أن يغفلها ، ويدع أن تصلى في أول وقتها ، وعنه أيضا : هو الترك لها والتواني عنها .

وفيه أيضا ص ٢٤٩ ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ﴿ويعتصمون الماعون﴾ قال : هي الزكاة ، وعن الإمام الصادق : هو القرض تقرضه ، و المعروف تصنعه ، ومتاع البيت تعبده ، ومنه الزكاة .

يسكن في الحرم في مسكنهم ، ويأمن بمكانه معهم في الحرم بأمنهم ، ويرحل معهم إذا أراد أمناً الرحلتين ، وينتقل معهم الطعام والإدام ^(١) في السنة نقلتين ، لا يعرض لهم أحد من العرب بقطع في الطريق ، وليسوا في شيء مما فيه غيرهم من الخوف والضيق والعرب كلهم خائفون جياع ، وهم كلهم آمنون شباع ، حرمة البيت عند العرب وتعظيمه وإجلاله ، ولأكبارهم القطع على سكان الحرم ونزأله ، فذكرهم في ذلك تبارك وتعالى بنعمته ، وبما من به تعالى من بركة الحرم وحرمة .

وفي ذلك وذكره وما ذكرنا من أمره ما يقول الله سبحانه : ﴿أولم تكن لهم حرماً آمناً نجى إليه ثروات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وفيه ما يقول الله سبحانه : ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ ^(٢) .

وتأويل ﴿فليعبدوا﴾ هو فليوجدوا ، ومعنى فليوجدوا : فهو ليخلصوا ، ومعنى ليخلصوا : فهو ليفردوا بعبادتهم ، وليخصوا ﴿رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ الذي بمكانهم منه ، وبما كان من مجاورتهم له - أطعموا من جوع ، وأؤمنوا من خوف ، فلم يجوعوا جوع الجائعين ، ولم يخافوا خوف الخائفين ، فكلهم يعلم ويقول : إن البيت بيت الله ذي الجلال والإكرام ، لا بيت ما عبدوا دونه من الملائكة والأصنام ، وأن الله سبحانه هو الذي حرم الحرم ، وجعل له تبارك وتعالى الجلالة والكرم ، لا الملائكة المقربون ، ولا الأصنام التي يعبدون وأمرهم جل ثناؤه أن يعبدوه وحده ، وأن يوجبوا شكره وحده ، على ما صنع لهم وأولاهم ، ووهب لهم بحرمة بيته وأعطاهم ^(٣) .

(١) - اللفظ في (أ) وينتقل معهم الطعام والإدام معهم في السنة نقلتين .

(٢) - العنكبوت : ٦٧

(٣) - في تفسير الإمام زيد (غريب القرآن ص ٤٠٨) قوله تعالى : ﴿لا يلاف قريش﴾ معناه : نعمتي على قريش ، وقوله تعالى : ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾ كانت لقريش رحلتان رحلة الشتاء إلى الحيشة ، ورحلة الصيف إلى الشام للتجارة وقوله تعالى : ﴿وآمنهم من خوف﴾ أي من الجذام ، ويقال : من أن يعيروا في حرمهم . وقال الطبرسي في مجمع البيان ٥٤٥/١٠ : رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، وقال الفراء في معاني القرآن ٢٩٤/٣ : رحلة الشتاء إلى الشام ، ورحلة الصيف إلى اليمن .

تفسير ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل﴾ .

معنى ﴿تر﴾ أى في مخرج التأويل : ليس هو برؤية العين ، ولكنه علم اليقين ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم ير ذلك بعينه ، ولكنه رآه بعلمه ويقينه . وبما ذكر الله جل ثناؤه عنه ، وبما وصفه الله به منه ، وسواء قيل : ألم تر ، أو قيل : ألم تعلم ، معناهما واحد في اليقين والعلم .

وتأويل ﴿كيف فعل ربك﴾ هو كيف صنع ، وأصحاب الفيل : فهم من جاء معه أو بعث به وإن تخلف عنه ، فكل من كان للفيل صاحبا من بعث وإن لم يصحبه ومن كان له مصاحبا .

وتأويل ﴿كيدهم﴾ فهو إرادة مريدهم ، والإكادة : فهي الإرادة كما قال الشاعر :

كادت وكدت وتلك خير إرادة لولا الوشاة بأن نكون جميعا

وذلك أن أصحاب الفيل كادوا ، ومعنى ذلك : هو أرادوا أن يخربوا الكعبة ويجعلوها متهدمة خربة ، لأن العرب خربت كنيسة كانت يومئذ للحبشة ، وكان يومئذ فيهم وملك عليهم رجل من العرب من أهل اليمن يقال له : أبرهة بن الصباح وكان يدين دينهم فهو الذي بعثهم فأرسل الله سبحانه على أصحاب الفيل كما قال تبارك وتعالى : ﴿طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾ لا يصيب حجر منهم أحدا إلا قتلته وأهلكته ، ولم يكن له بقاء معه ولا بعده ، والطير الأبابيل : فهي الطير الكبير الأراعييل^(١) التي تأتي من كل جهة ، ولا تأتي ناحية

(١) - الرعييل : هو اسم كل قطعة متقدمة من خيل وجراد ورجال وطير وأبل وغير ذلك ، والجمع أراعال ، وأراعييل ، فلما أن يكون أراعييل جمع الجمع ، وإما أن يكون جمع رعييل كقطيع وأقاطيع ، انظر لسان العرب ٢٨٧/١١ ط دار صادر .

واحدة ، والسجيل: فهو فيما يقال : الطين المستحجر الصلب الذي ليس فيه لين فهو لا يقع على شيء إلا حطمه وقتته وهشمه ، وجعله كما قال الله سبحانه كالعصف المأكول ، والعصف : فهو عاصفة قصب الزرع البالي المدخول^(١) الذي قد دخل وأكل وتناثر وتهلhel ، والمأكول منه فهو الذي لاجوف له ، والذي قد أنهيت جوفه كله^(٢).

تفسير الويل لكل همزة لمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخذه كلا لينبذن في الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة﴾

تأويل ما ذكر الله من الويل : ما يعرف من الحرقه والعويل ، والخزي الكبير العظيم الجليل ، والهمزة من الناس : فهو من يغتاب صاحبه ويغمزه ، والهمزة واللزمة : فهو الذي يعيب حقا أو محقا ويهمزه ، والهمزة : فهو الباخس المغتاب ، واللزمة : هو الهامز العياب . وجمعه للمال : فهو اكتنازه له واجتهاده ، وتعديده له : فهو إرصاده له وإعدادده بما في يده من ماله لما يخشى من نوائب حاله .

وتأويل ﴿يحسب﴾ هو يحسب استفهاما وتوقيفا وتبيانا له وتعريفا على أن ما جمع وأعد من مال لنوائب مكروه بحال لن يخلده فينقذه ، ولن يدفع عنه ويقيه ما يخشى ويتقى من مكروه النوائب ، كيف وهو لا يدفع عنه من الموت أكبر المصائب ! لا ينتفع

(١) - في المعجم الوسيط : دَخَلَ دَخَلًا ، ودَخَلًا : فسَد داخله وأصابه فساد أو عيب (دَخِلَ) مثل دَخِلَ ، والحب : سوس ، والدَّخَل : الفساد والعيب ، والداء ، والريبة .

(٢) - في تفسير الإمام زيد (غريب القرآن ٤٠٧) قوله تعالى : ﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل﴾ والطير جماعة ، وأبابيل جماعات ، قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام : لها خراطيم مثل خراطيم الطير وأكف مثل أكف الكلاب .

وقوله تعالى : ﴿ترميمهم بحجارة من سجيل﴾ معناه من حجر وطين ، ويقال : السجيل : الشديد وكانت تحمل الحجارة في أطافيرها ومناقيرها ، أكبرها مثل الحمضة ، وأصغرها مثل العدسة فترسل ذلك عليهم فتصير أجوافهم كالعصف المأكول ، وهو ورق الزرع الذي يسقط عليه الدود فتأكله ، ويقال : دقاق التبن ، ويقال : ورق كل نابت .

عند الموت به ، ولا بكده فيه وكسبه ، وكذلك كلما أَرَادَهُ اللهُ به من ضرر سوى الموت ، فليس يقدر له يجمع ماله وإعداده ، على خلاص ولا فوت ، في عاجل دنياه وكذلك هو في مثواه يوم القيامة إذا نبذ في الحطمة ، ونبذه فيها : إلقاؤه إليها والحطمة : فهي الأكل لأهلها باستعارها وحرها ، وهي النار التي جعل الله وقودها كما قال سبحانه بما جعل من حجارتها ، وأهلها في قرارها ، وفي ذلك ما يقول تبارك وتعالى للمنذرين : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١) فنار الآخرة جعلت نارا فطرها الله يومئذ افتطارا ، من غير حديد ولا حجر ولا شجر ، ولا أصل لها قبلها مفتطرة ، كما نراه من هذه النار التي جعل أصلها من الحجر والأشجار ، كما قال سبحانه : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾^(٢) ولو كانت نار الآخرة كهذه النار ، لكان وقودها بما توقد هذه النار من أشجار ، ولكن الله عز وجل جعل أصلها حجارتها التي فيها وأهلها ، فتوقدت واستعرت لذلك بهم ، كما يوقد أهل هذه النار نارهم بحطبهم ، فأهلها حطبها كما هم حصبها كما قال الله سبحانه : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾^(٣) فأهل جهنم يخلودها ودوام وقودها فيها خالدون ، لا يفنون أبدا ولا يبيدون ، كما يعود الحطب رمادا خامدا ، ورفاتا جامدا ، كذلك تعود جلود أهل النار - نار الآخرة - رفاتا ، وشيتا هامدا باليا ، مائتا فيجدد الله ذلك بعد ثلاثه ، وتهافته تجديدًا ؛ ليخلد الله بالتجديد له أهل النار فيها تخليدا ، كما قال سبحانه : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدُلَانِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٤) فنار الآخرة أبدا بحجارتها وأهلها موقدة وحجارتها وجلود أهلها كلما بليت فمعادة ، تقدير من عزيز حكيم ، لبقاء عذاب الجحيم .

(١) - البقرة : ٢٤

(٢) - الأنبياء : ٩٨

(٣) - الواقعة : ٧١ - ٧٢

(٤) - النساء : ٥٦

وتأويل قوله: ﴿تطلع على الأفئدة﴾ فهو : ما يصل إلى قلوب أهلها من الكرب والشدة ، وتأويل ﴿إنها عليهم موصدة﴾ فهو : مطبقة مغلقة ، وإغلاق جهنم فهو ما ذكر الله عز وجل من أبوابها ، والإيصاد للأبواب الذي هو التغلاق عليهم فهو من شدة عذابها ، وما ذكر الله من الإطباق والغلق : فهو أكبر الغم والألم والخرق ، كما قال سبحانه : ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾^(١).

وتأويل ﴿في عمد ممددة﴾ بعد ذكره تبارك وتعالى الموصدة ، فهو : ما يغلق به أبواب جهنم الموصدة المطبقة ، في عمد معروضة على أبوابها ممدودة ، كالمهاج والأوصاد التي تجعل على الأبواب المغلقة ، و[نحو] ذلك من الأغلاق ، والغلق : فأوثق ما يغلق به كل مغلق أراد إغلاق الباب ، أو إطباقا ، وذلك أنه يأخذ ما في طرفي المغلق كله ، وليس يأخذ ذلك من الإغلاق كلها غلق ، وإنما يغلق كل غلق من الأبواب ما يغلق ، إن كان قفلا ، وإنما يغلق واسطة الأبواب ، وإن كان غير ذلك فإنما يغلق جانبه من كل باب ، فأما المهج والرصد فيغلق الباب كله ، ويستقصى في الغلق آخره وأوله ، ولا سيما إذا كان ممتدا ثابتا ، مهجا كان أو رصدا ، فأبواب جهنم وأغلقها كلها ، كالمقامع التي ذكر الله من الحديد لا تبعد ، كما مقامع أهلها فيها إذا أرادوا أن يخرجوا منها حديد ، كما قال سبحانه : ﴿ولهم مقامع من حديد﴾^(٢) ألا فسبحان من جمع في جهنم ما جمع من أنواع الخزي والضيق للظلمة الملحدين فقليل في يوم البعث لهم جميعا : ﴿ادخلوا أبواب جهنم خالدين﴾^(٣).

(١) - السجدة : ٢٠

(٢) - وقال الإمام زيد عليه السلام قوله تعالى : ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ الويل واد في جهنم ، والهمزة : الطعان ، والهمزة : الذي يأكل لحوم الناس ، وقوله تعالى : ﴿كلا لينبذن في الحطمة﴾ معناه : ليرمين به في نار الله الموقدة ، وقوله تعالى : ﴿إنها عليهم موصدة﴾ معناه مطبقة ، وقوله تعالى : ﴿في عمد ممددة﴾ وهو جمع عمد ، يقال : قيود طويلة (غريب القرآن ٤٠).

(٣) - الزمر : ٧٢

تفسير ﴿والعصر﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ فالعصر : قد يكون من آخر النهار ، ويكون الدهر ، فَأَشْبَهُ ذَلِكَ - والله أعلم بالتأويل ، وما يصح فيه من الأقاويل - أن يكون العصر الذي بعد الظهر ، لا العصر الذي من الدهر ، وإن كان كل ذلك وقتاً ، وكان ذلك لكلا الوقتين نعتاً ، كان أفضل الأوقات ما كان لصلاة من الصلوات ، وكان تأويل القسم به أشبه وأفضل وأوجه ، والله أعلم وأحكم .

وكان تأويل أنه قسم كما أقسم بالفجر والليالي العشر لفضلهما وقدرهما وما ذكر الله من أمرهما . والعصر والأعصار من النهار : فهو بعد الظهر والإظهار ، وإذا كان الدهر وقتاً كله كان ما كان منه للصلوات هو أفضله ، والأفضل هو الأولى بالتقدم في القسم وغير القسم .

وأما تأويل الخسر : فهو النقص في الخير والبر ، ولم يكن من الناس في خير ولا بر فهو كما قال الله عز وجل : ﴿لفي خسر﴾ وكل الناس فغير مفلح ولا رابح ، إلا من عمل لله بعمل صالح كما قال سبحانه : ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ .

وتأويل الإيمان : فترك كبائر العصيان .

وتأويل : ﴿وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ فهو : عملهم لله صالحات ، وهي أولى الأعمال بهم ، لما فيها من رضى ربهم ، وصلاحهم وصلاح غيرهم .

وتواصيهم بالحق : فهو تأمرهم بطاعة الحق ، وتواصيهم بما ذكر من الصبر : هو تأمرهم بالمقام على البر ، وعلى ما يعارضهم في المقام عليه من اليسر والعسر وما يقاسون فيه من منابذة المبطلين ، ومن ليس بمراقب ، ولا متق لرب العالمين ، من الفجرة المستهزئين ، والجورة المتغلبين المتمردين .

تفسير ﴿أَهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فتأويل ﴿أَهَاكُمُ﴾ : هو أغفلكم عما عليكم في المعاد ، ولكم بما أنتم فيه من تكاثركم بالولد والمال والعشائر ، وتفاخركم بما في ذلك عندكم من الخيلاء والمفاخر ، ولذلك وبه شغلوا وألهوا ، فغفلوا بكدهم فيه وكدهم وتكالبهم عليه ، وشحهم عن رشادهم ، وتيقن معادهم ، ولما في التكاثر بالأموال ، ومافي التشاغل بالتكاثر من الإشتغال طهر الله منه خيرته من الرسل والأبرار ، فلم يكونوا بأهل مكاثرة ولا بتجار .

وتأويل ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ هو مصيرهم إليها ، واتصالهم بالآخرة ، وإشرافهم عليها .
وتأويل ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ هو تكرير من الله تبارك وتعالى في ذلك كله عليهم للتعريف والتبيين ، إلا ترى كيف يقول سبحانه : ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ يقول جل ثناؤه : لترون ما وعدتم منها رأي العين عين يقين .

وتأويل ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ﴾ هو : لتوقفن حيثنذ على ما كنتم فيه قبل متوفاكم ، وفي حياتكم ودنياكم من النعيم والمن العظيم ، الذي كانوا يتنعمون به في الحياة الدنيا وبقائها ، وقبل ماصاروا اليه من الآخرة وشقائها ، وليس مما نزل الله عز وجل من آياته في هذه السورة ولا غيرها طويلة ولا قصيرة إلا وفيها بمن الله دلالات خفية باطنة وظاهرة منيرة ، ففي أقل ظاهرها ما كفى وأغنى ، وفي خفيها من الحكمة والبركة ما لا يفنى .

تفسير ﴿الْقَارِعَةُ﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ فالقارعة : ما هال من الأمور وقرع وهجم على أهله بغتة بأهواله فأفزع .

وأما تأويل مآذراه فهو: تعظيم منها لمآراه ، وماسيعانيه فيها ويراه من الأهوال والأمور الفادحة ، وجزاء الأعمال الصالحة والطالحة ، حين تقوم القيامة ، وتدوم الحسرة والندامة على كل خائب وخاسر ، وظالم معتد فاجر ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه عند بعثه فيها لخلقه المبعوث : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ وتأويل ﴿يَكُونُ﴾ فهو يصير ، والفرش : فطير صغير خفيف عند من يراه حقير ، من همج الأرض والطير ، تمثل به العرب في الكثير ، لأنه كثير ضعيف ، وطير محتقر خفيف فتقول إذا استكثرت شيئا أو استضعفته ، واستقلت وزنه فاستخفته : ما هذا إلا كالفرش في الخفة والقلة ، وللقوم إذا استكثروهم كالفرش في الكثرة والجمّة .

انبثاته: فهو انبعائه متحيرا وطائرا في كل وجهة من الجهات ، يموج ويصدم بعضه بعضا في تلك الوجوه المختلفة ، فمثل الله سبحانه الناس في يوم البعث بما وصفنا من الفرش المنبث ، الذي يموج بعضه في بعض ، ويسقط تهافتا على الأرض لما ذكرنا من كثرت ، وموجه وحيرته واختلاف جهاته ، ويومئذ يدعوه من تلك النواحي المختلفة الداعي فيستجيبون لدعوته كلهم جميعا باستماع ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾^(١) تأويلها : لا اختلاف لهم بعد معه كما كانوا يختلفون في المذاهب قبل دعائه ، وماسمعوا وهم في حيرتهم من ندائه ، كما قال سبحانه : ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾^(٢) وهو يوم الإصاخة بالأسماع لتسمع صوت المنادي الداعي ، و[في] ماذكرنا من هذه الإصاخة [ما قيل في يوم الصاخة] : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرَءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٣) .

وتأويل : ﴿تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ فالعهن : هو الصوف الناعم ، الذي ليس يفرد وذلك من الصوف ، فما يلين للنفش في اليد ويتنفش ويتجافى ، ويعود خفيفا أجوفا وقد تفرقت أجزاءه ، وبان جفاؤه فعاد قليله كثيرا ، وصغيره كبيرا

(١) - طه : ١٠٨

(٢) - ق : ٤١

(٣) - عبس : ٣٣ - ٣٧

لتحلله وتمزقه ، وتزايله وتفرقه ، كذلك تبلى الجبال إذا بليت ، وتفنى يوم القيامة إذا فثيت ، فتكون كالسراب الرقاق ، في الفناء والهي والإمتحاق ، وفي جزاء الأعمال بعد تلك الأحوال يقول الله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ تأويلها : من ثقل في الوزن بره واحسانه فسعد بثقله ، وثَقُلَ بعمله .

وتأويل ﴿ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ فهو في عيشة مرضية زاكية ، وإنما يعرف أمر الخفة يومئذ واليوم والثقل بما يعرف منها اليوم في الحال والقدر والعمل ، وليس نعلم الخفة والثقل يومئذ في المقادير والأوزان بمثاقيل يوزن بها من خف وثقل وجرمان^(١) ولكنه يعرف - والله محمود - بما ذكرنا من العبرة والبيان ، وماتعرفه العرب العاربة في اللغة واللسان .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ فتأويله : من خف به فسقه وعداوته ﴿ فَأَمَّهُ هَآوِيَةٌ ﴾ تأويل أمه : فهو من مصيره ومهواه ، وما أمُّه !! ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ فكانت النار الحامية التي صار إليها أمه ، التي نسبه الله إليها ؛ إذ كانت له مقرا ومأوى ، وَقَرَّ بِهِ فِيهَا الْمَصِيرُ والمثوى ، والنار الحامية : فهي التي لا يطفئها مطفية ما كانت باقية أبدا ، و التي من دخلها كان فيها مخلدا .

تفسير ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[وسألت أبي رحمه الله عليه عن قول الله سبحانه]^(١) : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ فالموريات قدحا فالغيرات ضبحا فالعاديات : من كل ذات ظلّف أو حافر صلب أو خف ، من كل بهيمة جنية وحشية أو أنسية .

وتأويل قوله : ﴿ ضَبْحًا ﴾ فهو : عدوا ومرحا ، و ﴿ الْمَوْرِيَّاتِ قَدْحًا ﴾ فهو : مايورين

(١) - في أوجريان ، وفي ب جرمان : بمعنى الجرم بكسر الجيم ، الذي هو بمعنى الحجم والجسم .

(٢) - ما بين القوسين زيادة من المجموع المخطوط .

ويقدح إذا عدون وضبحن ، بصلافة الأظفار والخوافر والأخفاف ، من نار الحجارة والحصاة ، والأرض الصلبة الخشنة ، فيورين النار من ذلك كله بإيقاد ، كما تُورَى وتُقدَح النارُ بالزناد .

و﴿المغيرات صباحا﴾ فيما أرى - والله أعلم - خاصة : الخيل بينهن وبين غيرهن من ذوات الحافر في العدو والقدر واليمن من الفرق النير الجليل ، ولخاص مافيهن من النعمة والبركة والخير قُدِّمَ إن شاء الله في الذكر على البغال والحمير ، فقال الله سبحانه : ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾^(١).

وتأويل ﴿فأثرن به نقعا﴾ والنقع : هو الغبار المثار ﴿فوسطن به جمعا﴾ هو : توسطهن بغبارهن للجمع الذي عليه كان المغار .

وتأويل ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ فهو الكافر لنعم الله بكبائر عصيانه الفاجر العنود . وتأويل : ﴿وإنه على ذلك﴾ : من حاله وعدوانه ﴿لشهيده﴾ : لربه بنعمته وإحسانه بما يرى عليه من النعمة والإحسان ، وما بين فيه من حسن الصنع والأتقان وتأويل ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ فهو : أنه لحب للخير مريد ، لا يضعف فيه ضعفه في غيره من طاعة الله وأمره ودينه ، وكفى بذلك فيه شرا ، ومنه لربه فيه كفرا ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ من عظام الموتى ﴿وحصل ما في الصدور﴾ مما يبطن اليوم من غير الله ويخفى ، وما سيظهر حين يحاسب كل امرء ويجزى ﴿إن ربهم بهم يومئذ خبير﴾ يومئذ يوم البعثة والتحصيل ﴿لخبير﴾ لا يخفى عليه منهم يومئذ خير ولا شرير ، وكما لا يخفى عليه اليوم من أعمالهم صغير ولا كبير .

تفسير ﴿إذا زلزلت الأرض﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[وسألت أبي صلوات الله عليه عن قول الله سبحانه]^(٢) : ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك

(١) - التحل : ٨

(٢) - ما بين القوسين زيادة من المجموع المخطوط .

أوحى لها ﴿ فتأويل ﴾ زلزالها : فهو ما ينزل بها وبأهلها من أمر الساعة وأهوالها وفي ذلك ما قلنا به من بيانه ، ما يقول الله سبحانه في يوم الساعة وأهواله : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ ومن بيان ما قلنا به في الزلزلة من القول ، وأنه من الشدائد والهول - قول رب العالمين عند نزول الشدة والهول في يوم الأحزاب بالمؤمنين ﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ (١).

تأويل اخراج الأرض لانتقالها : فهو طرحها لما كان عليها من أحمالها ، والانتقال : هي الأحمال ، وأحمال الأرض : فما جعل الله عليها ، وكان من الثقل الذي هو الإنس ساكنة فيها ، من ميت وحي ، وفاجر وتقي ، وكيف لا تكون مخرجة لهم منها وكلهم فمتمقل إلى دار القرار عنها ، وأرض الحياة الدنيا فأرض بائدة فانية ، وأرض دار القرار خالدة باقية ، ومن أُنقال الأرض - من في قبورها ، ومن كان من الموتى على ظهورها ، فمن كل ذلك طائفة تتخلى ، من قبل أن تبيد وتبلى ، وفي تخليها من ذلك كله واخراجها عنها له ما يقول الله جلّ جلاله من أن يحويه قول أو يناله : ﴿ وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ﴾ تأويل ذلك : أوحشت الأرض من أهلها وأخلت ، فنشر موتاهم نشرًا ، وحشر الموتى إلى الموقف حشرا ، وعند ذلك من حالها ، وما يخرج من أُنقالها ، يقول الإنسان ، والإنسان : فهو الناس كلهم عندما يرون من زلزالها ، وأخراجها لما كان فيها من أُنقالها : مال الأرض وما شأنها ؟ فتحدث الأرض حينئذ بخبرها أعيانها بأن الله سبحانه [قد] أوحى لها ، ففقطعت مدتها وأجلها فحان فناؤها وانقطع بقاءها ﴿ يومئذ يصدر الناس ﴾ كما قال الله سبحانه : ﴿ أشتاتا ليروا أعمالهم ﴾ وتأويل أشتاتا : هو يصدرون عن موردتهم في حشرهم صدرا أشتاتا متفاوتا ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، خالدا كل فريق منهم فيما صار إليه من مصير ، فيرى كل من عمل مثقال ذرة من خير وشر - ما قدم لنفسه من عمل في فجور أو بر ، كما قال سبحانه : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ فتأويل يراه : فهو يجزاه .

تفسير ﴿لم يكن﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾ فأهل الكتاب : هم أهل التوراة ، والتوراة : فهي الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام ، وأهله وحملته اليهود والنصارى ، وهم أهل ملل كثيرة شتى ، فاليهود منهم فرق كثيرة مختلفة والنصارى أيضاً فأصناف كثيرة متصنفة .

فمن اليهود : اليهودية [ومنهم فرقة يقال لها : السامرية ، ومنهم فرق أخرى تعرف وتسمى .

ومن النصارى : الملكية ، ومنهم اليعقوبية^(١) ومنهم : النسطورية في فرق أخرى تعرف أيضاً وتسمى ، ولسنا نحتاج في هذا التفسير إلى ذكرها ، ولاتفصيل ماهي عليه من أمرها ، غير أنهم كلهم - وإن اختلفوا في مذاهبهم - أهل الكتاب .

والمشركون : فهم أهل الإثبات مع الله للآلهة والأرباب ، وهم مشركوا العرب ومن كان يُقرُّ برب ، ومن الناس من ينكر ويحجد أن يكون للأشياء رب يعبد ويزعم أن الأشياء لم تنزل كما ترى ، ولا يُثبت في الأشياء تدبيراً ولا أثراً ، فيكابر في ذلك عماية وجهلاً ما يدركه بعينه عياناً وقيلاً ، من الصنع النير والتأثير والبدع المتقن ومحكم التدبير الذي لا يخفى على عمي ولا بصير ، وإن لم يقر بمعاد ولا مصير ، وليس أولئك ولا من هو كذلك من أهل التوراة ، ولا من أهل الكتاب ، ولا من يقر بآله ، ولا برب كالعرب ، ومن كان مشبها للعرب ممن يقر بالله وإن أشرك مع الله ، فإنما أولئك عند من يعقل كالبهائم السائمة ، وإن لزمهم الحجة بما جعل الله لهم من الجوارح السالبة التي قطع الله بها عذرهم ، وألزمهم بها كفرهم ، وأولئك فليسوا ممن ذكر في سورة لم يكن ، وإنما ذكر فيها من يقر برب وإن لم يؤمن ، من كفر أهل الكتاب والمشركين فقال سبحانه : ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين

(١) - ما بين الأقواس في هذه السورة من المجموع المخطوط .

منفكين ﴿والإنفاك والفك : هو المجانبية لما هم عليه والترك ، وتركهم : فهو لإشراكهم وانفكاكهم من عقد شركهم ، وفريتهم فيه على الله وإفكهم .

وتأويل ﴿كفروا﴾ فهو لم يشكروا ؛ لأن من لم يشكر الله تبارك اسمه بترك عصيانه فكافر وإن كان مقرا ومعتقدا لمعرفة الله وإيقانه كإبليس الذي ذكر الله سبحانه معرفته به ، وذكر كفره لما ارتكب من الكبائر بربة ، وكذلك كل من ارتكب كبائر تسخط من أحسن اليه فقد كفره ، ومن أتى ما يرضاه وتولى أوليائه ، وعادى أعداءه فقد شكره ، ولما جمع أهل الكتاب والمشركين من كبائر عصيان رب العالمين دعوا جميعا كفرة ، وإن كانت قلوبهم كلهم وألستهم بالله مقرة فقال : ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾ تأويل ذلك : أنهم لم يكونوا مقصرين ولاتاركين لما هم عليه وعاصين لله فيه ﴿حتى تأتيهم البينة﴾ المنيرة الظاهرة فقال : ﴿رسول من الله يتلو صحفا مطهرة﴾ ويتلو : يقرأ ويتبع بعد القراءة ما اقترا .

الصحف : ما صحف ليقرأ ، والمطهرة : ما جعل منها بركة وتطهرة ، وبينات منيرة مسفرة ، وكل مطهر فمبارك ، وكل مبارك فمطهر له ، وفيه بالله البركة والتطهرة وكذلك يقال في الرسول عليه الصلاة والسلام إذا ذكر بما جعل الله من البركة فيه رسول الله الطيب الطاهر ، وهو قول الكثير عند ذكره الطاهر ، عندما يذكره بذلك صلى الله عليه وآله وسلم من الصادقين - كل ذاكر ، وإنما يراد بذلك المبارك المزكى وليس يراد بذلك طهارته بالماء إذا توضأ .

وكذلك يقال في ابنته فاطمة صلوات الله عليها إذا قيل : الطاهرة إنما يراد بذلك ما جعل من البركة فيها ، ومن ذلك ما وهب لها وجعل لبركتها من بقية رسول الله وتسليه صلوات الله عليه وعلى آله .

فهذا - والله محمود - من تأويل الطهارة ومطهرة ، ومن وجوهه المعروفة غير المستنكرة ، لا يجهل ذلك - إن شاء الله - ولا ينكره من يعرف لسان العرب ويصبره

وتأويل ﴿فيها كتب قيمة﴾ هو كتب منيرة بينة محكمة لها نور وبرهان واحتجاج ليس فيها اختلاف ولا عوجاج ، ثم ذكر سبحانه ما ذكرنا من افتراق أهل الكتاب

واختلافهم وماهم عليه اليوم ، وقبل اليوم بتشتيت أصنافهم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿وَمَا تَفْرُقُ الدِّينَ أَوْ تَوَاتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ والبينة : فهي الرسل والأمور التي جاءتهم النيرة المبينة ، وهي التي ليس فيها دلسة ، ولا عماية جليلة ولا لبسة ، ولكنها بينة نيرة مضيئة ظاهرة لمن يعقلها جلية ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِيعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ فأمرُوا ليعبدوه جل ثناؤه وحده ، فعبدت النصارى معه المسيح رسوله وعبده وأمرُوا ليخلصوا له الدين ، ولا يجعلوا له ولدا ، فجعلوا له ولدا ، وجعلوه كلهم ثالث ثلاثة عددا ، وفيهم ما يقول سبحانه : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ ^(١) فهو الله الأحد الصمد ، الذي ليس له ولد ولا والد .

وقالت اليهود كما قال الله جلَّ جلاله عن أن يساويه شيء ويمثله : ﴿عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ﴾ فلحقوا بالنصارى في الكفر بالله ، وشبهوا الله ببعض حالات خلقه في الهيئة والقوى ، وزعموا أنه جالس على عرش هو سرير ، وأنه لايتوهم له قرار في جو ولاهواء ، فإن له مقعدا من العرش والكرسي ومستوى ، وتأول من شبهه من هذه الأمة في ذلك مايقول الله سبحانه : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وأمرُوا أن يكونوا حنفاء فكانوا جورا [حنفاء] .

﴿حنفاء﴾ والحنيف : هو الطائع المستقيم الخاشع ، وأمرُوا أن يصلوا له فصلوا لغيره معه ، فمنهم من صلى لإثرة صنم ، ومنهم من صلى لعيسى بن مريم صلى الله عليه ومنهم من صلى لمن شبهه بآدم صلى الله عليه في الصورة واللحم والدم ، ومنهم من صلى لمن هو عنده نور من الأنوار ، وجسم مسلسل المقدار ، له زعم جهات ست خلف وأمام ويمين ويسار ، وفوق وتحت ، فتعالى الله عما قالوا كلهم علوا كبيرا وجل وتقلس عن أن يكون لنفسه من خلقه مثلا ونظيرا ، وكيف يكون عابد ذليل كعزیز معبود ! من لم يزل دائما مشبها لما كان طول الدهر غير موجود .

ثم قال سبحانه في دينه وصفته : ﴿ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ تأويل ذلك : أن كل ما أمر

به فمن الأمور المرشدة الهادية المستقيمة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ فالذين كفروا من أهل الكتاب ، والمشركين بالله مع اقرار الفريقين بالربوبية لله فهم كما قال الله : ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ بما كان منهم على الله من الدعوى المبطلّة المفترية ، والبرية : فما ذرأ الله وبراً مما يُرى من الخلق كله ، ولا يُرى . ونار جهنم : فهي النار التي لا يعرف في النيران مثلاً ، ولا يعلم منها كلها مثبها لها فيما عظم الله من نارها وحر استعارها .

وتأويل ﴿خالدين﴾ فهو : غير فائين ولا بائدين كما قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (١) فنار جهنم : هي النار المستعرة التي ليس لاستعارها أبداً من انكسار ولا فتور ، ولو فترت من استعارها والتهابها فكان في ذلك تخفيف عن أهلها من عذابها .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ فمن آمن : فهم الْمُؤْمِنُونَ من كباثر العصيان ، والذين لا يخافون على ارتكاب زور ولا بهتان ، ماثبت لهم أبداً اسم الإيمان ، وحكم أهل الهدى والبر والإحسان .

والصالحات من الأعمال : فهي كل صالح عند الله من قول أو أفعال ، وجزاهم : هو ثوابهم من الله وعطاؤهم .

وتأويل ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ هو : جنات مستقر وأمن ، وتأويل ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ هو : رضاء الله سبحانه لهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فتأويل رضاهم : فهو بما أعطاهم وجزاهم ، بأنهم لم يزلوا راضين عنه - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - في دنياهم ، قبل مصيرهم إلى ماصاروا .

ثم أخبر سبحانه لمن جعل جزاءه فقال: ﴿ذلك لمن خشى ربه﴾ يعني: لمن خافه واتقاه ، فأخبر جلّ جلاله أنه جعل لأهل التقوى - الكرامة والرضاء ، والإرتضاء في المعاد والمثوى .

وتأويل ﴿خالدين فيها﴾ فهو : بقاؤهم أبدا بعد المصير إليها ^(١).

تفسير ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها﴾

قال الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الأطروش سلام الله عليه : (سلوا الله الإفادة في سبعة عشر من شهر رمضان ، وفي تسعة عشر ، وفي إحدى وعشرين وثلاثة وعشرين ، فإنه يكتب الوفد في كل عام ليلة القدر ، و﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾) ^(٢).

فقد يكون ﴿أنزلناه﴾ : جعلنا كما قال سبحانه : ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ ^(٣) ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ ^(٤).

(١) - في تفسير الغريب ص ٣٩٩ عن أبي خالد عن زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿متفكّين﴾ معناه : زائلون عما هم عليه منتهون عنه .

وقوله تعالى : ﴿فيها كتب قيمة﴾ معناه : دلالة ، وقوله تعالى : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ معناه : مسلمون ، ويقال : متبعون ، ويقال : حجاج .

وقوله تعالى : ﴿أولئك هم شر البرية﴾ معناه الخلق الذين برأهم الله تعالى ، معناه : خلقهم ، وقوله تعالى : ﴿ذلك لمن خشى ربه﴾ معناه : خاف ربه .

(٢) - دخان : ٤

(٣) - الحديد : ٢٥

(٤) - الزمر : ٦

وتأويل أنزل في ذلك : جعل ، فيمكن أن يكون جعل القرآن كله ، وأحدثه وأتمه وأكمله فيما ذكر تبارك وتعالى من ليلة القدر المذكورة ، والقدر : فهو وقت قدره ^(١) الله جل ثناؤه من أوقات الدهور ، وقد يكون القدر : هو الجلالة والكبر كما يقال : إن فلان أولكذا وكذا قدرا ، يراد بذلك أن له جلاله وكبرا ، فإن كان وقتا وهو وقت ذكره الله وكرمه بما قدر فيه من أموره المحكمة ومن الأدلة على أن الله جعل القرآن في ليلة القدر كله ، وأحدثه فيها فأنمّه وأكمله ، وأنه لم يرد بتنزيله ووحيه أنزاله له جملة على رسوله ونبيه أن الله سبحانه إنما أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله ، وأوحى تبارك وتعالى به إليه مفرقا لاجملة واحدة ، وعلمه إياه جبريل صلى الله عليهما سورة سورة ، وآيات آيات معدودة ليقراه كما قال سبحانه على مكث وترتيل ، ولترتيله وصفه تبارك وتعالى في الوحي له بالتنزيل ؛ لأن المفرق المنزل هو المرتل المفصل ، وفي ذلك مايقول الله تبارك وتعالى فيه : ﴿وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا﴾ ^(٢) ويقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في قراءته : ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ ^(٣) والتفصيل : هو التقطيع والتنزيل .

وفي إجماله وجمع إنزاله مايقول المشركون لرسوله صلى الله عليه وعلى أهله : ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ فقال الله سبحانه : ﴿كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ يقول سبحانه : نزلناه عليك قليلا قليلا ، ثم قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله : ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جنتناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ ^(٤)

فنحمد الله على ما نور بذلك من حجته - بمنه ورحمته - تنويرا .

ثم أخبر سبحانه أن قد أنزله وتأويل ذلك : أنه قد جعله الله كله في ليلة واحدة فقال تبارك وتعالى : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ و﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ فأبطل بذلك كل حجة لمن كفر مظلمة مهلكة ، فكان ذلك من قدرته ما لا ينكره من

(١) - في ب : فهو وقت وقته الله

(٢) - الإسراء : ١٠٦

(٣) - الزمل : ٤

(٤) - الفرقان : ٣٢ - ٣٣

أهل الجاهلية من أقر بمعرفته .

وقد يمكن أن يكون تأويل ﴿إنا أنزلناه﴾ هو : تنزيله سبحانه من السماء السابعة العليا إلى من كان من الملائكة في السماء الدنيا ، وقد ذكر عن أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه أن ذلك هو تأويل ﴿إنا أنزلناه﴾ وبيانه ، فأبي التأويلين جميعاً تُؤوّل فيه وقع بإنزاله كله عليه .

ولو كان إنما أراد بذلك إنزاله على محمد صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم لكان إنما نزل إليه مفرقا ومقطعا ، غير مجمل [من الله] وإنما قال الله : ﴿إنا أنزلناه﴾ فأوقع التنزيل على كله لاعلى بعضه ، وقال لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾^(١) فأخبر سبحانه بفرضه ، والفرض : هو التقطيع والتفصيل كما يقول القائل للشيء إذا أمر بقطعه : أفرضه وفصله ؛ ليقطعه .

وتأويل ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ هو : أن الذي قطع تفريقا منازل من القرآن إليك ، وذلك فهو الله الرحمن الرحيم ، وما فرض : فهو كتابه المنزل الحكيم وأي القولين اللذين^(٢) ذكرنا وبيننا في ذلك وفسرنا قيل به فتأويل ، وأمر كبير جليل كريم [ذكره] واجب شكره .

وليلة القدر التي نزل فيها القرآن : ليلة من الليالي مباركة ، تنزل الملائكة فيها كما قال الله تبارك وتعالى الروح والملائكة ؛ لبركتها وقدرها ، وما عظم الله من أمرها ﴿ياذن ربهم من كل أمر﴾ من أمور الله بنازلة ، وبركة لأهل الأرض كلهم شاملة ليلة ذلك الوقت والخير ، والقدر خير كما قال : ﴿خير من ألف شهر﴾ لما جعل الله جلّ ثناؤه فيها من اليمن والبركات ، وما عمسك الله فيها عمن أجرم من النقم والهلكات ، ولما نسب الله إليها من الخير - تنزلت الملائكة والروح فيها من أعلى العلا إلى الأرض السفلى .

يقول الله سبحانه : ﴿ياذن ربهم﴾ تأويل ذلك بإذن الله فيها لهم ، وقد قال غيرنا

(١) - القصص : ٨٥

(٢) - اللفظ في (أ) : وأي القولين الذي ذكرنا .

في تأويل ﴿من كل أمر﴾ إنه من كل وجهة ، وما قلنا به - والله أعلم في نزولهم من أمر الله ورحمته بكل نازلة - أشبه وأوجه ، فهم ينزلون فيها من أمر الله وتقديره ؛ ولما جعل الله فيها من بركاته وخيره ، وحدانا وزمرا وأرسالا ببركتها ، وإعظاما لها [وإجلالا] وإذ جعلها الله سبحانه لتنزيله ووحيه وقتا ومقدارا ، وذكرها بما ذكرها به من القدر تشريفا لها وإكبارا ، وليلة القدر ليلة جعلها الله من ليالي رمضان ، ألا ترى كيف يقول سبحانه : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾^(١) ويقول سبحانه بعد ذكره لشهرها ، وما جعل الله فيها من بركاتها وبمنها : ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منزلين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم﴾^(٢) فهي ليلة بركة ورحمة ، وسلامة وعصمة ، وفيها ما يقول أرحم الراحمين ، ورب السموات والأرضين : ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾ وتأويل ﴿سلام﴾ فهي : سلامة هي حتى طلوع الفجر ، فليلة القدر [ليلة] سالمة مسلمة ، ليس فيها عذاب من الله تبارك وتعالى ولانقمة ، جعلها الله بفضله بركة وسلامة ، ورحمة للعباد إلى الفجر دائمة ولحق الليلة نزل الله فيها وحيه وقرآنه ، وفرق برحمته فيها فضله وفرقانه ، بالبركة والتفضيل والإعظام والتجليل .

وتأويل ﴿مأدراك﴾ فهو : ما يدريك لولا ما نزلنا من البيان فيها عليك ﴿مالميلة القدر﴾ في القدر والكبر ، وما يضاعف فيها لعاملة من البر والأجر ، فهي ليلة ﴿خير من ألف شهر﴾ جعلت لبركتها وبمنها في التضعيف لها ، وبالإضعاف كعشرة آلاف ليلة ، وعشرة آلاف ليلة ، وعشرة آلاف ليلة ، فذلك ثلاثون ألف ليلة ، ونحوها تامة جعلت مقدارا مضاعفا لليلة القدر ؛ تشريفا لها وإكراما ، وهي ليلة مقدسة يضاعف فيها كل بر وعمل صالح لمن عمل به فيها من أهلها ، فيزداد على تضعيفه من قبل ثلاثين ألف ضعف لقدرها وفضلها ، ونحمد الله في ذلك وغيره رب العالمين ، على

(١) - البقرة : ١٨٥

(٢) - الدخان : ٤

ماأنعم به من ^(١) ذلك الله خير المنعمين ^(٢).

تفسير ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ فتأويل ﴿اقرأ﴾ فهو أن يقرأ ، وتأويل اسم ربه الذي أمر أن يقرأ به فهو **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** الذي قدم له في تعليمه كل سورة عند الإقراء له والتعليم . وربّه : فهو الله الذي خلق خلقه فخلق الإنسان من علق إذا ما خلقه . والعلق : فهو الدم الأحمر المولتق الذي يتلأأ لشدة حمرة ويبرق ، فيما ذكره الله سبحانه من علق الدم ، وخلق الناس كلهم غير آدم وحواء ، فإن حواء خلقت من آدم ، وخلق آدم من تراب فلم يخرج آدم وحواء من بين ترائب وأصلاب كما خرج من بين الصلب والترائب غيرهما ، ولكنه كان من الله سبحانه ابتداءً وتبديراً ، من غير أصل مقدم من أب ولأم ، وكان ما بين ذلك من التباين والفرق في الصنع والقطرة والخلق ؛ إذ خلق آدم من تراب ، وخلق نسله من علق من أعجب العجائب ، وأدل الدلائل على قدرة الخالق على ما خلق ، مما يشاء أن يخلقه جلّ ثناؤه من الخلائق ، وعلى أن قدرته فيما يخلق من خليقته واحدة غير متشعبة ولا متفرقة ، على أقدار ما يرى من افتراق البدائع ، والخلق المفطورة والصنائع كما قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(٣) فأخبر سبحانه أنه لا يختلف عليه في قدرته البدائع والكون ، وأن قدرته في ذلك كله

(١) - في (ب) على ما أنعم به في ذلك ، وكذلك ما بين أقواس الزيادة ، وإذا لم نذكر حاشية على ما بين أقواس الزيادة فهي من المجموع المخطوط .

(٢) - في تفسير الغريب ص ٣٩ عن أبي خالد عن زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ معناه : في ليلة الحكم ، وقوله تعالى : ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ معناه : جبريل عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿مَنْ كُلُّ أَمْرٍ سَلَامٌ﴾ معناه : يسلم من كل أمر ، معناه : من كل ملك .

(٣) - النحل : ٤٠

لا تتفاوت ، وإن تفاوت الخلق المبتدع المتفاوت .

ثم أمر تبارك وتعالى رسوله بالقراءة باسمه أمر مثني ، وكل ذلك فواحد في الإرادة والمعنى ، إلا أن التكرير غير التفريد ، في زيادة الأمر والتوكيد ، والتكثير فأكثر في الرحمة ، وفي زيادة المن والنعمة بالعلم والتعليم والأمر والتفهيم ، وفي كل كلمة من كلمات الله ثقل أوتكثر بصائر حجة - بمن الله - لمن يعقل ويصبر ، فليس في شيء من كلام الله جلّ ثناؤه نقص ولا فضول ، ولا يشبه قول الله في الحكمة والبيان من أقوال القائلين قول ، فقال سبحانه : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ من كل ما علمه يبصر أوسمع أوفؤاد ، وما كان مرضيا أومسحطا لله من غي أورشاد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أَهْمَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ^(١) فيما جعل الله لهم من الأفئدة يعقلون ويتفكرون ، وبما سلم من السمع والبصر يسمعون ويصرون ، فتبارك الله أحسن الخالقين خلقا ، وأوسع الرازقين في العلم وغيره رزقا ، فهو المعلم سبحانه بالقلم وغيره من وجوه العلم التي ليست بخط ولا كتاب ، من كل ما علمه أولوا الألباب ما علمه أيضا سواهم ممن لم يبلغ في العلم مداهم ، وإن لم يكتب وكان جاهلا بالكتب مما يعلمه من صناعة أوجرف أوبياعة فالله معلمه ومفهمه ، من ذلك أولعلمه فلولا قول الله سبحانه لم يظفر أبدا من علمه من علم ، ولم يفهم منه وفيه من يعلم مافهم ، وكذلك كل ملهم من طفل صغير ، وكلما سوى ذلك من البهائم والطير من ألهم علما في تغذ أو محاذرة لضر أوتوق فالله عز وجل ملهمه معرفته وتوقيه ومحاذرته .

وتأويل قوله سبحانه : ﴿ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ فهو ما بان به الله من الجود والكرم فيما وصل به إليه من النعم من مواهبه في العلم وغير العلم ، وقد علم الله رسوله عليه السلام من شرائعه ودينه ، وإن لم يكتب بقلم أو يخط كتابا يمينه ما جعله الله به فله الحمد اماما لكل امام ، كان معه في حياته وبعد وفاته من الكتب والعلام ، فكان بمن الله لكلهم اماما ومعلما ، وعلى جميعهم في العلم والحكمة مقدما ، وفي ذلك وبيانه

مايقول الله سبحانه في فرقانه: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾^(١) فكفى بهذا والحمد لله بيانا وبرهانا لقوم يعقلون .

وتأويل: ﴿كلا﴾ فهو نعم وبلى ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ فتأويل يطغى: فهو العناء والطغاء ، وتأويل ﴿أن رآه استغنى﴾ فهو تكثره بالجدّة والغنى في كل مارآه فيه من علم ومال ومايراد مستغنيا به أو مستطيلا به من كل حال .

وتأويل ﴿إن الى ربك الرجعى﴾ فهو: إلى الله المعاد في قيامة الموتى ، ثم قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وعلى آله: ﴿أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى﴾ تثبيتا له عليه السلام ، وتعريفا وتبيينا أيضا لمن كفر به ، وتوقيفا على مايعرفون ولاينكرون ، وماهم به جميعا كلهم مقرون ، من أنه ليس لأحد أن ينهى عبدا من عباد الله عن الصلاة ، والأمر بالتقوى لله .

فتأويل ﴿أرأيت﴾ فهو: أرأيت أنت ومن معك ممن يرى كما ترون ، وكلهم جميعا يرى أن كل من صلى - من خلق الله ، وأمر بما يحب الله ويرضى ، مبتغيا بذلك رضوان الله ، وطالبا بذلك لما عند الله مصيبا لذلك في رشده وهداه - قد أصاب بذلك طاعته ورضاه ، أليس من نهاه عن ذلك وآذاه ، فقد استوجب لعنة الله وإخزاءه ؟ وكذلك كل عبد لله أمر بالتقوى والإجلال لله ، كما كان يصلي محمد صلى الله عليه وآله لله ولمرضاته ، ويأمر باتقاء الله جلّ ثناؤه ومخافته ، وكل ماكان فيه من ذلك كله عندهم فحميد ، ومن يعمل لله بذلك فيهم فرشيد .

ثم قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وعلى آله: ﴿أرأيت إن كذب وتولى﴾ تأويل مايقرأ من ذلك ويتلى: أفرأيت من كذب به بعد اقراره بما يصف ، وتولى في ذلك عما يعرف ، من أنه ليس له أن ينهى عبدا عن أن يصلي لله ، ولكن أن يأمر بما هو الهدى عنده من تقوى الله .

﴿الم يعلم﴾ من فعل ذلك ﴿بأن الله يرى﴾ فيخاف أن يؤاخذه الله بفعله ويجزي .

وتأويل رؤية الله : فهو علم الله بنهي من ينهى عبدا إذا صلى ، فما بالهم ينهون محمدا صلى الله عليه وآله ، وأصحابه عن الصلاة ، وعما لم يزل يأمر به من التقوى أهل البر والرشد من الهدى ، مع علم من ينهى عن ذلك ويقينه ، بأن الله علم بنهي عن ذلك وغيره ، فلما أصر الناهي عن ذلك على ظلمه فيه وكفره ، مع مايقن به من علم الله بأمره فيه كله وأقر ، قال سبحانه : ﴿كَلَّا لئن لم ينته﴾ عما هو فيه ، وعما أصر من ظلمه عليه ﴿لنسفعا﴾ وتأويل ﴿لنسفعا﴾ فهو : لنأخذن ﴿بالناصية﴾ والناصية : فهي مقدم الرأس العالية .

ثم قال سبحانه : ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ إذ كانت عما لايجوز النهي عنه عندها من الصلاة والتقوى لله ناهية ، فكذبت قولها في ذلك بفعلها ، وأخطأت بنهيها عنه فيه بجهلها ، فهي كما قال الله سبحانه : ﴿كاذبة خاطئة﴾ وهي لله مخالفة ، في ذلك عاصية ، يقول الله سبحانه فإذا أخذنا منه بالناصية ﴿فليدع﴾ إن استجيب له ﴿ناديه﴾ وناديه : فهو عشيرته وأولياؤه وأنصاره ، وجلساؤه الذين كانوا يجلسون في مقامه ، وإليه يجتمعون لمجالسته ونصرتة لديه ﴿سندع الزبانية﴾ والزبانية : فهم الملائكة المطهرة الزاكية ، التي يأمرها الله سبحانه بأمره ، فتتخذ بكل ماأمرها الله به مطيعة لله غير عاصية ، وأخذة لما أمرها الله سبحانه بأخذه غير وانية ، تأخذ بالغلظة والشدة كل نفس عاتية متمردة كما قال سبحانه : ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايرؤون﴾ (١) .

ثم قال سبحانه لرسوله : ﴿كَلَّا لَا تَطْعَمهُ﴾ يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله : لا تطعم من نهى عن الصلاة والهدى ، وعن الأمر لله بالتقوى ، وكذب فعمل بالكذب ، ولكن اسجد واقترب ، بكل عمل صالح مقرب ، من صلاة أوهدى ، أو بر وتقوى ، فكلهم يقر بأن الهدى والصلاة لله ، والأمر باتقاء الله لمن فعله إلى الله فليس لهم أن ينهوا عن شيء من ذلك إذا كان عندهم كذلك ، ومن يفعل ذلك اوعمل به فقد كذب فيه قوله بفعله ، وصار إلى ما لامرية فيه عنده من جهله ، وتولى

عما كان من الإقرار لله عليه بتركه ، لما كان مقرا لله بالحق فيه ، فتشهد عليه نفسه لله بكفره ، وثبت عليه فيه الحجة باعترافه وإقراره ، فبان منه الكفر ، وانقطع عنه العذر فلا عذر له عند نفسه ولا اعتذار ولا إخفاء لكفره ولا استتار ، وكذلك كل من أسلمه الله الى الباطل وحيرته ، ولبسه ، وحجة الله قائمة عليه في الحق بنفسه ، وفي إقراره من ذلك ما يقر حجة الله عليه فيما ينكر ، وسواء قيل : اقترب أو يقرب معناهما واحد في التقرب . والسجود فهو السجود الذي يكون بعد الركوع ، وليس سجود التذلل والخضوع ، وكلا الوجهين فقد يدعى سجودا وبرأ إذا كان ممن هو فيه بينا موجودا .

وتأويل ﴿واسجد واقترب﴾ : فمن السجود والصلاة ، وتأويل ﴿واقترّب﴾ فمن التقرب مما يُقَرَّبُ من الحسنات ، وسواء قيل : اقترب أو تقرب ، معناهما جميعا اقترب [وأحد ذلك كله فيما يقال به فيه فصواب] ^(١).

تفسير ﴿والتين﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾

فالتين : فهو هذا التين المأكول ، والزيتون : فهو هذا الزيتون المعلوم ، وقد ذكر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه : أن التين والزيتون هو التين الشامي خاصة وزيتونه ، وذلك لما جعل الله للشام من التقديس والبركة ، وفي الشام ما يقول موسى عليه السلام لبني اسرائيل : ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ ^(٢) وما ذكر الله من طور سينين : فهو الجبل الذي كلم موسى منه رب العالمين .

(١) - ما بين القوسين زيادة في المجموع المخطوط .

في تفسير الغريب ص ٣٩٧ عن أبي خالدة عن زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿خلق الإنسان من علق﴾

معناه : من دم .

(٢) - المائدة : ٢١

و﴿البلد الأمين﴾: فهو : الحرم الذي على كل حد من حدوده رضم من الحجارة وعلم فصل به بين غيره وبينه لتعرف بذلك ماهو منه .

وإنما أقسم الله سبحانه من الأشياء بما أقسم من القسم ؛ لما جعل فيها من الآيات والبركات والكرم ، وإنما يقسم أبداً المقسم بما يجل من الأشياء ويكرم ، وكرم ما ذكر الله من هذه الأشياء فما ليس به عند من يعقل من خفاء ، فمن كرم التين والزيتون ما جعل الله فيهما من المنافع والطعوم ، وكرم طور سينين وبركته ما كان من مناجاة الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام في بقعته ، وفي ذلك ما يقول سبحانه : ﴿فلما أتاه نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة﴾^(١) فذكرها سبحانه بما جعل فيها من التقديس والبركة ، وفي ذلك ما يقول تبارك وتعالى : ﴿ونادينا من جانب الطور الأيمن﴾^(٢) والطور : فهو طور سينين المذكور .

ومن كرم الحرم وفضله فما جعل الله فيه من الأمن لأهله ، وما فرض من حج بيته وألزم الناس في ذلك من فريضته .

وتأويل ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فهو : خلقه للإنسان في أحسن تعديل ، من كل توصيل فيه وتفصيل أصل به أوفصل ، أو هيء بهيأته فعدل ، من هيئة أوصورة مصورة مقدرة ، أو فؤاد أوسمع أو عين مبصرة ، وكل ذلك كان مفصلاً أو موصلاً ، فقد جعله سبحانه مستويا معتدلاً ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾.

تأويل ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ فهو : رده إن بقي وعُمر إلى آخر أعمار الآدميين ، التي إن صار إليها ، وبقي حيا فيها — تغيرت حاله وعقله ، وبان نكسه وسفاله كما قال سبحانه : ﴿ومن نعلمه ننكسه في الخلق أفلا تعقلون﴾^(٣) وتأويل

(١) - القصص : ٣

(٢) - مريم : ٥٢

(٣) - يس : ٦٨

﴿ننكسه﴾ فهو : نرده في الهرم والذهاب بعد القوة والجدة والشباب ، أو يموت قبل ذلك على كفر وإنكار ، فينكس بعد الكرامة في الهوان وعذاب النار ، ومن الذي هو أسفل درجة من كفره إن لم يهرم ؛ إذا هو نكس ورد في الآخرة إلى نار جهنم فنعود بالله من السفال بعد التمة والكمال ، وكل إنسان فردل ، ليس له كمال ولافضل كما قال سبحانه : ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ .

فكلما لم يدخله من العطايا والجود ، وذلك فما لا يوجد أبدا إلا في عطايا الله الجواد الكريم ، وكل عطاء أعطاه معط سوى الله من حميد أو ذميم فليس يخلو من أن تدخله منة وامتنان ، وإن لم ينطق بالمنة فيه لسان ، لأن من وهبه وأعطاه لم يعطه إلا بعد أن يكلفه وعاناه ، والله جلّ جلاله يعطي من أعطى ما يعطيه ، بغير معاناة من الله ولا تكلف فيه ، وكل معط سوى الله ، فإنما يعطي ما أعطاه من رزق الله ، وإنما يعطي مما قد جعله الله له ، ومما هو الله تبارك وتعالى ، فحمد الله الذي لا شريك له الذي يعطي فلا يُعطى ، والذي لا يعطي معط سواء إلا ما أعطاه (١) .

تفسير ﴿ألم نشرح﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾ .

فقال : ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ فشرحه : هو توسيعه لصدره صلى الله عليه وآله وسلم ، وفسحه لما كان تضيق عنه كثير من الصدور ، فما حمل من التبليغ والأمور

(١) - في تفسير الغريب ص ٣٩٦ عن أبي خالد عن الإمام زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿والزيتون﴾ والزيتون وطور سينين ﴿فالتين : الذي يوكل ، والزيتون : الذي يعصر ، ويقال : التين والزيتون جبلان والطور : جبل ، وسيناء الحسن بالحشة ، والبلد الأمين : يعني مكة .

وقوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ معناه : في أحسن صورة ، وقوله تعالى : ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ معناه إلى أدل العمر إلى أن يبدل حالا بعد حال ، وقوله تعالى : ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ معناه : غير مقطوع ، ويقال : غير محسوب .

ومن شرح الله أيضا لصدره : تيسيره في الدين لأمره ، ومأعطاه فيه من معونته ونصره ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ فوزره : هو ثقله ووقره ، والوقر من كل شيء : فهو الحمل ، والحمل من كل شيء : فهو الثقل . وإذا قيل لشيء : أوزره وزره فإنما يراد بذلك حمّله وقرّه ، ومأحمّل من الأثقال كلها والأمور ، فإنما يحمل منه الحاملون على الظهور ، وكلما يعمل المراء من خيره وشره فإنما يحمله على ظهره كما قال سبحانه : ﴿قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾^(١) .

وقال سبحانه : ﴿وليحملن أثقاهم وأثقالا مع أثقاهم﴾^(٢) يريد سبحانه : مأحمّله من كفرهم وفجورهم ، وليس يريد بذلك حمل أحمال ، ولا مأحمّل على الظهور من الأثقال ، وإنما هو مثل يضرب من الأمثال ، مما كانت تضربه وتمثله العرب ، وكذلك ما ذكره الله من الشرح لصدر نبيه ، ومأنزل في [ذلك]^(٣) من وحيه ، فذكره سبحانه لما ذكر من إنقاض الوزر لظهره ، وما وضع سبحانه لما ذكر من وزره - فإنما هو تمثيل وبيان ودليل ، فليس يريد شرح الصدر ولا ما ذكر من الحمل على الظهر بشرح شيء يقطعه ، ولا حمل ثقل يضعه ، ومأحمّل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وزر على ظهره ، وذلك لا يكون إلا من زلل وخطيئة في أمره ، ووضع الله لذلك عنه فهو حطة لما أثقله منه ، وحط الذنب فعفوه ومغفرته ، وقد غفر الله لرسوله ذنبه كله وخطيئته ، كما قال سبحانه له صلوات الله عليه : ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا﴾ .

وتأويل ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ فهو : رفعه لذكره بما أبقي في الغابرين إلى فناء الدنيا من أمره وقدره ، ومن ذلك النداء في كل صلاة باسمه ، ومأجعل من الشرف به لقومه

(١) - الأنعام : ٣١

(٢) - العنكبوت : ١٣

(٣) - الزيادة من المجموع المخطوط .

فضلا عما منَّ به على ذريته وولده ، ومن يشركه في الأقرب من نسبه ومحتده فنحمد الله الذي رفع ذكره ، وشرف أمره .

ثم أخبر سبحانه في السورة نفسها من أخبار غيوبه خيرا مكررا ، فقال تبارك وتعالى : ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فبشره بأن له مع عسره يسرا في دنياه ، وأن له مع ذلك يسرا لا يفنى في آخرته .

ثم أمره سبحانه إذا هو فرغ من أشغاله ، ومما يقاسي به في هذه الدنيا من عسر أحواله ، فقال عز وجل : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ والنَّصَبُ : فهو الاجتهاد والجد والاحتفاد ، كما يقال : اللهم لك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد . فذكر أنه لما أنزل على رسوله ما أنزل في هذه السورة من آياته ، فعبدَ رسولُ الله حتى عاد كالشن البالي في عبادته ، شكرا لله وحمدا وتذللا وتعبدًا^(١).

تفسير ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾

والضحى : إضحاء النهار وشدة ضوئه وظهوره ، وسجو الليل : فترأب ظلمته وتكوره كما قال سبحانه : ﴿يَكُورُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُورُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾^(٢) .
وتأويل : ﴿ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك

(١) - غريب القرآن ص ٣٩٦ عن أبي خالد عن زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ معناه : أثمك ، وقوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذَهْرَكَ﴾ قال : إذا ذكرت ذكرت معي فيقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ معناه يكون الرجاء أعظم من الخوف ، وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من أمر دنياك ﴿فانصب﴾ معناه : فصل واجعل وثبتك الى الله عز وجل .

وفي مجمع البيان ١٧٧/٦ عن الباقر والصادق : ﴿فانصب﴾ الى ربك بالدعاء ، وارغب اليه في المسألة يعطك ، وفيه عن الصادق : الدعاء دبر كل صلاة .

ربك فترضى ﴿ فخير من الله لرسوله صلى الله عليه وعلى آله عن أنه وإن لم يعطه ما يعطيه ويكثره أهل الدنيا في دنياه ، فما تركه فمن حسن النظر في ذلك له ، لا لبغضة فقلا . والقالي : فهو الشانئ والشانئ : فهو المبغض ، وكل ذلك فهو بغض ولكنه أثر بكرامته له في آخرته على أولاه .

وآخره سبحانه أن سوف يعطيه من عطايا الآخرة ما يسره ويرضيه ، ثم ذكره سبحانه بفضله ونعمته ، وبما منَّ به عليه من رحمته ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ﴾ وقد علم الناس أنه قليل من الأيتام من يؤوى ﴿ ووجدك عائلا فأغنى ﴾ فأغناه بما لم يستغن به غيره في دنياه ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ فهداه بما منَّ به عليه من الهدى .

ثم نهاه تعالى عن اليتيم أن يقهره ، وعن السائل أن ينهره ، وأمره من الحديث بنعمة ربه ، بما به أمره ، أن ذكره من اليتيم والفاقة بما ذكره ، وقرر بمعرفة ذلك بما قرره ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ تأويل ﴿ فحدث ﴾ هو : فخير وانشئ ذلك واذكره وكثر ، فكان عن الله لما ذكر به ذاكرا ، ولنعم الله فيها كلها شاكرا ^(١) .

(١) - في تفسير الغريب ص ٣٩٤ عن أبي خالد عن الإمام زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿ والليل إذا

سجى ﴾ معناه : مكن ، ويقال : استوى ، ويقال : إذا أقبل فغطى كل شيء .

وقوله تعالى : ﴿ ماودعك ربك ﴾ أي ما تركك ﴿ وماقلى ﴾ معناه : ما أبغض .

وقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ معناه : منت من قوم ضلال .

وقوله تعالى : ﴿ ووجدك عائلا فأغنى ﴾ معناه : فقير فأغنى ، وقوله تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ معناه لا تحقر

﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ معناه : لا تخرج ، ولكن رده برحمة ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ معناه اخوانك حدثهم

بالقرآن ، ويقال : أخوانك اخوان ثقتك فهذا تأديب لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم على لسان نبيه عليه

السلام .

وفي مخطوط مجموع تفسير الأئمة جاء في الآيات المروي تفسيرها عن الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ما لفظه

(و)ستل عن قول الله سبحانه ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ فقال : هذا أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وآله

وسلم بنشر نعمته عليه ، وذكر احسانه اليه ؛ لأن الله تبارك وتعالى شاكر يحب الشاكرين ، ويرضى الشكر

تفسير ﴿والليل إذا يغشى﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى وما خلق الذكر والأنثى﴾

فقال: ﴿والليل﴾ وغشيانه : فهو ظهوره واتيانه . وتجلي النهار : فهو ظهور شمسهِ على وحشهِ وإنسهِ ، وتجليه وظهوره يعيش أهل الأرض فيه ، ويتحركون ويتشرون ويقبلون ويدبرون ، كما قال الله سبحانه : ﴿وجعل النهار نشورا﴾^(١) فجعله برحمته لخلقهِ ضياء ونورا ، لتبتغوا فيه كما قال سبحانه : ﴿من فضله﴾ ولنته على أهله : ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾^(٢) فكفى بما في الليل والنهار من الدلالة على الله [دليلا]^(٣) لقوم يتفكرون وتأويل ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ فهو وما خلق به كل^(٤) ذكر وأنثى من الأزواج المختلفة الشئى ، أزواج الإنس والبهائم والأشجار ، وكلما خلقه زوجا في الأصول والثمار ، فأقسم بما خلق به جميع خليقته من قدرته وحكمته ومنه ورحمته .

وقد قال غيرنا : إن تأويل ﴿وما خلق﴾ هو ومن خلق ، يريدون أن القسم كان بالله جلّ ثناؤه ، وليس - والله أعلم - ذلك في القسم كذلك ؛ لأن الله تبارك وتعالى أقسم بالليل والنهار فقدمهما في قسمه ، ولو كان تأويل ما خلق : هو ومن خلق لبدأ

والثناء عليه بنعمه من المؤمنين ، ويريد أن يحدث المؤمنون بعضهم بعضا بنعمه عليهم وإحسانه اليهم ليكونوا بذلك ذاكرين .

وفي مجمع البيان عن الصادق ٦٧٠/٦ ﴿فحدث﴾ معناه : فحدث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك وأحسن إليك وهذا ، وفيه عن الإمام زيد عليه السلام في قوله ﴿فرضى﴾ أن من رضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدخل أهل بيته الجنة ، وقال الصادق : (رضاء جدي أن لا يبقى في النار موحد).

(١) - الفرقان : ٤٧

(٢) - القصص : ٧٣

(٣) - زيادة في المجموع المخطوط .

(٤) - اللفظ في (أ) وما خلق به من ذكر وأنثى .

الله في القسم باسمه ^(١) لجلاله وذكره ، وعظم اسمه وكبره ، ولكنه انشاء الله كما قلنا ثم قال سبحانه : ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَتَى﴾ فجعل عملهم متفرقا متشتتا ، لأن عمل المتفرقين من المبطلين والحقين بر وفجور ، وصدق وزور ، فهو كله شتى متفرق ، هذا باطل في نفسه ، وهذا حق ، أما تسمع كيف يقول الله سبحانه في تشيته وتباينه في الدنيا والآخرة وتفاوته : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرْهُ لِلْإِسْرَى﴾ فأعطاؤه هو لما يجب من الحقوق عليه ، واتقاؤه فهو فيما أمر بالتقوى لله ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ فهو : تصديقه بأن سيجزى .

وتأويل ﴿فَسَنِيسِرْهُ لِلْإِسْرَى﴾ فهو : سنصيره من الكرامة والثواب إلى ماسيره عند موته وفي حشره ، وما سيعاينه في الموت والحشر من أمره .

وتأويل ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ بما يراه عند نفسه غنى من ماله وكسبه ، وبخل منه به عن ربه ﴿وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى﴾ فتكذيبه بالحسنى هو تكذيبه بما وعد الله أهل التقوى .

وتأويل ﴿فَسَنِيسِرْهُ لِلْعُسْرَى﴾ هو : سنصيره من الإهانة والعقاب إلى ماسوف يرى

وتأويل ﴿وَمَا يَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾ فهو وما ينفعه في الغناء ماله ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ تأويلها ^(٢) : إذا هلك وردي بعد أن كان قد أرشد وهدى ، وما أغنى ممن أغناه من دنياه ، وملكه الله إياه فجعله الله له فهو لله قبله ، ألا تسمع كيف يقول في ذلك تعالى : ﴿إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْظَى﴾ وما كان من النيران أن يتلظى فهو أشدها لهيبا وسعيرا ، وأنكرها في الحرّ والتحريق مصيرا .

ثم أخبر تبارك وتعالى من يصلها ، والإصلاء : فهو التحريق فيها فقال : ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ كذب بالجزاء والثوى ، وتولى عن البر والتقوى .

(١) - في (أ) لبدأ الله باسمه في القسم .

(٢) - في (ب) تأويله .

ثم أخير سبحانه أن سيجنب هذه النار المتلظية من اتقى فقال جل ثناؤه: ﴿وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله﴾ يؤتي : يعطي ماله ﴿يتزكى﴾ تأويلها: ليطيبب بها عند الله ويَزَكَّى ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ تأويله يريد يكافأ ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ ولسوف يرضى ﴿بما يعطى ويجزى إذا أعطى ما أعطى لا ابتغاء وجه ربه ، وما أراد من رضائه به ^(١) .

تفسير ﴿والشمس وضحاها﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها﴾ والشمس : هي الشمس في عينها ونفسها واستدارتها . وضحاها: فهو ما يرى من علوها في السماء ، وظهورها واستنارتها .

وتأويل ﴿والقمر إذا تلاها﴾ فهو اتصاله بها وحقيقته وراءها متصلاً بنوره بنورها ، وظهوره في الضوء بظهورها ، وما بين ذلك وأنوره ، وأعرف ذلك وأظهره في الليالي الغر من ليالي كل شهر ، فنوره حيثئذ بنورها متصل ، ليس بين نورهما فرقة ولا فصل ، وهي ليال بيض مسفرة مضيئة ، ساعاتها منيرة ، عظمت في النعمة والقدر ، فقل عن النبي صلى الله عليه وعلى آله : (إن صيامها كصيام الدهر) وهي ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة ، وخمس عشرة ، وهي ليال جعلها الله كلها مضيئة مقمرة ، وصل الله ضوء نهارها بضوء ليلها ، فكان ذلك من عظيم النعمة فيها وجليها ، فسبحان من وصل وفصل بين الأمور فوصل منها بين نور عظيم ونور .

﴿والنهار إذا جلاها﴾ فهو إذا أظهرها النهار وأضحاه ؛ لأنها لاتضحى أبداً

(١) - في تفسير الغريب ص ٣٩٣ ، عن أبي خالد عن الإمام زيد عليه السلام في قوله تعالى : ﴿إن سعيكم لشتى﴾

معناه : أن عالمكم لمختلف ، وقوله تعالى : ﴿وأما من يجمل واستغنى﴾ معناه : يجمل بما لا يقى واستغنى بغير غناء .

وقوله تعالى : ﴿وصدق بالحسنى﴾ معناه بالجنة ، ويقال : بلا إله إلا الله ، وبالخلق .

وقوله تعالى : ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ معناه : إذا هلك ومات ، ويقال : إذا تردى في جهنم .

بإظهار إلا فيما جعلها الله تضيء فيه من النهار ، وكذلك سبحانه دبرها في مقدارها ، وبذلك فقدرها في مسيرها ومدارها ، وفيها ما يقول سبحانه : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١) فكلهم جميعا في فلك ، وهو المدار يطلعون ويغربون ، فليل الشمس والقمر عند كل أحد فغير نهارهما ، وأنهما يدوران جميعا بالليل والنهار في مدارهما ، كما قال سبحانه فلا يمكن أن يسبق النهار ، وإن كان الفلك في ذلك كله هو المسلك والمدار ، لأن الليل لو سبق نهاره لسبقت الظلم أنواره ، فبطل العدد والزمان وتقديرهما ، وفسد البشر والحيوان وتدميرهما ، ولكان في ذلك أيضا فساد الأشجار والثمار ؛ لأن قوام ذلك كله ونشأته بما فصل بين الليل والنهار ، فسبحان مفصل الأمور والأشياء ؛ لبقاء ما أراد بقاءه من النبات والأحياء وليعلم العالمون عدد السنين والحساب ، الذي عنه وبه يكون كل جيفة وذهاب ، أو بقاء لشيء من الأشياء جعله يبقى أوفى مما فطره سبحانه خلقا كما قال جلَّ ثَنَاؤُهُ ، وتقدس بكل بركة أسماؤه : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا تَفْصِيلًا﴾^(٢) .

وتأويل ﴿والنهار إذا جلاها﴾ فهو : والنهار إذا أضحاها فبانَتْ وظهرت وتجلت بتجليه ، وبما يظهر من الضوء فيه .

وتأويل ﴿والليل إذا يغشاها﴾ فهو إذا غشي الليل الشمس وأتاها ، فوارى بظلمته نورها ، وأخفى بظهوره ظهورها ، ولم تُرَ الشمسُ ، ولم تنتشر الأنفُسُ ، وسكن في الليل الإنس والوحش وكل طير ، فهذا من ذلك كله فيه كل صغير أو كبير ، رحمة من الله به لذلك كله ، ومنَّة من الله مَنْ بها عليهم بفضله ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

(١) - يس : ٤٠

(٢) - الإسراء : ١٢

وتأويل ﴿والسما وما بناها﴾ فالسما : هي السماء التي نراها ﴿وما بناها﴾ فهو : وماهياها من حكمة الله وتدبيره ورحمة الله وتقديره .

وتأويل ﴿والأرض وما طحاها﴾ فهو : والأرض وما دحاها ، ودحو الشيء : هو بسطه وتمهيده ، ونشره وتوسيعه وتمديده كما قال سبحانه : ﴿والأرض مددناها﴾ وتأويله : بسطناها ومهدنا ، كما قال الله سبحانه : ﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا﴾^(١) والمدود إذا أريد مده وامتداده ضرب فيه ، وفي نواحيه لتمتد أوتاده .

وتأويل ﴿ونفس وما سواها﴾ فهو : الأنفس التي قد علمناها لكل ذي نفس من البهائم والإنس ، وهي التي إذا فارقت وزالت ماتت أجسادها وجفت ، فعادت أجسادها أمواتا هلاكا ، ولم ير لها أحد بعد ذهاب أنفسها منها حراكا ﴿وما سواها﴾ فهو وماهياها لجعلها حية كما جعلها ، وعدلها سوية كما عدلها ، من قدرة الله وإحكامه ، ومنته عليها وإنعامه .

وتأويل ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ هو فعرفها تدبير الله لها واحكامه هيئتها وأجرائها ، فجعلها تبارك وتعالى عارفة بكل ما كانت عليه مجترئة ، أوله خائفة .

ثم أخبر سبحانه أن نفس الإنسان من بين ما ذكرنا من الحيوان نفس بين الزكاء والفلاح ، والفجور والتدسية والصلاح ، فإن تزكّت بالتقوى أفلحت وزكّت ، وإن تدسّت بالفجور عند الله طلحت وهلكت ، فقال سبحانه : ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ وتأويل تزكيتها : هو تطهرتها ، وتأويل تدسيته : فهو من تطغيته .

ثم ذكر تبارك وتعالى من دساها من سالف الأمم في الفجور فأطغاه فقال سبحانه : ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ تأويله : بعثها وغواها ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ فقال لهم رسول الله ﷺ : إذ قام أخزاهما لشقوته وشؤمه ، وبرضاء قومه وعشيرته والأشقى فقد يكون إنسانا واحدا ، أو يكون جماعة عدة ، وأي ذلك قيل به كانت المقالة في الصدق والمعنى واحد ، كما يقال : أشقى هذه قبيلة فلان ، وأشقى هذه قبيلة فلان ، فيكون

ذلك كله واحدا في الدلالة والبيان .

ويدل على أن أشقاهم ليس بواحد منهم قوله سبحانه : ﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ فلو كان واحدا منهم لقال : فقال له ، وقوله : ﴿فَدَمِدْهُمْ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فلو كان الأشقى واحدا منهم لقال : فدمدم عليه ربه ، ولقال أيضا : بذنبه ، ولم يقل : ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ إذ هو واحد منهم ، ولقال : عقرها ، ولم يقل : ﴿عَقَرُوهَا﴾ إذا لم يكن إلا من واحد عقرها .

وقد قال غيرنا : إن عاقر الناقة كان إنسانا واحدا ليس بجماعة ، وذكروا فيما في أيديهم من الأخبار أن عاقرها يسمى بـ قُدَّار ، وتكذيب ثمود فإنما كان بما وعدّها صالح صلى الله عليه إن عقرت الناقة من عذاب قريب أليم ، لا تكذيبها بما لم تنزل به مكذبة قديما قبل عقر الناقة من عذاب الجحيم ، إذ يزجرها صالح صلى الله عليه وينهاها عما أتت في عقر الناقة بطغواها إذ يقول لهم : ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمِدْهُمْ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عِقْبَاهَا﴾ فتأويل ما ذكر الله من السقيا : هو ما أعطى الله من لبن الناقة وسقى .

ومما يدل على ذلك قول الله سبحانه في الأنعام وهي الآبال : ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَسُقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(١) وقوله سبحانه : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾^(٢) والمشارب والسقيا : هي الموارد والسقيا ، والدمدمة : هي التسوية والهلكة لجمعهم المفية .

وتأويل قوله تبارك وتعالى : ﴿فَسَوَّاهَا﴾ إنما يراد به أدنى ثمود كلها وأعلاها ، ومن أضعف ثمود [كلها] وأقواها .

وتأويل : ﴿فَلَا يَخَافُ عِقْبَاهَا﴾ فقد يمكن أن وجهها ومعناها : هو فلا يخاف أحدا - على الضمير - أن يراها بعد تدمير الله لها ، وما أنزل من الهلكة بها ، لا تعقب عقبا

(١) - المؤمنون : ٢١

(٢) - يس : ٧٣

ولانتسل عقبا من ولد ولاذرية ، ولايرجع بعاقبة مؤذية ^(١) وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما .

إلى هنا انتهى تفسير شيخ آل الرسول القاسم بن ابراهيم عليه السلام ، وعاقه عن التمام ، شواغل منعه الى أن نزل به الحمام ، رحمة الله عليه .
وكل ماتقدم من رواية ابنه محمد بن القاسم عليهما السلام .
ومن ﴿لأقسم بهذا البلد﴾ من تفسير علامة العترة ، وقاموس الأسرة ، الإمام محمد بن القاسم بن ابراهيم عليه السلام فقال رحمة الله عليه :

(١) - غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام ص ٣٩٢ عن أبي خالد عن الإمام زيد عليه السلام في قوله تعالى : ﴿والأرض ومطاحها﴾ معناه : بسطها وكذلك دحاها .
وقوله تعالى : ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ معناه : بين لها .
وقوله تعالى : ﴿قد أفلح من زكاها﴾ معناه : من أصلحها ﴿وقد خاب من دساها﴾ معناه : أغواها ، وقوله تعالى ﴿ولا يخاف عقباها﴾ معناه : لا يخاف تبعة من أحد .
وفي المخطوط الجامع لتفسير الأئمة عليهم السلام ، وفي المسائل التي سألها عنها ولده مالفظة : (وسأله عن قوله الله تعالى ﴿ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ فقال : [أي القاسم بن ابراهيم] ﴿ونفس وماسواها﴾ يقول سبحانه : وما قدرها وما هيأها من تسوية التقدير وحكمة التدبير الذي لا يكون إلا بالله ، ولا يوجد إلا من الله ، وقد قال بعض المفسرين : وماسواها : هو ومن سواها ﴿فألهمها﴾ هو عرفها تعريفا بينا ليس مما يلتبس بكفره بنم ، ولا يعاين بشيء من المعرفة بين فجورها وتقواها إذا عرفها هيبتها واجترأتها ؛ إن الهية اتقاء والفجور اجترأ ، فهي تعرف من الأشياء كلها ما تجترى عليه من الفجور ، وماتهاب وتخشى من جميع الأمور فهي على مالاتهاب بجترية ، ولما هابت متقية فهي ملهمة لتقواها وفجورها لمعرفة ماتهابه وتجترى عليه من أمورها اهـ
وفي مجمع البيان عن الباقر والصادق في قوله ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ بين لها ماتأتى وماتترك ﴿قد أفلح من زكاها﴾ أي من أصلح ، و﴿من دساها﴾ أي من عصى .

[مقدمة الإمام محمد بن القاسم عليه السلام]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله الطيبين ... وبعد:
 فإن الله - بفضله ورحمته - جعل من عظيم ما مَنَّ به علينا وعليكم من نعمته
 ما هداًنا وهداكم إليه ، ودلنا ودلكم عليه ، من طلب حقائق الحق ، حين ضل عن
 ذلك كثير من الخلق ، في تنزيل الله سبحانه وكتابه ؛ إذ لا يوصل إلى حقيقة حق إلا
 بأسبابه ، ولا يهتدى إلى صواب رشد إلا بمفاتيح أبوابه ، فمن فتح الله له أبواب عِلْمِ
 الكتاب عِلِمَ حقائق البر والهدى والصواب ، ومفاتيح دَرِكِ عِلْمِ ذلك بغير شك ولا
 ارتياب ، بما جعل الله عليه من فطرة العقول والألباب ، من معرفة الحق بما ركب فيها
 من الأفهام ، كما تعرف الأبصار إذا نظرت النور من الظلام ، وذلك إذا تركت
 العقول تميز بما ركب الله فيها من الأفهام - بين ما لبس الملبسون إذا ورد عليها ، وبين
 ما أوضح الله من حقائق الحق إذا أدته أسماعها إليها ، ولم يدخل على العقول لبس
 الخيرة والجهالات بما أتاه جهلة العامة من طرق الضلالات ، بطلب الهدى في مختلف
 ما افترضوا على الله ورسوله فيه في كثير من الروايات - التي يحكمون بها بجهلهم على
 ما جعله حاكماً عليها من تنزيل القرآن ، وما أنزل الله فيه من الهدى وجعل معه من
 نور الحق والبرهان .

[وجوب عرض الأحاديث على كتاب الله تعالى]

فرعمت جهلة الحشوية والعامة ، ومن كذب على الله ورسوله من ضلال هذه
 الأمة أن الكتاب يحتاج إلى السنة ، ولا تحتاج إليه ، وهم قد رووا عن رسول الله
 صلى الله عليه وعلى آله - أنه أمرهم أن يعرضوا على كتاب الله عز وجل من
 الروايات كلما اختلفوا فيه ، فقالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله : (إنه
 ليس من نبي إلا وقد كذبت عليه أمته ، وسيكذب علي كما كذب علي من كان

قبلي من الأنبياء ، فما جاءكم [عني] فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فهو مني وأنا قلته ، وما خالف كتاب الله فليس مني ولم أقله^(١) .

فما رروا من هذا عن رسول الله صلى الله عليه وآله فهو الدليل على أنه قد أمرهم وحكم عليهم ، بعرض كلما اختلفوا فيه على الكتاب ، فما وافق الكتاب وحققه قيل ، وصحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله وسلم ، وعُلم أنه منه وما خالف الكتاب علم أن رسول الله لم يقله ولم يأت عنه ؛ لأن رسول الله عليه وآله السلام قد أمرنا باتباع وحي الكتاب [والإتتمام بما نزل الله فيه قال الله سبحانه لنبيه فيما أمر به من إتباع وحي كتابه : ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾^(٢) وقال تبارك وتعالى لنبيه وهو يخبر عن إتباعه لكتابه وروحيه : ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾^(٣) وإنما أمر الله نبيه باتباع وحي الكتاب^(٤) [لأنه قد أكمل فيه كل حق ورشد وصواب ، فعلى كتاب ربكم هداكم الله فأقبلوا ، ومنه فاستمعوا - إن أحببتم - ترشدوا وتصيبوا وتفلحوا وتنتفعوا .

واذكروا قول العالم^(٥) رضي الله عنه ، وجمع في مستقر رحمته بيننا وبينه حين يقول : الحمد لله الذي جعل الهدى فيما نزل من كتابه مكملًا ، ونزل برحمته للعباد منه تبيانًا كريمًا مفصلًا ، فيه لمن استغنى به أغنى الغنى ، ولمن اجتنى ثمرات هداة أكرم بحتنى ، فلا تطلبوا رحمكم الله الهدى في سواه ، فإن الله برحمته قد أكمل لكم فيه حقه وبرهانه وهداه ، فإنكم إن أقبلتم بأفهامكم عليه ، وأصغيتم بأسماع عقولكم إليه وجدتم كلما طلبتم فيه ، من جميع العلوم ، يقول الله في الكتاب سبحانه ما أوضح قوله وبيانه : ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء ورحمة وهدى وبشرى للمسلمين﴾^(٦) .

(١) - تقدم تخريجه .

(٢) - الأحزاب : ٢

(٣) - الأعراف : ٢٠٣

(٤) - زيادة في المجموع المخطوط .

(٥) - إذا أطلق العالم فالمراد به الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ، وهذا معروف عند أئمة العزة وشيعتهم

(٦) - النحل : ٨٩

وقد علمتم أن العالم رضي الله عنه قد كان فسر من كتاب الله بعض ما فهمه الله منه ، وكان ما فسر رحمة الله عليه من القرآن ، بما نرجو أن يكون الله هداه له من الشرح والبرهان ، ما بين آخر الفرقان ^(١) إلى سورة التي ذكر الله فيها ﴿والشمس وضحاها﴾ ثم شغلته رضي الله عنه شواغل الأمراض والأسقام عما كان يرجو أن يعينه الله عليه من التفسير والشرح لتأويل القرآن ، فرأيت أن أتكلف إن شاء الله بعده من الاستعانة بالله وحده ، بشرح بعض ما أرجو أن يهدي الله إليه ، ويمن علينا في تفسير كتابه بالدلالة لنا على الصواب فيه .

وأنا أسأل الله بلطفه ورحمته السلامة في ذلك من الضلال [عن هدايته والعون على إصابة الحق والقول في تأويله بما يرضاه الله من الصدق] ^(٢).

فكان أول ما بدأت به إن شاء الله من التفسير سورة ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ وأسأل الله التوفيق لرشد الحق بالتبصير ، فاقروه إن شاء الله مستمعين ، وكونوا لأحسنه متبعين ، فإن الله سبحانه يقول في الكتاب وهو يذكر من هدى من أولي الألباب : ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾ ^(٣) بصرنا الله وإياكم الحق فيما نزل من نور الكتاب وجعلنا وجعلكم ممن هدى من أولي الألباب .

تفسير ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد﴾ فتفسير - والله أعلم - قول الله تبارك وتعالى ، المعقول المفهوم عند من وهبه الله علما وعقلا ﴿لا أقسم﴾ هو : تأكيد

(١) - أي آخر القرآن ، وهي السور القصار .

(٢) - الزيادة من المجموع المخطوط .

(٣) - الزمر : ١٨

للقسم ، والإقسام بالبلد التي كان فيها النبي عليه أَرْضِي الصلاة وأفضل التسليم ، وإنما معنى لا: ألا ، وسواء قيل: لا في الأفهام ، أو ألا ، وذلك فواحد هاهنا في المعنى فكان قول الله: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ إنما تفسيره : كيف لا أقسم بهذا البلد تعظيما منه تبارك وتعالى ، وتفضيلا للبلد ، حين كان محلا ومنزلا لرسوله محمد وتعظيم قدر محمد بن عبد الله وكبره صلوات الله عليه وعلى آله ، ما أقسم سبحانه بالبلد الذي كان محمد عليه السلام حالا فيها .

وتفسير ﴿وَأَنْتَ حَلٌ﴾ مفهوم عند كل من كان عالما بعربي اللسان ، لا يحتاج فيه عند أكثرهم إلى اشتغال بشرح ولا بيان ؛ لوضوحه عند علمائهم وجهالهم ، وما بدور فيهم من مفهوم اللسان بين كبارهم وأطفالهم ، وهو عند العالم منهم والجاهل: الحال بالبلد والنازل ، وسواء في لغة العرب قيل: فلان حل بالعراق ، أو نازل فيه ، أو قيل: فلان حال به وفي ساكنيه .

ثم قال تبارك وتعالى فيما كرر من القسم وثنى: ﴿وَوَالِدٌ وَمَا وَلَدٌ﴾ لما في الولد والوالد من آياته ، وعجيب آثار تدبيره وقدرته ، بينما الوالد كما جعله الله واحدا إذ خلق سبحانه منه نسلا كثيرا ، وولد بأعجب الأسباب والتدبير ، وأدل الدلائل على قدرة الله التقدير ، فأخرج من الوالد الواحد الفرد النسل الكثير ، ذا الألوف من العدد بنطفة مني ثمنى ، باجتماع الزوجين الذكر والأنثى ، وتصريف تدبير الله لتلك النطفة إذ صارت في الرحم فيما يصرفها فيه من التصاريف ، بينما هي في الرحم نطفة إذ خلق النطفة علقه ، ثم خلق النطفة العلقه مضغة فخلق المضغة عظاما فكسا العظام لحما ثم أنشأه خلقا آخر ، آيات من الله بعد آيات ، ودلالة منه سبحانه لخلقه على ربوبيته وقدرته بعد دلالات ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَاهَا عِظَامًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١) .

[الحكمة في إقسام الله تعالى بالمخلوقات]

ولما كان الوالد وما كان منه من النسل فيهما عجب من آيات الله عجيب ، ودلالة من دلائل قدرته وحكمته يفهمهما المفكر اللبيب ، أقسم تبارك وتعالى بهما ؛ لما أظهر من حكيم تدبيره فيهما .

واعلموا رحمكم الله أن كل ما أقسم الله سبحانه من الإقسام به منهما ومن غيرهما ، من أقسامه كلها في كتابه ، فعجب والحمد لله عجيب ، وصواب عند الله لأولي الأبواب مصيب ، لأن الله تبارك وتعالى أعلى من كل علي ، وأنه في الإرتفاع والعظمة فوق كل شيء ، فليس شيء في جميع الأشياء إلا والله أعظم منه وأكبر وأعلى ، فلم يكن ليكون القسم من الله سبحانه إلا بخلقه ؛ إذ ليس شيء من الأشياء من فوقه ، والله سبحانه فوق كل شيء ورب كل شيء موات وحي .

وكذلك ما أقسم بما أقسم به من آياته وخلقه وصنعه دلالة للخلق على عظمتهم سبحانه وعلوه وارتفاعه ، وأنه ليس من فوقه ما يقسم به ؛ لأنه الله رب كل شيء وخالقه ، ومليك كل شيء في السموات والأرض ورازقه ، ولا يقسم الله إذا أقسم إلا بما أقسم به من أسمائه ، أو بعجيب ما خلق من آياته في أرضه وسمائه ، فكلما أقسم به في أقسامه من التين والزيتون ، والفجر ، والسماء والطارق ، والشمس والقمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ، وغير ذلك مما أقسم به في كتابه من جميع أقسامه التي أقسم بها ؛ لما أحاط علمه من عجب أمرها باطن علمه ، فحكمة من حكم الله ، يدل أقسام الله بها على أنها من عجب آياته ، وما جعله الله دليلاً لأولي الأبواب على حكمته وقدرته .

ثم قال سبحانه : ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ يريد والله أعلم : في تقويم واعتدال وانتصاب وصعد ؛ لأن الله عز وجل لم يخلق في الاعتدال والإصعاد والتقويم والكبد والانتصاب شيئاً من الأبدان غير بدن الإنسان ، وفي ذلك عجب عجيب من التدبير والحكمة والبيان ، ولذلك ما يقول الله سبحانه العليم الحكيم : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ تذكيراً من الله تبارك وتعالى لهذا الإنسان بنعمته فيما

خلقه فيه من الكبد ، الذي هو التقويم والتصعيد ، وتفضيله لخلق الإنسان على خلق جميع الأبدان ؛ ليشكر ما أنعم الله به عليه في ذلك من نعمته ، وليعرف ما عرفه فيه من عجيب حكمته .

وقد ظن غيرنا أن ما ذكر الله من خلق الإنسان في كبد : هو ما الإنسان فيه مما يلاقي في معاش دنياه من التعب والكبد ، والذي ذكرنا من تفسيره أولى وأشبه وأوضح وأنور وأفهم وأوضح

ثم قال سبحانه : ﴿أَلَيْسَ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ كأن معنى ذلك والله أعلم : فكيف يغفل عن قدرة من أنشأه فيما أنشأه فيه من الكبد ؛ تذكيرا من الله تعالى للإنسان بما هو عليه من الإغترار به ، والنسيان لنعمته وإحسانه إليه ، وغفلته عن قدرته عليه .

ثم قال : ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لِبْدَا أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ والكبد : المتراكم الكثير الوافر ، الذي بعضه على بعض ، وفي آثار بعض ، يفهم هذا فيه المفكر الناظر .

ثم قال سبحانه : ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ تذكيرا من الله للإنسان بنعمته عليه في العينين واللسان والشفَتين ، لما فيهن من القوة والمعونة على فعل البر والتقوى والإحسان ، وما جعل له من القوة والمعونة بالعينين واللسان على تقواه والوصول بذلك إلى قبول ما نزل من نوره وهده ، وما ينال الإنسان بذلك أيضا مما أحل له من منافع دنياه ، فسبحان من خلق الإنسان وفطره ، وأنشأه وأراه من حكمته في تسوية خلقه ما أراه ، قال الله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (١) .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ فالنجد من الأشياء : فهو الظاهر العالي الذي لا يخفى ، ولذلك ما قيل لما برز من الأرض وعلا : نجد ، إذ ذلك إذا كان المكان من البلاد بارزا مرتفعًا قيل : إن تلك الأرض لنجد من الأنجاد ، دلالة على أنها ظاهرة بارزة من البلاد .

وما ذكر الله سبحانه من هدايته للنجدين فهما - والله أعلم - الطريقان في مصالح الدنيا والدين ، اللتان جعلهما الله ظاهرين غير خفيين ، ولذلك ما دعيا بهذا الاسم من النجدين ؛ إذ كانا قد هدى إليهما وكانا بارزين .

ثم قال سبحانه : ﴿ فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ﴾ فالعقبة - والله أعلم عند من يعرف اللسان العربي ويفهم - : فهي الشديدة من الأشياء ، ولذلك ما سمي العقب في الأبدان عقبا ولذلك ما سمي اللسان العربي الطرق التي في رؤوس الجبال عقابا ، يراد أنها كانت مكروهة لشدتها صعبا ، فلما كانت هذه الأفعال التي دل الله تبارك وتعالى عليها ورضيها وأحبها ، وزغب الناس فيها ، من فك الرقبة والإطعام في اليوم ذي المسغبة لليتيم ذي المقربة ، والمسكين ذي المتربة - شديدا تحشمها وتكلفها على من ييخل ولما كان تكلفها على أكثر الناس مما يشتد ويثقل ؛ سماها الله تبارك وتعالى : العقبة وأخير بما جعل لمن تكلف شدتها وثقلها من كريم الجزاء والثوبة .

والإطعام في اليوم ذي المسغبة : فهو الإطعام في يوم الجوع ، والأزمة : فهي الجذب والضرورة والحطمة ، لأن الجوع بعينه في اللسان : هو السغب ، وبذلك قديما وحديثا كانت تسميه العرب ، فأمر الله سبحانه بالإطعام في اليوم ذي المسغبة ، ورغب فيه تبارك وتعالى أكثر الرغبة ، ودل بقوله : ﴿ يتيما ذا مقربة ﴾ على أن أفضل ما يتقرب به من أطعم قرية ^(١) إطعام أيتام ذي الرحم والقربة .

والمساكين الفقراء : فهو ذو المتربة ، والمتربة من المساكين : فهو ذو الحاجة الملحة الشديدة ، الذي ليس له معاش ولا بلغة ، قد أفضى إلى التراب من شدة فقره ووصل إليه من الحاجة والعري الذي هو فيه ، وإنما سمي جميع من عرف اللسان العربية متربا ؛ لأنه قد أفضى من شدة الفقر إلى التراب إفضاء متربا .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ بعدما رغب فيما دعا إليه من إطعام ذوي المسغبة وأيتام القربات - أنه إنما يقبل فعل ما تقرب إليه

(١) - وفي نسخة : (أفضل ما يتقرب به من أطعم قريه) .

بالإيمان الذي معناه ترك كبائر معاصيه .

ثم ذكر الله سبحانه الصبر على فعل ما أمر به ، وجعل الصبر من أحسن ما دل عليه في كتابه فقال : ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة﴾ والمرحمة : فهي التواضع بين المؤمنين ، والتعاطف بينهم بالرحمة ؛ لأن الله سبحانه رحيم يحب الرحماء ، كريم فوق كل كريم يحب الكرماء .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ والميمنة : فهي اليمن والبركة ، ثم قال : ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة﴾ والمشأمة : الشؤم الذي صاروا به إلى الهلكة ، وصارت النار به على الكافرين بكفرهم وعصيانهم مؤصدة ، والمؤصدة : المحيطة المطبقة بالأبواب المشددة ، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن نجا بتقواه من سخطه وعقابه ، وأن يبعدنا من النار المؤصدة ، وما فيها من عذابه لأهل المعصية والعدوان ، وأن يسلمنا ويسلمكم من الهوان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ونعم الوكيل ، عليه توكلنا وهو رب العرش العظيم .

سورة الفجر وليال عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال ابو عبد الله محمد بن القاسم صلوات الله عليه : تفسير ﴿والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسري﴾ فما ذكر الله سبحانه من هذه الأشياء وكرر منها في إقسامه بها ، فأبان من عظيم آيات الله لما فيها من عجائب حكمة الله ، يخفى ذلك فيها ولا يغيب ، ي من وهبه الله عقلا ولبا ، ولما فيها من عجائب الحكمة ودلائل قدرة الله العظيمة ، لها الله قسما من إقسامه لتبينه ، بأقسامه بها على ما جعل فيها من حكمة ، وأي عجب أعجب من صنوع يياض الفجر معترضا حتى يستطير في أفق السماء كلها عرضا ، بعد سواد الليل وظلمته ، وكلال الأبصار يلونه وغشوته

، ومن هَذَا في الليل من الخلق عن حركته ، وسرّي بذهاب أوله ثم ذهاب وسطه ، وآخره وانكفاته كله يسبح في الفلك ، ويسلك فيما قدره الله له فيه من المسلك ، فقد يرى ذلك كله من شأن الليل وأمره - من نظر إليه عند تولي آخره ، ورأى الليل مقبلاً من المشرق عند آخر النهار وإدباره ، فرأى أوائل ظلمة الليل مقبلة من أقاصي الفلك ، ثم رأى انبساطه فيما جعله الله من المخرج والمسلك ، حتى يعلو ويظهر ويتسع وينتشر يطبق الأرض كلها ظلامه ، ويشهد سواده وإطباقه والتثامه ، ثم يسري الليل كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿والليل إذا يسري﴾ وكل من عقل عن الله لا يشك في سراه ، ولا يمتري ؛ لأن الليل له أول ووسط وآخر ، ولا يجيء آخره حتى يذهب أوله ووسطه ويدبر ، وهذا الدليل على مسير الليل وذهابه ، يصير عياناً كل ذي عين ، ويراه في إقباله وسراه ومسيره ، وذهاب أوله وصدره ، وانكفات أعجازه وأواخره عند ظهور الفجر واعتراض نوره عجب عجيب من آيات الله وتدبيره ، لمن فهم عن الله ما جاء في تبينه لذلك وتبصيره ، يقول الله تبارك وتعالى في بعض الأقسام بما أقسم به من آياته العظام : ﴿والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر﴾ تنبيهاً من الله تبارك وتعالى لمن عقل وفكر ، على ما أظهر من حكمته لمن فهم وأبصر بما قدر من أحوال الليل والنهار وما أرى سبحانه من تدبيره لهما من الآيات العظام .

والفجر فإنه من عظيم آيات الله ، وعجب عجيب من آثار قدرة الله في تنفسه وصدوع نوره ، وما قدر الله بظهوره من عجيب حكمته وأموره ، وتحرك هذا الإنسان وجميع ما يسكن بظلمة الليل من الحيوان عند طلوع الفجر فيما يتحركون له من المعاش والشأن ، وما قدر الله سبحانه من الحكمة لذلك وفيه ، فتكَلُّ وتَصْغُر عقول الناس عن معرفة كُنْههِ والإطلاع عليه ، ولما في الفجر من آيات تدبير الله وحكمة ما جعل الله تعالى من قسمه .

والليالي العشر التي ذكر الله تبارك وتعالى : فهي الليالي التي آخر أيامها يوم الأضحى ، فأقسم الله بها وذكرها لكي ما يعرف الناس فضلها وقدرها وما ذكر الله سبحانه من الشفع والوتر فمن الآيات عند ذوي الأبواب والفكر ، والوتر : فهو الواحد الفرد ، والشفع : فالاثنتان من العدد ، وإنما أقسم الله من ذلك بما أقسم به

لنبيه ، بما ذكر في كتابه ، على أن الشفع والوتر آية لذوي الأبواب والفكر .

ثم قال سبحانه : ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد ﴾ يعني سبحانه هل في الإقسام بهذه الآيات من الفجر ، والليالي العشر والشفع والوتر ، والليل إذا يسري - مقنع في القسم لذي حجر .

وذو الحجر فتأويله - والله أعلم - عند كل من يعرف اللسان العربي ويفهم : فإنما يخرج على أنه ذو العقل والعقل فمعناه في اللسان : الحفظ ، ولذلك قيل : فلان عاقل لبيب ، يراد أنه حافظ للفهم ، وللصواب مصيب .

ومن الدلائل على أن العقل هو الحفظ بعينه في معناه وقصده وتبينه قول جميع العرب إذا أراد حفظ البعير وتشديده بالحبال : يا فلان اعقل البعير بالعقال ، يريدون بعقله حفظه بالعقال ، وضبط الحفظ فهو العقل نفسه .

والحجر : فهو أيضا من حَجَرَ الشيء من الأشياء وحَفِظَهُ ، وأحاط بالشيء فلزمه مثل العقل بعينه في تفسيره وتبينه ، وذو الحجر فهو ذو العقل ، وذو العقل : فهو ذو الحجر ، وإنما يراد بذلك ذو الحفظ واللزوم للأمر المعقول المفهوم .

ومخرج هذه الأقسام التي ذكر الله في سورة الفجر عند قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ تخويفا منه تبارك وتعالى ووعيدا لعصاة العباد ، وذلك ما ذكر فعله في النقرة لعاد ارم ذات العماد ، والعماد : جماعة العمود ، وقد جاء فيما جاء من الأخبار عن عاد أنهم كانوا يسكنون المظال التي ترفع بالعماد ، والعرب تقول لمن يسكن المظال والأخبية : ساكن العمود ، فإن يكن ما ذكر من العماد سكناهم في بيوت العمد ، فالعماد جميعها ، وذلك فيما يفهمه كل أحد .

وقد يمكن والله أعلم عند من تفكر وتفهم أن يكون ما ذكر الله من العماد عمدا كان في بعض ما كانوا فيه من البلاد ، من حجارة أو بناء أو خشب ، نصبوها وصنعوها في بعض بلادهم ، لا يقدر على مثلها غيرهم من جميع الناس ؛ لما كانوا عليه من شدة البطش ، وما زيدوا من البسطة في الخلق على كل الأجناس ، ألا تسمع كيف يقول الله سبحانه : ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ وهو يخبر عن هذه الآية

المذكورة من عاد .

ثم قال : ﴿وَأَمْثَلُوا الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ واثمود : فقوم صالح صلى الله عليه والوادي : فبلد في بعض نواحي الحجاز معلوم معروف ، ويقال له : وادي القرى وبلد اثمود : موضع منه يسمى الحجر ، من يأتيه ممن في تلك الأرض من الناس مساكنهم فيه تعانين وترى قد نحتوها في أجواف الجبال نحتا ، وجابوا فيها قصورا منحوتة وبيوتا .

[الأهرام وصفتها]

ثم قال سبحانه : ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ والأوتاد والله أعلم : فأبنية كان بناها فرعون ، باقية إلى اليوم بأرض مصر تسمى الأهرام ، لم ير مثلها في جميع أبنية ملوك الناس في الجاهلية والإسلام ، كأنها لإشرافها وعظمتها هضاب من الجبال ، عظام الأصول مصعد إلى أعلى ، يراها في ما أخبرت من أشرف على أرض مصر عن مسيرة ليال - قد بنيت بالصخور الكبار العظام الرواسي ، التي لو اجتمع على مثل الحجر الواحدة منها عصابة من الناس لما حركوه ، فيما ذكر من رآها ولا أزالوه ، ترى الحجار في أعالي الأهرام فلا يدري الناظر كيف رفعوه ! وتلك الأهرام فيما أخبرني من رآها سبعة ، وهن على ما الله أعلم بقدره من الطول والعرض والسعة ، يقال : إن منها ما طوله في جو السماء أربعمئة ذراع صعدا ، ويقال : إن طول بعضها خمسمئة ذراع في الهواء مصعدا ، قدرت حجارتها ونحت وجوهها ، ثم أطبق بعضها على بعض عند بنائها ورصفها [فليس بينها زعموا مدخل الخلال من شدة تراصفها فأسست عند ابتداء بنائها على عرض عظيم] من السعة ، فجعل عرض أساسها ما بين أذرع مذروعة ، ثم ذهب في الجو صعدا ينقص عرضها كلما رفعت شيئا حتى دقت أعاليها بعد عرض أسافلها ، وهكذا ما أخبر من صفاتها كلها .

وكان أبي رضوان الله عليه يخبرني أنه كان يسمع أن تلك الأهرام كانت قبورا للعذارى من بنات الفراعنة ، وقد قال بعض الناس : إن فيها كنوزا لهم كنزوها في

الأزمان الجاهلية ، وقد ينبغي لمن تفكر وتفهم أن يوقن بأيقن اليقين ويعلم لتفهمه ^(١) لقول الله عز وجل في الكتاب : ﴿وَفَرَعُونَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أن هذه الأوتاد من أعظم آثار فرعون فيما كان فيه من البلاد .

ثم قال سبحانه : ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ فذكر تعالى هذه الأمم الماضية من عاد وثمود ، وفرعون ذي الأوتاد ، وأخير بما كانوا عليه من الطغيان في البلاد ، وما أكثروا فيها من الفساد ، وكيف كان بطشه بهم وفيهم حين انتقم منهم ونزل العذاب عليهم قال الله سبحانه : ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ تفسير قول الله - والله أعلم - : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أن الله لمصد معد لعذاب من يخالف أمره وعصاه من العبيد .

وتفسير قول الله - والله أعلم - : ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ مفهوم - إن شاء الله عند من فهمه الله بعض تأويل الكتاب - أنه إنما أراد أن يفهم كيف سرعة انتقامه وعقوبته إذا أراد أن يأخذ أهل معصيته ؛ ليعقل ويفهم من تفكر ويعلم ، أن سرعة عقوبته حين يأخذ أهل معصيته ، وفي سرعة وقوعها لمن مضى كسرعة صبه السوط في وقوعه ضربة واحدة وخطفته .

وقد يمكن - والله أعلم - أن يكون ما ذكر الله من صبه لهذا السوط من العذاب على هذه الأمم التي ذكر أنه دمرها ، فيما نزل من الكتاب ، خيراً على أن هذه الأمم التي ذكرها ، وأخير أنه أهلكها بفسادها ودمرها ، إنما أهلكها بجزء من أجزاء العذاب سماه سوطاً في تنزيل الكتاب ؛ ليعلم من عقل أن ما أعد الله لهذه الأمم في الآخرة من العذاب والنقم ، التي تخلد لهم ويخلدون فيها ، فلا تنقضي ولا تنصرم ، ليست كالسوط من العذاب الذي عذبوا به في دنياهم ؛ ففتنوا به في الدنيا هم وأفناه الله حين أفناهم ، فنعوذ بالله ورحمته من سخطه وعقابه ، ونسأله النجاة بالعون على طاعته من سطوة عذابه لمن خالفه وعصاه ، ولم يؤثر رضوانه وتقواه .

ثم ذكر سبحانه جهالة هذا الإنسان وما لم يزل عليه الناس إلا من عصم الله من

(١) - في بعض النسخ [عند تفهمه]

الغفلة والخطاء والنسيان بقوله: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ وتفسير ما ذكر الله من هذا والله أعلم: أنه إذا ما ابتلى الإنسان بتوسعة رزقه وعطاياه، وما ينال بتوسعة الرزق من النعم في دنياه، غفل الإنسان بذلك عن ذنوبه وخطاياها، فظن أن ما نال من رزق الله بكرامة من الله لرضاه عنه، وأنه قد سلم عند الله، وفيما بينه وبينه، ويغفل عن ذنوبه وخطاياها، ولا يفهم أنه أراد امتحانه وابتلاه؛ ليرجع عن معصيته، ويعمل برضوانه وطاعته، ويشكر ما أولاه عند ذلك من نعمته.

وأما إذا ما ابتلى الله سبحانه الإنسان فقدر عليه رزقه، وقدره عليه: أن لا يبسطه ولا يوسع لما هو أعلم به في ذلك من صواب تدبيره، في يبسطه إذا شاء رزق الإنسان وتقديره بعد حكمته في كل، وعلمه بما أصلح وأرشد وأصوب وأخير به، فعند ذلك ما يقنط الإنسان ويسوء ظنه، ويرى أن الله قد سخط عليه وأهانته، ويغفل، غير أن أفعال الله التي تأتي من الله في الأحوال كلها، على ما لا يشك من يعقل أنها عليه من صواب عدله.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿كلا بل لا تكرمون اليقيم ولا تحضون على طعام المسكين﴾ يرشد ويدل على ما يحب ويرضى من إطعام المسكين، وإكرام اليتامى لرأفته سبحانه باليتيم والمسكين، وما أراد من عباده في إطعام المسكين، وإكرام اليقيم من الحق المحمود الكريم، الذي يعطي عليه من ائتمر فيه بأمره الثواب العظيم.

وفي قول أرحم الراحمين: ﴿كلا بل لا تكرمون اليقيم ولا تحضون على طعام المسكين﴾ دليل - والله أعلم - على أن ما يرى العباد من التقدير على من قدر عليه الرزق من المرزوقين إنما كان لما عليه أكثر الناس من الغفلة عن إكرام اليقيم، والحض على طعام المسكين، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿كلا بل لا﴾ تفسير قوله والله أعلم: ﴿كلا بل لا﴾ يدل على أنهم لو أكرموا اليقيم، وأطعموا المسكين وفعلوا في ذلك ما أمرهم به الرحمن الرحيم، لما قدر رزقه ولوسع الرزق بينهم.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وتأكلون الثراث أكلا لما﴾ والأكل اللم: فهو الأكل

السريع والجسم ، الذي يشبه في سرعته وضمه ما يرى من الفم ، وعيدا منه سبحانه لمن أكل تراث اليتامى ، ونهيا عن ذلك ، وتحذيرا لمن فعله بأن أنذرته عذابا أليما .

ثم قال: ﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جِأَةٍ﴾ والجَم : الكثير المتصل الوافر الذي لا ينقطع ولا يفتر ، نهيا عن فرط الحب للدنيا والمال ؛ لما يصير إليه من أفرط في حب ذلك من الركوب للظلم ، في كثير من الأمور والأحوال .

ثم أخبر سبحانه بيوم انتقامه وعقوبته لمن خالف ما أمره به من تقواه وطاعته فصار إلى الجرة على معصيته ، وعما يكون في يوم القيامة من عظيم آياته يقول: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًا وَدَكًا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ودك المدكوك : فهو تكسيره وتحطيمه ، ودق بعضه ببعض وتهشيمه ، وذلك حين تدك الأرض بالجبال فتصير الجبال كالكتيب المنهال ، قال الله تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ .

[معنى مجيء الله وإتيانه]

وما ذكر الله من مجيئه : فهو مجيء أمره ونقمته وظهور ما يظهر يوم القيامة من عظيم آياته ، وما يكون يومئذ من عقابه لأهل معصيته ، فلما بدا من آيات الله العظام في يوم القيامة ما كان لا يعاين ولا يرى من فعله في دار الدنيا ، فرأى الخلق يومئذ من أخذ الله بانتقامه للعاصين ، وشدة زلزال بطش عقاب الله بالظالمين ، ما لم يكونوا في دار الدنيا يرون ، جاز أن يسمي الله - تبارك وتعالى كما يسمعون إتيان أمره وآياته عند أخذه لأهل معصيته لشدة بأسه وعقابه وما يصير إليه من أطاعه من كريم ثوابه - إتيانا منه ؛ إذ كان ما ظهر في ذلك كله من الآيات العظام إنما كان بقدرته وعنه وذلك مفهوم في لسان العرب عند من كان ذالبا ، قد يقولون اليوم في مفهوم اللسان بينهم ، عندما يكون من سطوات ملوكهم فيهم ، وعند حلول جنود ملوكهم عن بعضيه : جاء القوم مالا يطيقون حين سطا جنود ملكهم بهم في الدنيا ، ويقولون : جاءهم الملك والخليفة ، وإنما جاءتهم جنوده المبعوثة ، فلما كان يسدو للخلق في يوم القيامة من الزلزال والآيات العظيمة ، بما يكور من الشمس والقمر ، وينثر من النجوم

وما يدي الله - ملك الملوك وربهم الحي القيوم - من الآيات العظام ، التي يظهرها في ذلك اليوم ، وكأن العصاة الظلمة من الآدميين عنها ، وعن الحذر بها في دار الدنيا غافلين ، وعمّا أنذرهم الله ورسله منها معرضين ، كان معقولا عند من فهم عين الله من ذوي العقول والأفهام - قول الله ذي الجلال والإكرام : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ و﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾^(١) لما جاءهم يوم القيامة أمر الله ، وبدا لهم ما لم يكن يبدو من انتقام الله ، وحكم تبارك وتعالى بينهم بالحق والفصل ، ووضعت موازين القسط التي معناها ما يكون يومئذ من العدل الذي لا يغادر معه صغيرة ولا كبيرة من الإساءة إلا أحصيت ، ولا حسنة من الحسنات تدق ولا تحل إلا أحصي ثوابها وحصرت وأحاط بالظالمين يومئذ من بأس الله ما كانوا يحذرون ، ورأوا حينئذ كل ما كانوا به ينذرون ، وحكم بين الخلق فيما كانوا يختلفون ، وبدا لهم في ذلك اليوم الأعظم ما كانوا به من جهنم يوعدون ، قال الله سبحانه : ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ والمحيى بها : فهو حضورها ، وإبداء الله لها فرأوها وسمعوا شهيقتها وزفيرها ، وأبصروا تضيئها وجليها وسعيرها ، وأخذتهم الأغلال والسلاسل ، وأحاطت بهم الكروب والزلازل وصف الروح والملائكة صفا صفا ، وامتألت قلوب العاصين رعبا وخوفا ، كان حضور أمر الله في ذلك كله مجيئه جائر به ، مفهوم فيه ومعه أن يقال : جاء ربك حين جاءت البطشة الكبرى ، وبدا من الله في ذلك ما لم يكن يعاين الكفار في دار الدنيا ، وجاء يومئذ ثواب الله لأهل الطاعة والتقوى من جنات النعيم التي يخلدون فيها فلا يفنون ولا يفنى ، ولا يتوهم الخير - في المحيى من الله سبحانه والإتيان - انتقال ولا زوال من مكان إلى مكان ، جل عن ذلك وتبارك وتعالى ؛ إذ ليس كمثله شيء ، ولم يكن له شيء مثلا ، ليس بزائل سبحانه ولا متقل ، ولا يوصف بهبوط من علو إلى سفلى ، وليس بمثل سبحانه في شيء من أموره كلها بمثل ولا ند ، ولا مثل له ولا نظير ، ولا كفو ولا شبيه ولا عدیل ، له الأسماء الحسنی والأمثال العلی ، نعوذ بالله من سخطه ومعصيته ، ونسأله أن يؤمن روعنا يوم القيامة بعفوه ومغفرته ويسعدنا بإيثار تقواه وطاعته لنا يوم الفرغ الأكبر باتباع مرضاته ، ولا

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، عليه توكلنا وهو رب العرش العظيم .

ثم قال ذو العزة والعظمة والقدرة فيما ذكر من الخير الصادق عن يوم القيامة والحسرة : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ وتفسير ذلك : أن الإنسان سيذكر بما فرط فيه من الطاعة والتقوى ، فيندم حيث لا ينفعه الندم ، عندما يعاين ويرى من عظيم الآيات في يوم البطشة الكبرى ، فيندم ويفكر ويتذكر وأنى له التذكر وعند ذلك ما يقول : ﴿يَا لَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يعني في أيام دنياه ، وقيل : ما كان من وفاته تذكر أو ندامة ، على ما فاته من تقوى الله وطاعته ، وألا يكون قدم ذلك قبل حضور أجله وموته ليوم بعثه ونشوره وخلده ، فيصير بطاعة الله لو كان أطاعه واتقاه إلى الثواب الذي أعده الله لمن يتقيه ويطيعه ويخشاه .

قال الله سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ وتأويل ذلك : أن الإنسان فرط في الذكرى حتى انقطعت عنه أيام حياة الدنيا التي جعلها الله دار المهل والبلوى ، فترك الطاعة والتقوى حتى صار إلى الدار الآخرة ، التي ليست بدار مهل ولا بلوى ، وإنما هي دار ثواب وعقاب وجزاء ، يجزى فيها كما قال سبحانه تبارك وتعالى : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ .

ثم قال سبحانه وهو يخبر عن شدة عذابه وانتقامه لمن عصاه وعقابه : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدًا﴾ وتأويل ذلك : أنه لا يُعَذِّبُ عَذَابُ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ، وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدًا مِنَ الْمُوْتَقِينَ ، فنعوذ بالله من سخطه ونقمته ونسأله العفو والمغفرة برحمته .

ثم قال الله تبارك وتعالى - وهو يخبر عن نفوس المؤمنين في يوم القيامة الذي هو يوم الدين ، وقوله عند فصله بين خلقه لحكم عدله وحقه ، فيما فصل بينهم تعالى بالعدل في مقامهم الذي جمعوا فيه لحكم الفصل ، وصار العاصون إلى مقرهم من النار ، وقيل لنفوس المتقين الأبرار الذين ألقى الله عليهم السكينة من روعات ذلك اليوم فلم يرتاعوا ، وأنزلت على قلوبهم الأمانة من فزع يومئذ فاطمأنوا ولم يفزعوا - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إذ في اطمئنانها يوم الفزع الأكبر أعجب العجب وأعظم المنة

﴿ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ وتفسير رجوعها إلى ربها : هو رجوعها إليه فيما وعد من ثوابها ، قد رضي سبحانه منها بتقواها وطاعتها ، ورضيت بما صارت إليه من الثواب والنعيم في جنتها ، والنفوس هاهنا المطمئنة : جميع نفوس المؤمنين الذين يكونون يوم الفزع الأكبر آمنين مطمئنين ، وسواء قيل : يا أيها النفوس المطمئنة ، أو قيل : يا أيها النفوس ، عند من يفهم في ذلك ما أفهمه الله الملك القدوس كما سواء في الشرح والبيان قيل : يا أيها الناس ، أو يا أيها الإنسان .

ثم قال تبارك وتعالى للنفوس المطمئنة من أهل التقوى : ﴿فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ ودخولهم في عباده فهو مصيرهم في الجنة إلى مقر أوليائه ، ولحوقهم بمن عنده فيما أعد لهم من ثوابه - والحمد لله رب العالمين - ونسأل الله أن يجعلنا من أوليائه المؤمنين الذين يكونون في يوم الفزع الأكبر آمنين مطمئنين ، وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته المتقين .

تفسير {هل أتاك حديث الغاشية}

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ والغاشية : الساعة من يوم القيامة المنتظرة الجاثية التي تغشى الناس بغتة وهم عنها غافلون ، ولا يعلم وقت مجيئها وغشيانها إلا الله رب العالمين .

وحديث الغاشية فيما ذكر الله من أمرها وإتيانها وخبرها وما يكون فيها من البعث والحساب وما أخبر به سبحانه من الثواب والعقاب ، ومن حديث الغاشية ما ذكر الله في هذه السورة قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة﴾ وما أخبر فيها عن الوجوه الناعمة ، والوجوه يومئذ الخاشعة : فهي الوجوه الذليلة بعصيانها الخاشعة .

والعامللة الناصبة : فهي التعبة المكروبة الدائبة ، التي قد أعملها كرب العذاب والنار وأتعبها ، فهي مشغولة مفدوحة بعذابها دائبة ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿تصلى نارا حامية﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿تسقى من عين آنية﴾ وتفسير الآنية : هي النار الحارة الحامية ، فمن أعمل أو أشغل أو أدأب أو أكره أو أنصب ممن أنصبه وأعمله وشغله كرب العذاب والنار ! وما يشرب من العين الآنية من الماء الحميم الحار !! .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ والضريع في لسان العرب : فهو اليابس الضارح من الشجر ، والضارح في اللسان - فاعلم من الأشياء - : فهو النحيف اليابس الذي ليس بذى لين ولا ارتواء ، تقول العرب لما ييس من شجرة خشناء تدعى (الشريق) إذا ييست وأكلت وذهبت رطوبتها ولينها وعادت عيدانا يابسة وشوكا وذبلت : رأينا في أرض كذا وكذا ضريعا من شريق يابسا مكدودا ، والضريع فمعناه : اليابس القاحل الخشن ، الذي ليس برطب ولا لين ، فهو لا يزيد كل بدن أكله إلا ييسا وعجفا ونحافة ، وهزا وخشنة وجفوا ، فنعوذ بالله الرحمن الرحيم من عذاب النار وأكل الضريع والزقوم

ثم ذكر سبحانه أهل الطاعة والتقوى ، الذين صاروا بسعيهم في رضوانه إلى أرضى الرضى فقال فيهم تبارك وتعالى : ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ والناعمة : فهي الحسنة الألوان والأسباب ذات البهجة والنضرة والبهاء والإزدهار ، التي قد رضيت ما كان من سعيها في دار الدنيا ؛ لما رأت ما أثابها الله به من النعيم في جنة الخلد والبقاء قال سبحانه وهو يذكر في هذه السورة بعض صفات أوليائه في الآخرة : ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ .

ثم أخبر سبحانه بما نعمت فيه من الثواب والكرامة فقال : ﴿في جنة عالية﴾ وتفسير العالية : المرتفعة السامية .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ وتأويل ما ذكر الله سبحانه من اللاغية : فهي الكلمة القبيحة المشينة ، يخبر سبحانه أن أوليائه لا يسمعون في الجنة

لغوا ولا كلاما ممقوتا مؤذيا ، قال الله سبحانه : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما ﴾ ^(١).

وأما قوله سبحانه : ﴿ فيها عين جارية ﴾ فالعين قد يمكن أن تكون العيون الكثيرة لأنه قال سبحانه في موضع آخر من كتابه : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ ^(٢) وقد يدعى الجميع باسم الواحد في اللسان ، وقد قال : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ و ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ السرر المرفوعة : فهي المستقلة المرتفعة ، وتلك أحسن ما يكون من السرر هيئة وصنعة .

ثم قال سبحانه : ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ يعني سبحانه أنها مهيآت منتشرة موضوعة حاضرة .

ثم قال : ﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ وتأويل ما ذكر الله من النمارق المصفوفة : فهو المطابقة المعتدلة المصفوفة ، وذلك من وصفها وهيأتها أحسن ما تكون عليه من صفاتها ﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ والزرابي المبثوثة : فهي الكثيرة المبددة ، وذلك من أحسن وضع الزرابي خاصة .

ثم قال سبحانه وهو ينبه على الفكرة في آياته والإستدلال على وحدانيته وحكمته بما خلق في أرضه وسمواته حين يقول تبارك وتعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ فكل ما ذكر الله سبحانه من هذا كله فمن عجيب آياته وفعله ، ومن الدلائل على قدرته ووحدانيته وحكمته ، تدل كل من فكر ونظر فيه ، ورمى ببصره متأملا إليه على أن صانعه في الكبرياء والقدرة والجلال ، الله الذي لا يشبهه شيء ولا يمثل بأمثال فأى عجب أعجب ! ودليل على قدرة الله أقرب مما يرى من رفع السماء في موضعها ، وما هي عليه من استقلالها ورفعها بغير عمد ثابتة لا تزول وهي من الكبر والعظم على ما تحار فيه العقول ، مع ما فيها من الآيات من الشمس والقمر

(١) - الواقعة : ٢٥ - ٢٦

(٢) - الحجر : ٤٥

والنجوم المضيئات ، وما قدر الله من مسير الشمس والقمر من علم عدد السنين والحساب والأوقات والليالي والأيام والحر والبرد والساعات !!.

وما ذكر الله سبحانه من خلق الإبل فعجب عجيب إذا نظر فيه المفكر اللييب ! لما جعلها الله سبحانه عليه من عظيم الخلق ، وشدة أسر الأوصال ، وما كفى الله بها الناس من حمل فادح الانتقال ، وما جعلها عليه من قوتها وشدتها من السخرة والتذلل وجعل فيها من الجمال وبلوغ الحاجة والسفر البعيد !! قال الله ذو الجلال والإكرام وهو يذكر ما جعل من النعمة في الأنعام : ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾^(١) فهي كما قال سبحانه تحمل من الانتقال ، وتطيق من كبار الأحمال مالا يحمل غيرها من الدواب التي جعلها سخرة للركوب والأسفار - فسبحان الكريم الرحمن الجبار . وأي دليل أدل على ما ذكر الله سبحانه في تسخيرها - مما هي عليه من الذلة ! مع عظم خلقها وشدة أسرها وما يدل عليه من غلبتها - الكبير من الدواب والحيوان ، لما هو أشد أضعافا من الإنسان ، فمن يرى الإبل وتسخيرها وأمرها إلا علم أنها لم تذلل فنقوى عليها إلا بتذليل الله وتسخيرها ، فأمن الإنسان من مغالبتها وقهر صياها وشدتها ، ولولا تسخير الله لها ما كان الناس لها مقرنين ، فسبحان الله وحمده الرؤوف الرحيم .

وقد زعم بعض من الجهال ومن لا يعرف ما نزل الله به من القرآن في عربي اللسان - أن الإبل التي ذكِرَتْ غَيِّمُ السحاب ، وهذا لا يحتاج لقائله - لانكشاف جهله - إلى جواب ، والحمد لله رب العالمين كثيرا ، الذي ذلل الأنعام وسخرها تسخييرا .

وما ذكر الله سبحانه من الجبال ونصبها ، فمن دلائل آيات الله وعجائبها ، إذ الجبال في كبرها وعظمتها وثقلها التي فاقت فيه جميع ما في الأرض كلها - أشد ما في الأرض علوا وانتصاها ، وأرفعه في الجو سموا وذهابا ، فمن فهم وفكر فعقل وأبصر علم أن الجبل في عظم أسرها وثقلها وقوتها في ذلك لجميع ما في الأرض كلها لم

تستقل منتصبه ، ولم تثبت منذ كونت فيها راسية - إلا بالله الذي أمسكها وقوته، وما أقلها وأثبتها من قدرته ، فسبحان من نصبها في جو السماء مع ما هي عليه من عظمها وثقلها ، وجعل فيها مع شدتها وصعوبتها ما جعل من فجاج سبلها التي جعلها مسالك ذللها طرقا لمن سلكها من أهلها .

وما ذكر الله سبحانه من سطع الأرض الذي تفسيره ما جعلها عليها من الدحو والسعة والعرض فعجب عجيب من الآيات ، ودلالة منيرة على قدرته من الدلالات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ وتفسير هذا والله أعلم : أن الله أمر رسوله صلى الله عليه وآله أن يذكرهم بالله وآياته ، وبما أمر به من طاعته والإنتهاء عن معصيته ، وما وعد على الطاعة من مثوبته وبما توعد به أهل المعصية من أليم عقوبته .

وتأويل ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ هو أن النبي صلى الله عليه وآله لم يؤمر بتسطيع حسابهم ، وأن حسابهم إلى الله خالقهم وربهم^(١).

فأما قول الله تبارك وتعالى : ﴿إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ فيفهم تأويله بقوله : ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ كأن تفسير ذلك أنه إذا ذكر فسيذكر من تذكر إلا من تولى وكفر ، فأخبر الله أنه سيعذب من تولى وكفر العذاب الأكبر .

ثم أخبر سبحانه ﴿إن إلينا إياهم ثم إن علينا حسابهم﴾ وتفسير الآيات : الرجوع إلى الله والإنقلاب ، ثم أخبر تعالى بأن عليه حسابهم ، والحساب هاهنا تأويله : المحاسبة بأعمالهم والجزاء منه لهم بالعقاب على سيء أفعالهم ، فنسأل الله أن يجعلنا ممن يذكر ما ذكر به ، وأن يمن عليها بفهم ما نزل من كتابه ، والحمد لله رب العالمين كثيرا ، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما

(١) - في تفسير الإمام زيد عليه السلام معنى ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ أي قاهر مسلط .

تفسير سُبْحِ اسم ربك الأعلى بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحِ اسم ربك الأعلى﴾ فتأويل سُبْحِ والله أعلم تبارك وتعالى : بَعْدَ اسم ربك ونزّهه عما يصفه به المشركون ، وتقول به من الكذب عليه العماة الذين لا يعقلون من الإلحاد في أسمائه وصفاته ، والكفر لنعمه ، والعمى عن حجته وآياته .

ثم قال سبحانه : ﴿الذي خلق فسوى﴾ وكذلك الله تبارك وتعالى خالق كل مخلوق بأحسن التعديل والتسوية ، وواضع كل ما صور في خلقه من الصور في مواضعها بأحسن التقدير والتهيئة .

ثم قال سبحانه : ﴿والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غشاء أحوى﴾ فالله سبحانه الذي قدر الأشياء كلها على أحسن المقادير ، وهدى إلى كل رشد في دين أو دنيا وصواب ، ودل على كل بركة وخير ، ﴿هو﴾ الذي أخرج المرعى فجعله غشاء أحوى والمرعى : فهو الرعي الذي ترتع بهيمة الأنعام ، التي جعلها الله منافع لني آدم ، يقول الله ذو الجلال والإكرام : ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذلّلناها لهم فمنا ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾^(١).

وقال سبحانه وهو يذكر نعمته على البشر بما جعل في الأرض من المعاش لهم وإحسانه تعالى إليهم ، وبما كفاهم من أرزاق ما أعطاهم من بهيمة الأنعام وخولهم فقال : ﴿وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين﴾^(٢) وما ذكر سبحانه من شبه الرعي إذا خرج وبدأ بما هو له شبيه من خفيف الغشاء ، والغشاء : القذا الصغار الخفاف الذي على السيل إذا جرى ، والأحوى : فهو الأصفر من أطرافه ، وكذلك

(١) - يس : ٧١ - ٧٣

(٢) - حجر : ٢٠

الرعي فهو يخرج إذا بدا بنبت أصفر من جوانب ورقه ، والعرب تدعو الشاة إذا كان خداهما أصفرين : حوى ، وهم على هذا في اللسان مجتمعون غير مختلفين .

ثم قال سبحانه : ﴿سَنَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾ وتفسير سنقرئك والله أعلم : سنعلمك القرآن ونقص عليك فيه العلوم والأخبار ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ أي فلا تكن ناسيا ، أمرا منه سبحانه لنبيته بأن يكون ذاكرة لا غافلا ولا متوانيا ، يقول الله سبحانه : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ إخبارا عن قدرته على أن ينسي إن شاء الله من خلقه ما أراد أن ينسيه ، ولا يكون ذلك إلا بأمر وعلة من العلل لحمة الله وعدله يوجب ذلك عليه ، والله كما قال سبحانه الذي يعلم جهر من جهر وسر من أسر .

ثم قال سبحانه : ﴿وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ تبشيرا منه تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله بأنه سييسره لكل يسر ويسرى [وسيسر] ^(١) في دينه ودنياه ، وما يرتضيه .

ثم أمره سبحانه بالتذكير للعباد بما أمره بتذكيرهم به من نعمه وآياته والرجوع إليه والمعاد فقال : ﴿فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ سِيَذُكَرْ مِنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ يقول سبحانه : إن نفع الذكرى فيهم لما هم عليه من غفلتهم ومعاصيهم .

ثم أخبر بمن يصير إلى التذكر الذي هو الذكر ، فأخبر أنه من خشى من خلقه واتقى ، وأن الذي يتجنب الذكرى هو من خلقه الأشقى ، فأخبر أن الأشقى الذي لا يصير إلى الذكرى هو الذي يصلى النار الكبرى ، والنار الكبرى : نار جهنم التي لا يشبهها نار من النيران في العظم ، والتي هي أبدا تلهب وتضطرم ، نسأل الله بعفوه ورحمته أن يعيذنا وإياكم عنها ، وأن يسلمنا بمنه وفضله ويسلمكم منها ، قال الله سبحانه وهو يذكر من يصلى النار الكبرى : ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ وكذلك من كان في تلك النار من الكفرة فليس بميت ولا حي ؛ لأنه من حريقها — نعوذ بالله منها - وعذابها في أخزى الخزي ﴿لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا﴾ ^(٢) فينقطع عنه ما هو

(١) - ما بين أقوس الزيادة من ب .

(٢) - فاطر : ٣٦

فيه ، بل العذاب في النار والخزي والهوان دائم عليه فليست حياته فيها بحياة إذ لم يكن له فيها إلا العذاب الذي أخزاه ، يقول الله سبحانه : ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾ وهذا من القول والخبر صدق مفهوم المعنى .

ثم أخبر سبحانه بأثرة من يؤثر الحياة الدنيا التي تنقضي وشيكا وتفنى ، على دار الآخرة التي ليس للحياة فيها غاية ولا انقضاء ، كل من فيها فمخلد من المطيعين والعاصين في داره ، إن كان من أهل الجنة ففي الجنة ، أو من أهل النار ففي النار ، فقال تعالى : ﴿بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ يقول سبحانه : إن هذا من الخير عن إفلاح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴿لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ .

تفسير {والسما والطارق} ؛

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿والسما والطارق﴾ لما ذكر الله سبحانه من القسم سماه فلما فيها من عظيم آياته ؛ إذ هي على ما جعلها الله عليه من عجيب الصفات ، في العظم والكبر والإستقلال بغير عمد ، وما فيها من عظيم الآيات بما قدر الله فيها وبها ، من جري النجوم الجارية ، وما جعل الله بها من الحر والبرد ، وعلم السنين والحساب والأوقات .

والطارق : فهو النجم ذو الذنب الذي يرى ليلا ، ويطرق في الحين الطويل فقد رأيتموه ، ورأيناه مرة بعد مرة وإنما قيل له : الطارق - والله أعلم - لأنه لا يرى إلا بالليل ، والعرب تسمي ما جاء من الأشياء ورئي ليلا - : آتيا وطارقا ، وهذا النجم يرى في الزمان بعد الزمان ، ليلا غريبا ومشرقا .

وإنما جعله الله قسما ؛ لعلمه بما فيه من أسرار الآيات ، يقول الله فيه سبحانه عالم

الخفيات: ﴿وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب﴾ والثاقب: فهو الذي يبين نوره وينقب، وفي مثل هذا من أمر النجم العجب العجيب، وإذا قال الله تعالى في شيء من عجيب آياته وأمره: ﴿وما أدراك.... ثم ما أدراك﴾ فليعلم من سمع أن ذلك لعظم المذكور وكبر قدره.

ومخرج القسم من الله سبحانه بالسماء والطارق في قوله تعالى: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ وتفسير ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ هو: أن كل نفس لما عليها حافظ يحفظ أعمالها، ويحصى عليها أفعالها وأقوالها.

ثم نبه الله سبحانه الإنسان على أن ينظر في العجيب من آياته، وفي ما يدل على قدرة الله وربوبيته إذ يقول سبحانه: ﴿فليُنظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾ والماء الدافق: فهو النطفة المندفقة من الإنسان عند إمائه، والدافق: فهو الماء المنصب دفقة واحدة، ودفقة المندفق، وأي آية أعجب أو تعجب أكبر وأصوب من خلق الإنسان من الماء المهين الدافق، فسبحان الخالق الذي خلق الإنسان من أضعف الأشياء وأوهنها، وأقلها قوة وأمهنها، فجعله على ما جعله عليه مخلوقاً، من الماء الميت المهين فتبارك ذو الحكمة وأحسن الخالقين، فأنشأه من الماء المهين فإذا هو خصيم مبين حياً ناطقاً مفكراً قائماً قاعداً مقبلاً مدبراً، يقول الله سبحانه: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾^(١).

وأما تفسير قوله سبحانه: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ فإنه قد قيل: إن الماء الذي يخلق منه الإنسان يكون من الرجل والمرأة، فأما ماء الرجل فيجيء ويخرج من صلبه، وأما ماء المرأة فمنشؤه ومجيئه من ترائبها فسبحان الله ذي القدرة.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إنه على رجعه لقادر﴾ وتفسير ذلك - والله أعلم سبحانه - : أنه - إذا خلقه من الماء المهين الدافق، ونقله في الخلق تارة بعد تارة - قادر على أن يرجعه بعد موته وبلائه بأقدر القدرة.

ثم أخبر متى يرجعه ويحييه وينشره، فيجدد بدنه بعد البلاء، وينشئه فقال: ﴿يوم

تبلى السرائر وهو : يوم القيامة الذي تبلى فيه كل سريرة ، ويكشف فيه ما كان يستر في الدنيا كل مستورة ، يقول الله سبحانه : ﴿فما له من قوة ولانا صر﴾ يعني سبحانه : فما للإنسان يومئذ في دفاع المعاقبة بعمله والجزاء له عن سيئ أفعاله من قوة يدفع بها ذلك عن نفسه ، ولانا صر ينصره من قريب ولا عشير فيلجأ إلى نصرته .

ثم قال سبحانه : ﴿والسما ذات الرجع والأرض ذات الصدع﴾ فالرجع من السماء - والله أعلم - : دوران فلكها ذاهبا تحت الأرض ، وراجعا من فوقها - والله أعلم فيما نظن - هو : الرجع من السماء بعينه ، وذلك فمفهوم فيها عند الفكرة فيه وتبيينه ، والصدع من الأرض : فهو انفراج منها وفيها ، وقد يكون ذلك لما يتصدع عنه ، من عجيب النبات والأشجار التي يظهرها الله عليها ، ويمكن أن يكون ذلك صدعا من الصدوع لا يراه الناس في بعض أطرافها ونواحيها لأمر قدره الله من أمورها ، فذكر الله ذلك الصدع لعظيم ما فيه من الآيات وكبرها يقول الله سبحانه بعد هذا القسم ، وبعد ما دل عليه في السماء ورجعها ، والأرض وصدعها من عجيب الآيات والحكم : ﴿إنه لقول فصل وما هو باهزل﴾ يقول سبحانه هذا القول ، وما جاء به من الخبر الذي ذكره في هذه السورة ، وما أخبر به من وحيه في جميع السور ﴿لقول فصل وما هو باهزل﴾ والفصل والله أعلم : - فهو الفرقان ، والبرهان الفاصل بين قوة الحق وضعف الباطل . والهزل من الأخبار : فهو الزور .

ثم قال سبحانه : ﴿إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا﴾ وتفسير الكيد : الإرادة للأمر فهم يريدون أمرا ، ويريد الله سبحانه أمرا ، وإرادة الله النافذة الغالبة ، وهو أقدر تعالى ، وأقهر قهرا ؛ لأن إرادته الغالبة غالبية لإرادة كل مريد ، وكيدته سبحانه أبدا فهو الذي يهلك معه ويتمزق كيد كل ذي كيد .

ثم قال سبحانه لنبيته صلى الله عليه وآله ، وهو يخبر لما يصير الكافرون بعد المهل من العقاب إليه : ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويدا﴾ والرويد : فهو القليل وقوله الله سبحانه : ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويدا﴾ أشد ما يكون من الوعيد بالعقاب وأرعبه وعيدا ، فنستغفر الله لنا ولكم من طول الحيرة في الحائرين ونسأله أن يجعلنا

بالأعمال الصالحة لوعيده حذرين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل عليه توكلنا ، وهو رب العرش العظيم .

تفسير : والسماء ذات البروج ؛

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود﴾ فهذه أقسام من الله سبحانه بالسماء وبروجها ؛ لما في ذلك من عظيم الآيات وعجيبها ، واليوم الموعود : فهو يوم القيامة ، والحشر الذي وعد الله به جميع البشر ليحكم بينهم يومئذ فيما كانوا فيه يختلفون ، وليجازي كل امرء من المطيعين العاصين بما كانوا يعملون .

﴿وشاهد ومشهود﴾ فيشبه - والله أعلم - أن يكون الشاهد : من يعاين ويشهد ويحضر يومئذ من البشر ما كان يوعد به ، من المجازاة على الخير والشر . والمشهود : فيمكن - والله أعلم - أن يكون ما يعاين ويرى ويشاهد من صدق الخبر في الجنة والنار ، اللتين جاءت فيهما عن الله سبحانه البشري والنذري فبشر الله بالجنة في الدنيا عباده المؤمنين ، وجاءت النذر والوعيد بالنار وعذابها إلى جميع الكفرة العاصين .

وقد يمكن - والله أعلم - ولا ينكر عند من ينظر ويفهم ، أن يكون المشهود : هم المشهود عليهم الذين أوصلت الأنبياء حجج الله إليهم .

ومخرجُ هذا القسم - والله أعلم - عند قوله سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ .

وأما قوله تبارك وتعالى : ﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ فقد جاء فيما جاء من الأخبار (أن أصحاب الأخدود قوم من الكفار ، كانوا عذبوا نفرا من المؤمنين ، وفتنوهم بحريق

النار ، والأخدود : فالحفر التي حفرها العصاة الكفرة ، فأوقدوا فيها النار ذات الوقود والوقود : فاللهب ، وكذلك تسمى كل نار التهب ، والعرب فلا يسمون النار وقودا إلا عند التهابها واضطرامها ، وذلك معروف في لسان العرب عند خواصها وعوامها ، يقول الله سبحانه : ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ لعظيم ما كبوا من تحريق المؤمنين ، وأي أمر أعظم من أن يكون من كفر وأجرم قاعدا على أخدود من وقود النار ! يحرق فيها أولياء الله المؤمنين الأبرار ! فيمهلهم الله سبحانه في حياة الدنيا مدة يسيرة ، ويستدرجهم فيؤخرهم أياما قصيرة ثم يعاقبهم بما فعلوا بالمؤمنين أشد العقوبة في الآخرة ؛ فيدخلهم نار جهنم خالدين فيها أبدا ، ويحرقهم بحريق جهنم تحريقا دائما سرمدا بقدرته سبحانه عليهم .

ولما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة الذي يخزيهم ، ويعطي الله المؤمنين من جزيل مثوبته ، والفوز الدائم والخلد في نعيم جنته - أكثر مما يتمنون يقول الله سبحانه : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴿يُخْرِجُ سَبْحَانَهُ أَنْ الْكُفْرَةَ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا عَذَّبُوا فِي الْأَخْدُودِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى غَيْرِ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ نَقَمُوا عَلَيْهِمْ إِلَّا إِيْمَانَهُمْ بِاللَّهِ خَالَقَهُمْ وَبَارئَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ تسلية لعباده المؤمنين عما يلقون من الحن من العصاة الكافرين ، وبشرى منه سبحانه لهم بالثواب الكريم ، وما يصيرون إليه من النعيم الخالد الدائم الثابت المقيم .

ثم قال الله تبارك وتعالى : ﴿إِنْ بَطَشَ رَبُّكَ لِشَدِيدٍ إِنَّهُ هُوَ يَدِيءُ وَيَعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْجَمِيدُ فَعَالٌ لَمَّا يَرِيدُ﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه سيبطش البطش الشديد بأعداء عباده المؤمنين ، وأنه سينتقم لهم منهم أعظم النعمة بالعذاب الدائم الأليم .

ثم دل سبحانه على قدرته عليهم ، بأنه الله ربهم ومعيدهم وبارئهم ، ثم أخبر

تبارك وتعالى بأنه الغفور الودود، وكذلك ربنا وسيدنا ومولانا في عفوه عنا ، مع طول غفلتنا وتغمده إيانا ، فالغفور الذي لا يغفر مغفرته غافر ، والودود : فالمودة منه والرحمة التي لا يرحمها راحم ، وهو الله ذو العرش المجيد والمجيد في لسان العرب : الجواد الماجد ذو العطايا والإحسان والمحامد ، وكذلك الله سبحانه فالمجيد الذي لا يبلغ مجده ماجد ، وولي جميع ما بين الأرض والسماء من الخير والعطايا والمحامد ، وهو الله الفعال لما يريد كل شيء أراحه ، بمقدرته عليه القدرة التي تفوت كل قدرة سبحانه لا إله إلا هو خالق الدنيا والآخرة .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود﴾ والجنود : الجموع الكثيرة ، خبراً منه سبحانه عمن أهلك بالمعصية من هذه الأمم العصاة الكفرة ؛ إذ كانوا في العدد أكثر كثرة وأعظم في دنياهم جدّةً وقدرة ، ممن كان في أيام محمد رسول الله عليه السلام من أعدائه الكفرة ، فلم تدفع عنهم جنودهم ودنياهم ، حين أحل الله سبحانه عقوبته بهم فأفناهم ، يقول الله سبحانه : ﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ يعني تبارك وتعالى : من كان في أيام محمد من كفرة قريش والعرب في تكذيب . قال الله العليم الحكيم : ﴿والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد﴾ والمجيد : فهو الممدوح الكريم الحمود ﴿في لوح محفوظ﴾ واللوح هاهنا : مثل من الأمثال يفهمه من يعقل إن شاء الله تعالى من أولي الأبواب ، وإنما أراد الله بذلك - والله أعلم - : أن القرآن محفوظ ثابت ، كحفظ ما في اللوح من أن يزداد فيه أو ينقص منه ، ألا ترى كيف يقول تبارك وتعالى في خبره عنه : ﴿محفوظ﴾ وما حفظه الله فهو المحفوظ الحفظ الحريز ، الممنوع من أن يلزم به ضياع بمنع القوي العزيز .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وعلى أهل بيته الطيبين وسلم تسليماً .

تفسير : إذا السماء انشقت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت﴾ فقول الله : ﴿إذا السماء انشقت﴾ هو خبر منه تعالى عن يوم القيامة ، الذي فيه انشقت السماء وحقت .

وقوله سبحانه : ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ فهو : سمعت لربها وأطاعت .

وقوله : ﴿وحقت﴾ والله أعلم عند من يسمع اللسان العربي فيفهم : إنما هو أن السماء حل بها من الله ما شقها ، فأصابها بعينها وحققها ، وكذلك قول الله أيضا في الأرض : ﴿أذنت لربها وحقت﴾ فإنما تفسيره : حل بالأرض أمر الله فأصابها وحققها ، فحيثئذ مُدَّتْ ودُكَّتْ ، ومدّها - والله أعلم - : رفعها حين رفعت فحملت .

قال المرتضى عليه السلام : "معنى مدت : زيد فيها مثلها .

وتفسير إلقاء الأرض - والله أعلم - لما فيها : فهو إخراجها للأبدان - والعلم عند الله - لمن يبعثه من الموتى الذين صاروا بالدفن وغيره إليها ، وإسلامها عند مهدها للأشجار والنبات الذي أنبتة الله عليها .

يقول الله سبحانه : ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾ تفسير الكدح : ما يكسب الإنسان من الخير والشر الذي يجازى عليه ، والكدح من الأفعال عند جميع أهل اللسان والعرب : فهو ما يكون من الإنسان في الخير والشر من الإكتساب .

ومخرج الخير من الله سبحانه في هذه السورة عن يوم انشقاق السماء ، ومد الأرض - عند قوله سبحانه في هذه الآية : ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا﴾ وتفسير الحساب اليسير - والله أعلم - : فهو الغفران للمؤمنين من

الله الغفور ، وتفسير - والله أعلم - قول الله : ﴿مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ﴾ : فهو فيما نرى - والعلم عند الله - من عنى من المؤمنين بما كتب الله عليه في دينه ﴿أَوْتِيَ كِتَابَهُ﴾ الذي هو حسابه ﴿يَمِينَهُ﴾ واليمين - والله أعلم - وتفسيرها : اليسر والتيسير ، عند من يفهم ؛ لأن ميامن الأشياء وأيمانها أيسر يسرا من الشمائل والظهور ، التي إذا جاءت الأشياء منها كانت أشد على الإنسان في تناول ، وأعسر عسرا ، فكان قول الله سبحانه : ﴿يَمِينَهُ﴾ هو : مثل ضربه الله - والله أعلم - لمن اتقى في دينه يدل على أن المتقين في يوم القيامة تأتيهم كتبهم التي هي - والعلم عند الله - : علم الله بأعمالهم الذي هو محاسبته من اليمين ، التي معناها اليسر والبركة ، فيكون أمرهم كلهم وفعلهم في اليمين واليمين والميمنة التي ينجون بها من الهلكة .

والعاصون فتأتيهم كتبهم - والله أعلم - التي معناها : العلم بأعمالهم ، وحساب أفعالهم من الشمال إذ هم في ذلك اليوم وأفعالهم في الشمال ، والشؤم الذي هو : المشأمة بعصيانهم ، وضلالهم بكتابهم الذي يأتيهم من وراء الظهور منهم : فهو ما يأتيهم - والله أعلم - وراء الظهور ، الذي هو عملهم وحسابهم ، من العسر عليهم والتعسير .

وإن يكن الكتاب بشرى للمؤمنين ، بكتاب يعطاه المؤمن ييشرفه بالجنة والرحمة التي جعلها الله جزاءه ، وكتابا يعطاه العصاة الكافرون ، ييشرون فيه بما أوعدهم الله على كفرهم وعصيانهم من النار فذلك أيضا وجه ممكن مفهوم ، وبالله يرحى الهدى إلى كل صواب في جميع الأمور .

ثم أخير سبحانه عن الذين أوتوا الكتاب بأيمانهم أنهم يحاسبون حسابا يسيرا وينقلبون إلى أهلهم في الجنة مسرورين ، وأن الذين أوتوا كتبهم وراء ظهورهم فسوف يدعون ثورا ، ويصلون سعيرا ، يعني سبحانه بالسعير : النار التي يدخلها الكافرون ، والثبور فتفسيرها : الريل عندما يعاينون من الخزي الطويل - نعوذ بالله من عذابه ومعصيته ونسأله العون على العمل بما ينجو به من طاعته .

يقول الله سبحانه : ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ يعني : العاصي الذي أوتي كتابه

وراء ظهره قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُ ظَنُّ أَنْ لَنْ يَحْجُورَ﴾ تفسيره - والله أعلم في يحور [إذ] ^(١) الحوران في اللسان العربي : الرجوع من الراجع بالدورة هو : أن الكافر ظن أن لن يرجع إلى ربه ، وقد أحياه ونشره كما وعده من القبور ، يقول الله سبحانه : ﴿بَلَى إِنْ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ يعني تبارك وتعالى بقوله : ﴿بَلَى﴾ : أن الإنسان سيبعث حيا بعد التمزق والبلى ، والله سبحانه فهو البصير بالإنسان وغيره من خلقه المجازي للمطيعين والعاصين من عباده بعدل حكمه وحقه .

ثم قال سبحانه: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ فأقسم بهذه الأقسام لما فيها من عجيب آيات الله العظام ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وتفسير وسق فيه : هو كلما كفت الليل من الخلق عند وقوعه عليه ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ فاتساق القمر : هو تمام نوره ، وما يكون من استدارته واتساقه بعد ذهاب نوره في آخر الشهر وامتحاقه .

يقول سبحانه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ والطبق - والله أعلم - : هو ما ينتقل فيه بالبشر ، الحالات من الحياة الدنيا التي هم فيها ، ثم ما يصيرون إليه من الذهاب والممات ، ثم ما يصيرهم الله إليه من البعث والنشور بعد البلى في القبور .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ ثم أخبر سبحانه بالعلة التي أهلکوا بها فتركوا الإيمان - : أنها ما شقوا به من التكذيب ، وقلة الإيقان ، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ الدِّينُ كُفْرُوكُمْ فَكُفِّرُوا كَمَا يَكْذِبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوْعُونَ﴾ يقول : الله - سبحانه - أعلم بما هم له يسرون .

ثم أخبر تعالى بجزائه لهم على تكذيبهم بالمعاقبة ، وقال لنبيئه: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يخبر سبحانه أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من العذاب الأليم ناجون ، وأن لهم أجرا غير ممنون .

(١) - زيادة في المجموع المخطوط .

تفسير «ويل للمطففين» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ويل للمطففين﴾ والمطففون : هم الذين لا يوفون / وينقصون عن الوفاء فيما يعطون ، والتطفيف : النقصان عن بلوغ ما يحمله المكيال والميزان ، والإيفاء : فإعطاء المكيال ما حمل ، وهو في الوزن شبيه بالرجحان .

والمطففون كما قال الله سبحانه : ﴿الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ يقول تبارك وتعالى : إذا أخذوا من الناس واكتالوا عليهم ، والإكتيال : هو الإكتيال منهم - اجتهدوا في الحمل على المكيال لما حمل فاستوفوا ، فإذا كالوهم أو وزنوهم أخسروا ما أمكنهم وطففوا أمرا من الله بالوفاء ، ونهيا لكل كائل أو وازن أن يكون مخسرا مطففا ؛ إذ لا يحب ولا يرضى إلا العدل والوفاء ، وأن يكون كل امرء من الآخذين والمعطين لصاحبه منصفا ، وقد يكون ما نهى عنه سبحانه في هذه من الإخسار في الكيل والوزن والتطفيف - أمرا منه تعالى بالوفاء ، في كل ما يتعامل الناس به في الكيل والوزن وغيرهما ، وتعريفا لمن طفف وأخسر في كل ما أوجب الله فيه الإنصاف - من كل ما سخط من ذلك ، ويكون تحذيرا للعقاب بما ذكر من الويل لهم ، الذي هو ثقیل العذاب .

ثم قال سبحانه لهم مهتدا ، وتحذرا ليوم البعث والدين متوعدا : ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين﴾ فأعلمهم سبحانه أنهم لو ظنوا ظنا - فضلا عن أن يكونوا موقنين ، فتوهموا أنهم مبعوثون ومعاقبون بظلمهم ، ومحاسبون - لما يخسروا ولا أخسروا ولا طففوا إذا ظنوا ، فضلا عن أن يوقنوا أن سيعتقون ، ويقومون لرب العالمين ، ويوقفون .

ثم أخبر تبارك وتعالى خيرا صادقا ، ونبأ عن عظيم ذلك اليوم نبأ محققا ، وأي يوم أعظم أو أهول أو أكبر من يوم بعثة الله لهم من القبور ! ونشر عظامهم بعد إذ كانت رفاتا ! وقد مر عليها ما مر من الدهور ! مع ما هم يعاينون في ذلك اليوم من عظامهم

الآيات والأمور ، وأي يوم أعظم من يوم عقاب الله فيه لعصاة خلقه بحريق النار !
وأي يوم أجل من يوم يثاب فيه من أطاع الله ! بما تقصر عنه الأوهام ! من الجنة
ونعيمها ، الذي أعده لأهل الطاعة الأبرار .

ثم ذكر الفجار من أهل التطفيف والإخسار ، فأخبر أن كتابهم في سجين
والسجين - والله أعلم - : مشتق من السجن ، والسجن : هو الحبس والإسار في أليم
العقاب والنار ، فكتابهم في ذلك ، وحكم الله بجزائهم - الذي هو ما كتبه عليهم
بسيئاتهم ، فهو في سجين ، ومصيرهم فيلى عذاب مهين ، وكتابهم - والله أعلم
﴿المرقوم﴾ : هو ما عند الله وفي علمه ، من حفظ كل ذي ذنب صغير أو كبير -
ثابت معلوم .

ثم أعلم سبحانه في هذا القصص والنسق أن الويل للمكذبين ، وهم التاركون
لإيفاء الحق ، وأنهم لم يبخسوا ويطففوا إلا لشكهم وتكذيبهم بيوم الدين ، الذي فيه
يجازون ، إذا أقيموا لرب العالمين وأوقفوا وأن المكذبين بيوم الدين هم هؤلاء وأمثالهم
من المتعذبين الآثمين فقال : ﴿وما يكذب به إلا كل معتد أثيم وإذا تتلى عليه آياتنا
قال أساطير الأولين﴾ استراحة من المكذبين إلى ما ليس لهم فيه راحة ، من الشك
والتكذيب بيوم الدين ، وغرورا منهم لأنفسهم بالنجاة من الجزاء والعذاب الأليم
وقولهم من تكذيبهم إذا تليت عليهم آيات ربهم : أساطير الأولين .

ثم أخبر سبحانه أنهم عنه يومئذ محجوبون ، وحجابهم : منعهم من ثوابه وعطائه
لأوليائه ؛ إذ لا يثابون ، وإذ هم مجازون بالعقوبة ؛ مبعدون عن رأفته ورحمته وسعة
جوده يومئذ على أوليائه ، وما تفضل فيه العقول من عظيم عطائه فهم عن ذلك كله
محجوبون ومنه مع كرم الله وجوده يومئذ ممنوعون ، فهذا هو الحجاب عن الله بعينه
في مفهوم اللسان ، بأوضح الإيضاح وأبين البيان ؛ لما منعوا من أشرف جود الله شرفا
، وأكبره قدرا ، وأعظمه عظيما - جاز أن يقال : إنهم محجوبون ، وفي ذلك ما تكون
الوجوه الناضرة من الأبرار إلى ربها وثوابه ، وصدق ما وعدهم به من وعده ناظرون
ولما ينشرهم به ، ونبأهم من كريم الثواب والنعيم والجزاء منتظرون .

وفي ذلك اليوم ما يقال للمكذبين حين ييكتون عند دخولهم الجحيم ، التي بها يعذبون : ﴿ هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ قال الله سبحانه في ذكرهم ، وذكر ما كانوا عليه من إثم فجورهم : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ نجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ والران على قلوبهم فهو - والله أعلم - : غرقها في الذنوب الذي يلزمها ما به وفيه من الله الجزاء بالخذلان ؛ لما يجتمع عليها أو يترآكب من الدنس بران العصيان ، الذي يصديها ويستزها ويكلها ؛ فيؤثر فيها عن الذكر والتفكر في الآخذ بحظها ، من طاعة الله خالقها بالتقوى والخير .

ثم ذكر عز وجل الأبرار الموقنين ، الذين ليسوا بذوي تطفيف ولا إخسار ، فقال سبحانه : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾ والعليون - والله أعلم - : فهم العالون في الكتاب الأعلى المكرم والكتاب هاهنا - والعلم عند الله - : فهو ما كتب الله لهم من الثواب والنعيم في جنته ، وما علا به كل محسن منهم فصار كتابه في العليين ، بما قدم من بره وإحسانه . ثم أخبر أن كتاب الأبرار الذي هو في عليين كتاب يشهده المقربون ، والمقربون - والله أعلم - : فهم الملائكة الأطيبون ، الذين هم على كرامة للأبرار شاهدون عليهم في دار الثواب ، من أبواب الجنة داخلون .

ثم أخبر سبحانه ببعض ما فيه الأبرار من النعيم فقال : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نظرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك ﴾ والنضرة في الوجوه : فهو الإشراق والنضارة من ألوانها ، بالسرور والبهجة والإزدهار ، بما هي فيه من نعيم الجنة .

ثم ذكر تبارك وتعالى الرحيق الذي منه يسقون ، والرحيق : فاسم من أسماء الخمر الجيد ، كانت تسميها به العرب ، فسمى الله بها الخمر التي في الجنة فأخبر عن طيب ريح الرحيق ، وأن ختام ما يريحها يجدون ، وختام يريحها عند آخر شربها كريح المسك ، إذ هو أفضل الطيب الذي يعرفون .

ثم قال في نعيم الجنة مرغبا ، وعليه محرضا ، وإليه داعيا : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون ﴾ والتنافس : التحاسد ، ولم يحسن الله في شيء من أمور الدنيا كلها التحاسد ، وإنما حسن سبحانه التحاسد الذي هو التنافس في نعيم الجنة ، لعظم قدرها وجلالة فضلها ، فهناك ما يحسن التحاسد لا في هذه الدنيا الفانية ، و التنافس عليها ، والتسابق في الأعمال الصالحة الموصلة إليها .

ثم ذكر سبحانه مزاج همر الجنة من الماء ، فذكر أنه من عين يشرب بها المقربون سماها تسنيمًا وهذا اسم عال من الأسماء ، جعله الله مشرفا مكرما .

ثم رجع القصص في الخبر إلى ما كان عليه أهل الكفر في الدنيا ، من الإستهزاء والتغامز بالمؤمنين ﴿ إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء الضالون ﴾ والفاكهون : الضاحكون المتعجبون المستهزئون .

ثم ذكر أنهم كانوا يقولون في أقوالهم التي هم بها أهل الإيمان مؤذون ﴿ إن هؤلاء الضالون ﴾ يقول الله سبحانه : ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون ﴾ يعني - والله أعلم - : أن الكفار لم يرسلوا حفظة على المؤمنين الأبرار .

ثم أخبر سبحانه عن اشتفاء نفوس المؤمنين ؛ إذ هم على الأرائك ينظرون إلى عقوبة الله لأعدائهم من الكافرين ، فقال تبارك وتعالى لأهل الإيمان والطاعة له والإيقان : ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ تعريفا للمؤمنين عند سرورهم ضاحكين بما أخبر الله به من المعاقبة لأعدائهم من الكافرين ، فقال لهم معرfa بنعمته عليهم في شفاء غيظهم ونفوسهم ، بمعاقبة من كان في الدنيا يغمزهم ويستخف بهم : ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ مسألة تعريف من الله للمؤمنين وبشرى ، لا مسألة شك ولا امتراء أي قد ثوب الكفار إذ عذبوا بعذاب النار ، ثواب نعمة فيما كانوا يلقون الأبرار ، والحمد لله رب العالمين الذي لا يرضى بتطفيف المطففين ، ولا إخماس المخسرين ، الحكم العدل على المؤمنين والكافرين ونعوذ بالله من غضبه ، ونستجيره

من أليم عذابه ، ونستعينه على الإثمار بأمره ، ونسأله السلامة من عصيانه وكفره ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم .

تفسير ﴿إذا السماء انفطرت﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتشرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ فانفطار السماء : انصداعها وانفتاقها وذلك فهو : توهينها وانشقاقها ، وانفطار السماء - والله أعلم - : فمن زلازل القيامة وزعازع الرجفة ، وهذه الدكة عند ما يكون في الصور من النفخة ، التي صعد بها وبما يكون من شدة هدهتها من في السموات والأرض إلا من شاء الله ، وحينئذ تنتشر الكواكب وتفجر البحار ، وتبعثر القبور بجميع رميم العظام ، فهذا هو اليوم الأكبر الذي لا كالأيام . وتفجير البحور - والله أعلم - : حين ترج الأرض رجاً ، والرج للأرض : هو الزعزعة والتحريك الذي تضطرب به منها الأرجاء ، فحينئذ تتفجر منها البحار ، ولا يكون لها ثبات ولا قرار وحينئذ تعلم كل نفس ما قدمت وأخرت من أعمالها .

﴿وما قدمت﴾ - والله أعلم - : فهو ما قدمت قبل موتها من حسناتها وصالح أفعالها ، و﴿ما أخرت﴾ - والعلم عند الله - : فهو توانت عنه وأخرت من طاعة ربها حتى فاتها بتقدمها بين أيديها قبل فنائها بالموت وانقلابها ؛ فخلفته وانقطعت الحياة ولا رجوع لها إليه . وما قدمته النفس فهو : ما قدمه كل امرء من خير أو شر ، قبل انقطاع حياته وهجوم الموت عليه .

ثم قال سبحانه للإنسان واعظاً ومذكراً لما هو عليه من الغفلة عن ذكر ربه ؛ إذ كان به مغتراً : ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك كلاً بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين﴾ يعني سبحانه بقوله : ﴿ما غرك بربك﴾ أي : ما الذي غرك بربك الكريم

؟! وكذلك هو الكريم الذي جل في الكرم عن كل كريم ، والحليم الذي جاز حلمه حلم كل حليم ، ولي ما بالإنسان من جميع النعم والإحسان ، المحتمل له مع فرط الغفلة والعصيان ، وطول تهاديه فيما هو عليه من السهو عن ذكره والنسيان ، وهو ربه وخالقه ومليكه ورازقه ، وهو كما قال سبحانه : الذي خلقه فسواه فعدله ، في أي صورة ما شاء ركه ، وكما أراد هيأه ومثله ، فأَي تعديل سبحانه عدل الإنسان مصورا مسويا ! وأي تركيب ركه ! وتوصيل وصل أعضائه مهياً فوضع كل عضو من أعضائه في موضعه ! وهيأه معتدلاً في موقعه .

ثم أخبر أن الناس في غفلتهم عن ذكر خالقهم وربهم وتهاديهم لنسيانه فيما يرتكبون من ذنوبهم إنما أتوا في ذلك من تكذيبهم بيوم الدين وهو يوم الجزاء والديانة بالأعمال لجميع العالمين ، فأعلمهم سبحانه أن عليهم شهوداً حافظين كراماً كاتبين يعلمون ما يفعلون ، فهؤلاء الحافظون فهم الملائكة المقربون ، وما يكتبون فهو حفظهم لما يعلمون من الحسنات ، وعلمهم الذي ليس فيه نسيان لما يحصون عليهم من جميع السيئات ، إذ أحفظ الحفظ عند الإنسان هو الكتاب ، و الكتاب هو الثابت من الحفظ الذي لا يدخله وهم ولا شك ولا ارتياب ، فمن أحفظ أو أحصى أو أي شهود أعدل علينا شهادة أو أَرْضَى ، من ملائكة الله المقربين !! وأمنائه الأَطْيِين الذين لا ينسون من أفعال الناس التي أمروا بحفظها شيئاً صغيراً ولا كبيراً ، ولا يزيدون فيها ولا ينقصون قليلاً ولا كثيراً ، هم أعدل عدلاً ، وأصدق صدقاً ، وأفضل فضلاً من أن يتقولوا قليلاً أو كثيراً باطلاً ، فقد يمكن - والله أعلم - أن يكون حفظهم لأعمال البشر من الخير والشر ، وهم في حل كرامتهم من السموات لما أعطاهم الله من فضل القوى على كل الخلق في جميع الحالات ، فيعلمون بتقوية الله لهم وما أعطاهم من فضل القوة في الإدراك ما يأتي الناس به من الإساءة والإحسان ، ويحفظون حفظاً هو الكتاب الذي لا يدرس ولا يذوى ولا يتغير بما يكون منه من الطاعة والعصيان ؛ لأن من عقل وفهم يعلم أن الملائكة في البنية والقوة والإحتمال على خلاف ما عليه الإنسان ؛ لأن الملك روحاني لطيف قوي ، والإنسان جسماني ضعيف جسدي ، ومركب من طبائع مختلفة ، و الملك مخلوق من طبيعة واحدة لطيفة

ليس في خلقه تضاد بتركيب من الطبائع المختلفة ، ولا يشبه الإنسان في جميع الصفات ، وكذلك الملك في فضله وما ذكرنا من وصفه هذا كله فيصغر وتقل صفته عند جلال الله وخلوص وحدانيته ؛ لأن الملائكة بعضهم ببعض محيطون ، وبعضهم لبعض مدركون ، ولهم مناه وحدود فهم محدودون ، والله سبحانه ليس بذي حد ولا أجزاء ولا أركان ، ولا يحيط به تعالى ملك ولا بشر ولا جان ، وإذا كان البشر لا يدركون الملائكة بمعانية وهم خلق مثلهم ، فالملائكة في العجز عن إدراك الله كههم ولا يدركه سبحانه أبدا مخلوق ، وإن كانت بين خلقه في قواهم وبينهم كلهم فروق فالله سبحانه محتجب عن جميع خلقه ، لا يرى في هذه الدار ، ولا في الدار الأخرى لعجز بنيتهم كلهم عن إدراكه بلا شك ولا امتراء بلا حجاب مستور من ظلام ولا نور .

ألا ترى أنا معشر بني آدم محجوبون عن المشي على الماء حجاب عجز قوة بنية لا ستره عنه ولا غطاء وكذلك حجب الإنسان لعجز بنيته عن الثبات في الجو والطيران وكذلك حجبت الجن والملائكة عن أن يخلقوا ويصوروا إذ لم يعطوا القوة على ذلك فيقدروا ، والله سبحانه لا يراه ملك ولا بشر ولا جان بوهم ولا فكرة ولا عيان ودرك أهل السماء والأرض له درك إيقان وعلم بربوبيته تبارك وتعالى وإيمان ، غير أن الملائكة لله سبحانه أيقن يقينا وأشد اتصالا وأعرف معرفة ، وأثبت إيمانا ، وأقرب إلى العلم إفهاما من جميع الناس لما يدخل على الإنسان وهن الفهم والإلتباس .

وبعد فترجع الآن إلى ما كنا فيه آنفا من تفسير هذه السورة ، وإلى ما ذكر الله فيها سبحانه من نعيم أوليائه البررة قال الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ والنعيم : فهو ما هم فيه من التنعيم بالعيش اللين الناعم الكريم ﴿وإنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ والجحيم : فهي النار التي يصلونها يوم الدين ، والصلال في اللسان العربي هاهنا : فهو الكي بالنار والشواء .

ثم أخبر سبحانه عن الفريقين جميعا خيرا في التخليد لهم فيما هم فيه صادقا قاطعا فقال : ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ وفي قوله : ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ يثبت أنهم جميعا

لما هم فيه غير فاقدين ، المؤمنون غير مقطوع عنهم ما هم فيه من النعيم ، والكافرون
 فغير مفارقين أبدا لما هم فيه من العذاب الأليم ؛ لأنهم لو فقدوه طرفة عين كانوا عنه
 غائبين ، وخبر الله في أنهم [عنه] غير غائبين خير صدق وحق ويقين ، يقول الله
 سبحانه على عظيم يوم الدين دالا موقفا ، ولكبر أمره معرفا : ﴿وما أدراك ما يوم
 الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ وقد قلنا قبل هذا : إن الله سبحانه إذ قال لنبيه مع
 ما جعل له من قوة العلم في أمره في شيء يخبره عنه : وما أدراك ما كذا ؟ ! فإنما يدلّه
 على كبره ، وقد لا يكفي بذكر ما أدراك مرة واحدة حتى قال ذلك مؤكدا ، ومكررا
 ومرددا ثانية : ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ تنبيها منه جل جلاله على فهم ذلك اليوم
 وماله من الكبر والعظم ؛ لأن الله العظيم الجليل الأعظم لا يستعظم إلا عظيما ، ولا
 يذكر بالكبر والتكبير إلا كبيرا ، ومتى ما قال تبارك وتعالى : وما أدراك ... ثم
 ما أدراك ، فهذا فهو في غاية التوكيد والإفهام لنبيه على ما ينبغي من الإكبار ليوم
 الدين والإعظام .

وكذلك إذا قال الله سبحانه لنبيه عليه السلام : وما أدراك .. ثم ما أدراك في
 شيء من عجيب آياته وأمره ؛ فليعلم من سمع ذلك حيث كان من القرآن أنه لعظم
 المذكور وكبره وقدره .

يقول الله سبحانه وهو يخبر عن هذا اليوم الأكبر المذكور الأعظم : ﴿يوم لا تملك
 نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ وهذا اليوم [هو اليوم] الذي الأمر فيه والملك لله
 وحده لا ينفع فيه ولد والدا ، ولا والد ولدا فنستعين بالله على أخذ العدة له من
 طاعته ، والتزود إليه خير الزاد من تقواه وخشيته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
 العظيم ، ونستغفر الله الرحمن الرحيم .

تفسير إذا الشمس كورت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إذا الشمس كورت﴾ فتكويرها - والله أعلم - طرحها وتهويرها ^(١) والتكوير : الطرح السريع للشيء إذا طرح ، فجاء لشدة طرحه متكورا بعضه على بعض إذا طرح .
﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ وانكدار النجوم - والله أعلم - فهو تتابعها سريعا بعضها في إثر بعض ، منتثرة إذا انكدرت ، وذلك حين تتابع يوم القيامة منحدره وتتكور يومئذ منتثرة .

﴿وإذا الجبال سيرت﴾ وتسير الجبال يومئذ - والعلم عند الله - فهو إذا حلّها الله فلانت وعادت كثيبا مهيلا ، ثم هباء منبثا فسارت - والله أعلم سبحانه الذي تولى عقد الجبال وغيرها من الأشياء كلها وهو الله العالم بنقضها إذا أراد ذلك وحلها .

يقول الله تعالى في هذه السورة للعرب وهو يخبرهم عن ذهول الناس يومئذ عما يحبون مما ينزل بهم من فادح الكرب ﴿وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت﴾ والعشار : حوامل النوق من الإبل ، وهي أنفس ما كان للعرب عندها من الأموال ، التي لم يكونوا في الدنيا لعجبهم بها يصيرون لها إلى إغفال فلعظم ما ينزل بهم ويعتريهم يومئذ من فادح الأهوال على ذلك عطلوا من العشار أنفس أموالهم ، وأعزها عليهم ، وأثرها عندهم وأحبها إليهم .

ويومئذ جمعت الوحوش وحشرت ، والحشر لها : الاجتماع منها بعضها إلى بعض إذا عاينت ما يعاين ففزعت وذعرت ، ويومئذ تسجر البحار . وتسجيرها : تحريكها بالاستعار كما يضطرم بالسجر والتحريك مضطرم النار .

﴿وإذا النفوس زوجت﴾ تزويج النفوس - والله أعلم - : ضمها إلى الأبدان إذا

(١) - في الصحاح : هار الجرف يهور هورا ، وهورا فهو هار ، ويقال : جرف هار ، خفضوه في موضع الرفع ، وأرادوا هائر ، وهو مقلوب من الثلاثي إلى الرباعي ، وهو بمعنى : انهار ، أي انهدم ، ويقال : اهتور الشيء هلك .

نشرت .

﴿وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾ المؤودة : الأطفال التي كان أهل الجاهلية من العرب يقدون من أولادهم ويقتلون ، فحينئذ يسألون بأي ذنب كانوا يقتلون تبكيها لآبائهم ، وتعريفا للآباء بذنوبهم في قتلهم ، وتوقيفا لهم على ظلمهم إياهم وتعنيفا .

﴿وإذا الصحف نشرت﴾ والصحف هاهنا - والله أعلم - : إحصاء الله للذنوب ، ونشر ما حفظت الحفظة على المذنبين ، وإعلان ما كانوا يسرون منها في الغيوب حين يعاين من قبائح الذنوب كل ذاهية فيصير مكتومها وخباياها مكشوفاً علانية .

﴿وإذا السماء كشطت﴾ وكشطها : قلعها من موضعها إذا طويت .

﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ وتسعيرها : التهابها واضطرامها إذا أجمت .

﴿وإذا الجنة أزلفت﴾ أزلفها : إحضارها وتقريبها إذا قربت يقول الله سبحانه : ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ ما أحضرت - والله أعلم - : هو ما تعلمه النفوس يومئذ وتذكره من الذنوب بعد نسيان ويعلم منه ما أحضرت وما لها به من الثواب أو عليها فيه من العقاب بآيقن الإيقان إذا رأت ثواب حسنه ، والعقاب في سيئه بالعيان .

ثم قال سبحانه بعد هذا القصص من خير يوم القيامة صادقاً ، وللخير اليقين بقسمه البر محققاً وبعجيب آياته مقسماً ، ولما هو عجيب منها في الحكمة معظماً ، وبإقسامه به على عجيب ما فيه من آياته منبها : ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ والخنس - والله أعلم - : النجوم الخمسة ^(١) والقمر والشمس ، فمن النجوم الجارية وجريها تحريكها في الفلك بأنفسها ، وخنوس ما خنس منها رجوعها إذا بلغت الشمس إلى الدرجات التي خلقت من ورائها ، والخنوس في لسان العرب : الرجوع إلى وراء بعد السير قدماً ، والخنوس - والعلم عند الله - الذي هو الرجوع بعد الاستقامة لا يذكر به شيء من النجوم إلا هذه الخمسة من زحل والمشتري والمريخ وعطارد والزهرة فإن

(١) - زحل ، والمشتري ، والمريخ ، وعطارد ، والزهرة .

هذه الأنجم الخمسة قدر الله سيرها بالجرى والإقبال ، حتى إذا جرت في المنازل والبروج حتى تكون في البروج الذي يواجه برج الشمس وكادت أن تجتمع هي والشمس رجعت متحيرة في سيرها خائسة بالجرى والرجوع إلى ما خلقت من ورائها ، ولكل نجم منها درج معلومة إذا بلغها وقرب من الشمس رجع عند بلوغه لها عن الشمس متحيرا خائسا راجعا إلى ما خلفه مدبرا حتى يتغيب عن الشمس في الرجوع إلى ما وراءه من البروج وهذا المغيب عن الشمس - والله أعلم - فهو : الكنوس وكلما غاب من شيء وتنحى في اللسان العربي دعي كانسا ، تقديرا قدره الله فيها من أحكم التقدير ، وتدبرا منه في سيرها دبره لعجيب من الأمور .

وقد يمكن - والله أعلم - أيضا أن يكون من الجوار الخنس الكنس - النجوم التي تغيب وتطلع بحساب الأوقات والأزمان ، وعلم الحر والبرد والأمطار .

ثم قال تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ وعسعة الليل : إدباره وتولييه عند آخره ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ إنه لقول رسول كريم ﴿ وَتَنَفَّسَ ﴾ : اعتراض الفجر بالضوء عند صدوع نوره ، وإقسامه بهذه الأقسام تنبيه منه تبارك وتعالى على أنها من آياته العظام ومخرج القسم عند قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ دلالة أيضا على ما لجبريل رسوله من الشرف والرفعة والتعظيم .

ثم قال تعالى : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ فأخبر عن قوة جبريل في بنيته وفضل ماله في الأمور التي قواه عليها من قوته ، وعن مكانه منه وكرمه لديه ومكنته .

ثم قال سبحانه لذكر فضل جبريل عليه السلام مثنيا ، وبمكانه منه وكرمه لديه وقدره عنده مخبرا : ﴿ مَطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ ﴾ يعني سبحانه أن جبريل مطاع ثم ، وثم يعني بها السماء فهو ثم مطاع ، والملاحكة له فذو استماع ، وهو هنالك الأمين ومحجابه الدعوة عند الله يعطى ما سأل عند الله فهو الذي لا يخون لأمانته وصدقه وبره ومنزله عند الله ومكانته ، وهو المحجابه المطاع في دعوته .

ثم أتبع الثناء على جبريل بالثناء على الرسول صلى الله عليه وعلى آله فقال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ لما كان المشركون ينسبون إليه من الجنون ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ ﴾

المبين ﴿يعني سبحانه رؤية النبي لهذا الرسول الكريم ، وهو جبريل ذي القدرة عند الله العظيم ، إذ رأى النبي جبريل صلى الله عليهما بالأفق من السماء المبين .
﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ يعني - والله أعلم - عمتهم عند الله في سره المغيب بادعاء باطل ولا تكذيب .

ثم قال تعالى للمشركين مكذبا فيما كانوا يرمون به النبي عليه السلام ظلما وكذبا من الآخذ لما يقول عن الشياطين ، كما كان يفعل الكهان المبطلون : ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿فأين تذهبون﴾ يعني : فأين تذهبون باهتين ، كاذبين في اتباع ظنونكم حائرين ضالين .

ثم أخبر عن هذا الوحي الصادق ، والخبر عما نبأ به من أنباء يوم الحشر، وغيره من وحيه إلى رسوله ونبيه فقال : ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يعني سبحانه إن هو إلا تذكرة وتذكير للمتذكرين .

ثم قال سبحانه لا إله إلا هو : ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ فدل بقوله : ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ على أنه قد أعطى القدرة والإستطاعة والقوة من أمره بالإستقامة من المطيعين ، ولو لم يكن أعطاهم المشيئة ، ووهب لهم بكرمه منها ما وهبهم وأعطاهم من العطية لما قال : ﴿لمن شاء﴾ ولكان القول : إنما هو لمن شئت منكم أن يستقيم .

ثم قال سبحانه : ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ خيرا منه تعالى عن أنهم لا يطيعون من قبل أنفسهم ؛ فيشأون الطاعة فيكونوا لها مختارين ، إلا أن يشاء الله جبرهم على الإستقامة ؛ فيكونوا عليها مجبورين .

والحمد لله رب العالمين وأصدق الصادقين الذي يقول الحق ويحب الحقين ، وصلى الله على جبريل الأمين ذي القوة عند ذي العرش المكين ، وعلى محمد خاتم النبيين وأهله الطاهرين ، ونستغفر الله [خير الغافرين] ونعوذ به في هذا التفسير وغيره من سخطه وخذلانه ، ونستعينه على فهم الحق والصدق بتوفيقه وتسديده وإلهامه وحسبنا الله ونعم الوكيل وهو رب العرش العظيم .

تفسير عابس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال ابو عبد الله محمد بن القاسم بن ابراهيم عليهم السلام : قوله عز وجل

﴿عابس وتولى﴾ معنى عابس : فهو قطب وجهه ، وتولى : فهو أعرض وتكبر وقد يقال : العبوس والإعراض ، والتكبر - القلة منه ، والكبر - فقد يختلفان فما قل منه فصغير ، وما كبر منه فكبير ، وقد قال كثير من هذه العامة بما في أيديهم من الرواية : إن العابس - المتولي المذكور في هذه الآية المتصدي والتصدي : هو الإقبال والتأني لمن استغنى بالجدّة والغنى ، والمتلهي عن من جاءه يسعى ويخشى - فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وزعموا أن ذلك كله فعل من رسول الله صلى الله عليه وآله فعله وذمه الله منه ، وذكره الله بالتقبيح عنه ، وأن ابن أم مكتوم العامري جاءه وجاء معه إليه من ذكر الله غناه ؛ فعابس وتولى عن ابن أم مكتوم الأعمى وأقبل وتصدى لمن استغنى ، وما ذكر من هذا القول فلا يجوز على الله ، ولا على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأن الله تبارك وتعالى في كبريائه وجلاله لم يذم رسوله بعد إرساله في شيء من فعله ؛ لأن الذم لوم والملوم مذموم ، ورسول الله صلى الله عليه وآله حميد غير مذموم ، وكريم عند الله سبحانه غير ملوم .

وقد يمكن أن يكون العابس - الذي ذكره أنه عابس - ، عن من جاءه يسعى وهو يخشى ، والذي تصدى لمن استغنى - غير رسول الله صلى الله عليه وآله - ، أن يكون الله سبحانه نزل هذا ذم له ولغيره والتذكيرة فيه فقال سبحانه ﴿عابس﴾ لعابس سوى رسول الله عابس وتولى ، ممن كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله أو ممن سلف من الأمم وخلا ، فعابس في وجه أعمى جاء للهدى مبتغيا ، وتصدى لمن كان بالجدّة مستغنيا .

وأما قوله : ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ فليس فيها نفسها دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله هو المذكور في الآيات والمذموم بها ؛ لأنه قد يجوز أن يقول :

﴿وما يدريك﴾ له وهو يريد بها غيره معه كما قال سبحانه له ولغيره معه : ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ وكقوله سبحانه : ﴿القارعة ما القارعة﴾ [وما أدراك ما القارعة] وقال سبحانه : ﴿وأما من خفت موازينه فأما هاهنا وما أدراك ما هاهنا نار حامية﴾ فكان ذلك له صَلَّى الله عليه وآله ولغيره من أهل دينه ، وغير أهل دينه .

وإن يك رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم ، وعلى طلاب المعنى بذلك ، فإنما كان ذلك منه لعلمه وخطره وطلبه ما هو أصْلَح وأَعز في دين الله وأرجح من إجابة الأغنياء والأصحاء والأقوياء لا على ميل ولا حيف لقوي على مستضعف ، ولا لغني على فقير ، ولا لكبير على صغير ، والحمد لله ولي كل نعمة وإحسان ، وبالله نعوذ من كل حيرة وخذلان .

ومعنى ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ أي ^(١) لعن الإنسان ما أقل شكره ، وكذلك كل من كفر بآيات الله ، ولم يصبر فيما أمر به إلى مرضاة الله ، فمن كان كذلك أو عمل بذلك فهو من الكافرين غير الشاكرين ؛ لما أولاه ووهب له من النعم وأعطاه في مبتدى خلقه حين أنشئ من نطفة من ماء مهين وحفظ من الرحم في مستقره فأنتم تقديره وحسن تصويره ، ثم يسره للسبيل الذي هو مخرجه من بطن أمه ، بعد كماله في لحمه وعظمه .

ومعنى قوله سبحانه ﴿وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم﴾ فقال : الفاكهة هي الكثيرة ، التي جعلها الله متاعا للناس ومأكلة ، والأب : فهو العشب والمرعى الذي جعله الله مرعى ومرتعاً للأنعام ، ومَهْمَلًا لِلإبل ، وإنما سمي المرعى بذلك ؛ لذهابه وقلة بقائه وثباته ، ولذلك قيل فيما ذهب من الأشياء ذهاباً : ذهب كذا وكذا تباباً ، فالأب : ما ذهب من النبات والبقول ، كذلك يذهب إذا صافت فلا يبقى ، وما سواها من المراتع يكون في الصيف وتبقى ، فجعل الله ذلك بينها وبين الأب بياناً وفرقاً .

(١) - من هنا إلى آخر الموجود من التفسير لهذه السورة موجود للإمام القاسم بن إبراهيم عليهما السلام في التفسير المخطوط المجموع للأئمة ص ٢٧٠ .

انتهى الموجود من تفسير هذه السورة لمحمد بن القاسم عليهما السلام والله أعلم

سورة النازعات بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿والنازعات غرقا﴾ قال أبو عبد الله محمد بن القاسم عليهما السلام : النازعات فيما أرى - والله أعلم - فهن : السحاب المنتزعات لماء الأمطار من البحار والأنهار (١) ومما في الأرض من الندوة والبحار وهن أيضا ﴿الناشطات﴾ في نزعهن ﴿نشطا﴾ والنشط والإغراق : هو القوة في النزاع والصبب ﴿والسابحات﴾ هن : السحاب في الهواء ﴿سبحا﴾ كما يسبح في الماء من كان سابحا ، يمينا ويسارا وإقبالا وإدبارا .

﴿فالسابقات سبقا﴾ وهن أيضا : السابقات بالمطر والغيب برحمة الله وفضله ، غير مسبوقات بإمساك الله المطر لو أمسكه عن الأرض وأهلها .

وقد تكون السابقات سبقا هي : البرق ؛ لأن البرق هو أسرع شيء خفقا ، وأحشه اختطافا وسبقا .

﴿فالمدبرات أمرا﴾ والسحائب أيضا فهن : المدبرات بما جعل الله من الغيث فيهن للشجر والأثمار والنبات ، وفيما ذكرنا من هذا أعجب عجيب ، لكل ذي حكمه ونظر مصيب (٢) .

(١) - في الأصل وهو النسخة (أ) ورد هذا اللفظ قبل تفسير سورة النازعات ، في آخر التفسير الموجود من عبس وليس محله هنالك ، وفي الغالب أنه حاشية ، وقد نقلناه هنا ، وهو : (ونقل المسعودي رحمه الله في تاريخه كتاب مروج الذهب : أنه شاهد في بعض البحار أن السحب تقل الماء من البحر ، أو نقل له ذلك وهو يقوي تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام) .

(٢) - هذا التفسير طال ما سمعنا من الكثير نفي صحة هذه الظاهرة التي خلقها الله سبحانه وجعلها أحد الأسباب في نزول المطر وتكونه وهو الذي أثبت العلم الحديث . هو موجود عند أئمتنا عليهم السلام من قبل أكثر من ألف عام مضى وهذا يدل على مدى العلم والمعرفة والتوسع في المدارك الذي وصل إليه علماء أئمة أهل البيت عليهم السلام فعلى الذين لا يزالون ينكرون هذه الحقيقة الثابت من دعاويهم التي لا تنفد خاصة والإمام القاسم بن إبراهيم عليه

إلى هنا انتهى الموجود من تفسيره عليه السلام ، وقد سقط من عبس والنازعات شيء [منع] عن استمرار ذلك في التفسير عن أبي عبد الله عليه السلام ، فجمعنا ما أدركنا من كلامه في ذلك فإن وجد ذلك يوما ما فهذا موضعه ، والله المستعان ، ولما لم نجد ما سقط في هاتين السورتين من تفسير أبي عبد الله عليه السلام أحببت أن أنقل في تفسيرهما مارواه هو عليه السلام عن أبيه العالم القاسم بن إبراهيم عليهما السلام فنقول وبالله التوفيق :

تفسير عبس

للقاسم بن إبراهيم عليهما السلام

قال أبو عبد الله عليه السلام : سألت أبي القاسم بن إبراهيم عليهما السلام عن معنى قوله تعالى :

﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾ ؟ فقال عليه السلام : هذا تأديب من الله تبارك وتعالى لرسوله أن لا يعيس في وجه الأعمى ، الذي يأتيه يطلب منه الإسترشاد والهدى والأعمى هاهنا : عمى القلب وقيل في ذلك : إن الأعمى أعمى البصر قالوا : هو ابن أم مكتوم ، أتى النبي يطلب منه الهدى فأعرض عنه ، وليس ذلك كذلك .

ومعنى ﴿عبس﴾ هو : عبس وتولى بكليته ﴿أن جاءه الأعمى﴾ في معنى : حين ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ هو : تعريف من الله أنه يعلم الغيب ، وأن الرسول لا يعلمه ، ومعنى ﴿يزكى﴾ هو : يتزكى .

﴿أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ معنى ﴿أو يذكر﴾ : يعرف فتنفعه المعرفة .

﴿أما من استغنى فأنت له تصدى﴾ هذا تأديب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن

السلام قد ذكر أن هذا التفسير مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما سيأتي إن شاء الله في تفسيره بعد هذا .

لا يجل من سمع بغناه ولو كان كافرا ، ولا يستحق من سمع بفقره وإن كان مهتديا .
وقد يكون هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم نظرا لصلاح الأمة في الإقبال إلى من
كان معه غنى وثقة بديانة الفقير ، واتكالا على صحته في الدين .
ومعنى ﴿تصدى﴾ : تقبل عليه .

﴿وما عليك ألا يزكى﴾ من جهة النظر ، وهذا - والله أعلم - ليس للرسول ولكنه
مثل للتعريف والتأديب .

وفي البرهان للإمام أبي الفتح الديلمي عليه السلام ﴿عبس وتولى أن جاءه
الأعمى﴾ هو : ابن أم مكتوم وهو عبد الله بن زائدة من بني فهر ، وكان ضريرا أتى
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستقرئه وكان عنده أبو جهل بن هشام فعبس
أبو جهل حين رأى الأعمى وعبس ، أي قطب وأعرض ﴿أن جاءه الأعمى﴾ يعني
ابن أم مكتوم . انتهى

وقال الإمام الحسين بن القاسم عليهما السلام : هذا العابس بعض من كان
يصحب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم من رؤساء المنافقين ، ومن ينظر
بعين الجلالة وهو من الفاسقين ، فكتم الله اسمه ولم يجعله من المشهورين ، وجعل
الخطاب لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمعني سواه ، والعرب تستعمل ذلك على
سبيل التعريض ، قال الشاعر :

وأريد قتلك لاحالة عنوة ولك السلامة أن تكون كذلك

وإنما عبس وتولى ﴿أن جاءه الأعمى﴾ ومعنى ﴿أن جاءه﴾ هو : إذ جاءه ، ولكن
أن قامت مقام إذ

ومعنى ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ أي : ما يدريك لعله يتطهر من الذنوب .

ومعنى ﴿أو يذكر﴾ أي : يتذكر ويتبين في أموره ويتدبر ؛ لأنك لا تدري لعله
يكون كذلك فلم تفعل ما فعلت في أموره من توليك عنه وإعراضك وأنت لا تأمن مما
ذكرنا من ذلك ولكنك يا هذا المخاطب إنما تقبل على الغنى لمحبتك الحطام الذي يفنى

، ورغبتك وحبك لزهرة الدنيا ، وتدبر عن هذا لزهديك في الدلالة على الهدى . انتهى

رجعنا إلى تفسير الإمام القاسم [عليه السلام].

قال عليه السلام : ومعنى ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ يبادر ﴿وهو يخشى﴾ يتخشع ﴿فأنت عنه تلهى﴾ تتشاغل .

﴿كلا إنها تذكرة﴾ معناه : نعم إنها تذكرة ، وكلا هاهنا بمعنى نعم ، وليست بمعنى (لا) ^(١) كغيرها ﴿فمن شاء ذكره﴾ معناه فمن شاء تعرّفه تفقه في معرفته على الإستطاعة التي ركبت ، وقد خص في ذلك خواص ، وشرح فيه شرح كثير يستغنى عنه .

﴿في صحف﴾ في كتب مبين ﴿مكرمة﴾ معظمة ﴿مرفوعة﴾ مصونة ﴿مطهرة﴾ منقاة من الدنس الذميم ، ومخصوصة بكل فضل كريم ﴿بأيدي سفرة﴾ الملائكة عليهم السلام ﴿كرام﴾ مكرمين ﴿بررة﴾ صادقة القول ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ معناه : لعن الإنسان ما أشره ! والإنسان معناه : الناس ، يخص بذلك كل كافر كما قال ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ ﴿من أي شيء خلقه﴾ معناه : على تقليل النطفة ، في معنى أنها لا شيء فصار منها شيء .

وقوله : ﴿من نطفة خلقه﴾ تذكرة له ، وتوقيفا فيما من به من الحياة عليه ﴿فقدره﴾ معناه : فسواه وعدله ﴿ثم السبيل يسره﴾ معناه : الطريق الواضح سيره وعرفه ﴿ثم أماته﴾ حكم عليه بالموت غصبا ﴿فأقبره﴾ دل على قبرانه في التراب ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ معناه : حتى إذا شاء بعثه ليوم نشوره ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ كلا في موضع نعم ، حتى يقضي ما أمره : أراد يحاسب على ما أمر به من الطاعة فيحاسب على ما فرط فيه ، ويجازى بالحسنة فيه على ما فعله ، وقد يخرج ذلك على معنى : لا ما قضى . معناه : ما فعل ما أمره ولكن قصّر فيه ، وهل يكون أحد إلا

(١) - في الأصل (وليس بمعنى نعم لا كغيرها) والمعنى غير واضح على هذا اللفظ ، فحذفنا نعم .

وهو مقصر .

رجع إلى التعريف والتذكرة ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ إلى مأكله ﴿إنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا﴾ معناه : أنزل الماء من السحاب ، وشق الأرض به وبالإغتصاص بشربه ﴿فأنبتنا به حبا﴾ حبا من الحبوب ﴿وعنبا﴾ من ألوان صنوف العنوب ﴿وقضبا﴾ من القضوب ﴿وزيتونا﴾ خاص زيتون الشام ؛ لما فيه من البركة يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ونخلا﴾ المثمر للتمر ، وهو هذا النخل ﴿وحدائق﴾ حوائط من كل الفواكه ﴿غلبا﴾ معناه : قوية تخرج من التراب على ثقله وتضعف نباته ، حتى تصير قوية ﴿وفاكهة وأبا﴾ الأب : الشجر هذا الثمام الذي ينبت في الأسناد والآكام ^(١) ألا ترى أنه يقول : ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾ الفاكهة لكم ، والمتاع والأب لكم لأنعامكم .

قلت : وفي هذه الآية الكريمة يقول الهادي إلى الحق عليه السلام : معنى ﴿شققنا الأرض شقا﴾ يريد : شققناها عن النبات الذي يخرج منها الحب والفواكه وغيرها وفلقناها فلقا ، و الأب : فهو الحشيش والعشب الذي تأكله الأنعام ، وينبت في الأودية والآكام ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾ إلى انقضاء آجالها وأجالكم ، فرزقناكم فواكهها وحبا ، ورزقنا أنعامكم عظامها وأبا ، فكل ما خرج فقد سماه لأهله ، ومن يملكه رزقا فهو لمن أجاز الله له أكله وأحل له أخذه وأمره عليه بشكره فقال : ﴿كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ ^(٢) وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ^(٣) كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ وقال : ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾ ^(٤) فرزق ذو المن والسلطان والجيروت والبرهان كل عبد ما أحل له وأمره بأخذه ، فأما ما نهاه عن أكله وعذبه في قبضه فليس ذلك لعمرهم من رزقه ، وكيف يحوز رزقا

(١) - قال في الصحاح : الأكمة معروفة ، والجمع أكمت وأكم ، وجمع الأكم آكام ، مثل عنق وأعناق .

(٢) - البقرة : ٦٠ .

(٣) - البقرة : ١٧٢ ، ولفظ الأصل : (يا أيها الناس كلوا) ولا توجد آية بهذا اللفظ ، وما أثبتناه هو الصحيح .

(٤) - النحل : ١١٤ ، في الأصل (كلوا) بدون فاء ، ولا يوجد في القرآن مثل هذه الآية بدون فاء .

وقوتا به يعيشون وفيه يتقبلون ، وينهاهم عن أخذ ما أعطاهم وإليه ساقهم وهداهم فهذا والحمد لله ما لا يغيب على من وهبه الله علما وفهما وتمييزا ولبا ، والحمد لله رب العالمين . انتهى

رجعنا إلى تفسير القاسم عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ المسمعة المصخة للأنفس من هولها ، وما يرى فيها من عظمها فتصخ لها النفوس ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ هو الإنسان ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَمِنْ﴾ من ﴿أُمِّهِ﴾ معناه : والدته ﴿وَأُيُسُّهُ﴾ الذي أولده ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ أولاده ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ﴾ يعني : لكل على قدر ما قدم وأسلف فيما غير من الدهر ، ألا ترى ما فسرته حين قال : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ معناه : وجوه ذلك اليوم وهو يوم القيامة ﴿مُسْفَرَةٌ﴾ معناه : ناضرة مشرقة حسنة ، وهي وجوه المؤمنين ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ تبين لك في وجه المسفر كالضحك ولعله لا يضحك ، ويبين لك في وجه الكافر البكاء ولعله لا يبكي ، وبلى كم من باك ندامة ! وكم من ضاحك استبشارا بما بشر به من نعم الله التامة ! ومعنى ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ متباشرة بما قد رأت من علامات الخير .

﴿وَوُجُوهٌ﴾ معناه : وجوه الكفرة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تقدم تفسيره ﴿عَلَيْهَا غَبِرَةٌ﴾ يعني : القتام يلحق وجوه الكفرة والإظلام ﴿تَرَهَقَهَا قَتَرَةٌ﴾ تلحقها وتعلوها قترة ، والقترة فهي : الغيرة المقتررة المهلكة الكريهة وهذا جرم ما يكون من الكسوف على الوجوه والظلمة .

ثم بين فقال : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ الكفرة : فهم الكافرون لأنعم الله والجاحدون لربوبيته أيضا ؛ لأن الكفر كفران كفر نعمة وكفر جحدان ، وكل أولئك صائر إلى سخط في عذاب أليم ﴿الْفَجْرَةُ﴾ معناه : الفجرة في الدين وأهل الإطراح لحقوق رب العالمين ، والإفتتان فيما لا يحل لهم محارم خالق الخلق أجمعين ، وقد يكون الفجور الإرتكاب لأكبر الشرور ، من الفسق وأخبث الأخباث من الإتيان للذكران والإناث ، مما لم يأمر الله به ولم يسوغه في قرآنه ولم يثبت .

[تفسير سورة النازعات]

للإمام القاسم بن إبراهيم عليهما السلام

وأما تفسيره عليه السلام من سورة النازعات فقال رحمة الله عليه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله سبحانه: ﴿والنازعات غرقا والناشطات تشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالدبرات أمرا﴾ فقال عليه السلام: النازعات فيما أرى - والله أعلم - : فهن السحاب المتزعجات لماء الأمطار من البحار والأنهار ، ومما في الأرض من الندوة والبحار ، وكذلك صح في الروايات والأخبار .

معنى ﴿غرقا﴾ مغرقا لما أمطرن ، وكذلك المغرق من كل شيء أيضا : الناهي فيه ، تقول : أغرق في النزع ، وهن ﴿الناشطات﴾ في نزعهن ﴿نشطا﴾ والنشط والإغراق : هو القوة في النزع والصب ، ومما ينتزع من المتزع صكا .

ومعنى تشط الماء : فهو تحيده وتطلعه ، ونشطا : مصدر كمصادر الكلام ﴿والسابحات﴾ هن : السحاب يسبحن في الهواء سبحا ، كما يسبح في الماء من كان سابحا يمينا ويسارا وإقبالا وإدبارا ، كما أراد الله عز وجل وشاء .

﴿سبحا﴾ مصدر أيضا ، وهن أيضا ﴿السابقات﴾ بالمطر والغيث برحمة الله وفضله غير مسبوقات بإمساك الله للمطر لو أمسكه عن الأرض وأهلها بعدله ، وقد يكون السابقات هو : البرق ؛ لأن البرق أسرع شيء خفقا ، وأحثة اختطافا وسبقا والسحاب أيضا فهي ﴿الدبرات﴾ بما جعل الله من الغيب فيهن للشجر والثمار والنبات ، وفيما ذكرنا من هذا أعجب عجيب لكل ذي حكمة ونظر مصيب .

قيل : والمعنى فيه : ﴿الدبرات أمرا﴾ الملاحكة .

﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة﴾ الراجفة : القيامة ، سميت راجفة لهولها يقال : أنزل بي فلان رجفة ، والرادفة : مردفة بهول يتبع هولاء .

﴿قلوب يومئذ﴾ ذلك اليوم ﴿واجفة﴾ أراد مضطربة ﴿أبصارها خاشعة﴾ منكسة ﴿يقولون أننا لمردودون في الخافرة﴾ أولئك الذين كانوا يقولون أراد يكذبون بالرد لهم لما في الخافرة ، هم الذين تخشع أبصارهم وتذل ، والخافرة : التي تحفر على السرائر وتظهرها ﴿إذا كنا عظاما نخرة﴾ تعجب منهم أنهم لا يرجعون إذا صاروا عظاما نخرة ، والنخرة : البالية الدامرة ثم قالوا:

﴿تلك إذا كرة خاسرة﴾ أرادوا : نطفة خاسرة ، رد الله تكذيب قولهم بقوله عز وجل : ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ تحقيقاً أنها كانت مثل للزجرة ، الزجرة - والله أعلم - مثل مضروب للحياة بعد الموت كما يفرع النائم بالزجرة من الصوت .
﴿فإذا هم بالساهرة﴾ المتعبة لمن هو فيها تقول : فلان ألحق بالساهرة ، أي لم يغير به . انتهى الموجود من تفسيره عليه السلام .

[تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني لبقية سورة النازعات]

واعلم أنه لما ذكر الإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام أن تفسيره الذي وضعه في غريب القرآن مروى عن العالم نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم وأسباطه الأئمة عليهم السلام أحببت أن أتمم تفسير الباقي من هذه السورة منه فنقول وبالله نستعين : قال عليه السلام فيه :

قوله عز وجل ﴿هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى﴾ قال عليه السلام : ﴿هل﴾ خبر من الله عز وجل ، ولفظه لفظ الإستفهام ومعناه التوقيف على الخير والإفهام كأنه قال : قد أتاك خبر موسى .

ومعنى ﴿إذ ناداه ربه﴾ فكذلك يقول الله " ناداه ، وأنه أوجد كلاماً به خاطبه وناجاه .

والواد المقدس : هو المكرم المنزه المعظم ، وهو طوى .

ثم قال : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي : جاوز قدره وعلا وطغى ، وخرج إلى الظلم والجهل والعمى فقال : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ هل لك هو : ترغيب في الخير والهدى .

قال العالم (القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه) :

هل لك في الأكرومة البكر	غراء لا تبلى على الدهر
هل لك في مثل مقام الأولى	حموا حمى الله لدى بدر
هل لك في عزمة ذي نية	أحكمها صاف من الفكر
هل لك في نهضة ذي صولة	تزيده قدرا إلى قـلـدر
هل لك في الجنة من حاجة	فإنها أفضل ما ذخر
هل لك في الرحمن من رغبة	فأمره جار على الأمر
هل لك يامشغول من توبة	قبل بحال النفس في الصدر
هل لك في رجعة ذي نية	تقيك حر النار والجمـر
هل لك في أمر إذا رمتـه	أمنت هول البعث والحشر

ومعنى قوله ﴿ إلى أن تزكى ﴾ هو : الترغيب في التزكي والطهارة من قدر الدنيا وقبائح ما كان عليه من الكفر والردى .

ومعنى قوله : ﴿ وأهديك إلى ربك ﴾ أي : أدلك إلى ربك ، فيدخل في قلبك الخوف لسيدك .

﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ أي الدلالة العظمى ، ومعنى قوله : ﴿ فحشر فنادى ﴾ أي جمع أصحابه ثم نادى ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ والفاء بمنزلة ثم ، لأنهما من حروف النسق والعطف .

ومعنى قول فرعون اللعين : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ يريد أنا سيدكم الشريف المرتفع في القدر والعلا ، والرب عند العرب : السيد قال الشاعر :

أم غاب ربك فاعترتك خصاصة فعل ربك أن يؤوب مؤيدا
ومعنى قوله: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ فالأخذ هو العذاب من الله عز وجل ، عذب عدوه عذاب الآخرة والدنيا .

﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ هي : الموعظة والتذكرة قال الشاعر :

في آل برمك عبرة وعجائب ومواعظ للعاقل المترهد

ومعنى قوله عز وجل : ﴿أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها﴾ أي رفع محلها وموضعها ، والسمك : هو المحل المرتفع العالي قال الشاعر :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

معنى سمك السماء : أي رفعها ، وقال آخر :

وما إن يستهم إن عد بيت وطال السمك وارتفع البناء

ومعنى ﴿فسواها﴾ أي عدل صورتها وهياها .

ومعنى ﴿وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ فالإغطاش : هو الظلام .

ومن غير تفسيره عليه السلام

قوله تعالى : ﴿وأخرج ضحاها﴾ وضحاها : شمسها ﴿والأرض بعد ذلك﴾ بعد خلق السماء ﴿دحاها﴾ سطحها وأصلحها للسكون ، فلا يناقض قوله : ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ عقيب قوله : ﴿هو الذي خلق الأرض في يومين﴾ أي : غير مدحوة قبل أن يخلق السماء ، ثم دحاها بعد أن اخلق السماء .

﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ ما ترعاه البهائم من الشجر والعشب .

عدنا إلى تفسير الإمام

قال عليه السلام : ومعنى قوله : ﴿والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم﴾ هو أسكنها وأثبتها وأهدأها قال الشاعر :

ألقي مراسيه بتهلكة ثبت رواسيها فما تجري

وفي هذا الكلام تقديم وتأخير ، والتنزيل قول الله عز وجل : ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ﴾ فعل تمتيعا لكم ، والتأويل والمعنى : هو أخرج منها ماءها ومرعاهها متاعا لكم والجبال أرساها ، ولكن لا يجوز أن يقرأ كتاب الله إلا على ما أنزل الله سبحانه وعز عن كل شأن شأنه لأنه لم يفعل ذلك إلا لأسباب من الصواب ، ولولا ذلك لين جميع الكتاب .

ومعنى قوله عز وجل : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ يعني القيامة ، وإنما سميت طامة لعلوها ورفعتهها وهولها عند وقعها ووثوبها بغتة وسرعتها ، وأصل الطم في الإرتفاع في الهواء سريعا سريعا معا معا قال الشاعر :

أتاكم طم فوق كل طم^(١) إذا العكاضى كئآفي اليم

﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ يريد : أنه يتذكر ما عمل في الدنيا ، وأصل السعي هو الجهد والإجتهاد ، والإقبال والإدبار ، والتحدر والإصعاد ، قال سيد العابدين علي بن الحسين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين :

فإن امرأ يسعى لندياه جاهدا ويذهل عن آخراه لاشك خاسر

ومعنى ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ هو : أخرجت وأظهرت ، ومعنى ﴿لمن يرى﴾ هو : لمن يرى عز وجل ويعلم أنه يستحق العذاب .

ومعنى قوله : ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ هو جاوز الحد في ظلم نفسه بكفر أو فسق ﴿وآثر الحياة الدنيا﴾ قدمها على الآخرة ﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾ أي : المَنَزَل والمحل والمثوى ، قال الهادي إلى الحق عليه السلام :

(١) - في (ب) : إياكم الطم فوق كل طم إذ العكاضى كئآفي اليم

قال الرازي : الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع ، وفي اشتقاقها وجوه ، قال المبرد : أخذت فيما أحسب من قولهم طم الفرس طعيميا ، إذا استفرغ جهده في الجري (وهو الذي أراده هنا بالإسراع) وطم الماء : إذا ملأ النهر كله ... إلى قوله : وقال القفال : أصل الطم : الدفن والعلو ، وكل ما غلب شيئا وقهره وأخفاه فقد طمه ، ومنه الماء الطامي ، وهو الكثير الزائد ، والطاغي والعاتي سواء وهو الخارج عن أمر الله تعالى المتكبر ، فالطامة اسم لكل داهية عظيمة ينسى ما قبلها في جنبها .

إني من الله له أرجو جنانا دائما مأواها

﴿وأما من خاف مقام ربه﴾ أي : موقفه الذي يقوم فيه العباد للحساب .

﴿ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ أي : نهى نفسه عن إتباع الهوى فأما الهوى في نفسه فلا يقدر أحد على تركه ؛ لأن الهوى في ذاته إنما هو الشهوة والشهوة لا يقدر أحد على تركها وإنما يقدر على خلافها ، ويمكنه الإمتناع من طاعتها ، وهذا من الإختصار ، وهو كثير موجود في القرآن ، وهو عند أهله بين غاية البيان ، فالحمد لله على ما علمنا من الفرقان ، ونسأله أن يزيدنا برحمته من البرهان .

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ أي : متى حلولها وهجومها على البرية ونزولها ؟ وأيان في اللغة بمنزلة متى ؟ قال الشاعر :

أيان تدفع بالرماح عليهم يامال قبل منيتي وذهابي

ومعنى قوله : ﴿فيم أنت من ذكرها﴾ يريد بذلك : التوقيف للناس على خوف رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما هو فيه من الفزع والحزن عند ذكره لها وعند ما يخطر على باله من هولها .

ومعنى ﴿إلى ربك منتهاها﴾ أي : عند ربك نهايتها ، ووقت هجومها ، وغاية ما يكون في آخر تلك الساعة ، ومصير الأبرار إلى سعادتها ، ومصير الفجار إلى أشقائها ونكدها ، والساعة في تلك الواقعة : التي يحكم الله فيها بين العباد ، ويصير كل إلى داره التي يستحق بعمله ، من الضلال والرشاد .

ومعنى قوله : ﴿إنما أنت مندر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ يريد : كأنهم في ذلك اليوم لم يقيموا في الدنيا إلا عشية من عشاياها أو ضحوه من ضحاها لقصر ما فات من الدنيا ، وكذلك الإنسان عند الموت والقضاء كأنه لم يعمر ولم يخلق إلا في تلك الساعة التي يقبض فيها ويوتق ، ولكن هذه البرية أبت إلا العمى والتقصير ، عما أراد الله بها من إتباع الحكماء ، ومالوا إلى اللعب والجهل والردى ، وزهدوا في الحق والدين والهدى فزادهم الله تبابا وبعدا ، ولا وفقوا للخير أبدا . (انتهى والحمد لله رب العالمين وصلى على محمد وآله الطاهرين) .

[بعض ماورد في الإمام الهادي عليه السلام]

قال الإمام الأعظم المنصور بالله الحسن بن بدر الدين بن محمد بن أحمد بن يحيى
بن يحيى سلام الله عليهم في كتابه أنوار اليقين ، وقد ذكر كلاما للهادي إلى الحق عليه
 السلام ما لفظه:

”مع أن يحيى بن الحسين صلوات الله عليه جاءت الآثار بمدحه ، والتصريح بإمامته
 وحياة الدين على يديه ، كما روينا من قول النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم (يكون في
 هذا النهج وأشار بيده إلى اليمن في آخر الزمان رجل من أهل بيتي اسمه يحيى الهادي
 يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحيى الله به الحق ويميت به الباطل) إلى غير ذلك مما
 رويناه أولا فيه عن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم ، حيث ذكرنا إمامته عليه السلام
 وقوله عندنا الحق ، وكلامه الصدق ، وهو أولى بالإتباع من غيره وأوثق ، وقد أخبر
 أنه مايقول إلا ما يرويه عن أجداده ، حتى يتصل بعلي أمير المؤمنين ، ثم بالنبي خير
 المرسلين ، ثم بالروح الأمين ، ثم برب العالمين ، وهذا إسناد لا يوجد مثله في العالمين“
 انتهى .

وقال فيه السيد إبراهيم بن محمد الوزيري في بسامته رضوان الله عليه :

من خص بالجفر من أبناء فاطمة وذو الفقار ومن أروى ظمى الفقر
 سارت معذبه الركبان واشتملت بقره الناس مثل الحجر والحجر

يتلوه تفسير الهادي إلى الحق عليه السلام كما كنا ذكرنا .

[مقدمة الإمام الهادي عليه السلام لتفسيره]

قال الإمام الهادي (عليه السلام) الحق يحيى بن الحسين عليه السلام :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي لا تراه عيون الناظرين ، ولا يقع عليه فكر المتفكرين ولا يستدل عليه أحد من المستدلين إلا بما دل به على نفسه ، وأوقفهم عليه سبحانه من صفته من أنه الفعال لما يريد من الأشياء ، وأنه المقتدر الفعال لما يشاء ، فدل على نفسه بما أظهر من فطرته ، وبين البراهين بذلك على ربوبيته ، فليس له حد ينال ولا مثل يضرب به له الأمثال ، دائم أحد حي فرد صمد عزيز قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم .

ونشهد أن لا إله إلا هو ، وأنه فطر السماء فبناها ، وسطح الأرض فدحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا خلقه ، ورحمة لعباده ، وأنه على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار الصادقين الأبرار ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، أرسله بالحق داعيا إلى الحق ، وشاهدا على الخلق ، فبلغ الرسائل الزاهرة ، وأبان الحجج الباهرة وسطع بالحق معلنا ، وجاهد المشركين معلما ، وأصلح الله في بلاده ، ونصح جاهدا لعباده ، صابرا مصطبرا جاهدا محتسبا ، حتى قبضه الله إليه وقد رضي عمله ، وتقبل سعيه وشكر فعله ، صلى الله عليه وعلى آله .

إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً إلى الأمة بكتاب ناطق ، وأمر صادق ، فيه شفاء للصدر ، وكمال الفرائض والأمر ، والهدى والتقوى ، والرجوع عن الردى والنجاة من المهالك ، والسبيل إلى أفضل المسالك ، ولا يظماً من ورد شرائعه ولا يجوع من أكل سائغة ، ولا يصم من سمع واعظه ، ولا يعمى من أبصر سبيله ولا يضل من اتبع نوره ، ولا يغلط من استشهد ناطقه ، ولا يهلك من اتبع بيانه ولا يندم من استمسك بوثيق عروته ، ولا يقلج إلا من احتج بمحكم حججه .

نور ساطع ، وبرهان لامع ، وحق قاطع ، كتاباً مفصلاً ، ونوراً وهدى ، قد ترجمه الرسول وأحكم فيه وثائق الأصول ، وفرع فروعه بأحسن القول ، فكان في حياته واضحاً ، وكان به صلى الله عليه وآله قائماً ناصحاً ، حتى صار إلى ربه وتركه من بعده في أمته ، استأمن عليه من أمته خلفاء من بريته ، الذين اختارهم الله على علمه ، واصطفاهم له دون جميع خليقته ، عترة النبي ونسل الوصي وسلالة المصطفى الطاهر الزكي ، الطيب المرضي الذين مدحهم الله في كتابه ، وبين أنهم خيرته في قرانه ، فقال في كتابه : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾^(١) ثم قال عز وجل : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾^(٢).

ثم أمر العباد بطاعتهم فقال سبحانه : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾^(٣) ثم أمر نبيته صلى الله عليه وآله بافتراض محبتهم ومودتهم على الخلق ؛ لما أراد من تثبيت ما أراد تثبيته فيهم من الحق ، فقال سبحانه لنبيته أمراً منه له بذلك فقال : ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾^(٤) فجعل مودتهم فرضاً على الخلق من ربهم ، وحجة ودلالة منه على إمامتهم ، فجعل من كان من آل رسول الله منتزماً لشروط الإمامة المعروفة التي قد ذكرناها وشرحناها ، ووضعناها

(١) - فاطر : ٣٢

(٢) - الأحزاب : ٣٣

(٣) - النساء : ٥٩

(٤) - الشورى : ٢٣

في أول كتاب الأحكام في الحلال والحرام إماما للأمة ، وعلمنا للمحنة ، ودليلا على أبواب النجاة ، وسببا إلى الجنان ، ووصلة بين العباد وبين الرحمن ، قلده علم كتابه وأمره بشرحه وبيانه ؛ ليبين بما يظهر فيه من حكمته ، ويلقيه في قلبه من معرفته ، ونطق به لسانه في تبين حجته ، ويعتقد له بذلك في رقاب المؤمنين عهوده المؤكدات ، ويثبت في رقابهم له عقود الأمارات ، وليجعل ما يوقفه له ويكرمه به من تفهيمه إياه ، ويدله به عن علم غامض آياته المتشابهات ، ويوقفه عليه من فهم حكمه الذي قد بينه في الأمهات المحكمات ، دليلا على عقده له الإمامة على العالمين وإيجاب الطاعة له في رقاب المخلوقين .

ويكون ذلك حجة له على الخلق ، وعلامات ودليلا على ما أعطاه الله من الكرامات ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

فرأينا عندما خصنا الله به وأعطانا ، وفضلنا به على أهل دهرنا وأولانا ، أن ننشر فضائل الحكمة التي أوليناها ، وأن نبين علامة الإمامة التي أعطيناها ، لنخلع الحجة من رقابنا ، ونثبتها لله على غيرنا ، بما يظهر مما أمرنا الله بإظهاره ، من شرح غامض الكتاب ، وتبيين تفسيره من كل الأسباب ، حتى نبين بذلك الحق المبين ونثبت فيه الصدق اليقين ، وننفي عنه تأويل الفاسقين ، ونغيث عنه تفسير الجاهلين الذين حملوا تأويله على غير تنزيله ، وحكموا على حكمه بمتشابهه ، وردوا معاني الآيات المحكمات المبيّنات من الآيات اللواتي هن الأمهات ، على معاني غيرهن من المتشابهات ، واستشهدوا المتشابه على الحكم ، فأهلكوا بذلك جميع الأمم ، شبهوا في تأويلهم وتفسيرهم ربهم بخلقه ، فأبطلوا ما نفاه من بعد الشبه لهم عن نفسه فمثلوه تمثيلا ، ونقلوه في الصور تنقيلا ، وجعلوه بذلك صورة مصورة محدودة عندهم غير مقدرة ، فعبدوا ما وصفوا ، ودانوا لهذه الصورة التي ذكروا ، فكانوا بالله غير عارفين ولا مقرين ولا مثبتين ، بل كانوا عنه عابدين ، وبه في كل الأمور

جاهلين ، فلما أن جهلوه لم يعبدوه ؛ لأنهم عبدوا بجعولا مقدرًا ومعبودًا عندهم مصورا .

والله فليس هو كذلك ؛ إذ المعبود الذي هو عندهم كذلك ، فكانت عبادتهم لغير الرحمن ، وطاعتهم لغير ذي الجلال والسلطان ، بل كانوا لله منكبين ، وبه غير مقرين .

فابتدأنا بشرح ما نريد بيانه ، من تفسير القرآن الذي نزله ذو القوة والبرهان ، من حيث أفضى إليه تفسير شيخينا رحمة الله عليهما ورضوانه ، جدي وعمي ، وهو من أول سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وذلك أن جدي صلوات الله عليه بلغ من تفسيره إلى آخر ﴿والشمس وضحاها﴾ ومحمد بن القاسم عمي ، من عند ذلك إلى آخر ﴿والنازعات﴾ فرأينا البناء على أساسهما ، وإتمام ما قد كانا أملاؤه من شرح القرآن وتفسيره ، وبلوغ الغاية في شرح تأويله ، إن أخرني الله سبحانه لذلك وأمهلي وبلغني فيه أمنيته ولم يمنعني ، من ابتدائه من أوله وتفسيره من أول حرف منه إلا التبارك بذكرهما ، والبناء على تفسيرهما ، صلة مني لهما بذلك ، وتقربا إلى الله بأن أكون كذلك ، لما لهما في ذلك من الأجر ، وما يكسبهما ذلك إن شاء الله من الفخر ، في الدنيا والآخرة والذكر ؛ لأن يشركهما الله عز وجل في صالح ما نضع من ذكر الحق ، ونبين من براهين الضدق ، التي نهدي بها المسلمين ، وننقذ بها جميع المخلوقين ، ممن يستحق من الله الهدى ، ويستوجب منه المعونة على التقوى .

فابتدأت من حيث بلغنا مستعينا بالله ، متوكلا عليه ، سائلا له العون في كل أمر من هذا وغيره ، فنسأل الله أن يبلغنا في ذلك أملنا ، وأن يعظم عليه أجرنا ، وحسبي الله فنعم المولى ونعم النصير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

تفسير «عم يتسألون»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال عليه السلام : معنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وتأويلها ، أي بيسم الله يتبدأ كل شيء وهو المذكور قبل كل شيء ، ومعنى ﴿اللَّهُ﴾ فهو : الإله الواحد ، الذي لا إله معه ومعنى ﴿الرحمن﴾ فهو : المتعطف على الإنسان ، العائد عليهم بالعفو والإحسان المتفضل عليهم بالبر والإمتنان ، الرازق لهم على كل حال كانوا فيه ، من هدى أو ضلال .

﴿الرحيم﴾ فهو البر الرفيق المنقذ لهم بالدلالة على ما فيه نجاتهم ، الدال لهم على ما فيه صلاحهم ، المحذر لهم طريق التهلكة ، المنجب لهم عن سبيل الهلكة ، السالك بهم أبواب الكرامة والرحمة ، الداعي لهم إلى ما فيه السلامة والنعمة .

قال الله سبحانه : ﴿عم يتسألون﴾ قال : ﴿عم﴾ يريد عن ما ، فأذهب النون إدغاما في الميم لتقارب مخرجهما ، وكذلك تفعل العرب بما كان كذلك ، تطرح الألف التي مع الميم استخفافا لها ، والعرب تفعل ذلك بالألف تطرحها وهي تريدها وتثبتها وهي لا تريدها ، وكذلك تفعل بلا كما هي ، قال الله سبحانه في طرح الألف وهو يريد لها ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ وإنما معناه : ألا أقسم بيوم القيامة فطرحها وهو يريد لها ، فخرج معنى الكلام معنى نفي ، وإنما معناه معنى إيجاب .

وكذلك قال الله سبحانه : ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ فطرح الألف استخفافا لها وإنما معناها : ألا أقسم بهذا البلد .

وقال سبحانه في موضع آخر آخر أثبتنا فيه وهو لا يريد لها : ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾^(١) فخرج معنى اللفظ معنى شك ، حين يثبت الألف ، وإنما معنى

الآية وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون ، فأثبت الألف لغير معنى استخفافا لها ؛ لأن العرب تفعل ذلك ، وهي لغتها ، وإنما خاطبهم الله عز وجل بلغتهم .

وكذلك قال سبحانه وجل عن كل شأن شأنه في طرح الألف واللام معا من الموضع الذي لا بد منهما فيه فيما ذكر من فدية الصيام : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين﴾^(١) فقال : ﴿على الذين يطيقونه﴾ فخرج اللفظ لفظ يوجب الفدية على من أطاق الصيام ، وإنما المعنى : وعلى الذين لا يطيقون فدية طعام مساكين ، فجعل على من لا يطيق الصيام - من الشيخ الكبير الفاني ، والعجوز الكبيرة الفانية اللذين لا يطيقان الصيام ولا يَرْجُوْنَ تجديد قوة ؛ لما قد زال عنهما من القوة بدخول الهرم والذهاب ، وزوال الشدة والشباب - الصدقة على مساكين بدل كل يوم حتى ينقضي شهر الصوم ، فيكون كل واحد منهما يتصدق على ثلاثين مسكينا بدل الثلاثين يوما .

، مقدار ما يتصدق به فهو : مُدًّا بُرَّ على كل مسكين عن كل يوم ، أو غير البر مما يأكل أهل تلك الفدية ، فقال سبحانه : ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ وإنما يريد : وعلى الذين لا يطيقونه ، فطرحها وهي أصلية في المعنى ؛ لأنها لغة العرب ، وبلغتهم خاطبهم الله سبحانه .

وكذلك أثبتنا في موضع ولم يردها ، ولا أصل لها في المعنى ، وإنما جاءت ظاهرة في اللفظ ، وذلك قول الله سبحانه : ﴿لنلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾^(٢) فقال : ﴿لنلا يعلم﴾ فخرج معنى اللفظ معنى نفى ، وإنما معناه معنى إيجاب ، أراد الله سبحانه لأن يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله ، فأثبتها وهو لا يريد ، فخالف اللفظ المعنى ، عند من لا يعرف تفسيرها ، ولا يقف على معانيها .

(١) - البقرة : ٢٩

(٢) - الحديد : ٢٩

وفي الدليل - على أن هذا الفعل لغة من لغات العرب ، أفصح لغاتها عندها وأثبتها في ألسنتها - قولُ شاعر من شعرائهم :

بيوم جدود لافضحتم أباكم وسالتم والخيل يدمى شكيمها

فقال : لا فضحتم أباكم ، فأثبت فيها لا ، وليس يريدُها ، ولا لها معنى ، وإنما معناها : بيوم جدود فضحتم أباكم .

وقال آخر من شعراء العرب في طرحها وهو يريدُها :

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القرى أن تشتمونا

فطرح لا كما طرح اللام فخرج معنى الكلام معنى إيجاب ، وإنما معناه معنى نفى أراد لقلا تشتمونا ، وطرح لا وهو يريدُها ، فعلى ذلك يخرج معنى قوله سبحانه : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ فطرح النون من عم لما ذكرنا من الحجة فيها أولاً ، وطرح الألف من ما لما ذكرنا من استخفاف العرب لها ، واستعمال ذلك في لغتها فبقيت ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ مشددة ، شددت لإدغام النون في الميم .

والمعنى فيها عن مايتسألون غير أن اللغة والإعراب حذف منها الحرفين النون والألف ، يريد تبارك وتعالى بقوله : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي : عم يستخبرون ويتذاكرون ويتزادون ويسألون ، توقيفا لنبيته صلى الله عليه وعلى آله على ما يفعلون ، وعلى ما فيه يتزادون .

ثم قال سبحانه : ﴿عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فأخبره صلى الله عليه وآله أن الذي كانوا عنه يتسألون ، وفي أمره يتزادون - هو النبأ العظيم ، الذي هم فيه مختلفون ، والنبأ هاهنا الذي هم فيه يختلفون فهو : ما كان ينبئهم به رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويعلمهم به من بعثة القبور ، ومن النفخ في الصور ومن حشر العباد ، وتبديل الأرض والبلاد والحساب ، والعقاب والمناقشة والثواب فكانوا في ذلك يختلفون ، ومعنى يختلفون أي : تختلف أقاويلهم في التكذيب به وتصنيف معاني رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وعلى آله فيه ، فكانت طائفة تقول : إن إنباء رسول الله صلى الله عليه وآله لهم بهذا القول سحر ، وطائفة تقول : إن إنباءهم

به شعر وظنون ، وطائفة تقول : إن ذلك كله منه كهانة وجنون ، فهذا معنى اختلافهم في النبأ والنبأ فهو الإنباء ، والإنباء : فهو الإخبار والتبيين والإعلام للعالمين بما لا يعلمون ، ولا يتوهم من أحد - ذو فهم ونظر وتميز وبصر - أن اختلافهم فيما كان ينبئهم به صلى الله عليه وعلى آله من ذلك ، ويقصه عليهم ويقرؤه - اختلاف يكون بعضه إقرارا بما كان يقول : وبعضه إنكارا لهذا القول ، بل كلهم كان منكرا له مكذبا غير مقرر ، وإنما معنى الاختلاف منهم - هو : اختلافهم في تصنيف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله والجنحدان لما جاء به صلى الله عليه وآله من عند الله .

﴿كلا سيعلمون﴾ معنى كلا : معنى الإنكار لقولهم الذي قالوا ، وإنكار لما هم فيه من تصنيف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لأن كلا هي كلمة جواب رد على متكلم بغير صواب ، إنكارا لقوله ، وردا عليه في كذبه ، ودفعاً لما يأتي به من جهله - تستعملها العرب في ذلك من محاورتها ، وتلفظ بها في لغاتها فقال: ﴿كلا﴾ ما جاؤا بحق ، ولا تكلموا بصدق .

ثم ابتداء الكلام من بعدها بالوعيد لهم على كذبهم ، وجحدانهم للنبأ العظيم الذي أنبأهم به رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته ، من بعثهم وحشرهم فقال : ﴿سيعلمون﴾ أي : سيعلمون صدق ذلك وحقه ، ويعاينون ما ذكر من كينونة البعث والحساب ، وما أوعدوا بالنكال والعقاب .

ثم رجع سبحانه وجل عن كل شأن شأنه في إبطال قولهم ، والتكذيب لهم في جحدانهم للنبأ العظيم ، وإبطالهم الوعد والوعيد الجسيم فقال : ﴿ثم كلا﴾ فكرر الجواب لهم لنفي الصدق عنهم ، وإيجاب الباطل عليهم ، والتكذيب لهم في قولهم فقال : ﴿ثم كلا﴾ أي : باطل ما أتوا به وزور ومحال ذلك وفجور .

ثم رجع إلى الوعيد فقال : ﴿سيعلمون﴾ غب فعلهم ، ويجدون ما أوجبنا من الوعيد عليهم ، في تكذيبهم وشكهم ودفعهم ما ذكرنا لهم ، من نشرهم ورحلتهم على لسان نبينا ، من الأنبياء العظيمة ، وأسباب الجليظة ، التي لا بد من وقوعها

وكينونتها ووضوحها ، من عجائب أفعالنا في خلقنا ، عند نفخنا في صورهم وإخراجنا لهم من أجدانهم ، وإيصالنا لهم ما حكمنا به لهم وعليهم ، من كريم الثواب ، وأليم شديد العقاب .

ثم قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ والمهاد : فهو القرار المهد ، والمهد : فهو المسوى المجرد الذي يضطجع الناس عليه ويأوون فيه ، وينشأون عليه ، من ذلك ما تقول العرب لمضطجع الصبي وموضعه ومأواه : مهد الصبي ، وهو شيء يسوى له من الخشب يغذى فيه ، ويجعل عليه يكفته ويؤويه ، ويشده ويقويه ويستريح إليه فجعل عز وجل الأرض للخلق مهادا يأوون إليها ، ويسكنون فيها فلما أن كانت الأرض لهم مأوى ومكفئا ، يمهدون فيها ويسكنون عليها ، سميت مهادا إذ كانت لهم مأوى ، كما سمي موضع الصبي مهادا ؛ إذ كان له مضجعا ومأوى .

ثم قال : ﴿ وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا ﴾ فأخبر عز وجل أن الجبال أوتادا للأرض ، تمنعها من الميذان بهم ، وتوقفها عن التزعزع بمن فيها منهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ ﴾^(١) يقول : أن تزول أو تزعزع بهم ، فشبه سبحانه الجبال في الأرض للزومها لها ، ومنعها بها من الميذان بأهلها - بالأوتاد اللازمة لأطناب البيوت ، المقيمة لها على الثبوت ، اللازمة المانعة لها عن الزوال ، فجعل سبحانه ما جعل من الجبال للأرض أوتادا .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَوَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ فأخبر بعجيب صنعه ، وما أظهر من فطرته ، وما أرى الخلق من محكم تقديره ، في خلق المخلوقين أزواجا .

والأزواج : فهي الذكر والأنثى ، الذي يكون منهما نسل آدميين ، ويتناسلها تكون كثرة المخلوقين .

ثم قال : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ والنوم فهو الرقاد ، والرقاد : فهو خروج الروح من البدن ، وبقاء النفس التي منها النفس في مقرها من البدن ، وهو شيء جعله الله وركبه في الإنسان ، منة منه سبحانه عليه ، وإحسانا منه سبحانه إليه ؛ لما

في النوم من راحة البدن ، وإراحة الجوارح كلها ، وإراحة النفس في كل وجه ومعنى .

من تلك الراحة راحة البدن من تعب وإقباله وإدباره ، وراحة العين من النظر والإصعاد والتصويب ، وراحة الرجلين من المشي ، وراحة الأذنين من السمع والإستماع ، وراحة اللسان من القال والقليل ، وراحة النفوس من الهموم والغموم وراحة الخائف من وجل خوفه ، وللمرعوب من رعب فزعه ، وكل ما شرحنا من هذا القول ومثله ففي النوم راحة من ألمه ، وفرج من فادح عمله ؛ لأن النوم يزيل ذلك كله [ويعرف] ^(١) بزوال الروح من البدن ، وزوال العقل الذي به يميز ذلك كله ، ويعرف به ألمه ، فإذا زال صار الإنسان بزواله في الغفلة عن ذلك [كله] كالميت المفارق لأرضه .

وفيما ذكرنا من خير النوم وفضله ، وجزيل مواهب الله فيه ومنه ، وما يزول عن كل أحد به من فادح همه - ما يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ يَغْشِيكُمْ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾ ^(٢) يقول : تطمينا لقلوبكم ، وترويحاً به عنكم ، إذ بوقوعه يزول عنكم معرفة ما أنتم فيه من الروع والهول ، فتبارك الله العزيز ذو الطول .

السببات : فهو الإطراق والخفتات ، والهدوء والسكون في الحالات .

ثم قال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ يقول : غاشيا لكم ، ملبسا لكم ^(٣) ما يلبسكم من ظلامه ، ويقع عليكم عند هجومه من ادلهمامه ، فسماه الله لباسا ؛ إذ كان يلبس الأرض ظلمته ، ويغلبها اسوداده ، فيستر منها القريب الداني ، ويوارى معها بظلمته المختفي المتواري ، فلما أن ستر بظلامه ما ستر ، وألبس الأرض ما حجب الناظر به عن النظر ، وستر عنه ما يكشفه النور من الخبر قيل : لباس ملبس وكذلك تقول

(١) - الزيادة من المجموع المخطوط .

(٢) - الأنفال : ١١

(٣) - في نسخة (ملبسا عليكم) وما اثبتاه من النسخة (أ) .

العرب : أرخى الليل ستره ، وضرب الليل بسجفه ، وألبس الليل الأرض ثوبه تريد ألبسها من ظلمته ما كان سترًا [لها] وحجابا دونها ، فسمي بذلك الليل لباسا .

ثم قال : ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ يريد سبحانه متعيشا للناس ، ومكتسبا يكتسبون فيه المعاش ، ويطلبون فيه المراتب ^(١) فلما كانت المعاش من الصناعات وغيرها مما يكتسب به المعاش لا تكون إلا في النهار ، قال الله سبحانه : ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ إذ جعله للمعاش سببا ووقتا ومطلبا .

ثم قال سبحانه : ﴿وبنينا فوقكم سبعا شدادا﴾ يعني بالسبع الشداد : السموات المبنيات ، وهن الطرائق المركبات المجعولات ، فذكر سبحانه ما جعل من السماوات التي جعلهن دليلا عليه وآيات ، ولما فيهن وفي من يسكنهن من الدلالات المنيرات على الجاعل هن ، المقدر لتركيبهن ، المسك بلا عمد هن .

ثم قال : ﴿وجعلنا سراجا وهاجا﴾ والسراج الوهاج : فهو ما جعل الله من الشمس والقمر النيرين ، السراجين الوهاجين ، وما جعل من النجوم الوهاجة المتوقدة ، فأضاء ما بين المهاد ، وبين السبع الشداد من الهواء المدهم المتكاثف المظلم بمنور السراج الوهاج ، الذي جعله في الليل والنهار سراجا .

والسراج : فهو المضيء المنور ، الذي يسرج بضوئه وينير ؛ لأن معنى السراج : فهو المضيء المنير ، تقول العرب : أسرج السراج ، تريد نوره وأضئه ، واجعل فيه نورا ساطعا حتى يكون بتنويره سراجا وهاجا ، والوهاج : فهو المتوقد الملهب .

ثم قال : ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا﴾ والمعصرات : فهن السحاب الثقيلات العاصرات لما فيهن من الماء ، وعصرهن للماء حبسهن وحملهن له وإمساكهن إياه ، فسمين لحبسهن لما فيهن من الماء وإمساكهن له معصرات ، ومن ذلك ما سميت العصر عصرا ؛ لما يعصر بها ويحبس عن الظهر الذي قبلها ، فسميت عصرا للإمساك عنها ، والتعصير بها ، والعصر : فهو الحبس ، ومن ذلك ما تقول

(١) - في المجموع المخطوط (ومكتسبا يكتسبون فيه المعاش ويطلبون فيه المراتب) .

العرب في كلامها وأمثالها لحابس الشيء إذا حبسه عنها : كم تحبسه وتعصره !
وتقول : أكثرت عصر هذا الشيء ، أي : تريد حبسه وإمساكه .

وقد قيل : إن معنى ﴿المعصرات﴾ هو : العاصرات لما فيهن من الماء ، حتى يخرج
من خللهن ، وشبه ذلك بعصر الإنسان للشيء وغمزه حتى يخرج ما فيه من مائه
والقول الأول أحسن القولين عندي وأصوبهما ، وأولاهما بالحق وأشبههما .

وقوله : ﴿أنزلنا﴾ أهبطنا ﴿من المعصرات ماء ثجاجا﴾ ومعنى ﴿ثجاجا﴾ أي
كثيرا جزارا ، قوي السيلان كثير الهطلان ، يثج في الأرض ثجا ، ومعنى يثج ثجا :
أي يدفع دفعا كثيرا إتيانه معا وتدافع سيوله جميعا ، يعضد بعضه بعضا ، ويقوي كل
آخر منه أولا ، فهو لتلاحقه وكثرته يثج ثجا ، ويتدافع تدافعا ، ويتحامل على ما
لقيه من الأرض تحاملا يقلع بتحامله وثجه كل ما نبت من الأشجار في مجراه ، أو
اعترض له في وجهه .

ثم قال سبحانه : ﴿لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا﴾ فأخبر سبحانه أنه أنزل
هذا الماء ليخرج به ما ذكر

ومعنى نخرج به : هو نبت به ، ونجعل منه وبركه ، والحب : فهو كل حب
يؤكل أو ينتفع به مما يتولد في أشجار الأرض بالماء ، كائنا ما كان من الأشياء .

﴿ونباتا﴾ فهو ما كان غير الحب من أوراق الأشجار المختلفة من أفنان
الحشيش النابتات ، وغير ذلك من زاهرات الأرض المورقات .

﴿وجنات ألفافا﴾ الجنات : الحدائق الملتفات المشبكة فيها الأشجار المثمرات من
الفواكه كلها المأكولات الملتذ بأكلها ، المتنعم بطعمها وغير ذلك من الأشجار الملتذ
برائحتهم ، المتفكه بشمهم من الرياحين وغيرها من الأشجار المنورة ، المختلفة
بنوارها ، التي تجري من تحتها المياه ، قد فجرت فيها أنهارها تفجيرا ، وأبهجت
سبلها سبلا سبلا ، وأعد فيها مما أتخذ من مجالس دورها ، ومنتزهات قصورها
فاختلفت هذه الجنان لأهلها ، وتزينت لهم بما فيها ، فإذا كانت كذلك ، وكان
السبب فيها على ذلك ، فقد انتظمها اسم الجنان ، وفي ذلك ما يقول الرحمن

الرحيم: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين﴾^(١) فسمى ما كان على ما ذكرنا من الأرض جنانا وإنما سمي ما كان من الأرض كذلك جنانا ؛ لما فيها من الملك والنعيم ، والسرور والخير الكريم ، فشبهت في الاسم بالجنان التي ذكر الله في الآخرة ، التي فيها النعيم الذي هو النعيم حقا ، المقيم أبدا ، فاشتبهت في الإسمين ، وتفاوتا والله الحمد في المعنيين ، في الحاليين والصفيتين .

وكيف لا تتفاوت !! وكل ما في الآخرة فدائم أبدا ، لا يعدم صيفا ولا شتاء ولا يكون له أمد يبلغه ولا انتهاء ، نعيمها دائم مقيم ، وملكها سرمد كريم ، وما في الدنيا فيزول مع زوال الأزمنة ، ولا يدوم منه شيء أبدا ، ما أكل من لذية مأكلها إلا عدم في غير هذا الوقت من الزمان ، فيتقلب مع تقلب الأزمنة ، فلا يوجد منها ثمرة صيف في شتاء ، ولا يوجد ثمرة الشتاء في الصيف أبدا .

هذا مع تصرف ذلك كله وانقضائه ، وخروج أهله منه بالموت وفنائه ، وترك ما جمعوا لذلك لغيرهم ، وما تكالبوا عليه لورثتهم .

وكلما ذكره الله سبحانه من قوله: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا﴾ إلى قوله: ﴿وجنات ألفافا﴾ فإنما أراد الله تبارك وتعالى بذكر ما ذكر من هذا ، احتجاجا على المكذبين بالنباء العظيم ، بما جعل من ذلك كله وركب فيه من الدلائل الدالة عليه سبحانه ، والشاهدات على تصديق النباء العظيم ، الذي هم في تصنيف الكذب به مختلفون ، فأخبر جل وعلا جلاله عن أن يحويه قول أو يناله - أن في أقل مما رأوه من جعله ، وعانوا من أثر خلقه دليل على عظيم قدرته ، وصدق وعده ووعيده ، وأن الذي عانوا من أثر صنعه ، في هذه الأشياء ، أعظم في بيان القدرة ، ومضى الإرادة من نشر الموتى ، وما نبأهم به

رسول الله صلى الله عليه وآله ، من الأشياء التي ذكرها في يوم المعاد ، وأنذر بها ورغب ورهب جميع العباد .

ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ ويوم الفصل : فهو يوم الجزاء والقطع بين العباد ، والقضاء بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، وبه من النبأ يكذبون فسمى الله سبحانه ذلك اليوم : يوم الفصل ؛ ليفصل الأمور ، وتفصيلها : فهو قطع ربيها ، وبيان أمرها ، وثبوت صحتها عند من كان جاحدا لها .

ومعنى قوله : ﴿مِيقَاتًا﴾ أي موعدا وعائدا وغاية ومدى ، وإليه يوعدون ، وفيه يثابون ويعاقبون ، والميقات فهو : الوقت الذي إليه يؤخر الخلق فيما يوعدون ، وإليه يجتمعون ، وفيه يحصلون ، وإليه يجرون .

وقوله : ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يريد بقوله : ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ﴾ أي : أن هذا الميقات واليوم ، الذي فيه الميعاد - هو يوم ينفخ في الصور ، والصور : فهي صور الآدميين .

فذكر سبحانه أنه يُنْفَخُ فيها بعد فنائها وبلائها - روحُ الحياة بعد الفناء والبلى فتعود من بعد ذلك صورا أحياء ، معتدلة الخلق والبناء ، كما كانت عليه من الخلق أولا .

ومعنى ﴿يَنْفَخُ﴾ هو : يجعل فيها الحياة ، ومعنى يجعل فيها الحياة : فهو ترد إليها الأرواح في الأجساد المبتدأة .

ألا تسمع كيف يقول سبحانه فيما أمر به الملائكة عليهم السلام ، من السجود له عند إظهار ما يظهر من قدرته في خلق آدم صلى الله عليه وآله حين قال - : ﴿فَإِذَا سُوِيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقْعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(١) قال : نفخت فيه من روحي يقول : جعلت فيه وركبت وسويت ، وخلقته فيه روحا به تمامه ، وبكينونته فيه قوامه ، ثم نسبته إليه ؛ لأنه خلقه وفعله كما قال : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)

(١) - ص : ٧٢

(٢) - الزمر : ٥٣

فنسبهم إليه ؛ إذ هم فطرته وخلقته ، وفعله وأمره ^(١) وكذلك قال الله سبحانه في مريم عليها السلام : ﴿ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ ^(٢) يريد : جعلنا في الرحم ما جعلنا من خلقنا ، وخلقنا فيه من غير ذكر ما خلقنا من عبدنا الذي جعلناه آية لعبادنا ، ثم نفخنا في ذلك الخلق روحا ، ونفخنا : فهو ركبنا وجعلنا ، وأدخلنا وثبتنا فيه روحا ، به كمال ذلك الخلق المخلوق وقوام ذلك العبد المجعول .

ثم قال سبحانه : ﴿فتأتون أفواجا﴾ والأفواج : فهي الجماعات الكثيرات الآيات معا معا ، زمرا زمرا ، يقول : تأتون إلى الميقات الذي وقت لكم والموضع المحشر الذي جعل لكم محشرا وموضعا للحساب وموقفا .

ثم قال : ﴿وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا﴾ يخبر سبحانه عن تقطع السماء وتفتحها ، وتقلعها وتمزقها ، حتى تكون بعد جودة الإنحباك قطعاً ، وبعد الإستواء أبواباً مفتحة ومزقا ، حتى تكون كالمهل السائل بعد العظم والتجسيم الهائل .

ومعنى قوله : ﴿وسيرت الجبال فكانت سرابا﴾ وتسييرها : فهو نسفها وإذهابها والنسف : فهو القلع والإهلاك والإزالة عما هناك ، حتى تعود أمكنتها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمثا ، والقاع الصفصف : فهو الموضع الأملس المرت ^(٣) الخالي من كل شيء ، الذي لا يستتر منه جانب عن جانب ، ولا يتوارى فيه صاحب عن صاحب ، والعوج : فهو التفاوت في الإرتفاع والإنخفاض والأمت : فهو الاختلاف .

ثم قال سبحانه : ﴿إن جهنم كانت مرصادا﴾ والمرصاد : فهو المرصد ، فأراد بقوله : ﴿مرصادا﴾ أي أنهم يرصدون لجهنم ، وأنها لهم مرصدا ، أي مكانا

(١) - في نغ (إذ هم فطرته وخلقته وبدعته وأمره) .

(٢) - التحريم : ١٢

(٣) - المرت : مفازة لآيات فيها ، ويقال : أرض مرت ، ومكان مرت : قفر لآيات فيه . المعجم الوسيط

وموضعا لا معدل لهم عنه ، ولا منحرف لهم منه ، ولا مصرف ولا مراغ ، ولا ملاذ سواها ولا مساغ غيرها ، وفي ذلك ما تقول العرب : مرصد فلان مكان كذا وكذا تريد مكانه الذي يرصد فيه .

ومعنى يرصد : هو ينتظر فيه حتى يأتيه ويصير إليه فيصادفه فيه راصده ، ويجده فيه طالبه ، وهو المكان الذي لا مراغ له عنه ، ولا يوجد إلا فيه ، فأراد سبحانه بقوله : ﴿ كانت مرصدا ﴾ أي كانت مكانا وموئلا لا بد للطاغين منه ، ولا منصرف لهم عنه .

ألا تسمع كيف بين سبحانه بقوله : ﴿ للطاغين مآب ﴾ أي للعاتين الجبارين المكذبين معادا وموئلا ومكانا ومقرا يآوون فيه ، ويصيرون إليه ، والأوب : فهو الرجوع ، والمآب : فهو المكان الذي يصار فيه ، ويرجع إليه .

﴿ لا بشين فيها أحقاب ﴾ فاللايت : هو المقيم ، ومعنى ﴿ لا بشين ﴾ فهو مقيمون الأحقاب : فهو الدهور الدائمة ، وقد قيل : إن واحد الأحقاب حقب ، وإن الحقب ثمانون سنة ، فإن يكن ذلك كذلك فهي أحقاب متوالية ، متواترة متصلة ، لا آخر لها ولا انقطاع ، ولا فراغ لمدتها ولا فناء ؛ لأن الله سبحانه ذكرها أحقابا ، ولم يذكر لها غاية ولا مدى ، فدل بذلك على أنها أبدا دائما سرمدا .

ثم قال سبحانه : ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ﴾ يريد لا يجدون فيها فسحة ولا راحة تبرد عنهم كربهم ، ولا تنفس عنهم ألمهم ، ولا تكشف عنهم حرارتهم ولم يرد هاهنا بقوله : ﴿ بردا ﴾ وقع البرد وحسه ، وإنما أراد بالبرد تهوين الأمر ؛ لأن العرب تقول : برد عني غمي كذا وكذا ، وبرد عني ألم عتي كذا وكذا ، يريدون هون عني وسهل علي ، وفرج كربي كذا وكذا ، لا أنها تريد بقولها أنه أصاب القائل لذلك بردا أبرد جلده ، فهذا معنى ما ذكر الله سبحانه ، من البرد الذي لا يذوقه أهل جهنم ، يريد أمرا يسهل عليهم عذابهم ، ويفرج عنهم كربهم ، من أمر يطفى عنهم حر جهنم ، وأمر يهون عليهم عظيم الألم .

والشراب الذي لا يذوقونه : فهو الشراب البارد الهنيئ الطيب المريء ، فذكر الله سبحانه أنهم لا يذوقون من ذلك الصنف شيئا ؛ لأنه صنف كرامة من الله لمن سقاه إياه ونعمه ، وأن شرابهم هو الحميم الذي ذكر الله ، أنه يتجرعه ولا يكاد يسيغه ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى : ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ فالحميم : فهو الماء الحمى المسخن الذي قد منع الأيدي عن مسه لشدة حَمَوِهِ وَحَرِّهِ ، والغَسَّاق : فهو الذي قد غلى حتى رمى بحبه ، وتطابير نضجه من جوانب إنائه ، فهو يتطابير من الإناء لشدة الغليان .

﴿جزاء وفاقا﴾ يقول : جزاء وفقا مثلا بمنزل ، بالسوأة سوأة ، وبالمعصية نعمة وبالمخالفة عذابا ، فهذا معنى الوفاق ، أي : أنكم عذبتم بفعلكم ، ونكلتم بجرمكم ولم تظلموا في شيء من أموركم ، وكان ذلك منا جزاء ، فعلا على فعلكم ، وبجازاة على صنعكم ، فأذقناكم من عذابنا ما جعلناه في حكمنا به جزاء ، لمن عَنَدَ عَنَا فَكَانَ مِنَّا حَقًّا حَقًّا ، ولم نسأله ولم نعذبه تجاهلا ولا ظلما ، ولا ابتداء ولا غشما بل كان جزاء بعد الإعذار والإنذار ، والإحتجاج والإمهال .

﴿إنهم كانوا لا يرجون حسابا﴾ يقول سبحانه : لا يأملون محاسبة على فعلهم ولا يتوهمون مجازاة على صنعهم ، ولا يوقنون بما أخبرناهم به من شرهم ، ولا يصدقون بشيء مما أنبأنا به من الوعد والوعيد :

ومعنى ﴿يرجون﴾ يأملون في مخرج الكلم هاهنا : هو لا يخافون ويتقون ويخشون ﴿حسابا﴾ أي : محاسبة منا على ما قدموا ، وبجازاة على ما صنعوا .

ثم قال سبحانه : ﴿وكذبوا بآياتنا كذابا﴾ يقول جل جلاله : وكذبوا بما رأوا وأبصروا من الآيات الدالات علينا ، وجحدوا بما بينت لهم حجتنا - المركبة في صدورهم ، من العقول المجعولة فيهم - من دلائل الحق وبراهين الصدق ، في ما يرون من الآيات من عجائب الصنع في الأرضين والسموات ، وغيرهن مما جعل الله من المجهولات ، وفطر سبحانه من بدائع المفطورات ، اللواتي يشهدن لخالقهن ، ويدلّلن على فاطرهن ، وينطقن بربوبيته بنواطق ما فيهن ، من أثر صنعه ، الذي لا يجهله

منصف ، ولا يدفعه إلا مكابر مخالف ، فذكر الله سبحانه أنهم كذبوا بذلك بعد بيانه ، ودفعوه بعد صحته في عقولهم ، وثباته في صدورهم بآيين البيان ، وأوضح البرهان .

وقوله : ﴿كذابا﴾ فمعناها : تكذيبا وملادة ، وتعطيلا ومناكرة وكفرا .

ثم قال : ﴿وكل شيء أحصيناه كتابا﴾ ومعنى أحصيناه : فهو علمناه وحفظناه ومعنى ﴿كتابا﴾ أي محفوظا مثبتا معلوما مبينا .

وإنما ضرب الله لهم بما ذكر من الكتاب مثلا ؛ إذ كان أبين ما عندهم بيانا واضحا ، وأثبت ما كان في الكتاب مكتوبا ، وفي الصحف المعروفة موقعا ، فذلك عندهم أبين ما يعرفون ، وأصح ما يعلمون ، وأحصى ما يحضون ، فمثل الله عز وجل بما يكون حفظه لما يكون متهم ، وأحصاؤه إياه عليهم . بما هو أفضل الأشياء عندهم وأبينه بيانا ، وأثبت صحة مما يكتب في الكتب ، ويوقع فيها .

ثم قال سبحانه : ﴿فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ يقول سبحانه : فذوقوا ما نزل بكم على فعلكم ، وما نزل بكم من الجزاء الوفاق على كفركم .

وقوله : ﴿فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ يقول : لن تروا فرجا ولا رخاء ، ولن تزدادوا بالملك الطويل في جهنم إلا عذابا وبلاء ؛ لأن عذابهم دائم سرمد ، وخلودهم في النار دائم أبدا ، ومن كان كذلك لم يزد بالملك في جهنم إلا عذابا .

ثم قال جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله : ﴿إن للمتقين مفازا﴾ والمفاز : فهو موضع الفوز ، والفوز : فهو النعيم والخير والسرور ، وقرة العين من المأكول والمشرب ، والمناظر والمناكح والمطالب .

ثم فسر سبحانه ذلك المفاز فقال : ﴿حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا دهاقا﴾ والحدائق : واحدها حديقة ، والحديقة : فهي الحظيرة المجتمع فيها جميع الثمار المأكولات الطيبات ، والمياه المشروبات .

﴿وَأَعْنَابًا﴾ فهي : الأعناب المعروفة ، التي يعني اسمها عن تفسيرها ؛ لمعرفة الناس بها . والكواعب : فهن النساء النواهد ، والناهد : فهي التي قد برز ثديها ، وتبين للناظرين في صدرها ، الذي لم ينكسر ولم يحل ، فتلك تسمى كاعبا وناهدا والأتراب : هو الأمثال المشبهات في القد والجسم والصورة والخلق .

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ والكأس : فهو ضرب من الأقداح ، يشرب فيها الماء ، وغير الماء من العسل واللبن ، تكون الكأس من الفضة والذهب ، ويكون في الآخرة من ذلك ، ومن غيره من الجواهر والياقوت الأحمر ، والدر الأبيض ، والزمرد الأخضر ودهاقا : فمعناه مملوءا مترعا فأعد الله ذلك كله للمؤمنين .

ثم قال : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ واللغو : فهو الباطل والمحال والأذى والطرح والمقال ، وما يغم المؤمن سماعه ، ويكرهون استماعه ﴿وَلَا كِذَابًا﴾ والكذب : فهو الخلف للمواعيد ، والكذب في الأقاويل ، فأخبر أنهم لا يجدون في تلك الدار خلفا لما وعدوا ، ولا كذابا لما أملوا ورجوا ، وأنهم سيجدون ما وعدوا ويعاينون في دار الخلد ما أملوا ، وأن آمالهم ورجاءهم وظنونهم غير كاذبة ، ولا باطلة ، وأنها لهم على أفضل ما ظنوا ، أكمل ما رجوا ، وأوفر ما طلبوا ، لم يكذب الله لهم ظنا ، ولم يخلف لهم أملا ، هذا معنى ﴿كِذَابًا﴾ .

ألا تسمع كيف يقول القائل : ظننت ظنا فكذبني ظني ، يريد أملت أملا فأخلفني أملي .

﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ يقول تبارك وتعالى : إن ذلك منه كله جزاء للمؤمنين على أفعالهم ، وعطاء منه على أعمالهم المرضية له ، المتبعة أمره ﴿عَطَاءٌ﴾ ومعنى عطاء فهو هبة وجزاء ﴿حِسَابًا﴾ يقول : عطاء كثيرا إن حسب كثر حسابه ، وإن عد لم يحط بعدده ، كثيرا جسيما جزيلا عظيما .

ثم قال سبحانه وجل عن كل شأن شأنه : ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ومعنى ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ : هو مالکها وقاهرها وصاحبها ومقدرها ، وكذلك الأرض وما بينهما . ومعنى ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فهو :

ماعلى وجه الأرض من الإنس وغيرهم من الأشياء ، وما فوق ذلك من الجن والإنس والسحاب والنجوم في الهواء ، فهو مالكهما ومدبرهما ، ومالك ما بينهما وسيدهما ومليكهما ﴿الرحمن﴾ فهو : الرحمن صاحب الرحمة والسلطان ، والعظمة والبرهان ، وهو اسم من أسامي العزيز الجبار ﴿لا يملكون منه خطابا﴾ أي لا يتلون عنده مخاطبة ولا بهتاناً ، ولا مكابرة ولا جحدانا ﴿منه﴾ فمعناها : عنده فقامت من مقام عند ، وهذه حروف الصفات يخلف بعضها بعضاً ، ويجزي بعضها عن بعض من ذلك قول الله سبحانه فيما حكى عن فرعون اللعين : ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ ^(١) والجذع لا يصلب فيه ، وإنما يصلب عليه ، أراد لأصلبنكم على جذوع النخل ، فقامت في مقام على ، وكذلك قامت من مقام عند ، في قوله ﴿لا يملكون منه خطابا﴾ فأخبر عز وجل أنهم لا يملكون عنده قبول عذر معذرة ولا ينفعهم جحدان ، ولا يجوز عنده إلا الحق في ذلك اليوم ، وهو : ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا﴾ وقيامهم فهو : وقفهم فهم بين يدي ربهم ، وانتظارهم لأمر خالقهم و﴿صفا﴾ فهو : صفوفاً و﴿الروح﴾ فهو : جبريل صلى الله عليه و﴿الملائكة﴾ القيام صفا في ذلك اليوم فهم : الشهود والكتبه ، والحفظة على الآدميين ما كان من أفعالهم في دنياهم ، وهم الذين قال الله سبحانه : ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ ^(٢) ومن الملائكة الوقوف ملائكة موكلون بإيصال المثابين إلى الثواب الكريم ، وإيصال المعاقبين إلى عذاب الجحيم ، وكذلك سائر الملائكة ، كل منهم واقف ينتظر أمر ربه ، معظماً لما يرى من فعله .

﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾ يقول : لا ينطقون من هيئته ، ولا يتكلمون من إجلاله وتوقيره سبحانه ، وتقديسه ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ منهم والإذن هاهنا : هو الأمر من الله له بالكلام بما يأمرهم من توقيف العباد على أفعالهم ومحاسبتهم على أفعالهم ﴿وقال صوابا﴾ معناها قال : حقاً من توقيف الحفظة

(١) - طه : ٧

(٢) - ق : ١٧ - ١٨

للآدميين ، على ما كان من فعلهم ، وتعريفهم ما تقدم من خطاياهم ، التي أحصوها عليهم في دنياهم ، فوقفوا من ذلك على الصواب ، والصواب هاهنا : فهو الحق في جميع الأسباب ، من قول كان أو عمل .

ثم قال سبحانه : ﴿ذلك اليوم الحق﴾ يريد : أي ذلك يوم حق ، معنى يوم حق : أي أنه يوم آت حق ، كفلق الصبح ، لا خلف في إتيانه ، ولا بطلان لما ذكر منه فإتيانه حق ، وكيونته حق ، وكل ما يفعل فيه فتحق ، لا ظلم فيه ولا حيف .

﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ يقول سبحانه : فمن شاء من الخلق اتخذ — في دار دنياه ، وقبل فنائته وانقضائه إلى ربه — سبيلا ، أي يجده غدا عنده ، من العمل بطاعته والإتباع لمرضاته .

ومعنى ﴿اتخذ إلى ربه مآباً﴾ هو جعل بينه وبينه وصلة لا تنقطع ، وسبيلا يوصله إلى جناته ، ويوجب له ما وعد المطيعين من ثوابه ، حتى يدخر له بطاعته ، وأتباع مرضاته — فوزا يؤرب إليه . ويؤرب : ينقلب فيه وإليه ، ومعنى ﴿مآباً﴾ هو : موثلا ومرجعا يجده عند رجوعه إلى ربه ، وسببا عند الله يصادفه ، عند مآبه إلى دار آخرته ، يسره المنقلب إليه ، وينفعه المآب فيه .

ثم قال سبحانه : ﴿إنا أنذرناكم عذابا قريبا﴾ يريد : دنيا قد أرف حينه ، وقرب وقته ، ومعنى ﴿أنذرناكم﴾ هو : حذرناكم ، وتقدمنا إليكم ، وأعذرنا في قطع الحجة بيننا وبينكم ، قبل مصيركم إلى العذاب ، بتماديكم في المعاصي المهلكات والمآثم الموبقات .

ثم أخبر بوقت ذلك العذاب فقال : ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ فأخبر سبحانه أن ذلك العذاب يكون في هذا اليوم ، الذي ينظر فيه المرء ما قدمت يداه ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾ وهو : يوم الحشر والحساب ، ومواقعة العقاب والعذاب ، ومعنى ﴿ينظر﴾ فهو : يجد ما قدمت يداه ، معنى وجوده لما قدمت يداه : هو وجوده لجزاء فعله ، ومواقعته ومعايسته لصدق ما وعد وأوعد على فعله ، مما اكتسبته يداه في حياته ، وقبل وفاته .

ومعنى قول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ فهو: تحسر منه وتندم ، و فرق و هلع و شدة و جزع ، مما يعاين مما أعد الله له من العذاب الأليم ، و ما يُسْتَحَبُّ إليه من الجحيم ، و ما يصب فوق رأسه من الحميم ؛ جزاء على كفره ، و عذابا على صده عن طاعة ربه في حياته ، فيقول عند معاينته ما يعاين من البلاء : يا ليتني لم أرد حيا و لم أبعث في هذا اليوم بشرا سويا ، و كنت في القبر كما كنت ثاويا ميتا ، و باليا فانيا ، و زميما رفاتا ترابا ، فيتمنى أنه بقي ترابا زميما ، و لم يلق ما لقي من جزاء فعله الرديء ، و عمله السيئ ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾^(١).

فنعود بالله من البلاء ، و نسأله الرحمة و الهدى ، و المعونة على أمور الآخرة و الأولى ، و حسبنا الله و نعم الوكيل ، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي الجليل .

تفسير والمرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله سبحانه: ﴿المرسلات عرفا﴾ فالمرسلات : فهن السحاب المنشآت ﴿عرفا﴾ يقول : متصلات معا يتبع بعضها بعضا ، و لا يفاوت شيء منها شيئا .

﴿فالعاصفات عصفافا﴾ فهن الرياح الهابات الشديديات الهبوب ، المزعزعات لما هببن عليه ، الحاملات ما قوين عليه ﴿عصفافا﴾ فالعصف : هو الشدة منهن ، وإنما قيل : عاصفة لعصفها للأشياء ، و عصفها للأشياء : فهو زعزعتها لها و حملها و رفعها و وضعها لما ترفع من الأشياء و تضع ، و إجاتها لما تحمل مما تمر عليه ، و تقع فيه .

﴿والناشرات نشرافا﴾ فهن السحاب المطرات ، اللواتي ينشرون رحمة الرحيم في كل الجهات ، و حيث ما شاء من البقاع المحتاجات إلى ما ينتشر فيهن و عليهن من

الرحمة ، ويقع فيهن بوقوع الغيث من البركة ، فتتشر رحمة الله حيث شاء ، وتنبئها من أمرت بإنالته من المربوبين ، فتغيث بذلك من شاء الله من المغاين .

﴿فالفارقات فرقا﴾ فهن : الملائكة المقربون ، الذين يفرقون بين الحق و الباطل بما تنزل به ، من التبيين والحجج من عند الواحد المنان ، في الوحي والقرآن .

﴿فالملقىات ذكرا﴾ فهن : الملائكة الملقون ، بما يلقون إلى الأنبياء والمرسلين ، من وحي رب العالمين ، و﴿وذكرا﴾ فمعناه : وحيا وأمرأ وقصصا وخبرا ، وإعذارا وإنذارا ، ألا ترى كيف بين ذلك سبحانه فقال :

﴿عذرا أو ندرا﴾ والعذر : فهو الإعذار في الشيء ، بالتقدمة إلى أهله في العذر من وقوعه ، وأخذ الأهبة قبل نزوله ﴿أو ندرا﴾ فالنذير : هو الرسول المخبر بالأمر قبل وقوعه ، المعلم المنذر به ، فأخبر الله سبحانه أن الملائكة تلقي الذكر والإعذار وتكون بذلك إلى الأمة نذرا ، منذرين لهم من بطش رب العالمين .

ثم قال سبحانه جوابا لقسمه ، الذي أقسم به فيما أقسم به من المرسلات والعاصفات ، والناشرات ، والفارقات ، والملقىات : ﴿إنما توعدون لواقع﴾ يقول عز وجل : إن كل ما يذكركم وتوعدونه ، من ثواب أو عقاب - لواقع حقا ونازل بكم قريبا صدقا ، وإنما أقسم الله بما أقسم به من هذه الأشياء ؛ لعظيم ما فيها من براهيته وجليل صنعه وتدييره ، فنبه الله جل جلاله بالإقسام بها على عظيم الدلائل ، التي فيها الدلالات على جاعلها ، المبينة بأثر الصنع صنع صانعها .

ثم دل على وقت وقوع ما يوعدون فقال : ﴿فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت وإذا الجبال نسفت﴾ أراد : أن ذلك الوعد كائن ، عند كينونة ما ذكر من هذه الأشياء .

ومعنى ﴿طمست﴾ فهو : أذهبت ، وأفانيت ، وقلعت ، وعحقت وأبيدت ففانيت وبحيت فذهبت .

ومعنى ﴿فرجت﴾ فهي : فتحت ، وقطعت ، ومزقت فانفرجت .

ومعنى ﴿نسفت﴾ الجبال : فهو تمزيقها ، وافناؤها ، وإبادتها ، وإبلاؤها ، وقلعها من مواضعها حتى تخلو مواضعها منها وتضمحل ، فيفنى ما كان يُرى من تجسمها وعظيم خلقها .

ثم قال سبحانه وجل عن كل شأن شأنه : ﴿وإذا الرسل أقتت لأي يوم أجلت﴾ يريد بأقتت : أنها قد جعل لها وقت إليه تبلغ ، وإياه تنتظر ، وفيه تبعث وتنشر ، ثم بين فقال : ﴿لأي يوم أجلت﴾ تعظيما منه لذلك اليوم ، وإخبارا بجليل ما فيه من عظيم الأمور ، وشدائد النوازل بأهل الوعيد ، وكريم المآب وعظيم الثواب لأهل الوعد ، وهذه الكلمة كلمة تقولها العرب إذا أخبرت عن يوم تنتظره ، جليل الأمر هائل الخطر ، قالت : يوم كذا وكذا ، تقول : أي يوم كان حرب كذا وكذا ؟ وكذلك : أي يوم يوم الموت ؟ يريد بقوله : أي يوم ! أي : ما أشد ذلك اليوم وأهوله وأفدحه لأهله وأعظمه ، ومعنى ﴿أجلت﴾ فهو : وعدت ، وجعل لحشرها ولقائها ربها - أجلّ تنتظره ، ومُدَّة تقطعها بالانتظار لبلوغ غايتها ، فعند بلوغ غايتها يكون ذلك اليوم ، الذي يكون فيه بعثها وحضورها ، وتَجَزُّر موعدها بنصرها من كربها ، وخائف أمرها ، وثواب من أطاعها ، وصدقها فيما جاءت به عن ربها .

ألا تسمع كيف يقول ، فيما بين من ذلك اليوم ، الذي أجلت [إليه] الرسل حين يقول : ﴿ليوم الفصل﴾ ثم قال : ﴿وما أدراك ما يوم الفصل﴾ والفصل : فهو القطع بين العباد ، فيما كانوا فيه يختلفون ، وإيصال الوعد والوعيد إلى أهلها وانقطاع ما كان الخلق ينتظرون من أمرهما .

وقوله : ﴿وما أدراك﴾ يريد ما أعلمك بأمر ذلك اليوم وهوله ، وعظيم ما يكون فيه من أموره ، لا علم لك منه إلا بما أعلمناك ، ولا تدري شيء إلا بما أدريناك .

ثم قال : ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ يريد : الويل ، والعويل ، والبلاء ، واللعة والشقاء يومئذ - على المكذبين ، ويومئذ : فهو يوم الفصل ، ويوم الفصل : فهو اليوم الذي أجلت إليه الرسل .

ثم قال سبحانه توقيفا للمكذبين على جحدانهم ، ومكابرتهم لما قد ثبت من الحق في قلوبهم : ﴿ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين﴾ يقول : ألم تعلموا أهلك من هلك من الأولين ، ويأتيكم نبأه عن الصادقين ، فإذا صح عندكم عمن صح أنه أهلكهم فلن يقولوا : إن لهم مهلكا غيرنا ، ولا أحدا سوانا ، فكما أخذنا الأولين بذنوبهم ، فكذلك نحن قادرون على أن نأخذ الآخرين منكم ومن غيركم بتكذيبهم وفسقهم ، وجحدانهم للحق الذي جاء من ربهم .

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله فعله في المجرمين ، وفي كل من تمرد برب العالمين فقال : ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ ذكر الوعيد للمكذبين ، والإخبار عما يلقونه من الويل في ذلك اليوم .

والويل : هو البلاء الويل ، والعذاب الطويل ، فقال : ﴿ويل يومئذ للمكذبين ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ والمهين : فهو القليل اليسير ، الذليل الضعيف الحقير ﴿فجعلناه في قرار مكين﴾ والقرار المكين : فهو موضع قرار الماء من الرحم ، وسمي قرارا لقرار ما فيه ، وقراره : فهو ثبوته فيه ، ولزومه له ، و﴿مكين﴾ فهو متمكن ثابت حصين محصن ﴿إلى قدر معلوم﴾ يريد : إلى وقت معلوم ، والمعلوم : فهو المفهوم عند الله ، والمفهوم عند الله فهو : الأجل الذي أجله في المقام في الرحم ، من قليل من الأشهر أو كثير .

﴿فقدرنا فنعم القادرون﴾ يريد بقوله : ﴿فقدرنا﴾ يقول : فقدرنا على جعل النطفة في القرار المكين ، وإنشائها في الرحم ، إلى وقت خروجها المعلوم ﴿فنعم القادرون﴾ معنى ﴿نعم﴾ : تعظيم القدرة ، وإخبار عن جليل النعمة ، وهذه كلمة تقولها العرب إذا مدحت شيئا وأثنت عليه ، قالت : نعم الرجل ، ونعم الفرس ، نعم الشيء ، تريد بذلك : ما أكمله ! وأبين فضله ! وأظهر خيره ! فأخبر الله جل جلاله أنه أفضل بقوله : ﴿نعم القادرون﴾ أي أننا أفضل القادرين ، وأعظمهم قدرة .

ثم ذكر الوعيد للمكذبين فقال : ﴿ويل يومئذ للمكذبين ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا﴾ فقال : ﴿ألم نجعل

الأرض كفاتاً ﴿كفاتاً﴾ توقيفا لهم على أثر صنعه ، وتقريرا لهم على ما يقرون به من فعله ومعنى ﴿كفاتاً﴾ أي : ضامة جامعة لكم ، إخبارا بما فيها من منازلها ، وبيوتها ودورها التي تكفتون فيها وتآوون ، وتغلقونها عليكم ، تضمكم ، وتجمعكم . وتكفتكم : أي تجمعكم أحياء وأمواتا ، وكفتها لهم أمواتا : فهو ضمها لأبدانهم في حفرها ، التي هي قبورهم ، فكانت الأرض لهم كافة في حياتهم وبعد وفاتهم وكفتها لهم : فهو ما ذكرنا من جمعها ، وضمها إليهم .

والرواسي الشاخات : فهي الجبال الطامحات المرتفعات .

ومعنى ﴿رواسي﴾ فهي : الثابتات ، أي : الراسخات عروقتها ، الثابتة أصولها .

﴿وأسقيناكم ماء فراتا﴾ فمعناها : أنزلنا عليكم ، وأوجدناكم ماء فراتا والفرات : فهو العذب الطيب الذي لاملوحة فيه ، فكلما ذكر الله عز وجل من فعله بهم ، وما جعل لهم بما امتن به عليهم ، من هذه الأشياء المذكورات ، والأمور المبينات فإنما أراد بذلك سبحانه توقيفهم على ما يعرفون أنه من فعله ، ويقرون به أنه من صنعه ، فيقول تبارك وتعالى : كيف تنكرون بعض ما ذكرناه لكم من قدرتنا على بعثكم ونشركم !! وقد ترون فعلنا فيكم ، وأثر قدرتنا فيما أظهرناه ، وجعلناه لكم ! ليس هذا منكم إلا كفرا وإنكارا ، أي مضادة للحق واستكبارا .

ثم قال : ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ببعض أمرنا ، وبما قد رأوا أعظم منه في قدرتنا

ثم قال سبحانه : ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ فهذا أمرٌ أمر به المكذبين الفاسقين الكافرين ، الجاحدين ، في يوم الدين بالإنطلاق ، إلى ما كانوا به يكذبون من جهنم وأغلاها ، وعذابها وسعيرها .

﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ فأخبرهم أنه لا يرون فيها ظلا إلا مالا يغني من اللهب ، ولا يستر ، من العذاب فقال سبحانه : ﴿ظل ذي ثلاث شعب﴾ فمثل لهم ذلك بكل شيء فيه ثلاث شعب ، فالشمس تدخل من كل شعبة ، ولا يصفو له ظل ، ولا يوجد فيه راحة ولا كين ، فضرب الله لهم هذا الظل مثلا بعذاب جهنم ، يريد أنكم لا تجلدون في جهنم راحة من

العذاب ، كما لا يجد طالب الظل في الموضع الذي فيه ثلاث شعب ، والشعب : فهي الفرج ، والتلم ، والمواضع المكشوفة ، فهو لا يجد فيه فرجا من الشمس ، ولا يقدر فيها على ما يحب من الظل ؛ لأن الشمس من حيث ما دارت دخلت عليه من فرجه ، ووصلت إليه من ثلمه ، كذلك أصحاب جهنم - نعوذ بالله منها ومن عذابها ومن عمل يقرب إليها - حيث ما دار منها ، أو طمع بفرج فيه من جوانبها وجد فيه العذاب له مضاعفا ، ولم يجد في ناحية منه من عذابها فرجا .

﴿ لا ظليل ﴾ يقول : لا مانع لكم من حرها ، ﴿ ولا يغني ﴾ لكم ﴿ من اللهب ﴾ يقول : لا يمنع من وصول لهبها إليكم ، ولا يستر عنكم شيئا من العذاب المكتوب عليكم .

ثم أخذ سبحانه في وصف جهنم وشررها ، وعظيم ما جعل الله عليه من فطرتها فقال : ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر ﴾ والقصر : فهو الدار المبنية الكبيرة المرتفعة ، والجمالات الصفر : فهي الجبال الصغار ، المنفردة من الجبال التي تكون في قيعان الأرض ، تسميها العرب : الظراب ، واحدها : ظرب ، وأهل اليمن يسمونها جمالات ، فشبه الله سبحانه شرر جهنم التي تطير منها عند استعارها بأهلها بالقصور ، والجبال الملمات .

ثم ذكر الوعيد بالمكذبين بوعد ووعيده فقال : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ . ثم أخبر بما يكون منهم في يوم الدين ، من ترك المكابرة لليقين ، والمحادثة بآيات رب العالمين فقال : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ يقول : لا ينطقون منطقاً ينفعهم ، ولا يتكلمون بكلام يقبل منهم ، ومعنى ﴿ يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ أي : لا يؤذن لهم في التوبة فيتوبون ، والرجعة والأوبة إلى الحق فيؤوبون ويرجعون .

ثم أخبر سبحانه أن ذلك اليوم لا يجوز فيه توبة ، ولا يقبل من ظالم معذرة ؛ لأنه يوم جزاء على ما تقدم من الأفعال ، وليس بأوان عبادة ولا عمل فيعملون .

ثم كرر الوعيد للمكذبين بقول رب العالمين فقال : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

ثم أخبرهم بوقوع اليوم الذي كانوا به يكذبون فقال: ﴿هذا يوم الفصل﴾ ويوم الفصل: فهو يوم القطع بينهم بالحق، وهو يوم القيامة والحشر ﴿جمعناكم والأولين﴾ يقول: جمعناكم في هذا اليوم والأولين، والأولون: فهم الذي كانوا قبل عصر النبي صلى الله عليه وعلى آله من الأمم، فسمى الله تبارك وتعالى من كان قبل محمد صلى الله عليه وآله أولين، وسمى الله - من كان في عصر محمد صلى الله عليه وعلى آله، ثم إلى آخر الدين - آخرين.

ثم قال سبحانه: ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ يقول: فإن كان لكم علي سلطان أو مقبرة، أو كنتم تستطيعون تغيير شيء من فعلي بكم، أو دفع عظيم من عظيم صنعي فيكم، فادفعوه لتضادوني بذلك، وإن كنتم تطيقون إدخال ضرر علي فأدخلوه، بمكيدة تكيدونها، أو بمجاهرة تجاهرون بها، وإنما أراد الله سبحانه بهذا القول توقيف أعدائه على ضعفهم، وشدة تكبرهم، وقلة منفعة شركائهم لهم وأوليائهم الذين كانوا يطيعون من دون الله لهم، فقرره على الاستسلام، وأوقفهم على صدق ما جاء به محمد عليه السلام.

ثم قال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ فأخبر أن الويل والعذاب الطويل عليهم وعلى نظرائهم من المكذبين من الأولين والآخرين.

ثم ذكر سبحانه وجل عن كل شأن شأنه أمر المؤمنين المتقين فقال: ﴿إن المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون﴾ والظلال: فهو الظلال الممدود، الذي قال الله سبحانه: ﴿وظل ممدود وماء مسكوب﴾^(١) وهي ظلال الأشجار والقصور وما ظللهم الله به من غير ذلك من الأمور، والعيون: فهي المياه الجارية الكثيرة المتفجرة والفواكه: فهي ما يعرف من الفواكه الطيبات، من ثمار الأشجار المثمرات وصنوف الأثمار المتصنفات المتشابهات، من الطيبات وغير المتشابهات التي تشتهيها أنفسهم، وتدعوهم إليها شهواتهم، فهي موجودة غير مقطوعة مبذولة غير ممنوعة

عطاء من الله غير مجذوذ ، على صالح أفعالهم وما قدموا في حياتهم من مرضيات أعمالهم ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه :

﴿كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون﴾ يقول سبحانه تنعموا بالماكل الطيبة المشارب اللذيذة ﴿هنيئا﴾ أي جزاء بفعلكم ، فمعنى هنيئا : فهو مريا طيبا ، لا آفة فيه ولا داء ، ولا تخافون منه شيئا من الأذى ، كما كنتم تخافون في ماكل الدنيا فهذا معنى قول الله : ﴿هنيئا﴾ .

ثم قال : ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ يخبر أن هذا فعله وحكمه في المحسنين والمحسنون : فمعناها المحسنون إلى أنفسهم بما عملوا من الطاعات ، التي استوجبوا بها الثواب والإحسان ، من الواحد ذي الجلال والسلطان ، فكانوا بذلك محسنين إلى أنفسهم ، مطيعين لربهم ، فاستوجبوا بطاعة الرحمن ما صاروا إليه من الفوز والنعيم والخير الكريم ، والثواب العام المقيم .

ثم كرر ذم المكذبين احتجاجا عليهم ، وتوقيفا على جهلهم وتعتتهم ، وقطعا بذلك لحجتهم فقال : ﴿ويل يومئذ للمكذبين كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون﴾ يقول سبحانه : تمتعوا في دنياكم بأكلكم وتافه لذاتكم ، فإن ذلك قليل منقطع لا يتصل بنعيم الآخرة ، ولا تذوقون بعد خروجكم من الدنيا نعمة فاخرة ؛ لأنكم مجرمون ، والجرم لا آخرة له ، كما تكون الآخرة مع الدنيا للمؤمنين ، وكما تتصل كرامة الدنيا بكرامة الآخرة للمتقين .

ثم كرر ذم المكذبين فقال : ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ، ثم ذكر ما كانوا فيه في الدنيا من كفرهم ، وترك قبول ما يؤمرون به من طاعة ربهم ، فقال : ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ يريد باركعوا : اخشعوا لله واخضعوا ، ولا تتجبروا ، ولا تتكبروا ، وأدوا فرضه عليكم . فأراد عز وجل بالركوع هاهنا - والله أعلم - التذلل لله والخضوع ، والإقرار بأمره والخشوع ، والقبول لما به يأمرهم ، والإنهاء عما عنه ينهاهم ، وكذلك قال في أصحاب موسى عليه السلام : ﴿ادخلوا الباب سجدا﴾ يقول سبحانه : خشعا خضعا ذاكرين الله مقدسين ، شاكرين على نعمه

ذاكرين له بصنائه ، عارفين بقدرته وجلاله ، مقرين بأن النصر الذي رأيتموه من قبله ، وإنكم لم تدخلوا إن دخلتم إلا بتقويته ، إن أطعتم فقواكم ، فلو كانوا فعلوا ما أمروا به ، وقالوا ما دُلُّوا عليه من قول الحطة ؛ لكانوا قد نصروا نصرا عزيزا وحطت عنهم لذلك الذنوب المتقدمة ، ووجبت لهم الكرامة المتأخرة ، ولكن خالفوا وأبوا وعتوا ، فذاقوا وبال أمرهم إذ عصوا ، فذلك معنى ما ذكر الله سبحانه في آخر والمرسلات من الركوع .

وهو عندي على معنى ما أمر الله به قوم موسى عليه السلام من السجود ، أراد بهما كليهما - والله أعلم وأحكم - التذلل لله ، والخشوع له ، والمعرفة به والخضوع .

ثم كرر ذم المكذبين تنبيها في الدنيا لهم واحتجاجا بذلك عليهم فقال : ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ .

ثم قال : ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ أي بأي قرآن أو أمر أو نهى بعد هذا القرآن المبين الساطع نوره الظاهر برهانه يؤمنون ، ومعنى ﴿يؤمنون﴾ فهو يصدقون ويقررون ، فأخبرهم سبحانه بما قال من ذلك أنه لا حديث يعدل هذا الحديث والحديث : فهو القرآن ، والنور وما جاء به من فرائض الدين في كل الأمور .

تفسير ﴿هل أتى على الإنسان﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تبارك وتعالى : ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ فمعنى ﴿هل أتى﴾ أي قد أتى ، ومعنى ﴿حين﴾ فهو الكثير الطويل من الدهر ﴿لم يكن شيئا مذكورا﴾ يقول : لم يكن شيئا يذكر في هذا الدهر الذي غير ، حتى خلقناه من بعد طول الدهور ، وكونه ، والمعنى بذلك فهو جميع الناس ، الذين خلقوا من بعد أن لم يكونوا ، فأراد الله تبارك وتعالى بذكر ذلك - الأخبار لهم بأنه قد كون أولهم من بعد العدم إذ لا شيء من الأشياء ، ثم صور آخرهم فيما قدر من الماء المهيئ ، فكل كان ووجد وخلق وقدر بعد العدم الطويل .

ثم قال : ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة﴾ ومعنى ﴿إنسا﴾ هو : نحن ، ومعنى ﴿خلقنا﴾ هو : أوجدنا ، وصورنا ، وجعلنا ، وقدرنا الإنسان من نطفة ، والنطفة : فهو المني ، ومني : الماء الذي يخرج من الرجل عند جماعه فيقع في الرحم ، ويخلقه الله ما يشاء من الذكر والأنثى .

﴿أمشاج نبتليه﴾ والأمشاج : فهي الأوصال الموصلة ، والأعضاء المفصلة والقطع المتلازمة المضموم بعضها إلى بعض ، و المعلق كل شيء منها في شيء ؛ تدبيرا من الرحمن في تأليف ما ألف من الإنسان ، قوله : ﴿نبتليه﴾ أي : نختبره ، ونمتحنه بما يرى من أثر تأليفنا وتقديرنا لخلقه ، لننظر كيف يكون شكره على ذلك ، لمن فطره وجعله كذلك .

﴿فجعلناه سميعا بصيرا﴾ يقول : خلقناه ذا سمع يسمع به ، وذا بصر يبصر به ليكون أعظم في النعمة ، وأكثر في الإبتلاء وأثبت للحجة .

﴿إنا هديناه السبيل﴾ معنى هديناه : أي إنا عرفناه وبصرناه وبيننا له ، والسبيل : فهو سبيل الله الذي هدى إليه عباده ، وسبيل الله فهو دين الله ومراده من خلقه الذي أراده أن يعبدوه به .

﴿إما شاكرا وإما كفورا﴾ يقول : فلا بد أن يكون شاكرا لذلك من جعلنا ، أو كافرا لما أوليناه في ذلك من نعمنا ، والشاكر : فهو العارف بفضل ما أولى ، الذاكر له بلسانه وقلبه ، والكفور : فهو المعرض عن حمد من أولاه الجميل ، الذي ليس بشاكر لذلك ولا ذاكر .

ثم أخبر سبحانه بما أعد لمن كفر نعمه فقال : ﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا﴾ والسلاسل : فهي سلاسل من حديد يقرنون فيها ، منها السلسلة التي قال الله تبارك وتعالى : ﴿ثم﴾ [ثم] في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوها^(١) والأغلال : فهي الأغلال المفهومة من الحديد في الدنيا ، التي يغل بها المغلولون وهي : عمد حديد تربط في الأيدي إلى الرقاب ، طول كل عمود شرا أو أقل : كذلك يغل الله أعداءه في النار ؛ ليكون ذلك أنكى في العذاب ، وأضيق للصدور وأشد للبلاء . والسعير : فهو لهب النار ، واستعارها : فهو توقدها وتلهبها .

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الأبرار الشاكرين فقال : ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾ والأبرار فهم : الذين برأوا أنفسهم بالصيانة لها عن النار ، أو إخراجها من العقاب وإدخالها في النعيم والثواب ، فصاروا بذلك من فعلهم اتقياء وسموا به بررة أولياء ، والكأس التي يشربون منها : فهي المشارب ، والآنية التي يشربون بها ما يشرب من أنواع الأشربة والماء .

ومعنى ﴿كان مزاجها كافورا﴾ فهو إخبار من الله أن طعم ما يشرب من تلك المياه يوجد كالمخلوط بالكافور ، وهو أطيب ما يكون طعما ورائحة .

ثم قال : ﴿عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا﴾ والعين من الماء : السائح على وجه الأرض ، الكثير الجاري . ومعنى ﴿يشرب بها﴾ أي : يشرب

منها ﴿يفجرونها تفجيرا﴾ أي يصرفونها حيث ما شأوا ، ويسيلونها أين ما أحبوا
تسيلا .

﴿يوفون بالنذر﴾ فمعنى يوفون : يتمون ، ويوفون ويؤدون ما عليهم من ذلك
والنذر : فمعناه الواجب من كل شيء ، وكل ما وجب على الإنسان من شيء فهو
نذر عليه ، من ذلك أن يوجب على نفسه لله شيئا وينذره ، ومعنى ينذره : أي
يوجبه على نفسه من صيام أو صلاة ، أو عتق أو صدقة ، أو في شيء من أفعال البر
، ومن النذر أداء واجب الزكاة ، ومن النذر الصيام والصلاة ، وغيرهما من الفرائض
الواجبات ، وكل ما أوجب الله على العباد من فرائضه ، أو أوجبه على أنفسهم له
فهو نذر عليهم ؛ لأن العرب تسمي كل واجب نذرا ، وتدعوه بذلك ، من ذلك
ما تقول العرب لمن تثق به وتعده في تقدير جراحها : نذّر جراح فلان ، تريد أوجب
فيه - من الدية والغرم والواجب - ما يجب في مثلها ، وتقول : نذّر هذا الجرح كذا
وكذا ، تريد الواجب فيه . فمدح الله سبحانه كل موف بنذره ، ومؤديا للواجب
عليه في كل أمره .

و﴿يخافون﴾ فهو يتقون ويحاذرون ﴿يوما كان شره﴾ فهو يوم القيامة ، وشره :
فهو بلاؤه وعذابه وحسراته وشقاؤه ﴿مستطيرا﴾ أي ظاهرا عاليا مكشوفاً مبينا .

﴿ويطعمون الطعام﴾ فإطعامهم : إعطاؤه والجود به والبذل ، والطعام : فهو
المعيشة من كل ما جعله الله غذاء للبشر وعيشا وقواما ﴿على حبه﴾ يقول : على
الحاجة إليه والرغبة فيه في ساعة العسرة والضيق والشدة ﴿مسكينا﴾ فهو الفقير
الاحتاج إلى الطعام ﴿ويتيما﴾ فهو الطفل الذي لا والد له ، الذي قد ثكل والديه أو
أحدهما ، وعدم حسن نظرهما وقيامهما وعنايتهما وكفائتهما ﴿وأسيراً﴾ والأسير :
كل مأسور قد أوثق أسره ، واشتد بالأسر عليه حاله وأمره ، ممن لا يقدر على ماله
وأهله ، من الأسارى الذي أسرهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من الكفرة
الفاجرين ، وكذلك من أسرته الأئمة الهادون من متأول فاجر ، أو جاحد كافر
فواجب على من أسر أسيرا من الفاسقين والكافرين - إن لم يكن له مال ، ولا سبيل
إلى سعة حال بوجه من الوجوه - أن يتفق عليه من بيت مال المسلمين بالمعروف وإن

كان له مال ، أو كان في قرب أهله ، ومن يبلغه منافعه وجب عليه أن يأمره بالاستتفاق من ماله ، ولم ينبغ لنا أن تنفق عليه أموال المسلمين إذا كان بالإنفاق على نفسه من الواجدين ، وفقراء المسلمين أولى بتلك الفضلة ، وتلك التوسعة فهذا يجب النظر فيه وتمييزه على الإمام ، ومن أطعم غير هؤلاء الثلاثة من سائر أهل الإسلام فهو مأجور أيضا على ذلك محمود .

وقد ذكر أن هؤلاء الذين فعلوا هذا الفعل فأنى الله سبحانه عليهم هم الخمسة محمد صلى الله عليه وآله ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، وحمّة الله عليهم فعلوا ذلك في وقت عسرة وضيق شديد ، وحاجة إلى المعاش ، فأنى الله سبحانه كذلك عليهم ^(١) وذكر ما سيأتي ذكره ، مما أعد الله لهم من الثواب ،

(١) - تخريج الحديث في سبب نزول الآيات وأنها في أهل الكساء الخمسة : أخرجه محمد بن سليمان الكوفي في المناقب ٥٨/١ برقم ٢٣ والحافظ الحسكاني في شواهد التنزيل ٣٠٩/٢ رقم ١٠٦١ ط ١ ، والحافظ فترات الكوفي في تفسيره ص ١٩٩ ط ١ .

كما أخرجه محمد بن سليمان في المناقب ١٧٧/١ رقم ٩٧ عن زيد بن أرقم . وأخرجه أيضا محمد بن سليمان الكوفي في المناقب ١٧٧/١ والحسكاني بأسانيد كثيرة ٢٩٩/٢ - ٣١٠ ط ١ والثعلبي في تفسير (سورة هل أتى) بسندين ، والخوارزمي عنه في مناقب أمير المؤمنين فصل ١٧ ص ١٨٨ ط الغري ، وابن البطريق في الحديث (٥٧٠) فصل ٣٦ من كتاب العمدة ص ٨٦ ، وفي كتاب خصائص الوحي المبين ص ١٠٠ ط ١ عن الثعلبي ، كما رواه الصدوق في أماليه حديث (١١) مجلس (٤٤) من أماليه ص ٢١٢ عن ابن عباس .

وأخرجه محمد بن سليمان الكوفي في المناقب ١٨٤/١ رقم (١٠٤) بأسانيد عن ابن عباس وبجاهد . والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدا تنتهي أسانيدها إلى أمير المؤمنين وابن عباس وزيد بن أرقم وآبي رافع والأصبغ بن نباته والباقر والصادق وبجاهد وطاوس .

وهو في تفسير الحافظ الحسين بن الحكم الحيري رقم ٦٩ ص ٧٦ عن ابن عباس قال محققه السيد محمد رضا الحسيني : وللحديث شواهد كثيرة منها :

١- عن الأصبغ بن نباته في حديث طويل أخرجه الكنجي في كفاية الطالب ص ٣٤٥ ، وقال : قلت هكذا رواه الحافظ ابو عبدالله الحميدي في فوائده ، وما رويناه إلا من هذا الوجه ، ورواه الحاكم ابو عبدالله في مناقب فاطمة عليها السلام ، ورواه ابن جرير الطبري أطول من هذا في سبب نزول (هل أتى) .

٢- وعن طاوس ، روي ليث عنه في مناقب ابن المغازلي ص ٢٧٢ حديث ٣٢٠ .

٣- وعن ابن عباس رواية أبي صالح في المنت الحديث ٦٩ ، والقسم بن يحيى في تذكرة الخواص ص ٣٢٢ عن

البيهقي والثعلبي ٤- ورواية عطاء عن ابن عباس في استنباب الواحد ص ٣٣١ ، وذخائر العقبى ص ١٠٢ وانظر سمط النجوم ٢/ ٤٧٤ .

وكان في قولهم في ذلك لن أطعموه فشكرهم الله ما ذكر الله من قولهم: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ معنى ﴿نطعمكم لوجه الله﴾ هو نطعمكم الله تقربا إليه ﴿لا نريد منكم جزاء﴾ أي لا نريد منكم عطاء علي ذلك ﴿ولا شكورا﴾ أي: لا حمدا ولا ثناء ولا شكورا، إنما فعلنا ذلك لأنفسنا ولم نفعله لكم .

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ معنى ﴿إِنَّا﴾ أي: نحن ﴿نَخَافُ﴾ أي: نتقي ﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ والعبوس: فهو الشديد المعبس لوجوه الناس لشدة والقمطير: فهو المتضاعف الشدة، الصعب الأمر الذي ليس بعد شدته شدة المتراكبة شدته شيئا فوق شيء .

فأخبر الله سبحانه أنه قد وقاهم شر ما يخافون من ذلك اليوم فقال: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ ومعنى ﴿فَوَقَاهُمُ﴾ فهو صرف عنهم هوله، وكفاهم شره والشر: فهو بلاؤه وعذابه، و﴿ذلك اليوم﴾ فهو يوم الفصل والحشر ﴿ولقاهم﴾ أي أعطاهم وأنالهم ﴿نظرة﴾ ومعنى إعطائهم إياهم لها فهو إلقاؤها عليهم، وجعلها في وجوههم، والنظرة فهي: البهجة وحسن الحال في الرؤية، وظهور النعمة ﴿وسرورا﴾ فهو بالبشارة التي يلقيها إليهم، والسرور الذي ينعم به سبحانه عليهم حتى يتمكن السرور بذلك في صدورهم، كما يمكن النظرة في وجوههم، بما يأمنون من عقابه، وما يرجون من ثوابه .

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ يقول سبحانه: أعطاهم ثوابا على صبرهم على عن ربهم وما نالهم فيه من البلاء من أعدائه ﴿جنة وحريرا﴾ والجنة في مساكن الآخرة التي أعدّها الله للمتقين، فيها لذة أنفسهم، وشهوات قلوبهم، وحريرا: فهو الحرير الملبوس المعروف، غير أن الحرير الآخرة فضلا .

٥- ورواية مجاهد عن ابن عباس في التبايع (ب ٢ ص ١٠٨) عن الحموي، وفي العمدة (ف ٣٦ ص ١٨١

١٨٢) عن الثعلبي في كتابه البلغة، وفي تذكرة الخواص ص ٣٢٢-٣٢٣ وفي أسد الغابة ٥/ ٥٣٠-٥٣١ .

٦- ومرسلا عن ابن عباس في التبايع (ب ٥٦ ص ٢٥١) وسعد السعود ص ١٤١-١٤٢ عن الكشاف والدر

المنثور ٦/ ٢٩٩ عن ابن مردويه، وانظر مناقب الخوارزمي في فصل ١٧ ص ١٨٨ .

قلت: والحديث مشهور انظر تاريخ ابن عساكر وموسوعة أطراف الحديث النبوي وغيرها .

﴿ممكنين فيها على الأرائك﴾ والإتكاء فهو: ضرب من الإضطجاع ، وهو ما كان من الإتكاء على جانب ، والإتكاء فهو : الميلان يمينا ويسارا ، ومعنى ﴿فيها﴾ فهو : في الجنة التي ذكر الله على الأرائك . والأرائك : فهي الأرائك المعروفة التي تضرب في صدور البيوت ، يرقد فيها ويتكأ عليها ، ويرعى جوانبها على ما فيها من أهلها ، وتداول جوانبها وأغشيتها ، وهي تكون كلها من الحرير .

ومعنى ﴿على الأرائك﴾ فهو في الأرائك غير أنها حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض ، وهي الثمانية والأربعون حرفا ، قال الله سبحانه فيما حكى عن فرعون اللعين : ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ ^(١) فأراد على جذوع النخل ، فأقام في مقام على ، وكذلك قال هاهنا : ﴿على الأرائك﴾ فأقام على مقام في قال الشاعر :

شربن بماء البحر ثم ترفعت لدى لجج خضر لهن نعيم

فقال : ترفعت لدى لجج ، يريد على لجج ، فأقام لدى مقام على ؛ لأنها من حروف الصفات ، وكذلك تقول العرب : رضي الله عليك ، يريد رضي الله عنك وأكثر من يستعمل ذلك فأهل اليمن ، وقد قال غيرنا : إن الأرائك هي الأسرة وليس بمعروف في اللغة والله الحمد .

ثم قال سبحانه : ﴿لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا﴾ يعني سبحانه في الجنة ومعنى ﴿لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا﴾ أي لا يجدون فيها وهج شمس ، ولا حرها . والزمهرير : فهو البرد الشديد الذي يتفرض منه الإنسان ، وتضطرب منه أعضاؤه لشدة ، وآله ومدخلته لجميع لمة بدنه ، فأخير تبارك وتعالى أنهم لا يجدون في الجنة حرا مؤذيا ، ولا بردا مؤلما ، وأن هواها ألد هواء ، وحال أهلها أحسن حال دائم نعمته ، سرمد سروره .

ثم قال عز وجل : ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ فدنو الظلال عليهم : فهو غشيانها لهم ، وإظلالها عليهم وقربها منهم ، ولا أحسب — والله أعلم — أن الله عنى بهذا الظلال في هذا الموضع إلا ظلال الأشجار ، الدانية الثمار المتهدلة ﴿وذللّت قطوفها﴾

تذليلاً والقطوف : فهي الثمار التي تقطف ، ومعنى تقطف : أي تقطع للأكل وتمخذ والتذليل : فهو الإرخاء والإدناء حتى تدنو وتدلى وتقرب من أخذها ، وتمكن لآكلها ، فذلك معنى تذللها ، ومعنى **﴿تذليلاً﴾** أي أدنيت إدناء وقربت تقريبا .

﴿ويطاف عليهم بأنية من فضة وأكواب﴾ والطوفان بها : هو الدوران بها عليهم والعرض لها ، والآنية : فهي آنية المشارب والمطاعم ، يطاف عليهم بما فيها من الأطعمة والأشربة ، يعرض عليهم أكلها وشربها في كل ساعة وأوان ، كرامة لهم من الله الواحد المنان ، وهي الصحاف والأخونة ^(١) والجفان ، وغير ذلك مما يكون فيه الطعام . والأكواب : فهي الكيزان ، والأقداح ذوات الحسن والهيئة والأرجل من فضة ، و الفضة فهي : هذه الفضة المعروفة البيضاء المخلصة .

﴿كانت قواريرا قواريرا﴾ يريد - والله أعلم - التمثيل لها في ذكره القوارير بصفاء القوارير التي يرى جميع ما فيها ، فذكر أن هذه الآنية **﴿من فضة﴾** صافية منيرة رقيقة ومضيئة ، يرى ما فيها كما يرى ما في القوارير من ورائها . **﴿قدروها تقديرا﴾** يريد سبحانه : أنهم يقدرون أوقات الطوفان بها على الأكلين والشاربين تقديرا حسنا ، فيأتونهم بها على أوقات حاجتهم إليها ، ويكون ذلك من هؤلاء المقدرين من الخدم والطوافين بها عليهم تقديرا حسنا ومعرفة بقدر الأوقات التي يحتاج أهل الجنة إلى تقرب هذه الآنية التي فيها المأكول والمشارب ، فهذا أحسن ما علمناه من التأويل في **﴿قدروها تقديرا﴾** .

﴿ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا﴾ والكأس التي يسقونها : هي الشراب الذي في الكأس ، غير أن العرب تدعو ما كان في الكأس كأسا ، تقول : اسقني كأسا وقدحا واحدا ، تريد اسقني ملاء ماء فأراد الله عز وجل أنهم يسقون في الكأس ما يكون مزاجه زنجبيلا ، ومعنى ذلك : أنه توجد فيه رائحة الزنجبيل وطعمه ، فهذا معنى مزاجها .

(١) - الخُون : مايؤكل عليه جمعه أَخُونَة ، وخون ، وأخاوين . المعجم الوسيط

﴿عينا فيها تسمى سلسيلا﴾ العين فيها فهي : الماء السائل الكثير الجاري النابع من الأرض ﴿فيها﴾ يعني الجنة ﴿تسمى﴾ أي تدعى ﴿سلسيلا﴾ وهو اسم لتلك العين ، ومعناه : العذب الطيب السلس الخروج ، السلس المدخل ، المريء الغذاء والزنجبيل : فهو عود طيب المطعم ، يتداوى به في كثير من الأشياء ، ويكسب أكله المرى ، ويخفف عنه ثقل الغذاء .

﴿ويطوف عليهم﴾ أي تدور الخدم عليهم ﴿ولدان مخلصون﴾ والولدان فهم الوصفاء ﴿مخلصون﴾ فهم المعمرون الذين لا يموتون ولا يفقدون من جعلوا له ؛ لأن أهل الآخرة لا يموتون بعد مصيرهم إليها ، فمدحهم الله عز وجل بالخلود ، وهو أفضل ما أعطي العاملون .

﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا﴾ يقول : إذا أبصرتهم شبهتهم باللؤلؤ المنشور في صفاء ألوانهم ، وحسن أبشارهم ، ومعنى منشور : فهو المتفرق والمتبدد ، وإنما عنى الله سبحانه من اللؤلؤ كباره ودره وحسانه .

﴿وإذا رأيتم ثم رأيتم نعيما﴾ يقول : إذا عاينت ما ثم وأبصرته رأيتم النعيم العظيم ، والنعيم : فهو كثرة الخير من الأطعمة ، والأشربات ، والآلات والأبيات ومعنى ﴿ثم﴾ يريد : هناك ﴿وملكا كبيرا﴾ والملك : فهو ما أعطاهم الله ثم وجعل لهم في تلك الدار ، من آنيات الذهب والفضة ، والثياب الكثيرة من كل لون والخدم وقصور الدر والياقوت والذهب والفضة ، وكل ما تشتهي النفس وتلذه الأعين ، من منكح ، أو مطعم ، أو مشرب ، أو لباس ، أو ركوب ، أو غير ذلك من الثمار والأشجار والعيون والأنهار ، ثم مع ذلك أن كل ما هم فيه دائم أبد الأبد لا يدخله تغيير ولا فناء ، فهذا الملك غير الملك في الدنيا ، ومعنى ﴿كبيراً﴾ فهو : عظيم كثير ممدود غزير .

﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق﴾ والسندس والإستبرق : فهو من الحرير والديباج ، غير أن السندس أخضر والإستبرق أحمر - والله أعلم وأحكم - .

﴿وَحَلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ يعني هؤلاء الولدان ، الذين هم خدم أهل الجنة . فذكر لباسهم وحليتهم . والفضة : فهي الفضة المعروفة البيضاء النقية

ثم رجع إلى صفة سادتهم من أهل الجنان فقال : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ إن هذا كان لكم جزاء ﴿يريد مكافأة لكم على عملكم ، وعطاء على سعيكم﴾ وكان سعيكم مشكورا ﴿فالسعي : هو العمل ، والمشكور : هو المقبول ، فأراد الله سبحانه بقوله : ﴿سعيكم مشكورا﴾ أي : عملكم عندنا مقبولا .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ معنى ﴿إِنَّا﴾ يريد أي : نحن . إخبار عن فعله ، ومعناه دلالة عليه سبحانه ﴿نزلنا﴾ معناها أنزلنا ، وأوردنا ﴿عليك القرآن تَنْزِيلًا﴾ أي شيئا شيئا حقا حقا .

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يريد : فاصبر على ما حكم به ربك ، من معاشرتهم ومنافستهم ، والإعذار والإنذار إليهم ﴿وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ يريد : لا تطع من كان آثما كافرا بربه ، والآثم : فهو كل من يفعل ما يآثم فيه ، والآثم : فهو العنود عن الحق ، والكفور : فهو الكافر بربه الراكب لكبائر معاصي خالقه .

والطاعة التي نهى الله رسوله عنها في هذا الموضع فهو : الإتياء والمخافة لوعيدهم فقال سبحانه : لا تخف شيئا من وعيدهم وإبراقهم وإرعادهم عليك ، فتقف بذلك عن شيء مما يكرهون ، من إقامة حدود دينك والإعلان بها .

[سبب نزول الآية]

وقد ذكر أن معنى هذه الآية : نزلت في أبي جهل بن هشام لعنه الله ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله كان يغدو كل يوم فيصلي عند الكعبة فقال أبو جهل : والله لئن لم يدع محمد هذا الذي هو عليه من الصلوات بين أيدينا لأرضخن رأسه بصخرة إذا سجد ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله فأنزل الله عليه ما يثبت به فقال : ﴿لَا تَطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي : لا تهب وعيدهم فترك ما فيه غمهم فيكون ذلك شبه الطاعة ، فلم يبال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله بوعيده وغدا لصلاته كما كان يفعل ، فأخذ أبو جهل صخرًا كبيرا ، ثم أتى به من وراء

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يمشي ، حتى إذا قاربه رمى بالحجر من يده في الأرض ، ورجع هارباً مغلوعاً^(١) فقيل له في ذلك ؟ فقال : إني لما دنوت منه حمَل عليَّ حَمَلٌ لم أر أكبر منه من الجمال ، ولا أعظم رقبة ، ولا أكبر أنياباً فاتحاً فاه يريد أن يأكلني فرميت بالحجر وهربت منه ، وتالله لو وقفت لأزدردني .

ثم أمره سبحانه بالمضي على ما كان عليه ، من ذكر ربه في صلاته على رؤوسهم صاغرين داخرين فقال : ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾ والذكر لاسم ربه : فهو ذكره ، وهو القرآن ﴿بكرة وأصيلاً﴾ فالبكرة : أول الغداة ، وهي صلاة الفجر ، وأصيلاً : فهو العشي ، وهي صلاة الظهر والعصر .

﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً﴾ فهو صلاة المغرب والعتمة ، فأمره سبحانه بالسجود في هذه الأوقات ، وهي أوقات الصلاة ، وأمره بالتسبيح ليلاً طويلاً ، والطويل : هاهنا الذي أمره به فهو من حين يدخل في الصلاة حتى يفرغ منها .

فهذا فرض التسبيح الذي ذكر الله سبحانه ، وقد يدخل في ذلك كل ما كان من التسبيح في غير الصلاة ، والتقرب بذلك إلى الله ؛ فكان أمره له بالتسبيح في الصلاة فرضاً ، وما كان في غير الصلاة والتقرب بذلك إلى الله - فكان أمره له بالتسبيح في الصلاة فرضاً ، وما كان في غير الصلاة فهو نافلة ، ووسيلة إلى الله ، وخير وفضيلة .

ثم قال : ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة﴾ وهؤلاء : فهم الذي كانوا على عصر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من أهل الشرك والكفر والمضارة له ، يحبون ويؤثرون ويختارون العاجلة ، والعاجلة فهي : الدنيا الأولى ﴿ويذرُونَ وراءَهُمْ﴾ سبحانه : يتركون ما وراءهم ويرفضون ، ومعنى يقول ﴿وراءَهُمْ﴾ فهو : قدامهم غير أن وراء وقدام من حروف الصفات ، وقد تقدم ذكر حروف الصفات أن بعضها يخلف بعضها في مكانه ، وقال لييد بن ربيعة العامري في ذلك :

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كأني كلما قمت راعع
﴿يوما ثقيلا﴾ فهو : يوم القيامة ، والثقل : فهو الشديد الهائل العظيم الفادح لأهله .
ثم قال سبحانه احتجاجا عليهم ، بما أنعم الله عليهم فقال : ﴿نحن خلقناهم
وشددنا أسرهم﴾ فقال : ﴿خلقناهم﴾ أي : جعلناهم وفطرناهم ﴿وشددنا﴾ أي :
قوينا ﴿أسرهم﴾ والأسر : فهو الخلق وتركيب المفاصل ، وتثبيت الأعضاء ، فيقول :
شددنا ذلك كله ، ومكانه وثبتناه وفصلناه ^(١)

﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا﴾ ومعنى ﴿شئنا﴾ : أردنا ، أي إذا شئنا
أهلكناهم وأبدناهم ، وأنشأنا خلقا غيرهم مثلهم ﴿تبديلا﴾ فهو : جعلناه جعللا
وأتينا بمثله بدلا منهم ، اقتدارا وإنفاذ إرادة ، هذا معنى تبديلا ، تأكيد لما ذكر من
تبديل المبدل ، وإحداث ما يحدث ، بدلا من الذاهب ، وهي كلمة للعرب تؤكد بها
المعنى الذي تريده وتذكره ، تقول العرب : كلمناه تكليما ، تؤكد الكلام ، وتقول :
ضربناه ضربا ، تؤكد بها الضرب ، وأخرجناه إخراجا ، تؤكد الإخراج بقولها :
إخراجا ، وكذلك أدخلناه إدخالا ، تؤكد الإدخال بقولها : إدخالا ، وتقول : بدلناه
تبديلا ، تؤكد معنى التبديل بقولها : تبديلا .

﴿إن هذه تذكرة﴾ فمعنى هذه : هي الأقاويل والمعاني ، والإحتجاج عليكم بما
كان منا في خلقكم وتركيبكم ؛ تذكرة لكم ، ومعنى تذكرة أي : تنبيهها لكم
وحجة عليكم ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ يريد بقوله : ﴿من شاء﴾ أي : من
أراد ، ومعنى ﴿اتخذ﴾ فهو : فعلٌ ، وقَدَّمَ ، وجَعَلَ ، ومعنى ﴿إلى ربه﴾ هو : إلى

(١) - وفي مجموع تفسير الأئمة المخطوط ص ٣٨٥ قال الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام في جوابه على مسائل
في التفسير ما لفظه : "وسألت عن قول الله سبحانه : ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم
تبديلا﴾ فهذا إخبار من الله سبحانه أنه خلق خلقه بلا عون من أحد في ذلك له ، وأنه هو المتفرد بخلقهم
وإيجادهم ، وشد أسرهم : فهو تقوية أسرهم ، وأسره : فهو نباتهم وعقدهم ، وتركيبهم على ما جعلهم
عليه وقدرهم .

ومعنى قوله ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا﴾ المعنى فيه : إذا شئنا أهلكناهم وأبدناهم وأنشأنا خلقا غيرهم مثلهم
﴿تبديلا﴾ فهو جعلناه جعللا ، وأتينا بمثلهم بدلا منهم اقتدارا ونفاذ إرادة ، فهذا معنى تبديلا تأكيد لما ذكر من
تبديل المبدل ، وإحداث ما يجب بدلا من الذاهب ، وهي كلمة للعرب تؤكد بها المعنى الذي تريده وتذكره ،
تقول العرب : كلمناه تكليما تؤكد الكلام ، وتقول : ضربناه ضربا .. الخ

عند ربه ، ومعنى اتخاذ العبد عند ربه هو : تقليده للعمل الصالح ، الذي يجزئ ثوابه عند ربه في يوم حشره ، ومعنى ﴿سبيلاً﴾ أي : وصلة ومعنى صالحاً : يجزئ عند الله ثوابه .

﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ يقول سبحانه : وما تقدرُونَ على اتخاذ السبيل إلى الله ، إلا أن يجعل فيكم استطاعة وقوة على ذلك ، وعقولا تميزون بها بين رضا الله وسخطه ، فتتبعون الرضاء ، وتدعون السخط ، فلولا أن الله أراد أن يجعل فيكم تلك الإستطاعة التي تتألون بها التميز ، وتصلون بها إلى العمل ، ما قدرتم على ذلك أبداً ، غير [أن] الله سبحانه أراد أن يجعل استطاعة ذلك فيكم ، وتركيبها ، فجعل فيكم استطاعة تتألون بها الخير والشر ، وأمركم ونهاكم ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾^(١).

﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فمعنى ﴿كان﴾ أي لم يزل ، ومعنى ﴿عليماً﴾ فهو الذي لا يخفى عليه شيء ، العالم بكل شيء كان أو لم يكن مما سيكون ، فقد علم من كان من قبل أن يكون ، وعلم ما سيكون أنه سيكون من قبل أن يكون ، ومعنى ﴿حكيماً﴾ أي : متقناً لفطرته ولجعله وخلقه ، الذي لا يتغير ما أثبت ولا يثبت ما غير الجاعل ما لا يصلح غيره ، الحسن التدبير ، الجيد التقدير ، الذي لا تفاوت في خلقه ولا فساد في تدبيره .

ثم قال سبحانه ﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ والرحمة : هي الثواب ، والذي شاء أن يدخلهم في رحمته فهم أهل طاعته دون أهل معصيته ، ألا تسمع كيف ميز بينهم وبين الظالمين فقال : ﴿والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾ فجعل الرحمة للمطيعين والعذاب الأليم للظالمين ، والظالمون : فهم الظالمون لأنفسهم بإدخالها في عذاب ربهم قوله : ﴿أعد﴾ أي : هياً وجعل ، والأليم : فهو الشديد المؤلم الموجه ، المبالغ ممن داناه ، والحمد لله حق حمده ، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً .

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله عز وجل : ﴿لَا أَقْسَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ معناها : ألا أقسم يوم القيامة فطرح الألف وهو يريد بها فخرج معنى نفسي ، وإنما معناه معنى إيجاب قسم ، وقد تقدم شرحنا لطرح الألف وإثباتها في تفسير أول ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ .

معنى ﴿أَقْسَمُ﴾ أي أحلف وأذكر ، يوم القيامة : فهو يوم الحشر للعالمين ، والمناقشة للمرئيين ، وإنما سمي قيامة لما يقوم فيه من الأمر العظيم الهائل الجسيم ، ومعنى يقوم فهو : يقع فيه ، أي يكون فيه .

﴿وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ فهو أيضا قسم طرحته منه الألف ، كأن معناها أولاً : أقسم بالنفس اللوامة ، والنفس اللوامة : فهو نفوس الثقلين ، اللوامة : فهي النادمة المتحسرة التي تلوم صاحبها ، وذلك أنه ليس من مؤمن ولا كافر إلا وسيلوم نفسه في يوم القيامة ، فأما نفس المؤمن فتلومه أن لا يكون ازداد إيماناً وعملاً ؛ إذ رأت ما جعل لها على إيمانها من الجزاء والنعيم والفوز الكريم ، والملك العظيم ، وأما نفس الكافر فتلومه على ما قدم من المعاصي والردى ، عند معاينتها لما نزل بها من العذاب الأليم ، والبلاء .

وإنما أقسم الله سبحانه يوم القيامة لما فيه من عجيب الأمور ، والفصل والقضاء بالحق والإستواء ، ولما فيه من عظيم الثواب لأهله ، وجيل العقاب لمستحقه ، وأنه يوم عظيم الأمر ، جليل الخطر لما فيه من العدل والحق والفصل بين جميع الخلق ، فأزاد سبحانه بالقسم به التنبيه على جليل ما فيه من آياته وأخبر به من صفاته .

وكذلك أقسم باللوامة تنبيها على جليل ما قدر النفس عليه وفطرها من الفطرة فيه فجعلها بتقديره ساكنة في معامد الإنسان ومقاتله ، يجري منها نفسه وتثبت بها حياته

ويكون بها طرأة جسمه ، ولين مفاصله واستقامة جوارحه ، فنبه الله عز وجل على هذا العجيب ، من فعله العظيم ، من صنعه في النفس بما أقسم به منها ، وإنما يقسم الله تبارك وتعالى من الأشياء بكل أمر فيه تدبير ، أو أثر صنع حسن أو تقدير ، يكون ظاهر الشهادة بالحكمة لجاعله ، قاطعا بالقدرة لفاعله ، يقسم الله به تنبيهها لعباده على التفكير - والتذكر لما فيه من أثر صنعه ، والشواهد له سبحانه ببروبيته .

وقد قال بعض من يتعاطى التفسير : إن معنى قسم الله بهذه الأشياء هو : قسم بجاعلها . يزعمون أنه سبحانه أراد لا أقسم برب يوم القيامة ، وكذلك لا أقسم برب النفس اللوامة ، وهذا عندنا ليس بشيء ، وليس يقول بهذا القول من الخلق إلا أعمى جاهل لما يريد الله بقسمه لما يقسم به من الأشياء .

ثم قال سبحانه : ﴿أَيْحَسِبِ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ يقول : أیظن الإنسان أي يتوهم أنا لن نجمع عظامه ، معنى ﴿نجمع عظامه﴾ أي : نردها بعد تمزقها وبلائها ونحييها بعد ذهابها وفنائها ، والإنسان هاهنا : فهو جميع الناس الذين شكوا في ذلك من فعل الله ، وأنكروه من قول الله ، ممن عَنَدَ عن دين الله ، ولم يؤمن برسول الله من الجاهلية الجاهلاء من قريش ، ومن شاركهم من العرب وغيرهم .

ثم قال سبحانه : ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نَسُوِيَ بَنَانَهُ﴾ يقول : بلى نحن على خلاف ما قالوا ، ونحن قادرون على تسوية بنانه ، والبنان : فهو الخلق والأسر والتأليف في الأعضاء والجعل ، و﴿نسوي﴾ فهو : نجعل ونحيي ، ونرد إلى القوة كل ما قد بلى من عظم أو لحم ، حتى نرد بنانه إلى الاستواء بعد ما كان عليه من الخراب والفناء .

ثم قال : ﴿بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ الإنسان : هو الناس ، والإرادة منهم : هي المشيئة ﴿ليفجر﴾ أي : ليعصي ربه ويتبع شهوة نفسه ، ويسعى في لذة قلبه ومعنى ﴿أمامه﴾ فهو : مابقي من عمره وحياته ، يريد أن الفاسق يريد أن يجعل باقيا حياته كلها فجورا وفسقا ، وعصيانا لله سبحانه وعتيا .

﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ معنى ﴿أَيَّانَ﴾ أي : متى يوم القيامة ؟ فأخبر سبحانه

بأول أشراف يوم القيامة فقال: ﴿فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر﴾ فأخبر أن القيامة إذا كانت هذه الشروط وعوينت ، فهو يوم القيامة ، ومعنى ﴿برق البصر﴾ فهو شخص وحرار لما يرى من هول ذلك اليوم ﴿وخسف القمر﴾ فهو سقط وذهب وانحل وانتقضى ، ومعنى ﴿جمع الشمس والقمر﴾ فهو جمعا في نفاذ الإرادة فيهما وإمضاء المشيئة في فنائهما وانقضائهما ، فيقول : جُمِعَتَا جميعاً في حكم الذهاب والفناء ، وزوالهما عن مراتبهما ، وجمعا في المنع لهما عن الجولان والدوران في أفلاكهما ، وصارا ممنوعين مما كانا عليه ، منقولين مما كانا فيه مجتمعين في الفناء وفي التقطع والإنقضاء ، فقد انتضمهما ذلك جميعا ، ونزل بهما أمر الله معا فهذا معنى ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ .

﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾ يريد : أين المذهب عندما يرى من البلاء ووقوع الوعيد عليه والجزاء ، والإنسان الذي يقول ما ذكر الله من قول الإنسان فهم أهل الكبائر والعصيان .

﴿كلا لا وزر﴾ يريد بكلا إنكارا عليه لطمعه في المفر ، ومعناها : لا يكون وزر والوزر : فهو الملجأ والمفر .

﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ معنى ﴿المستقر﴾ فهو : المصير والمقر .

﴿ينبأ الإنسان﴾ أي : يعلم الإنسان ويخبر ويوقف على فعله ، ويذكر بما كان قد قدم وآخر ، الإنسان : فهو الناس كلهم ﴿يومئذ﴾ فهو يوم القيامة ﴿بما قدم وآخر﴾ فمعنى ﴿قدم﴾ أي ما سلف منه من العمل ، ومعنى ﴿آخر﴾ فهو : آخر النظر في عاقبته يقول : قدم عملا فعمله ، وآخر عن نفسه النظر والمخافة في عاقبته ، ومعنى ﴿آخر﴾ فهو : ترك ورفض الفكرة والخوف لمثل ما وقع فيه في يوم الدين ، من العذاب المهيئ على جزاء فعله المقدم ، هذا معنى قدم وآخر ، ولا يخرج أبدا على غير هذا المعنى ؛ لأن كل عمل عمله الإنسان قبل وفاته - فهو متقدم لوفاته وللقاء ربه ولا يجوز أن يقال لشيء فعله في حياته من فعله الماضي وصنعه الذي وجب عليه الوعيد به : إنه متأخر ولا إنه آخره ، كيف يكون مؤخرا بعد وفاته ، وقد وجب عليه

الوعيد بفعله ، وليس الذي ترك وأخر إلا ما ذكرنا ، من ترك المخافة للوعيد والفكرة فيه ، والنظر في عاقبته ، وترك الاستعداد له .

ثم قال سبحانه : ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ يريد بل هو على نفسه حجة وشاهد عليها بما كان من فعلها ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١) يقول سبحانه : هو عالم في حياته بما يكون منه ، وهو أعلم الخلق بما هو عليه من ضميره وعلائيقه ، فهو أبصر وأعلم بما هو عليه في حياته لربه ، وهو في الآخرة شاهد على نفسه بفعله في حياته حجة لنا عليها ، وقائل بالحق يوم الدين فيها .

﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ والإلقاء : هو الكلام والطرح للإعتذار ، والمعاذير : فهي الكلام الذي لا يثبت ولا يصح لقائله صدق ، فيقول سبحانه : هو عارف بنفسه عالم بغامض أمره ، وسر ضميره .

﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ يقول : لا تذكر منه شيئاً حتى تفهمه ولا تعجل بإلقاء شيء منه إلى الناس حتى تحكمه ، وتثبت تنزيله^(٢) ومعناه في قلبك فتذكره من بعد ذلك ؛ فإنك إن عجلت بذكر تنزيل قبل فهم تأويل لم تأمن أن تسأل عن التأويل فلا تعلم ما أردنا به ، فاثبت وتأمل حتى نعلمك المعنيين كليهما ، فإنك لا تعلم الغيب ولا تعلم إلا ما علمناك ، ولا تفهم إلا ما فهمناك .

ثم قال سبحانه : ﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ يريد : جمع سورة في قلبه ، وتمكين القرآن كله في صدره ، والإيحاء به كله إليه ، وتنزيله شيئاً شيئاً عليه ، حتى يكمل القرآن كله في صدره مجتمعاً وتضمنه جوانحه بالحفظ له كله معاً ، حتى يكون يحفظه وتأويله فهماً ، وتنزيله ومعانيه عالماً ، فقد جمع الله ذلك كله وثبت به سبحانه فؤاده ، ومن الجمع جمع كل آية إلى سورتها ، حتى تكمل السورة على حقيقتها ، فتجتمع الآيات كلها إلى مواضعها ، وذلك أن القرآن نزل

(١) - يس : ٦٥

(٢) - في نسخة (حتى تحكمه وثبت تنزيله) .

عليه صلى الله عليه وعلى آله خمساً خمساً ، فذكر الله سبحانه أنه سيجمعه له ومعنى جمعه : فهو تأليفه ، فذكر سبحانه أن عليه تأليف الآيات بعضها إلى بعض حتى تكمل السورة سورة سورة ، فهذا معنى ﴿جمعه﴾ . ﴿وقرآنه﴾ فمعنى قرآنه : تنزيله إليك ، وتلاوته لديك ، وقراءة جبريل له عليك حرفاً حرفاً ، وتحفيظك إياه شيئاً شيئاً فهذا معنى ﴿قرآنه﴾ .

﴿فإذا قرآنه فاتبع قرآنه﴾ يقول : إذا قرأه عليك جبريل يحفظك إياه فاتبع قراءة جبريل وتعليمه إياك ، ومعنى اتبع أي : اتبعه فيه ، وقل كما يقول ، واقرأ كما يقرأ وخذ ما يعطيك ، وتعلم ما يعلمك من القرآن الذي أمرناه بتعليمك إياه .

﴿ثم إن علينا بيانه﴾ يقول سبحانه : إن علينا تبين ما نزلناه إليك حرفاً حرفاً وتفسير ما فرضنا عليك فيه شيئاً شيئاً ، فاحفظ تنزيل ما أوحينا إليك تحفظاً جيداً فإذا حفظت التنزيل علمناك التأويل ، وفهمناك تبيان ما فيه من الأمر الجليل ، فأراد الله سبحانه تثبيت قلبه بتعليمه القرآن شيئاً فشيئاً ، فعلمه التنزيل شيئاً فشيئاً ، وعلمه التأويل شيئاً فشيئاً ، فأراد سبحانه بقوله : ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي الإخبار له بأن عليه بيان كل شيء أنزله عليه من حرام وحلال ، وتبينه حتى يعلم بعد حفظ التنزيل وعلمه غوامض علم التأويل كله ، فلا يضل عنه منه حرف واحد صغير ، ولا يذهب منه قليل ولا كثير .

ثم قال سبحانه : ﴿كلا بل يحبون العاجلة﴾ فأخبر أن من لا دين له من الخلق يحبون العاجلة ، والعاجلة : ما تعجل له ودنى وحضر وقرب من كل الأشياء ﴿وتلدرون الآخرة﴾ معنى ﴿تلدرون الآخرة﴾ هو : تتركون العمل لها ، وترفضون العمل الذي تنالون به خيرها ، فلما أن رفضوا العمل الذي ينالون به الآخرة كانوا للآخرة تاركين ، وللعاجلة التي عملوا لها مؤثرين ، والعاجلة : فهي الدنيا الفانية ، والآخرة : فهي المتأخرة الباقية .

﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فيومئذ : هو يوم القيامة ، والناصرة : هي المسرورة البهجة المطمئنة الفرحة التي عليها لقلة الخوف النصرة ﴿إلى ربها ناظرة﴾

يريد : إلى ما يكون منه ناظرة ، ولثوابه ووعده منتظرة ، ومعنى ناظرة : أي راجية ولثوابه منتظرة ، كذلك تقول العرب : ما أنظر إلا إلى الله وإليك ، وليست تريد بذلك النظر بالعين إليه ، وإنما تريد فضله وعطاءه ، وكذلك يقول القائل من العرب لمن يطلب رفته وبره : عيني مفتوحة إليك ، وأنا ناظر إليك ، ليس يريد أن يفتح عينيه لينظر بها إلى جسمه ، وإنما تريد أن عيني مفتوحة إلى ما أرجو النظر إليه من عطائك ومواهبك وفعالك .

﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾ فهو وجوه الكفار ، ومعنى ﴿باسرة﴾ أي : باسرة لأنفسها عن رحمة الله بما كان من عصيانها لله ، فلما أن عصت الله تلك الوجوه والأبدان - بسرت أنفسها عما أعدده الله من الثواب والإحسان ، لمن أطاعه من جميع الإنسان ، فسامها باسرة ، إذ كانت قد بسرت أنفسها عن رحمة الله وثوابه في الآخرة ، بما قدمته من معصيته في العاجلة ، ومعنى بسرت أي : منعت ودفعت وحرمت .

﴿تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ ومعنى الظن هاهنا : اليقين ، يقول : توقن أنه سيفعل بها فاقرة ، ويفعل : أي يعمل بها ويصنع ، و الفاقرة : هي الداهية النازلة القاتلة المهلكة ، وإنما سميت فاقرة ؛ لأنها تفقر الظهر ، وتفقر الظهر قطعه ، تقول العرب : فقر ظهره ، أي دقه وقطعه وحفره ونقبه من ذلك ما تقول العرب : أفقروا في الشيء فقرا أي احفروا فيه حفرا ، ومن ذلك ما سمي عدم الدينار والدرهم فقرا ، لأن عدمهما يثقب القلب ويفقر الظهر ، فلما أن كان يعمل ذلك بصاحبه قيل : نزل به الفقر ، أي : نزل به ما يثقل به الحال في كل الأمر .

﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ فالبالغة للتراقي : هي النفس عند خروجها من الجسم وبلوغها تراقي صاحبها ، والتراقي : فهما ترقوتا الإنسان المعروفتان ، وهما العظمان اللذان تحت اللحيين إلى أسفل الرقبة وفوق الصدر ، يريد بقوله : ﴿كلا﴾ أي : لا ترجع النفس موضعها بعد بلوغ التراقي أبدا .

﴿وقيل من راق﴾ أراد بذلك الدليل على جهل الخلق بأمر الله ، وقلة علمهم

بانقضاء أجل صاحبهم ، فهم يطلبون له من يرقيه ، ويتوهمون أن به داء غير الموت الذي يفنيه فهم يقولون : من يرقى والراقي : هو الذي يعوذ ويرقى .

ثم قال : ﴿وطني أنه الفراق﴾ يريد بقوله : ﴿وطني﴾ أي أيقن صاحب النفس التي بلغت التراقي أن الذي هو به الموت ، الذي يفرق بينه وبين حياته ، وهو موقن بالموت لما قد رأى وعين ووجد ، وأهله وإخوانه لا يوقنون بما أيقن ، فهم يطلبون له الرقاء والدواء ، وقد عاين الداهية الدهياء ، وأيقن بالفراق والفناء .

﴿والنفت الساق بالساق﴾ والتفاف الساق بالساق : فهو صفهما لخروج الروح منهما فإحداهما على الأخرى ساقطة ، إن وضعت فوقها لم تنقلع عنها أبداً إلا أن تنقلع ، ولم تمتاز منها إلا أن تنزع ، إن تركت فوقها لم تنزل ملتفة أبداً بها ، وإن نزعت عنها لم ترجع إليها إلا أن يردها غير صاحبها .

﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ فهذا اليوم الذي قال الله : ﴿يومئذ﴾ فليس هو باليوم الذي قال الله سبحانه : ﴿وجوه يومئذ بأسرة﴾ هذا اليوم هو يوم وفاة الخلق ، وعند معابنتهم لنزول الحق ، ومواقعة ما وعدهم الواحد الخلاق من الموت اللائق للمساق بالساق ، فهذا اليوم الذي ذكر الله فيه أن فيه إليه المساق ، وذلك اليوم فهو يوم البعث والحق ﴿المساق﴾ يقول : المضي به والتصيير له إليه سبحانه ، ومعنى ﴿إلى ربك﴾ أي : إلى الموضع الذي جعله الله مقراً لأرواح إلى يوم مماتها ، ويوم ممات الأرواح : فهو ممات الملائكة والجن ، وهو يوم القيامة عند النفخة الأولى ، التي ذكر الله أنه يصعق بها من في السموات ومن في الأرض ، ومعنى يصعق : فهو يموت ويذهب ، ومعنى هذه النفخة الأولى التي ذكر الله فقال : ﴿ونفخ في الصور﴾ فهو صور الخلق وأبدانهم ، ومعنى نفخ فيها : فهو وقع فيها وواقعها من أمر الله ما أفناها وحل بها من قضائه ما أزالها وأمضاه ، فعند وقوع هذه النفخة تموت أرواح الخلق والجن والملائكة ، ثم ينفخ فيها النفخة الثانية بالحياة كما قال الله : ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ يقول عز وجل نفخ في الصور بالحياة مرة أخرى كما نفخ فيه بالموت أولاً ، ومعنى نفخ جعل جعل الله سبحانه : ﴿فإذا نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ يقول : جعلت فيه الروح ، فنفخ الله تبارك وتعالى في

الصور هو الحياة كنفخته في صورة آدم بالحياة ، وجعل الروح فيهم كما جعله في صورة أبيهم .

﴿فلا صدق ولا صلى﴾ فطرح الألف ، وهذا موضعها وهو يريد بها ، وقد تقدم شرح هذا المعنى منا في غير هذا المكان ، يريد بهذا اللفظ سبحانه : فلو كان في حياته من المصدقين ، بما جاء من رب العالمين على لسان النبي الأمين ، وكان من المصلين لكان بذلك عند الله من الفائزين ، ولكن لم يكن كذلك ، فكان من الهالكين .

ثم قال سبحانه : ﴿ولكن كذب وتولى﴾ معنى ﴿ولكن﴾ هو : بل ، يقول : بل كذب وتولى ، أي كذب بالحق أي جحد ، ولم يقر ولم يصدق ﴿وتولى﴾ يقول : التوى عن الحق وانصرف عن الصدق .

﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطي﴾ يقول : رجع من عند الرسول صلى الله عليه وعلى آله إلى أهله مكذبا يتمطي ، والتمطي : شيء يفعله الزاهد فيما يلقي إليه ويؤمر به ويتلى عليه ، وهو أمر يدل من فاعله على الإنكسار عما يتلى عليه ، والملاة لما يؤمر به ، فإذا مل وضجر من ذلك العمل كائنا ما كان داخله الزهد فيه والضجر منه يتمطي لما يداخله من الملاة له ، والتمطي : فهو مد اليدين والتلوي ، والتلفت بالمكنين والتثني ، ولا يقع هذا إلا بالمال لما هو فيه من الضجر منه ، فأخبر الله سبحانه عن المعرضين عن الله وعن رسوله ، الزاهدين فيما يتلى عليهم من كتابه ينقلبون إلى أهلهم يتمطون ، من استثقال ما سمعوا منه من تلاوته كتاب الله ، وبغضهم له فدل تمطيهم على ضجرهم وملائتهم ، وكراهيتهم لذلك من فعله .

ثم قال سبحانه : ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾ يقول : كيد لك يا ضجراً يتمطي ، ويا زاهداً في الهدى كيد لك ، ومعنى ﴿أولى﴾ : هو كيد لك ، ومعنى كيد لك : أي كاد أخذ ربك أن ينزل بك عند فعلك ، وكادت نغمته أن تحل بك عند تعنتك ، وكادت بطشة ربك أن تنالك عند تمطيك ، وحين إيدبارك عن الحق وتولييك وكذلك تقول العرب إذا رمت أغراضها فقاربت سهامها الغرض قالت : كادت به

أي قاربه وقصدته ودانته ولم تصبه بعد ، وكذلك إذا طعن الفارس شيئا فدانه ولم تصبه قالت العرب : كادت به أي قاربه ودانه .

﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ يقول سبحانه : يتوهم الإنسان ، ومعنى ﴿يترك﴾ أي يخلى ﴿سدى﴾ أي مهملا ، والمهمل : فهو الذي لا يرعى ولا يحفظ منه مقبل ولا مدبر ولا مذهب ولا بابا ، ولا يخصى عليه شيء من الأشياء من ذلك ما تقول العرب لمن ضيع أبله وخلاها ، أو غنمه أو دابته : خلى فلان دابته في الأرض هملا ، أي خلاها بلا راع ولا حافظ ، ولا متعاهد ولا عارف لأمرها ، فهذا معنى الحمل ، والسدى فمعناه : هملا .

﴿ألم يك نطفة من مني تمنى﴾ يقول : أليس قد كان نطفة في ظهر أبيه ، والمني : فهو الماء الذي ينزل من الظهر عند الجماع ، ومعنى تمنى : فهو تخرج وتلقى ، وكل شيء أمني فقد أخرج وأظهر وألقي .

﴿ثم كان علقة﴾ يخبر سبحانه أنه صار في الرحم بعد أن كان نطفة علقة . والعلقة : فهي الشيء الجامد من الدم ، فأخبر الله سبحانه أن النطفة البيضاء تنقلب بقدرته في الرحم علقة حمراء ، ثم تنقلب العلقة الحمراء مضغة ، ثم يخلقها الله سبحانه ما يشاء ويسوي منها ما أحب .

ثم قال سبحانه من بعد أن ذكر العلقة : ﴿فخلق فسوى﴾ يريد عز وجل خلق العلقة مضغة ، ثم خلق المضغة عظاما ، ثم كسا العظام لحما ، ثم قال من بعد : ﴿خلق الله فيه ما شاء ، من خلق الذكر أو خلق الأنثى ، فهذا معنى قوله : ﴿فخلق فسوى﴾ يقول : خلق شيئا بعد شيء حتى سواه من هذا الماء ، ما شاء من ذكر أو أنثى .

ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ يعني بقوله : ﴿جعل﴾ أي خلق ، فصور ، وفطر فقدر ، ومعنى ﴿منه﴾ أي من ذلك المني الذي أمناه الزوجان وهما الصنفان اللذان يتزاوجان ، وهو الذكر والأنثى ، فأراد سبحانه بذكر ما ذكر من فعله في الآدميين ، وتنقيل خلق المخلوقين أن يعلمهم أنه لم يفعل ذلك بهم لأن يخلقهم سدى ، وإنما فعل ذلك بهم لأعظم ما يكون من المعنى وهو ما

أراد بهم من الإمتحان والاختبار والابتلاء بالعمل في دار الدنيا ، والإيجاب عليهم في يوم الدين لما أوجب من الجزاء ، فأعلمهم أن من كانت هذه إرادته من خلقه فقد بعد منه أن يجعلهم سدى ، وبانت له بذلك الفعل القدرة فيهم ، وفي غيرهم على ما يشاء.

ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى : ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ معنى ﴿أليس ذلك﴾ هو أما ذلك ، فيقول : أما الذي فعل ما فعل ودبر من تقلاب تدبير خلقكم ما دبر ، حتى صار من الماء بتدبيره وقدرته إنسانا قويا ثابتا ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾ معنى ﴿قادر﴾ : أي مستطيع لذلك قوي عليه نافذ أمره فيه .

ومعنى ﴿يحيي الموتى﴾ هو : يردهم بعد الممات أحياء ، فأخبر سبحانه بذلك أن إحياء لرميمهم ، ورد رميمهم أجساما ، كابتدائه لخلق أجسامهم أولا من الماء فأخبرهم أن من ابتداء شيئا من لاشيء ، أي جعل شيئا من غير شيء فهو على إزالته قادر ، وأنه على رده إلى الهيئة الأولى التي قد فرغ من خلقها ، وأحكم تدبيرها - أقدر منه على ابتدائها ، وأهون عليه في جعلها كما قال سبحانه : ﴿وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾^(١) فضرب عز وجل ذلك لهم مثلا كما مثلنا نحن به أيضا وليس قوله : ﴿أهون عليه﴾ ولا هو على ردها أقدر - يقتضي أن له سبحانه حالا تفاوت حالا ، ولا أن شيئا يمتنع عليه جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله ، بل كل ما شاء أن يكون كان على ما يشاء ذو الجلال والإكرام والسلطان ، ولا يعجزه شيء ولا يفوته شيء ، ولا يؤده حفظهما شيء وهو السميع العليم .

سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ المنادى هاهنا والمناجى : محمد صلى الله عليه وعلى آله ، والمناجاة فهي : النداء ، والمدثر : فهو المتحف والإلتحاف : فهو طريح الثياب على الإنسان عند اضطجاعه .

﴿قم فأنذر﴾ فالمأمور بالقيام : فهو رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، ومعنى أنذر : أي بلغ وأخبر ، وتقدم إليهم ، وأد الحجة التي أمرت بأدائها .

[سبب النزول]

وسبب تدثر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أن الوليد بن المغيرة المخزومي لعنه الله - جمع قريشا إلى دار الندوة ، ثم قال : يا معشر قريش إن هذا الإنسان قد ادعى ما ادعى ، والعرب تفد عليكم وتأتي بلدكم فلا يزال السائل يسأل عنه بعضكم فيقول شيئا ، ويسأل آخر فيقول له شيئا آخر ، فاشتوروا وأجمعوا له أمركم وكلمتكم حتى يكون قولكم فيه قولاً واحداً فما تقولون إنه ؟ فقال بعضهم : مجنون فعبس في وجهه ، ثم قال : ليس هذا بقول ، وليس هو وأبيكم مجنون ، فقال بعضهم : شاعر ، فقطب في وجهه أيضاً ، وقال ليس هذا بشاعر ، قد سمعنا الشعر وقلناه فليس هذا على مجراه ، فقالوا : كاهن . قال : ولا بكاهن ، ليس يغبي على العرب الكاهن ، فقال بعضهم : ساحر . فقال لهم : وما الساحر ؟ وما يعمل ؟ فقالوا : يفعل فعلاً يفرق به بين المرء وزوجه ، ويحبب المبغض ، ويبغض الحبيب . فقال : هذا إذا قد والله يفعل محمد ذلك ، فأجمعوا كلمتكم على أنه ساحر ، فخرجت قريش من دار الندوة فلم يلق أحد منهم رسول الله عليه السلام إلا قال : يا ساحر ، فاشتد ذلك عليه صلى الله عليه وعلى آله فخرج حتى أتى منزله فطرح نفسه ، وتدثر بلحافه من شدة الغم وما نزل به لقولهم من الهم ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾

قم فأنلر وربك فكير وثيابك فطهر ﴿﴾ .

معنى ﴿ربك﴾ أي إلهك وخالقك ومالكك الذي لا خالق لك غيره ، ولا مالك لك سواه ، ومعنى ﴿كبير﴾ فهو عظم بالطاعة ، وأجلّ وقُدس ، وقل ما هو أهله ، وما هو يستحقه سبحانه يستأمله . ﴿وثيابك﴾ فهي : هذه الثياب الملبوسة المعروفة باسمها المفهومة بذكرها ، ومعنى تطهيرها : فهو غسلها من رجس المشركين ، ولمسهم ومداناتهم .

﴿والرجز فاهجر﴾ والرجز : هو كل نجس معلوم من وثن أو صنم ، أو شيء محرم مفهوم ، ومما كانوا يستحيزون ويأتون ويفعلون ، من أكل الميتة وغيرها ، التي هي في التحريم مثلها ، ومعنى اهجر : أي اعتزل ولا تقرب ولا تتبع .

﴿ولا تمنن تستكثر﴾ معناه : لا تمن بشيء تفعله ، ولا بجميل تصنعه إلى أحد من العالمين لا من المسلمين ولا من المشركين ، ومعنى ﴿تستكثر﴾ فهو : تكثر قول ذلك وذكره وتعريفهم به ، وقوله هذا فآدب من الله لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وهداية منه له إلى أعظم الأمور وأجسمها ، وأشرفها في الأحداث وأفخرها من ترك المن لما يولي ، والإعراض عن ذكر ما يعطي .

ثم قال سبحانه : ﴿ولربك فاصبر﴾ يقول : فاصبر على ما تلقى في الله من البلاء ، وتقاسي من الكفرة من الأذى فاصبر عليهم واجعل صبرك لله في مقاساتك منهم بحكمه واعترافاً له سبحانه بأمره .

﴿فإذا نقر في الناقور﴾ فالناقور : فهو علامة من الله يجعلها في يوم الدين ، تكون ظاهرة في موضع حشر العالمين ، تظهر علامتها وتسطع عالية آياتها ، يستدل الخلق أجمعون بها على الموضع الذي يقصدون من موضع الحشر الذي إليه يساقون ، فيكون قصدهم إلى تلك العلامة التي جعلت لهم .

وقد يمكن أن تكون هذه العلامة التي سماها الله الناقور - نوراً يسطع في ذلك الموضع ويلمع ، فيكون ذلك علامة لموضع الجمع .

ويمكن أن تكون تلك العلامة أصواتاً من دعاة من الملاحكة يدعون الناس إلى ذلك

المكان فينتقر الناس موضع الحشر بذلك الدعاء فيقصدونه معا .

ويمكن أن يكون علامة بالتهليل والتكبير والتقديس لله والتوقير ، يسمعه الخلق أجمعون فيؤمنونه كلهم أكتعون .

فأما قول - من يقول : إن الناقور يوق أو شبه البوق ، وينفخ فيه ليجتمع الناس كلهم إليه . - فليس ذلك عندنا بشيء تصححه عقولنا ، وليس الناقور - والله أعلم وأحكم - إلا علامة عظيمة يجعلها الله العلي الأعظم في ذلك اليوم ، ولن تكون هذه العلامة إلا بأمر عظيم من صنف مما ذكرنا ، من بعض ما شرحنا من النور الساطع العظيم اللامع ، أو الصوت بالدعاء والتكبير والتهليل والتحميد والتقديس والتمجيد الذي يسمعه كل سامع .

ثم ذكر سبحانه ذلك اليوم الذي ينقر فيه الناقور ، ومعنى ينقر فهو : ينتقر ، ومعنى ينتقر : فهو يستدل عليه ويخير ، ألا تسمع كيف تقول العرب لمن استدل على شيء وعرفه ، ووقع عليه وعلمه :- انتقر فلان كذا وكذا ، أي عرفه واهتدى إليه ، ووقع بالفظنة منه عليه فقال سبحانه :

﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ ومعنى ذلك فهو [كذلك] ^(١) ومعنى يومئذ فهو اليوم الذي يكون فيه الناقور ، ومعنى ﴿يوم عسير﴾ فالعسير : هو الشديد الذي لا فرج ^(٢) فيه ولا راحة لديه .

﴿على الكافرين غير يسير﴾ والكافرون : هم الكافرون بنعم الله المكذبون . ومعنى كفرهم لنعم الله فهو قلة شكرهم لله على ما أعطاهم من بعثة البشير النذير إليهم وهم أهل المعاصي لله ، من المشركين الذين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، من الثقلين ، ومعنى ﴿غير يسير﴾ فمعنى ﴿غير﴾ هو : ليس . ومعنى ﴿يسير﴾ أي : ليس بسهل ولا صغير ، فأخير سبحانه أن ذلك اليوم يوم شديد عسير على أعدائه ، ليس بسهل ولا صغير .

(١) - في الأصل وهو نسخة (أ) : (ومعنى ذلك فهو : فذلك) .

(٢) - في نسخة : هو الشديد الذي لا فرج فيه ، بالخاء المهملة .

ثم قال سبحانه وجل عن كل شأن شأنه ﴿ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا وَجَعَلْتَ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ معنى ﴿ذُرْنِي﴾ أي : دعني واجتَر بي ، واعلم أنني في ذلك كاف مغن ، ومعنى ﴿وَمَنْ خَلَقْتَ﴾ أي : أوجدت وفطرت ﴿وَوَحِيدًا﴾ فهو : فردا فريدا ، وقد قيل : إنه اسم للوليد بن المغيرة ، وكان يعرف به ، فقال الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وعلى آله : ذرني وهذا الذي اجتراً علي فكذب بي فسأذيقه على ذلك أشد عذابي .

ثم أخير سبحانه بما جعل له من المال الممدود ، والممدود : فهو الكثير الواسع وما جعل له من البنين ، والبنون : فهم الذكران المعروفون ، و﴿شُهُودًا﴾ فمعنى شهودا : أي حاضرين معه شاهدين غير مفارقين لجماعته ، بل هم شهود معه والشهود : فهم الحضور الذين لم تنأ بهم دار ، ولا تبعد منهم الأخبار ، فهم سكان معه في الدار .

﴿وَمَهَّدْتَ لَهُ تَهْيِيدًا﴾ فمعنى ﴿مَهَّدْتَ﴾ هو : وطئت وجعلت له بالنعمة التي أعطيتها إياها ، مهذا يمهد عليها ، ويتقلب بفضلي عليه فيها ، ومعنى ﴿تَهْيِيدًا﴾ فهو : عطاء منا له جزئيا .

ثم قال سبحانه : ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ يقول : أيطمع بعدما أعطيته أن أزيده على ما أوليته ، وهو مقيم على كفر نعمتي ، معتصم بالشرك بي .

﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ يريد بكلا أي : إني لا أفعل ذلك أبدا ، ولا أزيده في النعيم شيئا ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ معنى ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ معناها : أنه لم يزل لآياتنا عنيدا ، يقول : لأحكامنا وما يظهر من غائب آياتنا وبواهر دلائلنا ﴿عَنِيدًا﴾ والعنيد : فهو المعاند والمعاند : فهو المضاد المكابر المعارض بباطله من حق خالقه .

ثم أوعده على ذلك بما ذكر من العذاب فقال سبحانه : ﴿سَأَرْهُقَهُ صَعُودًا﴾ ومعنى ﴿سَأَرْهُقَهُ﴾ أي : سأوقع به ، وأنزل وأحل به وأجعل ، ومعنى ﴿صَعُودًا﴾ أي : أمرا شديدا ، وعذابا ومهلكا متعبا ، فشبه سبحانه ما ينزل به - من العذاب الشديد لشدة وهول ما أعد له من نعمته - بالصعود ؛ لأن أشق ما يعرف الإنسان في مسالكه

ومذاهبه وطرقه ما كان مصعدا فيه ، من الجبال الشاخخة التي تكون الطرق فيها متعلقة مرتفعة ، فذلك أشد مسالك الناس ، وأصعب ما يسلكونه من سبلهم ، فأخبر الله أن عذاب هذا الذي يدعى بالوحيد مع عذاب غيره كالصعود مع السهل ، وأن عذابه له فضل في النار على كل عذاب ، كما للصعود في الشدة والتعب على السهل

ثم قال : ﴿إنه فكر وقدر﴾ يريد به ﴿فكر﴾ : أي تفكر . ﴿وقدر﴾ فهو : لما كان من فكرته فيما يجعل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من الكذب . ﴿وقدر﴾ فهو : ما كان يقدر عليه ويهيئ له ، ويحتال به عليه ، ويسوي ، حتى جعل عليه ما جعل من الأمر ، ولطخه بما لطخه به من ذكر السحر ، الذي قد برأه الله وطهره ورفع عنه سبحانه وكبره .

ثم قال : ﴿فقتل كيف قدر﴾ ومعنى ﴿قتل﴾ : فهو لعن ، ثم قال : ﴿كيف قدر﴾ يريد على ما قدر . ﴿وقدر﴾ : فهو ما ذكرنا من تفكيره وتقديره .

ثم كرر اللعن فقال : ﴿ثم قتل كيف قدر﴾ يريد : لعن على ما كان قدر .

ثم قال سبحانه مخبرا بما كان من فعله في دار الندوة ، وعبوسه في وجوه من كان يقول : مجنون وشاعر وكاهن ، وبسوره لهم فقال : ﴿ثم عبس وبسر﴾ يريد بعبس أي قطب بين عينيه ، وأنكر قول من قال بالجنون عليه ﴿وبسر﴾ فمعناه : دفعه وأقصاه عن القول بما قال به عليه ، ورماه من قوله : ليس هو بشاعر ولا مجنون ولكنه ساحر ، وحاشا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من ذلك ، وقد نزهه الله أن يكون كذلك . ثم قال : ﴿ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر﴾ معنى ﴿أدبر﴾ أي : تولى عن الحق ، وتعلق بالكذب والفسق ، ومعنى ﴿استكبر﴾ أي : تجبر وتكبر .

ثم قال لعنه الله : ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ أي : يتلى ويذكر ، يقول : ما يأتي به محمد صلى الله عليه وعلى آله ويذكره إلا سحر ، رواه وتعلمه ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ ما هذا الذي مع محمد من قول الله ، وما هو إلا قول البشر ، والبشر : فهم الناس .

ثم قال سبحانه: ﴿سَأَصْلِيه سقر﴾ فمعنى قوله: ﴿سَأَصْلِيه﴾ يريد: سأؤذنيه منها وأولجه فيها حتى يصلى بدنه حرها، ويقع به حريقها وأكلها، ويباشره بمجومها وحرها، فلا يكون له فيها ستر يستر به، ولا حجاب يحجزه، وسقر: فهي بعيدة القعر العظيمة الأمر، البعيدة المهوى، الكثيرة الأذى والبلاء، وهو اسم من أسماء جهنم ألا تسمع كيف يقول سبحانه:

﴿وما أدراك ما سقر﴾ يقول سبحانه: وما أعلمك ما سقر؟ وكيف هي؟ وما أمرها؟ وما هي على حقيقة العلم؟

ثم بين سبحانه بعض صفاتها، وما هي عليه من حالاتها فقال: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ معنى ﴿لا تبقي﴾ أي لا تبقي في عذاب من صار إليها، ولا تنكيل من ولج فيها، ﴿ولا تذر﴾ معناه: لا تذر أحدا من أهل الوعيد إلا ضمته وصيرته فيها وأحرقته، وحقت وعيد الله له فأهلكته.

﴿لواحة للبشر﴾ واللواحة: فهي المحرقة المغيّرة التي قد غيرت أبدانهم ببلاتها وغيرت خلقهم بإحراقها، ولوحتهم بعذابها، وقوله: ﴿للبشر﴾ فهم من كان فيها من الفاسقين، وصار إليها من الفاجرين.

ثم ذكر سبحانه خزنتها وعددهم، ووصف بعض حالهم وأمرهم، فقال سبحانه: ﴿عليها تسعة عشر﴾ فقد يمكن - والله أعلم - من أن يكون هؤلاء التسعة عشر هم الخزنة المأمورون بحفظها، وحفظ من فيها، الآمرون والناهون في أمرها.

ويمكن أن يكون تسعة عشر ألفا، أو تسعة عشر صنفا من الملائكة المقربين المؤمنين بأمر الله المكرمين، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ فأخبر سبحانه أن هذه التسعة عشر ملائكة، وأن خزنتها من الملائكة المؤمنين البررة المكرمين.

ثم قال سبحانه: ﴿وما جعلنا عدتهم﴾ يعني عددهم ﴿إلا فتنة للذين كفروا﴾ والفتنة هاهنا فهي الاختبار والبلوى بما يكون منهم من الجحudan في ذلك، والإفتراء لأنهم كانوا بما آتاهم به رسول الله صلى الله عليه وآله من خبر النار وأهلها وخبزتها

مكذبين ، وبه صلى الله عليه وعلى آله في ذلك كله غير مصدقين ، وكانوا يجحدون أمرها ، ويكذبون خيرها ، فلما جحدوا أمرها كانوا أشد جحدا لخزائنها وعددهم وأشد ملادة فيما ذكر الله عز وجل من أمرهم .

ثم قال سبحانه : ﴿لَيْسَتِيقِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾^١ والذين أوتوا الكتاب هاهنا فهم الذين أسلموا من أهل الكتاب ، والكتاب : فهو التوراة ، فأخبر أن من آمن بالله من أهل الكتاب وصدق برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وآمن بآياته فهو مستيقن بذلك ، والإستيقان منهم : فهو تحقيق العلم والإقرار بما جاء من ذكر الخزنة وعددهم ، ومعنى يستيقنوا : فهو يؤمنوا ويوقنوا ﴿وَيَزْدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾^٢ معنى يزداد : فهو ازديادهم في الإيمان بتصديقهم لما ذكر الله من عدد خزان النار لهم ، فلما أن كانوا بكل ما ذكر الله وأخير مصدقين وبما قال غير مكذبين - كانوا في كل ما صدقوا به من أمر حادث من الله في الإيمان مزدادين ، بتصديقهم بخبر الله ، وإقرارهم ومعرفتهم بصدقه وإيقانهم ، فهذا معنى ﴿وَيَزْدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾^٣ .

ثم رجع في ذكر مؤمني أهل الكتاب ومؤمني العرب فقال : ﴿وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^٤ يقول سبحانه : إنما ذكرنا من عدة أهل النار التي شرحنا لكم ليستيقن مؤمنوا أهل الكتاب من الإسرائيليين ومؤمنوا العرب أنه الحق فيكون ذلك فضيلة لهم من ربهم ، وجزاء على ما كان من إيقانهم ، مما ذكر الله في الكتاب المبين ، من عدة خزان النار من الملائكة المقربين .

﴿وَلَا يَرْتَابُ﴾^٥ يقول : لا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في صدق قولنا ، وكيثونة وعدنا ووعدنا .

ثم ذكر قول المنافقين في ذلك الذين في قلوبهم مرض من دينهم ، والمرض : فهو الشك والإرتياب ، وقلة الإخلاص لرب الأرباب ، وكذلك حكى عز وجل في القول عن الكافرين فقال سبحانه : ﴿وَلَيُبْقِرَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ مَثَلًا﴾^٦ . معنى قوله : ﴿مَا﴾ أي لهو الذي ، لأن الذي يقوم مقام ما ، وما

يقوم مقام الذي ^(١) فأرادوا - عليهم لعنة الله - بقولهم هذا أن الذي أراد الله بذكر ماذكر من عدة هذه الخزنة ، وما شرع من أمرهم مثل مضروب ، وأنه ليس بحق كائن ، ولا أمر مجعول باين ، يقول : إن الله تبارك وتعالى إن كان حقاً ما يقول محمد من أنه أوحى إليه بذلك وحياً ، ونزله عليك من عنده تنزيلاً فهو مثل وليس بحق واقع .

ثم قال سبحانه : ﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ يريد بقوله : ﴿كذلك﴾ أي بذلك ، ومعنى بذلك أي بذلك القول منهم الذي قالوا - استوجبوا من الله الإضلال ، والإضلال فهو الخذلان ، فلما أن قالوا ما قالوا - من الباطل والمحال والكذب في كل قول أو فعال ، على ذي الجلال والطول - استوجبوا منه الخذلان فخذلهم .

[معنى الإضلال من الله والهداية]

وقوله تبارك وتعالى : ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ فمعنى يشاء : هو يريد والذي شاء الله أن يضل : فهو من عند دينه ، وطعن على رسوله .

والذي شاء أن يهديه فهو من آمن به ، وصدق رسوله بما جاؤا به عنه ، ومن عنده سبحانه وبمحمد .

ثم رجع سبحانه إلى ذكر خزنة النار صلوات الله عليهم فقال : ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ يريد : ما يفهم عددهم وهم الملائكة ، وهم جند الله - إلا ربهم الذي خلقهم من خزنة النار ، ومن غيرهم من الملائكة المقربين صلوات الله عليهم أجمعين .

ثم قال سبحانه : ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ يريد : سقر . يقول : ماذكرنا الذي ذكرنا منها إلا تذكرة للبشر ، والبشر : فهم الخلق ، ومعنى تذكرة : فهو تنبيهها وتحذيرها وإهابة وتخويفها ، ثم قال : ﴿كلا والقمر والليل إذا أدبره والصبح إذا أسفر﴾

(١) - أراد الإمام المهدي عليه السلام أن ما موصول ، وأن التقدير عنده هو : يقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : الذي أراده الله بهذا هو المثل . كما صرح به على معنى الإخبار منهم لا على معنى الاستفهام .. والنحويون يقولون : إن ذا قد تكون اسم موصول في لغة طي ، إذا سبقها استفهام بما أومن ، فعلى هذا يكون معنى الآية : ما الذي أراده الله بهذا مثلاً ؟ على الاستفهام .

فأقسم سبحانه بالقمر ، والليل في ادباره .

وأما إقسام الله سبحانه بإدبار الليل فهو لما فيه من عجب تديره ، من تحلي ظلامه وتصوب نجومه ولطائف عظمته في ذلك من أثر صنعه ما يطول شرحها ويكثر لو ذكرناه ذكرها ، ومعنى ﴿أدبر﴾ فهو : تولى ، وتولىه : فهو ذهاب أكثره ، ودنو انفجار فجره ، وكذلك أقسم الله بالصبح إذا أسفر ، والصبح : فهو الصباح .

وقوله : ﴿أسفر﴾ فهو : أضاء وانتشر ، وفي سطوع الصبح ، وفجره غاية الدليل على صناعته وربّه لما فيه من ظهور ضوئه في حِندس^(١) الليل وظلمته ، حتى ينكشف منه مدّهم^(٢) الظلام ويزيل عن الأرض منه ما كان عليها من الإدلهام ، فوقع القسم من الله - جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله - على تحقيق ما أنكروا من سقر وخزائنها ، وعجيب ما ذكر الله سبحانه من أخبارها فقال :

﴿إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر﴾ يقول سبحانه : إنها لإحدى عظام ما فعلنا وجليل ما أحدثنا ، مما جعلناه عبرة وتبيانا ، ونعمة وترغيبا ونكالا وترهيبا . و﴿الكبر﴾ : فهي الأمور الكبار التي جعلها الله سبحانه وفطرها ، ولعمري ما من شيء أكبر هولا ، ولا أعظم أمرا ولا أشد على الخلق خطرا من سقر ، التي لا تبقي ولا تذر .

معنى ﴿نذيرا للبشر﴾ يقول منها وخوفا ، وقوله : ﴿للبشر﴾ والبشر : فهم الناس أجمعون .

ثم قال سبحانه : ﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ يريد بقوله : ﴿لمن شاء منكم﴾ أي لمن أراد منكم ، ومعنى ﴿يتقدم﴾ أي : أن يتقدم في أهبة أمره والتخلص من عذاب ربه ، والتتحي من هذه التي هي إحدى الكبر ، التي هي بلا شك سقر ﴿أو يتأخر﴾ يقول : يتأخر عن العمل بما ينجيه منها ، ويسوف التوبة التي هي سبب النجاة

(١) - في المعجم الوسيط : الحِندسُ : الظلمة ، والليل الشديد الظلمة ، وأسودُ حندسٌ : شديد السواد ، والجمع :

حنادس ، والحنادس : ثلاث ليال في آخر الشهر .

(٢) - ادّهم الظلام : كثف ، والليل : اشتد ظلامه فهو مدّهم ، والرجل : كبير وشاخ .

من عذابها ، حتى يأتيه أجله ، فينقضي عمله ، فيكون بتأخره عن التوبة من الهالكين كما كان من تقدم بالتوبة والعمل الصالح من الناجين .

ثم قال سبحانه : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ فأخبر عز وجل أن المتقدم والمتأخر مأخوذ بعمله مجازي بفعله ، وأن كل نفس رهينة بكسبها ، وكسبها : فهو عملها وبما قدمته في حياتها من برها ورشدها أو غيها وفسقها وكفرها . قوله : ﴿ رهينة ﴾ فمعنى رهينة أي مأخوذة مرتهنة ، ومعنى مرتهنة أي : محبوسة محاسبة .

﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فذكر سبحانه أن كل مسيء وظالم عاص متعد مأخوذ بفعله معاقب على صنعه ، ثم ميز بينهم وبين غيرهم من أهل الإيمان فقال : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فذكر أن أصحاب اليمين ناجون ، ومن عذاب الله سالون . وأصحاب اليمين : فهم أصحاب الدين والمعرفة واليقين ، ومعنى اليمين : فهو اليمن والبركة في التقديس من الله ، والنعمة ، لا أن ثم يمينا وشمالا .

ثم قال : ﴿ في جنات يتسألون عن المجرمين ﴾ فالجنات فهي : ما ذكرنا من مواضع النعمات والسرور والغبطة ، والملك والحيور ﴿ يتسألون عن المجرمين ﴾ فأخبر أن المتقين أصحاب اليمين والخير ، إذا صاروا إلى دار النعيم ، وحل المؤمنين تسألوا فيما بينهم عما كانوا يعرفونه من المجرمين ، وتساؤلهم فهو : تذاكرهم لهم ، ولما كان في الدنيا من تجرهم وكفرهم ، إيقانا منهم بما صاروا إليه من عذاب النار ، وانقلبوا إليه من سوء الدار .

ثم رجع سبحانه فذكر مسألة خزان النار لأهل النار ، وتقريرهم لهم لما كان من فسقهم وكفرهم وإعراضهم عن ذكر ربهم فقال : ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ حكى قول الخزنة من الملائكة البررة ، للفاسقين المعذبين ، ومعنى ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ أي : ما أوجلكم وأدخلكم في سقر ، وهذا من الملائكة صلوات الله عليهم تقرير لأهل النار وتبكيك للفجرة الكفار ؛ لا أنهم جهلوا ما الذي سلكهم فيها وصيرهم من حكم الله إليها ، وكيف يجهلون ذلك ، وهم بحكم الله عارفون ، وبعده واثقون ، وبما سلك عباده في جهنم عالمون .

ثم ذكر سبحانه ما يكون من جواب أهل النار لهم فيما عنه سألوههم فقال: ﴿قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين﴾ أي : ندفع الزكاة ، فأقروا على أنفسهم بأنهم لم يكونوا يؤدون فرض الصلاة الواجبة ، وأنهم لم يكونوا يطعمون المسكين ومعنى ﴿نطعم المسكين﴾ أي : ندفع فرض الزكاة الواجبة التي جعلها الله للعالمين نجاة ، ثم قالوا :

﴿وكنّا نخوض مع الخائضين﴾ ومعنى ﴿وكنّا﴾ فهو : أي لم نزل ، ومعنى ﴿نخوض﴾ فهو : ندخل فيما دخلوا فيه ، ولم نزل على ما كانوا عليه ، والخائضون : فهم العاصون الداخلون في معاصي الله ، الخائضون فيما لا يرضى الله ، من قول أو فعل .

﴿وكنّا نكذب بيوم الدين﴾ فأقروا بما كانوا فيه في الدنيا من التكذيب بيوم الدين ومعنى ﴿نكذب﴾ فهو : نبطل ونجحد ولا نصدق ﴿بيوم الدين﴾ والدين : فهو الجزاء على ما كان من أفعالهم ، تقول العرب : فلان يدان بفعله ، أي يجزى بفعله وكذلك روي أنه مكتوب في التوراة "يا ابن آدم كما تدين تدان" أي كما تعطى تعطى ، ويوم الدين : فهو وقت الدين ، وهو اليوم الذي يجازى فيه العالمون ، ويحشر فيه المربوبون .

﴿حتى أتانا اليقين﴾ واليقين هاهنا : فهو الموت الذي وعدوا به ، ومعنى ﴿أتانا﴾ فهو واقعنا ونزل بنا .

ثم قال سبحانه : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ يقول جل جلاله : إنهم لو شفع فيهم لم تكن الشفاعة تنفعهم ﴿شفاعة الشافعين﴾ وإنما هذا تمثيل من الله وإعلام لعباده بكفرهم وعظيم جرمهم ، وذلك أن الشفاعة تنفع في موضع الأمر اليسير ، ولا تنفع في الموضع الذي فيه حكم من الله عليهم بالعقوبة ، لا أن أحدا من الأنبياء المرسلين ، ولا الملائكة المقربين صلوات الله عليهم يشفع لأحد من أهل الوعيد، حاش لله أن يكونوا كذلك ، أو يفعلوا شيئا من ذلك .

ثم قال سبحانه : ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ [يريد سبحانه : فما لهم كانوا

في الدنيا عن التذكرة معرضين] ومعنى ﴿ما لهم﴾ فهو : ما بالهم ، ومعنى ما بالهم : فهو أي شيء كانوا عن التذكرة معرضين ، والتذكرة : فهي ما ذكر الله لهم وقص عليهم ، وأخبرهم به على لسان نبيه عليه السلام مما يعاينونه في الحشر ويوم النشر مما كانوا به مكذبين ، وعنه للعبهم معرضين ، ومعرضون : فهم صادون تاركون .

ثم شبههم سبحانه بإعراضهم ونفروهم عن الحق الذي كان يتلى عليهم بالحرر المستنيرة فقال : ﴿كأنهم حرر مستنيرة فرت من قسورة﴾ والحرر : فهي هذه الحرر المعروفة ، والمستنيرة : فهي الفزعة المرعوبة ، ومعنى فرت : فهو هربت ، ومعنى قسورة : فهو الأسد ، فذكر الله سبحانه أن فرارهم عن الحق ، ونفورهم عن الصدق كنفور هذه الحمير من الأسد .

ثم قال سبحانه : ﴿بل يريد كل امرء منهم أن يؤتى صحفا منشرة﴾ ومعنى ﴿بل﴾ فهو قد ، و﴿يريد﴾ فهو يحب ﴿كل امرء﴾ فالمرء : هو الرجل ، يقول سبحانه ، يريد كل رجل منهم ﴿أن يؤتى صحفا منشرة﴾ ويؤتى : فهو ينزل عليه ويعطى ، والصحف : فهي الكتب المنشرة ، والكتب المنشرة : فهي المثبتة الميينة ، التي تنشر وتقرأ ويعرف ما فيها ويتلى ، فأخبر سبحانه أن جميع الفاسقين المكذبين إنما كذبوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله حسدا منهم له على ما آتاه ربه ، فكلهم يطلب ويتمنى أن يكون نبيا مرسلا ، وليس ذلك لهم ولا كرامة ، بل لله الأمر والقدرة والعظمة والعزة يعطي من يشاء نعمته ، ويؤتيه كرامته ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه :

﴿كلا بل لا يخافون الآخرة﴾ يريد بكلا : ليس تخافون ، فأخبر سبحانه أنهم لم يكونوا يخافون في الدنيا معادا ولا آخرة ، والآخرة هاهنا : فهو عذابها ونكالها .

ثم قال : ﴿كلا إنه تذكرة﴾ يقول : ليس هو بباطل ، ولكنه حق تذكرة ، فالتذكرة هي التنبية والتبصرة .

ثم قال : ﴿فمن شاء ذكره﴾ يريد ﴿من شاء﴾ أي من أراد ، ومعنى ﴿ذكره﴾ يقول : تذكرة فحافه ، وخشيته فحذره .

﴿وما تذكرون إلا أن يشاء الله﴾ يقول سبحانه : إنكم لم تكونوا تقدرُونَ على التذكرة ، والتفكرة والتمييز بين الحق والباطل لو أن الله لم يشأ أن يجعل فيكم استطاعة تناولون بها الفكرة والتمييز ، وعقولا تصلون بها إلى التذكرة ، ولكنه شاء ذلك لكم فركبه وجعله بمنه فيكم .

﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ معنى ﴿أهل﴾ أي : هو صاحب التقوى . ومعنى صاحب التقوى : فهو وليها والحقيق بها والمستحق لها ، والتقوى : فهي المخافة من الخلق والإتقاء ، و﴿المغفرة﴾ فهي : العيادة منه ، والرحمة على عباده بالعمو بعد الغضب ، وذلك ربنا الرحمن أهل البر والتقوى والمغفرة والإحسان .

تفسير المزمّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله سبحانه وجل عن كل شأن شأنه ﴿يا أيها المزمّل﴾ والمزمّل : فهو الملتحف بلحافه المتدثر في مضجعه ، والمزمّل معناها ومعنى المدثر سواء ، وهذا أمر من الله سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وآله ، وهو الذي كان مزملاً .

ثم قال سبحانه : ﴿قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه﴾ ومعنى ﴿قم الليل﴾ أي : قم لصلواتك المفروضة عليك في الليل ، ومعنى ﴿إلا قليلاً﴾ فهو دليل على وقت الصلاة ، يقول سبحانه : صلّ - إن كنت في أمر يعوقك عن صلاة العتمة إلى أن تدخل في الثلث الآخر - صلاة فرضك ، فإن ذلك وقت لها مع ما يكون من شاغل شغلك الذي يعوقك عن صلواتك .

ثم قال : ﴿نصفه أو انقص منه قليلاً﴾ يقول : أو دون النصف في أول الليل ، ثم قال : ﴿أو زد عليه﴾ يقول : أو زد على النصف إن لم يمكنك أن تصلي قبل انتصاف الليل فصلها بعد انتصافه ، وهذا فرحة من الله سبحانه لعباده ، ورخصة لمن شغله شاغل لا يجد منه بدا ولا مخلصاً ولا مندفعاً ، فأخير سبحانه أن آخر الليل ، وبعد نصفه ، وقبل نصفه - وقت لما افترض من صلاة أوله ، إذا كان المؤخر لها عن أول

الليل آخرها لعذر بين صحيح من مرض فادح ، أو عرض شاغل ، أو خوف ، أو هرب أو مصادفة عدو ، ولا يقدر على الصلاة مع مقارنته وخشية فتكه وغائلته ، فأخبر سبحانه أن هذه الأوقات من الليل كلها وقت لصلاة الليل المفروضة فيه . وسيأتي ذكر من رخص له في ذلك في آخر هذه السورة أن شاء الله .

ثم قال : ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ يقول : تبينه تبيناً .

﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ معنى ﴿إنا﴾ فهو نحن ، ومعنى ﴿نلقي عليك﴾ أي : نصير إليك ونفرض عليك ، ومعنى ﴿قولاً ثقيلاً﴾ هو : وحياً ثقيلاً ، والوحي : فهو القرآن ، ومعنى ﴿ثقيلاً﴾ أي : ثقل الحكم ، ومعنى ثقل الحكم : أي صعب المفترض ، وكيف لا يكون فرضه صعباً ! وحكمه على من حكم به مستصعباً ! وفيه ترك الشهوات ، ومفارقة اللذات ، والصبر على النازلات ! مع ما فيه من ثقل الصلاة والصيام على أهله ، ومشقة الحج على قاصده ، ومفارقة كفر الأجداد والآباء الجاهلية الجهلاء ، وغير ذلك من مثقلات الأشياء ، المحكوم بهن في هذا القول ، الذي نزل الواحد ذو الطول ، على خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله .

ثم أمره سبحانه أن يفرض ذلك كله على جميع المخلوقين ، ثم أخبره أن أداء فريضة الليل في أوله فهي أول أوقاته ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً﴾ ومعنى ﴿أشد وطأً وأقوم قيلاً﴾ فهو : أشد تمكناً لك عند ربك وأجراً ، ومعنى ﴿أقوم قيلاً﴾ فهي : أعدل طريقاً ، وأفضل فضلاً ، فخصه سبحانه على إقامة فرض صلاة الليل في أول وقتها ، وجعل له العذر بما ذكر من سائر الأوقات التي فسرنا إن عاقه أمر لم يجد عنه مدفعاً ، كما شرحنا .

ثم قال سبحانه : ﴿إن لك في النهار سبحة طويلاً﴾ يريد بذلك سبحانه بقوله : ﴿سبحة طويلاً﴾ أي : فراغاً كبيراً ، ووقتها يصلح لما تريد أن تشتغل به عن فرض صلاة ليلك في أوله ، حتى لا تؤخرها إلى آخره ، فنهاه صلى الله عليه وعلى آله بذلك عن تخليف صلاة العتمة إلى آخر الليل ، لشغل من أشغاله ، أو أمر من حوائجه التي يمكنه أن يفعلهن في النهار ، ولا يشتغل بهن عن الصلاة في أول الليل ، فلم يجعل

له عذرا في تأخير العشاء ، والعتمة عن ناشئة الليل ، وهي أوله بشيء من أشغال الدنيا وأجاز له ذلك إذا كان مريضا ، أو مصافا للعدو أو مسافرا ، أو غير واحد للماء وجعل سبحانه لما نزل به شيء من ذلك ما ذكر وحدد ، من تبعض الليل وقسمه وتمييزه وقتا فوجب على المؤمنين أن يميزوا بين الحالين ، ويقفوا على كلتا المنزلتين فيعملوا بهما في أوقاتهما ، ولا يجعلوا الحاليتين حالة واحدة سواء ، فإن الله سبحانه قد ميزهما ، ودل عليهما أهل علمه وفهمهما أهل المعرفة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةِ وَبِحِيٍّ مِنْ حِيٍّ عَنْ بَيْنَةِ وَإِنْ اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

ثم أمره بذكر ربه فقال : ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَغِ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ومعنى ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ فهو : اذكر ربك ، ومعنى اذكر ربك : فهو قدس وكبر وعظم ، ومعنى ﴿تَبْتَغِ﴾ فهو : تفرغ له ، وانقطع إليه ، واستسلم بكليتك في يديه ، وتفرغ لعبادته ونفاذ أمره ، وفي ذلك ما تقول العرب : فلان متبتل لله ، تريد : متفرغ لعبادة الله ^(١) لا يشرك في خدمته مع الله أحدا ، لا نفسا ولا والدا ولا ولدا ﴿تَبْتَغِ﴾ فمعناها انقطع إليه يا محمد بكليتك انقطاعا باتا ثابتا .

﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ فهو : مالك المشرق ومديره ، ومالك المغرب ومقدره ومصرف آياته ومغيره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يخبر سبحانه أنه لا إله غيره ، ولا رب سواه وأنه الواحد الذي ليس كمثله شيء ، وأنه الخالق لكل شيء ، وأن كل شيء مما يعبد من دونه العابدون فباطل لا ثبات له ، وأنه المعبود لا غيره ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ يقول : اجعله كافيا ؛ لأن الوكيل في لسان العرب هو الكافي ، فقال سبحانه : اجعل ربك لك كافيا ، واتكل عليه معينا وعاضدا .

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ معنى ﴿وَاصْبِرْ﴾ هو احتمل ولا تجزع ، واثبت عند الأذى ، ولا تهلع ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ معناها على ما يفترون ويكذبون ، ويقذفون ويصنعون .

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ يقول : اعتزلهم اعتزالا حسنا ، أي لا تقل كما يقولون

(١) - في الأصل : (تريد : أي متفرغ لعبادة الله) وقد حذفنا (أي) لأنها زائدة ، وكأنها نسختان

ولا تفحش كما يفحشون ، واعتزلهم وما يعبدون ، فامض لما أنت فيه من حكم ربك وأعرض عن الجاهلين .

ثم قال سبحانه : ﴿وذرنى والمكذبين﴾ ومعنى ﴿ذرنى﴾ أي دعني وإياهم ، وخلي وعقوبتهم ، وأفردني والإنقاذ من المكذبين ، والمكذبون : فهم المعطلون الكافرون المنكرون لكل ما جاء من رب العالمين .

﴿أولي النعمة﴾ فمعنى ﴿أولي﴾ أي هم أصحاب النعمة ، والنعمة فهي الملك والراحة والكفاية والتفكه ، يقول : هي النعمة التي أظهرتها عليهم وجعلتها حجة لي فيهم .

ثم قال : ﴿ومهلهم قليلا﴾ يقول سبحانه : أنظرهم قليلا ، حتى تثبت لك الحجة عليهم بما أريتك من الحجج البواهر فيهم ، وأريتهم من آياتي ، ثم من بعد ذلك آذن لك في السيف المسلول ، وأويدك من عبادي بأهل المعرفة والطول ، فتضع على المكذبين سيفك بأمرنا ، وتقتل من خالفك بتأييد ذكرنا ، وكذلك فعل سبحانه به وبهم في عاجل الدنيا .

ثم أخبر عز وجل بما أعد لهم من بعد ذلك في الآخرة التي تبقى فقال : ﴿إن لدينا أنكالا وجحيما﴾ ومعنى ﴿لدينا﴾ فهو عندنا ، ومعنى ﴿أنكالا﴾ فهو التنكيل بالأغلال والعذاب الويل ، ﴿وجحيما﴾ فهي النار ، ومعنى جحيم : فهي المحجمة لمن قاربها ، ومعنى محجمة : فهي الغالبة المهلكة من ذلك ما تقول العرب : أحجم فلان من فلان ، أي هرب منه ، وعجز عنه ، وتقول العرب : أحجم فلانا إذا غلبه وقهره فسمى الله سبحانه النار جحيما ، يلقي أهلها منها من الإحجام لهم ، والأمر العظيم النازل بهم .

﴿وطعاما ذا غصة﴾ فهو الزقوم ، الذي ذكر الله أمره ، والغصة : فهي الواقفة في الحلق ، يقول : لا ينزل ولا يخرج بل يُغصُّ به صاحبه ، ويقف في حلق آكله ، وهو أشد ما يكون على الأكلين إذا وقف طعامهم في حلقهم فلا ينحدر مستسفلا نازلا ولا يرتفع صعدا خارجا ، بل يكون غصة في الحلق ثابتة ، وبلية فيه نابذة ﴿وعذابا

أليما ﴿يقول : عذابا شديدا ، دائما عتيدا .

ثم قال سبحانه : ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾ وذلك اليوم فهو : يوم القيامة فأخير سبحانه أن هذا الطعام والعذاب يكون بأهله في يوم ترجف الأرض والجبال وذلك اليوم فهو : يوم القيامة ، وحين الحسرة والندامة ، ورجوف الأرض والجبال فهو : زعزعتها وحركتها ، لما يريد الله سبحانه من إهلاكهما وإذهابهما .

﴿وكانت الجبال كتيبا مهيلا﴾ يقول : صارت الجبال بعد ما هي عليه من انعقادها ، وبيس صخرها وحجارتها - كتيبا مهيلا ، والكتيب فهو الرمل ، والمهيل : فهو المنهال الذي لا يمكس بعضه بعضا ، فذكر سبحانه أن الجبال تصير بعد ما هي عليه منهالا رملا ، ثم تصير من بعد ذلك كالعهن المنفوش ، فناء وذهابا .

ثم احتج على هؤلاء المكذبين أصحاب القصة والعذاب الأليم بما أرسل إليهم من الرسل المكرمين فقال : ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا﴾ يريد سبحانه : أنا أرسلنا إليكم رسولا لتؤمنوا به وتتبعوه ، فكفرتم ولم تسلموا ، فكان شاهدا عليكم بفعله ، قاتلا بالحق غدا عليكم بحجته .

ثم أخبر أنه صلى الله عليه وعلى آله في التبليغ إليهم والأداء كموسى صلى الله عليه الذي هم به مقرون ، أنه كان رسولا إلى فرعون فأخبره أن سيبله عليه السلام كسبيل موسى عليه السلام في فرعون ، أنه ينزل بهم من العذاب على العصيان لحمد صلى الله عليه وآله ما نزل بفرعون في عصيانه لموسى عليه السلام ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذنا وبيل﴾ يقول : عذبناه عذابا وبيل ، والويل : فهو الشديد الثقيل .

ثم قال سبحانه : ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا﴾ يقول سبحانه : ﴿فكيف تتقون﴾ أي : كيف تعتذرون وتخافون وتتقون ربكم غدا في هذا اليوم الذي يشيب فيه الولدان ، فهو يوم القيامة ﴿إن كفرتم﴾ اليوم في دنياكم التي هي دار عمل وبلاء ، والآخرة دار ثواب جزاء ، يريد سبحانه بهذا القول أن من كفر في هذه الدنيا لم يكن ليؤمن في الآخرة ولا يجد إلى ذلك سبيلا ، فدلهم جل

جلاله عن أن يحويه قول أو يناله على أن العمل في الدنيا دون الآخرة ، وأن الآخرة دار الجزاء دون الدنيا فإنه لا عمل إلا في الدنيا ، وأنه من كفر في الدنيا لم يؤمن ويتق في الآخرة ، وهو اليوم الذي يجعل الولدان شيبا .

ومعنى ﴿يجعل الولدان شيبا﴾ لما ينزل بهم من هوله وعظيم ما يعاينون من أمره فتشيب رؤوسهم من فزعه ، وتشتطم من مدلهمات عجائبه .

﴿السماء منفطر به﴾ يقول سبحانه : إن السماء تنفطر فيه فقامت ﴿به﴾ مقام فيه ؛ لأنها من حروف الصفات ، وبعضها يخلف بعضا ، فأراد سبحانه أن السماء منفطر في ذلك اليوم الذي جعل الولدان شيبا ، وهو يوم القيامة ، وانفطارها فهو : ذهابها وتقطعها وانقضاؤها ، وقوله ﴿منفطر به﴾ فهي : لغة لبعض العرب تطرح الهاء من المؤنث ، فخرج الاسم مذكرا تدعو كل مؤنث مذكرا ، وهي في طبي خاصة ، ثم لغيرهم عامة ، ألا تسمع كيف يقول : ﴿كان وعده مفعولا﴾ يريد أن كل وعد وعد الله أو وعيد كفلق الصبح ، وكائن غير مخلف من انفطار السماء وعذاب المعذنين .

ثم قال : ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ يريد : أن هذه الأقاويل التي نقولها ، والوعد والوعيد الذي نشرحه هو تذكرة للعالمين ، وتنبية لجميع المخلوقين ﴿فمن شاء﴾ قبل ذلك وخافه فـ ﴿اتخذ إلى ربه﴾ قبل وقوعه ، أي قبل وقوع ذلك اليوم ﴿سبيلا﴾ والسبيل : فهي الوسيلة والطريق بما يكون منه من طاعة لربه ، في أيام حياته ، وقبل واقعة وفاته .

ثم رجع سبحانه إلى ذكر أوقات الصلاة المذكورة التي ذكرها في أول السورة فقال : ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾ فأخبر سبحانه أنه يعلم أوقات قيامه عند وقت ضرورته ، وعندما يكون منه ومن المؤمنين من الأمور التي تمنعهم من أداء الفرض في أول الليل من ذلك ما ذكر عنه صلى الله عليه وآله من صلاة العشاء والعتمة بمكة ، وقد غربت الشمس بسرف من بر الظهران ، وذلك لما فيه من شغل السفر ، ومعنى ﴿طائفة﴾ فهي : جماعة ﴿ومن معك﴾ وقوله : ﴿طائفة﴾ فهي : تدل على ما قلنا به من أوقات الصلاة لأهل العلات

لأنه قال: ﴿طائفة﴾ ولم يقل كل من معك ، فدل على أن من كان ذا مرض أو خوف أو ذا سفر ، أو حرب - معذور في تأخير صلاة أول الليل إلى بعضه .

ثم قال: ﴿والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم﴾ يريد ﴿تحصوه﴾ تثبتوا على وقت واحد ، وتحيطوا به دون سائر الأوقات ، فعلم سبحانه أنهم كلهم لن يقدرُوا على أداء الفرض في وقت واحد ، مع ما فيهم من العلات التي ذكرنا ووصفنا ، فمنهم عليل ومنهم مسافر ، ومنهم خائف ، ومنهم آمن ، فالآمن يصلي في أول الليل ، وطالب الماء يصلي إذا وجد الماء في أي أجزاء الليل وحده وخائف يصلي عند انقضاء خوفه في نصف الليل أو آخره ، ومريض يؤدي ما فرض الله عليه في وقت افاقته في آخر ليله ، وفي نصفه أو في أوله أو في ثلثه ، فهذا معنى قوله: ﴿أن لن تحصوه﴾ يقول سبحانه : علم أنكم كلكم لن تقدرُوا على إحضاء وقت واحد والثبوت عليه ، لما فيكم من هذه الأسباب العارضة لكم فيه .

ثم قال سبحانه: ﴿فتاب عليكم﴾ يقول : هون عليكم ورخص لكم ولم يجعل في ذلك عليكم حرجا ، ولم يلحظكم فيه إلى شدة من الملجأ فيكلفكم فوق طاقتكم في أن يجعل الوقت واحدا لصلاتكم فيكون في ذلك شدة واستقصاء ، على من كان في حالة واحدة مما ذكرنا من الشدة والبلاء .

ثم أمرهم سبحانه أن يقرأوا في صلاتهم ما تيسر من القرآن ، من قليل أو كثير على قدر طاقتهم ، وتصرف أحوالهم ، فجعل قليل القرآن مجزيا ، لمن كان لصلاته مؤديا ولم يشدد عليهم في شيء من أمورهم ، ولم يجرحهم في حدود دينه ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه فيما ذكرنا من حالات المصلين وألوان عليلهم حين يقول سبحانه : ﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾ فذكر ما ذكرنا من المرضى ، ثم قال: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ فذكر الذين شرحنا من المسافرين والضايرين في أرض الله المتوجهين ، ثم قال: ﴿وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ فذكر الذين ذكرناهم ، ووصف بالقتال الذين وصفناهم بالمصافة لعدو الرحمن والمحاربة لمن حارب الدين والقرآن ، فدل بذلك على أنه سبحانه لم يحمل أهل هذه الصفات على وقت واحد ، ولم يضيق عليهم في ذلك الواجد الماجد لما علم من

عجزهم مع ما هم فيه من شغلهم عن مشايرتهم عن وقت واحد ، دون غيره من أوقات الليل الموقنات اللواتي في هذه السورة مذكورات موصوفات .

وإنما موضع ذكر ما ذكر الله من قوله : ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مقدم غير أنه أخره إلى هاهنا ، وموضعه في أول السورة ، معناه : ﴿يَا أَيُّهَا الزَّمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ .. ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهاهنا موضع ذكر الأحرف ؛ لأنه سبحانه جعل ما جعل من الرخصة في هذه الأوقات لصلاة فريضة الليل من العشاء والعتمة ، فسمى هذه الأوقات من الليل لمن كان من المرضى والمسافر والمجاهدين ، وكذلك من لم يجد ماء إلى بعض هذه الأوقات ، وكذلك المغمى عليه والخائف والمشغول بأمر عظيم من أمر الله يخشى من تركه بعض الفساد على الإسلام ، ويرجو تنفيذه وأثرته بنجاحا في صلاح الإسلام ، ولا ينبغي لصحيح سوي سالم مما ذكرنا أن يخلف صلاة العشاء والعتمة عن ناشئة الليل التي ذكر الله فضلها وجعلها وقتا لصلاة أهل السلامة من هذه الأشياء .

ثم رجع إلى ذكر التيسير عليهم وترك التعسير في شيء من فروضهم فقال سبحانه وجل عن كل شأن شأنه : ﴿فَاقْرَأُوا مَا تيسر مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فأمرهم بأن يقرأوا ما تيسر من القرآن لهم ، وأن يقيموا ما افترض من صلاتهم عليهم . ومعنى ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فهو : أقيموا حدودها وأوقاتها ، وأتموا ركوعها وسجودها وما أمر الله سبحانه فيها من قراءة القرآن ، وذكر الرحمن من تسبيح وتكبير وتهليل وتوقير ، فمن أدى هذه الشروط في الصلوات فقد أقام ما أمر الله به من حدودها المفروضات ، ومعنى ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فهو : أدوا الزكاة ، وادفعوها إلى أهلها وسلموها ، ومعنى الزكاة : فهو ما جعل الله من أداء عفو أموالهم ، فسمى الله ذلك وإخراجه منهم تركية وتطهرة لهم ، فجعل من أدى ذلك زاكيا ، وسماه لماله مزكيا وإنما سمي ذلك زكاة ؛ لأنه يزكي الأبدان ، وتزكية الأبدان : فهو تطهرتها من الغلول

والعصيان ، وما نهى الله من حبسها جميع كل إنسان ، فكان تسليمها لله طاعة وكانت طاعة الله في ذلك تزكية لمن فعله ، وتطهرة .

ثم قال سبحانه : ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ومعنى قوله : ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ فهو : أسلفوا الله ، أي : افعلوا لله ما تثابون عليه ، وتعطون من الثواب الجزيل فيه وإنما سماه الله قرضا وسلفا ؛ لما أن كان سبحانه لمن فعل ذلك مجازيا ، فجاز أن يسميه سلفا وقرضا ؛ إذ كان منه الجزاء لفاعله حكما وفرضا ، فشبهه بالسلف الذي لا يد من قضائه ، وتسليم مثله إلى صاحبه وإعطائه ، فعلى هذا جاز أن يسمى ما تقرب به إليه سلفا ؛ إذ كان بالمجازاة لهم عليه مرصدا ومضاعفا ، وكان حكمه بالمكافأة لهم في ذلك ماضيا .

ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقول سبحانه : ما تعطوا وتخرجوا وتنفقوا في سبيل الله وتسلفوا تجدوا عند الله ثوابه والمكافأة عليه ، والمجازاة منه سبحانه فيه ، ألا ترى كيف يقول سبحانه : ﴿لَأَنْفُسِكُمْ﴾ فأخبر عز وجل أن جزاء ذلك أن لا يكون لغيرهم ، وأن منفعة ما ينفقون في أمر الله لا يكون إلا لهم ، وأنهم سيجدون ثواب ذلك وأجره عند الله موفرا لهم . والخير الذي قال الله : ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ يعني بقوله : ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ أي تقدمته لأنفسكم إلى الله خير من إمساكه عن الإنفاق في طاعة الله ﴿وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ يقول : أحسن ثوابا في عاقبته لكم وأجزل حظا فيما ترجون من عائده عليكم

ثم قال سبحانه : ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأمر الخلق بالإستغفار لله ومعنى ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾ فهو توبوا وارجعوا ، وهو أمر من الله الغفار بإخلاص التوبة إلى ذي الجلال والإكرام بالقول والعمل ، لا بالقول دون العمل ، فبين لهم سبحانه أن الإستغفار لا يكون بالقول المقول دون العمل المعمول ، وأنه بالعمل والقول ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول : إن الله تواب على من تاب ، غفور لمن أناب ، رحيم لمن راجع وأجاب ثم رجع ، وعن المعاصي لله سبحانه نزع ، وأمره سبحانه في كل حال اتبع كما قال سبحانه : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾

تفسير سورة قل أوحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿قل أوحى إلي﴾ معنى ﴿قل﴾ أي: خبر واذكر ﴿أوحى إلي﴾ أي: انزل علي وأخبرت ﴿أنه استمع﴾ أي: حضر واستمع قولي وقراءتي ﴿نفر من الجن﴾ فهي: جماعة من الجن، والجن: فهم الشياطين ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾ معنى ﴿فقالوا﴾ أي: ذكروا وأخبروا، ومعنى ﴿إنا﴾ هو: إخبار عما كانوا معهم، ومعنى ﴿سمعنا﴾ أي: وقع في آذاننا كلام وسمعناه ﴿قرآنا﴾ فهو: كتاب الله الذي سمعت الجن من رسول الله ﴿عجبا﴾ أي: جيدا محكما بين الهدى.

﴿يهدي إلي الرشدا﴾ يقول: يدل بها على الرشدا ويوضحه ويبينه ويشرحه ﴿فأمانا به﴾ يقول: صدقنا به أنه من عند ربنا، وأن الذي جاء به نبينا ﴿ولن نشرك بربنا أحدا﴾ يريدون: فلن نشرك، أي: لا نكفر بربنا، ولا نشركه معه في طاعته ولا العمل إلا له خالصا، ومعنى أحد: أي يقول خلقا صغيرا ولا كبيرا.

﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ فمعنى ﴿تعالى﴾ هو: تقلس وعلا وعظم عن مشابهة شيء من الأشياء، ومعنى ﴿جد ربنا﴾ أي: أمر ربنا وفعله، يقول: تعالى أمره وعظم شأنه، ومعنى ﴿ربنا﴾ هو: مالكننا وخالقنا.

﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولدا﴾ فهو: إقرار من الجن بتوحيد الله سبحانه، وشهادة منهم أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ومعنى ﴿اتخذ﴾ فهو: جعل وأعد، ومعنى ﴿صاحبة﴾ فهي: الزوجة التي يسكن الزوج إليها، ويتنفع في كل الحالات بها والولد: فهو الذي يخرج من الأب ومن الزوجة معا.

فأخبر الله سبحانه عن مؤمني الجن بما شهدوا به من شهادة الحق، وما قالوا به في

الله من قول الصدق ، ومن أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وكيف يتخذ جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله ، وتعالى عن قول المبطلين شأنه - صاحبة أو ولدا ، وإنما يحتاج إلى صاحبة المجهول المؤلف ، المتولد الذي كان من صاحبة والوالد ، فأما من لم يكن من صاحبة ولا والد فلن يكون له صاحبة ولا ولد ، بل هو الواحد الدائم الأحد الفرد القدوس ، القديم الصمد الذي لا يشبهه أحد ، ولا يغيره الأبد ، فذلك الله الواحد الفرد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

[سبب النزول]

وهذا القول كان من الجن لما أن سمعوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يقرأ القرآن في صلاة الصبح يوما من الأيام ، وذلك أن الله سبحانه صرف إليه نفرا من الجن استمعوا ما يتلو ؛ فيؤدوه إلى جميع الجن ليكون ذلك دعوة منه لهم ، واحتجاجا منه عليهم ، وذلك قوله سبحانه : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ﴾ ^(١) فأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما أن سمعوا ما يتلو من كتاب الله ، قالوا ما ذكر الله من هذا القول ، والإيمان به والتصديق له ، والإقرار برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ فقبلوا ذلك بأحسن قبول يكون من القابلين ، ثم تولوا إلى قومهم منذرين .

ثم كان من إقرارهم على سفهائهم الجاحدين به بحجج نبئهم بالكفران والشطط والعصيان ، وذلك قولهم : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ .

ومعنى ﴿كَانَ يَقُولُ﴾ أي : لم يزل يقول ﴿سَفِيهًا﴾ فهو : كافرنا ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ فهو : كذبا وزورا وباطلا وأمرا جسيما جليلا ؛ لأن الشطط في كل معنى هو : الأمر الصعب العظيم .

﴿وَأَنَا ظَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ومعنى ﴿ظَنَّا﴾ : أيقنا . ومعنى ﴿أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي : أن شرار الإنس والجن يقولون على الله الكذب ، ولن هاهنا حشو وتزيين للكلام .

﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾ فهذا إخبار من الله عز وجل عن كان من الإنس يعوذون بالجن ، ومعنى ﴿يعوذون﴾ فهو : يلوذون ويستجيرون ﴿فزادوهم رهقا﴾ أي : فزادوهم أثما وبلاء ، ولم يتفعوهم في شيء من الأشياء التي طلبوا منفعتهم فيها ، ليزدادوا بفعلهم رهقا ، والرهق : فهو ما ذكرنا من الإثم عند الله والضرر ، وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا نزلوا واديا ، أو فضاء من الأرض ، في جمعة أو سفر ، قالوا عند وقت نزولهم وحطهم لرحالهم : إنا نعوذ بكبراء أهل هذا الوادي ، وسكانه من الجن ، من شر شرارهم فكانوا كذلك فيعوذون بالجن ، ويتركون التعوذ بالله ، فأخبر الله سبحانه أن ذلك يزيدهم إثما وبلاء وجرما ، ولا يرون به منفعة ولا رخاء^(١).

ومعنى ﴿فزادوهم رهقا﴾ أي زادوهم بتعوذهم إثما وبلاء .

﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا﴾ معنى ﴿وأنهم ظنوا﴾ فهم : سفهاء الجن كانوا يظنون كما يظن أهل الجاهلية من الإنس ﴿أن لن يبعث الله أحدا﴾ أي : أن لن يبعث الله رسولا إليهم ، فكانوا في الإنكار للرسل هم وسفهاء الإنس سواء ، حتى جاءهم من الله البيان ، ووضح لهم الحق بأوضح البرهان . ومعنى ﴿يبعث﴾ فهو : يرسل رسولا يحتاج بحجته ، ويدعو الثقيلين إلى طاعته .

﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا﴾ فمعنى ﴿لمسنا السماء﴾ أي : حسسناها واستخيرنا خيرها ، وجاورناها ؛ لنعلم خير أمرها ما هذا الذي حدث فيها ؟ ﴿فوجدناها﴾ أي : وجدنا من أمرها وخيرها أنها ﴿ملئت حرسا﴾ ومعنى ﴿ملئت﴾ أي : جعل فيها كلها حتى أحصيت ، والحرس : فهم الملائكة صلوات الله عليهم ، الذين يحرسون مقاعد السماء وأقطارها من مردة الجن وشياطينهم ؛ لكي لا يأخذوا شيئا من أخبارها ، ومعنى ﴿شديدا﴾ فهو : قويا حافظا ﴿شهباً﴾ فمعناها : نجوما متوقدة ، جعلت لهم رجوما ، وإنما سميت شهباً لتوقدها وتلهبها ، فشبهت بالنار في توقدها ، وهذه النجوم فلم يكن يرمى بها من قبل مبعث

(١) - في الأصل : ولا يرون به منفعة ولا رخاء ، ويمكن أن يكون اللفظ (ولا يرون به منفعة ولا رجاء) .

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، فلما بعث رسول الله - صلى الله عليه وآله وتنبأ ونزل عليه من الله الوحي - حرس السماء ممن كان يقعد من مردة الشياطين في مقاعدها ، وتسمع أخبار ملائكتها فتنزل به إلى إخوانهم من كهنة الأرض ، فأراد الله تبارك وتعالى أن يبطل أخبار الكهنة ؛ حتى لا يعلم أحد من أهل الأرض شيئا من أخبار السماء ، فمنع سبحانه الشياطين من استراق السمع بهذه الشهب التي تقذفهم الملائكة بها ، التي حرسها سبحانه عليهم وأمرها بهم ، كرامة منه لنبيه صلى الله عليه وعلى آله ، وحيطة لوحيه ؛ فلا ينزل إلى الأرض من علم السماء شيء إلا على لسان نبيه صلى الله عليه وعلى آله ، وقد كانت الشياطين تسترق من أخبار الملائكة وتخابرها بينها بما يأتيها من الله ربها من أمره لها بما يكون من سقي البلاد وغيره من أخبار ما يأمر الله به ملائكته تتخابر به الملائكة بينها في السماء الدنيا ، فتسترقه مردة الشياطين ، وتنزل به إلى كهنة الأرض ، فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله نبيه صلى الله عليه وعلى آله فحجبت الشياطين عما كانت عليه بهذه النجوم ، التي تقذفها بها عند طلبها ما كانت عليه من استماعها ، ألا تسمع كيف قالت الجن عند ذلك : ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعِدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصْدًا﴾ فأخبر أنها كانت تقعد من السماء مقاعد ، والمقاعد : فهي المواضع التي يصعد فيها من يقعد فيها للإستماع ، ثم قال : ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصْدًا﴾ يريد : فمن يقعد الآن للإستماع يجد له شهابا رصدا ، يقول : يجد له نجما منها ﴿رَصْدًا﴾ أي : مستعدا ، فيقذف به عندما يكون من مداناته .

ثم قالوا عندما عاينوا من تلك الشهب المستعدة لهم ، الراصدة لمن طمع بالإستماع بعد مبعث محمد صلى الله عليه وعلى آله منهم ؛ فقالوا : ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا﴾ يقولون : لا ندري أهذا الذي حدث من أمر الله الشر يريد أن يجعله في الأرض يهلك به أهلها ؟ أم لرشد ينزله فيها فيفضل به على سكانها ؟ والشر : فهو العذاب والبلاء . والرشد : فهو الخير والرحمة والهدى .

ولعمري لقد جعل الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في الأرض كل هدى ، وكل خير ورخاء .

ثم رجع الخير إلى قول النفر الذين صرفوا من الجن إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله فاستمعوا منه ، وذهبوا إلى قومهم منذرين ، فحكى قولهم وهو قوله : ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ فَأَخْبِرُوا أَنَّ مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ^(١) والصالحون : فهم المؤمنون ، وَأَنَّ مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ يَقُولُ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ كَانَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

ثم أخبر سبحانه عن أنفسهم أنهم في الاختلاف طرائق قددا ، والطرائق : فهي الألوان المختلفة ، والأشياء التي هي غير مؤتلفة ، فَأَخْبِرُوا أَنَّهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَالطَّاعَةِ لَهُ ، فَمِنْهُمْ : الْمُؤْمِنُ التَّقِيُّ ، وَمِنْهُمْ : الْمُنَافِقُ الرَّدِيُّ ، وَمِنْهُمْ : الْكَافِرُ الْغَوِيُّ . وَقَدَدًا فَمَعْنَاهَا : بَدَا ، وَمَعْنَى بَدَا : أَيِ شُعُوبًا فَرَقًا .

﴿وَأَنَا ظَنْنَا أَنَّ لَنْ نَعْجِزَ اللَّهَ﴾ فَمَعْنَى ﴿ظَنَّنَا﴾ أَيِ أَيقْنَا ﴿أَنَّ لَنْ نَعْجِزَ﴾ ثَبَّتْ هَاهُنَا لَنْ ، وَلَمْ تَثْبِتْ فِي قَوْلِهِ : ﴿أَنَّ لَنْ تَقُولُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أَرَادُوا أَنَّهُمْ مُوقِنُونَ أَنَّهُمْ لَنْ يَعْجِزُوا اللَّهَ فِي الْأَرْضِ إِنْ اسْتَتَرُوا بِهَا وَكَانُوا تَحْتَهَا ، وَفِي أَكْنَافِهَا ، وَأَنَّهُمْ لَنْ يَعْجِزُوهُ هَرَبًا إِنْ ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ هَارِبِينَ ، وَمَنْ خَافَتْهُ طَائِرِينَ فَأَقْرُوا بِقَوْلِهِمْ مَا قَالُوا مِنْ ذَلِكَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُ لَا مَهْرَبَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَنْ يَعْجِزَ اللَّهُ أَحَدًا مِمَّنْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ ، لَا مِنْ مَقِيمٍ وَلَا مِنْ ذَاهِبٍ عَلَى وَجْهِهِ هَرَبًا .

ثم أخبر بما كان منهم من القبول للهدى فقال : ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ وَالْهُدَى الَّذِي أَخْبِرُوا أَنَّهُمْ سَمِعُوهُ : فَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي قَبِلُوهُ ، وَمَعْنَى ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ فَهُوَ : صَدَقْنَا بِهِ ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يَقُولُ : يَصْدُقُ بِقَوْلِ رَبِّهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ فَقَدْ آمَنَ بِهِ حَقَّ إِيمَانِهِ .

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يَقُولُ : لَا يَخَافُ مَعَ إِيمَانِهِ بَخْسًا ، وَالْبَخْسُ : فَهُوَ نَقْصَانُ الثَّوَابِ ، وَنَقْصُ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِلْمُحْسِنِينَ عَلَى إِحْسَانِهِمْ ، وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا

(١) - فِي الْأَصْلِ (فَأَخْبِرُوا أَنَّ مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ) وَلَكِنْ هِيَ اسْمُ مَنْ هُوَ مُنْصَوِّبٌ عَلَى مَا أَتَيْتَاهُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْأَصْلَ صَحِيحٌ ، وَأَنَّهُ أَرَادَ حِكَايَةَ مَا فِي الْآيَةِ .

رهقا» يريد : ولا يخاف من الله إرهابا بعذاب ، ولا حكما عليه بإثم ، في شيء من الأسباب .

ثم قال : ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ﴾ فأخبر مؤمنوا الجن أن منهم المسلمون في دينهم ، ومنهم القاسطون في فعلهم ، فأما المسلمون : فهم المستسلمون لأمر الله القابلون له . وأما القاسطون فمعناها : العادلون بالله غيره ، والعادلون فمعناها : العابدون معه سواه ، والمطيعون غيره ، والعاصون له ، ومن العادلين المشبهون له ، ومن العادلين المحورون له الذين عدلوا بغيره ، ومعنى عدلوه : أي شبهوه ومثله بخلقه .

ثم أخبر مؤمنوا الجن بما أخبرهم الله تصديقا لوعده ووعيده فقال : ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحْرُوكُوا رَشْدًا﴾ يريد : أي فعلوا صوابا وقبلوا هدى .

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ يقول : صاروا بفعلهم وقودا لجهنم وحطبا لها ، أي تحرقهم وتوقد بهم ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه : ﴿نَارًا وَقُودًا مِنَ النَّاسِ وَالْحِجَارَةِ﴾^(١) .

ثم انقضى قول مؤمني الجن ، ورجع القول والخبر إلى الله ذي القدرة والطول ، ثم قال سبحانه وجل عن كل شأن شأنه : ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ يعني بالاستقامة بني آدم ، يقول سبحانه : لو استقاموا على الطاعة لنا والطريقة : هي الأمر الذي افترضه الله عليهم ، والطريق التي عليها أوقفهم من طاعته وعبادته ﴿لَأَسْقِينَهُمْ﴾ يقول : أنزلنا عليهم من السماء ﴿مَاءً غَدَقًا﴾ والغدق : فهو الكثير .

ثم قال : ﴿لَنُفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ وبه فننظر شكرهم لنا عليه ، أو كفرهم لنعمنا فيه ، فأخبر أنهم لو كانوا على الحق ولزموه لرأوا من نعم الله ما لن يحصون ، وأنزل عليهم من الماء ما يحيي به بلادهم ، وتكثر به ثمارهم ، ويزيد في أموالهم ، ويوسع عليهم نعمهم ويشبع بطونهم ، كما قال سبحانه في غير هذه السورة : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا

واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴿١﴾ فأخبر سبحانه أنه ليس بين عباده وبين كراماته إلا ما هم عليه من معاصيه ، والأثرة لما لا يرضيه .

ثم قال : ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعبا﴾ ومعنى ﴿يعرض﴾ عن ذكر ربه : هو يترك ذكر ربه ، ومعنى ذكر ربه فهو خوف ربه وطاعته ﴿نسلكه عذابا﴾ أي ندخله فيه ، وكذلك تقول العرب اسلك موضع كذا وكذا أي أدخل فيه وأمضه ، وتقول : اسلك الخيط في الإبرة ، أي : أدخل الخيط في الإبرة .

وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى لموسى : ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج يضاء من غير سوء﴾^(١) يريد : أدخلها جيبك ثم أخرجها ، ومعنى ﴿صعبا﴾ فهو : التعب الشديد ، فشبه الله سبحانه هذا العذاب مع غيره من العذاب بالصعد مع السهل على من سلكهما ، والصعد فهو : التصعيد في الجبل الشامخ الصعب المنتصب .

ثم قال سبحانه : ﴿وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا﴾ فأخبر عز وجل أن بيوت الله ومساجده لله تبنى ، وعلى طاعته تبتدأ . ثم نهاهم أن يدعوا فيها غيره ومعنى ﴿تدعوا﴾ فهو : تذكر وتعبد ، فأمره الله بتوحيده وإخلاص العبادة له ، وأمره له صلى الله عليه وآله فهو أمر لجميع الأمة ، أمرهم الله أن يكونوا له في العبادة كذلك ، وأن لا يفعلوا كما يفعل أهل الكفر والمهالك ، من اليهود والنصارى الذين يشركون مع الله غيره عند اجتماعهم في كنائسهم وبيعهم وأعيادهم وعبادتهم بزعمهم - لعنهم الله - لربهم ، ويدخلون في تلك الكنائس والبيع عبادة غير الله وذكرهم المسيح والعزير ، وغير ذلك مما يأتون به ، ويذكرونه في مواضعهم هذه من كفرهم .

ثم ذكر ما يكون من الكفرة الفاسقين المحاربين لله ولرسوله عليه السلام ، المعاندين عند قيام رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد الله يدعوا الله ويوحده ، وينفي

(١) - الأعراف : ٩٦

(٢) - القصص : ٣٢

عنه كل ظلم وينزعه ، من الإجماع عليه بالقبيح من فعلهم ، وما كادوه به من كيدهم حتى صرف الله ذلك عنه ، وسلمه برحمته صلى الله عليه وآله منه ، فقال عز وجل مخبرا بمنته على عبده فقال : ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾ يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لما قام يدعوا الله ويوحده - كاد مشركوا قریش أن يكونوا عليه لبدا ، ومعنى ﴿كادوا﴾ فهو : أرادوا وهموا ، ولم يفعلوا إذ لم يقدرُوا ، و﴿يكونون عليه لبدا﴾ أي : فهم يغشونه جميعا معا حتى يقعوا بأنفسهم عليه ، ويبلغوا ما أملوا فيه من الهلكة ، التي صرف الله سبحانه عن نبيته تلفها ، ومنعهم بعزته بلوغها ، وذلك من قریش وغيرهم ممن تبعهم كفرا بالله وحسدا لرسول الله صلى الله عليه وآله ، فأرادوا أن يرموه بأنفسهم معا ؛ لأن يجتثوه من الأرض اجتثاثا ؛ فيستأصلوا شأفته صلى الله عليه وعلى آله استصلا غضبا عليه في طاعة الله ، ومشاقة وكفرا منهم بالله .

وقد قال غيرنا : إن الذين كادوا يكونون عليه لبدا - هم مؤمنوا الجن الذين استمعوا القرآن فكادوا يغشونه ، ويطؤونه محبة منهم له وليس ذلك يصح في البيان وليس هم إلا من ذكرنا من مشركي الإنسان ، ألا تسمع كيف قال لهم إنكارا منه لفعلهم الذي كادوا أن يكون منهم : ﴿قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا﴾ فدل هذا من قوله على أنه جواب واحتجاج على كل منكر عليه في فعله ، زارٍ عليه في دعاء ربه ، فاحتج عليهم بما تسمع ، وليس هذا جواب يصلح أن يكون لمن صدقه وآمن به واتبعه ، وهذا فلا يغبي عند قراءة الآية على ذي معرفة وعقل وتبصرة وتمييز بين الأمور ، ووقوف على الخير والشرور .

وقوله : ﴿أدعو ربي﴾ أي : أسأله وأخلص الديانة له ، وقوله : ﴿ولا أشرك به أحدا﴾ يريد : لا أشرك به في دعائي وتعبدني له أحدا ﴿ألا﴾ معناها : لا أقدر لكم أيها المنكرون عليّ في عبادة ربي ﴿ضرا ولا رشدا﴾ يقول : لو كنت أملك لكم ضرا لضررتكم ، ولكن الضار المرشد الذي هو ربكم وربّي ، ثم قال : ﴿قل إني لن يجيرني

من الله أحد ﴿ يقول : لو عَدَدْتُ عن دينه وأطعت غيره لم أجد من دونه من يجبرني منه ، فكيف أعدل عنه كما عدلتم ؟ ! إذا هلك كما هلكتم ﴾ ولن أجد من دونه ملتحدا ﴿ يقول : إذا لم أكن أجد من دونه ملجأ ولا مفراً ولا ملتحدا ألتحد فيه : ومعنى ﴿ ملتحدا ﴾ فهو : موضعا ومستندا ومكانا يلجأ إليه من عند .

من ذلك ما تقول العرب : الحد للحد للميت . أي اجعل له موضعا يلجأ إليه وينحجز عن متراكم التراب فيه ، أي ينحاز عن التراب إليه ويهرب منه فيه ، ويتحجز به عنه ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ ^(١) فقال : ﴿ يلحدون إليه ﴾ يريد : يسندون إليه ، ويزعمون أن محمدا مسند إليه متعلم منه ، ملتجئ إليه في أمره .

ثم قال سبحانه : ﴿ إلا بلاغا من الله ورسالاته ﴾ يريد : سبحانه أنك لا تجد ملتحدا ولا ملجأ من الله ، ولا مخلصا يخلصك من عذابه ﴿ إلا بلاغا من الله ورسالاته ﴾ يريد بقوله : ﴿ بلاغا ﴾ إلا تبليغك عن الله رسالاته ، وصبرا على أمره ، ومضيا على طاعته واصطبارا على حكمه ، فإن هذه الأشياء هي البلاغ من الله إذا فعلته فهو المجير لك من عذاب الله ، والملتحذ : الذي يلتحد إليه ويلجأ من أمر الله ، وينجى من عذابه ولن ينجيك غير طاعة الله من عذابه .

ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ فأخبر سبحانه أن من يعص الله ورسوله فإن الله قد جعل مأواه جهنم ، ومعنى ﴿ له نار جهنم ﴾ أي أنها له قرار ومنزل ، ومعنى ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ أي فهم مقيمون فيها أبدا ، ومعنى ﴿ أبدا ﴾ فهو دائم سرمد لا غاية له ولا أمد

﴿ حتى إذا رآوا ما يوعدون ﴾ يقول : حتى إذا عاينوا وأبصروا ما كانوا يوعدون من الوعيد الذي كانوا به يكذبون وهو العقاب والحساب الذي به يجزون .

ثم قال : ﴿ فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ﴾ يقول سبحانه : ﴿ فسيعلمون ﴾ أي : فسيرون ويصرون ويوقتون ويعرفون ﴿ من أضعف ناصرا ﴾

أهم أم محمد صلى الله عليه وعلى آله ؛ لأن ناصرهم الشيطان ، وناصر محمد الرحمن فهذا تقرير من الله لهم ، وتبكيه بضعفهم ، وضعف ناصرهم ، وإعلام منه أنهم لما يعبدوا من ينفعهم ويطيعوا^(١) من يضرهم إن أراد ضررهم ، وأنهم إنما يعبدون من هو أضعف منهم ممن عبده من دون ربهم ﴿وَأَقْلَ عَدَدًا﴾ يقول : أقل عاصدا له ، وقائما معه ، وكارها لما كره ، وساخطا لما سخط ، أحمد صلى الله عليه وعلى آله أقل مواليا أم أنتم ؟ ومحمد صلى الله عليه وآله فالمولون له الملائكة المقربون ، وجميع المؤمنين من الثقلين .

وقد يحتمل أن يكون معنى الآية مثلا ضربه الله لهم ، يخبرهم فيه أنه تبارك وتعالى أقوى على نصر أوليائه منهم على نصر أوليائهم ، وقوله : ﴿أَقْلَ عَدَدًا﴾ يريد أقل جندا وأولياء وطاعة وخدما ، وأنفذ أمرا في كل ما أراد وشاء تبارك وتعالى .

ثم قال سبحانه : ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ رَبِّي أَمْدًا﴾ فأمره سبحانه أن يقول لهم : إنه لا يدري متى يوم القيامة ، ولاكم بقي من الدهر إليها ولا متى يكون ذلك اليوم الذي يوعدون فيه ما يوعدون ، من العذاب الأليم ، والخلود في الهوان المقيم ، أراد بذلك إعلامهم أن العلم لله وعنده ، وأنه لا يعرف أمد ذلك اليوم ولا وقته ، ومعنى قوله : ﴿إِنْ أَدْرِي﴾ أي أعلم . ومعنى ﴿أَقْرَبُ﴾ أي : أذن ما توعدون ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمْدًا﴾ يقول : أم يُطَوِّلُ ربي أمده ، ويُعَدِّدُ كَيُونَتَهُ وَجَيَّتَهُ ، عِلْمُ ذَلِكَ كله عند الله لا يعلمه سواه . ومعنى ﴿أَمْدًا﴾ فهو : طولاً وإنساء وتأخيراً ، إلى أي الأوقات شاء .

﴿عَالَمُ الْغَيْبِ﴾ والغيب : هو ما غاب واستتر واستجن فلم يظهر ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ يقول : لا يطلع على ما عنده من العلم أحدا ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ يقول : إلا من اختار لوعده وغيبه وتبليغ رسالاته ، فإنه يطلع ذلك الذي يختاره على ما يشاء من علم غيبه ، وما يعلمه من أسباب خلقه .

(١) - في الأصل النسخة (أ) وأنهم لما يعبدون من ينفعهم ، ويطيعون من يضرهم (ولما كانت لما من الجوازم كقوله تعالى : ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضُ مَا أَمْرُهُ﴾ حذفنا نون الرفع . والمعنى أنهم إلى الآن لم يعبدوا الله ويطيعوه .

﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا﴾ يقول سبحانه : يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظون أمره ، وهم الذين قال الله سبحانه : ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾^(١) فليس رسول مرسل ، ولا عامل يعمل - إلا وعن يمينه وعن يساره من يحفظ عليه من بين يديه ومن خلفه ما عمل ، ويحصى عليه ما فعل ، وكذلك أخبر الله سبحانه أنه يجعل من بين يدي من ارتضى من خلقه حفظة يحفظون عليه ويشهدون له بالفلاح والنجاح ، والأداء والنصيحة . ومعنى ﴿رصدا﴾ أي : فهم يحفظون حفظا ، ويتتبعون ما يكون من فعله ، ويتربصون ما يأتي منه من التبليغ والصبر والإجتهاد ، ليشهدوا له بذلك في يوم المعاد .

وقد يمكن ويكون - والله أعلم وأحكم - أن يكون معنى قوله : ﴿يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا﴾ فهو : جعل من الله مع من ارتضى ، من التوفيق والتسديد والمعونة والتأييد - ما يحفظه الله به من الزلل والخطأ ، وغير ذلك من الأعداء ؛ فيكون شبه ما جعل معهم من التوفيق والتسديد بالراصد لمن يرصد من حفظة العبيد ، بل يكون ذلك من الله حفظا هو أحوط من الراصد المتحفظ ، وضرب لهم هذا مثلا يينا ليعلموا ما حفظ الله لمن اختار من خلقه وتبأ .

﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ يقول سبحانه : ليكون منهم في التبليغ أمر وصبر وحزم وفعل ، يعلم الله أنهم قد فعلوا وصبروا عليه وصمموا فيه ، من تبليغ رسالات ربهم إلى خلقه ، فيقع علمه بأنهم قد فعلوا ، ويكون فعلهم نافذا بما أمروا فهذا معنى ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ .

﴿وأحاط بما لديهم﴾ فأخبار منه سبحانه أنه محيط بما لديهم ، ومعنى أحاط فهو : علم وأحصى ، ومعنى ﴿لديهم﴾ فهو : عندهم ﴿وأحصى كل شيء﴾ فمعنى أحصى هو : أحاط وحفظ كل شيء يكون من الأشياء التي لا يؤوده حفظها .

ومعنى ﴿عنددا﴾ فهو : أحصى لكل شيء ، وأحاط به على وجهه حتى يكون كل شيء مثبنا عنده حرفا حرفا ، كما ثبت العدد في يد العاد تثبينا ، ويعقده بيده

واحدا واحدا ، فأخبر سبحانه أنه محيط بما عند رسله عالم به ، وعند غير رسله ، وأنه مُحْصٍ لكل شيء يدركه من الأشياء ، فإحاطته بها كما يكون إحاطة من حسب شيئا لما يحسبه ويبينه ، ويعقده في يده ويعرفه ، فمثل لهم سبحانه حفظه بعدد الأشياء ومعانيها بما يعرفون من حفظ ما عُقِدَ باليد وحُسِبَ ؛ لأن أحفظ ما يحفظون ، وأبين ما به يعرفون حساب كل شيء ومبلغه - هو بالعدد والإحصاء ، والحساب والإستقصاء .

تفسير {سورة نوح} ؛

[الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطيبين وسلم تسليمًا قال يحيى بن الحسين :^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى ﴿إنا أرسلنا نوحا﴾ أي : نحن أرسلنا نوحا ، وهو إخبار من الله عز وجل بأنه أرسل نوحا ﴿إلى قومه﴾ وقومه : فهم عشيرته وأهل بلده .

﴿أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم﴾ معنى ﴿أن أنذر قومك﴾ فهو : إخبار من الله أيضا عما أمر به نبيه صلى الله عليه وآله من إنذار قومه ، والإنذار : فهو التحذير والإخبار والتخويف بوعيد الله والإنذار ﴿من قبل أن يأتهم﴾ يقول : أنذرهم وقوع العذاب قبل إتيانه لهم وهجومه عليهم ، فأخبرهم أنهم إن تابوا صرف عنهم وإن أقاموا على المعاصي واقعهم ، والأليم : فهو الشديد الذي نزل بهم من الغرق وشدة العذاب والرهق .

﴿قال يا قوم إني لكم نذير مبين﴾ فهذا قول نوح صلى الله عليه وآله لقومه ، فأخبر الله سبحانه بتبليغ نوح عليه السلام ما أمر به من الرسالة من الإعتذار إليهم ، والإنذار

(١) - في المخطوط (مجموع تفسير الأئمة) الجزء الثالث من تفسير القرآن عن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار وسلم . وكذلك يوجد بالمخطوط ما أثبتناه بين قوسي الزيادة .

والنذير : فهو المبلغ المحذر لأمر قبل أن يقع ، فكان نوح صلى الله عليه نذيرا من الله لقومه ، محذرا لهم ما واقع من كان قبلهم من القرون الماضية ، من عذاب الله المهين وقوله : ﴿مبين﴾ فهو : المظهر لأمره المنير القول ، المبين لهم حقيقة ما أنذرهم الصادق في قوله : ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ معنى ﴿أن اعبدوا الله﴾ أي : جئتمكم نذيرا مبينا لأن تعبدوا الله ، فطرح اللام فبقيت أن اعبدوا الله ، والعرب تستعمل ذلك تقول : جئنا أن ترفدنا ، تريد لأن ترفدنا ، تطرح اللام وهي تريدها ، فخرج الكلام كأنه خبر وهو إيجاب .

ومعنى ﴿اعبدوا الله﴾ هو : أطيعوا الله ، وأقيموا ما افترض عليكم من فروضه وأمركم به من أموره ﴿واتقوه﴾ معناها : خافوه ولا تعصوه ، وصدقوا وعيده ولا تكذبوه ﴿وأطيعون﴾ يقول : وأطيعوني يغفر لكم ، فطرح الياء ، فقامت الياء التي في ﴿يغفرو﴾ مقامها ، ومعنى أطيعوني : فهو اقبلوا قولي واستنصحووا أمري ولا تستغشوني وتعصوني فيما آمركم من طاعة ربي ؛ فتمادوا في معاصيه ، والفعل بما لا يرضيه ؛ فتهلكوا بذلك وتدمروا .

ثم قال صلى الله عليه : ﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ يقول : إن أطيعتموني فاتبعتم رضا الله ، وتركتم معصيته - غفر لكم بذلك من ذنوبكم ، ومعنى قوله : ﴿من ذنوبكم﴾ هو : يغفر لكم من ذنوبكم ما كان مهلكا من كبائرها ، وتحقيقا عليكم الوعيد منها ﴿ويؤخركم﴾ يقول : يدفع عنكم العذاب الذي نزل بكم عند معاصيكم ، حتى تبلغوا الأجل الذي سماه لكم ، وجعله سبحانه غاية على السلام لحياتكم ؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل للعباد أجلا على الطاعة ، ثم هو سبحانه المتولي في ذلك للعقوبة ، فإن شاء عاجلهم بالعقوبة فقطع آجالهم بالمعصية التي كانت منهم ، فلم يبلغوا ما أجل الله لهم من الأجل على الطاعة ؛ إذ لم يكن منهم الطاعة ، فنزل بهم العقاب فقطع مدتهم عما وقت من الآجال على الطاعة - لهم وقوله : ﴿مسمى﴾ فمعناه : أي معروف بمعول ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لوكنتم تعلمون﴾ معنى قوله : ﴿إن أجل الله﴾ يريد صلى الله عليه : أن عقوبة الله التي تقطع آجالكم إذا نزلت بكم لا تؤخر عنكم إلى الغاية التي جعلت لكم على الطاعة

﴿لو كنتم تعلمون﴾ يقول : لو كنتم تعقلون وتفهمون ذلك ، وتدرونه على حقيقة المعرفة ، فأخبرهم بذلك أن الأجل عند الله أَجَلٌ أَجَلٌ لهم على التوبة والإنابة ، ولزوم الطاعة ، فأخبرهم أنهم إن كانوا كذلك استوفوه ، وإن عَنَدُوا عن الطاعة وارتكبوا المعصية نزل بهم العذاب القاطع لهم عن بلوغ ذلك الأجل المؤجل لهم ، الذي ذكرنا على الطاعة منهم ، وهذا الأمر - الذي ذكرنا أنه ينزل من الله تبارك وتعالى بأعدائه ؛ فيهلكهم عند نسيانهم له وإيسافهم وإقدامهم على معاصيه واقترابهم من العذاب المهلك المستأصل - فهو قول نوح صلى الله عليه : ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾ أراد صلى الله عليه : أن عقوبته التي تقطع آجالكم إذا حقت عليكم بفعلكم لم تؤخر عنكم ، ولم يُرَدَّ أجل السلامة الذي جعله أمدا لمن سلم من عقوبته ، وهذا من فعل الله سبحانه ، وقتله بعذابه لمن قتل من أعدائه المستحقين لعقوبته ، كقتل بعض الناس بعضا ، فكان الله عز وجل بما أنزل على الفاسقين من العقوبة والتهلكة - قاطعا لآجالهم التي أجلها على السلامة بالطاعة له ، وكان من قتل من الناس إنسانا قاطعا لأجله بفعله عن بلوغ الأجل الذي جعله الله على السلامة لأن الله تبارك وتعالى قد جعل في الخلق استطاعة ، يقدرون بها على المعصية والطاعة وينالون بها قتل المقتولين ، وغير ذلك من ظلم المظلومين والإحسان إلى من أحبوا الإحسان إليه ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾

ثم أخبر سبحانه بقول نوح عليه السلام من بعد الإغذار والإنذار إلى قومه ، وما كان من الصد منهم عن تذكيره ، وقلة الالتفات إلى شيء مما جاء به من ربه فقال : ﴿[قال] إني دعوت قومي ليلا ونهارا﴾ ومعنى ﴿إني دعوت قومي﴾ هو أنني ناديت قومي إلى ربي ، ودعوتهم إلى طاعة خالقي ﴿ليلا ونهارا﴾ يقول : دعوتهم في الليل والنهار إليك ﴿فلم يزداهم دعائي إلا فرارا﴾ يقول : لم يزدادوا يدعائي ربي وإنذاري ودعائي واحتجاجي عليهم ﴿إلا فرارا﴾ يقول : إعراضا وصدودا واجترأ علي واستهزاء بي .

ثم قال صلى الله عليه : ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا﴾ يريد بقوله : ﴿وإني كلما

دعوتهم ﴿ليعملوا عملا صالحا تغفر لهم به ذنوبهم﴾ ، وتجاوز عن سيئاتهم ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ يقول : سدوها بأصابعهم فأدخلوها في آذانهم لكيلا يسمعوا قولي ودعائي ؛ إعراضا منهم عنك ، وكفرا منهم سبحانه بك ، وبغضا لما أدعوهم إليه ، واستقلالاً لما أناديهم به ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ يريد : غطوا رؤوسهم بثيابهم ولولا مدبرين وهذا فعال يفعله كل من استقل شيئا وكرهه ، ولم يجب أن يسمعه ولا يعاينه ، فكانوا يغطون رؤوسهم ووجوههم لئلا يعرفهم ، فيدعوهم إلى ما كان يدعوهم إليه ، ويحضهم من طاعة الله على ما كان يحضهم عليه ﴿وأصروا﴾ يريد أصرروا المعصية وأقاموا على الكذب ، والإصرار على الشيء : فهو الإقامة عليه ﴿واستكبروا استكبارا﴾ معناها : تجبروا تجبرا ، وخالفوا وعتوا تكبرا .

﴿ثم إني دعوتهم جهارا﴾ يريد صلى الله عليه : دعوتهم مباينة مكاشفة وناديتهم بالدعوة مناداة ظاهرة ، لا أسترها على أحد منهم ، ولا أخفيها عنهم فهذا معنى ﴿جهارا﴾ .

﴿ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾ يريد بقوله : ﴿أعلنت لهم﴾ أي : أخبرتهم بما ينزل عليهم من العذاب إن عصوا ، أو داموا على ما هم عليه وعتوا ﴿وأسررت لهم﴾ يريد : كلمتهم في السر بذلك والعلانية ؛ لأن الإسرار هو الإخفاء فيقول : أخفيت دعائي وإعذارني وإنذارني ، وأعلنت به ، وأتيت من تأكيد الحجة عليهم في ذلك على كل معنى ، وأتيت من إكمال الحجة عليهم على الأقصى .

ثم ابتداء بعدما أخبر به من اجتهاده في الدعاء لهم سرا وعلانية - الخبر عن قوله لهم بقوله : ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾ معنى ﴿فقلت﴾ فهو : أمرت ومعنى ﴿استغفروا﴾ أي : توبوا وارجعوا ، يقول : أمرتهم بالتوبة إلى ربهم والرجوع إلى خالقهم ﴿إنه كان غفارا﴾ يقول : إنه كان للتائبين غفارا ، وغفارا : فهو غفور والغفور : فهو العافي عما تقدم ، تقول العرب : غفرت لك ذنبك ، أي صفحت عنه وتركته ولم أعاقبك عليه ، ولم أخذك بالجزاء فيه .

﴿يرسل السماء عليكم مدرارا﴾ يريد صلى الله عليه بقوله : ﴿يرسل السماء

عليكم﴾ أي : انكم إن تبتم ورجعتم إلى الله سبحانه وأخلصتم أرسل السماء عليكم مدرارا ، وإرسال السماء : فهو إرسال ما فيها من المطر لا إرسالها في نفسها . والسماء هاهنا : فهي السحاب الذي يكون في المطر لا السماء الخضراء التي هي السماء العليا ، والعرب تسمي السحاب سماء تقول : كانت على بلد كذا وكذا سماء حسنة ، تريد سحابا حسنا ، فقال سبحانه : ﴿يرسل السماء﴾ فأراد بقوله : ﴿السماء﴾ أي يرسل ماء السماء ، كما قال سبحانه : ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾^(١) فقال : القرية و العير ، وإنما أراد أهل القرية وأهل العير ولا القرية بعينها ، ولا العير ، وكذلك تقول العرب فيما كان مثل ذلك : سألت القريب كلها فلم يطلبني أحد ، يريد القائل بذلك : سألت أهل القرية كلهم .

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه : ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾^(٢) فقال : ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ والعجل لا تشربه القلوب ، وإنما أراد أشربوا في قلوبهم حب العجل فطرح حب ، وأقام العجل مقامه ، والعرب تفعل هذا بالشيء الذي من جنس الشيء المنسوب إليه المعروف الكائن منه وفيه ، وفي ذلك ما قال شاعر من العرب :

ألا إني أسقيت أسود حالكا ألا يجلي من ذا الشراب ألا يجلي

يريد سقيت سم أسود حالكا ، والأسود : فهو الحية فقال : سقيت أسود ، وليس الأسود يسقاه الناس ، وإنما يسقون سمه ، فأقام الأسود مقام السم ؛ لأنه منه واليه يعرف به ، ويستدل به عليه ، ومعنى قوله : ﴿مدرارا﴾ أي كثيرا دارا ، والدار : فهو المتتابع المتوالي الذي لا ينقطع بعضه من بعض .

﴿ويعمدكم بأموال وبنين﴾ فمعنى يعمدكم أي يعطيكم ويزيدكم ويقويكم والأموال : فهي ما كان من الذهب والفضة ، والحرث والأشجار والأنهار ، وكل شيء يجلب به المال ، والبنون : فهم الذكور من الأولاد .

(١) - يوسف : ٨٢ .

(٢) - البقرة : ٩٣ .

﴿ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾ معنى يجعل : فهو يرزق ويفعل .

والجنات : فهي البساتين ذوات الأنهار ، والأشجار والثمار ، والأنهار : فهي المياه الجارية المتفجرة الكثيرة الحاملة الغزيرة .

﴿مالكم لا ترجون لله وقارا﴾ ومعنى ﴿ترجون﴾ فهو تفعلون ، ومعنى تفعلون فهو : تصنعون ، ومعنى ﴿وقارا﴾ فهو : إعزازا وإكبارا وإجلالا وإعظاما ، يريد عليه السلام مالكم لا توقرون الله وتجلونه وتقصدونه وتنزهونه عما تقولون فيه ، وتنسبون من الكذب إليه .

﴿وقد خلقكم أطوارا﴾ والأطوار : فهي الحالات المختلفة ، والأصناف المفترقة والشعوب المختلفة ، وغير المؤتلفة ، في الألوان والألسنة والخلق والهيئة .

وقد يمكن أن تكون الأطوار هي : تنقيل الله لمن يخلقه في الرحم من حال إلى حال من النطفة إلى العلقة ، ومن العلقة إلى المضغة ، ومن المضغة إلى العظام ، ثم من حال إلى حال حتى يكمل ما أراد من خلقه ، ويظهر ما شاء من فطرته ، والمعنى الأول فأحسنهما عندي وكلاهما فيجوز ولا يمتنع في المعنى .

ثم احتج عليهم صلى الله عليه بما فيه الشواهد لله على قدرته ، و تصديق ما بعث به نبيه عليه السلام من وعيده ووعدته ﴿ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا﴾ يقول : ألم تبصروا وتعاينوا أثر قدرته فيما خلق من سموات السبع الطباق ، فتستدلوا بذلك على أنه الله الواحد الخلاق ، و الطباق : فهي الطبقات طبقة فوق طبقة مجعولة فوقها مركبة ، بين كل سماء وسماء ما شاء الله سبحانه من البعد والهواء .

وقوله : ﴿وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا﴾ فمعنى : ﴿جعل القمر﴾ أي : خلقه وصوره ، وجعله فيهن نورا وقدره ، فلما كان القمر في بعضهن وهي السماء الدنيا - جاز أن يقال : ﴿فيهن﴾ إذ كان في بعضهن ، وكذلك يقول القائل من العرب : نزلت في العراق وإنما نزل في بعضه ولم ينزل في كله ، ويقول : خضت البحر وإنما خاض طرفه وبعضه ، فقال : خضت البحر ولم يخض منه إلا اليسير ، وقد بقي منه الكثير ، وكذلك يقول القائل : رميت في عسكرهم بسهم

وإنما رمى في جانب منه ، ولم يرم في كله ، فعلى هذا المعنى يخرج قول الله سبحانه : ﴿وجعل القمر فيهن نورا﴾ وإنما هو في واحدة .

معنى قوله : ﴿وجعل الشمس سراجا﴾ والسراج : فهو النور المتوقد الذي يضيء به ما بين السماء والأرض ، فلما أن أضاء بالشمس ما بينهما ، كانت كما قال الله : ﴿سراجا﴾ فيهما .

﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا﴾ فمعنى ﴿أنبتكم﴾ فهو : خلقكم ، والمخلوق من الأرض فهو أبو الخلق آدم عليه السلام ، فلما أن كان خلقه من التراب وابتدأه وجعله واقتضاؤه - جاز أن يقول لمن كان منه : أنبتكم من التراب ؛ إذ أصلهم منه كان ، وعنه بقدرة الله بان .

و﴿نباتا﴾ فهو خلقا من التراب وتصويرا ، وجعله منه وتقديرا .

﴿ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا﴾ فمعنى ﴿يعيدكم﴾ أي : يردكم فيها من بعد موتكم ، ومعنى ﴿يخرجكم إخراجا﴾ فهو : يحييكم بعد الموت ، ويخرجكم من الأرض بعد الفناء والبلى ، والمصير إلى الرفات في الثرى ، في يوم الدين وحشر العالمين ﴿إخراجا﴾ فهو : خروجا حقا ، وقولا صدقا ، لا يخامره باطل ولا محال ، ولا فساد في قول ولا فعال .

﴿والله جعل لكم الأرض بساطا﴾ فمعنى ﴿جعل﴾ أي : فعل وسوى وبسط ودحا ، و﴿بساطا﴾ فهو : فراشا مبسوطا ، يرقد عليه ويوافى في كل الحالات إليه فشبه الأرض في انبساطها للخلق بالبساط المبسوط لهم ، الذي يجلسون عليه إذ كانت لهم مضجعا ومفترشا ، ومأوى ومبسطا . ألا تسمع كيف يقول سبحانه :

﴿لتسلكوا منها سبيلا فجاجا﴾ يقول سبحانه : جعلناها لكم بساطا منبسطا طويلا عريضا ذا بعد ومدى ﴿لتسلكوا منها﴾ لتسيروا فيها ﴿سبيلا فجاجا﴾ والسبل : فهي الطرق ، وفجاجا : فهو جوانبا وشعابا ؛ لأن الفج هو الشعب العظيم من الأرض والجانب الواسع الذي يكون بين الجبال ، فسمى ذلك فجاجا .

﴿قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا﴾ معنى

﴿عصوني﴾ أي : خالفوني ولم يطيعوني ، وجنبوا عن أمري واستخفوا بدعوتي
﴿واتبعوا﴾ فهو : أطاعوا وأحبوا وأرادوا ﴿من لم يزد له ماله وولده إلا خسارا﴾
يقول : لم يزد ما رزقته من المال والولد ﴿إلا خسارا﴾ أي : إلا كفرانا وعصيانا
حتى نحسر بماله وولده ما ربح المؤمن بهما ، من الشكر لربه سبحانه عليهما ، فصار
لنعم الله خاسرا إذ كان له في ذلك غير شاكر ، وبما أعطاه سبحانه منه غير ذاكر .

﴿ومكروا مكرا كبيرا﴾ يعني نوح صلى الله عليه قومه ، ومعنى ﴿مكروا﴾ فهو
تخبثوا وتحيلوا عليّ ، وأداروا دوائر السوء فيّ و﴿كبّارا﴾ فهو مكرا كبيرا عظيما كثيرا
والمكر : فهو ما ذكرنا من البغي والخذائع .

﴿وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا﴾ وهذا قول من قوم نوح
صلى الله عليه حين دعاهم إلى الله ، وأمرهم بترك ما يعبدون من دون الله ، فقالوا :
﴿لا تذرنا آلهتكم﴾ وهو قول من بعض لبعض ، وآلهتهم : فهي الأصنام التي كانوا
يعبدونها من دون الله ، ومعنى ﴿لا تذرنا﴾ فهو : لا تتركنا ولا تخلّصنا ، ولا تفارقوا
ولا تدعن .

﴿ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا﴾ فهؤلاء كلها
أصنام^(١) كانت تعبد من دون الله ، فأما سواع ويغوث ويعوق ونسرا فكانت باليمن
وأما ود فكان بدومة الجندل ، وأما سواع فكان بجوف همدان ، وأما يعوق فكان
بخيوان ، وأما يغوث فكان في حمير ، وأما نسر فكان في مراد مذحج ، وكان قوم
نوح يجلونها ويعظمونها وإن لم تكن عندهم ، فتعلقوا بعبادتها وتآمروا بأن لا يخلوا
عنها ولا يتركوها ، وأن يثبتوا عليها ، ويخالفوا نوحا صلى الله عليه وما يدعو إليه ،
ثم قال عليه السلام : ﴿وقد أضلوا كثيرا﴾ ومعنى ﴿وقد أضلوا كثيرا﴾ يخرج على
معنيين : فأما أحدهما : فعلى مجاز الكلام فيكون عنى صلى الله عليه الأصنام فجاز
أن يقال : أضلوا لما أن كان الضلال عن غيرها بأسبابها جاز أن يقال : أضلوا .

والمعنى الآخر : أن يكون عنى بالاضلال من يدعو إلى عبادة الأصنام من الناس من

(١) - في نسخة : (فهؤلاء الأصنام كلها أصنام كانت تعبد) ..

قومهم وغيرهم ، وهذا عندي أشبه بالمعنيين وأحسنهما .

﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالا﴾ فهي : دعوة من نوح عليه السلام على الظالمين أن لا يزيدهم الله إلا ضلالا ، والضلal : فهو الخذلان فسأل الله سبحانه نوح صلى الله عليه أن يزيد من عصاه خذلانا وشقاء ، حتى يكون ذلك مستوجبا للعذاب والبلاء .

ثم أخبر الله سبحانه بما نزل عليهم من العذاب الذي حل بهم فأغرق كل من كان منهم فقال : ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ فمعنى ﴿مما خطيئاتهم﴾ فهو : بخطيئاتهم أغرقوا ومعنى من معنى الباء ، أراد بخطيئاتهم أغرقوا ، فأقام من مقام الباء ؛ لأنها من حروف الصفات يخلف بعضها بعضا ، وقد تقدم شرحنا في ذلك ، وذهبت النون من لأنها أدغمت في الميم فبقي مما خطيئاتهم ، وما هاهنا فهي صلة ، المعنى فيها : من خطيئاتهم ، ومعنى من خطيئاتهم : فهو بخطيئاتهم ، فقامت من مقام الباء أراد بخطيئاتهم أغرقوا ؛ فأدخلوا نارا من بعد الإغراق ، و﴿خطيئاتهم﴾ فهي : ذنوبهم وعصيانهم لربهم الذي به هلكوا ، وبسببه أغرقوا .

﴿فأدخلوا نارا﴾ أي : صيروا إلى النار ، وجعلت لهم موضعا وقرارا ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾ يقول : لم يكن لهم مدافع لله عنهم ، ولا ناصر منه لهم يدفع عنهم ما نزل بهم من عذابه ، ولا يحجز عنهم ما حكم به من إغراقهم ، على ما كان من عصيانهم وأنصارا ، والأنصار : فهم المدافعون عنهم من الأعوان .

﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ فهذا دعاء من نوح صلى الله عليه على الكافرين ، ومعنى ﴿لا تذر﴾ أي : لا تترك ولا تدع ، ومعنى ﴿على الأرض﴾ فهو : في الأرض ، والكافرون : فهم العاصون الفجرة المكذبون ﴿ديارا﴾ فهو : أحد يدور ؛ لأن ديارا مشتقة من يدور ، ومعنى يدور : فهو يجول في الأرض ويجوب ، وسواء قيل : ديارا ، أو دوارا ؛ لأن العرب تقيم الباء مقام الواو والواو مقام الباء في كلامها وأشعارها .

قوله : ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾ هذا قول من نوح عليه السلام يقول : إنك يا رب إن تذرهم ولا تأخذهم يضلوا عبادك الذين

يقدرّون عليهم ، وينالون إضلالهم ، ومعنى ﴿يُضِلُّوْا﴾ أي : يهلكوا ويغفوا ويفسدوا ويكفروا من قدرّوا عليه ، من جهلة العباد حتى يفسدوا بذلك البلاد ، ﴿وَلَا يُلْدُوْا﴾ يقول : لا يخرج من أصلابهم إلا ولد يتبعهم في كفرهم ، ويساعفهم في تكذيبهم ويتبعهم في دينهم ، فيكون بفعله ذلك فاجرا كفارا فاسقا غادرا .

ثم دعا صلى الله عليه لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات فقال : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ومعنى ﴿دَخَلَ بَيْتِي﴾ فهو : دخل إليّ ، ودخل في ديني مؤمنا مصححا ، فكان بذلك مني ومن أهل مليّ ، ألا تسمع كيف يقول ﴿مُؤْمِنًا﴾ يريد أي : دخل إليّ بقلب مؤمن ونية صادقة ، والمؤمنون : فهم المطيعون الذين قد آمنوا أنفسهم بطاعة ربهم من وقوع عذابه عليهم ، وكذلك معنى المؤمنات .

ثم قال صلى الله عليه تكريرا للدعاء على الفاسقين ، وتقربا بذلك إلى رب العالمين فقال : ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِيْنَ إِلَّا تَبَارًا﴾ والظالمون : فمعناها الذين ظلموا أنفسهم بإدخالها في معاصي ربهم حتى استوجبوا منه بذلك الفعل ما استوجبوا من العقاب ومن ظلمهم لأنفسهم وظلمهم لعباد ربهم ، وغير ذلك من سائر أفعالهم المحرمة في دين الله عليهم ، قوله : ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ فمعنى التبار : فهو البوار ، ومعنى البوار : فهو الذهاب والفناء والنقصان في كل الأسباب .

تفسير { سأل سائل }

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله عز وجل : ﴿سأل سائل﴾ فمعنى ﴿سأل سائل﴾ فهو : إخبار من الله بما سأل من العذاب ، ومعنى يسيل : فهو يأتي وينهال ويكر في كل الأحوال ، والسائل هاهنا : فهو الآتي من أمر الله وحكمه بالعذاب على أعدائه ، يريد بسأل سائل ، أي أتى آت نازل من عذاب الله الواقع بالكافرين ^(١) ومعنى ﴿بعذاب﴾ واقع للكافرين ﴿فهو واقع بالكافرين ، فقامت اللام مقام الباء ؛ لأنهما من حروف الصفات ^(٢) وحروف الصفات يخلف بعضها بعضا .

﴿ليس له دافع﴾ يريد : ليس لهذا العذاب النازل بالكافرين دافع ، ومعنى ﴿دافع﴾ أي : مانع ولا حار جز له عنهم ، ولا صارف عن الوقوع .

ثم أخبر سبحانه أنه من الله فقال : ﴿من الله ذي المعارج﴾ يريد : أن هذا العذاب الواقع بالكافرين فهو من الله ذي المعارج ، والمعارج : فهي المصاعد ، والمصاعد : فهي المسالك ، والمسالك : هي الطرق التي تسلكها الملائكة من السماء إلى الأرض ومن السموات بعضهن إلى بعض .

(١) - قرأ أهل المدينة وأهل الشام وابن عامر : (سأل سائل) بغير همز في سأل ، قال في التبيان ، وهو يحتمل أحد أمرين : أحدهما - أن يكون من السيل ، تقول : سأل يسيل سيلاً فهو سائل ، وسائل ... وأجمعوا على حمزة (سائل) لأنه ولو كان من سأل بغير همز ، فالباء تبدل همزة إذا وقعت بعد الإلف مثل البائع والسافر من باع وسار (والإمام الهادي عليه السلام فسر على هذه القراءة) .

والثاني : أن يكون سأل بمعنى سأل بالهمزة ، لأنها لغة يقولون : سلت أسال ، وهما يتسالان قال الشاعر :
سالت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سالت ولم تصب .

فهي لغة أخرى ، وليست مخففة من الهمزة . الباقر : بالهمز من السؤال الذي هو الطلب . (التبيان ١١٣/١٠) .

(٢) - في حاشية المجموع المخطوط (وقيل - والله أعلم - : إن الباء معنى عن ، وأن المراد بسأل سائل عن عذاب واقع وحروف الحر يتوب بعضها عن بعض ، والله أعلم .

﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ ومعنى ﴿تعرج﴾ فهو : تسلك وتمضي وتذهب وتأتي ، والملائكة فهم : ملائكة الله المطهرون ، والروح : فهو جبريل الأمين عليه صلوات رب العالمين ، ومعنى ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ يقول : الملائكة تعرج في يوم واحد وتسير وتقطع بقدرة الله ، ما لو كان غيرها من الناس لم تسر ما سارته الملائكة في يوم واحد في خمسين ألف سنة ، فأخير سبحانه بعظيم قدرته في ذلك ، وجليل فعله فيما جعل من سرعة سير الملائكة ، وقطعها بعروجها لما تقطع من معارجها ، وتقضيه في سيرها في مسالكها ؛ دلالة منه بذلك لخلقها عليه ، ودعاء منه لهم بما أظهر في ذلك إليه .

ثم قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله : ﴿فاصبر صبرا جميلا إنهم يرونه بعيدا ونراه قريباً﴾ معنى ﴿اصبر﴾ أي : انتظر ولا تجزع واحتمل ﴿صبرا جميلا﴾ يقول : احتمالا جميلا ، ومعنى جميلا : أي دائما وثيقا جيدا لا يدخله إفك ولا هلع ولا خور ولا جزع ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾ معنى ﴿يرونه بعيداً﴾ أي : يرونه باطلا ولا يوقنون به إيقانا ، فلما لم يوقنوا به ولم يؤمنوا جاز أن يقول ﴿يرونه بعيداً﴾ لأن كل ما لم يوقن به الموقن فقد يراه بعيدا ، وذلك أن العرب تقول لما لم يصح عندها ، وكان غير آت ولا ممكن في عقولها : هذا أمر بعيد منا ، من ذلك ما تقول العرب : زعم فلان أنه يقتل فلانا ، وهذا أمر بعيد منه . تريد أن هذا شيء لا يقدر عليه ولا يكون منه أبدا إليه ، فعلى هذا المعنى يخرج قول الله تبارك وتعالى : ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾ يقول سبحانه : يرون ما يعدهم من وقوع هذا العذاب بهم محالا ، لا يصح في عقولهم عندهم ، ولا يقع أبدا بهم ﴿ونراه قريباً﴾ يقول عز وجل : نعلم أنه حق آت والعرب تسمي كلما أيقنت بحقيقته قريبا - تقول : ما أقرب الموت ! وتقول : ما أقرب فرج الله ! إيقانا بحقيقته ، فقرنته بإيقانها بكيئوته ، وتقول العرب : ما أقرب الليل ! فقرنته حين علمت أنه آت لا محالة .

ثم ذكر سبحانه الوقت الذي يكون فيه العذاب للكافرين ، وتنكيل أهل الوعيد من المكذبين فقال : ﴿يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميماً﴾ فأخير سبحانه أنه إذا كان ما ذكر من أمر السماء والجبال ، كان وقوع

العذاب بالكافرين ، ومعنى ﴿تكون السماء كالمهل﴾ فهي : تذوب بعد تجسمها وتحل بعد عظمها ، حتى تعود إلى ما كانت عليه أولا ، من الدخان الذي خلقت منه في الإبتداء ، فشبهها سبحانه عند كينونتها دخانا بالمهل الجاري ، والمهل : فهو صفو القطران ، فأخبر سبحانه أنها تكون في الفناء والذهاب والانحلال كالمهل ، حذو المثال بالمثال ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ فشبهها أيضا بانحلالها وذهابها وتمزقها بالعهن ، والعهن : فهو ضرب من خالص الصوف ، فأخبر سبحانه أنها تعود من بعد تجسمها ويسها وصلابتها وثباتها ، كالعهن إذا نفش فاضمحل ، ولم يستر بعد نفشه ما يكون خلفه ولا فوقه ولا تحته لضعف أمره بعد نفشه ، فأخبر أن الجبال - بعد ما هي عليه اليوم من كثافتها وصلابتها وجليل أمرها - تعود إلى الكينونة كالعهن المنفوش .

﴿ولا يسأل حميم حميما﴾ يقول : لا يسأل نسيب نسيبا ، ومعنى ﴿لا يسأل﴾ فهو يستخبر ولا يكلم ، ولا يقبل عليه ولا يسلم .

﴿يصبرونهم﴾ معناها : يرونهم ويعرفونهم حتى يعرف القريب قريبه ، والنسيب نسيبه ÷ فيشغله هول ما هو فيه من أمره غير مسائلة قريبه ، والسلام على حميمه .

﴿يود المحرم لو يفتدي من عذاب يومئذ﴾ معنى ﴿يود﴾ فهو يحب ويتمنى ويريد ويشاء ﴿المحرم﴾ فهو المسيء الظالم ﴿لو يفتدي﴾ يقول : لو يفدي نفسه ، معنى يفديها : أن يجعل بدلها في العذاب ، ويفديها بمن ذكر الله وسمى من أقربائها ﴿من عذاب يومئذ﴾ يريد : من عذاب يوم الدين ، ويومئذ : فهو يوم القيامة .

﴿بنيه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه﴾ يقول سبحانه : يود لو أنه أمكنه أن يفدي نفسه من عذاب يوم الدين بهؤلاء المذكورين ، وبنيه : فهم ولده الذكور ﴿وصاحبه﴾ فهي : زوجته الحبية إليه ، التي كان يحبها ويفديها في الدنيا بنفسه ، ويحامي دونها بماله ومهجته ﴿وأخيه﴾ فهو : ابن أمه وأبيه ﴿وفصيلته التي تؤويه﴾ فهي : والدته وراثة التي تربيته ، وتطعمه وتسقيه لبنها في صغره ، حتى فصلته عن ثديها عند كبره ﴿وتؤويه﴾ فمعناها : تحضنه وتربيته ﴿ومن في الأرض جميعا﴾ يقول : أهل الأرض كلهم لو كانوا له وفي يده عبيدا

وخولا وأقرباء ونسبا ﴿ثم ينجيهِ﴾ يقول : يود أنه فدى بكل ما ذكرنا وجميع ما فسرناه نفسه من العذاب المهين ، ونجا وجعله مكانه في يوم الدين فداء يفدي بهم نفسه ووقاء يقي بهم من العذاب بدنه ﴿ثم ينجيهِ﴾ يقول : ثم يقبل منه الله ذلك ويخليه ، فأخبر الله سبحانه أن المجرم ود أنه نجا وسلم وافدى بكل ما ذكر الله وسمى .

ثم قال سبحانه ﴿كلا إنها لظى نزاعة للشوى﴾ معنى ﴿كلا﴾ فهو : نفي أن يكون تقبل من المجرم فداء ، أو يكون له يوم القيامة من العذاب نجا ، يقول : لا نجاة له ولو افتدى ، وقوله : ﴿لظى﴾ فهي : جهنم ، وإنما سميت لظى لتلظيها ، والتلظي : فهو التلهب والتقلب ، وأكل ما يقع فيها بأسرع سرعة ﴿نزاعة للشوى﴾ يقول : أكالة للشوى محرقة له ولغيره من بدن صاحبه ، والشواء : فهو الجلد ، وقد قيل : غير الجلد ، وأحسن ما سمعناه فيه أنه الجلد .

﴿تدعو من أدبر وتولى﴾ يريد بتدعو : أي تأخذ من أدبر عن الله سبحانه ، وإنما مثل الله أخذها بالدعاء منها لمن تأخذ ؛ لأن كل من حاز شيئا فقد استدعاه إليه ومن استدعى شيئا إليه فقد دعاه وآواه ، وصار منه وإليه ، فقال : ﴿تدعو من أدبر وتولى﴾ تزويه وتحرقه وتخزيه ، والمدير : فهو المدير عن الله ، وعن حقه المتعلق بما هو فيه من باطله وفسقه ﴿وتولى﴾ فهو عدل عن الحق وأبى .

﴿وجمع فأوعى﴾ يقول : جمع الذنوب فأوعاها ، ومعنى أوعاها : فهو جمعها كلها فأحصاها .

﴿إن الإنسان خلق هلوعا﴾ الإنسان : فهو الناس كلهم ﴿خلق هلوعا﴾ يقول : طبع وفطر على الضعف والهلع ، وضعف البنية والجزع مما يعظم عليه ويشد أمره لديه ﴿إذا مسه الشر جزوعا﴾ فالشر : هو كل أمر يشد عليه من النوازل النازلات والأمور الفادحات ، والمصائب الحالات ، و﴿جزوعا﴾ فهو : فزعا هلوعا ، يقول : إذا أصابه ذلك جزع منه وضعف ؛ لضعف بنيته عنه .

﴿وإذا مسه الخير منوعا﴾ يعني ﴿مسه﴾ فهو : أصابه وواقعه ، و﴿الخير﴾ فهو : الرخاء والنعمة والسور والغبطة ، و﴿منوعا﴾ يقول : فهو مانع خيره بخيل بما عنده

قليل الإنفاق في مرضاة ربه ، في ما يقرب من خالقه .

ثم استثنى سبحانه من الناس الذين نسب إليهم هذا الخير ، أهل الإيمان والتقوى والدين والهدى فقال : ﴿إِلَّا الْمُصْلِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ إلى قوله : ﴿فِي جَنَاتٍ مَّكْرُمُونَ﴾ معنى ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ فهو : لصلاتهم لازمون لا يتركون منها شيئا ، ولا يفرطون في المثابرة عليها وال لزوم لها .

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ يقول : يؤدون من أموالهم الحق الذي جعله الله من الزكاة عليهم ، المعلوم فهو المعروف بكيّله ووزنه ﴿لِلسَّائِلِ وَالْغُرُومِ﴾ والسائل : هو الطالب المواجه بالطلب والسؤال ، والغروم : فهو المتعفف اللازم لمنزله الذي يتوهم الناس أنه مستغن لتعفّفه وقلة طلبه ؛ فيحرمونه لذلك ما يعطون غيره ممن يمد يده للسؤال ويطلب .

﴿وَالَّذِينَ يَصَّدُقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ فيوم الدين : هو يوم القيامة ، فهو الجزاء بما تقدم من أعمال العباد ، و﴿يَصَّدُقُونَ﴾ معناها : يوقنون به ويؤمنون .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ هو : خائفون وجلون ﴿إِنْ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ ومعنى ﴿مَأْمُونٍ﴾ فهو : غير مندفع ولا منصرف عن أهله بل هو يقينا مواقع لهم ، لا يطمعون في انصرافه عنهم ، ولا يشكون في هجومه عليهم .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ والفروج : فهي المذاكير التي جعلها الله سبحانه لهم لينالوا بها لذة الجماع ، فأخير سبحانه عز وجل أنهم لها حافظون وحفظهم لها : فهو ألا يجعلوها إلا في المواضع التي أحلها الله لهم من النساء .

ألا تسمع كيف يقول عز وجل : ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ يقول سبحانه : إلا على نسائهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فملك اليمين : فهو السراري من الإماء ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ يقول : غير معاقبين في مدانة النساء وملك الإماء ؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أطلق لهم ذلك فيما تسمع من القرآن .

ثم قال سبحانه : ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ يقول : من ابتغاء لفرجه موضعا غير نسائه ، أو ملك يمينه من إماءه فهم عادون ، والعادون : فهم

المعتدون لما جعل الله لهم إلى ما حرم عليهم .

﴿والذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون﴾ والأمانات : فهو صنوف .

فمنها : أمانة الله عندهم فيما استرعاهم من حقه ، وقلدهم من فرضه .

ومنها : ما استأمنهم الله عليه من أداء ما جعل في قلوب العلماء من علمه إلى من هو دونهم من خلقه .

ومنها : ما استأمنهم عليه من أمواله التي قسمها بين من سمى في كتابه ، فواجب على من استؤمن على شيء من أموال الله أن يؤديه إلى غاية الأمانة ، ويوفره على غاية الوفارة .

ومنها : ما يستأمن الناس عليه بعضهم بعضاً ، من ودائعهم وأموالهم ، فيجب عليهم في ذلك دفعها إلى أربابها ، وتسليمها إلى أصحابها ، ومن ذلك أمانة السر الذي يسره المؤمن إلى المؤمن ، فواجب عليه أن يحفظ عليه سره ولا يفشي عنه إلى غيره .

وقوله : ﴿وعهدهم راعون﴾ وعهدهم فهي : ما أخذ الله على الخلق من الميثاق والعهد بالتصديق بأنبيائه وكتبه ، وما أخذ عليهم من العهود في القيام مع أوليائه والنصر لمن نصره ، وما أخذ عليهم من العهود في التعاون على البر والتقوى ، وترك التعاون على الإثم والعدوان ، الذي أنزل إليهم علمهما في القرآن ، حين قال سبحانه : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ ومعنى ﴿راعون﴾ فهو : حافظون مؤدون .

﴿والذين هم بشهادتهم قائمون﴾ والشهادة : فهو كل حق علمه إنسان ، من حق يجب لله على الخلق التكلم به والقول ، أو حق لمسلم يعلمه مسلم من شهادة أشهده عليها ، أو أمور احتاج إلى أن نطق له بالحق فيها ، ومعنى ﴿قائمون﴾ فهم : ثابتون على الشهادة التي يعلمونها ، لا يزولون عنها ولا يكتُمونها ، ولا ينقصون منها ولا يزيدون فيها .

﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ ومعنى ﴿يحافظون﴾ فهم : عليها يداومون

ويحفظون أوقاتها التي جعلها الله لها ، فهم على ذلك يحافظون ، وله غير تاركين ولا في شيء منه مفرطين .

ثم أخبر سبحانه بما أعد لمن كان على هذه الحالات ، وكان من أهل هذه الصفات فقال : ﴿أولئك في جنات مكرمون﴾ والجنات : فهي الجنان المذكورات عند الله سبحانه ، المعدودات لأهل الطاعات ، و﴿مكرمون﴾ فمعناه : مكرّمون ، ومعنى ﴿مكرمون﴾ فهو : مقربون مدنون معظمون مثابون منعمون .

ثم أخبر سبحانه بحال الكافرين ، وما هم عليه من الإعراض عن الله ورسوله فقال : ﴿فما للذين كفروا قبلك مهطعين﴾ يريد بقوله : ﴿فما للذين كفروا قبلك مهطعين﴾ أي : فما بال . ﴿قبلك﴾ : عندك ﴿مهطعين﴾ والمهطع : فهو المطأطيء الرأس ، يقول : ما بالهم عندك مطأطين رؤوسهم لا ينظرون إليك ، ولا يستمعون منك ، ولا يقبلون بوجوههم عليك .

﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ يريد : عن يمينك ، وعن شمالك ﴿عزين﴾ أي : جماعات قليلات ، عن يمينك جماعات ، وعن يسارك جماعات ، كلٌّ مهطع برأسه معرض بوجهه لا يستمع إليك ، ولا يقبل عليك .

ثم قال سبحانه : ﴿أيطمع كل امرء منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ يريد بقوله : ﴿أيطمع﴾ أي : أيرجو ويأمل ؟! ﴿كل امرء منهم﴾ والمرء : فهو الإنسان ﴿أن يدخل جنة نعيم﴾ وجنة النعيم : فهي جنة الفردوس ، يقول سبحانه : إعرضهم عن الحق ، واستغناؤهم عن الصدق اعراض من قد آمن العذاب ، وأيقن بالثواب ، وصح عنده أنه يدخل جنة نعيم ، فهو واثق بذلك ، طامع أن يكون كذلك ، فهو معرض عما يدعى إليه ؛ لإيقانه بما يصير من الخير إليه .

ثم قال سبحانه : ﴿كلا﴾ يريد بكلا أي : لا يدخلونها أبدا ، ولا يرونها بأعينهم أصلا إلا أن يتوبوا وينبوا ، ويصدقوك ويطيعوك فيؤمنوا .

ثم أخبر سبحانه بما خلقهم منه ؛ احتجاجا منه بذلك عليهم ؛ وتقريراً منه على الحق به لهم فقال : ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ يريد بقوله : ﴿مما يعلمون﴾ أي : من

الطين الذين خلقنا منه آدم عليه السلام ، ومن الماء المهيّن الذي خلقنا منه بني آدم أجمعين .

ثم أقسم سبحانه بنفسه إنه لقادر على أن يبدل خيرا منهم فقال عز وجل : ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين﴾ قوله : ﴿فلا أقسم﴾ يريد : أفلا أقسم ، فطرح الألف وهو يريد بها ، ورب المشارق : فهو الله رب العالمين ، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع العليم والمشارق : فهو مشارق الفلك المحيط بالأرض ، وكذلك المغارب : فهي مغارب الفلك المحيط بالأرض ﴿إنا لقادرون﴾ يقول : إنا لمقتدرون مستطيعون على أن نذهب هؤلاء الذين يكذبون ، ونأتي بخلق خيرا منهم يصدقون بقولنا ، ويؤمنون بغيثنا ، فهذا معنى قوله : ﴿نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين﴾ يخبر سبحانه أنه لا يسبق ، ومعنى يسبق : فهو يقات ، وعنه يهرب حتى يسبق بهربه الهارب الذي يهرب ، فأخبر سبحانه أنه ليس منه مهرب ، ولا للخلق كلهم عنه مذهب ، وأنهم كلهم في قبضته فأخبر سبحانه أن أحدا لن يسبقه يريد يسبقه أي يفوته ، ويذهب عنه حتى يعجزه فلا يناله أمره ، ولا يدركه حكمه ، وحاش لله أن يكون كذلك ، أو على شيء من ذلك بل خلقه كلهم في يده ، لا يفوته منهم فائت ، ولا يسبقه منهم سابق ، وهو سبحانه لكلهم مدرك لاحق .

ثم قال سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وعلى آله : ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ معنى ﴿ذرهم﴾ أي : دعهم وأمهلهم ، ومعنى ﴿يخوضوا﴾ فهو : يكذبوا ويتحيروا ويترددوا في الضلال بما يصفون من الخوض مع الجهال ﴿ويلعبوا﴾ أي : فهو ليغترّوا ويلهوا ، فشبّه الله تبارك وتعالى ما هم فيه من الباطل الذي لا أصل له باللعب الذي لا ثبات له ، واللعب : فهو ما لم يكن على حقيقة ، ولم يأت منه شيء على وثيقة ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ فهو يوم القيامة الذي فيه يجازون ، ألا تسمع كيف بينه سبحانه وجل عن كل شأن شأنه فقال :

﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعا﴾ والأجداث : فهي القبور ﴿سراعا﴾ فهو :

سراعا مبتدرين غير مبطين ولا متلبثين ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ يَوْفُضُونَ﴾ والنصب : فهو شيء من الشعر تقوله العرب ، تطرب فيه أصواتها ، وترفع به كلامها ، وتمد حروفه ويطرب قوله ، فإذا سمع السامع من قائله أقبل نحوه يستمعه موفضا ، و الموفض : فهو المسرع ، فضرب الله سرعة خروجهم من قبورهم ، ونشرهم إلى موضع حشرهم عند وقت نفخ الله في صورهم - بما يعرفون من سرعة الموفضين إلى النصب إذا سمعوه من ناصبه ، واستطرفوه من قائله .

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارِهِمْ﴾ معنى ﴿خَاشِعَةً﴾ أي : منكسرة غير مسرورة ولا منفتحة قد خشعت أبصارهم طول ما رأت عيونهم ، وخشوع البصر : فهو شيء ينزل بالبصر عند انحلال القوى ، وضعف النفس ، وذهاب القوة ، والإيقان بالبليّة ، فأخبر الله سبحانه أن أبصارهم لإيقانهم بالعذاب منكسرة ، خاشعة هالكة دامرة .

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ معنى ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ فهو : تغشاهم ، والذلة : فهي الخزي والمذلة والمذلة : فهي تغشى وترهق من أيقن بالنكال من الخلق .

ثم قال سبحانه : ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ فأخبر - جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله - : أن هذه الأشياء من خروجهم من الأحداث ، وخشوع أبصارهم ووقوع الذلة عليهم - تكون في اليوم الذي كانوا يوعدون ، وهو يوم القيامة الذي كانوا به يكذبون ، ولم يكونوا بشيء مما يذكر لهم فيه يصدقون .

تفسير {سورة الحاقة}

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى ﴿الحاقة ما الحاقة﴾ معنى الحاقة : فهي النازلة العظيمة التي تحق بأهلها ، وتصيبهم وتواقعهم ولا تخطئهم ؛ لأن العرب تقول للشيء إذا أصابه السهم : حقه ، وأصاب حاق وسطه ، تريد : لم يخطئه ولم يعدل عنه ، بل أصاب الذي طلب وقصد منه ، معنى قوله : ﴿ما الحاقة﴾ فهو : تعظيم منه سبحانه لها وإخبار بجليل ما يحق بأهلها .

﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ يقول : ما أعلمك ما هذه الحاقة ؟ يريد أنك لا تعلم منها إلا ما أعلمناك ، ولا تطلع من شدتها إلا على ما أطلعناك ؛ لأن الله سبحانه تبارك وتعالى لا يقول لنبيه صلى الله عليه وعلى آله في شيء : ما أدراك ما هو ؟ إلا وهو أعظم ما يكون من الداهية ، وأشد ما يكون من النازلة الصائبة .

﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ فأخبر سبحانه بتكذيب ثمود وعاد بالقارعة والقارعة : فهي النازلة التي تفرع الشيء وتصيبه ، وتنزل به وتهلكه ، وثمود وعاد فهما : قبيلتان من أولاد أولاد نوح صلى الله عليه عتتا وطغتا ، وكذبنا بما أنذرنا به من القارعة ، التي قرعتهما ، وحلت بهما عند ثماديهما ، فأهلكتهما .

ثم أخبر سبحانه بما أهلكهما به على عصيانهما ؛ فقال عز وجل : ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ معنى الطاغية : فهو ما كان من طغيانهم بعصيان ربهم ، وقيل : إن معنى الطاغية التي أهلكوا بها : هي الصيحة التي أخذتهم فأهلكتهم ، ومعنى طاغية عليهم : فهو مهلكة لهم غالبية على أنفسهم ، وهذا فأحسن المعنيين ، وأصوبهما عندي - والله أعلم وأحكم .

﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ فأخبر سبحانه بما أهلك به عاد كما

أخبر بما أهلكت به ثمود فقال عز وجل: ﴿بَرِّحْ صَرْصَرًا عَاتِيَةً﴾ والصرصر: فهي الشديدة المددمة المدمرة لما أتت عليهم المخربة ، والعاتية : فهي الغالبة الهائلة التي لا تذر شيئاً إلا أتت عليه . وعتت فمعناها : صعبت واشتدت به وغلبت ، فلم يستر منها ستر ، ولم يَكُنْ منها - أي من شرها - كِنٌ ، فهي تذهب بما أتت عليه ، وتهلك ما الرثمت فيه .

﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ فمعنى ﴿سخرها﴾ أي : هو جعلها وأذن لها وسلطها وأنزلها ، ومعنى ﴿سبع ليال وثمانية أيام﴾ يخبر عز وجل أنه بعثها عليهم باكراً ، فأقامت عليهم ثمانية أيام إلى آخر اليوم الثامن ، فكان لهذه الثمانية الأيام سبع ليال ، ليلة اليوم الثاني ، وليلة اليوم الثالث ، وليلة اليوم الرابع ، وليلة اليوم الخامس ، وليلة اليوم السادس ، وليلة اليوم السابع ، وليلة اليوم الثامن ، فكان ذلك سبع ليال ، وثمانية أيام ؛ لأنها واقعتهن في أول نهار اليوم الأول ، وفرغت منهم في آخر نهار اليوم الثامن ، فكان ذلك سبع ليال وثمانية أيام .

ثم قال ذو الجلال والإكرام: ﴿حسوما﴾ فمعناها : دائمة متوالية ، لا راحة فيها ولا فترة لساعة منها ، وما كان كذلك في الدوام والاستواء ، وقلة الغفلة والوئني سمي حسوما من الليالي والأيام .

﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ فأخبر سبحانه بحالهم وصفاتهم بعد ما نزل بهم من إهلاكه لهم ما نزل فمثلهم في ذلك الحال بأعجاز نخل خاوية ، وأعجاز النخل الخاوية : فهي أسافلها وما غلظ منها ، ومعنى ﴿خاوية﴾ فهي : خاوية من الحياة ، أي ليس فيها شيء من الحياة ، فمثلهم بأعجاز النخل الميتة الخاوية ؛ لأن النخل إذا ماتت وخويت كانت أضعف ما يكون من الأشياء وأوهاه وأسمجه في الصورة وأرداه ، فمثل سبحانه أجسامهم المهلكة الملقاة بأعجاز النخل الخاوية .

ثم قال سبحانه: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ يريد بقوله: ﴿هل ترى لهم﴾ أي : هل تحس منهم ، فقامت لهم مقام منه ؛ لأنهما من حروف الصفات ، ومعنى ﴿من﴾

باقية ﴿فهو : من أحد صغير أو كبير ، إخباراً منه بذهاب الكل ودماره وانقضائه واستنصاله ، حتى لم يبق منهم باق ، ولم ينج منهم من عذاب الله ناج .

﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخطئة﴾ ومعنى ﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ فهو: أتى وفعل واجترأ هو ، ومن كان قبله من المؤتفكات .

﴿والمؤتفكات﴾ فهي : الأمم الكاذبات على الله ، المجتريات الآفكات ، وإنما سميت مؤتفكات لما أتت به من الإفك ، والإفك : فهو العجز عن حقوق الحق والتمادي في طرق الفسق ، فسمي من كان كذلك مؤتفكات ؛ مما كان منها من الكذب والإفك على الله في الحالات ﴿بالخطئة﴾ فهي : الأفاعيل المخطئة العاصية والخطئة التي جاء بها فرعون ومن قبله .

﴿والمؤتفكات﴾ فهي : الأمم المخطئات للصواب المذنبه ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿فعصوا رسول ربهم﴾ فأخبر أن الخطيئات التي أتوا بها هي معصية ربهم في معصية رسوله عليه السلام ، وما كان منهم من التكذيب برسالاته ﴿فأخذهم أخذة رابية﴾ يقول : أخذهم على معصيتهم لرسوله واجترائهم على التكذيب بآياته ومعنى ﴿أخذهم﴾ فهو : أنزل بهم نقمته ، وأحل بهم عذابه ، ومعنى ﴿أخذة﴾ فهو : بطشة ، ومعنى بطشه : فهو إخبار عما نالهم من عذابه ، وأنزل بهم من العذاب الذي لا راد له ، ومعنى ﴿رابية﴾ فهي : شديدة مبالغة بينة .

ثم أخبر سبحانه بما كان منه من النعمة في حملهم في الفلك الجارية فقال : ﴿إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ ومعنى ﴿إننا﴾ : إخبار عن فعله بهم ، ومعناها : نحن ومعنى ﴿لما﴾ : فهو إذ ﴿طغى الماء﴾ فمعنى طغى : فهو علا وكثر ، وأتى وطمى والماء : فهو الماء المعروف الذي يستغنى بمعرفة الخلق له عن شرحه وتفسيره وذكره وتأويله .

معنى ﴿حملناكم﴾ أي : دللناكم على الركوب وهديناكم إلى عملها ، حتى عرفتم ما جهلتم من بنائها ، واستدلتم بدلالتنا على تقديرها فقدرتموها بقدرتنا ، وثبتموها بإرادتنا ، فصارت فلكا حاملة لكم ، سفنا في الماء جارية بكم ، فهذا معنى ﴿حملناكم﴾

في الجارية ﴿والجارية﴾ : فهي السفن المسمرة المؤلفة المبينة المقدرة ، التي تجري في البحار بأهلها ، وتطفو بقدرة الله على الماء بما فيها ، فلما كان [الله] سبحانه الهادي لخلقه إلى ذلك جاز أن يقول : ﴿حملناكم﴾ .

﴿لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ معنى ﴿لنجعلها لكم﴾ هو : لنصيرها لكم تذكرة ، ومعنى ﴿تذكرة﴾ فهو : ذكر لكم وحجة عليكم ، لتعلموا أنا أولياء نعمتها ، والمنعمون عليكم بها ؛ لتذكروا نعمتنا فيها ؛ فتشكروا وتتفكروا فيما هديناكم إليه من أمرها ، فتؤمنوا ، ومعنى ﴿وتعيها أذن واعية﴾ فهو : تفهمها وتعلمها ، وتوقن بها ، وتعرفها ، وهذه التي قال الله سبحانه : ﴿وتعيها أذن﴾ فهي التذكرة والحجة ، والأذن الواعية : فهي الأذن المؤمنة المصدقة بكتب ربها ورسله وآياته ونذره ، المستدلة بظواهر آيات الله وصنعه ، وما أظهر في تدبير العالم من قدرته على عجائب ما حجب من علمه ، وأرسل به على السنة رسله ، من ذكر الحشر والحساب ، وما أخبر به سبحانه من الثواب والعقاب ، الذي يكذب به المكذبون وينكره الكفرة المنكرون .

ثم أخبر سبحانه باليوم الذي يميز فيه العالمون ، ويحشر فيه المبطلون فقال تبارك وتعالى : ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ فمعنى ﴿نفخ في الصور﴾ أي : فهو جعل فيها ، ورد ما يكون به حياتها من أرواحها ، التي يردها الله عند بعثها في أبدانها ﴿نفخة﴾ فمعناها : ردت الأرواح إلى الأبدان ﴿نفخة واحدة﴾ أي : ردة واحدة ، أي : سريعة واجزة ، فترجع الأرواح بقدرة الله إلى الأبدان التي كانت أولا فيها ﴿وحملت الأرض والجبال﴾ فمعنى حملهما فهو : أخذهما ، ومعنى أخذهما : فهو نفاذ أمر الله فيهما ، وإنفاذ إرادته في دكهما ودكهما فهو : إذهابهما ، ومواقعة الفناء بهما ، وزوال أمرهما ، وانحلال تجسمهما وردهما إلى ما كانتا عليه أولا من قبل خلقهما .

قوله ﴿دكة واحدة﴾ فهو إخبار من الله عز وجل عن سرعة مضي إرادة الله فيهما ونفاذ مشيئته في إذهابهما ، وإنما معنى قوله : ﴿واحدة﴾ فهو : إخبار منه سبحانه عن نفاذ قدرته ، وسرعة كينونة مراده ، فمثل سرعة انقضاء ذلك كله بضرب الإنسان

بالشيء الذي يكون في يده على الأرض [ضربة] واحدة ، ودكه بالشيء الذي يدكه دكة واحدة ، فأخبر سبحانه أن إذهابه للأرضين والسموات ، ونفخة في جميع صور الآدميين ، وردة لأرواحهم في أبدانهم في السرعة مثل ضربة الضارب بالشيء الذي يكون في يده على الأرض ضربة واحدة ، ليس معها لبث ، ولا ضربة ثانية .

وذلك اليوم الذي يكون فيه ما ذكر الله ، فهو يوم الحشر والحساب ، وملاقاة الثواب والعقاب ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ومعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو : يوم يكون ما ذكرنا من النفخ في الصور ، ودك الأرض والجبال ومعنى ﴿وَقَعَتِ﴾ فهو : نزلت وحلت ، وكانت وأنت ، فالواقعة : هي الساعة الواقعة بالناس ، والساعة : فهي القيامة التي يواقع الخلق أمرها ، ويلقى كلهم فيها عمله ، ويقع به جزاء فعله ، وبوقوع الجزاء فيها وقع اسم الواقعة عليها .

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ فمعنى انشقاقها : فهو انفطارها ، وانفطارها : فهو تقطعها لما يريد الله تبارك وتعالى في ذلك اليوم من فواتها وتبديلها .

﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ والوهية : فهي المتمزقة المتقطعة ، التي قد صارت أبوابها فرجا ، كما قال الله سبحانه : ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾^(١) .

﴿وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ فمعنى ﴿الْمَلِكُ﴾ فهو : الملائكة ، فخرج اللفظ كأنه ملك واحد ، وهو لجميع الملائكة كما قال الله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢) فخرج الاسم كأنه لواحد ، وهو لجميع الناس ، وأرجاؤها : فهو نواحيها وأطرافها وجوانبها ، يريد سبحانه أن الملائكة عند تقطع السماء يكونون واقفين على أرجائها ، منتظرين لأمر الله فيها وفي غيرها .

[معنى العرش وحمل الملائكة له]

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ معنى ﴿يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ هو يقوم به ويأمر فيه وينهى بنهي الله تبارك وتعالى ، والعرش : فهو الملك ، و الملك : فهو جميع

(١) - النبا : ١٩

(٢) - الانفطار : ٦

ما خلق الله وبراً في الآخرة والدنيا ، ومعنى ﴿فوقهم﴾ فهو : منهم ، فقد خلقت فوق من ؛ لأنها من حروف الصفات ، يخلف بعضها بعضاً ، ومعنى ﴿يومئذ﴾ فهو : يوم القيامة عند وقوع الواقعة ، وانشقاق السماء ، وكيونة الحساب والجزاء ، ومعنى ﴿ثمانية﴾ فقد يمكن - والله أعلم - : أن يكونوا ثمانية آلاف ، أو ثمانية أصناف من الملائكة المقربين ، ينفذون أمر رب العالمين في ذلك اليوم ، الذي تحمل الملائكة عرشه فيه ، وتكون قائمة به فيه وعليه ، فأراد الله سبحانه بقوله : ﴿يحمل عرش ربك﴾ إخباراً منه أن له سبحانه ثمانية أصناف من الملائكة ، أو آلاف يحملون في ذلك اليوم عرشه ، وعرشه : فهو ملكه ، وحملهم للملكه في ذلك اليوم العظيم : فهو قيامهم فيه بأمر الرحمن الرحيم ، وإنفاذهم لحكمه ، ومجازاتهم بأمره لخلقه ، وإيصال أهل الثواب إلى الثواب ، وعتل أهل العقاب ، وإنفاذهم لحكمه إلى العقاب ، ومحاسبة المحاسبين وتوقيف الموقوفين على ما كان من أعمالهم في مبتدأ ما كان من حياتهم فهذا من أفعال الثمانية ، وشبهه وما يكون من غير ذلك ومثله ، فهو حمل منهم للملكه الذي هو عرشه ، فهذا معنى حملها له لا غيره ، وقد تقول العرب في ذلك ، وما كان من الحال كذلك لوزير الملك العظيم الشأن ذي القوة والمقدرة والأعوان : حمل وزير فلان عنه الأمر ، تريد كفاه إياه ، وقام به ، وأنفذ فيه كل أمره ، واحتذى فيه كله مراده وحذوه ، وتقول العرب : لا تحمل على نفسك مالا تطيق ، تريد بذلك أي لا تعمل بما لا تطيق ، لا أنه شيء يحمله على ظهره ، ولا وزر يقله على متنه ، وكذلك تقول العرب : حمل فلان رعيته مالا يطيقون ، ليس تريد بذلك أنه وضع على ظهورهم حملاً منه يعجزون ، وإنما تريد كلفهم وأمرهم بأمر لا يطيقونه ، وألزمهم شيئاً لا يستطيعونه ، وفي ذلك ما يقول شاعر العرب :

حُمِّلْتُ أَمراً جليلاً فاضطلعت به وقُمْتُ فيه بأمرِ الله يا رجلُ

فقال : حملت : يريد كلفت يا رجل ، ولم يرد حملت على ظهره ثقلًا يثقلك ولا وزراً يفدحك ، وإنما أراد كلفت أمراً جسيماً فاضطلعت به ، أي قمت به ، وقويت

عليه ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١) فقال تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ أي : ليحملوا ثقل الوزر ، وثقل الوزر : فهو الإثم ويتقلدون وزرهم ، ووزر غيرهم بالأمر الذي يأتونه ، من معاصي ربهم ، وما هم يتقبلون فيه من الجرأة على خالقهم ، ولم يرد أنه وزر محمول ، ولا شيء ثقيل يوضع على الظهر معمول ، فعلى هذا ومثله وما كان من اللغة على شكله يخرج حمل الملائكة لعرش ربهم ، لا على ما يقول أهل الجهل بربهم من أنه عرش تحمله الملائكة مدبر معمول مربع ، فوق أكتافها محمول ، وأن الله سبحانه فوق العرش تعالى عن ذلك الواحد العلي الكريم وتقدس أن يكون كذلك العزيز العظيم .

ثم قال سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ معنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو : يوم قيام الملائكة بعرش ربها ، وما يكون فيه من قبضها بأمره وبسطها ﴿يَعْرَضُونَ﴾ فمعناها : يبرزون ويحاسبون ، وتعرض عليكم أعمالكم وتبين لكم أفعالكم ، وتوقفون عليها ، وتعاينون ما يجب عليكم ولكم فيها ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ يقول : لا يخفى من أعمالكم شيء ، ولا يغيب منكم في ذلك اليوم أحد ، ومعنى قوله : ﴿خَافِيَةٌ﴾ يقول : فهي مستترة وغائبة ، فيقول : إنه لا يخفى من أعمالكم صغير ولا كبير ، وإن ما كان يخفى من صغير وكبير ظاهر عليكم في ذلك اليوم كبيرا كان أو صغيرا .

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ فالكتاب : فهو الحساب ، وما أحصاه عليه ملكاه من جميع الأسباب ، فقله : ﴿أَوْتِي﴾ فهو وَقِفَ وَبَيَّنَ له أمره ، وأظهر عليه فيه سره حتى يعلمه علما حقا ، ويعلم أنه لم يحص عليه كتاباه إلا صدقا ، ومعنى ﴿بِيَمِينِهِ﴾ فهو : اليمن والبركة ، وما تلقى به الملائكة أهل الدين والتطهرة ، من البشارة من ربهم ، والتبشير والتطمين لهم عند توقيفهم ومحاسبتهم ، فهذا معنى قوله : ﴿بِيَمِينِهِ﴾ وكذلك قال ذو العزة والجلال في أصحاب الميمنة حين يقول : ﴿وَأَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ﴾^(٢) فأراد بقوله ﴿الميمنة﴾ باليمن والبركة ، والفضل والمغفرة ، لا أن ثم ميمنة قصدتها الله ولا ميسرة .

(١) - النحل : ٢٥

(٢) - الواقعة : ٨

﴿فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ ومعنى يقول : أي هو قول من المؤمن المحاسب عند تبشير الملائكة بالرحمة والرضى من الله والمغفرة ، فيقول عند ذلك لمن يحاسبه من الملائكة : ﴿هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ ومعنى ﴿هاؤم﴾ فهي : هاكم ، ومعنى هاكم : فهو حض على أن يقرأوا ، وهي تخرج على معنى هلموا اقرأوا كتابيه ، ومعنى ﴿اقرأوا كتابيه﴾ فهو : فسروا حسابيه ، واشرحوا عمليه ، وبينوا فعليه ، استبشارا منه بجزاء عمله ، وثقة منه بعدل ربه .

﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ فمعنى ﴿ظننت﴾ أي : أيقنت في الدنيا أني ملاق حسابيه في هذا اليوم ، فأخذت له أهبتة ، وعملت له عمله في دار الدنيا فلقيت السرور في الآخرة التي تبقى ، ومعنى ﴿ملاق﴾ فهو : معان مواقع مدان ﴿حسابيه﴾ فهو : مناقشتي على فعلي ومحاسبي على ما تقدم مني صغيرا قدمته ، أو كبيرا عظيما فعلته .

ثم أخبر سبحانه بمكان من كان كذلك ممن أخذ أهبتة لذلك ؛ فعمل على حذر من أمره ، وتيقظ في دار دنياه لنفسه فقال في من كان كذلك من المؤمنين المستعدين في الدنيا لحاسبة يوم الدين : ﴿فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية﴾ معنى قوله : ﴿فهو﴾ يريد أي : من أوتي كتابه بيمينه فهو في عيشة راضية ، والعيشة : فهي المعيشة ، والمعيشة : فهي الحياة الرضية ، والحياة الرضية : فهي الحياة الهنية وهي المعيشة الرضية ﴿في جنة عالية﴾ والجنة : فهي دار الثواب ، والعالية : فهي العظيمة الأمر ، الرفيعة القدر ، الجليلة الخطر ﴿قطوفها دانية﴾ فالقطوف : فهي الثمار من فواكه الأشجار التي جعلها الله سبحانه معيشة للمؤمنين ، ومتفكها للمثابين ، ومعنى ﴿دانية﴾ فهي : قريبة من المتناول لها ، متهيئة على أحسن حالاتها .

﴿كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ هذا أمر من الله سبحانه لهم بأكل ما رزقهم ، وشرب ما سقاهم ؛ إباحة منه لهم ما تفضل به عليهم ﴿هنيئا﴾ فمعناها : سليما من كل آفة ، لا أذى فيه ولا مخافة في أكله على أكله ، لا تخالف طباع أكله ، ولا تخالف إرادة متناوله ﴿بما أسلفتم﴾ يقول : هو جزاء لكم على ماقدمتم من العمل في الدنيا ، فاستوجبتكم هذا أجرا لكم في الآخرة التي تبقى ، والأيام

الخالية : فهي الأيام الفانية ، أيام الدنيا التي انقضت وفنت فمضت .

ثم رجع سبحانه إلى صفة أهل الشمال فقال : ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حساييه﴾ فمعنى ﴿أوتي كتابه﴾ فهو : حوسب ووقف على ما أحصى عليه من فعله ، وعرف من عمله ، ومعنى ﴿بشماله﴾ فهو : مثل من الله عز وجل مثله لعباده ، ضربه لهم بالشمال العسر والشدة في كل حال . يقول سبحانه : حوسب حسابا شديدا ، ووقف توقيف عنيفا ﴿فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه﴾ هذا قول من استحق الوعيد من ربه عند معاينة جزاء فعله وسعيه ، فحينئذ يقول : ﴿يا ليتني لم أوت كتابيه﴾ ومعنى ﴿يا ليتني﴾ هو : وددت أني لم أوت كتابيه ومعنى ﴿أوت كتابيه﴾ فهو : ألقى سيئ عملي ، وأعرف ما أحصى علي من فعل ﴿ولم أدر ما حساييه﴾ يقول : يا ليتني كنت ميتا على حالي ، وباليا في الأرض فانيا لا أدري ما الحساب ، ولا أرى ما كنت أوعده من العقاب ، وأكون ترابا في القبر ولم أعين ما عاينت من شدة الأمر ، ألا ترى كيف يقول :

﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ والقاضية التي تمنأها الفاسق في ذلك اليوم ، فهي القاضية التي عرف في الدنيا عند موته ، فقضت عليه فأماتته ، وإلى القبر صيرته فيتمنى أن قاضية الموت تنزل به في يوم الدين ، فترجحه من العذاب المهيئ ، فيكون في الآخرة التي تبقى ميتا فانيا كما كان في الدنيا . ثم قال : حزني وردي ، وقد أخزني لعمري إذ غوي .

﴿ما أغنى عني ماليه﴾ يقول : لم يغن عني ما كنت أجمع من المال ، ومعنى ﴿أغنى عني﴾ : فهو يدفع عني شيئا مما نالني ، فأقر في يوم الدين بأن الذي كان فيه في الدنيا غرور وتزين ، وأنه اليوم قد صار إلى الحق اليقين .

﴿هلك عني سلطانيه﴾ يقول : ضل عني تجري في الدنيا وتسلطني ، ومعنى ضل عني : أي ذهب فلم ينفعني ، وبقيت اليوم خاليا فردا وحدي ، ومن سلطان الحجة فردا ، يقول : ضلت حجتي إذ لم تكن لي حجة ولا قول يقبل مني في الآخرة ، وقد روي وقيل : إن ذلك أبو جهل بن هشام لعنه الله .

ثم أخبر سبحانه بما يكون من أمره حملة عرشه فيه ، وفي إيصال الوعيد إليه فقال : ﴿ خذوه فغلوه ﴾ ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾ معنى ﴿ خذوه ﴾ : فهو أمر من الله للزبانية بأخذه ، والأخذ له فهو البطش به والقبض عليه ، ﴿ فغلوه ﴾ معناها : أوثقوا يده إلى رقبته ﴿ ثم الجحيم صلوه ﴾ فالجحيم : هي النار ، و﴿ صلوه ﴾ فمعناها : اصلوه ، ومعنى اصلوه : فهو حرقوه وأنضجوه وعذبوه وأحرقوه ﴿ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾ والسلسلة : فهي سلسلة من حديد ﴿ ذرعها ﴾ يعني طولها ﴿ سبعون ذراعا ﴾ فهو الذراع المعروف بالطول الموصوف ﴿ فاسلكوه ﴾ معناها : في السلسلة فاجعلوه ، ومعنى جعله في السلسلة : فهو معنى جعل السلسلة في رقبته ، وقد قيل : إنها تنفذ من ظهورهم إلى صدورهم حتى ينظموا فيها نظما نظما ، وقد قيل بغير ذلك ، وأصح ذلك عندنا جعلها في أعناقهم ؛ لأن الله سبحانه قد ذكر ذلك فقال : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ﴾ ^(١) .

قوله : ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾ يقول : إنه كان لا يصدق بأمر الله ولا يقر بوحداية الله ، ولا يتعبد لله بما أمره ﴿ العظيم ﴾ فهو : الخليل النافذ لإرادة ، ماضي المشيئة ، الذي ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير .

وقوله : ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ يقول : لا يأمر بإطعام المستطعمين من المساكين بل كان ينهى عن ذلك جميع المطعمين ، وقد يخرج معنى ذلك على أنه لم يكن يحض على أداء الزكاة التي جعلها الله عوناً للمساكين ، وتقوية على إقامة الدين فلم يكن يؤديها ولا يحض - لعنه الله - عليها .

ثم قال سبحانه : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾ يريد أنه ليس له في يوم الدين حميم ومعناها : أي عندنا في دار آخرتنا حميم ، والحميم : فهو ما كان يغتر به من البنين والعصبة والأقربين ، فأخبر الله سبحانه أنه كان انقطع عنه في ذلك اليوم الذي كان يغتر به في الدنيا من عشائره وأقربيه ، وأهل طاعته وبنيه ، ففارقه أصحابه وأعوانه

وضل عنه في ذلك اليوم سلطانه .

﴿ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون﴾ فأخبر أنه لا طعام له في ذلك اليوم ولا معيشة ولا حياة ﴿إلا من غسلين﴾ والطعام : فهو المأكول ، والغسلين : فهو صنف من طعام أهل النار يدعى الغسلين ، وهو شيء يزيد أكله بلاء وجوعا وشقاء ، لا يهنأ أكله ، ولا ينتفع صاحبه ، جعله الله عذابا لأهل معصيته ، ألا تسمع كيف يقول : ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾ فأخبر سبحانه أن أهل الخطاء على أنفسهم بالمعصية لربهم يأكلون الغسلين ، ويعذبون بأكله في يوم الدين .

ثم أقسم سبحانه عن صدق قول رسوله صلى الله عليه وعلى آله ، بما جاء به من الرسالة عن ربه ، فقال سبحانه وجل عن كل شأن شأنه : ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم﴾ معنى ﴿فلا﴾ هو : أفلا أقسم ، ومعنى ﴿بما تبصرون﴾ يريد : بما تبصرون من الأشياء مما فيه أثر قدرتنا ، وعجائب تدبيرنا من لطيف صنعنا ، الشاهد بالربوبية لنا ، الناطق بصدق رسولنا ، من الآيات الباهرات التي جاء بها النيرات ، اللواتي هن دلالات وعلامات على أنه من المرسلين ، بما جاء به من الأمر المبين ﴿وما لا تبصرون﴾ يقول : وبما لا ترون مما قد علمناه ، فأقسمنا به وذكرناه ، من عجائب خلقنا ، ودلائل فطرتنا في الجن والملائكة ، وغير ذلك من الأشياء المغيبة التي لا ترونها بأعينكم ، ولا تفهمونها لعجزكم ، وقلة استطاعتكم واستدراك ما غاب عنكم ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ يقول : إن هذا الذي ذكره لكم رسولنا مما بعثناه به ، وأيدناه بذكره ، والإعذار فيه والإنذار — لأحق ما يكون من القصص والأخبار ، من ذكر الحاقة والواقعة ، وتشقق السماء إذ هي واهية ، ووقوف الملك على أرجائها عند وقت تغييرنا لها وتبديلها ، وظهور خافيات صدوركم حين تعرضون على ربكم ، واستبشار من أوتي كتابه بيمينه ، وحلوله فيما وعدناه من جنتنا ، ومني من أوتي كتابه بشماله عند وقت معايته لما كان يوعد به في حياته القاضية المغنية ، و الجائحة المهلكة ، وإقراره بقلة إغناء ماله عنه ، وهلاك سلطانه منه وما ذكر صلى الله عليه وآله لهم مما أمر بذكره ، ووصفه لما أمر بوصفه ، وشرحه لما أمر بشرحه ، من الجحيم وإصلاحها لأهلها ، والسلسلة وذرعها ، وغل أهلها في يوم

الدين بها ، وما أمر بذكره فذكره ، والتحذير له فحذره ، من أكل الغسلين ، الذي جعل طعاما للخاططين ، فأقسم - سبحانه وجل عن كل شأن شأنه - إن القول كله من قول رسوله لأحق من بعثه به إلى خلقه ، وأمره بشرحه لجميع بريته ، وإنه لقول رسول كريم ، وما هو كما يقولون ، ولا كما يذكرون في كذبهم ، وما يسطرون فيزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله شاعر ، ومرة كاهن ، ومرة ساحر ، ومرة مجنون ، فأخبر سبحانه أنه لقول رسول كريم ، وهو صادق عليم .

ثم أقسم ما هذا القول ﴿وما هو بقول شاعر﴾ قال سبحانه : ﴿قليلًا ما يؤمنون﴾ يريد : أن إيمانكم وتصديقكم بالحق الذي جاء به رسولنا من عندنا على ما ترون من البراهين التي لا تكون إلا منا - قليل لكفركم وعنادكم ، وتكذيبكم وحسدكم .

ثم رد على القسم بالواو فقال : ﴿ولا بقول كاهن﴾ فنفي سبحانه أن يكون هذا القول قول الكاهن ، ثم قال : ﴿قليلًا ما تذكرون﴾ فأخبر أن تذكركم قليل ، ومعنى ﴿تذكرون﴾ فهو : تدبرون الأمور ، وتنفكرون فيها ، فأعلمهم سبحانه أن تذكركم وتدبرهم قليل ، وأنهم لو تذكروا أو تدبروا وتفهموا وأنصفوا لعلموا أن هذا قول رسول كريم ، وأنه ليس بقول شاعر ولا كاهن رجيم .

ثم أخير تبارك وتعالى أن كلما أتى به صلى الله عليه وعلى آله من ذلك ، فهو من الله حقًا ، وقولًا صدقًا ، فقال سبحانه : ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ فأخبر أن محمدًا صلى الله عليه وآله لم يبلغهم إلا ما أمر به إليهم ، وأنه لم يزد ولم ينقص في شيء تلاه عليهم .

ثم قال : ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ يقول : لو كان في شيء مما يقولون حتى تقول علينا باطلا كما تذكرون في بعض أقاويله ، أوفي شيء من أخباره وأحاديثه . ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ معنى اليمين : فهو الأمر القوي المين ، وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب :

إذا ما راية رفعت لمجد تناولها عرابة باليمين^(١)

ومعنى ﴿أخذنا منه﴾ فهو انتقمنا منه انتقاما شديدا ، فهذا معنى ﴿أخذنا منه باليمين﴾ .

﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ يقول : لأنزلنا عليه نعمة تقطع وتينه ، والوتين : فهو نياط القلب وعلاقته ، التي تكون بقطعها مفارقتها للحياة ومصيره إلى الوفاة .

﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ يخبر سبحانه أنه لو أراد به سبب ، ما كان له عنه حاجز منهم ، ولا عنه له مدافع فيهم ، فصحح سبحانه لنبيته صلى الله عليه وعلى آله أداء الأمانة ، وتبليغ الرسالة بما ذكر من قوله : ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ لأنه لما أن قال : ﴿لو تقول علينا﴾ لفعلنا به ما ذكرنا ، ثم لم يكن منه سبحانه فيه شيء مما ذكر أنه يفعله به لو تقول علينا باطلا - صح له صلى الله عليه وآله بأحق حقائق التحقيق أداء الأمانة ، وتبليغ حقيقة الرسالة بصحة نصيحة وصدق ، وثبت له الحجة بذلك على الخلق ، والحاجز : فهو المانع ، والمانع : فهو القائم دونه والمدافع .

ثم أخبر جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله أن هذا القول الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وآله من الإعذار والإنذار ، والتحذير والأخبار بذكره للمتقين فقال : ﴿وإنه لتذكرة للمتقين وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ فمعنى ﴿إنه﴾ يقول : إن هذا القرآن ، والقول ﴿لتذكرة للمتقين﴾ والتذكرة : فهي التنبيه والزجر والتحذير للمتقين ، والمتقون : فهم المؤمنون المتقون لربهم ، والمتقي : فهو الخائف لذنبه المشفق من عذاب ربه ، فأخبر سبحانه أن هذا كله لا يتفجع به ، ولا يكون تذكرة إلا لأهل الدين والتبصرة ، الذين يتفكرون فيه ، ويذكرونه .

(١) - قال الشاعر : بشاة مذلقتك الوتين ... وقال آخر :

ماذا فقه المرء على شهوة ألد من ود صديق أمين
من فاته حب أخ ناصح فذلك المقطوع منه الوتين

استشهد به الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام في تفسيره ، نقلت هذه الحاشية من الأصل النسخة (أ) ..

ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ فأخبر سبحانه أنه يعلم ممن نزل عليه هذا القرآن مكذبا به غير مؤمن بغييه ، معاندا للرسول عليه السلام في قوله مخالفا له سبحانه في حكمه .

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يقول سبحانه : حسرة في يوم الدين على الكافرين متحسرون عليه ألا يكونوا قبلوه ، و ألا يكونوا آمنوا به واتبعوه ، والحسرة : فهي الندامة والحرقة ، و التأسف على فوات ما فاتهم إذ كان ممكنا لهم في حياتهم فتركوه في وقت إمكانه ، فتحسروا عليه بعد فواته ، والكافرون : فهم العاصون المكذبون .

ثم قال سبحانه : ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ يريد بقوله : ﴿وَإِنَّهُ﴾ يقول : إن هذا القول الذي قلنا ، والذكر الذي ذكرنا ، والشرح الذي شرحنا لحق يقين ، صادق القول مبين ، وآت كائن قريب من أهله واقع بهم حال نازل عن قليل عليهم .

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ معنى ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي كبر ، وقدر ، وقُدِّس ، ونزّه ربك إذا ذكرته بشيء من أساميهِ ، ونسبت إليه في شيء مما يرضيه ﴿رَبِّكَ﴾ معناها خالقك ومالكك ﴿الْعَظِيمِ﴾ فهو : الواحد الجليل ، الفعال لما يريد ، الغالب غير مغلوب ، الذي ما شاء من الأشياء أن يكون كان ، بلا كلفة ولا أعوان ، النافذ المشيئة ، العظيم القدرة ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، الذي لم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيراً .

تفسير سورة ن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى ﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾
 هذا قسم من الله سبحانه بالنون والقلم وما يسطرون ، على أن رسول الله غير مجنون
 كما يقول الفاسقون ، ونسب إليه المكذبون ، فأقسم الله بالنون ، والنون : فهو
 الحوت ، وما أحسب - والله أعلم - أن الله أقسم في هذا الموضوع بنون غير نون
 يونس النبي صلى الله عليه الذي التقمه ، ولبت في بطنه حتى أراد الله تخليصه فخلصه
 فأقسم الله به سبحانه تنبيها على عجب ما جعل فيه وركبه ، وقدر له وسبب من
 التقاه ليونس رسول الله صلى الله عليه ، ومكث في بطنه حيا سويا ، طول ما مكث
 في خوفه مستجنا ، فبه سبحانه على عجب ما كان من قذفه له عند إرادة الله لقصفه
 فلما أن كان من تدبير الله عز وجل لذلك كله في يونس صلى الله عليه ، وأمره
 بالحوث وسببه ، أقسم الله سبحانه في هذا الموضوع به تنبيها على عجائب ما كان فيه
 من قدرته .

وكذلك أقسم بالقلم تنبيها منه لجميع الأمم على ما فعل فيه وركب ، وهدى
 الخلق إليه وسبب ، من قطع القلم وبريه ، وشقه وقطعه ، ومحكم ما هداهم إليه من
 تدبيره ، وفطنهم سبحانه من تقديره حتى قدره بقدرة الله تقديرا ، ودبروا أحكامه
 بهداية الله لهم تدبيرا ، حتى صلح بعد التقدير ، والتأم بعد الأحكام والتدبير ، فصار
 سببا لما يسطر ويكتب ، ويبين في الصحف من كل ما سبب ، فبه الله سبحانه جميع
 العالم على عظيم ما أهمهم له من تدبير القلم ، وعلى عجب ما أهم الخلق من أمره
 وهداهم إليه من تدبيره ، حتى صلح لما جعل له ، لأن آيات القلم ، وفعل الله فيه
 وماهدى ودل الخلق عليه - فَعَلَّ عَجِيبُ أَمْرُهُ وَلَطْفٌ ظَاهِرٌ نُورُهُ ، ألا ترى كيف
 يسطر به ما لا يستغنى عنه من العلامات والدلالات ، والأسرار الخفيات ، والأخبار

الكفايات ، حتى يبلغ بها الحاجات ، ويعلم بها الإرادات ، ويثبت بالقلم في الصحف كل حاجة بعدت أو قربت ، تبلغ بعيد البلاد وقريبها ، وقاصيها ودانيها ، مع ما ينال بالقلم من غير ذلك من تنفيذ حساب العالمين ، وما يحفظ به من التداين بين المتدائنين وما يسطر به من كتاب رب العالمين ، ويثبت به من أحكام أحكم الحاكمين ، ويكون به أثت علم المتعلمين والعالمين ، وبسببه وما ذكرنا من ألوانه وأسبابه ، وحكمه وآياته مامثل الله للمعتاد^(١) حفظه لأفعال عباده ، صغيرها وكبيرها بما يكتبونه بالقلم في صحفهم ، ويثبتونه بالقلم عندهم في كتبهم ، فيكون عندهم مذكورا لا ينسى ، وثابتا صحيحا أبدا أبدا ، فقال سبحانه : ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾^(٢) وقال : ﴿فأما من أوتي كتابه يمينه﴾^(٣) وقال فيما حكى من محاوره موسى وفرعون حين قال فرعون : ﴿فما بال القرون الأولى﴾^(٤) فأجابه في ذلك موسى صلى الله عليه عن العلي الأعلى فـ ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾^(٥) فمثل له حفظ الله سبحانه لأمرها ، وعلمه بصورة شأنها ، وما تقدم من فعالها بما يكون في الكتاب ، الذي لا ينسى ، الذي هو غاية الحفظ عندهم ، وأكثر ما به يحفظون أسبابهم فهذا كله من عجائب تدبير الله في القلم ، وما هداهم إليه في ، من جميع الأمم فخلد ذلك أقسم به الرحمن تنبيهها منه لجميع الإنسان ، على ما كان منه فيه من المن والإحسان .

قوله : ﴿وما يسطرون﴾ فأقسم سبحانه بما يسطرون من القرآن العظيم ، الذي يكتبون ويقرأون ، وقد يمكن أن يكون معنى قوله : ﴿وما يسطرون﴾ تنبيهها لهم على النعمة ، وجليل أثر القدرة ، فيما دبره من حروف الهجاء من الألف واللام ، والواو والياء وغير ذلك من الأشياء ، وغير ذلك من التسعة والعشرين حرفا ، التي جعلت للكتاب كله حكما ومعنى ، فنبههم سبحانه على ما هداهم إليه منها ، وعلمهم إياه

(١) - وفي نسخة (ما مثل الله للعباد - حفظه لأفعال عباده

(٢) - القمر : ٥٢

(٣) - الحاقة : ٩١ ، الإنشقاق : ٧

(٤) - طه : ٥١

(٥) - طه : ٥٢

من تدبيرها ، وتقطيع ماتقطع منها ، وتوصيلها مايوصل فيها حتى تجتمع الأحرف في الاسم الواحد المسمى ، ويفترق في غيره من الأسماء فيأتي كل شيء على معناه ويستوي كل حرف على أصله ومستواه ، ففي هذا - لَعَمْرُ من عقل واهتدى - دليل على من إليه هدى ، ومبين لقدرة من قدره ، وشاهد على حكمة من دبره .

فإن يكن أراد سبحانه بقوله : ﴿ومايسطرون﴾ أي مايقولون ويجعلون من تلفيق حروف الكتاب ويؤلفون ففي أقل من هذا ما أقسم الله به ، ودل عليه ، ونبه أهل الجهل به على معانيه ؛ احتجاجا من المقسم به على الشاك في قدرته ، الضال الفهم عن حكمته .

وإن يكن سبحانه أراد بقوله : ﴿ومايسطرون﴾ كتابه الذي يقرأون ، الذي ذكره وأقسم به في أول سورة ﴿والطور﴾ حين يقول سبحانه : ﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور﴾ فهو : الكتاب الذي يسطرون ، وهو القرآن الحكيم الذي يقرأون وكلا الأمرين يخرج في المعنى ، ويصح في قلب من كان ذا هدى .

وقد أتوهم - والله أعلم - أن الذي أقسم به في نون ، الذي ذكر أنهم يسطرون : هو القرآن المبين ، الذي جاء به من رب العالمين ، فأقسم به سبحانه لجليل أمره وعظيم خطره ، وما جعل الله من برهانه وأمره وحججه على خلقه ، وحلاله وحرامه وماتعبد به سبحانه جميع خلقه وعباده ، فأقسم سبحانه بالنون والقلم ومايسطرون من كتاب الله العظيم الذي يكتبونه ، ومانبيته صلى الله عليه وعلى آله بنعمة ربه بمجنون ومعنى قوله : ﴿ماأنت﴾ أي : ماأنت يا محمد ﴿بنعمة ربك﴾ يريد : بكرامة ربك ومدافعتك لكل سوء عنك ، وربك : فهو خالقك ومالكك ﴿بمجنون﴾ يقول : ماأنت بزازغ العقل ، ولا مأفون ولا مملوط مجنون .

﴿وإن لك لأجرا غير ممنون﴾ يقول : لك عند ربك أجرا ، والأجر : فهو الثواب والعطاء على ما صبر عليه من المحن والبلاء ﴿غير ممنون﴾ فالممنون هو يقول : غير مستكثر لك ولا ممنون عليك ، يعني بالذكر له في يوم الدين ، والإستكثر له ، بل هو

قليل لك عندنا ، وإن كثر في عينك وعين غيرك ، صغير ما أعطيناك عندنا ، وإن كان عظيما عندك ، هذا معنى ﴿غير ممنون﴾ .

﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ فهو : ما جعله الله عليه من الطبع الكريم ، والقلب البر الرحيم ، والأخلاق الحسنة ، والطبائع الكريمة من الصبر والتحمل ، والعفو والتحمل ، وغير ذلك من الأخلاق التي جعلت فيه ، وأمن الله سبحانه بها عليه التي يعجز عن يسرها غيره ، ولا يحمل القليل منها إلا مثله ، والخلق : فهو ما يتخلق به العباد بينهم ، وتخلقهم : فهو فعلهم ، وفعل الله في خلق نبيته صلى الله عليه وعلى آله فهو عون وتوقيه وتسديده ، لكل جميل من الأخلاق ، فلما أن كان العون في ذلك من الواحد الخلاق - جاز أن ينسب إليه على طريق مجاز الكلام في قول القائلين لأن شيئا من أفعال رسول الله عليه السلام فعل لرب العالمين ، وقوله : ﴿خلق عظیم﴾ فهو : خلق جليل ، لا يقدر عليه غيرك ، ولا يفعله سواك .

﴿فستبصر ويبصرون﴾ معنى ﴿فستبصر﴾ يقول : سوف ترى ويرون صدق ما تخبر به ويخبرون ، ونذكر لك ونعدك ونعدهم ، ونخوفك ونخوفهم ، ونشرح لك من أمر القيامة ونشرح لهم من العذاب والثواب ، ألا تسمع كيف يقول : ﴿فستبصر ويبصرون﴾ ﴿بأيكم المفتون﴾ يقول : فستعلم ويعلمون بأيكم المفتون : فهو المعذب المغبون ، ومعنى ستبصر ويبصرون : هو تعلم ويعلمون ، والعرب تجعل تبصر في معنى تعلم ، وتعلم في معنى تبصر ، تقول العرب : فلان بصير بالمال والحرام ، تبدد عالم بهما ، فهم بأسبابهما ، وتقول : بصير بالشعر ، بصير بالنحو ، تريد بقولها : بصير بها أي عالم بأمرهما ، واقف على حدودهما ، فأخبر الله سبحانه نبيته صلى الله عليه وعلى آله أنه سيعلم ، وأنهم سيعلمون في يوم الدين من يكون من المعذنين .

ثم قال سبحانه : ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ فأراد سبحانه وجل جلاله أنه أعلم بمن ضل عن سبيله ، ومعنى ﴿ضل﴾ فهو : عدل وترك ، و﴿سبيله﴾ فهو : طريقه ودينه التي جعلها لخلق ديناً وسبيلاً ، ومتعبداً يعبدونه ، وينتبتون عليه لا يعدلون عن قصده ، ولا يميلون عن محبته .

ثم أخبر أنه أعلم بالمهتدين ، والمهتدون : فهم الثابتون على سبيله الذي ارتضاه لخلقه .

ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله عن المخافة في ذاته لوعيد المكذبين فسمى المخافة لهم طاعة لمن خافهم ، فقال سبحانه : ﴿فلا تطع المكذبين ودوا لوتدهن فيدهنون﴾ معنى : ﴿لا تطع﴾ هاهنا - في هذا المكان بأوضح الحق والبيان - : فهو لا تخف وعيدهم إياك ، فتترك شيئا مما أمرنا لك به من الجهر بدعوتك ، والإظهار لشرائع دينك ، والإعلان بعبادة ربك ، متاقاة لهم ومخافة من شرهم ، والمكذبون الذي نهى الله عن خوفهم ، فهم أهل التكذيب لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله الذي جاء به عن الله خاصة .

﴿ودوا لوتدهن فيدهنون﴾ يقول سبحانه : ﴿ودوا لوتدهن﴾ لهم في الإلقاء لمخافتهم ، إما برهبة ، وإما بمصانعة فتترك شيئا مما أمرت بإظهاره فتخفيه مخافة لهم ومحاذرة أن تبديه ، فيدهنوا هم بأكثر من ذلك وأوفر ، يقول : ودوا لوتصانعهم في شيء فيصانعونك في أكثر منه ، وتداريهم في يسير فيدارونك بأعظم من مداراتك لهم ليوقفوك بذلك عن مبايعتهم ، ويحجروك بالمدارة والمداهنة على مكاشفتهم ، فأخبر الله سبحانه أنهم يودون بآجمعهم لو تركت شيئا من مبايعتهم .

ثم أمره ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ والطاعة هاهنا التي نهى الله عنها لكل حلاف مهين فهو : أيضا مذكرونا من المخافة من الحلاف المهين ، في شيء من وعيده وإبراقه وإرعاده عليه ، وحلفه وأيمانه فيه ، فنهاه صلى الله عليه وآله من مخافته أو ترك شيء من إظهار أمر الله لمراقبته ، وسمى تركه لشيء من ذلك لخوف شيء من وعيده طاعة منه له ، والحلاف : فهو الكثير الأيمان بالله ، الذي لا يفي بشيء منها ، ولا يقوم بحد من حدودها ، والمهين فهو الذليل الحقير .

﴿هماز مشاء بنميم﴾ فالهماز : هو الذي يهمز الإنسان من خلقه ، ومعنى يهزمه : أي يؤذيه بلسانه ويتناوله ، ويقع فيه من ورائه ويتقصه ﴿مشاء بنميم﴾ معنى ﴿مشاء﴾ أي : مشاء بين الناس ﴿بنميم﴾ بالنمائم ، والمشي بها : فهو الجحيء إلى ذا

بالخير عن ذا ، والجحيء من ذا الى ذا بالخير ليقوع بينهم الوحشة والبلاء والعداوة والأذى ، ومعنى ﴿بنميم﴾ فهو : يبلاغه ويخبره ، والتميمة فلا تكون خاصة إلا في كل خير قبيح يوحش بعض الناس من بعض ، ويفسد المودة بينهم ، ويقوع الوحشة في قلوبهم ، فما كان من الأخبار المنقولة بفعل هذا فهو نيمة ، وناقله يدعا نماما ، ومالم يكن من الأخبار يوقع الوحشة ، ويوجب الفرقه ، ويحدث الهجرة والبغضة فلا ينتظمه اسم النيمة ، ولا يدعى حامله وناقله نماما .

﴿مناع للخير﴾ يقول : فهو الممتنع من كل خير ، الداخِل في كل ضير ﴿معتد أثيم﴾ فالمعتدي : هو الظالم الغوي ﴿أثيم﴾ فهو : الآثم الردي .

﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ العتل : فهو القدم ^(١) من الرجال في الخلق والفعال ، الذي لا فهم له بما يقول أو يفعل ، ولا معرفة له بما يأتي وما يعمل ، الذي لا يميز بين الأمور في معانيها ، ولا يعرف حسناتها من مساوئها ، ولا يفعل شيئا بتميز أصلا ، ولا يأتي من الخير إلا ما عتل عليه عتلا ، لفدامة خلقه ، وقلة تمييزه لنفسه . ﴿بعد ذلك زنيم﴾ يقول : بعد هذه الخصال التي فيه كلها هو زنيم أيضا ، والزنيم : فهو الذي له في خلقه زغمتان يبين بهما من غيره للمبصرين ، يكونان في خلقه متدلّيتين ، يعرف بهما ويستدل على معرفته بذكرهما ، كزغمتي الشاة التي يكونان في خلقها تذكر وتوصف بهما .

﴿أن كان ذا مالي وبنين﴾ معنى ﴿أن كان﴾ فهو : إذ كان ﴿ذا مال وبنين﴾ فمعنى ﴿ذا﴾ فهو : صاحب مال ﴿وبنين﴾ والبنون : فهم الذكران من الأولاد .

﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾ يقول : إذا قرئت عليه آياتنا ، وذكرت عنده ﴿قال أساطير الأولين﴾ وأساطير الأولين : فهي أحاديث الأولين ، وأحاديث الأولين : فهي أقاويل المكذبين ، وأسما المتحدثين ، فنسب هذا الزنيم آيات الرحمن الرحيم ، ووحى

(١) - في المعجم الوسيط : القدم : رجل قدم : ثقل الفهم عبي ، وجمعه : فِدَام . وفَدَمَ فُدُومَةً ، وفَدَامَةً : ضعف فهمه وعي عن الحجة ، وحمق وحفا ، وسمن ، فهو قَدَم .

العلي الحكيم ، وما جاء به من النور على لسان نبيه البشير النذير إلى الأسمار ، والباطل والقول القديم الحائل .

فأخبر الله تبارك وتعالى أن من كان ذا مال وبنين - كان الواجب عليه الحمد والشكر لله رب العالمين ، دون ما يأتي به الوليد بن المغيرة اللعين ، من الكفر بآيات الرحمن ، والجحدان لمفصل القرآن ، فجعل الشكر على ما أولى ، والمجازاة على ما أعطي ؛ تكذيباً وكفراً وعناداً عن الله وشراً .

﴿سنسمه على الخرطوم﴾ فوسم الله على خرطومه : هو ماوسمه الله به من ذكره في القرآن وذمه بما تسمع في هذه الآيات من ذكره ، فجعل الله سبحانه ماشرح من أخباره ، في هذه الآيات ، وفسره من صفته وحاله في هذه المحكمات وسمى ودلالات يعرف بها الذكر والوصف في كل الأسباب كما يعرف الوسم كل موسوم من الدواب ، وإنما ذكر الله الخرطوم دون غيره ؛ لأنه شيء لا يستتر بثوب ، ولا يستتر عن المتوسمين ؛ لأن الوجه بارز أبداً للناظرين ، والخرطوم : فهو الأنف وماوالاه ، وما كان منه وداناه .

[قصة قريش وقتلهم في بدر]

ثم ذكر سبحانه وجل عن كل شأن شأنه ذكر من سار إلى بدر من قريش لقتال النبي صلى الله عليه وآله ، وما طمعوا به من الأمر العظيم فيه ، فصرف الله عنه كيدهم ، وأمكنه منهم وأذهم ، ثم ذكر ما فتنتهم به وبلاهم ، من ستر أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله عنهم ، وما كان من إيجابه من النصر له عليهم ، فلم يعلموا بشيء من أمره ، ولم يحسبوا منازل بهم من ربه ، فكانوا مقتدرين في أنفسهم على أخذه ، وأخذ من كان معه لما رأوا قتلهم ، فدخل في قلوبهم الطمع فيه وفي أصحابه اقتداراً وكفراً وطمعاً فيما لن ينالوه ، ولن يطيقوه ، ولن يبلغوه ، فقال أبو جهل بن هشام اللعين لمن معه من أوياش الكفرة الملاحين : لا تقتلوهم وخذوهم فأوثقوهم واربطوهم ، فتكون تلك فضيحة على محمد صلى الله عليه وآله وعلى آله وعليهم فيدخلون به مكة أسيراً ، فذلك أفضح لهم وأبلى ، فلم ينالوا ما أرادوا ، ولم يبلغوا

مأملوا ، وقضى الله أمرا كان مفعولا ، فأنفذ وعده لنبيه صلى الله عليه وعلى آله
انفاذا ، وحباه ونصره عليهم فقتل من خيارهم سبعين ، وأسر من أعداء الله سبعين
وغنمه الله غنائمهم ، وفل حدهم ، فقلت فَضَلُّتُهُمْ ^(١) خائبة حاسرة منهزمة هاربة
طائرة .

فمثل الله سبحانه ما كان من اقتدارهم وبغيهم على نبيه صلى الله عليه وعلى آله
وأصحابه ، باقتدار أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين ، وهذه الجنة
فجنة من جنات الدنيا ، كانت باليمن على اثني عشر ميلا من صنعاء ، صارب بواد
يقال له : احرثي ، فلما دنا حصاها ، وأينعت ثمارها ، وحسنت حالها أقسم أهلها
ليصرمنها في غدهم مصبحين ، إقتدارا على صرمها من الصارمين ، فلم يستثنوا في
قسمهم ، فكان ماذكر الله من أمرهم من ذهاب جنتهم ، حين طاف عليها طائف
من ربهم فهلك مافيها من ثمرها ، فأصبحت خواء من كل ماكان فيها ، فذكر الله
سبحانه أن أبا جهل وأصحابه نزل بهم في اقتدارهم ، على ماكان من جنتهم ومن
ثمارهم ، فنزل بكفرة قريش الفسقة المقتدرين منازل بالإقتدار بأهل الجنة المقسمين .

ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا
ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون﴾ معنى ﴿بلوناهم﴾ أي : اخترناهم بابتلائهم لنعلم
هل يرجعون عن اقتدارهم ؟ فلم يرجعوا ، فأخذهم بأسنا بما عصوا ، وهؤلاء المبتلون :
فهم قريش الكافرون .

قوله : ﴿كما﴾ فمعناها : مثل ، وقوله : ﴿بلونا﴾ أي : اخترنا ﴿أصحاب الجنة﴾
فهم : أصحاب صاد ، وهي الجنة التي أقسم أهلها ليصرمنها ﴿إذ أقسموا﴾ يقول : إذ
حلفوا ﴿ليصرمنها﴾ يقول : ليقطعن ثمرها ﴿مصبحين﴾ فهو : صباحا منورين
﴿ولا يستثنون﴾ يقول : لم يقولوا : إن شاء الله ، فيثبتوا بذلك القدرة لله ، فلما أن
لم يستثنوا في قسمهم ، وبغوا في ذلك وطغوا ، طاف عليها ماذكر الله من أمره حين
يقول سبحانه : ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ معنى ﴿فطاف

(١) - أي الذين فضلوا وبقوا منهم فلم يقتلوا أو يؤسروا .

عليها﴾ أي : واقعها ونزل بها ﴿طائف من ربك﴾ والطائف : فهو الأمر الذي نزل بها وعمها وطاف فيها حتى أبادها ، وأفناها وتركها ، كأن لم يكن فيها ثمر ولاخير ﴿وهم نائمون﴾ فمعناها : وهم راقدون ، أي في الليل .

﴿فأصبحت كالصريم﴾ يقول : أصبحت في ذهاب مافيهها ، وبواد ثمرها لما نزل بها من طائف ربها ﴿كالصريم﴾ والصريم : فهو كالشيء الذي قد صرم فذهب من أرضه ، وخلت الأرض من بعده .

﴿فتنادوا مصبحين﴾ معنى تنادوا مصبحين : أي تصايحوا وتداعوا عندما أصبحوا وجاء وقتهم الذي فيه اتعدوا . ﴿أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾ فتصايحوا وتداعوا بهذا اللفظ ﴿اغدوا﴾ أي : انهضوا في غداكم ، واذهبوا الى حرثكم فاصرموا ، والحرث : فهو الموضع الذي يكون فيه الزرع ﴿إن كنتم صارمين﴾ أي : إن كنتم لزرعكم قاطعين .

﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ يقول : معناها فانطلقوا : أي مضوا وذهبوا وساروا ونهضوا ﴿وهم يتخافتون﴾ يقول : وهم يتشاورون ، ويغبون كلامهم ويتناجون ويخفون عن غيرهم مايقولون ﴿ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ يقول : ويتناهون عن اطعام المسكين ، لايقربنهم ظنا منهم بما في جنتهم من ثمرهم ، قوله : ﴿ألا يدخلنها﴾ يقول : لايقربنها ولايدخلن عليكم فيها مسكين ، والمسكين : فهو السائل لهم الطالب ما عندهم .

﴿وغدوا على حرث قادرين﴾ معنى ﴿غدوا﴾ أي خرجوا وبكروا ﴿على حرث﴾ فالحرث : هو القطع ، يقول : على قطع الثمر ﴿قادرين﴾ معناها : مقتدرين .

﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون﴾ معنى ﴿رأوها﴾ أي : عاينوها وأبصروها ، وصاروا فيها وأتوها ﴿قالوا إنا لضالون﴾ أي : لمخطون ، ليس هذه ضيعتنا ، ولاهي بجنتنا ، هذه جنة قد هلكت ، وذهب مافيهها فصرمت ، وجنتنا غير هذه الجنة ، وليس هذه الجنة بتلك الجنة ، ثم تعرفوا حدودها ، وفهموا معالمها فأيقنوا أنها جنتهم ، و علموا أنها ضيعتهم ، فقالوا من بعد ذلك : ﴿بل نحن محرومون﴾ :

بل هي ضيعتنا ، ولكننا محرومون لثمرها ممنوعون مما كان فيها قد نزل بها أمر الله فأهلكها ، ولم ينزل ذلك من الله إلا عن جرم كان منا ، وخطأ كان من فعلنا فجرمنا ما كان قد أعطانا ، وصرف عنا ما كان قد رزقناه ، فصرنا لذلك محرومين ومنه بالخطيئة ممنوعين .

﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ فأخبر أنه قد كان قال لهم عند وقت ما أقسموا : سبحوا ربكم ، واذكروا واثبتوا القدرة له ، واستثنوا فلم يفعلوا في ذلك الوقت ما أمرهم أوسطهم ، ولم يحسبوا أنه ينزل بهم منازل بهم من عقوبة ربهم ، عند ظلمهم وبغيتهم ، فرجعوا باللوم على أنفسهم ، وأبدوا ما كانوا يخفون من تسبيحهم خوفا من أن ينزل بهم في أنفسهم ما هو أشد مما نزل بهم في جنتهم .

﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ معنى ﴿سبحان ربنا﴾ أي : تعالى ربنا ، وتزهدنا ، وجل سيدنا عن فعلنا ﴿إنا كنا ظالمين﴾ يقولون : نحن كنا ظالمين لأنفسنا فيما فعلنا ، فأقروا بذنبهم ، وشهدوا على أنفسهم بظلمهم ، ثم أقبلوا يتلاومون ويختصمون ويتعاذلون فيما كان من تفریطهم في أمرهم ، وسوء نظرهم لأنفسهم كما قال سبحانه وجل عن كل شأن شأنه :

﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ معنى ﴿فأقبل بعضهم على بعض﴾ قصد بعضهم بعضا بالتلاوم ، والعدل فيما كان من خاطئ الفعل ﴿يتلاومون﴾ فهم يتعاذلون ، ويقبحون أفعالهم ويعجزون آراءهم .

﴿قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين﴾ معنى ﴿قالوا﴾ أي : هم تكلموا به وأظهروا معنى ﴿ياويلنا﴾ فهو : ياويلنا من هذا الأمر ، الذي أدخل الويل علينا ، والويل : فهو الغم والطويل من الهم ﴿إنا كنا طاغين﴾ يقولون : المعنى الذي أدخل الويل علينا هو ما كان من طغياننا ، والطاغون : فهم العتاة الباغون ، الذين لم يستسلموا في يد الله ولم يلقوا بأمرهم كلهم الى الله فأقروا بطغيانهم ، وعلموا أنه كان سبب هلاكهم .

ثم رجعوا الى القصد الواجب ، والحق المصيب الراتب ﴿فقالوا عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا الى ربنا راغبون﴾ معنى ﴿عسى﴾ أي : لعل ﴿ربنا أن يبدلنا﴾

معناها أن يخلف علينا ويبدلنا بدلا من الذي ذهب منا من جنتنا ﴿خيرا منها﴾ معنى ﴿خيرا منها﴾ فهو : أفضل منها ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ معناها : راجعون طالبون قاصدون سائلون ، ومعنى ﴿إلى ربنا﴾ فهو : من ربنا ، أي إنا من ربنا للبدل والعوض سائلون.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك منه عذاب لهم ونقمة أنزلها بهم على ما كان من عتوهم فقال : ﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ معنى ﴿كذلك العذاب﴾ يقول : كذلك نعذب بالانتقام من أردنا عذابه من الأنام في الدنيا ، بذهاب مآذيه من أموالهم ، وانتقاص ما تنقصه من أنفسهم وثمارهم ، فجعل ما ينزل بهم من ذلك في الدنيا الفانية عذابا أدنى دون عذاب الآخرة الباقية ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه : ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾^(١).

ثم أخبر سبحانه أن عذاب الآخرة لمن عصى عن أمره أشد وأعظم عليه مما ينزل به في حياته ونفسه ، فقال : ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ يقول : أجل وأعظم وأخطر ، والآخرة : فهي الدار التي أول أيامها يوم القيامة ﴿لو كانوا يعلمون﴾ يقول : لو كانوا يفقهون ويعقلون .

ثم أخبر سبحانه بما أعد للمتقين ، وجعل سبحانه عنده لعباده المؤمنين ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ والمتقون : فهم المتقون لمعاصي الله الخائفون ومعنى متقين لمعاصي الله : فهم التاركون لها ، والخائفون من الله العقوبة في ارتكابها تقول العرب : اتق فلانا ، أي احذر منه وخفه ، وتقول العرب : اتقوا السلطان ، أي خافوه ، ولا تفعلوا شيئا يجب عليكم فيه العقوبة عند ربهم ، فمعناها : عند معادهم إلى ربهم ﴿جنات النعيم﴾ فهي : جنات الخير المقيم من الشهوات والمطاعم والمناسك والمشارب^(٢) والبشارات .

(١) - السجدة : ٢١

(٢) - في نسخة : المشارب ، وفي نسخة : البشارات ، فأثبتنا اللفظين معا .

ثم أخير سبحانه أنه لن يجعل مسلماً كمجرم في الحال والحكم ، فقال : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ معنى ﴿ أفنجعل ﴾ يقول : أنسوي ونعدل في الحكم والفعل بين من كان مسلماً ، ومن كان مجرماً ، هذا ما لا يكون أبداً ، ولا يعرف من فعلنا وعدلنا بل لكل دار وجزاء وقرار ، و المسلمون : فهم المؤمنون بالله ، المسلمون لأمر الله والمجرمون : فهم المعتدون الظالمون لأنفسهم ، المحزونون على الله ربهم ، الذين أجزموا في فعلهم ، وعصوا في صنعهم .

﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ معنى ﴿ مالكم ﴾ أي : ما بالكم ﴿ كيف تحكمون ﴾ يقول : كيف حكمكم بهذا ؟ وكيف القول فيه عندكم ؟ أفمن فعله فعل المحسن كالمسيء ؟! والضال كالمهتدي ؟! إن كان هذا عندكم صواباً ماضياً ، وحكماً بالحق عندكم جارياً ، فلن تروا هذا حقاً أبداً ، ولن تسموه حكماً ولا عدلاً إن أتى ، وكان من أحد فكيف تسمونه ؟ أوتوهمون أنه يكون عند ربكم ! .

﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون ﴾ يقول : كتاب منا إليكم ، وعليكم فيه مازعتم من أن المجرم كالمسلم عند الله في الحكم فأنتم فيه تدرسون ، ومعنى ﴿ فيه تدرسون ﴾ فهو : فيه تقرأون هذا الحكم ، وهذا الأمر الذي تفكرونه ، وتجعلونه وتشرحونه وتسطرونه .

﴿ إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ يقول : إن لكم في هذا الكتاب إن كان عندكم بحق وصدق لما تخيرون ، ومعنى تخيرون : فهو تحبون وتريدون وتبغون وتشاؤون .

﴿ أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ﴾ معنى ﴿ إيمان ﴾ فهي : عهد ، يقول : أم لكم علينا ، ومعنى ﴿ بالغة ﴾ فهي : لازمة واجبة إلى يوم القيامة ، يقول : ثابتة علينا لكم ، ومعنى ﴿ يوم القيامة ﴾ فهو : في يوم القيامة ، فقامت إلى مقام في ، يريد أم لكم إيمان علينا ثابتة في يوم القيامة بالوفاء لكم بهذا الذي ذكرتم ، من أنكم غير معذنين ، وأن المجرمين منكم في الحكم عندنا كالمسلمين ، وأنهم سواء في الجزاء يوم الدين .

﴿إِنْ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ﴾ يقول : إِنْ كَانَ الْأَمْرُ مِنَّا عِنْدَكُمْ كَذَلِكَ ، وَكَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا عَهْدٌ فِي ذَلِكَ فَالْحُكْمُ حُكْمُكُمْ ، وَالْقَوْلُ قَوْلُكُمْ ، وَلَكُمْ ذَلِكَ عَلَيْنَا مَا أَرَدْتُمْ مِمَّا تَشَاؤُنَ وَبِهِ تَحْكُمُونَ مِمَّا تَرِيدُونَ وَتُحِبُّونَ .

ثم قال سبحانه لنبيته صلى الله عليه وعلى آله إنكارا عليهم في فعلهم ، وتكذيبا لهم في قولهم .

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ﴾ بذلك زعيم ﴿يُرِيدُ بِقَوْلِهِ﴾ : ﴿سَلِّمُوا﴾ أي : ناظرهم ، وأفتش أمرهم وأستخيرهم أيهم بهذا القول ، والخير زعيم ، معنى ﴿بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ فهو : يذلل الخير والقول زعيم ، معنى ﴿زَعِيمٌ﴾ : كفيل ضامن يضمنه لهم حتى يأتيهم من قبله ما أحبوا ، وتكون كفاتله به آتته على ما طمعوا ، فلن يكون ذلك أبدا ، ولن يتزعم به منهم صغير ولا كبير أصلا .

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَاؤُا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ معنى ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ هو : هل فيهم ؟ وهل : هي معنى أم ، وقامت لهم مقام فيهم ؛ لأنها من حروف الصفات أراد سبحانه هل فيهم لنا شركاء شاركونا في خلقهم ، وأعانونا على رزقهم فنازعونا في أمرهم ، فضمنوا لهم غير ماضنا ، ووعدوهم غير ما أوعدنا فكان لهم حكم سوى حكمنا ، وأمر فيهم ماض كأمرنا ﴿فُلْيَاؤُا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ يقول سبحانه : فليأتوا بهؤلاء الشركاء لنا فيهم ، المنازعين لنا في أمرهم ، الحاكمين بغير حكمنا في شأنهم إذ حكمنا بأن المسلم عندنا خلاف المجرم ، وحكم ما أدعوا من الشركاء فيهم ، بأن المجرم كالمسلم ، فليأتوا بهم حتى ينفذوا الحكم ، ويمضوا الذي ادعوا منهم ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فمعنى كانوا صادقين هو : إِنْ كَانُوا قَائِلِينَ حَقًّا ، أَوْ مُتَّبِعِينَ فِي ذَلِكَ صِدْقًا ، وَالَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فَإِنَّمَا عَنِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَرِيشٍ وَأَلْفَافِهَا ، وَأَهْلِ مَقَالَتِهَا وَأَدْيَانِهَا ، مِمَّنْ ادَّعَى هَذَا الْحُكْمَ الْفَاسِدَ الْبَاطِلَ ، وَقَالَ بِهِذَا الْقَوْلَ الْجَائِرَ الْعَادِلَ .

ثم أخبر سبحانه بما يكون في يوم الدين من شدة الأمر على المكذبين فقال جل جلاله عن أن يحويه قول أويناله ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا

يستطيعون﴾ معنى ﴿يكشف عن ساق﴾ فهو : يكشف في ذلك اليوم عن أمر شديد هائل لأهله ، نازل شره بمسأله ومستحقه ، والعرب تسمي الأمر الشديد ساقا تقول العرب : قامت الحرب على ساقها ، تريد أنها قامت على أمر شديد أمره وصارت الى حال شديد ذكره ، فيقول : يكشف للخق في يوم الدين عن أمر شديد هائل للعالمين . قوله : ﴿ويدعون الى السجود فلا يستطيعون﴾ .

معنى ﴿يدعون الى السجود﴾ فهو : يدعون الى اثبات حجة ظاهرة نيرة بأنهم كانوا من أهل السجود والإيمان ، والطاعة لله والعرفان ﴿فلا يستطيعون﴾ يقول : لا يستطيعون أن يثبتوا بباطل حجة ، ولأن يقيموا بأنهم كانوا من المطيعين لله بينة فهذا أحسن مايقال به في قول الله سبحانه : ﴿يوم يدعون الى السجود فلا يستطيعون﴾ .

وقد قال بعض من يتعاطى تفسير القرآن : معنى هذا الذي ذكر الله من السجود في الفرقان : هو دعاء من الله لهم في يوم الدين الى أن يسجدوا لرب العالمين ، وأنه يمنعهم في ذلك اليوم بقسو ، ويبس يجعله في ظهورهم من السجود حتى لا يستطيعون سجودا ، وهذا فيفسد عند من عقل ، من معنيين :

أما أحدهما : فإن هذا لعب وعبث وسبب من معنى التفكه و الطرب أن يأمر أمر مأمور بفعل شيء قد منعه من فعله ، أو يصنع شيئا قد حال بينه وبين صنعه بمنع لا يقدر معه عليه ، ولا ينال معه الدخول فيه ، فيقول له : افعله ، وهو يعلم أنه لا يقدر على فعله ، فهذا استهزاء وجور ، وتعبث بالمأمور ، والله سبحانه فبريء من ذلك

كله متعال عن كل شيء منه تبارك وتعالى عما يقول الجاهلون ، وينسب إليه الضالون .

والمعنى الثاني الذي يفسد قولهم منه : أن يوم القيامة ليس هو يوم عمل ولا ابتلاء وإنما هو يوم حساب وجزاء ، فافهموا ماقلنا من تفسير هذه الآية المحكمة ، فإنه معنى يضل جميع هذه الأمة عنه إلا من هداه الله اليه ، ودله بلطائف صنعه عليه .

﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾ يقول : تعلوهم الذلة ، وتغشاهم ، فالخاشعة من الأبصار : هي المكتبة المرعوبة الفزعة ، التي قد دخلها من الإيقان بهلاكها ما أذهل نفوسها ، وأبلسها في كل أمورها ، فخشعت للضعف والدمار منها الأجفان والأبصار ﴿ترهقهم ذلة﴾ يقول : تعلوهم الذلة ، وتغشاهم ، فهم أذلاء في يوم الدين أخزياء هالكين أردياء .

﴿وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون﴾ فمعنى ﴿يدعون﴾ هاهنا خلاف ﴿يدعون﴾ ثم ؛ لأن معنى ﴿يدعون﴾ الأولى : هو يدعون بالحجة ، ويُسألون اثباتها ، و﴿يدعون﴾ هاهنا أخرى ، فهو : إخبار عما كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يدعوهم إليه من السجود والإيمان به ، والإيقان بأمره ، والتسليم لحكمه في دار دنياهم ، وفي حال صحتهم وورعائهم إذ هم سالمون ، ومعنى ﴿سالمون﴾ فهم : سالمون القوى والأستطاعة ، قادرون بذلك لله على الطاعة ، لم ترهقهم في ذلك الوقت من دنياهم الذلة التي ترهقهم في دار جزائهم ، فكانوا عند دعاء رسول الله عليه السلام لهم الى ذلك مستكبرين ، وعن السجود لله صادين ، ولوعده ووعيده مكذبين ، فهذا معنى ما ذكر الله من أنهم كانوا سالمين .

﴿فلدني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ معنى ﴿لدني﴾ أي : خلني ودعني وأوحدني لعقوبته وأفردني ﴿ومن يكذب بهذا الحديث﴾ فالتكذيب : فهو الإبطال والجحذان ، والمكابرة للحق في كل بيان ﴿بهذا الحديث﴾ فهو : بهذا القول ، الذي أنزلناه عليك من الوعد والوعيد في الفرقان ، وجعلناه إعدارا وإنذارا وحجة لكل إنسان .

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ معنى ﴿سنستدرجهم﴾ فهو : سنأتيهم ونأخذهم ﴿من حيث لا يعلمون﴾ فهو : من حيث لا يظنون أننا نأتيهم منه ، ولا يدرون حتى يواقعهم أمرنا ، وتغشاهم نعمتنا ، وهم آمنون ، فيعانون من ذلك ما كانوا به يكذبون .

﴿وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ﴾ معنى ﴿أَمْلِي لَهُمْ﴾ فهو : أَوْخَرَهُمْ ، وَلَا أَعَاجِلُهُمْ وَأَتْرَكُهُمْ وَقَتًا وَلَا أَعَافِصُهُمْ ، ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِهِمْ ﴿إِنْ كِيدِي مَتِينٌ﴾ فَالْكَيدُ : هُوَ الْأَخْذُ لَهُمْ ، وَالْبَطْشُ بِهِمْ ، وَالْإِنْتِقَامُ مِنْهُمْ ﴿مَتِينٌ﴾ فَهُوَ : قَوِي رَصِينٌ .

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ معنى ﴿أَمْ﴾ فَهِيَ : هَلْ تَسْأَلُهُمْ ، وَهِيَ أَنْ تَطْلُبَ مِنْهُمْ ﴿أَجْرًا﴾ فَهُوَ : جَعَلًا وَعَطَاءً ، عَلَى مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ الْهُدَى ، وَمَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّقَى ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ يَقُولُ : فَهُمْ مِنَ الْغَرَمِ الَّذِي سَأَلْتَهُمْ إِيَّاهُ ﴿مُثْقَلُونَ﴾ وَالْغَرَمُ : فَهُوَ الْعَطَاءُ وَالْأَجْعَالُ الَّتِي يَسْأَلُونَ اخْرَاجَهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ﴿مُثْقَلُونَ﴾ فَمَعْنَاهَا : مَكْلَفُونَ مَا لَا يَطِيقُونَ مِنَ الْأَجْعَالِ الَّذِي يَسْأَلُونَ ، وَأَرَادَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ تَوْقِيفَهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا عَلَى مَا أُعْطُوا ، وَأَوْتُوا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي بِهِ خَلَّصَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، وَفَكَانَ رِقَابَهُمْ مِنَ الْعِقَابِ جَعَلًا ، وَلَا عَطَاءً وَلَا مَالًا ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةً ، وَابْتِدَاءً وَعَائِدَةً وَعَطَاءً .

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ معنى ﴿أَمْ﴾ يَقُولُ : هَلْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ؟ ! فَمَعْنَى ﴿الْغَيْبُ﴾ هُوَ : عِلْمُ الْغَيْبِ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أَيُ : فَهُمْ يَحْصُونَ وَيَعْرِفُونَ مَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ، وَيَعُودُونَ فَيَعْلَمُونَ بِعِلْمِهِمُ الْغَيْبَ مَا يَقُولُونَ ، فَيَكُونُوا ^(١) عَلَى بَيِّنَةٍ مِمَّا يَصْنَعُونَ ، وَيَكُونُوا قَدْ أَحَاطُوا بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ ، وَفَهُمْ مَا يَلْقَوْنَهُ فِي يَوْمٍ حَشَرَهُمْ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ بِالْكَذِبِ وَالرِّيبِ وَالْحَالِ ، فِي الْقَوْلِ وَالْفِعَالِ ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ غَيْرُ عَالِمِينَ بِشَيْءٍ مِنْ غَيْبِهِ ، وَلَا مُطْلَعِينَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَأَنَّهُمْ فَسَقَةٌ كَاذِبُونَ فَجَرَةٌ مُعَذَّبُونَ

ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالصَّبْرِ لَهُ وَفِيهِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ﴾ معنى ﴿اصْبِرْ﴾ فَهُوَ : احْتَمَلَ وَلَا تَجَزَعْ ، وَالزَّمْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ وَالْغَمِّ ، وَلَا تَهْلَعْ ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يَقُولُ : لِأَمْرِ رَبِّكَ ، الَّذِي حَكَمَ بِهِ عَلَيْكَ ، مِنَ الصَّبْرِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّبْلِيغِ لِرِسَالَتِهِ إِلَيْهِمْ ، وَاثْبَاتِ الْحُجَّةِ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ

(١) - الفعل يكونون هنا منصوب بعد فاء السببية المسبوقة بالاستفهام .

﴿ولا تكن﴾ يقول : ولا تفعل كفعل صاحب الحوت ، وصاحب الحوت : فهو يونس صلى الله عليه ، الذي التقمه الحوت ^(١) فكان في بطنه الى ما شاء الله أن يكون

﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ معنى ﴿إذ﴾ فهو : حين ﴿نادى﴾ فهو : سأل وناجى ﴿وهو مكظوم﴾ يقول : وهو مكروب ، فأخبر سبحانه بمناجاة يونس صلى الله عليه وسؤاله لربه وهو في حال شدته وكرهه إذ هو في جوف الحوت مكظوم ، وشدة الحال التي هو فيها مغموم مهموم ، فنادى ربه وذكره وسأله النجاة ، واستغفره فنجاه من كربه ، واستخرجه من موضعه ، فأعاده إلى ما كان فيه من أمره .

﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾ يقول سبحانه : ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه﴾ بالإجابة له في دعائه ، والرحمة له عند تسييحه ﴿لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾ يقول : لما خرج من بطن الحوت حتى ينبذ بالعراء يوم القيامة ومعنى ينبذ : فهو يخرج من البحر إلى وجه الأرض ، ويحشر ويرد إلى ما كان عليه في ذلك اليوم من الخلق وينشر ، فأراد الله بما ذكر من العراء ، عراء الأرض في يوم الدين وعند حشر جميع المريوين ، فلم يزد عراء الأرض في الدنيا ، ألا تسمع كيف يقول : ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم فلولاً أنه كان من المسبحين للبت في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ ^(٢) فدل سبحانه بقوله : ﴿البت في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ على أنه لولا أن تداركه نعمة الله لكان لا بقاء في بطنه حتى ينبذ بالعراء في يوم الدين ، والعراء في يوم الدين : هو عراء أرض الآخرة ، لاعراء الدنيا ، فقال : ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه﴾ يقول : تداركه النعمة فخلصته من بطنه ، لكان مقيماً في جوفه ، حتى ينبذ بالعراء في يوم حشره ، وأحيائه ونشره ﴿وهو مذموم﴾ يقول : مأثوم عند الله غير سليم .

﴿فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾ معنى ﴿اجتباه﴾ أي : رفعه وأدناه وقربه واصطفاه ﴿فجعله من الصالحين﴾ والصالحون : فهم المصلحون ، والمصلحون : فهم

(١) - في نسخة : (الذي التقمه النون) .

(٢) - الصافات : ١٤٢ - ١٤٤ .

الذين أصلحوا ما بينهم وبين الله ، حتى صلحت لهم عنده أمورهم ، واتصلت بأسبابه أسبابهم ، فعادوا له أولياء مطيعين مختارين محسنين .

﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾ معنى ﴿وإن﴾ فهو : قد ، ومعنى ﴿يكاد﴾ فهو : يريد ، و﴿الذين كفروا﴾ فهم : الذين أشركوا وكذبوا ﴿ليزلقونك﴾ فمعناها : لينفدوك ويهلكونك ، ويستفزونك ويقتلونك ﴿بأبصارهم﴾ أي : بأعينهم لشدة النظر اليك للغيط الذي يداخلهم عليك إذا قرأت الذكر فسمعوه ، يريد سبحانه : قد يريد الذين كفروا أن يهلكوك بأبصارهم ويحبون ذلك لو ينالوا أن يفعلوه بأبصارهم دون أيديهم ؛ إذ لم يقدرُوا أن يبطشوا بأيديهم إليك فأعينهم لشدة غيظهم وما في قلوبهم تكاد أن تُزْلَقَ ، لو قَدَرْتُ ، وتُهْلِكُكَ لو استطاعت ، إذا سمع اللاحظون لك بها ماتلوه من الذكر الحكيم ، والذكر : فهو القرآن العظيم .

﴿ويقولون إنه مجنون﴾ فهذا قول من الكافرين — عليهم اللعنة الى يوم الدين — يقولون ﴿تقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتي به عن الله من الذكر المذكور ، والقرآن المنير المسطور ، مجنون ، ينسبون في ذلك اليه الجنون ، كذبا على الله واجترأ وعداوة للحق وافترأ ، فأخبر سبحانه أنهم كاذبون في قولهم ، مترددون في ريبهم ، وأنه صلى الله عليه وعلى آله خلاف ما قالوا مما نسبوا اليه ، وافترأ فقال عز وجل :

﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ فأخبر سبحانه أنه ليس بمجنون كما يقولون : وأنه لرسول منه مبين ﴿ذكر للعالمين﴾ ومعنى ﴿ذكر﴾ : فهو نور وهدى ، وداع الى الله بالحسنى ﴿للعالمين﴾ فمعناها : للمخلوقين أجمعين ، من الإنس والجان .

والحمد لله ذي الجلال والإكرام والسلطان والجبروت والبرهان والمن والإحسان على الخلائق بالغفران ، بعد الضلال منهم والعصيان ، حمدا يقرب من الرحمن ، ويبعد من الشيطان ، ويُقْصِي من النيران ، ويفتح أبواب الجنان .

تفسير سورة تبارك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى : ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾
 معنى ﴿تبارك﴾ هو: تعالى وتقدس وجل وعظم من كل ما يقول فيه المشركون
 وينسب إليه الملحدون ﴿الذي بيده﴾ معنى ﴿الذي﴾ فهو: من بيده ، معنى
 ﴿الملك﴾ والملك : فهو الخلق كله ، ما خلق الله وبرأ وذراً ، من جميع الأشياء ، من
 السموات كلهن ، والأرضين بأسرهن ، وما فوقهن وما تحتهن ، وما خلق الله فيهن
 وبينهن ، فكل ذلك فهو الملك ، والملك : فهو عرشه ، وعرشه سبحانه : فملكه
 وملكه : فهو ما جعل وفطر ، وما خلق سبحانه من الأشياء فصور ﴿وهو على كل
 شيء قدير﴾ يقول سبحانه : هو على ما يشاء فعله فهو قادر أن يفعله لا يمتنع منه شيء
 فيفوته ، كل شيء في قبضته ، وكل شيء فهو لاحق له ، ما شاء أن يفعل فعل ، وما أراد
 أن يجعل جعل ، فهو قدير على ذلك مقتدر ، قوي على ما شاء أن يدبر .

﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم﴾ معنى ﴿الذي خلق الموت﴾ يقول : فهو
 الذي جعل الموت وقدره ، و الموت : فهو الفناء والذهاب من الإنسان ، وخروج
 النفس كلها من الأبدان ﴿والحياة﴾ فهي : حياة البشر ، وحياة البشر : فهي جعل
 الأرواح في أبدانهم ، وتقديرها من جميع أعضائهم ﴿ليبلوكم﴾ يقول : ليختبركم مما
 جعل في ذلك لتعملوا في حياتكم بما أمركم به ، وتقوموا فيها بما افترض عليكم ، ألا
 تسمع كيف يقول :

﴿أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾ يقول سبحانه : ابتلاكُم بالموت والحياة
 فجعل الحياة الأولى وقت اكتساب وبلوى ، والحياة الثانية التي بعد الموت وقت
 الحساب والجزاء على ما تقدم ، من العمل في الحياة الأولى ، فجعل الحياة الأولى بلوى
 ابتلى خلقه فيما أمرهم به من طاعته ، ونهاهم عنه من معصيته ، ليعلم سبحانه أيهم

أحسن عملا ، ومعنى ﴿أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أيهم أشد لطاعتنا اتباعا ، ومن معاصينا امتناعا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ فأخير سبحانه أنه العزيز الغفور ، فهو القادر والقاهر الذي ما أراد كان بلا كلفة ولا أعوان ، ﴿الْغَفُورُ﴾ فهو : القادر المقييل للعشرة بعد التوبة عند الزلة ، المتجاوز عن خطايا التائبين ، القابل من المحسنين .

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ فدل عز وجل على نفسه بما أظهر من فعله وأبان من قدرته خلقة ، يريد بـ ﴿الَّذِي﴾ أي : هو ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ يريد : خلق أي أوجد ، وفطر وابتدع بعد العدم ، وصور ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فهن : السموات السبع المجعلوات المقدرات ﴿طِبَاقًا﴾ أي : المجموعات بعضهن فوق بعض ، ومعنى ﴿طِبَاقًا﴾ فهو طبقة فوق طبقة ، ومعنى طبقة فوق طبقة : فهو سماء فوق سماء حتى ينتهى إلى السماء السابعة التي ليس فوقها سماء .

﴿مَاتَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ معنى ﴿مَاتَرَى﴾ هو : نفي من الله تبارك وتعالى من أن يكون في خلقه اختلاف ، ولاردى ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ فمعناه : فيما جعل الرحمن ﴿مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ والتفاوت : فهو الاختلاف ، والاختلاف الذي ذكر الله أنه لا يرى في خلقه : فهو اختلاف الأشياء عما جعلها الله فيه ، وقدرها من التركيب سبحانه عليه ، فأخير سبحانه أنه لا يوجد ولا يرى في خلقه اختلاف أبدا ، عما جعله عليه جعلاً ، وركبه فيه تركيباً ، فأخير سبحانه بذلك أن كل شيء من خلقه ثابت على ما جعل فيه من تركيبه ، لا يزيد على ما جعله الله عليه ، ولا ينقص عنه ، فالكبير كبير على حاله كما جعل ، والصغير صغير كما فعل ، والبعيد بعيد قاص ، والقريب قريب دان ، والجميل جميل لا يتغير أبدا ، والسمح فعل ما جعل عليه يكون من الأشياء ليس من خلق الله ، خلق يحول - يحور - عما خلق عليه ، ولا يتفاوت فيما ركب فيه فهذا معنى قوله سبحانه : ﴿مَاتَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ .

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ معنى ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ يقول : ارجع في النظر ، وأدر وأقلب ما جعل لك من النظر في خلق الله العزيز الأكبر ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ يقول : هل ترى من اختلاف أو تفاوت ، مما جعل من الإئتلاف ، فلن تجد

أبداً فطوراً ولا اختلافاً ، بل ترى كل ما خلقنا على ما جعلناه من التسوية والإتلاف والتركيب .

﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ أي : مرتين ، يقول : ارجع البصر ، وأجد استعمال النظر ﴿كرتين﴾ أي : مرتين ؛ ليثبت لك أمرك ، ويتبين لك غير ما قصد بصرك وأنت إن فعلت ذلك ، وأجدت التمييز أستعملت في ذلك العقل والفكر ، لم تر في شيء مما خلقنا تفاوتاً ، فيما ركبناه عليه من تقديرنا .

﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ معنى ﴿ينقلب﴾ يقول : يرجع إليك بعد تثبيتك في النظر في مجعولاتنا ، وتقليبك لبصرك في مخلوقاتنا - بصرك ﴿خاسئاً﴾ والخاسيء : فهو الذليل المتصاغر لنفسه ، الموقن بصحة ما نظر إليه ، ووقف من جليل أمر الله عليه ﴿وهو حسير﴾ والحسير : المنقطع الذي قد جهد فلم يفز ، فأنحسر عن طرح ما أراد بلوغه ، وشاء تناوله ودركه .

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ قوله : ﴿ولقد﴾ فهو : إيجاب منه لذلك يقول : لقد زينا السماء فهو : جعلنا وحسناً ﴿السماء الدنيا﴾ بما جعلنا فيها من المصابيح ، والسماء الدنيا : فهي السماء القريبة منا ، معنى الدنيا : فهي القرية من الناس ، لأن العرب تقول : ذلك الأدنى ، تريد الأقرب إليها ، وتلك الدار الدنيا تريد الدار التي هي إلى المتكلم أقرب وأدنى ، فهذا معنى سماء الدنيا ، ولذلك سميت دار الدنيا ؛ لأنها أدنى إلى الحق وأقرب ؛ إذ كانوا فيها سكنوا أولاً ، فسميت الأولى لأنها أول الدارين المسكونتين من الآخرة والدنيا ، وسميت دنيا ؛ لأنها أقرب إلى أهلها وأدنى ، والمصابيح : فهي النجوم التي تبرق وتلوح ، وتضيء وتنير في مواضعها وتوقد في أفلاكها .

﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ معنى ﴿جعلناها﴾ هو : قدرناها ، وأعدناها ﴿رجوماً﴾ فهي : مراجم يرمون بها ، ومرام يرمون بها ، والشياطين : فهم الأبالسة من مردة الجن المستجنين .

﴿واعتدنا لهم عذاب السعير﴾ يقول : اعتدنا لمن كان مرجوما منهم عذاب السعير ، فهو عذاب الجحيم ، والجحيم : فهي جهنم ، وبئس المصير .

ثم قال سبحانه : ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ يقول : ﴿للذين كفروا بربهم﴾ : كل كافر من الجن والإنس ، و﴿عذاب جهنم﴾ فهو : أغلاها وسعيرها ، وسلاسلها وحريقها ، وبلاؤها ، وجهنم : فهي النار ﴿وبئس المصير﴾ معناها : شر موئل يؤول فيه ، ومصير يصار اليه .

﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا﴾ فمعنى ﴿ألقوا فيها﴾ هو : طرحوا فيها وصيروا اليه ﴿سمعوا لها شهيقا﴾ يقول : سمعوا لها زفيرا ، والزفير : فهو الشهيق والشهيق : فهو الزفير ، والزفير : فهو الجنين والتأجج العظيم الكبير ، الذي يهول سامعه ما يسمعه من حنينه ، فضلا عن مقاربته ومباشرته ﴿وهي تفور﴾ معنى ﴿تفور﴾ هي : تغلي بأهلها ، وتقلبهم في أعالي لها ، ترفعهم تارة ، وتضعهم وتشويهم تارة ، وتفسخهم .

﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ معنى ﴿تميز﴾ : تكاد تنقطع قطعا من الغيظ على من عصى وتولى عن أمر الله وأبى ^(١) ومعنى ﴿الغيظ﴾ : فإنما هو مثل من الله تبارك وتعالى ضربه فيها ، يريد جل ذكره أن فعلها بأهلها من أكلها لهم ، وإحراقها وعظيم ما جعل الله فيها ، وركبها عليه ، من الفوران والإتقاد ، وسرعة الإحراق ؛ لما يقع فيها بالمتغيظ المحسر الغضبان ، الذي قد داخله من الغيظ أمر ، فشبه الله سبحانه أمر جهنم وتأججها وحركتها وحسها وفعلها بمن طرح فيها بفعل المغتاض ، الغضبان لأن جهنم تغتاض ولا ترضى ، ولا تميز بين من أطاع ولا بين من عصى ، غير أن الله عز وجل قد ركبها وجعلها نقمة محرقة لمن وقع فيها ، فصار بحكم الله سبحانه اليها .

﴿كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾ معنى ﴿كلما﴾ هو : إذا ومعنى ﴿ألقى﴾ : فهو طرح فيها ، ورمى اليها ، والفوج : فهو الجماعة الكثيرة ﴿سألهم خزنتها﴾ معناه : استخبروهم عن أمرهم ، وسألوهم عما كانوا فيه في

(١) - في نسخة (وأساء) .

حياتهم ، و﴿خزنتها﴾ فهم : ملائكة الله الذي يخزنونها ، ومعنى يخزنونها : فهو يحفظون من فيها ، ويعذبون أهلها ، ويمنعونهم من الخروج منها ﴿الم يأتكم نذير﴾ فهو سؤال من الملائكة لهم على طريق التقرير والتوبيخ منهم لهم ، لاعلى طريق الشك في أن النذير قد جاءهم ، فقالت الملائكة صلوات الله عليها : ﴿الم يأتكم نذير﴾ ينذركم هذا اليوم ، ويحذركم هذا العذاب .

﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا﴾ فأقر أهل النار بأن النذير قد جاءهم ، في قولهم : ﴿بلى قد جاءنا﴾ ومعنى ﴿بلى﴾ فهو : نعم ، ومعنى ﴿جاءنا﴾ فهو : أتانا وكلمنا ، وأعذر وأنذر إلينا ، ﴿فكذبنا﴾ يقول : صددنا عن ربنا ، ولم نصدق رسولنا ﴿وقلنا ما نزل الله من شيء﴾ معنى ﴿قلنا﴾ أي : تكلمنا وذكرنا واعتقدنا وأضمرنا أنه لم ينزل الله مما جاءت به الرسل شيئا ، وأن ذلك كان منهم كذبا وعتوا .

﴿إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ فأخبروا الملائكة خزنة جهنم صلوات الله عليهم بما كانوا يقولون للرسل المرسلين من قولهم لهم : ﴿إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ والضلal الكبير : فهو الكذب والخطأ ، والعدول عن الحق والهدى ، و﴿الكبير﴾ فهو العظيم الكبير .

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ فهذا قول من الكافرين أهل النار المعذنين ، ومعنى ﴿لو كنا نسمع﴾ فهو : لو كنا في حياتنا نسمع قول الأنبياء ، ومعنى نسمع قولهم : فهو نطيع أمرهم ، ونصير إلى أمرهم ، وقولهم : ﴿أو نعقل﴾ معنى ﴿نعقل﴾ أي : لو كنا نعقل ما جاؤا به ، ومعنى ﴿نعقل﴾ : فهو نفهمه ، ومعنى نفهمه : فهو نصدق به ونقبله ، ألا تسمع كيف يقول قائل العرب لمن يكلمه ويخاطبه : اعلم ما أقول لك ، يريد أفهم ما أكلمك به ، واعقله ، واعرف معانيه وافهمه ﴿ما كنا في أصحاب السعير﴾ يقولون : لو كنا سمعنا قولهم ، وآمننا بما جاؤا به من ربهم لم نكون في أصحاب السعير ، معنى ﴿ما كنا﴾ أي : ما صرنا ﴿في أصحاب السعير﴾ والسعير : فهي جهنم ، وأصحابها : فهم أهلها المعذبون الصائرون إليها .

﴿فاعترفوا بذنوبهم﴾ معنى ﴿اعترفوا﴾ فهو : أقرؤا بذنوبهم ، أي : لم يجحدوا شيئاً من أفعالهم ، ومعنى ذنوبهم : فهو سيئاتهم وما كان من عصيانهم لربهم ﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾ ﴿فسحقاً﴾ معناها : فبعداً ، ومعنى بعداً : فهو بعدا لهم ، ومعنى بعدا لهم : فهو بعدوا من الثواب والرحمة في كل الأسباب ﴿لأصحاب السعير﴾ يقول : لأهل النار .

ثم رجع سبحانه الى صفة المؤمنين ، وذكر من ذكر من أوليائه الصالحين فقال : ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ معنى ﴿يخشون﴾ فهو : يتقون ، ويخافون ﴿ربهم﴾ فهو : خالقهم وسيدهم ، ومالكهم ومقدرهم ، وجاعلهم ﴿بالغيب﴾ فمعناها : في الغيب ، ومعنى في الغيب : فهو في سرهم ، وماتغيب من أمرهم ، واستتر عن الناس من أفعالهم ﴿لهم مغفرة﴾ يقول : لهم غفران من الله ورحمة وعائدة منه سبحانه وكرامة ﴿وأجر كبير﴾ يقول : ثواب عظيم كثير ، كبير خطير .

﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾ ومعنى ﴿أسروا﴾ فهو : اخفوا ﴿قولكم أو اجهروا به﴾ يقول : أو أظهروه ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ يريد : عالم بضمير الصدور ، وما يستجن فيها ، وفي كل الجوانح من الأمور ، فأخبر سبحانه بما ذكر من ذلك أنه سواء عنده ، وفي علمه ما أسره وأظهره أحد من خلقه ، وأن علمه بالغيب المكتم كعلمه بالظاهر المعلوم ، وفي ذلك ما يقول سبحانه : ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾^(١) يقول سبحانه : إنه عالم بكل ما يكون من سر أو علانية ، وإنه لا يخفى عليه من الأمور خافية .

ثم قال سبحانه : ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ يريد بقوله : ﴿ألا يعلم من خلق﴾ أي : كيف لا يعلم سبحانه ما قد خلقه ، ويطلع على سر من فطره ، وهو أعلم به من نفسه ، وأعلم بسرّه وعلانيته ، ومعنى ﴿يعلم من خلق﴾ فهو : سر من خلق ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ واللطيف : فهو الير بخلقّه ، المتفضل عليهم برزقه ، المان

عليهم بمرافقه ، والخبير : فهو العليم الخبير بكل أمورهم ، العارف بكل أسبابهم الذي لا يغيب عنه شيء من أفعالهم .

ثم دل سبحانه على نفسه ، ونبه الخلق على معرفته لما فطر من فطره ، وجعل من جعائله وصنعه ، فقال جل ثناؤه : ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ تفسير ﴿الذي﴾ فهو : دلالة عليه سبحانه دون غيره ﴿جعل لكم الأرض ذلولا﴾ أي : هو سوى لكم ، وجعل لكم ﴿الأرض﴾ أي : قدرها ودحاها وسواها ﴿ذلولا﴾ والذلول : فهي المطية الساحة التي لا تمتنع مما يفعل بها ، ولا تدفع شيئا عن نفسها ، فشبه الله عز وجل الأرض في انبساطها ووطائها ، واستوائها بأهلها - بالذلول من الإبل التي لا تمنع ربتها ، ولا تخالف في شيء مما يراد بها ﴿فامشوا في مناكبها﴾ يقول : سيروا في جوانبها ؛ لأن المناكب هي الجوانب والأطراف ﴿وكلوا من رزقه﴾ ومعنى ﴿كلوا﴾ أي : أطعموا وتنعموا من رزقه ، أي فهو من فضله وعطائه ، ومأخرج من ثمرات أرضه ﴿وإليه النشور﴾ يقول : وإليه معادكم ، وإليه نشوركم ، فإذا أراد سبحانه أن ينشركم ينشركم ومعنى النشور : فهو البعث والحشر .

﴿أمنتكم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾ معنى ﴿أمنتكم﴾ هو : إخبار من الله عز وجل عن قدرته ، وإخبار منه أنه لا يأمن أعداؤه أخذ نقمته ، ومعنى ﴿أمنتكم﴾ فهو : أيسئتم أن يخسف بكم الأرض ﴿أن يخسف بكم﴾ يقول : أمنتكم إلهكم أن يخسف بكم الأرض ، وأيسئتم من أخذه لكم ، معنى ﴿من في السماء﴾ فهو : الله الواحد الذي هو في الأرض كما هو في السماء ، لا يخلو منه مكان ، وهو الله الواحد ذو العزة والسلطان ، وقوله ﴿يخسف بكم﴾ أي : فهو تذهب وتميد بكم الأرض حتى تذهب بكم في بطنها ، وتصيركم في قعرها .

﴿فإذا هي تمور﴾ يقول : إذا هي تذهب بكم ذهابا ، وتهبط بكم في بطنها هبوطا ومعنى ﴿تمور﴾ فهي : تنخسف وتمور .

﴿أَمْ أَمْنْتُمْ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: ﴿أَمْ أَمْنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ﴾: مَنْ هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ السَّمَاءِ وَغَيْرِهَا ، وَهُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ لَهَا وَلِغَيْرِهَا .

﴿أَنْ يَرْسَلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ فَمَعْنَى ﴿يَرْسَلَ﴾ أَي : فَهُوَ يَصِيْبُكُمْ ، وَيَرْمِي بِالْحَاصِبِ عَلَيْكُمْ ، وَ الْحَاصِبُ : فَهِيَ الْحِجَارَةُ الَّتِي تَحْصِبُهُمْ ، كَمَا حَصَبَ قَوْمَ لُوطَ فَرَمَاهُمْ بِالْحِجَارَةِ ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ : أَمْنْتُمْ أَنْ يَرْمِيَكُمْ بِهَا ، كَمَا رَمَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِمِثْلِهَا .

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ يَقُولُ : سَتَعْرِفُونَ كَيْفَ كَانَ انْذَارِي وَإِعْذَارِي لَكُمْ وَتَحْذِيرِي لِمَا نَزَلَ بِكُمْ مِنْ بَعْدِ نَزْوِلِهِ بِسَاحَتِكُمْ ، وَحُلُولِهِ بِأَهْلِ الْمَعَاصِي مِنْكُمْ .

﴿وَلَقَدْ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ وَمَعْنَى ﴿وَلَقَدْ﴾ فَهُوَ : إِيْجَابٌ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ بِتَكْذِيبِ مَنْ قَبْلَهُمْ ، فَمَعْنَى ﴿كَذَبَ﴾ فَهُوَ : جَحْدٌ وَاسْتَهْزَاءٌ ، وَلَمْ يُوَقِّنْ فَيَصْدُقْ بِمَا جَاءَ مِنَ الْهُدَى ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فَهُمْ : الْأُمَمُ الَّذِينَ كَانَتْ قَبْلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ يَقُولُ : قَدْ رَأَيْتُمْ وَأَبْصَرْتُمْ كَيْفَ كَانَ نَكِيرِي عَلَيْهِمْ وَمَعْنَى نَكِيرِي : فَهُوَ تَغْيِيرِي وَعَقُوبَتِي ، وَمَا أَحْدَثُهُ ، وَمَا أَخَذُوا بِهِ مِنْ نَقْمَتِي ، عَلَى مَا اجْتَرَأُوا عَلَيْهِ مِنْ مَخَالَفَتِي .

ثُمَّ نَبِهَ سُبْحَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِالطَّيْرِ الَّذِي لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْهُ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ إِلَّا هُوَ احْتِجَاجًا بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَتَأْكِيدًا لِحُجَّتِهِ فِيهِمْ ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يَمْسُكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ مَعْنَى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ فَهُوَ : أَلَمْ يَنْظُرُوا وَيَبْصُرُوا ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ الطَّيَارَةِ ، ذَوَاتِ الْأَجْنَحَةِ ، الَّتِي تَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ ، وَتَصِفُ فَوْقَهُمْ ، فَهِيَ فِي الْهَوَاءِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَ﴿صَافَاتٍ﴾ فَمَعْنَاهَا : صَافَاتٍ أَجْنَحَتُهُنَّ ، وَصَفَهَا لِأَجْنَحَتُهُنَّ : فَهُوَ نَشْرُهَا وَتَسْكِينُهَا حَتَّى تَهْدَأَ وَتَسْكُنَ ، حَتَّى تَكُونَ كَالشَّيْءِ الْمُنْشُورِ فِي الْهَوَاءِ لَا يَتَحَرَّكُ مِنْهَا أَسْفَ وَلَا أَعْلَى ، فَحَيْثُذَ يُسَمَّى مَا فَعَلَ ذَلِكَ مِنَ الطَّيْرِ صَافَا ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ فَهُوَ : يَضْمَنَّ أَجْنَحَتَهُنَّ إِلَى جَنُوبِهِنَّ ، وَيَخْفَقَنَّ بِهَا تَحْرِيكًا فِي طَيْرَانِهِنَّ ﴿مَا يَمْسُكُهُنَّ﴾ أَي مَائِلُزْمَهُنَّ فِي الْهَوَاءِ ، وَيَمْنَعُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى ، وَمَعْنَى إِمْسَاكِهِ إِيَّاهُنَّ : فَهُوَ بِمَا

جعل وقدر لمن من الريش الذي جعلهن به طائرات ، وفي الهواء واقفات صافات ودبر فيه وبه طيرانهن ، وجعله حاملا لأبدانهن ، وموقفا في الهواء لأعضائهن ، فلما كان ذلك منه وبه فيهن ذكر أنه سبحانه هو المسك لمن ، و﴿الرحمن﴾ فهو : الرؤوف المتفضل ذو الإحسان .

﴿أنه بكل شيء بصير﴾ معنى ﴿إنه بكل شيء﴾ معناها : لجميع الأشياء من فعل أو جسم ﴿بصير﴾ فهو : عليم .

﴿أمن هذا الذي هو جند لكم﴾ معنى ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم﴾ فهذا تقرير من الله لهم وتوبيخ واعلام أنه لا جند مندونه لهم ينصرونهم منه ، والجند : فهم الأعوان من الأنصار والإخوان ﴿ينصركم﴾ يمنعكم ويقوم دونكم ينصركم .

﴿من دون الرحمن﴾ يعني : دون أمر الرحمن ، يريد من هذا الذي ينصركم من دون أمر الرحمن إن نزل بكم ؟ .

﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ يقول : ما الكافرون إلا في اغترار وباطل ، وخديعة من الشيطان لهم ، وتماد في باطلهم .

ثم قال سبحانه : ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ يريد أمن هذا الذي يرزقكم ، ومعنى ﴿يرزقكم﴾ فهو : يسبب لكم رزقكم ، ويخرج لكم من الأرض معاشكم ﴿إن أمسك رزقه﴾ يقول : إن منعكم الله رزقه وأمسكه عنكم ، فلم تخرج الأرض نباتها ، ولم تسكب السماء منها ماءها حتى تموتون جوعا ، فمن يأتيكم بالرزق إن أمسكه فلن يأتي به أحد بعده .

ثم قال سبحانه : ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ معنى ﴿بل﴾ فهو : قد ، والعتو : فهو العنود والتكبر والإعراض عن الله ، والتجبر^(١) والنفور : فهو الإعراض والصدود وقلة الإقبال على الحق والتمادي في الفسق .

﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه﴾ يقول : يمضي على جهل ، ومعنى ﴿يمشي مكبا على وجهه﴾ يقول : يمضي على جهل من أمره ، ويعمل في غير صواب من عمله .

﴿أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم﴾ ﴿يمشي سويا﴾ معناها : يمضي معتدلا مستويا ﴿على صراط مستقيم﴾ معناها : على طريق مستقيم ، أراد سبحانه التمييز بين من يمشي مكبا على وجهه ، ماضيا على الخطأ من فعله ، مجنبا عن سبيل رشد ، وبين من كان على هدى من ربه ، وسبيل من رشد ، لا يخطيء في أمره ولا يعرج عن سبيل حقه ، فأخبر بذلك سبحانه أن من كان من أهل الضلالة والردى هم كمن يمشي مكبا على وجهه ، في غير هدى ، وأن من كان من أهل التقوى كالآخر الذي يمشي على الصراط المستقيم والإستواء ، وهذا مثل ضربه الله العلي الأعلى يفرق به بين أهل الضلالة والهدى .

ثم أخبر سبحانه بالدلائل عليه فقال : ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ معنى ﴿قل﴾ : أخبر وأنذر وكلم وبين ، أن الله هو الذي أنشأكم ، ومعنى ﴿أنشأكم﴾ أي : هو خلقكم وأنبتكم ، وفطركم وأوجدكم ﴿وجعل لكم السمع﴾ معنى ﴿جعل﴾ أي : ركب ربكم ﴿لكم﴾ أي : فيكم يقول : خلق لكم السمع ، الذي به تستمعون ، وهي الآذان التي بها تسمعون والأبصار : فهي العيون التي بها تبصرون ، والأفئدة : فهي القلوب التي بها تعقلون .

﴿قليلًا ماتشكرون﴾ يقول : قليلا شكركم ، على ما أوليناكم من ذلك وأعطيناكم .

﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾ فأمر سبحانه أن يحتج بذلك عليهم ؛ إذ هو فعل فيهم من ربهم ، ومعنى ﴿ذرأكم﴾ فهو : أنبتكم وأخرجكم وأوجدكم وخلقكم وثبتكم في الأرض ﴿واليه تحشرون﴾ يقول : إليه ترجعون بعد موتكم ، في يوم حشركم ، وحين وقت بعثكم .

ثم أخبر سبحانه بما يقول الكافرون ، ويتداعى به المكذبون فقال سبحانه : ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ معنى ﴿يقولون﴾ هو : يلفظون

ويتكلمون ، ويمتزون ويسألون ﴿متى هذا الوعد﴾ أي : متى هذا الوعد الذي به توعدوننا ؟ وبأسبابه تخوفوننا ، إنكارا منهم لوعد الله ووعيده ، وقلة إيمان بقوله : ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي : تقولون أثبتوا به إن كنتم من الصادقين ، معنى إن كنتم من الصادقين : أي إن كنتم من الوافين بوعدهم ، المحقين في قولكم .

ثم أمر نبيته صلى الله عليه وعلى آله أن يرد العلم في ذلك إليه فقال : ﴿قل إنما أعلم عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ فمعنى ﴿إنما أعلم عند الله﴾ أي : علم غيب ماتستعجلون به ، وتكذبوننا في ذكره عند الله إذا شاء أنزله ، وإذا شاء أمسكه ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ فمعنى ﴿نذير﴾ أي : محذر معذر ﴿مبين﴾ معناها : بين القول ظاهر الإعذار ، مبين للحق من الله ، مبلغ لرسالات الله ، لا آتيكم بعذاب ولا أصرف عنكم عقابا ، ولا عن نفسي ، أصرف ما أريدني به ربي ، وإنما أنا رسول من رسله أبلغ ما أمرني به .

﴿فلما رأوه زلفة﴾ معنى ﴿فلما﴾ أي : فهو حين ﴿رأوه﴾ فهو : أبصروه وعاینوه ﴿زلفة﴾ فهو : معاينة مقاربة ومدانة مواجهة ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ معنى ﴿سيئت﴾ أي : اسودت ، ومعنى اسودت : فهو نزل بها السوء ، وحل بها وعانيت وواجهت ما كانت به مكذبة ، ومعنى ﴿وجوه الذين كفروا﴾ هم الكافرون في أنفسهم ، لا أن السوء نزل بالوجوه دون الأبدان ، بل الوجوه والأبدان ، وسائر أعضاء الإنسان ، وفي ذلك ما تقول العرب في أشعارها :

إني بوجه الله من شر البشر
أعوذ من لم يُعِذَ اللهُ دَمَرُ

فقال : بوجه الله ، وإنما أراد الله ، كذلك قوله سبحانه : ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي : سيء الذين كفروا ، أي نزل بهم السوء والبلاء عند معاينتهم للعذاب والشقاء ، ومن ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ ^(١) أراد بقوله سبحانه : ﴿ويبقى وجه ربك﴾ أي : يبقى ربك ، فأخبر

عز وجل أن كل شيء هالك إلا ربه تبارك وتعالى ، فأراد بقوله : ﴿إلا وجهه﴾ إلا هو و﴿الذين كفروا﴾ فهم : الذين كذبوا وأساءوا وظلموا وعتوا ، واعتدوا وعندوا .

﴿وقيل هذا الذي كنتم به تدعون﴾ فهذا قول من ملائكة الله لهم ، وتوقيف منهم صلوات الله عليهم للمكذبين على ما كانوا به يكذبون ، من وقوع الوعد والوعيد ، وما كان في ذلك من اخبار الواحد الحميد ، فقالت لهم ملائكة الله المكرمون : ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾^(١) ومعنى ﴿توعدون﴾ فهو تخبرون وتعلمون ، وتخوفون به ، وترهبون .

ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم ما يقول ، ويحتج عليهم بما ثبت في القول فقال : ﴿قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أورحنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ يريد بقوله : ﴿أرأيتم﴾ هو : أي أخبروني وأفهموني ، كيف القول عندكم إن أهلكني الله ومن معي أورحنا ؟ فله القدرة علينا ، فماذا عليكم في ذلك أولكم ؟ وما يضركم أو ينفعكم ؟ بل هذا ما يضركم ولا ينفعكم ، أي ذلك كان من عند ربنا فينا ، ولن يكون منه إلينا غير الرحمة والرأفة ، والفضل والإحسان ، والمنة والعاطفة ، ولكن أخبروني ونبؤني من يجيركم أيها الكافرون من عذاب أليم ؟ إذا واقعتهم في يوم حشركم وعايتموه ، فلن تجدوا لأنفسكم مجيرا من الله ، ولاناصرا من دون الله فهذا معنى قوله سبحانه : ﴿قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أورحنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ ومعنى ﴿يجير الكافرين﴾ فهو : يمنع الكافرين ، ويدفع عنهم العذاب في يوم الدين .

ثم أمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم ما أمره به من التسليم والإقرار به والتوكل عليه ، والإخلاص له فقال سبحانه : ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾ معنى ﴿قل﴾ هو : كلمهم ، وانطق لهم ، واحتج عليهم ، وبين لهم أن الذي يجير ولا يجار عليه هو الرحمن ، ذو المن والإحسان ، وإنا به

(١) - الأنبياء : ١٠٣ ، ولفظ الأصل (هذا يومكم الذي كنتم به توعدون) بزيادة به ، وهذه غير موجودة في الآية ولفظ الآية : ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هنا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ .

آمنا ، فقال سبحانه : ﴿ قل هو الرحمن آمنا به ﴾ يريد آمنا بآمانه أنفسنا من عقابه باتباع طاعته ، والإعراض عن معصيته ، ﴿ وعليه توكلنا ﴾ يقول : وعليه اتكلنا ومعنى اتكلنا : فهو عليه اعتمدنا ، وبه اكتفينا ، لانريد غيره ، ولا نتوكل على سواه ﴿ فستعلمون ﴾ أي : ستعرفون وتفهمون ، وترون وتوقنون ﴿ من هو في ضلال مبين ﴾ يقول : من هو في باطل من أمره ، وحسرة من صنعه ، وفساد من دينه ، أنحن أم أنتم ؟ والمبين : فهو الظاهر المستبين ، الواضح للمتوسمين .

ثم أمره صلى الله عليه وعلى آله بتوقيفهم على ما هو عليهم حجة مما تبين له فيه القدرة فقال : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ معنى ﴿ قل أرأيتم ﴾ هو : قل ماتفعلون إن أصبح ماؤكم غورا ؟ يعني إن غار ماؤكم في الصباح والصباح : فهو أول النهار عند ادبار الليل وخروجه ، فيقول : إن غار ماؤكم في وقت الصباح فأصبحتم لاماء لكم ، ومعنى ﴿ غورا ﴾ أي : غار ذاهبا مغيبا في الأرض سائحا ﴿ فمن يأتيكم بماء ﴾ يقول : فمن يجلب لكم ماء ، ويأتيكم به ، ويرده في بياركم وأنهاركم ﴿ معين ﴾ فالمعين : فهو الظاهر ، فيقول سبحانه : إن غار ماؤكم فذهب ، فمن يأتيكم بماء غيره ، هل تعلمون أحدا يأتيكم به غير الله ؟ وساقيا يسقيكم الماء غيره سبحانه ؟ الذي ينزله من السماء الى الأرض فيسكنه فيها رزقا لكم وحياة لكم ، ولأنعامكم أفلا تعقلون وتفهمون ما به يحتج الله عليكم ، وتسمعون مما ترونه بأعينكم ، وتوقنون به بقلوبكم ، وتفهمونه بعقولكم من الدلائل في كل ما ذكر ودل عليه تبارك وتعالى رب العالمين ، وتقدس أحكم الحاكمين .

تفسير : سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا﴾ معناها : مناداة من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وعلى آله ، ومعنى المناداة : فهو الأمر والمناجاة ﴿النبي﴾ فهو : الرسول وإنما سمي نبياً ؛ لأنه نبأ بما يأتي به من الله تبارك وتعالى من الأخبار والأمور التي جعلها الله سبحانه وحياً وديانة وفرضاً ، ومعنى ينبي : فهو يعلم ﴿لم تحرم﴾ معنى ﴿لم﴾ هو : لأي معنى تحرم ، ومعنى ﴿تحرم﴾ فهو : تجعله على نفسك حراماً ، وتعتزل ما جعل الله لك منه حلالاً ، ألا تسمع كيف يقول : لم تحرم الذي أحل الله لك معنى ﴿أحل﴾ فهو : جعل وأطلق لك ﴿تبتغي مراضات أزواجك﴾ معنى ﴿تبتغي﴾ : تريد وتطلب وتأتي وتسبب لمرضاة أزواجك ، معنى ﴿مرضات﴾ فهو : محبة أزواجك ومرادهم ، ومسارهم ومبتغاهم ، والأزواج : فهن الزوجات ﴿والله غفور رحيم﴾ فهو : قبول للتوبة ، مقبل للثمرة ، ومعنى ﴿رحيم﴾ فهو : عائد بالفضل ، رحيم بمن أحسن ، متعطف على التائبين .

[سبب النزول]

وسبب ما ذكر الله تبارك وتعالى مما ذكر من تحريم نبيته صلى الله عليه وعلى آله لما أحل له : فهو أنه صلى الله عليه وآله وقع يوماً من الأيام على جاريته وسريته مارية القبطية في بيت عائشة بنت أبي بكر ، فاطلعت عليه وصاحت وألاحت ، وقالت : في منزلي وعلى فراشي ، وفي موضعي ، فاغتم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله واحتشم ، وداخله في ذلك من الحياء ما داخله معه من الندم ، فقال صلى الله عليه لها : اسكني يا عائشة فإنني لأعود إليها ، ثم قال عليه السلام : (والله لادنوت منها أبداً) حياء منه صلى الله عليه وتكرماً وكراهية للاحتمةا ، وتسليماً ، فعاتبه الله عز وجل فيما

حرم من جاريته ، وأمره بتكفير اليمين التي أقسم بها في غشيان سرّيته مع ماعاتبه فيه في تحريمها على نفسه ، ومعنى تحريمه لها : فهو قسمه بالله لا يغشاه ، فسمى الله تبارك وتعالى اعتزاله لها ، وقسمه فيها تحريماً من رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسه ؛ إذ كان بقسمه تحريم ما كان يجب من الدنو منها ، الذي جعله الله له حلالاً فيها ، فأنزل الله سبحانه :

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾ فأمره سبحانه بتحليل يمينه . معنى ﴿قد فرض الله لكم﴾ فهو : جعل الله لكم ، وحكم بتحلة أيمانكم ، معنى ﴿تحلة﴾ فهو : كفارة أيمانكم ، التي تحل لكم بالكفارة ما كنتم حرمتموه بالقسم على أنفسكم ، فمعناها حلفكم بالله وقسمكم ﴿والله مولاكم﴾ يقول : والله وليكم والفاعل لما يشاء بكم وفيكم ﴿وهو العليم الحكيم﴾ فهو : العالم بسرّ القلوب ، المطلع على كل مستترات الغيوب ﴿الحكيم﴾ فهو : المتقن لكل مادبر ، المحكم لكل ماقدر ، فأخبر تبارك وتعالى أنه جعل لنبيه صلى الله عليه وآله كفارة يمينه ، وكفارة اليمين بالله تبارك وتعالى فهو مذكر الله سبحانه من اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، أو صيام ثلاثة أيام لمن لم يجد ، وذلك قوله : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ ^(١) فكفر - صلى الله عليه وآله - على أهل بيته - عن يمينه ورجع إلى جاريته ، ولم يلتفت إلى ما كان من أمر زوجته .

ثم أخبر سبحانه بما كان أسر إلى بعض أزواجه ، فهي عائشة ، وذلك أنه كان صلى الله عليه وآله قال لها حين صاحت وألاحت ، وشنعت وأشاحت : اسكني حتى أسرك بشيء ، وأخبرك بأمر ، فكان الذي أخبرها به أن قال لها : إن أباك يلي هذا الأمر من بعدي ، ثم يليه عمر من بعده ، ثم أمرها بكتمان ذلك عليه ، وألا تخبر

به أحدا ، فيقال : إنها أخبرت به من ساعتها حفصة ابنة عمر ، ثم إنهما دعتا أبيهما فأخبرتاها بما أخبرهما به رسول الله صلى الله عليه وآله ^(١) يقال : إنه عند ذلك كان سبب اعراض رسول الله عن ذكره ، فلم ييكنها بشيء من أمره ، فهو الذي قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ معنى ﴿ وإذ أسر النبي ﴾ فهو : أخفى سرا ، وألقاه إليها ﴿ إلى بعض أزواجه ﴾ فهي : عائشة ﴿ حديثا ﴾ فهو : خيرا وسرا ﴿ فلما نبأت به ﴾ معنى ﴿ فلما [نبأت به] ﴾ : أظهرته وأخبرت به ، ولم تحفظ فيه سره ﴿ وأظهره الله عليه ﴾ معنى ﴿ أظهره الله عليه ﴾ فهو : أطلعته عليه ، وأعلمه بما كان من افشائها له ﴿ عرف بعضه ﴾ فهو : عرفها بعض ما أفشئت عليه ، وبعض ما كان منها فيه ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ ومعنى ﴿ أعرض ﴾ هو : ترك ، ولم يخبر ، ولم ييكن ببعض ما كان منهم في ذلك ، فكان الذي عرفها من فعلها أنه قال لها : لم أخبرت أباك بما استكتمت ؟ وأخبرت حفصة وعمر ؟ وقد جعلت ذلك لي عندك سرا وأعرض صلى الله عليه وعلى آله عما قيل : إنه كان منهم في ذلك ، فلم يذكر منه شيئا .

﴿ فلما نبأها به ﴾ يقول : أعلمها بأنه قد علم بأمرها ، واطلع على ما كان من افشائها سره الذي كان عندها ﴿ قالت من أنباك هذا ﴾ معنى ﴿ من أنباك ﴾ : من

(١) - قال في حاشية في الأصل المقول عليه هذا التفسير مالفظة : ﴿ نعم والذي رواه الشيخ ابو جعفر الموسمي الناصري في زوائد الإبانة عن الإمام ترجمان العترة الكرام ، ونجم آل الرسول الفخام القسم بن ابراهيم عليه السلام (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعائشة : إن أباك وعمر سيليان الأمر بعدي عاديي ظالمين) فلما سمعت منه هذه الثلاثة الألفاظ أخبرت حفصة ، هكذا ذكره ابو جعفر

وهذا مثل اخباره صلى الله عليه وعلى آله بخروج عائشة على أمير المؤمنين عليه السلام حين قال لنسائه : (أيتكن الخارجة على أخي علي عليه السلام يحملها الجمل الأذنب تنبجها كلاب الحوآب يقتل حولها قتلى كثيرون كلهم في النار) ثم التفت الى عائشة فقال : إياك أن تكونيها ياحمراء ، وقوله صلى الله عليه وعلى آله للزبير وقد تبسم يوما إلى وجه علي عليه السلام فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (أنجب) ؟ فقال : وكيف لأحببه يارسول الله وهو ابن خالي ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ أما إنك ستقاتله وأنت له ظالم ﴾ ولما ذكره علي عليه السلام هذا الخبر يوم الجمل اعتزل القتال كما هو مذكور في السير . [قال في آخر الحاشية] انتهى باللفظ من لفظ القاضي العلامة الحير الفهامة شمس الدين ، والصفوة في الشيعة الأكرمين أحمد بن محمد بن ناصر بن عبدالحق ، ويخطه بعد لفظه قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، وحشره في زمرة من أحبه وإيانا ، وكافة المؤمنين والمؤمنات .

أعلمك وأخبرك بهذا الذي كان مني ، من إفشاء شرك ، وإظهار أمرك ﴿قال نبأني العليم الخبير﴾ معنى ﴿قال﴾ فهو : تكلم وذكر وقال وأخبر ﴿نبأني﴾ يقول : أعلمني وأخبرني ﴿العليم الخبير﴾ فهو رب العالمين ، الذي أعلمه بذلك منها وأعلمه بما أفشت من سره عنها ﴿العليم﴾ فهو : الذي لا يخفى عليه شيء ، العالم بالأشياء الذي لا يسقط عنه منها شيء ﴿الخبير﴾ فهو : المحيط بسرائر خلقه ، الذي يعلم ما يصلحهم ويفسد لهم ، فليس يسقط عنه من أسبابهم ولا أمورهم قليل ولا كثير ، كبير ولا صغير .

ثم قال سبحانه : ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ معنى ﴿إن تتوبا﴾ فهو : إن ترجعا وتنبيا إلى الله سبحانه ، من فعلكما وتتوبا ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ يقول : فقد مالت عن الحق قلوبكما ، وركنت قلوبكما إلى الباطل ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ فهو : إن تعاونوا وتكاتفا على رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته وتماليا ﴿فإن الله هو مولاه﴾ يقول : هو وليه ، والدافع عنه ، والمعين له ﴿وجبريل﴾ فجبريل صلى الله عليه فهو الملك الأمين ، الرسول بين الله عز وجل وبين نبيه ، المبين ﴿وصالح المؤمنين﴾ فهم : أهل الطهارة ، والفضائل من المسلمين ، ذو الورع والتقوى والتجريد في أمر الله والهدى ﴿والملائكة﴾ فهم : ملائكة الله المقربون ، الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، معرفة منهم بحق ربهم ، واجلالا بذلك لخالقهم ﴿بعد ذلك ظهير﴾ بعد ذلك ماذكرنا من الله سبحانه وجبريل وصالح المؤمنين ﴿ظهير﴾ فهو : معين لصالح المؤمنين على مناصرة رسول رب العالمين ﴿عسى ربه إن طلقكن﴾ معنى ﴿عسى﴾ هي : كلمة إيجاب من الله للمؤمنين يريد سبحانه بها الإخبار عن فعله بنبيه صلى الله عليه وعلى آله إن طلق من قد آذاه وأظهر سره ، ولم يستر عليه أمره ، فقال سبحانه : ﴿عسى ربه إن طلقكن﴾ ومعنى ﴿طلقكن﴾ فهو : فارقكن ، ومعنى فارقكن : فهو أخرجكن من حباله وترككن .

﴿أن يبذله أزواجاً﴾ يريد : أن يجعل بدلكن له أزواجاً ، ومعنى ﴿أزواجاً﴾ فهو : زوجات ونساء ﴿خييراً ممنكن﴾ ومعنى ﴿خييراً ممنكن﴾ فهو : أفضل ممنكن ، يأمن إفشاءً [هنَّ] عليه سره من أزواجه ، وأظهر عليه أمره من نسائه .

﴿مسلمات﴾ فمعناها : مستسلمات الى الله ، ومعنى مستسلمات : فهو مُسَلِّمَات أنفسهن إلى الله ، ومعنى مسلمات أنفسهن إلى الله : فهو مفرغات أنفسهن في طاعة الله ، غير مشغولات بشيء سوى مرضاة الله .

﴿مؤمنات﴾ فمعناها : مؤمنات لأنفسهم بصالح أعمالهن من عذاب ربهم .

﴿قانتات﴾ فالقانتات : فهن الداعيات المستغفرات الذاكرات لله ، المنيات لله وأفضل قنوتهن ودعائهن : فهو ما يكون منهن في ادبار صلاة الصبح المفروضة عليهن من القنوت بما فيه من الدعاء من القرآن ، الذي نزل من عند الواحد الرحمن .

﴿قائبات﴾ معناها : راجعات الى الله ، خارجات مما كن عليه من الدين مصداقات للرسول المبين ، مقرات بالحق للمحققين .

﴿عابدات﴾ فهن : المطيعات لله ، المتقيات المواضبات على طاعة الله المؤمنات .

﴿سائحات﴾ فالسائحات : فهن المهاجرات الى الله ورسوله ، التاركات لأهل الكفر والجحdan ، المهاجرات الى دار السلام والإيمان .

﴿ثيبات﴾ فهن : اللواتي قد تزوجن وعقلن ، وفهمن وكمل أدبهن ، وباشرن الأشياء ، حتى عرفن ما يصلح للأزواج من الخدمة والقيام ، والمعاشرة لهم والإكرام فذكر الله سبحانه تبديل نبيه عليه السلام من الأزواج الثيبات ؛ لما ذكرنا من فضلهن على الأبيكار بالخدمة للأزواج ، والإصطبار والمعرفة بحسن العشرة ، فأراد بذكرهن في هذه الحالة ما ذكرنا من منافعهن ، واجلالهن لأزواجهن ، لما هن عليه من التجريد والمعرفة بما لاتعرفه البكر ، بحسن القيام للبعل في كل أمر .

وأراد بذكر الأبيكار فقال: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ ما الأبيكار عليه ، وتشتمله من لذاذة القرب والحلاوة على القلب ، لما هي عليه من الغرة والصبا والإستطراف من الزوج لها في كل معنى .

ثم قال سبحانه وجل عن كل شأن شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ معنى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو : مناداة من الله عز وجل للمؤمنين ، وأمر منه لعباده الصالحين ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فمعنى ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي : كفوا عن أنفسكم ، فادفعوا عنها ، وعن أهليكم ﴿نَارًا﴾ ومعنى دفعهم للنار عن أنفسهم ، وعن أهليهم : فهو تعليمهم لأهليهم ما فيه نجاتهم وتوقيفهم على ما أمرهم به ربهم ، وتحذيرهم عما نهاهم عنه سيدهم ، فإذا فعلوا ذلك بأنفسهم وبأهليهم كانوا بما أخرجوا به أنفسهم وأهليهم من الضلالة الى الهدى ومن الباطل الى التقوى - واقين للكل من النار والعذاب ، مستوجبين بذلك لما وعد المؤمنون من الثواب ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ فمعنى ﴿وقودها﴾ فهو : حطبها ومابه تأجج في استيقادها ﴿الناس﴾ فهم : الإنس ﴿والحجارة﴾ فهي : الحجارة المعروفة من الصخور والجبال ، وقد قيل : حجارة الكبريت ، وأي ذلك كان فهي حجارة كما ذكر الرحمن وقودا لما جعل الله من النيران ﴿عليها ملائكة﴾ فمعنى ﴿عليها﴾ أي : خزنة جعلت عليها ، وَقَوْمَةٌ فِيهَا ، تصب الحميم على رؤوس أهلها وتعذب من صار فيها ، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ صَبُؤُا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ^(١) فهم عليها موكلون ، ويتعذب من فيها من الثقلين مأمورون ، وهم صلوات الله عليهم بها قائمون ، ومن ألمها وحرها وعذابها سالمون ، لا ينالهم فيها حر ولا تعب ، ولا يصيبهم فيها غم ولا نصب ﴿غُلَاظٌ شِدَادٌ﴾ ومعنى ﴿غُلَاظٌ﴾ فهم : فظاظ ، والفظاظ : فهم الذين لارحمة في قلوبهم لمن يعذبونه ، ولارقة عندهم على من يصلونه ﴿شِدَادٌ﴾ فهم : الأقوياء في أبدانهم ، الأشداء في استطاعتهم ، المقتدرون على كل أمرهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ معناها : لا يخالفون الله ﴿مَا أَمَرَهُمْ﴾ معناها :

فيما أمرهم ، ومعنى أمرهم : فهو ما يأمرهم به من تعذيب المعذنين ، وإيصال الوعيد إلى الفاسقين ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ معناها : يصيرون إلى ما جعلوا له ، ويمضون ما أقيموا فيه ، ولا يعصون أمرهم ، ولا يخالفون جاعلهم ، ولا يتكلفون أمرا يأتيون به من أنفسهم ، فهم لأمر الله مسلمون ، وبه في كل الأسباب مؤتمرون .

ثم ذكر سبحانه اعتذار الكافرين في يوم الدين ، عند وقوع الحسرة والندامة بالفاسقين فقال تبارك وتعالى : ﴿يأأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾ معنى ﴿يأأيها الذين كفروا﴾ فهو : نداء من الله ، وتوقيف لأهل الكفر من الناس ، وتعريف والذين كفروا : فهم الذين أساءوا وظلموا ﴿لا تعتذروا﴾ ولا تحدثوا توبة ، فلن تقبل لكم ، ولا تبدوا من القول ما لا ينفعكم ﴿اليوم﴾ فهو : يوم القيامة .

﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ معنى ﴿تجزون﴾ : تعطون وتدانون ، فأخير سبحانه أنهم لن يجازوا إلا بفعلهم ، ولن ينالهم عذاب إلا بعملهم ، وذلك قوله : ﴿ما كنتم تعملون﴾ يقول : جزاكم ما كنتم تعملون .

ثم ذكر سبحانه حال المؤمنين ، وأمرهم بما أمر به من كان قبلهم من المتقين فقال : ﴿يأأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾ معنى ﴿يأأيها﴾ فهو : أمر من الله للمؤمنين ، يريد يأأيها الذين ، ومعنى ﴿الذين آمنوا﴾ : فهم الذين اتقوا وأحسنوا إلى أنفسهم ، حتى آمنوا عقاب ربهم ﴿توبوا إلى الله﴾ معنى ﴿توبوا﴾ أي : أخلصوا التوبة إلى الله ، والعمل الصالح لله ﴿توبة نصوحا﴾ يقول : أخلصوا لها إخلاصا ﴿نصوحا﴾ ومعنى ﴿نصوحا﴾ فهو : خالصة ثابتة ، يقول : أخلصوا له .

﴿عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم﴾ معنى ﴿عسى﴾ فهو : إيجاب من الله لمن تاب توبة نصوحا أن يقبل منه توبته ، ويكفر عنه سيئاته ، وهي كلمة تشبه الشك وهي كلمة تستعملها العرب في إيجابها للشيء ، وتصحيحها له ﴿أن يكفر﴾ معنى ﴿يكفر﴾ فهو : يغفر ويهب ، ويصفح عن سيئاتكم ، والسيئات : فهي الخطايا الموبقات .

﴿وَيَدْخُلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يقول : إذا كفر عنكم سيئاتكم أدخلكم جنات ، والجنان : فهي دار النعيم والكرامات ، والحالات القيّمات ، ذوات الثمار والأنهار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يقول : تجري من تحت ^(١) أشجارها وثمارها ، ودورها وقصوها - الأنهار ، فهي فوق الأرض سائلة ، ومن تحت مذكرونا جارية ، والأنهار : فهي الغدر والمياه المتفجرة ، بعضها من بعض .

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ واليوم الذي لا يخزي الله فيه النبيّ فهو يوم القيامة ويوم الحشر للمؤمنين والسلامة ، والشقاء للكافرين والندامة ﴿لَا يُخْزِي﴾ فهو : لا يفضح ولا يسوء ، بل تفلح حجته ، وتظهر فيه كرامته .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يقول : والذين آمنوا أيضا مع رسولهم ، لا يخزون ولا يروون مایسؤوهم ، ولا يَرْدُونَ ، بل يرون السرور في ذلك اليوم من ربهم ، ويتنجزون مواعيدهم من خالقهم ﴿مَعَهُ﴾ فهو مع الرسول صلى الله عليه وعلى آله .

﴿نُورَهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمَانُهُمْ﴾ معنى ﴿نورهم﴾ فهو : برهانهم ، وما جعله الله سبحانه من حجة الإيمان لهم ومعهم ، ومعنى ﴿يسعى﴾ فهو : يظهر بين أيديهم ﴿وَيَأْمَانُهُمْ﴾ فهو : تبين براهين الدلالات ، وكرامات البشارات ، فهو ظاهر لا يخفى على الناظرين ، ولا يغيب ^(٢) عن البصيرين .

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معنى ﴿يقولون﴾ فهو : يسألون ويطلبون ﴿رَبَّنَا﴾ يعني يقولون : يا إلهنا ، وخالقنا ومالكنا ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يريدون بذلك أتمم لنا ما قد أعطيتنا من هذه النور ، وظهور الحجة وكرامات البشارة بإيصالنا إلى ما وعدتنا من دار كرامتك ، والخلاص من موقف حسابك ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ هو : ارحمنا ، وتجاوز عما كان منا ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معناها : إنك على كل ما تريد مقتدر ، ومعنى مقتدر : فهو قادر فاعل ، فكان

(١) - لفظ الأصل : (تجري من تحت الأشجار أشجارها) بزيادة أشجار ، وقد حذفنا اللفظ المكرر .

(٢) - في نسخة (ولا يتغيب)

ذلك من قولهم اقرارا لربهم بالقدره ، وتقديسا منهم واجلالا وتبجيلا وتعظيما وهيبة في كل حال .

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وعلى آله بجهاد من عَدَدَ عن الله من الكفار والمنافقين وبأن يتديء الغلظة على جميع الفاسقين ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئس المصير﴾ معنى ﴿يَا أَيُّهَا﴾ فهو : أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وآله بما أمره به من جهاد عدوه ، معنى ﴿النبي﴾ فهو : النبي عن الله سبحانه بوحيه الرضي ﴿جاهد الكفار﴾ فهو : نابذ الكفار ، وقتلهم وابسط يدك بالسيف عليهم ، والكفار : فهم الذين كفروا بالله وأشركوا وكذبوا بآياته وأنكروا ، والمنافقون : فهم المدغلون في الدين ، الذين يفسدون عليه صلى الله عليه وآله ، ويعطونه من ألسنتهم مالميس في قلوبهم ، ويبدون له الإسلام ، ويفسدون عليه ضعفة الأنام ، فأمره سبحانه بالجهاد لمن نابذه من أولئك ، وأظهر له ما يخفيه من المعصية والعداوة في ضميره ﴿واغلظ عليهم﴾ يقول : اشتد عليهم ، وكن بهم فظا غير رحيم ﴿ومأواهم﴾ يريد مصيرهم ومعادهم ﴿جهنم﴾ وجهنم : فهي النار ﴿وبئس المصير﴾ يقول : بئس المرجع والقرار ، والمصير والدار ، ومعنى ﴿بئس﴾ فهو شر مصير ، ومصير فمعناها : الموضع والنزل والمرجع الذي يرجع اليه ويصار فيه

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكافرين ، فأخبر بأمرهم وحالهم ، وأنه لا يغني عنهم الأولياء الصالحون من الأزواج والأولاد ، والآباء والأبناء في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله ، كما لم يغن ذلك عمن كان كذلك في عصر نوح ولوط صلى الله عليهما ، فضرب في ذلك مثلا لأزواج الرسول صلى الله عليه وآله ، الذين ذكر عنهم في أول السورة ما ذكر يخبرهن أن نكاح رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله لهن لا يغني عنهن من الله شيئا ، إن عدلوا عن الحق ، ولم يتبين عما كان من تظاهرها على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله ، وأنه لا منجاة من ذلك إلا بالتوبة عن تلك المهالك ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله لا يغني بنكاحه لهن ، ولا مقاربتة إياهن ، وأنه لا منجاة لهما مما فعلتا إلا بالتوبة عما كانتا صنعتا ، وإلا كانت حالهما كحال غيرهما من امرأة نوح وامرأة لوط صلى الله عليهما فقال سبحانه في ذلك :

﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ فضرب الله هذا المثل لجميع الكافرين ، الذين لهم أولياء صالحون ، من قريش وغيرهم من الناس أجمعين ، فأخبر بما ضرب من ذلك أن الولي الصالح لا ينفع عند الله غدا وليه الطالح ، وأن ليس من الله نجاة إلا بالعمل الصالح ، وبالتوبة النصوح وبالرجوع إلى الله في كل فعل أو قول ، سرا وعلانية ، وأن حال من كان كذلك كحال امرأتي نوح ولوط صلى الله عليهما لما خانتا نوحا ولوطا صلى الله عليهما فصارتا بخياتتهما إلى النار ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، معنى ﴿تحت عبدين﴾ فهو: عند عبدين ﴿من عبادنا﴾ يقول : من عبيدنا ﴿صالحين﴾ : فهما مؤمنين تقين ﴿فخانتاهما﴾ فهو عصتاهما وصارتا إلى مضادتهما ، ومعاندتهما في ما حرمه الله عليهما ، من مخالفتهما فيما عصتا ربهما ، بخيانة ولييه ، استحقتا النار بعصيانتهما الجبار ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئا﴾ ﴿فلم يغنيا﴾ معناه : فلم ينفعاهما ، ولم يدفعا منهما شيئا مما نزل بهما من عذاب ربهما ﴿وقيل ادخلا النار﴾ معنى ﴿قيل﴾ : فهو حكم عليهما ، فأوجب العذاب ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾ يقول : صيرا إليها وحلا فيها ، وادخلا مع الداخلين ، وكونا من سكانها يوم الدين .

ثم ضرب الله سبحانه مثلا للمؤمنين الذين يكونون مع الأولياء الفاسقين فقال : ﴿وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذا قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتابها وكانت من القانتين﴾ معنى ﴿ضرب الله مثلا﴾ فهو : جعل الله مثلا ، ضربه للمؤمنين ، الذين هم مع الأولياء الطالحين الفاسقين ، ليخبرهم أن ضلال أوليائهم ليس بضار لهم ، إذا أخلصوا لله نياتهم ، وقدموا التوبة إلى ربهم ، كما لم يضر امرأة فرعون ضلال فرعون ، فقال : ﴿ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله﴾ فمعنى ﴿قالت رب ابن لي﴾ فهو : دعت وسألت ربها بأن يجعل لها في دار الآخرة عنده منزلا أفضل من منزل فرعون

وأكرم ﴿بيتا في الجنة﴾ فهو منزلا في الجنة ، والجنة : فهي جنة المأوى التي جعلها الله تبارك وتعالى للمؤمنين ثوابا ﴿ونجني من فرعون﴾ تقول : خلصني من فرعون ومعنى خلصني : فهو أرحمني منه ، وانقلني منه إليك ﴿وعمله﴾ تقول : أرحمني مما أرى من عمله ، الذي لأقدر أن أغيره عليه ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾ معنى ﴿ونجني﴾ فهو : تخلصني وتنجيني ، وتنقذني من قرب القوم الظالمين ، والقوم الظالمون : فهم الظالمون لأنفسهم بعضيانهم لربهم ، وهم قوم فرعون ، وأهل ملته الساعون في طاعته .

﴿ومريم ابنت عمران﴾ فأخبر أيضا أنها ضربت مثلا للمؤمنين ، كما ضرب امرأة فرعون ﴿ومريم ابنت عمران﴾ : فهي أم المسيح عيسى بن مريم صلى الله عليه ﴿التي أحصنت فرجها﴾ معنى ﴿التي﴾ فهو : هي ، ومعنى ﴿أحصنت﴾ فهو حفظت وصانت عن معاصي الله فرجها ، ولم تصرفه إلى شيء مما يسخط ربها وفرجها : فهو قبلها ﴿فنفخنا فيه﴾ يقول : جعلنا فيه ، وجعلنا في رحمها ، وصورنا ﴿من روحنا﴾ فمعنى ﴿من روحنا﴾ فهو الروح الذي خلقنا فيه ، هو عيسى بن مريم صلى الله عليه ، وإنما نسبته إليه فقال : ﴿روحنا﴾ لأنه خلقه وفعله ، مثل قوله : ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾^(١) فقال : عبدنا ؛ لأنه من فعله ، كما قال : ﴿من روحنا﴾ لأنه روح خلقه وصوره ، فنسبه إليه ؛ إذ هو فعله ، كما نسب العبد إليه ؛ إذ كان خلقه وفعله^(٢) فقال : ﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾ يقول : جعلنا في عبدنا المسيح وخلقناه وفطرناه وصورناه ، من غير ذكر ، كما خلقنا غيره في غير مريم عليها السلام من الذكر ، فكان إيجادنا في رحم مريم من غير ذكر كإيجادنا غيره من عبادنا من الذكران ، وكان ذلك شيئا سهلا هينا حقيرا ﴿وصدق﴾ فهو : آمنت وأيقنت وقبلت وأقرت ﴿بكلمات ربها﴾ فكلمات ربها : هي وحيه الذي أوحى إليها حين تمثل لها جبريل عليه السلام بشرا سويا ، فقالت : ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا﴾ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس

(١) - ص : ٤١

(٢) - في نسخة (إذ كان من خلقه وفعله) .

ورحمة منا وكان أمراً مقضياً^(١) فلما أن قال لها جبريل صلى الله عليه ماقال من قوله ، وجاءها بما جاءها من أمر الله به فصدقته في ذلك وأيقنت به ، وعلمت أنه من عند الله ، ولم تنكر قدرة الله فسلمت لأمر الله ، فهذا الذي كان من كلام جبريل عليه السلام وقوله لها ، وما أداه عن الله إليها مما يريد أن يجعله الله في رحمها ، ويهب لها من ابنها عيسى عليه السلام ، فهو الكلمات الذي صدقت بهن ، وقبلتهن ، ولم تكذب جبريل في شيء منهن ، ولم يدخلها شك في أنه رسول من الله ولا رتياب وأن الأمر الذي جاء به إليها هو من عند الله ، فذكر تصديقها بالكلمات التي وجه جبريل بها إليها ، فألقاها إليها ، واحتج بهن عليها ، فصدقته فيهن ، وقبلت ما جاءها به منهن ﴿وكتبه﴾ فالكتب التي صدقت بها ، فهي كتب موسى وصحف إبراهيم صلى الله عليه عليهما ، فكانت بذلك مصدقة ، وبأنبيائه مقرة عارفة ، وبشرائعهم متعلقة ﴿وكانت من القانتين﴾ والقانتون : فهم الداعون إلى الله ، المسلمون لأمره القائمون بحكم الله ، فكانت كما ذكر الله سبحانه قانتة ، وله عز وجل بالنجاة سائلة ، فأجاب الله قنوتها ، وشكر عملها ، وتقبل سعيها ، وجعلها مثلاً للمؤمنين ، خصهم بالإقتداء بها ، وأخبرهم أنه لم يرزأها كفر أهل زمانها ، وإن كلا مأخوذ بعمله وقوله ، ومجازى بسعيه ، وأنه لاتزر وازرة وزر أخرى ، وأن الله يجزي كلا بالجزاء الأوفى .

تفسير {سورة الطلاق} :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لَعَدَتِهِنَّ وَأُحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ معنى ﴿يَا أَيُّهَا﴾ فهو : نداء من الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، وأمر ودلالة منه على ما فيه الرشد له وللمؤمنين ، ولجميع من معه من أوليائه الصالحين ، ومعنى ﴿يَا أَيُّهَا﴾ فهو : أيها ، ر ﴿النبي﴾ فهو : الرسول المنبئ بما يأتيه من وحي الله العلي ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ﴾ يقول : إذا فارقتم ﴿النساء﴾ وهن الأزواج ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لَعَدَتِهِنَّ﴾

(١) - مريم ١٨ - ٢١

معناه : فارقوهن لعدتهن ، والعدة : فمعناها الطهر من غير جماع ، والعدة المذكورة المجمولة من القروء الثلاثة ، أو الثلاثة الأشهر هي التي جعلت عدة للمطلقات ﴿وأحصوا العدة﴾ فيقول : عدُّوا الأيام واحفظوها ، والأقراء والعدة : فهي ثلاث حيض ، للتي تحيض من النساء ، وثلاثة أشهر مع التي لا تحيض من صغر أو كبير .

﴿واتقوا الله ربكم﴾ يقول : اتقوه في إحصاء ذلك كله ، والإحاطة به ، لاتعجلوا عن إتمامه ، ولا تحبسوهن بعد وفائه ، يقول : لاتعجلوا من أجل النفقة ؛ فتخرجوهن من قبل أن يستتمن العدة ، ولا تحبسوهن بعد انقضاء عدتهن ؛ لتضاروهن بالحبس لهن .

ثم قال سبحانه : ﴿لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ معنى ﴿لاتخرجوهن من بيوتهن﴾ يقول : لاتخرجوهن من البيوت اللواتي طلقن فيها ، وكن مع الأزواج حالات بها ﴿ولا يخرجن﴾ معناها : لا يسدى إليهن قبيح يخرجن به من ضيق ولا عسر ولا قبيح من الأمر ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ معنى ﴿إلا أن يأتين﴾ فهو : إلا أن يفعلن فاحشة ، والفاحشة : فهي المعصية لله في كل شيء من كبائر معاصيه ، اللواتي حرم فعلها ، وقد قيل : إن الفاحشة خروجهن قبل انقضاء العدة ، وليس ذلك بشيء بل هو أمر مما حرم الله عليهم من ذلك ومن غيره ، معنى ﴿مبينة﴾ فهو : مبينة لنفسها ، مظهرة لما جاء من صاحبها ﴿وتلك حدود الله﴾ ومعنى ﴿تلك﴾ فهو : هاتيك ، ومعنى هاتيك : فهي هذه الشروط والمعاني والأمر ، والنهي الذي حد لكم من أمر الله ، وأوقفكم عليه من فرض الله من شروط الطلاق وحدوده ، ومعاني العدة وأسبابها ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ فمعنى ﴿يتعد﴾ هو : يتجاوزها ، ويتخلى عنها ، ويتركها ، ويفعل غير ما أمر به منها ﴿حدود الله﴾ فهي : فروض الله ، التي جعلها ، وحدوده التي أوقف سبحانه عباده عليها ﴿فقد ظلم نفسه﴾ يقول : ظلمها بما أدخلها فيه مما أوجب عليها من عذاب ربها .

﴿لاتتدري﴾ يقول : لاتعلم ما يكون ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ يقول : لعل الله يأتي بعد الفراق بأمر من المراجعة والإتفاق ، ومعنى ﴿بعد ذلك﴾ فهو : بعد ما كان من الفراق ، وما جاء بينهما من الطلاق ﴿أمرا﴾ يريد : مراجعة وصلحا .

﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ يقول : إذا بلغن آخر عدتهن ، وقضين ما أوجبنا عليهن من مدتهن ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾ يقول : راجعوهن بالأمر المعروف عند الله ، وعند المسلمين ، الذي تجوز به مراجعتهن ، ويحل بكيونته الإفضاء إليهن .

﴿أو فارقوهن بمعروف﴾ فمعنى ﴿فارقوهن﴾ يقول : أتموا لهن ما قد أوقعتم عليهن من طلاقهن ، وعزمتن عليه من فراقهن ، بالتخلية لهن ، والإشهاد بذلك من أمرهن ومعنى قوله : ﴿بمعروف﴾ فهو : بأمر حسن مفهوم ، وأمر من المفارقة معلوم ، ومعنى معلوم : فهو مشهود عليه ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه :

﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ فمعنى ﴿ذوي عدل منكم﴾ فهما : صاحبا العدل في فعلهما وقولهما ، وما يكون من حكمهما ، والعدل : فهو الحق والقسط ، يقول : أشهدوا على ما يكون من الفراق ، وانقضاء العدة والطلاق عدلين من عدولكم ليكون ذلك أنفع في العاقبة لهن ولكم ، وأنجز مما يخاف في ذلك منهن ومنكم ، من التعتت والأذى ، والإدعاء لغير ما كان من الأشياء .

﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ معنى ﴿أقيموا الشهادة﴾ : أدوا ما استشهدتم عليه على وجهه ، وأتوا به على صدقه ، والشهادة : فهي ما استودع الخلق من شهاداتهم على ما علموه ، مما استرعوه من الأمر ، واستودعوه ﴿لله﴾ يقول : أصدقوا بإقامتكم للشهادة ، وتأديتكم لما عندكم من الأمانة لله رب العالمين ، الذي افترض ذلك عليكم وجعل إقامة الشهادة بالحق ديانة فيكم .

﴿ذلكم يوعظ به﴾ معنى ﴿ذلكم﴾ فهو : الأمر الذي جعل فيكم ، وافترض بحكم الله عليكم من إقامة الشهادة ﴿يوعظ به﴾ الموعوظون من ذلك ، ويخوف به ﴿من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فإخبر أنما يوعظ به الموعوظون من ذلك ، ويخوف به المخوفون ، ويؤمر به المأمورون ، لا ينفع إلا من كان بالله مؤمنا ، وباليوم الآخر مصدقا موقنا ، ومعنى ﴿يؤمن بالله﴾ فهو : يصدق بالله ويتقيه في كل ما يفعله ويأتيه ﴿واليوم الآخر﴾ فمعناه : يوقن باليوم الآخر ، ويصدق بما فيه من العقاب والثواب .

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ ﴿يتق الله﴾ فهو : يؤمن بالله ويخافه ، ويتقيه

﴿يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا﴾ معناها : يجعل له بقبول التوبة من ذنوبه مخرجا ، مع مايجعل له من المخارج والتوقيق ، والتسديد والمعونة والتأييد ، الذي من ناله ورزقه اتسع عليه أمره وتفسح عليه شأنه .

﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ يقول : يسبب له رزقه من حيث شاء سبحانه من الوجوه التي لم يحتسب العبد التقى ، ولم يرجها فيما كان يرجو .

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إن الله بالغ أمره ﴿معنى﴾ ﴿يَتَوَكَّلْ﴾ فهو : يعتمد ، ويتوكل على الله في أمره ، ويسند إليه بالثقة به مهمات أمره ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ يقول : هو غايته وكفايته ، ومنتهى بغيته ، ورأس حاجته ، وأقصى إرادته ، معنى ﴿بَالِغٌ﴾ فهو : قادر ، ومعنى ﴿أمره﴾ فهو : إرادته ، فأخبر سبحانه أنه يبلغ ماأراد وشاء ، ولاراد لحكمه ، ولاصارف لأمره .

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ معنى ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ﴾ فهو : قد فعل الله وركب وميز ، وعين ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ يقول : لكل شيء مقدارا ركبه ، وأوقعه سبحانه بقدرته فيه .

﴿وَاللَّاءُ يَثْنُ مِنَ الْحَيْضِ مَنْ نَسَاكُمُ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّاءُ لَمْ يَحْضَنْ﴾ معنى ﴿وَاللَّاءُ﴾ فهن : اللواتي ﴿يَثْنُ﴾ فمعناها : أيسن من الحيض ومعنى يثسن فهو أيقن أنهن لا يحضن لكبر السن ، وارتفاع الحيض منهن ، فقد أيست كل واحدة منهن أن ترى حيضا من نفسها بعد مبلغها مابلغت من سنها ، و ﴿الْحَيْضُ﴾ فهو : الدم والطمث ﴿مَنْ نَسَاكُمُ﴾ معناها : من أزواجكم ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ يقول : إن شككتكم هل في أرحامهن ولد أم لا ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ يقول : يعتددن عند الطلاق ، ويستيرين أرحامهن بوقوف ثلاثة أشهر ﴿وَاللَّاءُ لَمْ يَحْضَنْ﴾ يقول : اللواتي لم يحضن ، واللواتي لم يحضن : فهن الصبايا الصغار اللواتي لم يرين حيضا ، ولم يعرفن بعدُ دما ، فجعل سبحانه عدة الكبيرة التي قد أيست من الحيض ثلاثة أشهر وكذلك جعل عدة الصغيرة ، التي لم تحض أيضا ثلاثة أشهر ، إذا مضت هذه الثلاثة الأشهر عن الآية الكبيرة ، والصبية الصغيرة فقد انقضت عدتهما ، وحل للرجال

تزويجهما .

ثم أخبر سبحانه بعدة الحامل ، وأمرها وما جعل سبحانه من الأجل لها فقال جل جلاله عن أن يحويه قول أوليائه : ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ معنى ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ﴾ فهن : صواحبات الأحمال ، والأحمال : فهو ما يحملن في بطونهن من أولادهن ، الذي جعل الله في أرحامهن ، ومعنى ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ فهو : مداهن الذي يصرن اليه ، ويقفن عن التزويج حتى يبلغنه ، وبلوغهن له : فهو ما ذكر الله سبحانه من وضعهن لحملهن ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يقول : أن يضعن ما في بطونهن إلى الأرض ، ويستبرين منه ، ويفصل عنهن ، ويتبرأ هو أيضا منهن بخروجه إلى الأرض ، التي جعلت له مهادا ومسكنا حيا وميتا .

ثم رجع سبحانه الى ذكر المطلقات ومأمر به فيهن من البنات فقال سبحانه : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يقول : من يتق الله فيما شرط وذكر وجعل من هذه الآجال وأمر : فيكون له فيها متقيا ، ولأمره بالإتقاء والإستيفاء لها مؤتمرا ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يقول : يصنع له ويفعل ويهيء ، ويجعل له ﴿مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يقول : من شأنه كله خيرا وفرجا ، وأمر مستويا حسنا ، ويعطيه ثوابا له على اتقائه لربه ؛ تيسيرا من كل أمر عسير ، وتوفيقا وتهوينا لما عسر عليه من أمره ، واشتد عليه من أسبابه .

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ معنى ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي : ذلك حكم الله ﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي : أنزله عليكم ، وأمره الذي جعله فرضا مؤكدا فيكم ، من امساكنهن بالمعروف ، أو مفارقتهن بالمعروف ، وإشهادكم على ذلك ، وما جعل من العدة لهن آيسات كبارا كن أوصبايا صغارا ، وحوامل لحملهن ، وما جعل في ذلك من الشروط عليكم فيهن ، فكل ذلك أمر الله الذي أنزله ، وحكمه الذي حكم به في ذلك عليكم وفيكم .

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ يقول : من يكن لله متقيا خائفا

منتھيا إليه ، راجعا ﴿يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا﴾ ومعنى ﴿يكفر﴾ فهو : يصفح ويغفر ، ويذهب بالقبول والرحمة منه ما تقدم منه من السيئة ، والسيئات : فهي الذنوب الموبقات ، والمعاصي الفاحشات ﴿ويعظم له أجرا﴾ يقول : ثوبا وأجرا ثم رجع فقال سبحانه : ﴿اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم﴾ يقول : أسكنوهن في وقت اعتدادهن ﴿من حيث سكنتم﴾ معنى ﴿من حيث﴾ فهو : حيث ﴿سكنتم﴾ يريد : حيث كنتم ، وحللتهم وأمسيتم وأصبحتم ﴿من وجدكم﴾ فهو : طاقتكم وجدتكم من المنازل التي تكون كفاتا لكم ، فأمرهم سبحانه أن يسكنوهن من حيث سكنوا من جيد المنازل أورديها ، وأن لا يعزلوهن عن مواضعهن ، وأن يكن في البيوت التي يكونون فيها ، ولا تجعلوهن في موضع سواها ، ولا تنقلوهن عنها إلى ماضيق منها وأردي ، وأقل في السعة ، وأبلى ، ألا تسمع كيف يقول :

﴿ولاتنضاروهن لتضييقوا عليهن﴾ يقول : لاتنضاروهن بإخراجهن من منازلهن التي كن فيها ، إلى غيرها فتضيقوا بذلك عليهن ، متعمدين للتضييق عليهن ، مخطئين بذلك في أمرهن .

ثم ذكر سبحانه ما جعل لأولات الحمل من النفقة فقال سبحانه : ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾ معنى ﴿وإن كن﴾ فهو : إن كن الزوجات المطلقات أولات حمل . ومعنى ﴿أولات حمل﴾ فهن : صواحب حمل ، أي في بطونهن حمل ، والحمل : فهو الأولاد ﴿فأنفقوا عليهن﴾ يقول : مونوهن بالنفقة والكسوة والخدمة ، والقيام عليهن بجميع مصالحهن ﴿حتى يضعن حملهن﴾ يريد : يلدن ويضعن ما في بطونهن ، فإذا وضعن ما في بطونهن ، وخرجن من عدتهن ، فقد انقطعت النفقة عنكم هن .

ثم ذكر سبحانه ما يكون من أمر ارضاع الأولاد بعد مفارقتهم فقال : ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف﴾ ﴿فإن أرضعن لكم﴾ يقول : إن أرضعن الزوجات المفارقات لكم أولادكم ، الذين ولدتهم بعد مفارقتكم هن ﴿فآتوهن أجورهن﴾ ومعنى ﴿آتوهن﴾ فهو : أعطوهن ، وأوفوهن ، وأدوا اليهن

﴿أجورهن﴾ فمعنى أجورهن : فهو الإجازات ، والإجازات : فهي الأجرة والكراء التي يستأجر بها ، ويكثرى الموضع لصبيه أبو الصبي ، فيقول : ادفعوا ذلك إلى أمهات أولادكم إن أرضعن لكم فهن أحق بذلك من غيرهن ، وأولى برضاع أولادهن ، إن أردن ذلك وشئنه وطلبه وبغيته ، ومعنى ﴿انتمروا بينكم بمعروف﴾ تشاوروا بينكم يا هذا الرجل ، ويا هذه المرأة في أمر رضاع هذا الصبي ، والمعروف : فهو الأمر الحسن يريد تواصلوا بينكم في رضاعه بأمر جميل ، لاتشط المرأة على الرجل في ارضاع ولده فتزداد عليه فوق ما يجب وتعتته ، فيما تطلب ، ولا يعتتها بالإقلال لها ويشط عليها في رضاع ولدها بالوكس لها بما يجب لمثلها ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه في تصحيح ما ذكرنا .

وتفسير ما شرحنا من قوله : ﴿وانتمروا بينكم بمعروف﴾ حيث يقول : ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ يقول : إن تعاسرتم في أمر الشرط الذي يكون لها على ارضاعها لولدها ، فلا بد أن ترضع له أخرى ، يقول سبحانه : إن طلبت المرأة شططا فسيرضع الرجل ولده غيرها من النساء ، بدون ما طلبت من الأجرة والعطاء ، وإن طلب أبو الصبي من أمه رضاعا بوكس من الأجرة ، وعسر عليها في الإنفاق فلا أن يسترضع غيرها إن تركت الولد أمه ، فينفق ويخرج ، وينفق للمرضع الأخرى فوق ما أراد أن يعطي أم الصبي ، فأخير سبحانه أنه لابد من الحق ، وأن من عند منهما عن الحق ، فسيوجد للصبي مرضعا بالحق ، الذي عند منهما من عند عنه .

﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ يقول : ذو الجدة من جدته ، وذو القدرة من قدرته على النفقة من نفقته .

﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ يقول : من قدر عليه ، ولم يوسع مافي يديه ، فكان بذلك معسرا ، فلينفق مما آتاه الله ، يقول : مما رزقه الله على قدره وطاقته ، فأراد سبحانه بذلك الإخبار عن ذي السعة ، وذو الفاقة والحاجة ، والأمر لهما بأن ينفقا على قدر مافي أيديهما ، ويخرجا من رضاع ولدهما على قدر انقطاعها ورزقهما ، فأمر بما ذكر من ذلك للأب إذا كان ذا سعة ، أن يوسع على أم ابنه إذا أرضعت له ، وأمر أم الولد أن تقصد وتقبل ميسور أب ابنها إذا قدر عليه رزقه ، كما قال سبحانه : ﴿ومن قدر

عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴿﴾ يريد : فلينفق عليها ، على قدر ما آتاه الله ، ومعنى آتاه الله ، فهو رزقه ، وأعطاه ، ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى :

﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾ معنى ﴿لا يكلف الله﴾ أي : لا يجعل الله على نفس حكما فوق ما يطيق من النفقة ، ولا يحكم عليها من النفقة ، إلا على قدر ما رزقها وآتاها ﴿سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾ سيؤتي الله ذا العسرة بعد عسره تيسيرا ، حتى يكون بعد اليوم موسرا ، كما كان اليوم معسرا فهذه عدة من الله تبارك وتعالى للمتقين باليسر والتيسير بالرزق الكثير ، ورفع المعسور

ثم رجع سبحانه وذكر من كان فيمن عند من خلقه عن أمره ، وتخويفا لعباده وإنذارا وإعذارا إلى خلقه ، فقال جل جلاله ، وتعالى عن كل شأن شأن : ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا﴾ معنى ﴿وكأين من قرية﴾ يقول : وكم من قرية ﴿عتت عن أمر ربها﴾ ومعنى ﴿من قرية﴾ فهو من أهل قرية ، ومعنى ﴿عتت﴾ فهو قست ، وتجبرت وظلمت وتكبرت ، ومعنى ﴿عن أمر ربها﴾ فهو : تكبرت عن الطاعة لأمر ربها ﴿ورسله﴾ أي : بالمخالفة لأمر الله والمشاقة لرسول الله ﴿فحاسبناها حسابا شديدا﴾ يقول : جازيناها جزاء على فعلها ﴿حسابا﴾ أي : مثلا بمثل من صنعها ، ومعنى جازيناها : فهو عاقبناها عقابا شديدا .

﴿وعذبناها عذابا نكرا﴾ يقول : عذبناها بما أنزلنا عليها من العذاب الأليم والنكال العظيم و﴿عذابا نكرا﴾ والنكر من العذاب : فهو المنكر ، ومعنى المنكر : فهو الأمر الذي لم ير مثله في العذاب ، ولم يكن في أحد من الأمم ، فأنكر شديد مارؤي منه وعوين عند وقوعه بأهله ، فكان بذلك نكرا ، أي اشتد أمره ، وعظم شأنه ، واشتد سبيله ، حتى كان نكرا عند أهله ، ومن سمع به .

﴿فذاقت وبال أمرها﴾ معنى ﴿فذاقت﴾ هو : وجدت . ومعنى ﴿وبال أمرها﴾ فهو : عاقبة أمرها ، ومعنى ﴿أمرها﴾ فهو فعلها وما تقدم من فسقها .

﴿وكان عاقبة أمرها خسرا﴾ معنى ﴿عاقبة أمرها﴾ فهو : آخر أمرها ، وأمرها هاهنا : فهو حالها ﴿خسرا﴾ فهو : خسرا وبلاء وعذابا وشقاء .

ثم أخبر سبحانه بما أعد لهم في الآخرة التي تبقى من بعد ما أنزل بهم في دار الدنيا فقال سبحانه: ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾ يريد: عذاب النار في الآخرة، التي لا تنفى ولا تبید، ولا تنقضي أبداً.

ثم قال سبحانه: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ فمعنى ﴿فاتقوا الله﴾ يقول: خافوا الله، وراقبوه واحذروا معاصيه ﴿يا أولي الألباب﴾ فهو: يا أصحاب الألباب والألباب: فهي العقول.

﴿الذين آمنوا﴾ يقول: ﴿[أولي] الألباب﴾ من المؤمنين، الذين جعلت لهم ألباباً فانتفعوا بها، فأصابوا بها الرشد عندما استعملوها، دلّتهم على الإيمان واستدلوا ووقفتم على طريق الهدى، فاهتدوا ولم يكابروا ألبابهم، فيضلوا ولم يعندوا عن الله فيهلكوا، بل ركبوا سبيل الحق فاهتدوا وقصدوا ما أمروا فنجوا.

﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ معنى ﴿أنزل﴾ فهو: أظهر وأرسل إليكم به ذكراً ﴿رسولاً﴾ فهو: مذكر يتذكر به من تذكر، ويؤمن به من اعتبر، ويقبل تذكّره في أمره من أبصر ﴿رسولاً﴾ يقول: مبعوثاً مرسلًا مبينًا، أي مؤديًا، يقول: أرسله بالرسالة النيرة، والحجة البالغة التي يتلوها عليكم، ويقيمها بينكم وفيكم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه:

﴿يتلو عليكم آيات الله مبينات﴾ يعني ﴿يتلو عليكم﴾ فهو: يقرأ عليكم ويظهر بينكم ﴿آيات الله﴾ ومعنى ﴿آيات الله﴾ فهو: رسالات الله وفرائضه، وما جعل عليكم، وافترض من دينه، وأقام فيكم من حقه وبقينه ﴿مبينات﴾ فهي: ظاهرات واضحات مكشوفات نيرات، قد ثبت براهينها أنها من عند ربها، وصح بالمعجزات أنها من الله سبحانه ثبتت ذلك البراهين النيرات، والآيات المعجزات اللواتي لا تكون إلا من الله سبحانه، لا تأتي إلا عن الله.

﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ معنى ﴿ليخرج﴾ فهو: ليخلص أهل الإيمان والتقوى، بما يأتي به من الدلالات والهدى التي يستدل بها المستدلون، ويعلم بها العالمون صدق ما جاء به الرسول الأمين صلى

الله عليه وعلى آله الطيبين من الهلكة والظلمات ، إلى النور والبينات ، معنى الظلمات: فهي ظلمات الكفر وشركه ، ومافيه لأهله من الويل والبلاء ، قوله: ﴿إلى النور﴾ فهو إلى نور الحق وضياؤه وراحته وراحته .

ثم قال سبحانه: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا﴾ معنى ﴿ومن يؤمن بالله﴾ فهو : يصدق بالله ، ويوقن بآيات الله ، ويوقن بالرسالات التي جاءت من الله على السنة أنبيائه ﴿ويعمل صالحا﴾ يقول : يكون مع إيمانه وتصديقه عاملا بما أمر الله به من فرائضه ﴿ندخله جنات﴾ يقول : على ذلك من العمل أدخلناه جنات ، والجنات : فهي دار الكرامات ، التي جعلها الله للمتقين ، وكرم بها عباده المؤمنين ، دار السرور في المأكول والمشرب والمناكح والملابس ، التي لا يفتقر من نال ملكها ، ولا يسقم من حلها ، ولا يشقى من نالها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ يقول : تجري من تحت أشجارها وبين دورها وقصورها الأنهار ، والأنهار : فهي التي ذكر الله تبارك وتعالى حين يقول : ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى وهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾^(١) ﴿خالدين فيها﴾ معنى ﴿خالدين فيها﴾ فهم مخلدون ، ومعنى مخلدين : فهو مقيمون لا يرحلون ولا يخرجون ، ولا يفقدون كرامة الله التي يعطون ، فهم مقيمون أحياء لا يموتون ، مسرورون لا يحزنون ، أغنياء لا يفتقرون ، قد صدقوا قول الله فصدقهم ، وأرضوه فأرضاهم ، فصاروا عنده مقربين ، وفي ثوابه خالدين أبدا الأبد .

﴿فيها أبدا﴾ فمعنى ﴿أبدا﴾ هو أبد الأبد ، والغلبة التي لا انقطاع لها ولا مدي .
﴿قد أحسن الله له رزقا﴾ يقول سبحانه لمن كان كذلك ، وصار إلى ما ذكرنا من ذلك قوله: ﴿رزقا﴾ فهو ثوابا ، وثوابا : فهو عطاء ونائلا وفضلا .
ثم ذكر سبحانه ما جعل من سمواته وأرضه ليكون ذلك حجة له على جميع خلقه

فقال سبحانه: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ معنى قول الله: ﴿الذي خلق سبع سموات﴾ فهو: دلالات منه على نفسه، بما فطر من فعله، وأظهر من صنعه في سمواته وأرضه، فدل سبحانه بصنعه على نفسه، وأخبر أنه هو الذي خلق ما ذكر، ومعنى ﴿خلق﴾ فهو: أوجد وفطر، وابتدع وصور، وأوجد وقدر هذه السبع السموات، وأوجد مثلهن أيضا من الأرضين المدحوات، ومعنى ﴿مثلهن﴾ فهو: في العدد سبعا، كالسموات، لأنها مثلها في الخلق والتصوير والتجسيم والتقدير.

﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ بمعنى ﴿يتنزل﴾ فهو: ينزل ويتردد ويهبط ويتبدد ويتردد والأمر: فهو ما جعل الله سبحانه من الأسباب والمقادير والأرزاق والتقادير التي قدرها من هبوط ملائكته إلى أنبيائه بأمره، ونهيه وفرضه وجعله، وما ينزل من السماء من الماء الذي به حياة الأشياء، وما ينزل من السماء إلى الأرض من رحمة واسعة، وكرامة شاملة للمؤمنين، ومن عذاب نازل بالفاسقين، واقع بالكافرين فهذا تنزيل ما يتنزل بين السموات والأرضين.

﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾ معنى ﴿لتعلموا﴾ هو: لتوقنوا إذا رأيتم وأبصرتم تنزيل هذا الأمر الذي به خبرتم ﴿أن الله على كل شيء قدير﴾ ومعنى ﴿على كل شيء قدير﴾ فهو: على كل شيء من الأشياء مقتدر، وله منفذ قاهر لا يمتنع عليه منها شيء، ولا يفوته شيء، وهو القادر على كل شيء، يفعل ما يشاء فينفذ في الأشياء فعله، ويظهر عليها في تدبيرها قدرته.

﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ فهذا اخبار من الله سبحانه أنه قد أحاط علمه بكل شيء، فهو عالم بالأشياء علما واحدا، علمه بها قبل كينونتها كعلمه بها بعد تكوينها، أحاط معناها حفظ كل شيء، فلم يضل عنه شيء من قعور البحور الزاخرات، ولا أكنان الجبال الشاخات، وهو السميع البصير، وبالله نستعين.

تفسير سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله سبحانه ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾ معنى ﴿يسبح﴾ فهو : يقلس ويعظم ، ويجل ويكرم ﴿ما في السموات وما في الأرض﴾ فهو : كل ما أنشأ وبرأ من الخلق .

[كيفية التسبيح من المكلفين وغيرهم]

فمن الخلق ما يسبحه ويقدسه بلسان ناطق ويذكره ، وهم أهل الأمر والنهي من الخلق المأمورين بالطاعة ، المنهيين عن المعصية ، من الملائكة والثققلين من الجن والإنس المذكورين ، فهؤلاء يسبحون له ويذكرونه بالتقديس والتكبير ، والإجلال والتعظيم وما كان مما في السموات والأرض من غير المأمورين من الأشياء المخلوقات ، والأمور المدبريات من سائر ما خلق الله وذرا ، من جميع ما أوجد من الأشياء ، من النجوم والشجر وغيرهما من كل ما فطر ، فإنما تسبيحه وتقديسه تسبيح من يسبح من أجله ولعظم ما فيه من صنعة ربه ، فإذا رأى المؤمنون أثر صنع الله في هذه الأشياء ، سبحوه بما رأوا فيها ، وقدسوه لعظم ما رأوا من صنعه في إيجادها ، فكان تسبيحهم لما رأوا من أثر الصنع فيها سببا لقول القائل : إنها سبحت ، لما كان التسبيح من أجلها وبها ولما رأوا فيها من أسبابها ، كما كان من السجود من الملائكة لآدم عليه السلام هو سجودهم لله الذي أوجد آدم ، فكان سجودهم لله من أجل ما رأوا من أثر صنعه في عبده ، وعظم تقديره في خلقه ، فجاز أن يقال : سجدوا لآدم ، إذ كان السجود من أجل آدم وسببه ، ولما أظهر الله سبحانه فيه من قدرته ، فعلى ذلك ومثله جاز أن يقول القائل في قوله : سبح كل شيء لربه من حجر أو مدر ، أو نجم أو شجر ، وفي هذا المعنى يدخل ما قال الله تبارك وتعالى : ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾ ﴿الملك﴾ : ما جعل الله وما خلق من

السموات والأرضين ، والآخرة والدنيا وما فيهما ﴿وله الحمد﴾ معنى قوله : ﴿له الحمد﴾ فهو : له الشكر لا غيره ، لأن الشكر الذي هو الحمد لا يجب إلا للمستحمد إلى خلقه بنعمه وآلائه ، وفضله ونعمائه ، وذلك الله رب العالمين

قوله : ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ يخبر سبحانه أنه على ما أراد مقتدر وله فاعل .

﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ فأخبر سبحانه بأنه الذي خلق الخلق كافرهم ومؤمنهم ، وبرهم وفاجرهم ، فكان سبحانه المتولي لجميع الخلق [يخلق] جميع الخلق من أهل الباطل والحق ، خلق أبدانهم وصورها ، وركب خلقهم وقدرها كيف شاء ، وعلى ما شاء ، ولم يخلق سبحانه أفعالهم وكفرهم ، ولا إيمانهم ولا صلاحهم ولا ضلالتهم ، بل كان من ذلك برياً ، وعن إيجاد شيء من أفعالهم متعالياً عليها ، فأفعاله بابتنة عن أفعالهم ، كما ذاته غير مشابهة لذاتهم ، فأخبر سبحانه بقوله : ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ بأن من خلقه المؤثر لمعاصي ربه ، المختار للكفر به ، ومنهم مؤثر للإيمان مطيع للرحمن ، فوصفهم بأفعالهم من كفرهم وإيمانهم ولم يصف نفسه بخلق شيء من أفعالهم ، وكيف يخلق أفعالهم أو يوجد أعمالهم وأعمالهم المنكرات من الأمور من المظالم والشرور ، فتعالى عن ذلك الواحد الرحمن وتقدس أن يكون كذلك ، ذو المن والإحسان .

﴿والله بما تعملون بصير﴾ فأخبر سبحانه أنه بكل ما يعمل العاملون بصير ، ومعنى ﴿بصير﴾ فهو : عالم خبير .

﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ معنى ﴿خلق﴾ فهو : أوجد وفتح وابتدع وخلق ﴿السموات﴾ فهن السموات المبنيات المرفوعات المقدرات ﴿والأرض﴾ فهي الأرض المدحوة ، الذي جعلها سبحانه لخلقها فراشا ، وقدرها سبحانه لهم مهادا بالحق ، فهو بالعدل والصدق ، ومعنى بالعدل والصدق ، فهو جعلها وجعل ما فيها على الحق والصدق ، ومعنى على الحق والصدق : فهو أمر من فيهما به وافترض عليهم اتباعه .

﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ يقول : خلقكم وقدركم ، فأنقن ما خلق من

صوركم ، ومعنى فأحسن : هو فأجاد وأتقن مابراً من برييتكم ، ودبر من أمركم وقدر من نباتكم .

﴿وإليه المصير﴾ يقول : إليه المرجع والمعاد ، وإليه مصير كل العباد .

﴿يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ ومعنى قوله : ﴿يعلم﴾ فهو : يحفظ ويخبر ، ولا يسقط عنه شيء صغير ولا كبير ﴿ما في السموات﴾ يخبرهم أنه عالم بكل ما في السموات والأرض ، من كل شيء من الأشياء من جسم أو عرض ، من فكر أو خاطر في قلوب المخلوقين ، وأنفس المربوبين ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿ويعلم ما يسرون﴾ في أنفسهم فيخفونه أو يظهرونه من أمرهم فيعلنونه ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ فأخبر سبحانه أنه عالم بكل ماتكته صدور العالمين ، وتخفيه سرائر المخلوقين ومعنى قوله : ﴿بذات الصدور﴾ فهو : بما في الصدور من جميع الأمور .

ثم قال سبحانه احتجاجاً عليهم ، وتنبها لهم بما كان من أمر القرون ، التي كانت من قبلهم : ﴿ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل فلذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾ معنى ﴿ألم﴾ فهو : أليس ﴿يأتكم﴾ فمعناها : يجيئكم ويصل بكم ويبلغكم فأراد بقوله : ﴿ألم يأتكم﴾ أليس قد جاءكم ، فطرح قد لأن ألم تقوم مقام أليس ، وقد جمعنا في لغة العرب ، وكذلك ﴿يأتكم﴾ تقوم مقام جاءكم في اللغة العربية ﴿نبأ﴾ فمعناه : خبر ﴿الذين كفروا﴾ ومعنى كفروا : فهو كذبوا وصدوا وأنكروا وجحدوا ﴿من قبل﴾ فهو : من أول الأمر ﴿فلذاقوا﴾ فمعناها : فوجدوا وعانوا عقوبة صنعهم ، وواقعوا جزاء فعلهم ، ومعنى ﴿وبال﴾ فهو : نكال وعقوبة أمرهم ، و﴿أمرهم﴾ فمعناه : فعلهم ، ومعنى فعلهم : فهو ما كان من اجترائهم ، وكفرهم .

﴿ولهم عذاب أليم﴾ يقول : في الآخرة عذاب أليم ، والعذاب : فهو التعذيب بالنار والنكال من الله لهم والتنكيل ، فأخبر سبحانه بقوله : ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أن الذي ذاقوا ، أي : بما عملوا من وبال كان في الدنيا ، وأن في الآخرة لهم من العذاب ما هو أنكى ، وأشد وأبلى .

ثم أخبر سبحانه بما ذاقوا ذلك كله من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة التي تبقى فقال سبحانه: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودونا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد﴾ معنى ﴿ذلك﴾: نزل ذلك العذاب بهم في الدنيا والآخرة؛ لأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات، ومعنى ﴿بأنه﴾ فهو: لأنه ومعنى ﴿كانت﴾ فهو: إخبار عن فعل الرسل صلوات الله عليهم، وإتيانها بالإنذار إليهم، وإشهادها الله سبحانه عليهم ﴿تأتيهم﴾ فمعناها: تأتيهم وتصير إليهم ﴿رسلهم﴾ معناها: الرسل المرسلّة إليهم، فلما أن كانت مرسلّة إليهم، شاهدة عليهم جاز أن يقال: رسلهم، وإنما هي رسل الله لا رسلهم، فنسبها سبحانه إليهم إذ كانوا مرسلين إليهم، شاهدين عليهم ﴿بالبينات﴾ ومعنى ﴿بالبينات﴾ فهي: بالآيات القاهرة^(١) والعلامات الظاهرات النيرات، التي كانت الرسل صلوات الله عليهم تأتيهم بها من عند ربهم ﴿فقالوا أبشر يهودونا﴾ ومعنى ﴿فقالوا﴾ أي: فناطقوا وتكلموا بالبحال والاستكبار، والجرأة على الله الواحد الجبار ﴿أبشر يهودونا﴾ يريدون: أي بشر مثلنا يدعوننا إلى الله، ويأمروننا فلم يطيعوا الله فيما أمرهم، واستكبروا عن طاعة بشر مثلهم، إذ كانوا رسلا لربهم، ومعنى ﴿يهودونا﴾ فهو: يعلموننا، ويأمروننا، ويوقفوننا على سبيل الله، ويهدوننا ﴿فكفروا﴾ معناها: كذبوا وعصوا وجحدوا، فلم يطيعوا، ومعنى ﴿تولوا﴾ فهو: أعرضوا عن الحق، وأبوا وتركوه وعتوا ﴿واستغنى الله﴾ فمعنى استغنى: فهو إخبار من الله سبحانه باستغنائه عن الخلق، وقلة حاجته إلى من أعرض عن الحق؛ لأنه إنما دعاهم لحاجتهم ومنفعتهم، لا لمنفعة له في شيء، من إجابتهم ﴿والله غني حميد﴾ فالغني: هو المستغني المكتفي بنفسه في جميع أموره، النافذة إرادته في كل خلقه والحميد: فهو الحمود على نعمه المشكور على آلائه.

ثم أخبر سبحانه بقول الكافرين وجحدانهم لوعيد رب العالمين، الذي جاء به إليهم رسلهم، وأدته إليهم أنبياءهم، من بعثهم وحشرهم ومجازاتهم على ما كان من فعلهم، فقال سبحانه: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم

(١) - في نسخة (فهي بالآيات الظاهرات).

لَتَنْبُؤُنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١﴾ معنى ﴿زَعَمَ﴾ فهو : قال وذكر وتكلم وأخبر ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهم : الذين كذبوا بما به أخبروا ، وعليه من الله أطلعوا من البعث والحساب والثواب والعقاب ﴿أَن لَّنْ يَبْعَثُوا﴾ معناه : أنهم لن يبعثوا ، ومعنى ﴿لَّنْ﴾ فهو : لا ، فأراد سبحانه زعم الذين كفروا أنهم لا يبعثون ، فلما أن طرح لا وأثبت مكانها لن ، ولن حرف ينصب ما بعده ذهب النون من يبعثون علامة للنصب فبقي يبعثوا ، ومعنى ﴿يَبْعَثُوا﴾ فهو : يحيوا ويحشروا ويردوا بعد الموت أحياء وينشروا ^(١) .

ثم أمر سبحانه نبيته صلى الله عليه وعلى آله بإكذاب قولهم ، والرد في زورهم عليهم ، فقال : ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَبْعَثَنِّي لَتَنْبُؤُنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ معنى ﴿قُلْ﴾ هو : أمر من الله بقول ذلك لهم ، وإيقاعه في أسماعهم ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ فهو : قسم أمره أن يقسم بربه على يعثهم إنه لكائن ، ومعنى ﴿بَلَىٰ﴾ فهو : إيجاب لقوله ، وإكذاب لقولهم ، وهي كلمة تستعملها العرب يوجب بها التكلم إذا قالها قوله ، ويكذب بها قول محاجة ، ويدفع بها قول مناظره ﴿وَرَبِّي﴾ فهو : خالقي ومعنى وربي : فهو وحق ربي ﴿لَتَبْعَثَنِّي﴾ معناها : لتخرجن من قبوركم ، ولتحشرن إلى ربكم ، ولتبعثن أحياء بعد موتكم ﴿ثُمَّ لَتَنْبُؤُنَ﴾ معنى ﴿ثُمَّ﴾ فهو : معنى الواو وينسق بها كما نسق بالواو ، يريد لتبعثن ولتنبؤن ، ومعنى ﴿لَتَنْبُؤُنَ﴾ فهو : لتخبرن ولتحاسبن ، ولتجدن جزاء فعلكم ، ولتجازون بما عملتم ، ومعنى الباء ، التي في بما هو : على ؛ لأن الباء من حروف الصفات ، وعلى من حروف الصفات ، فقامت الباء مقام على ؛ لأن حروف الصفات يعقب بعضها بعضا ، وأراد لتجازن على ما عملتم ، ومعنى قوله : لتخبرن بما عملتم فهو في هذا الموضع : لتعرفن جزاء ما عملتم من كذبكم ، وكفرانكم ، وظلمكم ، وجحدانكم ، فأراد الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿لَتَنْبُؤُنَ﴾ في هذا الموضع : لتجازن ، ولتعاقبن على فعلكم ، ولم يرد لتخبرن عن فعلكم الذي تقدم منكم ؛ لأنهم عالمون بما تقدم من فعلهم ، وليس التذكرة لهم بأفعالهم هو المعنى الذي قصده الله في هذا الموضع ، وإنما قصد الجزاء ، يقول سبحانه

(١) - حذف النون من الأفعال الخمسة باعتبار أن مفسرها منصوب بلن ..

: ﴿لَتَنْبُؤَنَّ﴾ أي : لتعلمن ولتجدن عقوبة كفركم ، عندما يكون من بعثكم في يوم حشركم ﴿وذلك على الله يسير﴾ معنى ﴿ذلك﴾ يعني : البعث والحساب والجزاء وقوله : ﴿على الله يسير﴾ يقول : على الله سهل هين حقير .

ثم أمرهم سبحانه بالإيمان به وبرسوله والنور الذي أنزل احتجاجا منه عليهم وتثبيتا لحجته فيهم ، فقال جل جلاله عن أن يحويه قول أويناله : ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير﴾ معنى ﴿فآمنوا﴾ فهو : أمر من الله لهم بالإيمان ، والإيمان : فهو التصديق ، يقول : صدقوا بأمر الله وبرسوله ، يقول : وصدقوا بالنور الذي أنزلنا ، والنور : فهو الحق الذي جاء به رسوله إليهم من أمره ونهيه وإعذاره وإنذاره ، وكلما ذكر لهم من خيره من بعث أو حساب ، أو نشر أو ثواب ﴿الذي أنزلناه﴾ يقول : أوحينا وجعلنا لكم ، وأمرنا الرسل بتبليغه إليكم ﴿والله بما تعملون خبير﴾ يخبر سبحانه [أنه] بكل ما يفعلون عليهم ، فخبير معناها : عليهم ، أي لا يسقط عنه من ذلك صغير ولا كبير ، يسير كان ولا كثير .

: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ معنى ﴿يوم﴾ فهو : يوم القيامة ، ومعنى ﴿يجمعكم﴾ فهو : يحشركم ويبعثكم ، ويأتي بكم من آفاق الأرض إلى هذا المقام الذي جعله لكم محشرا ، ولجميعكم موقفا ﴿ليوم الجمع﴾ فمعنى ﴿ليوم﴾ فهو : إلى يوم ﴿الجمع﴾ فهو الحشر للخلق ، والجمع لهم إلى موقف الحق .

: ﴿ذلك يوم التغابن﴾ معنى ﴿ذلك﴾ فهو : دلالة على ذلك اليوم ، ألا تسمع كيف يقول : ﴿ذلك يوم التغابن﴾ يخبر سبحانه أن ذلك اليوم هو يوم التغابن . والتغابن : فهو التفاضل ، معنى التفاضل : فهو حين يفضل بعض الناس بعضا ، ويغبن بعضهم في ذلك اليوم بعضا ، بما يستأهله من ثواب ربه ، جزاء على ما فعله بعض الناس دون بعض ، من الثواب العظيم ، و العطاء الجسيم ، جزاء على ما كان من فعلهم في دار دنياهم وعملهم ، يغبن بعضهم في عطاء الله بعضا بما يستأهله ، من ثواب ربه جزاء على فعله ، فمشبه الله سبحانه تفاضلهم في الآخرة ، في ثواب الله بتفاضلهم فيما يتفاضلون ، ويتغابنون به في دنياهم ، ألا ترى أن من نال حظا في الدنيا ولم ينله صاحبه ، قال : غبنتي ، أي فضلتني واستأثرت به وفيه علي ، فكل من كان

له فضل في شيء فهو غابن للمفضول ، والمفضول مغبون ، والفاضل غابن فضرَب الله مثلا لهم تفاضل الآخرة وتغابنها بتفاضل الدنيا ومغابنها من فيها ، حضا لهم على العمل بطاعته ، و تحذيرا للتغابن في عظيم عطائه في دار آخرته ، في يوم الحسرة والندامة ، وطلب الإقالة حين لا إقالة .

ثم قال سبحانه : ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ معنى ﴿مَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ فهو : الذي يؤمن بالله ، ومعنى ﴿يُؤْمِن﴾ فهو : يصدق ، ويقر بالله سبحانه وبرسله ، وبكل أمره ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ معنى ﴿يَعْمَلْ﴾ فهو : يفعل ويصنع ومعنى ﴿صَالِحًا﴾ فهو : حقا مرضيا ﴿نَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ معنى ﴿نَكْفُرْ﴾ هو : نغفر عنه ﴿مَعْنَاهَا : لَهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ ومعناها : ذنوبه ، وخطاياها ، و﴿نُدْخِلْهُ﴾ معناها :

نصيره إلى جنات ، والجنات : فهي دار الرضى والخيرات ، ودار الثواب والعطيات الجزليات ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فهي تسيل من تحتها ، و تحتها : فهو أسفلها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ فهي : أنهار الجنة الجارية ، ومياهاها العذبة الطيبة الهنية المرية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ معناها : مقيمين فيها ﴿أَبَدًا﴾ أي فهو دائم سرمد لا انقطاع له ولا فناء ولا غيبة لمدته ولا انقضاء ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ معنى ﴿ذَلِكَ﴾ هو : ذلك الفعل ، الذي فعلناه لمن أدخلناه جنتنا ، وأعطيناه ثوابنا وأنلناه ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يقول : ذلك العطاء هو الفوز العظيم ، والخير الكثير الجسيم .

ثم أخبر سبحانه بمحل الكافرين ومصير المكذبين فقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِرَ﴾ معنى ﴿كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فهو : خالفوا وعصوا ، ولم يشكروا ما أولوا وأعطوا من إرسال المرسلين إليهم ، وإثبات حجج الله سبحانه بالتبليغ فيهم ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ معناها : كذبوا بأمرنا ، وجحدوا رسلنا ، ولم يقرؤا بشيء من آياتنا التي بعثنا بها رسلنا ، والآيات : فهي المعجزات ، وما جاء به الرسول ، وأراه الخلق من آيات الله التي لا تكون إلا منه ولا تأتي إلا عن الله من نوره ﴿أُولَٰئِكَ﴾ معنى ﴿أُولَٰئِكَ﴾ فهم : الذين فعلوا ذلك هم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ومعنى ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فهم : سكانها وأهلها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾

معناها : مقيمين فيها أبدا ، لا يخرجون منها إلى غيرها ، ولا يزالون حالين طول الدهور فيها ﴿وبئس المصير﴾ معنى ﴿بئس﴾ فهو : شر موئل ومصير ، ومكان وقرار والمصير : فهو المكان الذي يصار إليه ويقام فيه ، ومعنى يصار إليه : فهو يحل فيه ويرجع إليه .

[معاني المصائب النازلة بالخلق]

﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم﴾ معنى ﴿ما أصاب من مصيبة﴾ فهو : كل ما أصاب من مصيبة ، ومعنى ﴿أصاب﴾ فهو : وقع ونزل ، ومعنى ﴿مصيبة﴾ فهو : نازلة من محنة أو نقمة ، أو فعل غير ذلك ، من فعل الله سبحانه ، أو فعل غيره ، من مصائب الدنيا ﴿إلا بإذن الله﴾ وهذا القول فيخرج على معنيين ، ثم يتفرع كل معنى منهما على معنيين :

فأما أحدهما : فهو مما كان من فعل الله ، مما يكون الله المتولي له من المصائب النازلة بالخلق ، ويكون ذلك على معنيين :

إما مصيبة أصابت من الله على طريق الجزاء والإنقام من أحد من أعدائه ، ذوي المعصية والإجرام .

وإما مصيبة نزلت من الله على طريق المحنة بمن يمتحن من عباده الصالحين ، وأوليائه الصائرين ، فهذا معنى ما كان من الله ، وهو يتفرع على هذين المعنيين .

ومعنى قوله في هذا المعنى : ﴿إلا بإذن الله﴾ فهو : بحكم الله وإرادته ومشيئته .

والمعنى الآخر من المصائب : فهو ما ينزل بالخلق بعضهم من بعض ، ثم هذا المعنى يتفرع على معنيين .

فأحدهما : ما ينزل من المصائب بالمؤمنين من الفاسقين ، فهذا لم ينزل إلا بعلم الله أنه سيكون ، وبتخليته . ومعنى قول الله فيه : ﴿إلا بإذن الله﴾ فهو بتخلية الله وعلمه

والمعنى الثاني : فهو ما ينزل من المصائب بالفاسقين من المؤمنين ، وعلى أيدي عباد

الله الصالحين من إقامة الحدود عليهم ، وإظهار الحكم من القتل ومادونه ، ومعنى قول الله في هذا المعنى : ﴿إِلَّا يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ فهو : بأمر الله وحكمه وإذنه لأوليائه في أعدائه . فافهم ما فسرنا من معاني المصائب وما شرحنا في معانيها كلها ، ومخارجها من تفسير قول الله سبحانه : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فقد ميزنا لك ذلك كله ، وشرحناه وفسرناه وأثبتناه ، وبيننا معانيه ، وشرحنا تأويله على أصله وفرعه بما فيه كفاية ونور لمن كان ذا معرفة باللغة والعلم .

ثم قال سبحانه : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ومعنى ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يقول : يصدق بأمر الله ، ويقر برسله وحكمه ، وما يأتي في كتابه من خيره ﴿يَهْدِي قَلْبَهُ﴾ فهو : يثبت قلبه على الحق ويؤيده ، ويزيده عند اهتدائه هدى ، وعند التماسه للحق نوراً وتقوى ، كما قال الله : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ .

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معناها : أن الله بكل أمر من الأمور ، أوشى من الأشياء - عالم خبير ، لا يفوته من استدراك علم الأشياء شيء ، وهو عالم بكل شيء .

ثم أمر سبحانه بما فيه النجاة لمن قبله فقال : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ معنى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فهو : اتبعوا أمر الله في كل ما يأمركم به فافعلوه ، وما ينهاكم عنه فاتركوه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به من أمرنا ، ويبلغكم من رسائلنا ، ويفترض عليكم من فرضنا ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يقول : فإن أعرضتم وكذبتم ، ولم تقبلوا على الرسول ، ولم تأتمروا بما أمركم به من أمرنا ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يقول : فإنما عليه أن يبين البلاغ لكم ، ويبلغكم ما به أمركم ربكم ، وليس عليه أن يجبر قلوبكم ، ويصلح سريرتكم ، كما عليه أن يصلح علانيتكم ، إنما عليه صلى الله عليه وعلى آله أن يضربكم بالسيف حتى تسلموا لما بلغكم عن الله ، وأمركم به من دين الله ، وليس عليه صلاح قلوبكم ؛ إذ كان غير قادر على ذلك منكم ؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ، ولا يطلع على السرائر إلا الله ، و﴿البلاغ المبين﴾ فيقول : البلاغ الظاهر النير ، الذي لا يخفى منه شيء ولا يستتر .

﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ فأخبر سبحانه أن المرسل بالبلاغ المبين هو الله ، الذي لا إله إلا هو ، ومعنى ﴿لا إله إلا هو﴾ فهو : لا إله غيره ولا خالق سواه ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ومعنى قوله : ﴿على الله فليتوكل المؤمنون﴾ فهو : أمر منه سبحانه للمؤمنين أن يكونوا عليه متوكلين ، وبه في كل أمرهم واتقين ، ومعنى ﴿فليتوكل﴾ هو : فليعتمد وليتكل ، ومعنى يتكل : فهو يثق به في كل أمره ، ويتكل على كفايته له في كل شأنه قوله : ﴿المؤمنون﴾ فهم عباده المنقطعون إليه ، والمتوكلون عليه .

﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم وإن تغفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ فأخبر سبحانه عباده المؤمنين ، بعداوة أهل المخالفة في الدين ، من الأزواج والأولاد ، والبنات والبنين ، وذلك قوله : ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم﴾ فأخبر سبحانه أن من خالف الدين ، وتادب بأدب غير رب العالمين ، وكان عند الله من الفاسقين كان عدواً بذلك الفعل لآبائه المؤمنين وكذلك من كان من زوجات المؤمنين على غير طريق الحق ، ولا متعلقات بعروة الصدق كن أعداء لأزواجهن المؤمنين .

وكذلك فقد يخرج المعنى في العداوة من الرجال الفاسقين للأزواج المؤمنات فتكون عداوة الفاسق من الأزواج للزوجة المؤمنة على إيمانها وتقواها ، كما تكون العداوة من الزوجة المخالفة في الدين لزوجها ، فالآية قد تحتمل المعنيين ، وتنظم جميع الحاليين ؛ إذ كان لا يمتنع أن تكون الزوجة تقية مؤمنة ، ويكون الزوج فاسقا فاجرا فتكون العداوة منه لها على الدين ، كما تكون العداوة من المخالفة من الزوجات للزوج المؤمن في الدين ، كما تكون العداوة من الأولاد للوالدين كليهما ، وللوالد والوالدة ، فكلما الزوجين قد تكون منه العداوة ، وحيث كان الإيمان والهدى من الزوج والزوجة ، فالمخالف لمذهب الحق هو المذموم بالعداوة ، المخصوص في كتاب الله باللائمة ، والمؤمن فهو المحذر لعداوة الكافر ، وليس الكافر بمحذر لعداوة المؤمن لأن المؤمن لا يعادي مؤمنا ، ولا يستجيز فيه إثما ، فافهم ما قلنا به في قوله الله : ﴿إن

من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ﴿﴾ ألا ترى كيف يقول: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم﴾ ولم يقل: إن أزواجكم وأولادكم عدو لكم؛ فدل بذكره بعضا دون بعض على أهل الخلاف والمعصية لله، كائنا من كان من بعض الأزواج أو بعض الأولاد، ألا تسمع كيف يقول: ﴿فاحذروهم﴾ فحذرهم أمرهم، وخوفهم كيدهم، ونبههم على اتقاء شرهم، ولن يحذر ولن ينبه إلا مؤمنا، ولن يُحذر المؤمنين إلا من الفاسقين المخالفين، الذين لا يؤمن مكرهم ولا بوائقهم، فافهم رحمك الله ما قلنا، وميز بقلبك تفهم ما شرحنا، وتقف على جميع ما ذكرنا.

ثم قال: ﴿وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا﴾ فض سبحانه على العفو، والصفح والغفران لهم، لما بينهم من وشائج الخلطة، من الولادة والنكاح، وأراد بذلك [أن] يأمر المؤمنين بالتعطف على من ذكر من الأولاد والأزواج، ما لم يخرجوا إلى المبينة بالمشاقة لله في العداوة لأوليائه المؤمنين من آبائهم وأزواجهم، ثم قال: ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ فأخبر أنه غفور لمن استغفره بعد التوبة النصوح البينة، واسترحمه بعد الرجعة عن المعصية.

ثم قال سبحانه: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ يقول: إنها تفتن كثيرا من الجهال عن طاعة الله، وتدخله في المعصية لله، ومعنى ﴿فتنة﴾ فهي: حنة امتحتهم بها، ليعلم الله أيكم ثبت معها على أصل دينه، وأيكم تفتنه وترده عن حقه.

ثم قال: ﴿والله عنده أجر عظيم﴾ يريد: أن عنده سبحانه لمن لم تفتنه الأموال والأولاد، فيخرجه الإعجاب بهما عن الهدى، ويدخله في بحر الهوى ﴿أجر عظيم﴾ والأجر العظيم: فهو الثواب الكريم، والعطاء الجسيم.

ثم قال سبحانه: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا﴾ فأمر باتقاء الله ومعنى ﴿فاتقوا الله﴾ هو: خافوا الله وراقبوه، في سرهم وعلايتكم، وكونوا له خائفين، ولثوابه متنجزين، قوله: ﴿ما استطعتم﴾ يقول: ما أطقتم، وعليه قويتم لأنه سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها، كما قال جل جلاله عن أن يحويه قول أويناله ﴿واسمعوا وأطيعوا﴾ معنى ﴿اسمعوا﴾ فهو: ائتمروا إذا أمرتم، وانتهوا إذا نهيتهم

﴿وَأَطِيعُوا﴾ معناها : أطيعوا الله في إقامة فرضه ، وأطيعوا الرسول فيما أمركم من ذلك به .

﴿وَأَنْفَقُوا خَيْرَ لَأَنْفُسِكُمْ﴾ يقول : أنفقوا من أموالكم ماتكسبون به الخير لأنفسكم والخير : فهو الأجر .

﴿وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسِهِ﴾ فمعنى ﴿يَوْقِ﴾ فهو يوقى ، ومعنى يوقى : فهو يصرف عنه ويكفى شح نفسه . ومعنى ﴿شَحْ نَفْسِهِ﴾ فهو : شر الشح وبلاؤه ، ونازلته وشقاؤه ، وإثمه ولومه وأذاه ؛ لأن من كان ذا شح ولوم كان عند الله مدحورا مأثوما وعند الناس مقبحا ملوما ، فأخبر الله سبحانه أن من يوق شح نفسه وشره ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فطرح بلاء وشر شح نفسه ، وهو يريده ، والمعنى على ذلك كما قال سبحانه : ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ ^(١) وإنما المعنى : وأشربوا في قلوبهم حب العجل ، فطرح حب ، وهو يريده ، والعرب تفعل هذا تطرح ما كان مثل هذا في المعنى وهي تريده ، وكذلك قال الله سبحانه : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبْنَا مِنْهَا﴾ ^(٢) أراد أهل القرية ، وأهل العير ، وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب :

ألا إنني أسقيت أسود حالكا ألا يجلي من ذا الشراب ألا يجلي

وإنما أراد أني سقيت سم أسود حالك ، يعني سم الحية السوداء ، فطرح السم وهو يريده ، فعلى ذلك يخرج قول الله سبحانه : ﴿وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسِهِ﴾ يريد ومن يوق شر شح نفسه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يقول سبحانه : من وقى شر شحه ، وسوء عاقبته ، بالتوقيق للسخاء ، والتسديد ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ معنى المفلحين : هم الفائزون الناجون من عواقب أفعالهم ، والسالمون من توابع أعمالهم .

ثم قال سبحانه : ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ معنى ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ فهو : إن تخرجوا لله ، وتنفقوا في سبيل الله شيئا تقصدون به وجه الله ،

(١) - البقرة : ٩٣

(٢) - يوسف : ٨٢

ولا تريدون به شيئا غير الله ، ويكون ذلك قرضا حسنا ، ومعنى ﴿قرضا حسنا﴾ أي : فعلا جميلا ، لا يتبعه من ولا أذى ﴿يضاعفه لكم﴾ معنى ﴿يضاعفه لكم﴾ أي : يضاعف لكم أجره ، ويسط لكم عليه رزقه في الدنيا والآخرة بالعطاء الجزيل ، والثواب الجليل .

﴿ويغفر لكم والله شكور حلیم﴾ معنى ﴿يغفر لكم﴾ يقول : يقبل منكم نفقاتكم فيغفر لكم ذنوبكم ، ويقبل توبتكم ، ومعنى ﴿شكور﴾ فهو : شاكرا الحسنات ومعنى الشكر من الله : فهو الإيجاب منه للقبول ممن فعل فعلا يريده سبحانه مخلصا ﴿حلیم﴾ فمعناها : المتأنى بخلقهم ، الذي لا يعاجلهم عند زلتهم ، ولا يؤاخذهم عند عثرتهم ، ليعودوا ويرجعوا ، ويتوبوا ويهتدوا ، ذو الصفح والأناة العظيمة ، والرحمة والمغفرة الجزيلة الكثيرة .

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ فمعنى ﴿عالم﴾ فهو : خبير بما يكون ﴿الغيب﴾ فهو : ما غاب من الأشياء فلم يظهر ، وأسر مما قد أسره مسر ، ومما سيكون ولم يكن فالله عالم بذلك كله ، كعلمه بالظاهر المشاهد ، ألا تسمع كيف يقول : ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ فالغيب : هو ما غاب مما ذكرنا ، والشهادة : فهو ما أعلن وشهد وعلم فلم يستتر ، فأخبر سبحانه أن علمه بالغيوب المستجنة كعلمه بالشهادة الظاهرة .

﴿العزیز الحكيم﴾ فالعزیز فهو : القوي القاهر الغالب الظاهر ﴿الحكيم﴾ فهو : ذو الحكمة المتقنة ، والأفعال المحكمة التي لا تفاوت في تدبيرها ، ولا تفاوت في تقديرها . فتبارك الله ذو الحكمة و القدرة ، والعزة الظاهرة ، الذي لا إله غيره ، ولارب سواه خالق كل شيء وفاطره ، ومدبره ومقدره ، رب العرش الكريم ، الواحد الفرد العليم .

[تفسير] سورة المنافقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ هذا خير من الله تبارك وتعالى أنزله إلى رسوله صلى الله عليه وآله يخبره بضمير المنافقين ، عبدا لله بن أبي ابن سلول وأصحابه ، وهو رأس المنافقين ، فكان هو وأصحابه - عليهم لعنة الله - يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى آله ، فيقولون إذا حضروا المجلس وسمعوا ما يتلو من آيات الله وبراهين نبوته : ﴿نشهد أنك لرسول الله﴾ رياء منهم ونفاقا ، ومراية للناس وشقاقا ، فأخبره الله أنهم كاذبون في قولهم ، وما يعلنون من تصديقهم بنبي الله والإقرار به ، وأعلمه أنهم يضمرون مالا يبدون ، ويقولون غير ما يعتقدون ، فقال سبحانه : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ يريد بقوله : ﴿جاءك﴾ أتاك ﴿المنافقون﴾ فهم : الذين يقولون غير ما يضمرون ، وينافقون رسول الله فيما به يتكلمون ، فـ ﴿قالوا﴾ معناها : تكلموا ، وذكروا ﴿نشهد﴾ معناها : نقر ونعلم ، ونعتقد ونفهم ﴿إنك لرسول الله﴾ معناها : أنك أنت رسول الله ﴿والله يعلم أنك لرسوله﴾ يقول : الله أعلم ما أرسلك به ، وحقيقة بعثه لك إلى خلقه ، واحتجاجة برسالتك على بريته ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ معنى قوله : ﴿والله يشهد﴾ فهو : الله يعلم أن المنافقين الذين زعموا أنهم يشهدون أنك رسول الله كاذبون في قولهم ، وماذكروا من أقرارهم بك ، وتصديقهم ، فأخبره أن ضميرهم واعتقادهم خلاف ما يبدونه بالستهم ، وأنهم في قولهم ينافقون ، وفيما زعموا أنهم يشهدون به كاذبون .

ثم قال سبحانه : ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

هذه الآية وما ذكر قبلها من نفاق المؤمنين ، فيما شهدوا به من الشهادة التي كانوا في ادعائها مبطلين - نزلت وما ذكر في السورة كلها ، من ذكرهم فنزلت على النبي صلى الله عليه وعلى آله في غزوة عسفان ، وفيما كان من كلام الكافر عبدا لله بن أبي وأصحابه ، وكان أصل ذلك أن خدم العسكر كانوا يتقدمون إذا بلغوا المناهل فيستقون الماء لأصحابهم ، فتقدموا عند رجوع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من غزوته كما كانوا يفعلون إلى الماء ، فاجتمع على الماء خدم المنافقين عبدا لله بن أبي وأصحابه ، وخدم المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، فازدحموا عليه ، وتطارحوا الكلام ، حتى تضاربوا فطرد خدم المؤمنين خدم المنافقين ، فلما نزل العسكر وجد عبدا لله بن أبي ابن سلول خدمه لم يستقوا بعد ، فسألهم فأخبروه بما كان من خدم المهاجرين ، فقال : آويناهم وقويناهم حتى قوروا علينا ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم قال لأصحابه : لاتشاوروا أصحاب محمد ولا تباعوهم ، ولا ترشدوهم ولا تعينوهم ، ولا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا ، فلما أن بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الخبر هم بقتله ، فأتاه ابن لعبد الله بن أبي ابن سلول ، وكان مؤمنا مخلصا ، فقال : يا رسول الله إن كنت عزمت على قتله فمرني أنا فأتيك برأسه ، فوالذي بعثك بالحق نبينا ما قولي هذا لشك فيك ، ولامعارضة لك في شيء تراه ، غير أنني أخاف أن تأمر به غيري فيقتله ، فيقع في قلبي خشونة على قاتله ، فينقص ذلك علي من اسلامي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله : (بل نهيه لك ، بل نهيه لك) ثم وهبه له ، فيروى أن العسكر لما وردوا المدينة أخذ ابن عبدا لله السيف ثم أتى إلى أبيه به مسلولا ، ثم قال : والذي بعث محمدا بالحق نبينا لتقولن : إن رسول الله الأعز وأنت الأذل ، أو لأضربن رأسك بالسيف ، فلما رآه مزمعا على قتله إن لم يقل ما أمره به قالها صاغرا داخرا مكرها ، فلما أن بلغ عبدا لله ابن أبي أن رسول الله قد علم بقوله أتى إليه في جماعة من المنافقين فحلف له با لله مجتهدا جاهدا إن كنت قلت ما بلغك عني ، ولا تكلمت بهذا الكلام ، وحلف اخوانه المنافقون ما قاله ، ولا تكلم به ، ولقد كنا حاضرين للفظه ولجميع قوله ، فأنزل الله فيهم على نبيته صلى الله عليه وعلى آله: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله﴾

معنى ﴿اتخذوا﴾ فهو : جعلوا ﴿آيمانهم﴾ معناها : قسمهم وحلفهم بالله ﴿جنة﴾ فمعنى ﴿جنة﴾ أي تقية يتقون بها ، وسترا يستترون به من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويدفعون بها ما يجب عليهم في فعلهم من العقوبة ، التي تجب عليهم في قولهم ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾ يقول : إنهم صدوا عن الحق وعن طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى أهله حين زالت عنهم العقوبة ، لعفو رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم ، عندما كان من آيمانهم وحلفهم له ، فصدوا أنفسهم عن اتباع الحق ، وصدوا غيرهم ، ومعنى صدوا : فهو أعرضوا وتركوا سبيل الله التي أمرهم بسلوكها ، من أبواب طاعته ، وأنواع فرائضه .

﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ يقول : إنهم بس ما كانوا يعملون ، فمعنى ساء : أي قبح ما كانوا يعملون ، ومعنى ﴿يعملون﴾ فهو : يفعلون ويصنعون ، من صدهم عن سبيل الله ، ودعائهم إلى غير الله ، وتكذيبهم لرسول الله .

ثم أخير سبحانه من أين نزل بهم خذلان الله حتى فضحهم الله في كتابه ، وأطلع المؤمنين على عوراتهم في فرقانه ، فقال : ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ فأخبر سبحانه أنهم آمنوا في أول أمرهم ، ثم حملتهم الحمية الجاهلية ، والعصبية والأنفة والباطل عن أن يكونوا هم وغيرهم في الحق سواء ، وأن يناصفوا أحدا في الحق ، فكفروا من بعد إيمانهم ، وأبدوا العداوة للرسول صلى الله عليه وآله حين ناصف بينهم ، وبين من هو دونهم في الحق ، وسأوى بينهم في النصفة ومنعهم من تحجير الجاهلية وتكبرها ، وتعفرتها وظلمها ، فرجعوا بعد أن آمنوا برسول الله كافرين به جاحدين لنبوته ، طاعنين عليه ، مغتمين من جواره ، كارهين لقربه فسقا وظلما وتجبرا وكفرا ، فأخبر الله سبحانه أن الذي أنزل بهم في كتابه من اللعن والتنقص ، وما افترض على المسلمين من البراءة منهم ، ومنعه لنبوته من الوقوف على قبر من مات منهم ، وما أمر به نبوته من مجاهدتهم ، والغلظة عليهم ، وغير ذلك مما أمر به فيهم هو لكفرهم بعد إيمانهم ، ولتنقضهم العهود بعد توكيدها ، ألا تسمع كيف يقول الله سبحانه : ﴿فطبع على قلوبهم﴾ يقول سبحانه : شهد على نفوسهم

بالطبع ، والإنقفال عن الهدى ، والإعراض عن التقوى ، وأخير أن ذلك كله لخذلان الله لهم ، يقول : أنزل الخذلان على قلوبهم ، فتحيروا وحل بهم خذلان الله فهلكوا ورائت المعاصي على قلوبهم ، فعموا ﴿فهم لا يفقهون﴾ يقول : فهم لا يبهتدون للرشد فيتبعوه ، ولا يجدون من الله توفيقا ، فيستعينوا به على أمرهم ، فهم منغمسون في الضلال والعمى ، زائغون عن الحق والهدى ، متمادون في الحمية والردى ، ثم أخبر سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله بصفاتهم فقال : ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يوفكون﴾ فدل رسوله عليهم بصفاتهم ، بعد أن دلهم عليهم بأسمائهم فقال : ﴿وإذا رأيتهم﴾ يقول : إذا أبصرتهم وعانيتهم ، يحشون مقبلين أعجبتك أجسامهم ، يقول : أعجبك خلق الله لأبدانهم ، وعجب ما قدر فصور من أعضائهم ، وحسن من تصويرهم ، وأتقن من تقديرهم ، الذي لم يشكروا الله عليه ، ولم يحمده فيه ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ يريد تبارك وتعالى بقوله : ﴿يقولوا﴾ أي : يتكلموا . يقول : وإن يتكلموا تسمع لقولهم ، ومعنى ﴿تسمع﴾ فهو : تسمع ، ومعنى ﴿لقولهم﴾ فهو : لكلامهم ، يريد سبحانه بقوله : ﴿تسمع﴾ أي تسمع الحلاوة ألسنتهم ، وتعجبك فصاحة ألسنتهم وحلاوة لفظهم ، حتى تصغي إلى استماع كلامهم ، تعجبا منك لجودة لغاتهم ، وبيان أقوالهم ، فهذا معنى تسمع لاعلى أنه يستمع كلامهم استماع تصديق ، ولا قبول تحقيق ، بل هو عالم بكذبهم وإنما استماعه وإصغاؤه إلى قولهم تعجب منه لحسن كلامهم ، وفصاحة ألسنتهم الذي لم يشكروا الله عليه ، كما تعجب من خلق أجسامهم ، فهذا معنى ﴿تسمع لقولهم﴾

ثم شبههم سبحانه بالخشب المسندة فقال تبارك وتعالى : ﴿كأنهم خشب مسندة﴾ يريد سبحانه الذم لهم بذلك ، يخبر سبحانه عن عظم أجسامهم ، وتمام خلقهم وعظيم ما هم فيه مع ذلك من جهلهم ، وقلة استعمالهم لما ركب فيهم من عقولهم فلما أن لم يستعملوا عقولهم ، ولم يتدبروا أمورهم مع عظيم ما أنعم الله عليهم به من الخلق الكامل السوي الحسن ، النير البهي ، شبههم بما لا عقل فيه ، إذ لم تنفعهم عقولهم ، فضرب لهم بالخشب مثلا ، فشبه عظم أجسامهم في الطول والغلظ والجسم

- بالخشب المسندة ، خشب النخل الكبار ، فأخبر نبيه صلى الله عليه وآله أن من عظم جسمه وحسن خلقه ، وقل عمله ، وعدم استعمال عقله ، وعزب فهمه كان في المعنى كالخشبة العظيمة ، التي تعجب من نظر إليها ، طولها وعرضها ، فهي لاتنفع نفسها في شيء من حالها ، فكذلك هؤلاء المنافقون إذ عظمت أجسامهم ، وحسنت صورهم ، وعدموا استعمال عقولهم ، بالإعراض عن أمر ربهم ، حتى نزل بهم خذلانه ، وأحاط بهم انتقامه ، ورانت المعاصي على قلوبهم ، فصاروا في قلة النظر لأنفسهم ، والإعتبار بآيات خالقهم كالخشب المسندة ، التي لاتنفع أنفسها ، ولاتعتبر بشيء من أمر خالقها ، واستوى عندهم الحق والباطل ، كما استوى عند الخشب المسندة ، فكل لايفهم رشده ، ولايميز أمره ، فبعدا لأصحاب السعير .

ثم أخبر سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله بما يلقون من الفزع من الحق وأهله ومايخشون من سطواته على عدوه فقال سبحانه : ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ معنى ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ هو : يظنون أن كل دعوة دعوتها ، أو وثبة وثبتها ، ونهضة نهضتها أنها عليهم وإليهم وأنك تريد بهم بها وتقصدهم ، وأنك لاتريد غيرهم ، ولاتفعل ذلك إلا للبطش بهم . والصيحة فمعناها : الوثبة والنهضة ، ودعاء الرعية ، وجمع الرجال ، فكانوا كلما تحرك رسول الله صلى الله عليه وآله للمواثبة عدو توهموا أنه يقصدهم ، وأنه بذلك يريد بهم دون عدو من غيرهم ، وذلك لما في قلوبهم من الريبة والبلاء ، والكفر بالله العلي الأعلى ، والمعاداة لرسوله المصطفى ، فأعلمه الله بذلك من أمرهم ، وأطلعه بما أخبره به سبحانه عن سوء ضميرهم .

ثم قال سبحانه : ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ ومعنى ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي أولئك الذين يفعلون هذا هم أعداؤك حقا ، وحربك دون غيرهم صدقا ، والعدو : فهو المحارب والمبغض والمناصب ، والمدغل : المداخل لرسول الله صلى الله عليه وآله بنوع من أنواع الفساد كائن من كان . معنى ﴿فاحذرهم﴾ أي : اتق شرهم ومكرهم ، وكن على حذر ، ولاتأمنهم في شيء من أمرك ، ولاتثق بهم في سبب من أسبابك ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾ معناها : لعنهم الله ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ معنى ﴿أَنَّى﴾ هو : كيف يؤفكون ومعنى

﴿يُؤْفَكُونَ﴾ فهو : يعرضون ، ويتزكون سبيل رشدهم ، وقد يرون الحق في ذلك باديا لهم ، ويؤفكون هاهنا فليست في معنى يكذبون ، وإنما هي في معنى يعرضون ويفرطون ، ويتزكون ، ويقصرون ، وليست من جنس قوله سبحانه : ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾^(١) لأن الأفاك هاهنا : هو الكذاب ، وإنما ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ في هذه السورة في معنى قوله سبحانه : ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مِنْ أُفْكَ﴾^(٢) معناها : يُسألُ عنه من فرط وقصر في يوم الجزاء بمن قصر ويعرض في ذلك اليوم عمن أعرض في الدنيا كما دعي إليه من الهدى فأفك في قبول الهدى ، وفي تعلقه بضده من الردى ، وسلوكه في طريق الخيرة والعمى .

ثم أخبر سبحانه بعتوهم واستكبارهم وإعراضهم عن الله سبحانه ، وإدبارهم فقال سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ معنى قوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ هو : متى قيل لهم : ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ﴾ معنى ﴿تَعَالَوْا﴾ هو : اتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله واسألوه يستغفر لكم ربكم ، ومعنى ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فهو : يسأل الله المغفرة لكم ، والتوبة عليكم ﴿لَوُوا رُؤُوسَهُمْ﴾ هو : أعرضوا عن الحق ، وهو شيء يفعلُه الكاره للشيء إذا دعي إليه لوى رأسه في شق ، وأعرض اعراضا عن المكلم له ، بما لا يهوى ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يقول : أبصرتهم يعرضون عن الحق اعراضا ، ويعندون عن الله عنودا ، ويصدون وهم مستكبرون ، ومعنى ﴿مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي : متجبرون لا يعرفون الله ، ولا يهتدون ، ولا له سبحانه يتذللون .

ثم أخبر سبحانه نبيته بأنه لن يغفر لثلهم ، ممن كان مصرا على مثل ما هم عليه مصرون ، من الكفر والفجور والفسق ، وارتكاب الشرور ، فقال سبحانه : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ معنى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ فهو : سواء عندهم لفسقهم ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إذ هم بك مكذبون ، وعلى الله محترون ، فهم لا يوقنون بك ، فيطلبوا

(١) - الجاثية : ٧

(٢) - الذاريات : ٩

استغفارك ولا يصدقونك فيتبعوا دينك ، وقد يكون معنى ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ : أن يكون الله تبارك وتعالى أخير نبيته صلى الله عليه وآله أنه لن يقبل استغفاره لهم لو استغفر ، إذ هم مصررون على كبائر عصيانه ، والتكذيب بآياته وقرآنه ، فأخير أن استغفاره لمن كان ضميره كذلك ، وإمساكه عن الاستغفار لهم سواء ؛ لأن الله سبحانه لا يغفر إلا لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ، فأما من لم يتب ، وكان ضميره فاسدا فلن يغفر له سبحانه أبدا .

ومعنى ﴿استغفرت لهم﴾ فهو : سألت الله المغفرة لهم ﴿أم لم تستغفر لهم﴾ يقول : أم لم تسأل المغفرة لهم ﴿لن يغفر الله لهم﴾ يقول : لن يتوب الله عليهم ، ولن يغفر عنهم ، ولن يغفر أبدا لهم ، ألا تسمع كيف يقول : ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يقول : لا يسدد ولا يوفق ولا يغفر ولا يرشد القوم الفاسقين ، والفاسقون : فهم الفسقة في الدين ، والفسق في الدين : فهو التكذيب بالحق المبين ، والعنود عن شرائع الدين ، وفيما قلنا به من ذلك ما يقول الله : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (١) .

ثم أخبر سبحانه بما يقولون ، ويلفظون ، وبه في أنديةهم يأتمرون فقال : ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ فهذا قول عبدا لله بن أبي وأصحابه المنافقين فأخير أن هؤلاء الذين لا يقبل استغفار الرسول لهم ؛ لما قد علم الله من سوء ضميرهم ﴿الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله﴾ ومعنى ﴿لا تنفقوا﴾ يقول : لا تعينوا ولا تتواسوا من عند رسول الله من المهاجرين الواردين من آفاق الأرض عليه ﴿حتى ينفضوا﴾ يقول : حتى يذهبوا ويفترقوا إذا مسهم الضر ، وناهم البلاء ، فأخير سبحانه أن له خزائن السموات والأرض ، وخزائنها فمعناها : ملكها ، وملك جميع ما فيها من الأرزاق في جميع الآفاق ، وأنه يرزق من يشاء بغير حساب ، وأن لن يضيع

المؤمنين إذا أخلصوا نياتهم ، وصبروا على أمره في جميع أسبابهم ، وأنه سيأتيهم برزقهم من حيث لا يحتسبون ، ويأتيهم بمحبوبهم من حيث لا يرجون ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ يخبر أن المنافقين لا يعلمون ذلك ، ولا يوقنون به ، ولا يتوهمون أن رزق أصحاب محمد عليه السلام إلا منهم لامن عند ربهم ، بل الله سبحانه هو الرزاق للصنفين المؤمنين والمنافقين ، نعمة منه على من آمن به ، وإكمالاً للحجة على من كفر به .

ألا تسمع كيف يحكي قولهم حين يقول : ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ فهذا قول من عبد الله بن أبي وأصحابه - لعنهم الله - معنى ﴿لئن رجعنا إلى المدينة﴾ يقولون : لئن قدمناها ، وصرنا إليها ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ كأنهم لعنهم الله يعرضون بأنهم هم الأعزون ، وأن أصحاب رسول الله هم الأذلون ، وقد كذبوا - عليهم لعنة الله - بل هم الأذلون ، وأصحاب رسول الله هم الأعزون ، ومعنى قولهم : ﴿ليخرجن﴾ فهو : ليطرذن ، ولينحين منها ، وليخرجن عنها ، ألا تسمع كيف قال الله في أكذابهم ، ودفع قولهم ، وإبطال لفظهم ، وإثبات العزة له ولرسوله وللمؤمنين فقال سبحانه : ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ والعزة : فهي القوة والقدرة والبطش ، ونفاذ الأمر والنهي ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ معنى ﴿ولكن﴾ هو : معنى التكذيب لقولهم ، وإثبات الكذب عليهم ، وهي كلمة تستعملها العرب في مثل هذا تردُّ بها كذب الكاذب ، وباطل المبطل ، وتوجب الجهل عليه في قوله ﴿المنافقين﴾ فهم : أهل الكذب والنفاق ، وقول المحال والشقاق ﴿لا يعلمون﴾ يقول : لا يفقهون ، ولا يدرون ما يأتون ويدرون .

ثم أمر سبحانه المؤمنين بما فيه نجاتهم ، والبعد لهم من شبه غيرهم ممن ينسب إلى النفاق والكفر فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ فمعنى ﴿يا أيها﴾ فهو : يا هؤلاء الذين آمنوا ، فمعنى ﴿آمنوا﴾ فهو : صدقوا وأيقنوا ﴿لا تلهكم أموالكم﴾ يقول : لا تشغلكم أموالكم ﴿وأولادكم عن ذكر الله﴾ والأموال : فهي الأموال المعروفة التي

يستغنى بمعرفتها عن شرحها من الذهب والفضة ، والحرث والأنهار والأشجار والثمار والأنعام ، التي تشغل الفاسقين عن الله ، وتلهي المنافقين عن ذكر الله وتمنعهم محبتها والإشتغال بها عن طاعة الله ، والأولاد : فهم البنون المحبوبون المتزين بهم ، المفتخر بكثرتهم ، الذين يلهون أباهم بالحبة لهم مع الجدة في أموالهم عن ذكر الله سبحانه إذا لم يكونوا مؤمنين ، فأمر سبحانه المؤمنين بالحذر عن الإشتغال عن الله بالأموال والأولاد كما يفعل من لا دين له من العباد .

ومعنى ﴿عن ذكر الله﴾ فهو : عن طاعة الله ، والعمل بمرضاة الله ، ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ ومعنى ﴿أولئك﴾ فهم : الذين يفعلون ذلك فهم الخاسرون .

ثم أمرهم سبحانه بالإتفاق في سبيله فقال : ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾ ومعنى ﴿وأنفقوا﴾ يريد : أخرجوا واعطوا في سبيل الله مما رزقناكم معنى ﴿رزقناكم﴾ : أعطيناكم ووهبناكم ، وفتحنا من أرزاقنا عليكم ﴿من قبل أن يأتي﴾ معناها : من قبل أن يرد على أحدكم الموت ، وينزل به ، ويأخذه ، والموت : فهو الفناء والزوال ، و ﴿أحدكم﴾ فهو : واحد منكم بعد واحد ، وواحد بعد واحد ﴿فيقول رب لولا أخرتني﴾ معناه : فهو يتكلم ويتمنى ويطلب ويشاء ، ومعنى ﴿رب لولا أخرتني﴾ فهو : يارب لو أخرتني إلى أجل قريب ، فأدخل لا استحسنانا لها في الكلام وهو لا يريد لها ، وليس لها هنا أصل ، وقد تقدم شرح مثل هذا في كتابنا ﴿أخرتني﴾ يقول : أبقيتني ودفعت الموت عني ﴿إلى أجل قريب﴾ يريد : إلى أمد قريب ، ووقت دان ، تزيدنيه من هذا الوقت الذي نزل بي الموت فيه ، فأكون من بعده مؤخرا ، ويكون الموت عني مردودا أياما يسيرة ﴿فأصدق وأكن من الصالحين﴾ يقول : أخرج الآن عند تصديقي لما عاينت من صدق وعدك ووعدك ما كنت ضانا به من مالي ، وبخيلا به من موجودي ، وأصدق به ، وأخرج مفروض زكاته ، وأنفقه في سبيلك ، وأتقرب به إليك ، حتى أكون بذلك عندك من الصالحين ، وبما فعلت من ذلك من المؤمنين .

ثم أخبر سبحانه: ﴿ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون﴾ ومعنى قوله: ﴿ولن﴾ هو: إخبار بأنه لا يفعل، وهي في معنى لا، فأراد لا يؤخر الله نفسا، ومعنى ﴿يؤخر﴾ فهو: يملئ بعد الفناء، ويعمر ﴿نفسا﴾ فهو: إنسانا وروحا وشخصا، حتى ﴿إذا جاء﴾ ومعنى ﴿إذا جاء﴾ فهو: حل ودنا، وأجلها: فهو موتها، وفناء مدتها التي أجلت لها، وجعلت حية إلى بلوغها، وهو المدة التي جعلها الله لها عمرا من الأيام والليالي الخاليات، والأوقات والساعات الفانيات، التي بانقضائها ينقضي الأجل، وبكاملها ينقطع الأمل ﴿والله خير بما تعملون﴾ فمعنى ﴿خير﴾ فهو: عليم محيط بحافظ غير ناس، لا يعزب عنه شيء من الأشياء، قاصيا كان في الأرض أودانيا، فعلمه بكل شيء محيط ﴿بما تعملون﴾ يقول: بما يفعلون ويصنعون.

قال يحيى بن الحسين رحمه الله عليه ورضوانه وضاعف له أجره وإحسانه: تالله ما رأيت أشبه بالذين ذكرهم الله وقص خيرهم في هذه السورة من المنافقين، من أهل دهرنا، وسكان دارنا، هؤلاء الذين نحن معهم في نفاقهم وقبيح أفعالهم، وسوء صنيعهم، وقلة شكرهم، وكثرة كفرهم، وميلهم إلى الدنيا الغارة لمن كان قبلهم المهلكة إلى من ركن إليها من نظرائهم، فنحن من نفاقهم في أمور كقطع الليل المظلم الهاطل الخندس المدلم، لاهمة له في الحق ولايقين، ولارغبة لهم في معرفة شرائع الدين همج أتباع كل ناعق، أعوان وعضد كل منافق، إن قالوا كذبوا، وإن أوعدوا أخلفوا، وإن عاهدوا نقضوا، ييغون المسلمين الغوائل، ويؤلبون على الحق القبائل لافي ثواب الله يرغبون، ولامن عقابه يخافون، ولامنه سبحانه يستحيون.

انتهى تفسير الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام إلى آخر هذه السورة كما ترى.

قال أحمد بن موسى الطبري: كنت أعلم له إلى سورة الصف بطبرستان، فلم أجد هاهنا غير الذي نسخته إلى سورة المنافقين، فافهمه إن شاء الله.

[قال جامع هذا التفسير]

وبعد هذا إن شاء الله تعالى فلنبداً فيما وعدنا بجمعه مما وجدنا متفرقا من تفسير
أئمتنا عليهم السلام وغيرهم ، حسبما قدمنا ذكره ، ونبدأ بعون الله عزوجل من
أول سورة الجمعة ، من حيث انتهى إليه تفسير الهادي إلى الحق عليه السلام اقتفاء
على آثارهم ، وسلوكا إن شاء الله في سبيلهم ، وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت
وهي حسبي ونعم الوكيل ، فنقول وبالله نستعين :

**يتلوه إنشاء الله الجزء الثاني
وأوله تفسير سورة الجمعة**

الفهرس

١	مقدمة الطبع
٤	التعريف بالكتاب
٥	رحلتي مع الكتاب
٦	جوانب العظمة في هذا الكتاب
٨	ترجمة المؤلف
١٢	ترجمة الامام القاسم بن ابراهيم
١٤	ترجمة الامام محمد بن القاسم
١٤	ترجمة الامام الهادي الى الحق يحيى بن الحسين
١٧	مقدمة جامع الكتاب
٢٠	وجوب اتباع أهل البيت
٢٩	حديث أبي الدرداء في عبادة أمير المؤمنين
٣٠	حديث الإمام الباقر في الإمام علي عليه السلام
٣٣	حديث أنس بن مالك في وصفه أمير المؤمنين
٣٥	معنى قوله تعالى (هو اجتباكم)
٣٨	معنى قوله تعالى ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾
٣٩	جملة احاديث في الفضائل
٤٣	حديث (تفترق أمتي)
٤٥	حديث وفاة رسول الله وتوديعه لفاطمة والحسن والحسين
٤٨	احاديث السفينة
٥٠	حديث الغدير
٥٢	حديث (من سره ان يحيا حياتي)
٥٤	كلام الإمام محمد بن القاسم في (كتابه دعائم الايمان)
٥٦	كتاب وصية رسول الله إلى أهل بيته
٥٧	خطبة أمير المؤمنين الزهراء
٦٢	ابيات لعمر بن العاص في أمير المؤمنين
٦٥	كلام الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزه في مخالفي أهل البيت

٦٧	أبيات للإمام القاسم بن محمد في أهل البيت عليهم السلام
٦٧	كلام الإمام الناصر في وجوب الرجوع إلى أهل البيت في التفسير
٦٩	كيفية ترتيب هذا التفسير وبيان عمل المؤلف
٧٦	كلام شيخ الإسلام أحمد بن سعد الدين المسوري في مخالفي العترة
٨١	مقدمة في ذكر شيء من فضائل القرآن وإعجازه وأقسامه
٩١	فصل في ذكر وجوه اشتمل عليها القرآن الكريم
٩٥	مسائل الشاك
١١٧	المجمل والمفسر
١٢٠	الناسخ والمنسوخ
١٣١	العام والخاص
١٣٣	محذوف الجواب
١٣٤	أنواع الكلم في كتاب الله
١٣٥	مفهوم الخطاب، المجاز، الغامض
١٣٦	القصص والعبر والأمثال
١٣٧	تفسير الإمام القاسم ومقدمة في مدح القرآن
١٤٠	مقدمة لتفسير الإمام القاسم عليه السلام
١٤٣	تفسير سورة الحمد لله رب العالمين
١٤٦	الأحكام في سورة الفاتحة
١٤٦	وجوب الفاتحة والجهر بيسم الله الرحمن الرحيم
١٥٨	بيان السبب في خفاء مذاهب أهل البيت عليهم السلام
١٦٠	معاوية ووضعه للأحاديث
١٦٠	منع عمر بن عبد العزيز لعن أمير المؤمنين علي عليه السلام
١٦٢	قتل أئمة أهل البيت
١٦٤	سبب انتشار علم الفقهاء الأربعة
١٦٦	الجهر بالبسملة في جميع الصلوات
١٧١	مخالفة بعض الصحابة لأوامر النبي صلى الله عليه وآله
١٧٢	عودة إلى تفسير الإمام القاسم بن محمد عليه السلام
١٧٣	عودة إلى تفسير الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام
١٧٤	تفسير سورة (الناس)
١٧٥	تفسير سورة (الفلق)
١٧٨	تفسير سورة (الصمد)

١٧٩	تفسير سورة (تبت يدا ابي لهب وتب)
١٨٠	تفسير سورة (إذا جاء نصر الله والفتح)
١٨١	تفسير سورة (الكافرون)
١٨٢	تفسير سورة (الكوثر)
١٨٤	تفسير سورة (ارأيت الذي يكذب بالدين)
١٨٥	تفسير سورة (إيلاف قريش)
١٨٧	تفسير سورة (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)
١٨٨	تفسير سورة (ويل لكل همزة لمزة)
١٩١	تفسير سورة (والعصر إن الإنسان لفي خسر)
١٩٢	تفسير سورة (الهالك التكاثر)
١٩٢	تفسير سورة (القارعة)
١٩٤	تفسير سورة (العاديات)
١٩٥	تفسير سورة (إذا زلزلت الأرض زلزالها)
١٩٧	تفسير سورة (لم يكن)
٢٠١	تفسير سورة (إنا أنزلناه في ليلة القدر)
٢٠٥	تفسير سورة (اقرأ باسم ربك الذي خلق)
٢٠٩	تفسير سورة (التين)
٢١١	تفسير سورة (ألم نشرح)
٢١٣	تفسير سورة (الضحى)
٢١٥	تفسير سورة (الليل)
٢١٧	تفسير سورة (والشمس وضحاها)
٢٢٣	مقدمة تفسير الإمام محمد بن القاسم بن ابراهيم
٢٢٣	وجوب عرض الأحاديث على كتاب الله
٢٢٥	تفسير سورة (لا أقسم بهذا البلد)
٢٣٠	تفسير سورة (والفجر وليال عشر)
٢٣٣	الأهرام وصفتها
٢٣٦	معنى مجيء الله وإتيانه
٢٣٩	تفسير سورة (هل أتاك حديث الغاشية)
٢٤٤	تفسير سورة (سبح اسم ربك الأعلى)
٢٤٦	تفسير سورة (والسما والطارق)
٢٤٩	تفسير سورة (والسما ذات البروج)

٢٥٢	تفسير سورة (إذا السماء انشقت)
٢٥٥	تفسير سورة (ويل للمطففين)
٢٥٩	تفسير سورة (إذا السماء انفطرت)
٢٦٣	تفسير سورة (إذا الشمس كورت)
٢٦٧	تفسير سورة (عيس)
٢٦٩	تفسير سورة (النازعات)
٢٧٠	تفسير سورة (عيس) للإمام القاسم بن ابراهيم
٢٧٥	تفسير سورة (النازعات) للإمام القاسم بن ابراهيم
٢٧٦	تفسير الإمام الحسين القاسم لبقية سورة النازعات
٢٨١	بعض ما ورد في الإمام الهادي عليه السلام
٢٨٣	مقدمة الإمام الهادي في تفسيره
٢٨٧	تفسير سورة (عم يتسألون)
٣٠٤	تفسير سورة (المرسلات)
٣١٣	تفسير سورة (هل أتى على الإنسان)
٣٢٥	تفسير سورة (القيامة)
٢٣٥	تفسير سورة (المدثر)
٣٤٢	معنى الإضلال من الله والهداية
٣٤٧	تفسير سورة (المزمل)
٣٥٦	تفسير سورة (قل أوحى)
٣٦٧	تفسير سورة (نوح)
٣٧٧	تفسير سورة (سأل سائل)
٣٨٦	تفسير سورة (الحاقة)
٣٩٠	معنى العرش وحمل الملائكة له
٤٠٠	تفسير سورة (ن)
٤٠٦	قصة قريش وقتلهم في بدر
٤١٨	تفسير سورة (تبارك)
٤٣١	تفسير سورة (التحریم)
٤٤٢	تفسير سورة (الطلاق)
٤٥٣	تفسير سورة (التغابن)
٤٦٠	معاني المصائب النازلة بالخلق
٤٦٦	تفسير سورة (المنافقين)